الأعمال الكاملة

خيري شلبي

الجزء الأول

• السنيورة • الأوباش • الوتد

• فرعان من الصبار • العراوى



الأعمال الكاملة

خيرى شلبى

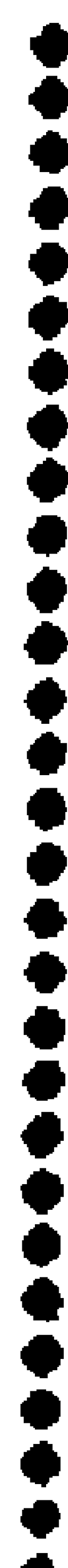
الجزء الأول

- السنيورة
- الأوباش
- الوتد
- فرعان من الصبار
- العراوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣



السنيورة

وقصص أخرى



إهــداء

الى ولدى الحبيب « زين العابدين » ..

كان صراخك فى المهد يكاد يمنعنى من اتمام هذه القصـــــة .

خيرى

● الفصل الأول ●

الولد « مختار » يحكى
لرفاقه فى الكتاب ..
عن يوم مرواحه الترحيلة

.. وعاد أبى من الجامع . جلس بجانبنا حول الطبلية وأخذ يحـــرك شفتيه ويبسبس ويكشر وجهه لسبب لا ندريه والمسبحة تتدلى من يده ، طويلة تمتد بجانبه وتختفى بين ثيابه . أنا وأخوتى وأمى ننتظره من صفار الشمس لكى نتعشى . فنحن لا نأكل اللحم الا فى هذه الليلة المفترجة .. ليلة الموسم .. طوى المسبحة فجأة وكورها ودسها فى جيبه ، وزغدنى بكوعه لأبتعد قليلا ، وزغد أخى طلبة ليوسع ثم انزاح نحو الطبلية ثم أخذ يبرطم ، وأخذنا ننظر الى بعضنا فى خوف . نظر أخى الصغير الى أبى وبكى ولما سـأله أبى قال اننى أخذت الملعقــة الكبيرة فنظر أبى الى بغيظ وهنا صاحت أختى « وسيلة » قائلة ان الملاعق الخشب أحسن من هذه الملعقـــة فبكيت ، وقال أبى انها لا تفهم فهذه الملعقة هى الدليل القاطع على

أننا من أسرة طيبة ، حيث أن جدى ورثها عن جده الكبير ٠٠ فراح أخوتى يبحلقون فى هذه الملعقة كأنهم يرونها لأول مرة ، ورحت انا أنظر الى يدها الكبيرة المزوقة وفتحتها الكبيرة التى تصيب قدرا من المرق ٠٠ أما أبى فقد شوح بيده وقال لأمى :

ـ أنا يا وليه قلت لك ألف مرة شيلى الملعقة فى الصندوق والا ضاعت ٠

وقلت لأبى وأنا فرحان أننى جمعت الملاعق من تحت السلم ومن القاعة الجوانية ٠ وقال أخى طلبة « وهو يشوح بملعقته الخشبية فى وجه أبى ٠٠ أنا قمت بتكسير العيش فى الانجر » ٠٠ وهنا ضحك أبى ٠ أمى بدأت الغرف ٠ راح جسدها يهتز وهى تغرق العيش بالمرق ، وتضغط عليه بظهر الملعقة ٠ ثم انها قلبت فوقه براما كاملا من الأرز ثم رفعت الحلة بين يديها وأفرغت المرق فى السلطانية ٠ رحت أنا وأخوتى نتابع المرق وهو يسيل ويكشف عن قطع اللحم فى قاع الحلة الكبيرة وقد أخذ الدخان الحلو يتصاعد منها ٠ فجأة أخذ أبى يلم جلبابه ويتبرأ من لمسنا حتى لا نوسخ الجلباب أو ننجسه ٠٠ وانزاح اخوتى كلهم ، أما أنا فلم أفعل لأن أبى يفعل ذلك كلما لبس الجلباب نظيفا كما وأنه يجلس الآن فوق خراء البط أو الفراخ ٠ شمر ذراعه الطويلة وراح يشرب المرق بسرعة ٠ أما نحن فأخذنا نقلب الفته وننفخ فيها لتبرد ـ وبدأت أمى فى تفريق الأنصبة ٠ وقال أبى بصوت عال ان من يأكل ما نابه بسرعة قبل أن ينتهى أخوته فليس له شىء آخر ، ومن يطمع فى نصيب أحد اخوته أو لا يعجبه التفريق أو حتى يلوى بوزه فسيبيت الليلة فى نكد وربما يبيتها خارج الدار لكننا أخذنا نأكل ولا أحد يرفع رأسه ٠ وقالت أمى :

ـ اسمعوا ؟ ..

توقفت الملاعق فى الهواء . جاء صوت الشيخ فرحات الأعمى ـ المنادى ـ بصوته المشروخ الذى يقول أبى أنه انشرخ من كثرة ما نادى على كل شيء . اقترب صوته :

ـ يا أنفار يا شغيلة .. بشرى لكم فى ذى الليلة المفترجة .. فيه شغل بكرة فى الوسية ـ اليومية ستة ساغ ـ القبض والاتفاق مع المقاول الشيخ على منصور .. ياللا يا أنفار شدوا حيلكم واتوكلوا على الواحد الرزاق .

وابتعد صوته واختفى فى الحارة المجاورة . لا أدرى لماذا هدأت سرعة الملاعق . لا أدرى أيضا لماذا بدأ أبى وأمى وأختى وسيلة يظهر عليهم الشبع . وقال أبى :

ـ هيه .. ستة قروش فى اليوم .

وقالت أمى :

ـ يلزمنا خمس كيلات من القمح وثلاث من الذرة .

وقال أبى :

ـ أهم حاجة اليوم هى عرق الخشب .

ـ عرق الخشب ؟

هكذا صحنا جميعا .. فقال مشيرا الى السقف :

ـ نصلب عليه سقف القاعة قبل حلول الشتاء .

وردت أمى وهى تمسح شفتيها بكمها وتتراجع بعيدا عن الطبلية :

ـ متى تذهب الى الحكيم ؟

شوح بذراعه وابتعد عن الطبلية :

ـ لا حكيم ولا زفت

ـ يا راجل ·· انك تتبول دما ·· وتكح حتى تقطع النفس ·

مسح يديه فى جرف الطبلية · وأخرج علبته الصفيح وراح يلف سيجارة · وكان ينظـــر الى من تحت لتحت نظرات طويلة حيرتنى · وحينما أتوقف عن الأكل ناظرا اليـه يحول نظرته الى أختى وسيلة ، والى أمى ، ثم ينفخ الدخان ·

طلب أبى عدة الشاى والمنقد ، وأرسل أخى طلبة الى دكان النجار ليشترى له شايا وسكرا على الحساب ، بقرش تعريفـــة ، ونصف ربع أوقية دخان ·· وقال : سوف يعطيك فلابد أنه سمع الشيخ فرحـــات ينادى على الشغل فى الوســيه · وذهبت أختى وسيلة الى محمـــد بتـــاع الغوايش تنتقى لها منديلا من الحبر ، وغمزتنى أمى ببيضـــة أشترى بهـا حلاوة طحنية ـ وعند باب الحارة وجدت عمى « درويش » فعرفت أنه فى هذه الليلة سيتركنا نلعب الكرة المضرب تحت شباك المندرة ·

مثل ليلة العيد ، وليالى رمضان ، والليالى التى يختنق فيها القمر ، امتلأت الحوارى والأجران بالناس · وازدحم دكان النجار ·· وكان الرجال يلتمون حول أنفســـهم ويتحدثون بصوت عال ويضحكون ورجل يشتم آخـر ويهدده بضرب الفأس فيقول له : « الله يسامحك » ويمشى بجواره · وامرأة تخبط على باب وتسأل عن قطعة خميرة كنت أسير بجانب أبى ممسكا بذيل جلبـابه ·· دخلنا حارة العصاروة ومررنا بالزاوية وصلى أبى صلاة العشاء ·· وحين خرجنا وبدأنا نسير فى حارة الجرانه انضم الينـــا رجال كثيرون ، وراح أبى يلت ويعجن بكلام فارغ لا أفهمه ·

انهالت عصا الخفراء فوقنا ، ولم تكف عن ضربنا حتى فعلنا ما يأمروننا به وجلسنا متقرفصين · وجاء « متولى العبد » ـ وهو

من صبيان الشيخ على ـ ممسكا بالدفتر والقلم الكوبيا نهض أبى واقفـــا :

ـ كام يوم يا أبو خليفة ؟

ـ الموسم كله يا متولى أفندى ٠

ـ وحـــدك ؟

ـ أربع أنفــــار ٠

تراقص القلم الكوبيا فوق الدفتر ٠٠

ـ خمسين صاغ تحت الحساب ٠

كانت ورقة جديدة لها خرخشة مفرحة ٠ أخذها أبى ولفهــا فى منديله المحلاوة وراح يعقد المنديل عقـــدة فوق عقدة ثم دسها فى جيب الصديرى ، وقال : « ياللا بينا يا ولد » فتعلقت بذيل جلبابه ومشينا ٠ وسألته :

ـ أبى ٠٠ من الذى سيروح معك الترحيلة ؟

ـ أنا ٠ وأختك وسيله ٠ وأنت ٠ وأخيك طلبه

ـ أنـــا ؟

ـ ايه ٠٠ ألست رجلا ؟

ـ لكننى أروح الكتاب ٠٠ وأحفظ القــرآن ٠٠ وأتعلم فك الخط ٠

ـ لابد أن تتعلم فك الفلوس ، وحفظها أيضا ٠

فلم أجد كلاما أقوله ٠

وضع يده على كتفى فى حنان كبير وهو يدفعنى لندخل حارتنا ٠٠ وعند هبوطنا عتبة الدار شدد قبضته على يدى بخوف ٠ وحينما

صرنا فى الدهليز صـــاح « يابت » خرجت أمى من القاعة تحمل اللمبة الفتيل · وصاح أبى وهو يدخل القاعة :

ـ الخبيز بكرة ·· والسفر بعده ·

على وجه أمى فرحة · ولكنها حين جلست معنا صارت حزينة ووجهها متغير · قلت لنفسى : لابـــد أنها حزينـــة من أجل أن أبى سيغيب فى الترحيلة ، انها دائما تحزن هكذا فى كل مرة يرحل فيها · كثيرا ما سألتها عنه وهو غائب ، لكنها كانت تظل طول الليل تسلينا بالغنـــاء مع أن غناءها كان يجعلنى أبكى ، وحينئذ كانت تضمنى الى صدرها وتظل تضحك وتنظر فى عينى حتى أسلم أمرى لله وأضحك ، وأحسست أننى فرحان بالترحيلة وقلت لأبى :

ـ هل سنرى بلادا كثيرة يا أبى !

فصب الشاى فى الكوب الصاج ثم أعاده الى البراض ، ثم رفع البراض مرة أخرى وصب الشاى وكان صوت انصبابه فى الكوب أحلى صوت · شفط أبى فارتفعت جبهته كلها ثم هبطت بينما يقول « ·· ح ·· ح » ، ولم يقل لى هل سنرى بلادا كثيرة أم لا · فزحفت حتى التصقت بأمى وقلت لها أننى ســـــأروح الترحيلة وسأشترى لنفسى حذاء وشرابا · قال أبى وهو يبتســـــم ويدلق بقايا الشاى فى المنقد :

ـ تفرح كأنك ذاهب تعمل سائسا لبغلة المتفتيش :

انتفضت أمى وضربت صدرها وشهقت :

ـ الشر بره وبعيد ·· الشر بره وبعيـــد ·· يا شيخ حـــرام عليك ·

ثم خبأتنى فى صدرها · النمل الذى فى الدنيا كلها يزحف تحت ملابسى · رفعت رأسى وقلت لأمى ·

ـ أمي .. هل .. هل بغلة التفتيش هذه مثل كل البغال ؟

قهقه أبي وقال :

ـ لا .. هي بغلة مثل كل الناس في بلدنا .

ثم ضحك ثانية . وظل يضحك حتى صارت جبهته مثل حزمة من السحالى . وتضايقت أمي وطلبت أن نفض هذه السيرة .. ومدد أبي ركبتيه وطرقعهما وقال :

ـ ياه .. حوشي حوشي .. أحسن خلاص حياخدوه .. قال يخت .

ثم وضع احدى الركبتين في حجرها والأخرى في حجرى ، فعرفت أننا يجب أن ندعك رجليه نضغط في الدعك عند خنقه القدم . قرصته أمي في قدمه وقالت :

ـ أليس حراما ؟ تريد أن يؤخذ الولد غدرا ؟

قال مثلما يصلي :

ـ هل ساعيش وأراه في هذه الأمله ؟ .. يوم المنى عندى يوم أراهم ينتقونه من وسط البلد كلها .. ويأخذوه في زفه .

ـ يأخذونه ليتزوج ؟

ـ فعلا يا بني .. هو بالحق يتزوج .. يتزوج البغله .

ـ والبغله هل تتزوج ؟

ـ قل له يا ولدى .. قل له .

هكذا قالت أمي . وقال أبي :

ـ من يطلع من البلد ينفتح له باب السعد .. ياسلام ..

انظرى الى هذا الاسم .. سايس .. لبغلة . التفتيش . سبحان العاطى .

انبسط وجه أمى وظهرت عليه الفرحة .. غير أنهـا تنهدت بحرقة ، واحتضنتنى . قلت :

ـ أمى .. احب أن أكون سائسا لبغلة التفتيش

شهقت أمى وقرصتنى فى خدى وقالت : « الحق مش عليك » . آلمتنى القرصة فبكيت فربتت على ظهرى لتسكتنى ، وأحسست لحظتها أننى يجب أن أفعل أشياء كثيرة ، أن يطلع الصباح فلا يجدوننى ، أرحل وحدى ، أظل أمشى وأمشى حتى أصل الى الحظيرة التى تنام فيها بغلة التفتيش هذه وأرى شكلها فقط ، وأعرف : لماذا يفرح الرجال بالقدوم اليها ، وتحزن النساء ؟ .. قال أبى :

لماذا تضربينه يا أمرأة ؟ .. ذراعك متبرى منك ؟

فبكيت بصوت عال . وقالت أمى :

ـ ان شاء الله يخيب أمله .. بشرت عليه بالبغلة ؟ .. ان شاء الله سيطير من يدينا .. سنفقده كما فقدت البلد كل الذين أخذوهم لهذه الملعونة ..

ـ أنت عدوك أهبل ؟ .. طب .. قولى ياليت .. يكفى أن نسمع به وبحسه فى البلاد ..

ـ وان جاءك زكيبة عائمة فى المصرف كما يعودون .. تنفعنا بسلامتك ؟ على أن أبى تثاءب ، وتمدد فوق الحصيرة ، وسحب المخدة تحت رأسه .. ونهضت أمى فامسكت اللمبة وأغمضت عين الضوء وقالت :

ـ قم يا مختار لتتعشى .

وأحسست كأنني أريد أن أطير في الهواء ..

قالت أختي « وسيلة » بغيظ « نم يا أخي » وجذبتني اليها ثم قالت بعد برهة :

ـ أنت يا ولد .. ألا تأكل ؟ .. انك جلد على عظم .. بالله كيف تذهب الى الترحيلة ؟

قلت لها انني أستطيع أن أشتغل مثلهم ، أعرف نقاوة اللطع من شجرات القطن الخضراء : أقلب الشجرة ذات اليمين مرة ، وذات الشمال أخرى ، فان لمحت اللطعة قطفتها بورقتها ووضعتها في الكيس المعلق في رقبتي .. فصاحت أختي في خوف وهي تشهق لا يا عبيط .. احذر أن تقطع الورقة كلها والا قطع الخولى رقبتك اقطع على قد اللطعة فقط ثم قالت بعد برهة وماذا تعرف غير نقاوة اللطع ؟ « قلت أعرف جمع القطن أيضا .. أمد يدى وأقطف اللوزة المتفتحة ثم أضعها في عبى . هنا ضحكت «وسيلة» ولا أعرف كيف نامت في الحال ، وكنت أريد أن أتكلم حتى يطلع الصباح ولكن « وسيلة » غطت وجهها بيديها وصمتت ، فخيل الى أن الدنيا كلها ماتت .. وكان نور اللمبة نمرة خمسة يتشعلق على الجدران السوداء فخفت وجلست ، جدتي ـ أم أبى ـ تنام فوق قبة الفرن .. والفرن في نهاية المصطبة والمصطبة كبيرة وتشغل القاعة كلها ، بينها وبين الباب ، وأمام الفرن ، برحاية واسعة تجلس فيها النسوة أمام مرصات العجين يبططن العيش على المطارح ويملأن الدار باللت والعجن كما تقول جدتي . هى لا تحبهم ولا تحب اليوم الذى تدير فيه الفرن من أجل خاطرهن .. أما أنا فأحبهن .. ما أحلاهن وهن يأخذنني في أحضانهن ما أحلا صدورهن العريضة الملآنة وأنا أدفن رأسى فيها .

تقلبت « وسيلة » وانطرحت على ظهرها كالبهيمة الفطيس .. وتثاءبت ونفخت وخيل لى انها تنفخ من بطنها كثيرا من الحسرات التى

تقول أمي دائما أن المسكينة تشربها فى قاع بطنها •• جدتى هى الأخرى تقلبت فوق الفرن وقالت :

ـ أما نمت يا حبة عينى ؟

زدت وسيلة « أبدا يا جدة » قالت جدتى « الهى ينشك فى دراعه » قلت وأنا انتفض « من يا جدة ؟ » قالت « ابن طريقة بائعة الطماطم •• هو خولى فى الوسية ويضرب أختك » • شعر رأسى يقف كالشوك •• جدتى تقول « ماذا يريدها أن تفعل له ؟ هل نسى أن جدها كان يحمل القرآن على صدره ؟ ابن الزانية يتصور ان بنات الناس كلهن مثل أمه وتقلبت وسيلة وقالت :

ـ يتصور أننى منهن •• يريدنى أفعل مثلما يفعلن •• لكن لشر •• اننى لا أعرف مضغ اللبان •• ولا وضع مقصوص الشعر على الحاجب •• ولا زحلقة المنديل •• لا أعـرف الكلام بالعين والحاجب ولا النظرة الساهية •• ولا أدعك كعوب رجـلى بطوبة حمراء ••

قالت جدتى :

ـ لأنهما خمراوان لوحدهما •

ـ النبى أشرف خليقة الله لا أغسل وجهى أبدا •

ـ لكنه يتورد يا ابنتى رغم ذلك ••

ـ لا أقصد حين أمشى أن أهز صدرى •

ـ ليس ذنبك •

ـ لا أقصد والله العظيم ان أكون جميلة •

ـ دعك من هذه الأفكار يا ابنتى ونامى •

وتنهدت وقالت بعد برهة :

ـ لعنة الله على « الغرابوه » ·· البنات الغرابوه » هن السبب فى هذا ·· و ·· و ·· الغربة هى أصل السبب ·

انتقلت الى جوارها · سالتها عن هذه الغربة ، وعن السبب فى أنها تلعنها دائما فقالت :

ـ ربنا لا يكتبها عليك يا ولدى ·· انها تجعل الناس يقولون: البلد التى لا أحد يعرفك فيها ·· امشى عاريا فيها ··

بلعت ريقى · قلت لها :

ـ من هم الذين تسمونهم بالغرابوه ؟

قالت وهى تتحسس رقبتى وتتثاءب :

ـ مقاصيف الرقبة ، الذين تراهم هنا فى بعض الأيام يردمون البرك · انهم والعياذ بالله كالبلاء ·

ـ انما ·· انما يا جدتى ·· من غد سنذهب أنا وأبى الى الترحيلة ·· فهل سنصير نحن الآخرين غرابوه ؟

شهقت جدتى :

ـ لا ·· يا ولدى ·· ان طبعنا يختلف عن طبعهم ·· فنحن نعرف أباءنا وأجدادنا ، وعائلاتنا ·· الأب يحكم الابن حتى فى غيبته ·· الواحد منا لا يأتى الفاحشة لان أباه النائم فى القبر ـ يمنعه ·· و ·· اننا لا يجوز أن نصير « غرابوه » مهما ابتعدنا عن هذه الديار ·· فالأب لا يبارح دماغ الواحد منا أينما ذهب ·· الواحد منا يا ولدى حين يجىء مرة لارتكاب الفاحشة يتذكر أن الألسن ستلعن أباه فلا يرتكبها ·· الأصل يغلب فينا دائما ، حينما تقع فى لحظة ينعدم فيها الأصل ·· والغرابوة أليس لهم أصل مثلنا ؟ ·· مساكين يا ولدى ·· كلهم ولدوا فى بلاد الغربة ··

الغربة حرمتهـــم من كل شيء ٠٠ فهم في الغربة ناس ٠٠ ناس فحسب ٠٠ لا يقيمون حسبـــابا لشيء ســـوى عصـــا الخولى ٠٠ مصيبة هذه العصا يا ولدى انها تعلمك كيف تقول الآه وحدك ٠٠ ان طول الغربة يقتـــل في الناس أصلهـــم وهذا أسوأ شيء ٠٠

وكنت أريد أن أقول كلاما كثيرا ، ولكنني لم أجد ولا كلمة . كما وأني أريد أن أسمع وأسمع وأسمع ٠٠ ولكن جدتى تتثاءب ، وميلت رأسي على وركها ، وأخذت ترقبني فرحت في النوم كعادتي كلما فعلت بي هكذا ٠٠

لم تكن الشمس قد طلعت بعـــد كل ما هنالك ان الفجـــر « بربش » بعينيه فامتلأت شوارع البلد كلها بخلق الله من كل لون رجال ونساء وصبيان وبنات وعجائز كلنا ذاهبون الى « ملم الأنفار » الذى حدده المنادى عند نخل كحكاية ٠٠ النخيـــل يقع في المدخل الشرق للبلد وحينما وصلنا اليه أحسست بالفرح ٠ فقد كنت أفرح كلما وجدت نفسى بجانب النخيل حتى في الأيام التى لا يكون فيها بلح ٠ على أن صوت « كحكاية » حارسة النخيل كان يجعجع كالعادة ولكن ماذا يفعل صوتها في بلد بحالها قيل لها « هنا مكان الانتظار ؟ ٠٠ » ٠

وبدأ الناس يصرخون ٠٠ كان الباشخولى « سيد قاقا » الذى نراه في بلدنا كثيرا يضرب الناس بعصاه العوجاية لأنهم صنف واطى وأولاد كلب لم يقفوا صفا لوحدهم صرنا نتخبط في بعضنا ولم نعرف كيف نقف صفا واحدا ٠٠ وجاء صوت الكارتة ثم ظهرت الكارتة نفسها ثم توقفت خيولها نزل منها رجل طويل يرتدى طربوشـــا وجلبابا من الكشمير وشمسية ٠ ترك الكارتة واقترب منا ٠ عرفته : انه « مصطفى شكرى » كاتب الأنفار أشـــقر الوجه أحمر الخدود والشارب ٠٠ أهل البلد يعرفونه ولهم فيه العشم ٠ فهو ليس مثل الكتاب ٠ كتـــاب الأنفار يجيئون من مكان بعيد ولا تعرف كيف

نكلمهم ، انما هو ابن « شكرى افندى » الرجل السكرة الذى يسكن سراية فى البر الشرقى عند ترعة خلاف ولا تمنعه قبعتــه أو بدلته أو عصاه الأبنوس من القاء السلام على الناس والرد على ســـلامهم بقوله : اتفضل ‥ اتفضل والله » وكل الناس تحبه ولا تؤخر له طلبا . وأنا أيضا أحبه لأنه لا يشخط فينـــا حين نتجمع حــوله لنتفرج على ذلك الذى يغــرزه فى جنب فمه ويصير لا شــغله له ولا مشغلة سوى اشعاله ، وقد سألت أبى ذات يوم ان كان العمدة قد حكم على « شكرى أفندى » بأن يفعل هذا طول النهار والليـل فضحك وقال انه هو الذى حكم على نفسه بذلك ٠ ابنه مصطفى هو الوحيد من لابسى الطرابيش والأحذية الذى لم ننادم بالأفندى ، بل ننطق اسمه هكذا كأنه واحد منا ‥ مصطفى ‥

كنت أحس بالفرح يتنقل من واحد الى واحد من أول ما رأينا مصطفى ‥ ثم اننى سمعت نـاســا يشهقون فنظرت ، فاذا برجل يهبط من الكارتة ، أفندى هو مثل الفلق وفى عرض باب الزريبة يلبس قبعة ويمسك بيده اليمنى كرباجا وباليسرى منشة ذات يد تبرق مثل الذهب وقالوا فى همس خائف « الناظر خفاجة ‥ الناظر خفاجة » ووقع قلبى فى القناة ‥ كانت أختى وسيلة تتحدث فى عز النوم وتصرخ قائلة : « خفاجة ‥ خفاجة » فتنهض جدتى جالسة « مينه لله ‥ ينشك فى دراعه » ثم تردد بعد برهة « يا ترى عامل فيـك ايه يا قلب أمك » ٠ مصطفى شــكرى يمشى ‥ الخولة والباشخولة يجرون اليه يعقد حاجبيه ويكشر ويشير اليهم بالقلم ليقفوا صفا بحذاء النخيل ، جاء السيد قاقا يجرى هو الآخر رافعا ذيل جلبابه ووقف أمام خفاجة محنيا مثل كلب البكاروة حين يكف عن الهوهوة ويهز ذيله أمام أصغر طفل فى البكاروه ٠ وظهر المقاول «على منصور» بكرشه الكبير وخدوده الحمراء وطربوشه وشمسيته ٠ راح يمشى على مهل كالمحمل : نعم ياعم ‥ هو ليس كالأنفار يجرى من الفزع وليس كالباشخولى يطوح ذيله ، كما وأنه هو الآخر يسير

خلفه حفنة من الرجال يسمونهم بالسواقين صنعتهم اللف على دور الأنفار والتبيت عليهم واعطائهم العربون · «على منصور» يسلم على الكاتب ويقف بجواره ··

وأخرج مصطفى دفتره وقلمه الكوبيا · في الحال استدار السواقون وغادروا المقاول ، ثم أخذ كل منهم ينادى على الأنفار الذين اتفق معهم وقبضوا منه العربون ·· تمايل الصف الطويل وراح يتساقط وراح كل سواق يحوط على حفنة من الأنفار ·· تقدمت الحفنة التي أنا فيها مع أبى وأخوتي خلف « متولى العبد » ووقفنا حيثما وقف ثم تراجعنا عنه قليلا ·· وأخذ السواقون يدفعوننا بأذرعهم ويوقفوننا في الصف من جديد ولكن على مزاجهم هذه المرة · بعدها ظللنا واقفين لا نفعل شيئا لا أحد يريد أن ينظر الى جاره فظننت أنهم جميعا يؤدون الصلاة وبعد برهة سيركعون ، وتمنيت أن يعجلوا بالركوع حتى أسند رأسي قليلا على الأرض وأثنى قدمى ·· لكن الصبح لم يعد حنونا كما كان عندما خرجنا من الدار حاملين قفة الزوادة وصرة بها هدومنا وبطانية وجوالين ثم ان الظهيرة جاءت ولم نركع بعد ·· ونشف ريقى ·· وقال أبى دون أن ينظر الى « مالك ياولد ·· بتكمح كده ليه » واذا بى أبكى فقرصنى لأسكت ·· أنا أيضا أردت أن أسكت وما استطعت · فضغط أبى على أنيابه وقال بغيظ « بتبكى ليه يا ابن ديك الكلب » خرج صوتي غصب عنى » « رجلى وجعتني ·· أهيء · ره · رجـ · لى · و ·· » ·

ـ أسكت يا ابن الكلب ·· نهارك أسود ··

وزغدنى بقسوة ، وأخذ يقول في خوف :

ـ ستفضحنا ·· الناظر سيراك ·· سيطوقنا بالكرباج ··

مالت أختى « وسيلة » على أذنى وهمست :

خفاجة موته وسيمه من يتحدث مع الآخر ساعة فرز الأنفار ٠٠ لو شافك سيعدمك العافية ٠٠ هس ٠

واعتدلت في فزع ووقفت مثل عود القصب أما أنا فحركت قدمي الى الوراء فلم أجد أرضا تحتها ٠٠ خفت الوقوع واستندت على كتف أختي ٠ قال أبي يهددني « قف معدولا يا مائع » ٠

البكاء يغلبني : « أنا دخت يا أبي سأقع » أمسكني من يدى وظل يضغط عليها وكذلك فعلت أختي وسيلة وقالت في اذني : « أوقفناك على قالب من الطوب » صحت « سيوقعني ٠٠ سأدفعه » صاحت بخوف « لاء ٠٠ خفاجة سيرجمك ٠٠ سيلاقيك صغيرا وسيرجمك ٠٠ قف كما أنت فوق القالب لتبقي طويلا و ٠٠ » ولم أجدها بجانبي لابد أنكم تعرفون « النجمة أم ديل » تلك النجمة التي ينقطع خيطها من السماء فجأة فتهوى على كتف الأرض البعيدة كشرارة النار ٠٠ هكذا رأيت أختي وسيلة طارت في الهواء صارخة واندلقت على الأرض تعوى مثل الكلب ٠٠ و ٠٠ اختفت الدنيا من وجهي انذب عامود من الحديد الملتهب في عيني وأخذت أدبدب فوق الأرض وأدور بعد أن ضاع قالب الطوب من تحتي كنت أصرخ ، وكانت عيني تتقلب تحت كفي وتصير مثل كتكوت ينقر بمنقاره في دماغي ٠ صاح أبي وهو يشهق باكيا « يا حبيبي يابني ٠٠ طرف الكرباج طير عينيك » هنا كفت وسيلة عن الصراخ ، وراحت تزحف على الأرض وتقول آه ٠٠ ثم وقفت بجانبي تتساقط الآهات من فمها ، وتتحسس عيني بيدها ، وتتحسس جنبها بالأخرى ٠ قفز الباشخولى أمامنا وجعر : « بس » فوقفت الآهة في حلقينا وكنت أرتعش ٠٠ جعر الباشخولي « اقف عدل » فانسلتت يدي من يد أختي ورفعت وجهي عن الأرض لكن جانبا كبيرا من النور أسود في عيني ٠٠ وضعت يدى على عيني أريد أن أسكت الألم ثم ان ظلاما أخذ يقترب ويحيط بنا عرفت فيه الناظر والكاتب

والباشخولى ومتولى العبد وكثير ممن لم أعرفهـــم ·· راح الناظر خفاجة يقف أمام كل واحد ، ويلف حوله وينظر فيه ، ثم أنه أشار الى صبى نحيف وصرخ فيه : « اطلع بره » فمد الولد رجـله ، وارتفع الكرباج وشرخ الهواء ، مثـــل غبيط السّـباخ وقع الولد وانفرط وبعثر الصراخ كالتراب وتكوم حول نفسه ليقف ثانية ، على أن خفاجة قذفه بالشلوت صائحا : « على أمك يا ابن الزانية » واندفعت أيد وأخذت تجر الغبيط على الأرض حتى ألقت به بعيدا · ثم إن خفاجة مسح جبينه بالمنديل وراح ينظر في وجه أبى ويلوى شفتيه ويبرطم قائلا : « جايبينكم منين ·· من القرافة » ثم صاروا أمامى كلهم فكأننى وقعت فى بئر وغطتنى المياه ·· وضحك خفاجة وشخر ورفعت وجهى رأيتهم جميعا يرتعشون ارتعشت أنا الآخر وراح البكاء يهزنى يريد أن يخرج وأنا أسد فمى بيد وأضع الثانية على عينى ·· أما الناظر خفاجة فانه زغد الباشخولى وأشار لى بيد المنشة وقال « أمال ايه ده » · قال الباشخولى بخوف « ما ·· ماذا ؟» صار خفاجة ينقر بيد المنشة فوق دماغى بقسوة « هذا ·· هذا ·· هذا » لوى الباشخولى رقبته فزحف المقاول ووقف أمامنا يبتسم وهز رأسه للناظر مرة وللباشخولى مرة وبعصاه أشار الباشخولى نحوى « أمال ايه ده ياشيخ على » فاقترب المقاول منى كأنه يدوس فوق صدرى وصار يفحصنى ويلوى شفتيه ، ثم رجع برأســـه وصرخ : من الذى دسك هنا يا ولد ·· اطلع بره » صارت الأرض تنقلب يمينا ، وتنقلب شمالا وصرت لا أعرف كيف أصد نفسى عن الصياح والبكاء وعوجت رأسى لأنظر الى أبى فوجدته لا يريد النظر الى ، ومددت يدى لأمسك يد أختى فوجدتها تنزاح عنى ·. فاندفعت أبكى وأقول « تعاليلى يا امه » وصرخ المقاول : « من الذى دسك هنا » ورفع يده ليضربنى ·· هويت الى الأرض صارخا « فى عرضك أنا جئت لأشتغل ·· وهذا الرجل هو أبى ·· هو الذى قبض لى ·· مالى أنا هو الذى قال لى تعالى » ورأيت رقبة أبى تقصر وتغوص

في كتفيه ثم ان المقاول « على منصور » طبق في خناق «متولي العبد» وهزه وصاح « كيف تتقاول مع هذا » وكان خفاجة لا يزال يضحك ويشخر ·· أما الباشخولى فدفع أخي طلبه بعصاه في مؤخرته فانطلق يجري نحو البلد أما أنا فكنت ممدودا على الأرض محوطا بدائرة من الناس ·· زغدني خفاجة ببوز حذائه وصاح : « ياللا يا ولد قم » ·· فقمت واذا بالقلم يلهف صدغي ، فدرت مثـــل الفأر في المصيدة طرف الكرباج يلاحقني ، وما أن وجدت طريقــا بين الواقفين حتى انسللت مرتعــدا وأخذت أجري في الحقول مثــل كلب هارب من السماوى ··

عند بحر السبيل توقفت ·· وجدتني أرتمي فوق كومة من الردم ، النفس يخرج من بطني أحسست بشيء يسيل على فخذي · عرفت أنني قد « فعلتهـــا » على نفسي دون أن أدري و ·· حزنت حزنا شديدا ·· حين تأكدت أن خفاجة ليس يجري ورائي بالكرباج مطرقت على ظهري وأخذ الكتكوت الذي في عيني يتقلب وينقر في قلب دماغي ، ورأيتني أتوكأ على عصـــا مثل الشيخ فرحات والشيخ الكردي وأقرأ القرآن رواتب وحول المقابر وهنا اشتعلت النار في عيني ، وتهيأ لي أنني سأستريح من الألم اذا نفضت رأسي في الأرض حتى تتكسر وتصير مثل الردم · على أنني أمسكتها بيدي ورحت أصرخ وأرفس الأرض وأتمـــرغ ثم أنني أحسست بدماغي ينفلق وتتدافع فيه الرياح ·· وتاه من كل شيء ··

·· أنفاسي ساخنـــة وكريهة · على وجهي حذاء يضغط على صدري ·· أحاول الصياح ولا أستطيع رفع صوتي أو تحريك أي شيء في جثتي · الناظر خفاجة يمسح نعـــل حذائه في صدغي · الخفراء يمسكون أبي ويقيدون أختي ويمنعونهـــا من المجيء الى · في نعل الحذاء مسمار يريد أن ينغرز في صدغي · و ·· وجدت صوتي ·· اذا بي أسمع نفسي اذا بي أصرخ واضعا يدي على عيني ،

اذا كلب كان يلحس فيها وأنا نائم . انتفضت جالســا وقذفت الكلب بطوبة في أذنه واستغربت أن تنغلق لى عين فأرى بعين واحدة كل شيء ، كل ماهنالك أننى لابـد وأن أعوج رأسي الى اليمين كلما أردت النظر .. نحو بحـر السبيل زحفت حتى صرت مختفيـا في البوص المزروع على الشاطىء وفرحت بذلك . فخلعت جلبـــابى وسراولى وغسلتهما في بحر السبيل ، وأيضــا قلدت أمي ودعكت الثوب بين راحتي بشدة ، وعصرتهما ، ونشرتهما فوق أعواد البوص كما وأنني وضعت قدمي في الماء ورأسي بين أعـواد البوص ولكن الشمس لم ترحمنى ، لا الماء يجود ببرودة ولا البوص يترك ظلا . وقلت لنفسي : كان الله في عون الأنفار . هل كان أخي طلبـه سيتحمل هذه النـــار طول النهـار في الترحيلة ؟ والله ماظني . الحمد لله ان خفاجة طرده ، زمانه الآن في الدار يبكى ، وزمانه قال لأمي عما حدث لى . ثم تذكرت الأنفار والملم فوقفت على كومة الردم وعوجت رأسي وبربشت في الشمس .. كان الأنفار مازالوا واقفين في عز اللهب . تذكرت جدتي .. كانت دائما تتحدث عن يوم اسمه يوم المشهد العظيم ، أظنه يحدث يوم تقوم القيامة ، وفيه يخـــرج الناس من قبورهم ويقفون تحت عين الشمس الحارقة في انتظار الشفاعة المحمدية اذ يجيء سيدنا محمد ويقول لربنا « عشان خاطرى يارب .. دعهم يعودوا الى القبور » وبعدها يمشى النــاس فوق حد سيف لا بداية له ولا نهاية فمن كان صالحا مشى في أمان ومن كان فاسقا وقع فابتعلته جهنم الحمراء ..

حوافر تدق الأرض من خلفى .. هبطت بسرعة وداريت نفسي في البوص وأخذت أنظر . ياله من منظر : أحصنة تسير على الطريق الزراعى وفوقها رجال شداد يتقمطون بملابس صفراء سراويلهـم تلتصق بأرجلهم ولا أعرف كيف لبسوها خصوصا وأنها ملتصقة بالأحذية الكبيرة في أقدامهم . هذا واحد يتميز عنهم بشـــارات

حمراء وخضراء ويبدو أنظف منهم ويبدو أيضا أنه ثقيل الدم منظره مخيف فلابد أنه الملك فؤاد الأول تحيا مصر ، وربما يكون صاحب الوسية ان جدتي تقول ان صاحب الوسية محمد علي باشـــا فهل يكون هو ؟ انه يمشي وهم يمشـون خلفه يحرسونه بالغدارات ٠ صار وقع الحوافر يقترب وصار مثل الطبل فى أذني وصار يبتعد من جديد نحو البلد ٠ وقلت ان الأحصنة بمن عليها تقصد الأنفار ولكنهـا تركتهم ودخلت البلد ثم أنني سمعت طبلا حقيقيـا ٠٠ وها هو ذا الريس « حيطاوى » الطبال يقترب بفرقته النافخة فى المزامير البوص قادمين من هناك من أول ترعة المشروع ٠ والأنغام حلوه لكن لا أعـرف لماذا هي تقطع القلب وتجعلنى أهم بالبكاء ٠ صارت فرقة الطبل تزحف الى أن حاذت الأنفار واختلطت بهم وكفت عن الطبل ٠٠ ورأيت الجميع مثل جبل من الدود الكبير يركب فوق بعضه ويزحف خارجا من تحت بعضه ٠٠ ثم ٠٠ صـيـاح وزعيق وصفير ٠٠ ثم اذا بالطبل والزمر يرتفع من جديد ٠ وأخذ جبـل الدود يهتز ويهتز وصوت الطبل يشيله ويحطه الى أن تفتت وتناثرت منه قطع كبيرة صارت تنفلق وتتحول الى رجال ٠ على أن الجبـل كان قد صـار الى نصفين ، نصف ينحدر عائدا الى البلد والآخر يزحف نحو عزبة الكردي ٠٠ والدنيا تسبح فى الغبار ٠٠

عزبة الكردى أو سراية الكردى لا يهم فأنتم تعرفون أن سراية الكردى هي عزبة الكردى وعزبة الكردى هي سراية الكردى ٠ فيها يسكن الخولى والباشخولى ٠ يقيم الكاتب ٠ ثم ان السراية لا تفتح أبدا الا اذا جاء الناظر خفاجة ليستريح فيهـا ويمكث فى الناحية أياما ٠٠ ذلك فى الأيام التى تخلو فيها الوسية من الشغل ، أما فى أيام الشغل فهو يجيء بالكارتة صباحا ويرجع الى كفر الشيخ عند المساء ٠ هذا ما يقوله أبى دائما ٠ والله لقد ازدادت حيرتى ٠٠ لماذا تذهب فرقة الريس « حيطاوى » الى الكردى ؟ ويتجـه الرجـال

المقمطون الى البلد ؟ ما الذى حدث فى الكردى وما الذى حدث فى البلد ؟ وما الذى بعثر الأنفار فذهب فريق منهم وراء الطبل وفريق وراء الرجال المقمطين ؟ ·· أنا شخصيا لم أعرف السر ولكننى أحببت الذهاب الى الكردى · وكان فى نفسى شىء يقول لى · يا ولد أذهب خلف الرجال المقمطين فلابد أن هناك ما يستحق الفرجة · وكانت السراية التى يقولون أن الملك يجىء ـ ليستريح فيهـا ـ لا تبارح دماغى ·· وكنت أسأل أبى عما يحدث خلف شبابيكها الخضراء والحمراء والزرقاء وعما يفعله الملك مع بنات الحور فكان ينفجر ضاحكا ثم يدارى حنكه بكمه وينظر حواليه فى خوف لا أعرف له سببا · أخذت أجرى وأقفز فوق القنوات وشجيرات القطن، والشمس تلسعنى فى ظهرى ، ورأيت ظلى هو الآخر يجرى بجانبى وكان عاريا ، فتذكرت جلبابى وسروالى · ووقفت وارتديتهما وأخذت أجرى خلف الطبل ·

سراية الكردى مثل العروسة زينوها بسعف النخيل والمناديل الحريرية ·· بين السراية والبيوت الطين جرن كبير امتلأ بالرجال أغلبهم فى عمر خالى معاطى ـ لابد أن ابن الملك سيتزوج الليلة قلت هذا فضحك الذين حولى · ثم ان الطبل بدأ يرتفع ويرتفع والمزامير تدخل فى أجسام الرجال · وتسحبهم الى الدائرة ، يروحون ويجيئون فى الدائرة ويرتفعون فى الهواء ويهبطون ويرقصون بالنبابيت ، ثم يهجم أحدهم فجأة بنبوته على أحدهم وأتأكد أنه سيقسم وسطه لا محالة ، ولكن الآخر يطير فى الهواء فتطير الضربة ·· كدت أصرخ من الفرح ، فقد رأيت خالى معاطى يلعب معهم بالنبوت ، ورأيت الجميع يلتفون حوله وينهالون عليه ضربا ولكن ضربة واحدة لم تصب جسده · وفى الآخر رفعوا النبابيت صائحين ثم انسحبوا من الدائرة يمسحون عرقهم فى أكمامهم وديول جلابيبهم ولم يبق فى الدائرة سوى خالى معاطى

الذي وقف برهة كأنه يقول : « الريجل فيكم يطلع لى » ثم انسحب وعاد الى الواقفين فجريت نحوه أكاد أطير من الفرح .

ثم ان المزامير هدأت برهة ثم تسللت وارتفعت مع الطبل على واحدة ونص . وغمزنى خالى وقال : « شايف أبوك ياولد » واذا بى أراه .. أبى يتحزم بلاسة حريرية ذات شراشيب رفيعة تروح وتجيء مع هزة وسطه .. وسألت نفسى : هل هذا هو أبى حقا ؟ الذى كان فى الصباح مثل الكتكوت الكمشان ينذر بقرب موته ؟ شيء واحد لولا حدوثه لما صدقت أنه أبى ، تلك نظرته نعم فقد كان يرقص رقصة الخيل ، ويقترب منا وفى عينه نظرة هى بعينها النظرة التى ينظرها أحيانا الى أمى فتخفض وجهها وتطلب منا أن نقوم ننام .. قال خالى :

ـ أيعجبك أبوك ياولد ؟ .. بهلوان .. آه لو علمت أمك .

ـ هو ايه اللى حصل والنبى يا خالى ؟

ـ اتفرج ولا تسأل .

ثم اندفع فجأة والقى بنفسه فى قلب الدائرة فصاح الذين حوله وصفقوا . وفى لمحة كان قد تحزم هو الآخر بلاسة حريرية .. واختطف نبوتا وراح يثب ويزأر فتتسع له الدائرة ويرتج الصياح . ثم وقف دفعة واحدة خابطا الأرض بطرف نبوته بين أقدام فرقة الريس حيطاوى .. فانخرس المزمار فجأة .. ثم رفع خالى نبوته بيديه ورفع وركه اليمين فزفر المزمار ودقت الطبلة . ثم هبط بوركه ورفع الأخرى .. ثم راح يكرر هذا والمزمار يصاحبه .. ثم أخذت الحمية تدب فى جسده . ثم أخذ الجميع يصفقون له .. على واحدة ونص ..

لم أنتبه الى أن الواقفين كلهم مشغولون بشيء آخر غير الطبل والزمر والرقص . ولم أعرف الا حين صاح واحد بجانبى وكز على

أسنانه : « ياولد .. أموت قتيل والنبي » ... ونظرت اليه فاذا به قد علق بصره بشباك السراية .. وعوجت رأسي لكي أنظر .. واذا بي أراها .. السنيورة .. كانت واقفة في شباك السراية تستند بكوعها على حافة الشباك ، والأســـاور الذهب تلمع في يديها ، وصدرها عريض ومنتفخ ، ورقبتها طويلة وذقنهـا مثل رأس الجوافاية .. الحلوة أما شعرها فينطرح على كتفيها مثل حزم البرسيم .. وأقسمت أنها زوجـة الملك .. وأخذت أشب وأشب الى أن تململت السنيورة في وقفتها ثم ابتسمت ثم اعتدلت وانسحبت وغابت عن عيوننا .. بعدها أطل وجه الناظر خفاجة ، فسابت ركبي ولم أقدر على الجرى انما داريت نفسي في الرجال .. قال خفاجة بلسانه المعووج :

ـ الهانم انبسطت .. وتقول لكم .. خلاص .. عودوا الى بيوتكم ... ثم اختفى في الحال وهاص الرجال . وامتطيت كتفي خالي معاطي الى البلد .

● الفصل الثـانى ●

الولد « طلبه » يتدخل
ويحكى : كيف ماتت « بسيونية »

والله والله أنا عرفت لوحدى ان أخى مختار ذهب الى الكردى مع الطبل والزمر . أما أنا فحين طردونى .. وقفت .. اختبـأت فى النخيل خفت على أبى وأختى وسيلة وأخى مختار .. ولما رأيت الرجال المقمطين ، خفت أيضا وقلت : لابد أنهم جـاءوا يطردوننا ويضربوننا و .. اختبأت حتى لايرانى أحد .. ولما سمعت الطبل والزمر طلعت أجرى وراءه ورجعت لأنى لقيت الطريق مســـدودا بترعة المشروع والكوبرى مسدودا بالانفار .. ولما ساح الطبل فى الأنفار ، رأيت الناس يعودون الى البلد ، فعدت معهم وقلت : لابد أن أبى وأختى وسيلة وأخى مختار قد عادوا أيضا .. وكنت ارى العجب . النساء يخرجن من الدوار وينظرن الينـــا ، يمســحن

الدموع ، ويدخلن الدور ويصوتن أما الرجال فيمشون ولا أحد يكلم أحدا • الدكاكين مغلقة • قلت لابد أن مفتش الصحة أو مفتش التموين أو الموازين موجود في البلد • '

ظللت أمشي مع الناس •• وعند بيت العمدة وقفوا •• ورأيت الرجال المقمطين •• واحد منهم يجلس ويضع رجلا على رجل ، والآخرون واقفون حوله يمسكون الكرابيج • أما العمدة ، فقد وقف هو الآخر ، وكان يعدل طوقه مرة ، ويسوي زر طربوشه مرة أخرى ويتفتف مرة ثالثة وكان الغفر يمسكون الأحصنة ويقفون بعيدا •• وجاء شيخ الغفر وأخذ يضرب في الناس ويقول « على ماذا تتفرجون يا غجر ؟ على ماذا تتفرجون ؟ جانكم النيلة في سنينكم السودة المهببة بهباب الفرن » وذهب الى الأحصنة وأخذ يتحسس رقبتها •• وظهر أبو الحسن » الصياد يسحبه الغفير من خناقه • قال العمدة للرجل الجالس « هو ده أبو الحسن يا سعادة البيه » والرجل الجالس نظر في وجه « أبو الحسن » وفي ذقنه الطويلة البيضاء وقال :

ـ ماذا رأيت ياولد ؟

وضع أبو الحسن يده على صدره وقال مثلما يقرأ الفاتحة :

ـ طرحت الشبكة •• بعد قليل سحبتها •• وجدتها ثقيلة قلت : خير يا رب •• شددتها •• فاذا به يطلع في الشبكة :

والعمدة يكز على أنيابه ويقول :

ـ وشك فقر طول عمرك •• وجه مصائب •

قال أبو الحسن ورقبته تنكفيء على صدره :

ـ هل قلت له اطلع في شبكتي ؟

شوح العمدة بيده وقال :

ـ أكان لابد أن تطرح الشبكة فى هذه الساعة النحس ؟

و .. أبو الحسن يعوج رأسه ويبكي :

ـ انه بختي الأسود .. في كل مرة يطلع من المصرف وحده، ما الذى جعله هذه المرة ينتظر شبكتى .. "

والرجل الجالس ينظر الى « أبو الحسن » ويتسخط فيه :

ـ أتعرف .. بالضبط .. من أين كانت الزكيبة قادمة ؟

و « أبو الحسن » يشير بيده الى الوراء « من هنا » فيصرخ فيه : (حدد من أى جهة ؟ فيقول أبو الحسن من ناحية التفتيش .. نعم من ناحية التفتيش ، والناس ينظرون الى بعضهم والرجل الجالس يرفع رأسه ناحية اليمين .. رجل واقف وبيديه دفتر وقلم ولا يكف عن الكتابة ولما نظر الى الرجـل الجالس كف عن الكتابة وانتظر .. فعاد الرجل الجالس ينظر الى « أبو الحسن » ويقول :

لا تخرف ياولد .. أجب متـسـل خلق الله .. ما للتفتيش وللزكيبة هنا ؟ .. هذه زكيبة بها قتيل مجهول .. وانت عثرت عليها في المصرف .. فما دخل التفتيش هنا ؟ قل انهـا قادمة من الشرق من الغرب ، من قبلى ..

وأبو الحسن » يبلع ريقه ويقول :

ـ ما .. ما من أين يقبل المصرف يا سـعادة البيه .. من ناحيـة الكردى طبعا .. والكردى من مراكز التفتيش والمصرف أصلا .. يأخذ من مصرف آخر ... والمصرف الآخـر موجود فى كفر الشيخ .. وكفر الشيخ هى .. الخالق الناطق .. التفتيش . صرخ الرجل وقف وبرطم بكلام كتبه حامل الدفتر والقلم .. هايج

الناس واختلطوا بالأحصنة ٠٠ هاج الغفر وصاروا يضربون فصرنا نجرى نختبىء فى الحوارى ٠

قال الذين يفهمون أن الفرجة كلها ستنتقل الى المصرف ، ومشوا فطلعت أجرى وراءهم حتى وصلنا زكيبـــة كبيرة ممدودة فوق الأرض ــ ذوبتها المياه أو أكلتها الأسماك كما قالوا ٠ برزت منها قدمان ــ ويدان ورقبة لا رأس لها ٠ وجاء الرجل الذى كان جالسا ومعه العمدة والأحصنة والغفر والرجال المقمطون ٠٠ وحين برز الرجل الذى كان جالسا صاح رجـــال « النيـابة وصلت » وضربونا ٠ وابتعدنا قليلا ٠ ثم دخل الرجل ــ النيابة » وأخذ يقلب الزكيبة ويلوى بوزه ويبصق حواليه وينظر لحامل القلم ويقول كلاما فيكتبه وقال العمدة :

ــ أليست مصيبة ياســـعادة البية ؟ ٠٠٠ لوان دماغه فى رقبته ، لكنا تعرفنا عليه فى الحال ٠٠ المصيبة أنه يجىء دائمـــا بلا دماغ ٠٠ فى كل مرة يجىء هكذا ٠٠ بلا دماغ ٠ وقال الرجل النيابة : « ماذا تقصد بـ ٠٠ كل مرة ؟ » ٠

المصيبة أن العمدة ابتسم وقال « ليست هذه أول مرة ياسعادة البيه ٠٠ ليست أول مرة » قال واحد من الواقفين معنا « ولا آخر مرة » وقال آخر « يعلم الله على من سيجىء الدور » ٠

وقال الرجل النيابة « لا أفهم » ٠

وأما العمدة فانه قال :

ــ ياســـعادة البيه ٠٠ هذا حادث يتكرر كل عام أو عامين أو ثلاثة أو اربعة ٠٠ لكنه يتكرر ٠ أصبحنا نعرف ميعاده ٠٠ هذه المرة هبطت عليه شبكة الصياد ٠٠ انما هو كان يعرف طريقه ٠٠

يعوم فى الماء حتى يصل الى زمام بلدنا ·· ويقف ·· وقال واحد من الواقفين :

ـ يطلب أهله ·· الغريب يحن لبلده ولو كان جثة فى زكيبة ·· وأين يروح المسكين أنه لابد أن يرجع لبلده ··

واذا بالرجل النيابة يشير اليه بأصبعه ويقول : « تعالى هنا يا ولد » فاذا به الشيخ فرحات الأعمى المنادى ·· تقدمته عصاه ووسعت له الطريق ·· والعصا رأت مكان الزكيبة وقالت للشيخ فرحات فوقف بجانبها فصار أمام الرجل النيابة · ابتسم الرجل النيابة وقال :

ـ تعرف صاحب هذه الجثة ؟

هبط الشيخ فرحات وتقرفص متأبطا عصاه · ومد يديه وتحسس الجثة وجعر « عرفته ياسعادة البيه » ·· وكان هناك ولد ألقى حجرا فى المصرف فتناثرت الميساه على كل الوجوه وبرطم الناس كلهم وجرى خفير وراء الولد وصاح الرجل النيابة « كيف ·· كيف عرفته ؟ » وقف الشيخ فرحات قائلا : « رأيته » ·· وقال الرجل النيابة « ولكنك من غير مؤاخذة أعمى » ومد الشيخ فرحات رقبته أمام الرجل النيابة وقال :

ـ شف يابك أنا صحيح أعمى ولكنى أرى أكثر من أى واحد ·· أنكم ترون بعيونكم فقط وهذا هو سبب المصائب ·· أما أنا فأرى بعيون كثيرة : عصاى ويداى وقلبي وأذني وصدرى ·· ما أراه أنا قد لا يراه أحد المفتحين ·· أعرف صاحب هذه الجثة معرفة جيدة ·· نعم · هذه اليد سلمت عليها ألف مرة ·· هذه القدم انكسرت مرة وجبرتها ·· فقد كان رحمه الله من الذين يقفزون كثيرا يتسلقون الجدران لم يكن لصا انما ابن ليل ·· عنترى يأخذ حقه بذراعه · أما هذا الجسد ·· المعبأ فى زكيبة ،

فقد احتضنته بقوة يوم سفره ‥ نعم ‥ كنت واثقا أنه سيصبح جثة في زكيبة ، ولهذا ، احتضنته بقوة فهو الآن حي بداخل صدري ۰

انفجر الواقفون كلهم فى البكاء حتى العمدة هو الآخر بكى ۰ أما أنا فقد أردت البكاء ولم أجد دموعا فسكت ۰ ونظر الرجل النيابة الى حامل القلم وقال : « الجانى مجهول ‥ مجهول والمجنى عليه ‥ مجهول أيضا » ‥ ونظر حواليه وقال : « أوسعوا طريقا »۰ لكن السماء صوتت عاليا فرحنا ننظر ‥ واذا بامرأة قادمة تجرى من عند كباس المعلم عبده ، والريح تقابلها وتطوحها ، وتبعثر ثيابها السوداء ‥ وبدأ الرجل النيابة يمشي ولكن الواقفين كلهم ظلوا في وقفتهم لا يعبأون بصياحه والصوات يقترب والمرأة أيضا تقترب ، وكانت تشوح بيديها وتمزق طرحتها وتهيل التراب على رأسها وقد عرفناها ، وأوسعنا لها الطريق الى الزكيبة فارتمت فوقها تصرخ ۰ وقال الرجل النيابة « من هذه » فقال الجميع انها « بسيونية » بائعة الطماطم والسكر والشاى والوظائف ۰

‥ كلنا نعرف بسيونية ‥ تبدو أصغر من أمي ولكن الجميع كبارا وصغارا ويقولون لها ياخاله يكلمونها بأدب شديد ، ويصدقون كل ما تقول ۰ لها دكان يجلس فيه الناس ويأكلون ويشربون الشاى والحساب يجمع كما يقولون لها ۰ وفى كل محصول يقول الرجال لبعضهم ياللمصيبة اريد أن أدفع حساب بسيونية وحين يريد أحد أن يشتكى أحدا فانه يذهب الى العمدة أما بسيونية فهى تنتظر العمدة ساعة يجىء عندها يأكل الفسيخ ويشرب الشاى ‥ مرة سألت أبى « هل بسيونية قريبة الملك » فضحك وقال : عقبال أملتك يا ابنى » فسكت فعرفت انها قريبة الملك بحق ۰ ومرة ثانية ذهبت حارتنا كلها تستعطف بسيونية لكى تعطيهم مهلة يسددوا فيها ثمن الشاى والدخان لأن الوسية ليس بها شغل وحينما عادوا

من عندها قالوا وهم يبتسمون أنها اكتفت بلعن آبائهم · فسالت أمي « هل بسيونية قريبة الملك » فقالت أمي :

ـ العقبى لى يارب ·· أشوفك مثل ابنها ·· انه يشتغل في التفتيش أنه ·· ربنا يعطيك ·· سـائس ·· سائس للبغلة ·· بغلة التفتيش يمسحها وينظفها وينظف لهـا ويسرح بهـا ويخدمها ··

ولحظتها قال أبى وهو يتفتف ما علق بلســانه من ورق البافرة :

ـ ويشرب السجاير المكن ·

فردت أمي :

همك وهم السجاير ؟

فيقول وهو يلعب حاجبيــه « يامن يوصلنى الى البغلة وأنا أريهـا » ··

فتغضب أمي وتقول « لا أمان لكم يا رجال ·· كلكم عيونكم زايغـــة » ··

وأبى يقول بحرقة « لقد رأيتها · مرة واحدة · قشطة · فطير دماس » وتحيرت أنا مثلما تحير أخي مختار ، ولم نعرف شكل هذه البغلة التى هي قشـدة وفطـير دماس وتركب الكارتة وتبص من الشباك وتغار أمي منها ، فيهجم أبى عليها ويطوقها بذراعيه ويقول كما تموء القطط « أتصدقين ·· ليس أغلى منك عنـــدى » فتشد نفسها منه وتقول « كان الله فى عون الشبان الصغار » فيقول لها : « أنكره السعد يا وليه » (السعد يكون بالحلال أو لا يكون » فينظر فى عينيها ويقول « بزمتك الا تتمنين أن يصبح ابنك سائسا لها ؟ » فتشوح بذراعهـا في وجهه وتقول « فشر بعد الشر » فيبحلق فيها

حتى تنكسر عينها ويقول « يا وليه ·· لاتكذبي على روحك » فتقرصه في وركه ونقول بغيظ يحيه دائما « قل انك انت تحلم بهـا من صغرك » فيعوج رقبته ويغطسها بين كتفيه ويقول « الكذب خيبة ·· هل أكذب عليك » فتشوح له « أحمد ربنا ·· عافاك منها » فيرد بسرعة « أصـلى وش فقر » هنا ترفع يدها في وجهه « كلكم مجانين ·· تتصورون انكم تذهبون الى النعيم ·· وتنسـون أن الآخرة دائما سوداء أو ·· » يغتاظ أبى ويضرب يدهـا المرتفعة « هكذا الدنيا يا عبيطة ·· أتزوجينها وتضمنين بختهـا ؟ الواحد يرى السكة التى توصله الى الجنة ·· فيمشى فيها ·· فان قابله الوحش وأكله فهذا حظه وبخته ·· اسكتى اسكتى فأنت لا تفهمين » وأمى تمتلىء عيناها بالدموع ولكنها تبتسم : « كل من ذهبوا اليهـا انفتحت له ولأهله أبواب السعد ·· لكنهم دائما يعودون جثة فى زكيبة » يضحك أبى كأنه طفل ويمسـح الدموع ويقول « لو كان البعيد رجلا ما عاد جثة فى زكيبة ·· نعم ·· هذه هي الحقيقة · أتنكرها ؟ ·· لا يرجع جثة فى زكيبة غير الرجل الهفتان ما يوجد فى هذا الرأس مخ أم بصارة ؟ ·· الضعفان المرضان الهفتان لابد أن تكون هذه نهايته ·· نعم هكذا ومن ليس في حمل المشـوار لا يمشيه ·· ليس كل من عوج الطاقية صار حليوة ·· ولا كل من زهر الجلابية صار شلبية ·· ولا كل من طوح النبوت صـار عريسا افهمى يا وليه ·· البغلة يلزمها رجل ·· رجل عفى ·· حتى فى عقله وأحلامه وغضبه ·· رجل يهد قواها ·· ويطفى حرائقها »·· فلا أدرى كيف تجىء الابتسامة وتحط على وجه أمى ، ولا أدرى أيضا لماذا تصر لحظتها أن نقوم أنا واخواتى لننام ··

·· بسيونية رمت نفسها فوق الزكيبة وصرخت و ·· هى صرخة واحدة لم أسـمع غيرها لا ·· أظن أنهـا صرخت مرتين

أو ثلاثا « لا أذكر ولكن الصرخة لا تريد أن تخرج من أذنى حتى اليوم وصوتها كان مبحوحا : حاصه ·· حاصه ·· حاصه ·· ثم سكتت ·· وانفتح الناس فى البكاء ·· كنا مثل المقابر صباحية العيد أو فجر الجمعة صوات على طول وبكاء وكلام داخل فى بعضه ·· و ·· بصراحة لقد بكيت انا ايضا وأحلف أن الرجل النيابة كان يريد هو الآخر آن يبكى على أنه صرخ ·· « ايه مناحه ؟ » وأشار للخفر : « شيلو الوليه دى » فما تقدم أحد فصرخ مرة ثانية ويغيظ « قلت شيلوا الولية » · وأيضا لم يتحرك أحد ·· والرجل النيابة يكز على أسنانه وينظر حوله ·· العمدة هو الذى انحنى ولمس ظهر الولية وقال « قومى الآن يا بسيونية ·· قومى وما سيفعله الله يكون » والولية لم تقم ، انما لهثت وظلت ملتصقة بالزكيبة لا تتحرك ولا تتكلم ·· وأخذ العمدة يقول كلاما مقطوما · والرجل النيابة يصرخ به « كف عن البرطمة يا عمدة ·· عندك معلومات قلها وخلصننا » ·· والعمدة يفرد كفيه فى الهواء « أبدا يا بيه ·· كفانا الله شر المعلومات ·· لكن ·· أصل الست بسيونية لها ولد مستوظف فى التفتيش وظيفة كبرى ربنا يعطيك » والرجل النيابة يشوح فى وجه بسيونية « ما شغله ابنك ياولية » والعمدة يرد نيابة عنها « هو سائس بغلة التفتيش » والرجل النيابة يزوم وينظر لحامل القلم والعمدة يتنهد ويقول « مسكينة لا تلمها ·· ضاع ابنها زال عزها ·· يعنى موت وخراب ديار » والرجل النيابة يهز يده فى الهواء ولكن من أدراها أنه ابنها ؟ ويرد العمدة : « أيتوه الواحد عن ضناه » فيشخط الرجل النيابة « لا تخرف ·· نريد ·· نريد دليلا ·· ما هو ؟ » فيقول العمدة « الزكيبة ·· والرجعة » الرجل النيابة يهز رأسه لا فهم والعمدة يقترب منه فى هدوء : « لا يرجع هذه الرجعة ·· داخل هذه الزكيبة ·· غير الذين يشتغلون سياسا لبغلة التفتيش » · والرجل النيابة يخبط رجله فى الأرض :

ـ ماذا تقصد بهذا الكلام يا عمدة ؟

ـ هذا ما يحدث ·· أنا الذى يقوم بالاختيار ·· نجمع شبان البلد ونفرزهم بالفرازة ونختار منهم واحدا ·· ثم نرسله ·· بعد سنة ·· سنتين ·· ثلاث يرجع هذه الرجعة السوداء ·· ولابد أن يكون بلا رأس ·

ـ وكيف تعرفون أن الذى راح هو الذى عاد ؟

ـ كثرة الحزن تعلم البكاء يابيه ·· الزكيبة تصل من هنا ·· و ·· يا دوب نخلص من دفنها ·· ويجيئنا الأمر ·· ·· نسيت ·· فى العادة ·· تجىء السنيورة كما يسمونها هنا وهى زوجة الناظر وتشهد احتفالا بالطبل والزمر بمجرد وصولها يقام وتجمع له الأنفار من كل البقاع ·· أنها المسئولة عن اسطبل التفتيش كله ·· ولذا فهى تحب أن ترى بعينيها ·· الواقع أنها تبدى اعجابها بهذا أو بذاك ·· ولكننى فى النهاية أتحمل المسئولية وحدى اذا لم يعجبها الشخص الذى اختارته فأقوم أنا بالفرز بمعرفتى الخاصة لأنى أعرفهم جميعا أكثر منها ·· اليوم يا بيه ·· اختل الزمن ·· جاء الطلب وجاءت الزكيبة فى لحظة واحدة ·· وانى لا أدرى هل أشارك فى قيام الاحتفال أم فى تشييع الجنازة أم فى الاثنين معا وفى نفس ـ اللحظة ؟ ··

ـ لم توضح لى ·· أى طلب تقصد ؟

ـ ما يجيئنا ·· مطلوب سائس لبغلة التفتيش بمعرفتك يا عمدة ·

ـ فلم لم تسألوا عن السابقين ؟

ـ منذ سنوات لم نعد نسأل ·

ـ لم ؟

ـ لأن الجواب واحد يا بيه ·· لا يتغير أبدا : ضربته البغلة في مكان حساس ·· فمات ···

ـ اذن فأين جثته ؟

ـ فقدت ·· هذا ما يقولون ·· لكن الجثة كانت تجيء ·· وتطلب الدفن ونتعرف عليها رغم أنها بلا رأس ··

ـ الا يذهب أحد الى التفتيش ليرى ·· ؟

ـ لا أحد هنا يعرف مكان التفتيش ·· أنا نفسى لا أعرفه ·· الناظر يجيء الى الكردى ويتسلم الشخص منى ·· و ··

وقالت بسيونية :

ـ بغلة ·· ما ·· عندها ·· أصل ·· آخر المتمة ترفسه برجلها » · ثم أنها طوحت رأسها شمالا ويمينا وصرخت ، ياكبدى وسارت تضرب رأسها فى الأرض بشدة وتقول : « ياكبدى » حتى سال الدم من رأسها وأغرق وجهها ·· وقال الرجل النيابة : « لابد من أخذ أقوالها » وانحنى العمدة عليها وقال : « كلمى سعادة البيه يا بسيونية ·· قولى له كيف تعرفت على ابنك » ·· وبسيونية لم تتكلم ، انما تربعت وشدت الزكيبة على ركبتها وظلت هكذا برهة ثم انكفأت وسحب الرجل النيابة نفسه ومضى فتبعه كثير من الواقفين ·· لكنه استدار ، وأمر أن يبقى فى حراسة بسيونية والزكيبة ·· خفيران ···

● الفصل الثالث ●

« معاطى » لا يريد أن يتكلم
فى الموضوع ... ولكن ..

الناس يسألوننى عن السبب .. والله ما أعرف السبب .. تعبت من قولة : لا أعرف حرمت على نفسى الغناء فى الأفراح كما حرمت الرقص ولعب الحطب .. انكسرت والله نفسى والناس هم السبب ان غنيت حتى تطوحوا من الاعجاب قالوا : وهم يتحسرون على « ما خلاص .. ضاع تعبك يا معاطى بل ضاعت الدنيا من يديك فعلام ترقص الآن وتلعب ؟ » وكأننى لم أكن أغنى والعب الحطب وأرقص الا من أجل عيون السنيورة . والسنيورة اختارت حمارا .. فما الذى يمنعنى من الغنـاء طالما أننى لازلت أعشق السنيورة ؟ لكن من يقرأ ومن يسمع ؟ اننى صريح أتمنى أن تختارنى السنيورة أنتم أيضا صرحاء وتعرفون كل شيء . لا تجعلوننا نفسر أكثر من هذا ولا داعى للاحراج .. أنتم جميعا كنتم ولازلتم ـ تتمنون أن

تختاركم السنيورة .. حتى « أبو خليفة » زوج أختى .. الرجل الذى عنده بنات للزواج . يقولون اننى لما رقصت ولعبت الحطب امامها كنت أحسن من رقص ولعب . وكنت ـ بشهادتهم ـ أكثر الشبان شبابا ورجولة . ومن الحق أن السنيورة اختارتنى نعم اختارتنى أنا من بينهم جميعا . أعرف هذا ويعرفه الناس كلهم .. ولقد ظللت طول الليل أسأل وأتقصى ، وجئت برأس كبيرة من أهل الكردى ووسطته لدى السيد قاقا ، وفى نفس الليل جاءنى وأبلغنى ان الأمور عال العال وأن السنيورة سألت عنى مرتين . فى المرة الاولى حين لعبت الحطب مالت على الباشخولى وقالت له « اسمه ايه الولد ده » فقال لها عن اسمى . وفى المرة التالية حين رقصت مالت على الناظر وقالت « اسمه ايه بتقول » فقال لها أيضا . أليس هذا هو الاختيار ؟ والرأس الكبيرة التى وسطتها تقول ان خفاجة نزل من السراية خصيصا ليجمع أخبارا عنى أليس هذا هو الاختيار ؟

أما ما حدث بعد ذلك فمعروف للجميع . مسألة أن العمدة يختار على مزاجه مسألة لا أحب أن أتكلم فيها . يكفى أن السنيورة اختارتنى . يومها وصلت الى دوار العمدة فى الصباح . لم أجد أحدا من شبان البلد لم يكن هناك غير مجموعة من العجائز .. أمثال « أبو خليفة » اندهشت تخيلت أن الفرز انتهى من صبيحة ربنا ، وكان فى نيتى الا أسأل . فمعروف للجميع أننى خلاص اخترت .. غير أننى وقفت الى بعيد أحاول معرفة ماذا تم فى الأمر . ووالله كنت قبل خروجى من الدار قد نبهت على أمى بعدم الصوات وعلى أخوتى بعدم دق الطبل أو اطلاق الزغاريد وعلى أصدقائى بعدم تفريق الشربات . ليس لأننى أردت السفر دون شوشرة ، وانما المسألة غير هذه . المسألة ان ابن بسيونية كان رحمه الله من أعز أصدقائى والمسألة .. أن تفريق الشربات والزغاريد ودق الطبل .. يعنى أننا فرحنا .. ونطلب أن يجىء الناس ليباركوا انما لا .. أن اختيارى عملية فى محلها فهل تزغرد النخلة حين تطرح بلحا ؟

.. تلكأت عند دوار العمدة كانت هناك شوشرة كبيرة وسمعت كلاما كثيرا ، ولصقت بدماغي كلمات كثيرة «يا سبب سعده» « يا فرحة أهله » أيش « حايكفيه » « يا حرقة أمه عليه » فقلت أنهم لابد يتحدثون عنى أنا .. وبينما كنت أرفع جلبابى السكروته وأتهيأ للمرور أمامهم كأننى ذاهب الى الحقل أو الى مشوار وكأننى لم أسمع ما يقولون رآنى أحد العجائز وكان متمطرقا على مصطبة أمام الدوار فقال بتشفٍ احرق قلبى : « أيوه يا عم .. محمود قنديل .. هو الذى كان يجب أن يفوز بها » فتسمرت فى مكانى وقال عجوز آخر بجانبه « لقد بعثوا له من يجيء به من عزبة الطوال فهو لم يعلم بالخبر بعد وقد تم اختياره وهو بعيد عن البلد » الدم غلى فى عروقى . الحق اننى ظننت أنهم يغيظوننى ومع هذا لم أجد ما أفعله فتصنعت أننى نسيت شيئا واستدرت فجأة عائدا ولكن دون أن أنظر اليهم . هنا قال واحد من الشبان الجالسين مع العجائز محمد بن عبادة « والله ان هذا لشيء يفقع المرارة .. وماذا فى محمود بن قنديل حتى يختارونه لعمل كهذا .. أنه خرع وطرى .. وحليوه أكثر من اللازم . هل تطلب البغلة رجلا أم كف حلاوة ؟ » . وصاح عجوز يجلس بعيدا « ليس لنا دعوة بهذه المسائل يا ولد .. اسكت .. مالك انت وهذا ؟ وكف الجميع عن الكلام . أما أنا فقد انطلقت أجرى نحو ترعة خلاف ، وخلعت ملابسى وقذفت نفسى فيهـا وخيل الى أن ماء الترعة ليس باردا .. بالقدر الذى يريحنى . .

تحت شجرة التوت الكبيرة صحوت من النوم وكنا فى ساعة العصارى . كنت كأننى نمت حولا كاملا . واستغربت : كيف صحوت ؟ مع اننى حين القيت بنفسى تحت الشجرة كنت أتمنى الا أصحو أبدا . ودخل .. محمود بن قنديل فى دماغى ولم يشأ الخروج منه .. « محمود بن قنديل » ذلك الصبى النحيف ؟ . اننى غير معجب به ولا بمنظره رغم أنه يخشى بأسى ويحترمنى .

أطيق العمى ولا أطيقه بوجهه المسحوب فى نعومة كوجه فتاة محجبة وجلبابه السكروته الذى ورثه عن خاله ابن الليل القديم ، وقصره الخيط على قده ، اللاسه التى اشترتها له أمه بثلاث كيلات من القمح ، الشبشب العمولة يطرقع فى كعبيه وهو يمشى مثل عروسة فى الصباحية ما يغيظنى فيه أنه يصدق الاشاعات التى يقوم هو بنفسه بصنعها حول نفسه • المجنون الأهبل يصدق أنه فعلا يخاوى جنية وما أدراك ما الجنية ٠٠ « اختارتنى أنا وما ذنبى وعموما لا أحب أن أتكلم فى هذا السر والا خنت العهد وينقسم وسطى فى الحال » ٠٠ على فكرة أنا أحبها كلام فى سرك يا فلان أحذر أن تقوله لأحد نعم أنا لا أحبها كثيرا لأنها تمنعنى عن أصحابى ومن أشياء كثيرة لا تعجبها فى هذه الحياة » « اسمحولى الليلة يا اخوان أنا الليلة ممنوع من شرب الجوزة ، نعم جاءنى الأمر بذلك فعلا فلا تغضبوا على أن كنتم لا تريدون أن أسخط قردا » ٠٠ « آه ٠٠ لقد تذكرت السلام عليكم ٠٠ ربنا يستر ماذا أقول يارب ماذا أقول ٠٠ ان لم ترونى بعد ذلك لمدة كبيرة فاعلموا أننى أمضى فترة العقاب فى حضنها فى مكان لا أعرف عنه شيئا ٠٠ « ايه يا أبا حنفى ٠٠ لقد عدت فهل حظيت بالرضا ؟ » ٠٠ لا لا ملعون أبا الكل كليلة • لقد هربت ملعون أبا الكل كليلة : هل ـ تستعبدنى بنت جهنم الحمراء ؟ » •

أقسمت بالطلاق من ذراعى كما تقول النسوان ، ومن حياتى كما يقول الفتوات ان هذا المفعوص يضحك على ذقوننا جميعا • اننا لا نحرجه وهو يصدق اننا نصدقه ويصدق نفسه حين يقول أى كلام • كان الأولى به أن يذهب الى الخانكة والحقيقة اننا جميعا ننتظرها له : اقسمت بالطلاق من حياتى أن الدنيا نفسها خانكة حتى تأخذ هذا الولد وتضعه على حجرها : أخشى أن يكون هو العاقل الوحيد فينا • وكل واحد فى البلد يعرف أن محمود بن قنديل عنده لطشة فى عقله و ٠٠ ياللمصيبة لـ ٠٠ لـ ٠٠ لقد تركناه يفعل

ما يهوى ٠٠فهو أهبل ٠٠وكيف نحاسب الأهبل ؟! كم من مرة رأيناه يقرص البنات فى أفخاذهن ثم نضحك بدلا من أن نناوله بالكف على صدغه الله أعلم ماذا فعل فى الخفاء ٠٠ بعيدا عن أعيننا ٠٠

انما لا ، المسألة فيها سبب آخر العمدة رتب لهذه الفعلة منذ سنوات أفلا تذكرون الرجال الثلاثة أو الأربعة الذين وقع الاختيار عليهم فى السنوات الأخـيرة كان بينهم وبين الرجـولة والجدعنة مسافات طويلة ٠ العمدة يقول ان التفتيش أوصاه ـ بشرط الحلاوة فى الشخص المطلوب ، و ٠٠ « ضرورى يا أهالى البلد أن أنتقى ولدا حلوا ، صحيح التفتيش يطلب رجلا عفيا يتحمل بغلته الشرسة ولكن لا تنسوا أنه ٠٠ سيكون دائما فى وجه السنيورة ، لأن البغلة فى منزل الناظر والناظر هو زوج السنيورة طبعا طبعا لابد أن يكون الولد أحلى من السابق أليس حواليكم شبان أحلى من هذا ؟ لاحظوا أنهم يصرحون لى الاختيار من أى بلد مجاورة انما أنا طبعا أرى أن بلدى أولى بالخدمة من غيرها فلأجل خاطرى ساعدونى على خدمتكم لنا أطلب منكم شيئا أكثر من أن تسكتوا ـ ولو اننى كنت أنتظر منكم شيئا غير هذا ٠٠ أتمنى مثلا أن يجىء واحد من الشبان ويقول لى : لا داعى للاجتماعات يا عمدة ، دع الناس فى شغلهم ولا داعى لأن ينادى المنادى ويتعطل الرجال كلهم طول النهار لكى يحضروا الفرز ٠٠ لا تتصوروا مقدار سعادتى يوم أسمع مثل هذه العبارة من أحد منكم ،، على الأقل سأعرف أن بلدى قد تنورت بحق وسيفتح الله عليها ، اليست تمنحنى الثقة فى أن أختار بدون شوشرة أو وجع للدماغ فى الفرز ؟ ٠٠ وماذا فى هذا ؟ ٠٠ اننى أعرف البلد فردا فردا وخصوصا ـ شبانها ٠٠ انهم أعزاء عندى ، تعودت منذ سنتين أن اظل أراقبهم من طفولتهم حتى صباهم وأكاد من حرصى عليهم أتولى اطعامهم بنفسى والعناية بهم حتى تمتلىء أجسادهم بالحياة والحلاوة ٠٠ طبعا من واجبى أن أحمل همهم من صغرهم فأنا أريد أن يجىء اليوم الذى يجعلنى ـ بمجرد تلقى الاشارة ـ أفتح بابا ما ، وأستخرج الولد فى الحال ٠ وأقول له ٠٠ اذهب الى النعيم فقد

خلقت له وما أنا سوى سبب هيأته لك السماء لكن متى •• متى تحققوا لى هذه الأمنية ؟ •

•• أصابعى كلها بل جسدى كله وضعته فى الشق من هذا العمدة •• وطربة الذين ماتوا لى انك يا عمدة رجل ملعب من طقطق لسلامو عليكو •• انه يحيرنى مثلما حيرنى محمود بن قنديل • أحلف على الماء يجمد ان محمود بن قنديل لم يكن عبيطا ولا مجنونا •• أنا لا يدخل دماغى كلام العمدة ومسألة الحلاوة هذه من أساسها لا تركب ذمتى بمليم أحمر العمدة يختار لغرض فى نفس العمدة ملعون أباه وأبا السنيورة والعمدة والتفتيش كله •• انما تعالى هنا يا ولد • سيقول الناس كلهم أن الغيرة قتلتك • غيره ؟ •• أنا أغار من ولد كهذا ؟ اننى حزين من أجل السنيورة فقط ، وأغتاظ لأن المقلة لن تحتمل طراوته وسوف ترفسه فى محاشمه من أول طلعة • مالى أنا ولهذا • سوف أذهب اليوم وأبارك له كأى واحد من أصحابه سأكون أول الراقصين وآخرهم وسوف لا تكون القعدة حلوة الا بى •

الشارع كله ساكت •• يخيل لى أن جميع سكانه تركوه وراحوا يدبرون فى الخفاء مؤامرة لا يمكن أن يكون هذا السكوت سكوتا بحق ، وهذا الشارع بالذات لا يسكت أبدا انه الشارع الوحيد فى البلد يشغى بالخلق طول الليل والنهار أنه كما نعلم شارع رئيسى من شوارع الرحبة •• والرحبة طبعا هى البرحاية التى تتقابل عندها كل شوارع البلد وحواريها أى أن الرحبة فى وسط البلد هى قلب البلد •• وليست الشوارع والحوارى وحدها تتقابل فى الرحبة دعونا نحب الصراحة مرة ، وخصوصا الآن ان البلد كلها فى خطر ان لم تعرفوا بعد • ان محمود بن قنديل أول واحد يطلع من الرحبة وتعلو مراتبه •• أنتم غافلون • من غد سيكون أجدع من فيكم مطية لأقل واحد فى الرحبة وما أدراكم

ما أهل الرحبة هل أتكلم أم انه لا داعى ؟ عقلى يقول لى انكم دائما لا تحبون التفكير فى ـ « مسألة الرحبة • انها فى نظركم سوق قائم على زبانه ، والشىء الذى لا يرد الى السوق يوم السوق لسبب من الأسباب اسأل عنه فى الرحبة أى شىء يخطر على البال تجده فيها ، كل الأشياء لها باعة ولها مشترون وكل الأسعار لا تطلع الا من الرحبة وكل ما يضيع بين الناس أو يسرق منهم قمحا أو قطنا أو محراثا ناقا أو ماشية أو حتى أطفالا صغارا يذهب بقدرة قدر الى الرحبة فتبيعه لصاحبه من جديد •• هكذا عينى عينك لا احم ولا دستور ••

الآن لا أقول مثلما تقولون دائما أنتم تبتسمون فى عبط : آه من الرحبة ونوادر الرحبة • انما أقول : آه منكم أنتم لم يشغلكم سوى أن صاحب السعد هذه المرة هو محمود بن قنديل • لم تعرفوا طبعا ما الذى سيحدث لكم بسبب ذلك •• من يدرى لعلكم تنسون هذا بمزاجكم •• وهنا يقع الكلام •• وما عندى من كلام هو بصراحة وبكل صراحة أن المشى فى الرحبة يحتاج من المرء الى عدم التفكير فى حياته ان كان بائعا سريحا حلاوة لسان وانكسار ان كان من أهل البلد العاديين وعلانية وشفاعة ـ بالنبى ان كان مشتريا •• آه •• منكم يا خلق أتراكم فى حاجة الى أن أذكركم بأن هذه الرحبة التى هى فى قلبكم يسكنها نوع غريب من الناس طردوا من كل أسواق الدنيا فنصبوا لأنفسهم سوقا ثابتا فى بلدنا وأصبح ملكهم بوضع اليد وعاشوا بيننا بالذراع والاجرام كل ما هنالك انهم لا يفعلون ما نفعل ولا نفعل ما يفعلون لا يعرفون طبعنا ولا نعرف طبعهم كل شىء عندهم « وماله مايضرش » لا أحد منهم يعرف أباه اذا ما وضع بجانب المليم لا يعرفون الضرب بالأيدى ساعة العراك فأياديهم دائما سواطير وسكاكين وبلط وعامود للشمسية وصنج الموازين وحديد القبانى ورمانته • الرحبة تنشر فى بلدنا فسقا وفسادا وعما قريب ستخضع بلدنا للرحبة • أنا مالى • جئت لأهنىء الأخ محمود وكفى •

● الفصل الرابع ●

« حفنـــاوى » خادم التـــور
يحكى : كيف ٠٠ وكيف ٠٠ وكيف

كنـــا نجلس فى منـــدرة محمـــود بن قنـــديل ٠ حينما سمعنا صوانا ٠٠ وقلت فى نفسى « خير يارب » ساعة ما كنا فى بيت العمدة مساء الأمس وأنا خائف فقد أخبرنا العمدة اننا يجب أن نجعل بالنا من أنفسنا ونضع عنينا فى وسط راسنا و ٠٠ الحكاية لن تمر بســـلام ٠٠ وأنتم تعرفون أن السنيورة اختارت ناسا غير محمود ٠٠ ولكنى لست عبيطا حتى أوافق عليهم ٠٠ طول عمري أحب الجدع ـ يعنى محمود ٠٠ وأريد أن أخدمه ٠٠ فالحمد لله جاءت الفرحة ٠٠٠ والحق انه ابن حلال مصفى « ثم نظر ناحيتى فنظرت اليه فعاد ونظر فى قلب نظرتى وظل هكذا مدة طويلة ونظر الى محمود قائلا « الولد ده بيبص لى كده ليه » فابتسم محمود وقال له انى على نياتى ولا أقصد أى حاجة ٠٠ آلا تعرفه ؟ فقال العمدة

كأنه لم يرنى من قبل أنه حفناوى على ما أظن الذى يسرح بالثور عندك . فوافق محمود برأسه ثم قال اننى أيضا راجل جدع أخدمه و : « ان شاء الله سأترك له الثور يشغله ويحاسب والدتى أو لا يحاسبها فهو حر .. نعم ساوصى ببقائه فى خدمة الثور طالما أنا حى » فضحك العمدة مقدما ثم قال « .. لا وأنت الصادق .. طالما ان الثور حى » وضحك محمود كما لم يضحك فى حياته من قبل .. وعاد العمدة يواصل النظر الى منظره يقول إنه متشكك فى العبد الفقير ثم مال على أذن محمود وهمس كعادته بصوت عال كأن العمودية لا شىء غير صوت عال : هوا .. الأخ ده .. يعرف .. كل حاجة عن .. شغلك و » . ابتسم محمود وقال : « لا لا لا اطمئن أنه لا يعرف اى حاجة عن الموضوع الذى فى بالك .. حتى الأمانة التى بعثتها لك معه لا يعرف ما هى .. وعموما لا تنشغل به » هىء .. ان كان محمود يدعى العبط على الهبالة والعمدة يدعى البراءة فأنا أيضا يجب ان أكون حمارا كبيرا من أجل المصلحة فقط ماذا يفيدنى اذا عرف العمدة أو غيره ان الأمانة التى أعطيتها له هى الفلوس التى طلبها من محمود مقابل اختياره سائسا لبغلة التفتيش ؟ انما فى الغد سيسافر محمود وسأبقى انا والثور وأم محمود ولن ينفعنى أحد .. وعلى حس محمود سأعيش فى الدنيا عيشة راضية ... من طلعة النهار لم الامس الأرض فكان على ان أسحب الركوبة وأجرى الى عزبة الطوال أنادى محمودا كما اتفقنا مع العمدة ـ العبيط لا يعرف أننى أعرف هذه أيضا وكان محمود قد راح الى عزبة الطوال فور خروجه من بيت العمدة فى عز الليل فى جنح الظلام فى ملابس غير ملابسه لا لشىء الا لكى الحق به فى اليوم التالى وأنقل له الخبر وأدعوه للمجىء .. كثير من الحمير أمثاله وأمثال العمدة وأقارب عزبة الطوال لا يعرفون اننى أنا الذى ربيت محمودا هكذا ـ وعلمته كيف يكون العبط على الهباله مسالة منجية من كثير من المخاطر ـ أنا حفناوى ربيت محمودا مثلما ربيت ثوره .. ونفع الاثنان علمته كيف يلف على العمدة ويأخذه فى عبه .. ولا أدرى ما الذى سيفعله

بدوني خين ، يصبح وحده أمام السنيورة والبغلة · ساعة كنا عائدين من العزبة كان يريد أن يخترق السكة الى الدار ولكننى صممت على أن نمشى من وسط البلد حتى يعرف الناس كلهم انه جيء به الآن وانه لم يكن يعرف شيئا من قبل عن مسالة الاختيار ··

·· من ساعة ما وصلنا وأنا لم القط النفس ·· وقلبى منقبض لا أعرف لماذا ولولا اننى أستطيع أن أمسك نفسى مدة طويلة لوقعت من يدى صينية الشاى مائة مرة ولوقعت أنا نفسي مئات المرات ··

ارتفع الصوات أكثر وأكثر ·· وارتفعت معه « غاغة » كبيرة توقف الكلام فى المندرة ــ و « طرطق » الجميع آذانهم نحو الشبابيك وبدأ بعض الموجودين يخرجون ورأيت محمودا يتلكأ فى الخروج فتلكأت معه أنا الآخر حتى لم يعد فى المندرة سوانا رأيته فى حالة لا تسر قلت لعلها الفرحة ·· لكنه تمتم « و ·· وبعدهن لك يا فكيهة ·· يومك لن يفوت على خير أعرف انك مجنونة وأخشى أن يكون عقلك قد ذهب » فكيهة ؟ هذه مصيبة جديدة الحق انها مصيبة قديمة لم أكن قد فكرت لها فى حل كيف نسيتها ؟ ضرب محمود الأرض بقدمه ومشى يسب ديك الحريم وما يجيء من جرائهن ·· فمشيت وراءه أستعيذ بالله مما فى علم الغيب ··

اندفع محمود ·· قطع الزقاق الضيق فى لمح البصر فصار فى قلب الرحبة ·· لم يكن هناك مكان لنسمة هواء ــ الرحبة مزدحمة بالناس وكلهم رحبويون على الآخر ·· الجلاليب الملطخة بالزيت والعرق ، ضيقة الأكمام قصيرة الأطواق ، الكلام الذى يبيعون به ويشترون لسانهم المعووج دون أهل البلد الأصليين ، كلا هم واحد فى كل حاجة ، كلام البيع هو نفس الكلام الذى يطلبون به النوم مع زوجاتهم ويتشاتمون به ويتعازمون عليهم لعنة الله أنا حفناوى الذى ولدتنى أمى فى حقل البوص فى الصعيد وعشت مع الذئاب ومع الثعالب وأولاد الليل لم أجد أحدا فى وساخة الرحبويين وحتى الآن لا أعرف كيف أعيش مع أهل الرحبة ·· وكنت فى النهاية

اقول « رب ضارة نافعة فلولا وجود أهل الرحبة فى وسط هـذه البلدة لما أصبح أهل البلدة أنفسهم مؤدبين هكذا • فالعراك اذا نشب فجأة بين اثنين أو أكثر من أهل البلدة تفضه فى الحال كلمة واحدة يقولها رجل فائت يقول : « احنا فى الرحبة ولا ايه » وهنا لا يكف العراك فحسب بل يكتشف كل من الطـرفين المتعـاركين ـ فجأة ـ أصله وتربيته التى هى على الغالى • أما فى داخل الدور فان شخط رجل فى زوجته بكلمة قبيحة فالزوجة تنظر اليه فى دهشة وتمصمص شفتيها قائلة : « لعلنا فى الرحبة » فينكس الرجل راسه فى خجل ولا يمحو شعوره بالوضاعة الا أن يبقى طول الليل يتودد الى زوجته ويداعب أطفاله على غير العادة •• اننى فى الأصل من هذه البلد ولكنى فى أوقات كثيرة أضيق بالناس وأكاد أصيح أننا جميعا رحبوبيين مهما تبرأنا من سلو الرحبويين وألسنتهم •

ما أن ظهر محمود حتى سمعنا كلاما حنفشـاريا من كلامهم الفارغ :

ـ هى غلطانة •

ـ ما كان هناك داع للفضيحه ••

ـ فضيحة ؟ لماذا ؟ •• هل كان هناك شىء مختبىء ؟

ـ مهما كان فلا يصح •

ـ يصح أو لا يصح .مالك انت ؟ •• أتجعل من نفســك أبوكاتو •• ؟

ـ روقوا يا جماعة •• صلوا على النبى •

ـ لا نبى ولا ولى •• لا تدوشوا دماغنا ••

وقفت أدقق فى الوجوه المحيطة بنا بينما ندفع الأجســاد لنمر فاذا بين الوجوه وجوه ليست من أهل الرحبة •• وكان معاطى يسير خلفنا واذا به يتوقف •• ايه يا معاطى ؟ •• فقال إن الخلاف

وقع بين البلد والرحبة ، وصفق بيديه قائلا في تريقة « يا هادى يا دليل ·· يا هادى يا دليل ·، ليلتنا ورد باذن الله » · قلت له : « امشى يا معاطى ولا دخل لنا بأحد ·· دع الليلة تفوت على خير » فمشى ولسانه يمشى بجانبه :

ـ حكاية يصح ولا يصح هى بيت القصيد ·· طول عمرنا نقول لا يصح ·· وتقول الرحبة يصح ·· لكن الآن ·· ما دامت الرحبة تقول يصح ·· فخلاص ·· يصح على رأسنا ورأس أبيئنا ·· من الليلةستكون الرحبة هى صاحبة الكلمة فى البلد ·

ارتفع صوت لم أعرف صاحبه :

ـ أتعيب فى حق الرحبة ؟

استدار اليه معاطى :

ـ أرنى نفسك يا من تتكلم ·

ارتفع صوت آخر :

ـ دعك منه يا معاطى ·· انه مخلوف الصفطاوى وانت تعرفه ·

وضحك معاطى قائلا :

ـ أهلا سى مخلوف ·· صرت أنت الآخر تتكلم ·

مخلوف أضعف واحد فى الرحبة وأعلاهم صـــوتا ، عمره ما تعارك الا بالصوت فحسب أما الآن فقد رأيته يزيح الناس من حواليه ويندفع نحو معاطى يريد أن أن يضرب ويسيح الدم · أعرف ان معاطى يمزح كعادته فربما كان هو الوحيد الذى تســمح له الرحبة أن يمزح معها وبنفس كلامها والعادة أن يضحكوا لأنه قلدهم ببراعة ولأنه ولد حلو اللســان والطبع ويرقص فى كل الأفراح سحبته من يده لأقصر الشر ولكن أحدا من أهل الرحبة لم يسحب مخلوفا انما تركوه يتدافع وراءنا والى أن صرنا بعيدا عن الزحمة كان يشتم ويسب ·· سحب معاطى نفسه من يدى ـ ووقف يبتسم

ولما لم يتحرك أحد ويقول « عيب يا مخلوف اختشي » أمسك معاطي ذراع مخلوف ولواه بسرعة وطوحه على الأرض فنزل كما الجوال ساكتا وبقي معاطي واقفا والغضب يرعشه نهض مخلوف من الأرض يلهث كالكلب السعران ودب يده في جيبه وأخرج مطواة وفتحها وهجم بها على معاطي لكن معاطي ـ كما يرقص بالضبط ـ رجع بسرعة وشنكل مخلوف وطوح به في الأرض مرة ثانية فانغرزت السكين في الأرض فداس معاطي فوقها بقدمه وطوح الأخرى في وجه مخلوف كأنه يضرب كلبا شريدا .. هنا صرخ مخلوف كما النسوان وقال « أسناني واذا بضحكة ترتفع حتي من فمي ومن فم معاطي فمخلوف ليس في فمه سنة واحدة . وبهذه الضحكة زال الخطر وبقيت في الجو كلمات « قم يا حلو قم » « قم يا فتوة يا أبو سكينة » على ان شقيق مخلوف ظهر فجأة ممسكا بنبوت » راح يزعق ويصرخ :

ـ أيجيء ليضربه هنا .. أيجيء ليضربه هنا ؟

ومن خلفه أصوات رحبوية عالية :

ـ لابد أن يخرج من هنا الى القبر .

ـ يخرج مفتتا .. نعمله كفته ..

ـ أصلكم نسوان حتى تتركوه يضربه ..

ـ دعوه لى وأنا أبصق في مؤخرته ..

اندفع اليه معاطي كما الأسد .. خرجت يده من فتحة جلبابه الجانبية ممسكة بطبنجة كبيرة يعرف الجميع أن أباه أحضرها من الحرب العالمية بعد أن قتل ضابطا كبيرا وتطايرت في السماء طلقات الرصاص . دب الفزع في الجميع وانهارت الأجساد فوق بعضها واقعة واتسعت الأرض تحت معاطي ومخلوف ممدد على الأرض يمسح الدم عن فمه ويجعر باكيا ومعاطي ـ يجعر شاتما ..

ـ لا أحـد يملأ عيونكم يا واطئين يا كلاب ؟ .. وشرف أمي

لاربينكم واحدا واحدا هاانذا أريد أن أروح الليلة فى داهية .. سأصور هنا عشرين قتيلا ...

وصاروا يبادلونه الجعير وصوتهم يعلو وينخفض ويختفى فى الحوارى .. وفى هدوء شديد تبعنا معاطى الى دار فكيهة ... ثم اختفى .

خرمت فى حارة الفرارجى ودخلت دار الفرارجى نفسه .. رأيت محمود ينهال ضربا على فكيهة كأى رحبوى أصيل ويقول : « هس اخرسى يا لبؤة » وامرأة عجوز تجلس فى ركن القاعة وتقول مولوعة « الفضيحة .. الفضيحة .. منك لله يا مقصوفة الرقبة » وقالت أمرأة رحبوية لماذا يضربها .. أله عليها ضرب ؟ وقلت أخرى طبعا انه خطيبها وسوف يتركها بحسرتها .. وصاح محمود فى وجه فكيهة « لا أحد يبكى على .. انت خطيبتى كما أنت ، وملت على محمود وهمست فى أذنه « سمعت انها حملت منك فى الحرام فشف لك حلا من الآن وصــــاح محمود كأنه لم يسمعنى « قبل مغادرتى للبلد سأعقد عليك .. خلاص انتهت المشكلة يا أسيادنا .. فارقونا اذن ليذهب كل منكم الى داره قبل أن أهزئه » واندفع يشق لنفسه طريقا .. ومضى الجميع خلفه مثل ظله .

رجع الذين بعثهم محمود الى دوار العمدة وقالوا ان الدوار ليس به أحد وخمنوا ان العمدة وشيخ البلد مشغولان بدفن الجثة وبتصريخ الدفن والبحث عن بسيونية وعن مكان يغسلون فيه الجثة وفلوس لكفنها ومكان لدفنها فبسيونية فى الأصل ليس لها مقبرة وقلت أنا انه لم يكن من الواجب أن نرسل للعمدة فالمفهوم اننـا لا نعرف شـيئا عن الأمر الا مجرد كـلام وقال ابن خال محمود « سيجلس محمود معززا مكرما حتى يجىء الخفير ويطلبه » وقال ابن عم محمود « هل الخفير من قيمته ؟ .. انه لا يتحرك من هنا الا بمجىء العمدة بذات نفسه » . واذا بمعاطى عليه اللعنة ـ موجود

فى القعدة ثم لا تفوته « الوأحدة » أبدا « لا وانت الصادق ·· محمود لا ينبغي أن يتحرك من هنا الا اذا جاءته البغلة بنفسها » · وفرقعت ضحكة كبيرة كان محمود أول من بدأها وآخر من أنهاها ثم نظر الى معاطى نظرة لها معنى وابتسم « والله لو عرفت قيمتى لجأت ورجلها فوق رقبتها » فسحبه معاطى من أذنه باشارة من اصبعه ومال هامسا فى غبطة « ونأخذها لتستحم فى الترعة » ورجع محمود برأسه ساحبا ذقنه · وهل هذه تستحم فى الترعة أيضا ؟ · لابد أن لها حمام من الرخام المرمر ·· وماء الترعة لا ينفع ·· ولا ماء الطلمبة » ورد معاطى « فعلا ·· من المؤكد انها تستحم باللبن ثم ان الرجال فوق المصطبة انكمشوا وغاصت رقابهم فى أكتافهم وضغطوا بأسنانهم وزاموا جميعا زومة قصيرة ثم سكتوا فى خجل ·· ثم اندفعت العيون كلها تنظر الى محمود فى حقد فابتسم وبدا عليه انه سعيد بحقدهم واذا بعويل يدخل المندرة قادما من حجرة الكرار ، عرفت انه صوت « نجية » أم محمود ·· ارتبكنا جميعا ـ وانقلب وجه محمود ونظر الى معاطى مشوحا برأسه نحو الداخل · فنهض معاطى واتجه الى حجرة الكرار وأنا وراءه · كانت (نجية) قد مزقت جلبابها الاسود وراحت تلطم خديها وتضرب الأرض بيديها وقدميها وتقول بصوت مبحوح :

ـ عوضى على الله ·· لن تهنأ به عينى ثانية ·· منها لله البغلة ·· منها لله البغلة بئر وانفتح لا يجد من يسده ·· أترينها أقسمت لتتخلصن على شبان البلد ؟ ·· هل انتهت من شبان البلد واندارت علينا ؟

كانت كالنار المشتعلة لكن معاطى فى بعض الأوقات يكون أطول بالا منى وأحسن فى التفاهم مع أن حفناوى ابن الغربة المشهود له بالكلام الحكيم ·· وقف ينظر الى الولية ويبتسم وانتظر حتى أفرغت الولية كل ما فى جوفها من بكاء وأسندت صدغها على كفها وهنا اقترب منها وقال باسما :

ـ نعرف أن أبا حنفي سيد الجدعان ·· لسنا محتاجين لهذه الفضيحة لكي نعرف ·· على مهلك ·· على مهلك ··

ابتسمت الولية ولم تفلح كفها اليمنى في مداراة الابتسامة · يا لك من خطير يا معاطي · أنا نفسي كنت أحمل همها فكيف استطعت يا معاطي أن تسحب الابتسامة من جوف الصراخ وتكشف عن الفرح في بطن الألم ·· تمددت الابتسامة حتى ملأت وجهها كله · فقال في غبطة :

ـ نعم ·· ابتسمي يا نجية ·· فمن منا قدك اليوم ؟ هنيئا لك ·· من غد سوف تركبوننا وتطوحوا أرجلكم ·

أدارت وجهها لتخفي سعادتها بل انها اقفلت حنكها بيدها لتمنع الضحك وقال معاطي وهو يدفعها بأطراف أصابعه :

ـ أقولك يا خالة نجية ·· هل ستقبلين وساطتي ؟ ·· حين يبعثني واحد من ـ البلد يريد أن يشتغل أو حين تحتاج البلد الى ماسورة تركبها فوق المصرف هل ستقبلين وساطتي ؟ ·· طبعا لابد ·

احمر وجه نجية والنزرد والضحكة المكتومة تتمرد وتنتفض في خديها وهي تهز رأسها وتحاول ان تبدو حزينة كما كانت وشقاوة حلوة تتراقص على وجه معاطي ويؤكد لي ان هذا الولد لم يكن طفلا في يوم ما انه ولد هكذا عجوز الملامح صبي الجسد حكيم القول :

ـ والله يظهر انك لن تجعلي لنا سعرا ·· أنا أعرف ·· ساعتها ستقولين لي من أنت ·· وتجلسين فوق البساط وترسلين لي من يقابلني ويزحلقني ·· نعم أنا لست تائها عنكم ·· يا أهل الرحبة ·· لا غالي لكم ··

انفتح حنكها وتساقطت الضحكات وجاء من المندرة صوت كركرة الجوزة مصحوبا برائحة المياه المندلقة نحو شقتي معاطي

فامتدت أصابعه وتناولت البوصة وانضمت عليها شفتاه وراح صوت الجـوزة يتراقص طربا في الدار وسحب الدخان الأزرق تتكـالب مندفعة لتسبح في الفراغ بنشوة وحامل الجوزة يتمايل من كثرة الطرب ويطرقع بالماشة في تنغيم حتى اذا ما زفر « الحجر » نفسه الأخير ضن به معاطى على الهواء واحتجزه في أنفه وقال لنجية وهو يبتلع الدخان :

ــ أهذه ثياب ترتدينها في ليلة كهذه ..

أخيرا نطقت بصوت خفيض قالت « لأنها سوداء ؟ هذا هو الواجب » قال متجاهلا يسدها « لأنها ممزقة وتكشف عن عريك » نهضت الولية في الحال متكورة على نفسها وانسلت خارجة وهنا طرقع معاطى بأصبعيه طالبا حجرا وفى الحال تأودت البوصـــة واستسلمت لشفتيه وراحت الجوزة تطلق أصـواتا بهيجة والمندرة كلها تتمايل وتقول : « يا سيدى يا سيـدى » ثم تقول لمحمـود « تعلم يا أبا حنفي .. لابد أن تكون هكذا قبل أن تراك السنيورة .. وبعد حجرين أو ثلاثة دخلت الى حجرة الكرار امرأة غريبة ترتدى جلبابا من الشيت الملون المزخرف بتصاوير صغيرة لأطفـال عرايا ذوي أجنحة ثم انها تتعصب بمنديل من الحرير بأوية وفي معصميها تلمع الغوايش الذهب . من تكون هذه اللبؤة التي تجيء وتجلس بجوار معاطى ؟ يا للفظاعة أيها العقلاء في هذه الدار ان كنتم عقلاء حقا ؟ من منكم يصدق ان هذه اللبؤة التي زوقت نفسها فجأة وباتقان أزال ملامح السنة الخمسين من وجهها هي « نجية » أم محمود ؟ كان ما يدهشني ان ما حدث يمكن أن يحدث وان الحزن يمكن أن يكون مجرد واجهة لسعادة غامرة وان السعادة يمكن أن تكون فظيعة الى حد يجعلها تتخفى في أثواب من الحزن المرير وان الواحد يمكن أن يكون سعيدا حزينا في نفس اللحظة هكذا . لحظتها وقف معاطى خابطا ركبتيه بكفيه كأنه أنهى المهمة قائلا : « اتمسى بالخير يا خالة نجية » ثم تخطى الدهليز الى المندرة فقابله الجميع بالترحاب . أنا

حفناوى الذى لطمته الحياة من بحرى الى قبلى والذى استطعت أن أعيش ذات عام فى بلدى هذه وفى دارنا وبين أهلى بشخصية رجل غريب أخنى عليه الدهر كما تقول الروايات ثم رضيت فى آخر المتمة من الحياة بالقليل وعملت خادم ثور فحولت الثور الى رأسمال .. أنا حفناوى الذى قطع السمكة وذيلها .. أشهد أننى لا أفهم شيئا أى شىء عن سر هذه السنيورة البغلة وكيف يندفع اليها الحزن فى موكب من الفرح العظيم وهذه اللبؤة التى لم أرها فى يوم بهذه السعادة كنت منذ برهة متأكدا ان قلبها يتمزق وانها حزينة حزنا لا مثيل له : أشهد أيضا ان الجوزة لعبت دورا أثار البهجة فى القعدة وأنساها الكثير وأخذ المساء يزحف والليل يطل علينا من شبابيك المندرة ويختلط وجهه بحديد الشباك وانقطع نفس الجوزة وتكومت فى الركن وبالت على نفسها وتكوم أيضا كثير من الأطفال وصرت أردد « كل سنة وأنتم طيبون .. العقبى للأولاد .. شرفتم .. أهلا وسهلا .. نزوركم فى الأفراح .. السهرة أخذت حقها وكان الليل قد انهزم ساعة خروج الناس من المندرة وبقايا الدخان مثل ابيضاض الشعر فوق أذنى .

لم يعد باقيا فى المندرة سوى محمود ومعاطى .. والعبد لله وقال معاطى وهو يتمشر فى عدة الشاى والقلل :

ـ هيه .. ماذا تنوى أن تفعل يا أبا حنفى ؟

اعتدل محمود وتحفز « ما الذى تراه أنت يا معاطى ؟ » وأشعل سيجارة مكن مع انه أصلا لا يشرب السجاير .. ثم انه استغرق فى التفكير وكذلك فعل معاطى على انه أشعل سيجارة له وراح يتفرج على عود الكبريت وهو يحترق ثم رماه بغيظ قائلا : « ماذا ستفعل لو ان البغلة ضربتك فى محاشمك ؟ » قال محمود بخوف حقيقى « لا أعرف » ثم قال بعد برهة : « هل .. ستضربنى بالفعل ؟ » كور معاطى شفتيه ونفخ الدخان « تراك أحسن من من ؟ » الدماء

تندلق في وجه محمود وتسيح ملامحه على بعضها يرتعش صوته « يا معاطى ‥ ربما ‥ أتمكن من ارضائها شوفوا خبث معاطى » ماذا تفهم نفسك « وشوفوا ربكة محمود لا لا ‥ انت تعرف ‥ ان انني ‥ » معاطى سلط عينيه في عين الولد فارتبك أكثر فأكمل معاطى ما أحسست أن محمودا كان يريد قوله « انك عاشق الجنيه ‥ هه ‥ تريد قول هذا ؟ » محمود مثل الواقع في بئر خفت عليه من الخجل الذى طفح على وجهه وجاءني احساس باللذة اذ أتركه يريني قدرته على التصرف » دعك من حكاية الجنيه هذه ‥ انما ‥ انما ‥ على كل حال لا يهم ‥ هب ان الناس تقول هذا ‥ ألسنة الناس اقلام الحق كما يقول الشيخ جمعة » ٠ وأعجبنى الولد تربيتى ٠ لكن ان معاطى آه من معاطى الملعون خبط رأسه فى الحائط عدة خبطات وقال « ألم ندفنه سويا » نهض محمود « اسمع يا معاطى انك ‥ لا تنكر انني ‥ » وهز ذراعيه كمن يقول « انني رجل فحل » ٠ على ان معاطى ميل رأسه بالموافقة فلم أسترح لموافقته ولمحت وراءها استهانة كبيرة قال محمود : « هذه امرأة تقلب على صدرها عشرات الفحول من ريف وحضر ‥ فلابد أن يكونوا على الأقل ــ قد خفضوا ارتفاع اللهب فى حرائقها » ومرة أخرى أعجبنى الولد ٠ وقال معاطى « نعم ولكن حرائقها تبتلع الرجال حتى الآن ‥ انك ذاهب الى بئر لا ينفعه الا كل فارس صحيح الجسد » قال محمود « مستعد أثبت لك انني في التمام » ضحك معاطى : « اثبت لها هى » وصمت ولم يجد محمود ردا ‥ وبعد برهة قال معاطى « رأيى فيك ‥ أو حتى رأى فكيهة ــ الله يلعنك يا معاطى ــ أو رأى الجنيه نفسها ــ ملعون ملعون ــ لم يعد له قيمة الآن ‥ وعليك أن تتأكد من نفسك جيدا قبل أن تلقي بجسدك فى النار » قال محمود بخيبة أمل « تقصد ألقى بنفسى في المصرف من الآن ؟ » رد معاطى دون أن يبتسم « لا ‥ يمكن أن تأخذ معك التركيبة المناسبة » وجلس محمود كأنه سلم « تستطيع أن تعلمنى كيف

التصرف » وقال معاطى « أستطيع أن أقوم بالعملية نيـابة عنك ولو مرة واحدة » وهنا وقف محمود وراح يصفق كفا على كف ويقول فى سخط ليس من الصعب أن تلمح ما وراءه من زهو « ما الحيلة وقد اختارتنى أنا ·· بحق الله ماذا أعجبها فى ·· الدنيـا ملآنة بالشبان الأقوياء والوجهاء ·· فلماذا يارب تفتح عينهـا على أنا بالذات ؟ » وسار يمصمص بشفتيه ولم ولم أدر ان كان ما رأيته على وجهه سعادة أم رعبا فالحق اننى لم أعد قادرا على تمييز السعادة من الرعب فى هذه المسألة · ومرت برهة ثم تقارب الرأسان والتحما فى همس وهمهمة لمدة طويلة ضايقتنى ·· وصار صوت الهمس يعلو قليلا حتى صار صوتا مسموعا ولكنه ليس مفهوما لى ، خصوصا وانه كانت تتخلله ضحكات صبيانية عالية ··

خرجنا الى الخلاء ضائقين ·· ثوران هائجان وخروف عجوز ما أن تركنا الشارع وصرنا فى قلب الرحبة نفسها حتى برز من الظلام شبحان أسودان كل منهما يمسك نبوتا طويلا رأيت أحدهما وهو يقبل من ورائنا متجها الى رأس معاطى وصرخ صبى لا ادرى كيف كان يختبىء فى الظلام : « خال معاطى · احذر النبوت أؤكد أن معاطى كان متوقعا شيئا من هذا ·· لقد طير نفسه فى الهواء وهبط بعيدا رافعا يده ودوت طلقات الرصاص متوالية سريعة البطح الشبحان فوق الأرض وتناثر النبوتان فى الهواء لا أدرى كيف » وصاح محمود « اعقل يا معاطى ·· معاطى ولا أدرى كيف صار النبوتان فى يد معاطى ، ولا كيف أمطرت السماء كل هذه الرجال فى لمح البصر كلهم يريدون الهجوم على معاطى ، أنا صحيح أشتغل عند واحد من الرحبة ويهمنى أن يفتح له باب السعد ولكننى لا يمكن أن أطيق رزالة الرحبة ولا يرضينى أن يضربوا معاطى ويعلم الله أننى خائف خوف الجنون مما ستفعله الرحبة فى أهالى البلد بعد ذلك على حسن محمود فأخذت أعطل زحف الناس وأشنكلهم بصنعة لطافة ·· ثم سمعت صرخات رحبوية تقول : « آه يا دماغى » ثم

رأيت معاطى يندفع جريا والجموع وراءه الى أن صار بعيدا عن الرحبة وفى زمام شارعه . وكنا نجرى كلنا وتستقبلنا طوائف أهل البلد من كل جهاته لا ندرى كيف نبتوا فى الليل كأنهم جميعا كانوا يريدون للرحبة مقتلة من أول النهار أحلف أن البلد كلها كانت تتدفق من كل ناحية على شارع معاطى وكلهم مسلحون بالغدارات والنبابيت وغطيان الحلل وحديد الشبابيك .. وانحصرت الرحبة كلها بينهم . يارب ـ كيف تحولت الأجساد التى كانت منذ برهة لا وجود لها الى أرواح شيطانية : نبابيت ترتفع وتهوى وتتقارع تصك الرؤوس وتدب الأقفية والرقاب رصاص يفرقع ويدوى ويبرق كالرعد صراخ يتزايد ويرتفع .. أين معاطى ؟ أين محمود ؟ خيل الى أن الغيطان البعيدة والأشجار والسواقى وكل شىء فى الكون يزأر ويبكى ويصرخ ويطقطق وتتكسر ضلوعه وتنهار جدرانه . يا للمصيبة . لم يعد فى الرحبة جدران ولا مبان فوق الأرض .. بل أجساد وجثث وأدمغة وناس تروح وتجىء وتدخل فى بعضها ضاربة ممزقة وكنت قد وجدت نفسى واقفا هناك عند نخل كحكاية « مع أننى منذ قليل كنت فى قلب الرحبة .. وسألت نفسى : أين كان هذا القمر فى أول الليل . ولماذا يحجب نفسه فى سعف النخيل كأنه لا علاقة له بهذه الجموع المتطاحنة طلبت من الله أن يطلق سراح القمر على هذا الهول الكبير لنرى النبابيت أن كانت تهبط على عدو أم حبيب .. ولكن القمر يبدو كالمتجسس ويبدو كأنه مشوى فى فرن من اللهب .. اللهب ؟ يا للمصيبة .. انه لهب حقيقى : « حريقة .. حريقة .. حريقة يا مسلمين » .. هكذا سمعت صوتا ولكن ... من سيطفى هـذا الحريق الذى اشتعل فجأة ـ والرجال يتقاتلون بغيظ دفين .. خيل الى أن القيـامة قامت .. وراحت ألسنة اللهب تتصاعد فى الجو مقبلة من كل ناحية تطقطق وتفرقع .. وكتل الدخان تزحف كليل يغزو أراضـينا وبيوتنـا والنبابيت لا تكف عن التطاحن . وأظلمت الدنيا واختفى القمر .. ولم يعد واضحا فى الليل القارح سوى صراخ الأطفال .

● الفصل الخامس ●

كيف تكلمت الزكيبة لشيخ البلد ·· ولكنها لم تفصح

والله عال وبعول يا عمدة انك لم تقدر على فض الهوجة ؟ ·· أصلك ابن حلال ·· تتصورني أهذر ؟ ·· لا ورحمة أبيك وأنا لم أحلف بالمرحوم باطلا ·· نعم ·· الله يرحمه كان يرينا نور نجوم الظهر ويسقينا المر ومع ذلك ·· لم يجد من يكرهه كان سكرة يا حضرة العمدة وأنت مثله بالضبط الخالق الناطق مثله لا تجد من يكرهك ·· نعمة من الله طب يا أخى كنت ·· أبعث لى بأى كلب من كلابك الكثيرة قل له اجر هوهو لك هوهوتين أمام بيت الحمار اللى اسمه شيخ البلد صحيح ان بيتى خارج البلد وفى وسط الحقول ولكن فركة كعب توصل القادم الى · أنا صحيح حمار كما قلت لك ولكن حموريتى عندها بعض الفهم وكنت سأعرف انك متورط فى مسألة ·· ما علينا حدث خير ·· لا تحرق دمك · ايه

يعنى . مات خمسون وانجرح مائة ؟ .. فى داهية .. فداءك .. خمسون كلبا ومائة جحش والبلد لم تفرغ بعد واطلب تجد انهدمت الرحبة ؟ .. مصلحة .. كان حلماً والحمد لله أن تحقق . أكل الحريق ثلاث أرباع البلد ومن بينها دوارك ؟ .. بسيطة . وعدل من الله أيضا البلد هدمت الرحبة والرحبة أحرقت البلد فما خسر العادلون شيئا ثم ان الله كان رحيما بك اكتفى بحرق الدوار دون الدار .. لا عليك لا عليك .. قم اغسل وجهك وعفر هذه السيجارة و .. هل أخذت مزاج العصارى أم لا ؟ .. خذه ولا يهمك ملعون أبا الدنيا .. معك المزاج أم لا ؟ أبعث لأشتريه لك ؟ .. الجيب واحد يا عمدة .. قل لى : ساعة أن جاءك الخبر بأن جمعا من كلاب الرحبة تنبح طول الليل وتعوى ألم يقل الخبر مع من كانت تنبح كلاب الرحبة ؟

أعرف أن كلاب الرحبة لا تكف عن النباح .. نعم كلاب أولاد كلاب لا تكف عن النباح فماذا نفعل لها .. ؟ .. خلاص ملعون أباهم .. عفر عفر .. يا شيخ .. لكن حين جاءك الخبر ألم يفكر فى المجىء مرة ثانيـة ليبلغك .. ان الكلاب صارت تتقاتل وتبقر بطون بشر ؟ .. هو الخبر الملعون لابد جاءك مرة واحدة فقط .. أظنك نمت بعدها لو كنت مكانك لنمت .. طبعا : . خبر يقول ان الكلاب تنبح مالى أنا فلتنبح خصوصا وأنها لم تكن فى يوم من الأيام الا نابحة .. أما الحرائق والصيوات وما شاكل ذلك من هذه الدوشة فهى فى النوم تصير حلما غاية ما فيه انه مزعج أما أن أراه رؤية العين فهـذا شىء أجارك الله .. الحمد لله ولطف على كل حال . لا تأكل نفسك .. عفر عفر ..تقول ان « محمود بن قنديل » مات هو الآخر ؟ .. يا للكارثة .. وماذا ستفعل مع التفتيش ؟ ..

لكن ، مصلحة . أنت لا شك .. استنفعت بقرشين من المرحوم جزاء خدمتك له ، وقد مات . لعل السماء تريد ذلك لكى تستنفع لك بقرشين من واحد آخر ، وبهذا تبنى الدوار ويكون الله قد أخذ

منك باليمين وأعطاك باليسار فما خسرنا شيئا وان كنا تعلمنا أن الكلاب حين تنبح بهذا الشكل فلابد من فضها بلقوة . كل ما هنالك أن التفتيش لن يحاسبك على الرأس الآخر ، الرأس الجديد . ولكن لا ، انك يمكن ألا تقبل ، والظرف فى صفك : والله بانفتش أنا فى نكبة من جرائكم .. وقد اخترت رأسا وها أنتم ترون ما حدث فما ذنبى ، أن أوافيكم برأس جديد يستلزم اقامة فرح جديد تحضره السنيورة لتعاين ، ثم اقامة فرز لاختيار الأحسن ممن أوصت بهم ، وهذا طبعا جهد جديد يلزمه أجر جديد .. فى ظنى أنك تستطيع أن تقول هذا وحتما ستكسب .

اسمع ، يمكننا أن ندبر الفرز بسرعة ونختار ولدا نحدده من الآن ونخلص ، وسأشير عليك به . لكن .. آه .. يا للخسارة .. انك تقول أن الولد معاطى مات أيضا ، رحمه الله كان أنسب الولدين .. لا عليك لا عليك .. سندبرها حالا . عفر عفر .. ولكن ماذا سنفعل والدنيا مقلوبة والنيابة لا تكف عن المرواح والمجىء ؟ حقا ماذا تفعل ، لكن لا .. أنا أقول لك : منذ متى كانت النيابة تهتز من أشياء كهذه ؟! ألا تذكر يوم قامت البلد وأحرقت عزبة عجلان ؟ . تحول الحادث الى قضية راحت تدب فى المحكمة سنوات وسنوات ومات قضاتها الأصائل ومتهموها أيضا وحتى هذه اللحظة لا أحد يعرف الام ستنتهى . دعها تأخذ مجراها وما دام التفتيش وراءك والسنيورة أمامك فلا تحمل للدنيا هما . ألا تستحق من السنيورة خدمة كهذه وأنت ترسل كل فحل وأخيه لتشبع متعتها ؟ . عفر يا رجل وقل للولد يعمل لنا زردة العصارى .

والآن خذ هذه عهدة عليك أن تتصرف فيها . سأقول لك حكايتها . تعرف طبعا أننى أخذت الزكيبة فى عهدتى وختمت باصبعى على تعهد بأننى سأتولى دفن الجثة بمعرفتى ولقد جئنا بالخشبة على شاطىء المصرف وأمرت اللحاد بأن يغسل الجثة فى

سرعة الغسل الشرعي ، ودبرت لهـا مدفنـا بمقبرة صغيرة مات أصحابهـا من زمن ، و ‥ أن هـذا كثير وحق الله . بالأمس كنا حائرين فى دفن واحد فقط واليوم ندفن العشرات بلا أى تعب ! . المهم أن اللحاد أخذ يعبث بالجثة . دب يده فى جيب الصديرى أخرج محفظة كبيرة لا تقل عن محفظة « البورينى » تاجر الأقطان . كانت منتفخة . لا تنزعج لم يكن بالمحفظة مليم واحد . لم أجد بها سوى هذه الأشياء . تفضل . هذا خاتم يبدو أنه باسم الفقيد ولكنى لم أعرف أفك خطه . لعلك تعرف أنت . أظنك يا عمدة تعلمت فك الخط من مدة ، من يوم أن ذهبت لتقابل الملك فؤاد فى كفر الشيخ وقررت أن تعزمه على الغداء ، أظنك أيضا كتبت له خطابا تخبره فيه أن عائلتك ذات أصل تركى بعيد لا تتضايق هكذا وعفر . أظنك أثبت للملك فؤاد أنك أحد أقاربه الذين ظلمهم القدر ، احذر ألا تكون قد أخبرته بهذا والا فأنت تظلم نفسك ظلما فادحا . انك لا تفترى عليه ، صحيح أننا نعرف أباك وجدك وربما جد جدك ولكننا نقتنع أنك بالفعل من أصل تركى عال ، ومن يدرى فلعلك لو بحثت فى الأمر قليلا بمعاونة الملك فؤاد فربما تكتشف أن البلد كلها كانت فى الواقع من بين أملاك المرحوم والدك ، أو من موروثات ذات المقام العالى والدتك . إننى أتكلم الجد ، دائما تشك فى كلامى هكـذا وتعتبره تريقة ؟ دائما تسىء الظن بى يا عمدة ؟ سـامحك الله . هاتوا الشاى يا أولاد . هاتوه ربما فتح العمدة مخه وعينيه قليلا . آه يا عمدة لو أنك أثبت للملك فؤاد جلالة قدرك ، لا تتصور ما الذى كان يفعله لك فى محنة كهذه . دعك من هذا فأنت أشطر مخلوق شفته فى حياتى وعيب أن ترتبك هكذا أمام أوراق كهذه . المقصود . هذه هى العهدة التى وجدناها بداخل العهدة . وكل عهدة ستجد بداخلها عهدة أخرى والمسألة باذن الله يمكن ألا تنتهى . أقـول لك ؟ ‥ كل « عهدة » ولها حلال ‥ هاهاها ‥ سى ‥ اضحك يا شيخ وفكها فى عرض النبى ‥

هل كان من الواجب أن نكتب محضرا بهذه المحفظة ؟ الأمر لك على كل حال • قصدى أقول أن محضرا بهذه المحفظة سيجر علينا الوبال ألوانا ، ولكن الأمر لك مهما كان ، ثم أنها محفظة لا تحوى سوى بضع أوراق خنفشارية لا هنا ولا هناك •• « يا عم واحنا مالنا سمك ما أكلنا بس اتهمنا » •• صدق من قال هذا المثل ، ووالله انى لابن كلب ، ما الذى أضنى فؤادى وجعلنى أحتفظ بهذه العهدة ؟ • ليتنى دفنت الزكيبة بكامل هيأتها بلا غسل وبلا كفن • نعم كان هذا هو الواجب • ولكن ، المقصود • لقد تعلقت بى العهدة وانتهى الأمر فانظر ماذا ترى • مالك تبحلق فى العهدة هكذا وتشرد ؟ • تشغلك الأوراق أن خطها مثل روشتة الحكيم لا يستطيع أحد قراءته ، كما وأن بقع الماء تسربت الى جيوب ! المحفظة ولطخت الورق بالحبر ، ولو استطعنا أن نفك سطرا فكيف نستطيع فك البقع السائحة • أنت مهما كان رجل متنور ، والحمد لله أنك سعيت وتعلمت فك الخط والا أصبحت المسائل مضحكة • العمدة وشيخ البلد لا يعرفان الألف من نبوت الغفير ؟ •• مصيبة •• أقصد كانت تكون مصيبة •• عفر عفر ولا تحرق فى دمك ••

الخشية أن تجىء النيابة من جديد وتستخرج الجثة لتأخذ أقوالها • ربما يجيئون باللوم علينا ويقولون لنا كيف لم تأخذوا أقوال الزكيبة ، كل شىء جائز فى هذه الأيام • أنا شخصيا لا ذنب لى ، ها أنا قد جئت بأقوالها والأمر لك • لماذا تندهش هكذا يا عمدة ؟ ان هذه الاوراق هى بالحق أقوال الزكيبة ولكنها أقوال خرساء لا تستطيع أن تفهم منها شيئا • فلنخاطبها بالاشارة لو أردنا ، وهذه مهمة ليست بالصعبة عليك أبدا • المقصود أرى أنك الليلة لا تصلح لشىء ؛ لقد انغلقت بالضبة والمفتاح ، وخير ما أفعله أن أدعك الآن • فاليك العهدة ، وسأعود اليك فى الصباح لنتفاهم بشأنها •

● الفصل السادس ●

سيدنا يضع اللغز ..
أمام عريف الكتاب

وحق جلال الله انك عريف على قد حاله . قلت لك يا ولد انك لا تزال صبيا وبينك وبين الفقهنة درجات ودرجات . احذر بعه الآن أن تتمرد على ، وانزع من دماغك مسألة أن تفتح كتابا لوحدك وتستقطب الأولاد معك . تريد أن تعرف لماذا طلبنى العمدة ليلة أمس ؟ . الواجب يمنعنى من أن أقول لك . ولكنى سأقول لسبب واحد فقط هو أن تعرف أن الناس مقامات فى هذا البلد . وحد الله . تريد أن تسمع منى الحكاية ؟ صلى على النبى ، ثم زده صلاة ..

دفعنى مقصوف الرقبة الذى اسمه شيخ الخفراء أمام العمدة . أقصد قال لى اتفضل يا سيدنا . وجلست ، وكان وجه العمدة مكفهرا وكل عفاريت الدنيا مقعية على كراسى خده الغليظ . قام بنفسه وقال لى بعد أن أغلق الباب . اقرأ لى هذه الأوراق يا سيدنا .

« قال جل جلاله » « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » • نعم فوحق الله كنت أكره خط العيال في الألواح وأتعب في تصحيحها ولم أكن أدرى أننى أتعلم منهم فك الخطوط المعقدة المتلوية • ولذلك ما ان أمسكت الورق حتى نطقت بما فيها بعون الله • ولقد حفظت الكلام عن ظهر قلب اذ أننى كنت أقرأ السطر ألف مرة لكى يفهمه العمدة •

أول ورقة أمسكتها كانت حجابا • أى والله حجاب مكتـوب بالحبر الأحمر • وبحق جلال الله ان من كتبه أجهل من دابة • تصور يا ولد • قسما عظما ان الذى كتب هذا الحجاب هو الشيخ « بكرى » ذو العمة الخضراء • إننى أعرف طريقة كتابته للأحجبه وأشم نفسه فيها وفى كلامه الغش الملفق من دماغه وليس من الكتب التى وهبنى الله اياها • حتى هـذا الحجاب أصر العمدة على أن أقرأه له كلمة كلمة • ابتداء من « يا خدام الجان أحرسوا حامل هذا الحجاب » الى « ولا تجعلوه يموت فى أرض بعيدة » • أضف أن الخدام رفضـوا أن يسمعوا كلام الشيخ بكرى ـ ومنذ متى سمعوا كلامه ؟ • بل انهم عاندوه وجعلوا حامل الحجاب يموت فى الأرض البعيدة • قلت هذا للعمدة فصدقنى وانبسط من كلامى أيما انبساط • ثم أمسكت بالورقة الثانية • كانت ذائبة وملطخة بالحبر ولم نفهم منها شيئا • كذلك بقية الأوراق ، كل ورقة لم يكن يتضح فيها سوى ـ سطر أو سطرين ، وكل ما نفهمه منها بضع كلمات تبين ان هذه الورقة كانت عقد بيع أما تلك فكمبيالة له أو ما أشبه ، وهناك ورقة لم يبق منها سوى كلمات بالمطبعة عرفنا أنها شهادة معافاة من العسكرية ، وقد جمعها العمدة كلها ومزقها وألقى بها فى النار • و ••

•• تدفع كم وأنا أريك سرا يساوى رقبتك ؟ • ولكن لا • انك ولد ثرثار لا يكتم السر • وعلى كل حال • كما يخيل الى ـ فأنت لا شك تحفظ العشرة مهما كان ، لابد أنك تحافظ على سمعة سيدك الذى علمك القراءة والكتابة ونقش على صدرك القرآن فأصبحت

شيخا عليه القيمة حتى أنك تفكر فى فتح كتاب لوحدك • انظر الى هذه الورقة • فى حياتى لم أر ورقا بهذه الفخفخة • أتعرف لماذا أخفيتها فى عبى ؟ • لسبب واحد فقط ، لقد استخسرتها وأخفيتها حتى لا يمزقها العمدة ويلقى بها فى النار ، وقلت فى بالى أن تذكرها اقف على حيلى وأنفض نفسى فنقع وأكون قد أعفيت من مهمة السرقة ، ولكن العمدة كان مدووشا فلم يسأل عن شىء • هذه الأوراق كانت ملفوفة فى جراب من الجلد • فخيل الى أنها أموال ولكن تبين أنها مكاتيب • مع ذلك فالمياه نفذت اليها ولطخت بالحبر صفحتها • تعال نقرأها سويا ••

•• (سطور سائحة يا ولد ، لن نتمكن من قراءتها • أول القصيدة كفر دائماً ؟ • المهم) أننـــا نطلب من سعادتكم (بقعة سائحة) • وحضرة جناب المفتش العام أفندى يلقى الأمرين بسبب ابنه هذا ، الذى أصبح مثل الفلق ، لكنه يا حضرة كبير النظار مثله مثل النـــاف أو المحراث أو عـــرق الخشب ، لا ينطلق ولا يتحرك ولا يضحك ولا يبكى انما يصرخ فقط اذا أعوزته الحاجة • عيون تبرق وجسد قعيد يخرأ على نفسه ويلزمه من يتكفل به ويسهر على راحته ليل نهار ، والنائم •• (بقعة سائحة) •• ومنذ صغره والتفتيش كله ينعى همه ويشفق على حضرة جناب المفتش العـــام أفندم ، ولما كان جنابه لابد وأن يتفرغ لشغل الوسية وهو عبء ينوء به كاهل جنابه فقد ارتأى التفتيش أن يخصص لطلعت بك — ابن حضرة جناب المفتش العام أفندى — نفرا مقيما ، يقدم له الأكل دائما ويمسح له الخراء عدم المؤاخذة ، ويغسل له الثياب وينظف الفرش • والتفتيش يا حضرة كبير النظار يفد اليه ما لم تكن تعرفه من الأجناس والأصناف والألوان ، ولكنهم جميعا « غرابوة » أولاد كلب حقراء فى غاية اللؤم والمكر ويخشى منهم على سعادة البك حاولنا أن نبقى منهم واحدا ولكن اليك صـــار أشبه بالوحش الشرس • ويصرخ ويزأر وينسف كل الأشياء التى تصادفه نسفا • واعلم

يا حضرة كبير النظار أن هناك كثيرا من الأشياء يمكن لحضرة جناب المفتش العام أفندم أن يضحي بها من أجل عيون طلعت بك ، فليعش الولد وينسف • انما المصيبة أن الكثير من هذه الأشياء نسقهـا بحوطه المخاطر ، قد ينجرح وجه أو تنكسر يد أو تنقلع عين أو تزهق روح عندما يستبد الغضب بطلعت بك • والحق كل الحق أن البك لم يكن يغضب ويلجأ الى الصراخ والجعير والنسف الا بسبب الخدم « الغرابوة » ؛ وكان لابد للبهائم (سـطور كثيرة ملطخة بالحبر) •• والحق كل الحق أن هذا ما قد حدث • أى جمال وأى فتوة • لكنهم جميعا مصابون بلوثة (سطور سائحة) •• كلفت أبا بإستلامه ومراقبته • كان ولدا فارغا بحق ، يلبس جلبابا من الكشمير ويتلفح بشال من الحرير وفى قدميه بلغة صفراء • من باب الخدم أدخلته • وفى حجرة الخدم أجلسته وقعدت قبـالته وقصدى أن آخذ وأعطى معه فى الكلام • وبعد برهة رأيت القلق على وجهه ورأيته لا يجلس على بعضه ، فأخذت أدقق فى ملاحظته • كان ينظر حواليه كما اللص وقد ظننته بالفعل لصا ، وكلما سمع صوتا فى الحرملك نهض واقفـا فيما يشبه الخشوع ، وتلفت حواليه كأنه يبحث عن أصداء الصوت ثم تركبه حالة غريبة لا أدرى ان كان فرحا أم فزعا ، فوجهه يتغير ويصير مثل وجه الطفل حين يسمع صوت أمه بعد غياب طويل ، فإذا تكرر الصوت فى الحرملك زام وارتعش ، وكور رقبته مشددا عروقه • قلت له : مالك يا جدع • فلم يجب ، انما نظر الى فى غير إهتمام كأنه لم يسمعنى ، وفى عينيه ضحكة جذلة لا تريد أن تنتقل الى شفتيه وتخلصنى • قلت له : أتعرف عملك الذى جئت من أجله ؟ • فوقف وأجاب صائحا • نعم أعرفه • قلت له : هل أنت موافق عليه ؟ قال وقد أحسست أنه يتكلم من أعماق قلبه : اننى أحبه ورقبتى فداء له • فعرفت أنه يتكلم عن الولد ـ أقصد البك الصغير • وأمرته أن يتبعنى • وفى حجرة البك الصغير أوقفته بجانبى بحلق فينا طلعت بعينين لا تقصدان شيئا أى شىء • قلت له لأشجع صاحبنا « ازيك يا طلعت

بك » . فهمهم كعادته بشيء غير مفهوم . وخفت أن تتحول الهمهمة الى صياح وصراخ فجلست بجانبه ورحت أربت على كتفه بحنان وأنا أقول لصاحبنا « انظر ، تعلم ، هكذا يجب أن تعامل البك » . على أن صاحبنا لم ينطق بشيء ، ورأيته يشحب ويبدو أنه كبر خمسين عاما دفعة واحدة ، فاقتربت منه . وقلت له : « هيا أرني كيف نغير له ثيابه » ــ وكأنني أكلم حمارا أو جدارا ، فنقرت بأصبعي على صدره وقلت : « هوه .. أنت يا هذا » . فاندفعت من عينيه نظرة تقطر شررا ونارا . ثم كأن اللهب أحرق عينيه فاحمرتا وانطفأ بريقهما تماما . ومال برأسه فوق صدره . في تلك اللحظة تململ الولد ــ أقصد البك . وضرط بصوت عال وبان من صوت ضراطه أنه فعلها على نفسه . قلت لصاحبنا « الآن .. أرني كيف تمسح له وتنظفه ثم تغير له السروال وتغسله » . وأيضـا لم يتحرك صاحبنا . انما ظل منكسا رأسه مثل فتاة انتزعت بكارتها . زغدته : « أنت يا ثور .. تحرك » . فاندفع يبكي مثل طفل تاه من أهله وينظر حـواليه كأنه يبحث عن أحد يعرفه . قلت له : ما الذي يبكيك يا أخ .. ان البك الذي ستخدمه لا يخيف ، ثم انه وديع وابن حلال ، ولا يعض أحدا » . ولكنه ظل يبكي صعب على الجدع . قلت في عقل بالي لابد أنه قد بلغته بعض الأخبار عن حالة الولد .. أقصد البك ، وأردت أن آخذه بالسياسـة . عدت به الى حجرة الخدم . كان والعيـاذ بالله يمشي ذاهلا فاقد الرشد . وكنت أنا أيضـا أكاد أفقد رشدي . أجلسته . عزمت عليه بسيجارة فلم يرض ، عرضت عليه الأكل والشاي ولكنه ظل يهز رأسه ممانعا . وأخيرا التقط نفسه وشهق شهقتين أو ثلاث لا أذكر . وقال بصوت متحشرج متقطع : هي .. هـ .. هي فين » .. قلت وقد دار رأسي : « هي مين ؟ .. من تلك التي تسأل عنها ؟ » .. فقال وصوته يهرب منه : « ا .. أد .. الست .. البغلة نعم ؟ .. أية بغلة هذه التي يسأل عنها ذاك المأفون ؟ .. وأدركت أنه لابد ممسوس ، وبدأت

أخاف منه بعض الشيء ، على أنني تحفزت لضربه فى مقتل اذا ما ركبه الجنون فجأة فى تلك اللحظة كانت بهائم التفتيش عائدة من الحقول . ولما كنا بجوار الاسطبل تقريبا . فان البهائم صارت تمر علينا واحدة وراء الأخرى وتتوقف فاشخة رجليها ويشر منها الماء فى بحيرة صغيرة . وجاءت بغلة التفتيش الحرون تتقافز وتثير الذعر بين البهائم . وفجأة ، أى والله يا حضرة كبير النظار هذا ما حدث ؟ انطلق صاحبنا يجرى خلفها . ولعلها فزعت منه فازدادت هياجا وصارت تضرب الهواء بقدميها . الا أنه فيما يشبه دربة الفرسان هجم عليها واعتقلها بين يديه وصار يحننها بأصوات وحركات غريبة حتى استسلمت له المديوبة فانقادت وراءه فأدخلها الاسطبل وسط دهشة الحمارين وخدم البهائم من أنفار التفتيش . لم تكن دهشتهم تقل عن دهشتى وأنا أدخل الاسطبل ضائعا وسط عشرات البهائم والخدم . فى سرعة كان صاحبنا قد أوقف البغلة أمام مدودها وقيدها فى الوتد وراح يتحسس ظهرها بيديه كما يتحسس الواحد منا أعز مخلوق لديه . وكان ينظر فى الهواء نظرة زائغة حائرة متلصصة .. . ووالله يا حضرة كبير النظار لقد وقفت ذاهلا من ذلك الممسوس ، وأمرت خدم البهائم أن يشوفوا شغلهم ولا يلقوا اليه بالا . وصممت ألا أفعل شيئا معه حتى يرينى هو ما الذى يريد أن يفعله .

انتهى خدم البهائم من التتريب وخلط التبن بالفول وانصرفوا واحدا وراء الآخر وظل صاحبنا كما هو : تقول التصق بالبغلة ولا يريد أن ينسلخ منها ؟ قلت له بهدوء :

ـ ماذا .. أتظل واقفا هكذا الى ما لا نهاية ؟ .

فلم ينطق ، وازدادت نظرته حيرة وتلصصا . اقتربت منه قليلا . فتراجع ملتصقا بالبغلة أكثر وأكثر . أشرت له نحو باب الاسطبل قائلا :

.. هيا .. أخرج أمامى .

فركبـه شيء كالذعر ، وانحنى على ظهر البغلة واحتضنهـا ضائجا .

ـ لا .. لا .. انها هى .. هى .. لقد جئت اليها . لا أريد سواها ...

امتدت يدى وراحت تربت على ظهره فى اشفاق . فلقد تيقنت من عدم سلامة عقله ، على أنه طوق عنق البغلة وراح يدفن رأسه فى شعرها ويصرخ صراخا لا أستطيع وصف ما فيه من ألم ... ويقـول :

ـ اننى أريدها .. أريدها هى .. فى عرضكم .. دعـونى لها .. اننى أحبها .. لا أحد يحبها مثلى .. سوف أجعلها ترضى عنى سوف أريحها ..

شددته من ذراعه بقسوة ودفعته نحو الباب فانكفأ على وجهه ونهض صارخا يريد الرجوع اليها ، على أننى لويت ذراعه وراء ظهره ودفعته أمامى الى حجرة الخدم وألقيت به فيها وذهبت الى حضرة جناب المفتش العام أفندم ، ونقلت اليه ما حدث وأنا أتصبب عرقا فاذا به يضحك ، واذا بالست هانم تأمر أن نتركه فى حاله بضعة أيام فربما يثوب الى رشده . وتوصلت الى الطريقة المثلى لاخضاعه . فحرمتـه من الأكل والشرب أياما بكاملهـا . الى أن طلب الأكل بنفسه ، فاسطحبته الى حجرة الولد . أقصد البك ـ ووضعت له الأكل فيها وأمرته أن يشارك البك فى الأكل . ولما كان البك فى حاجة دائمة الى من يضع له الأكل فى فمه فقد أمرت صاحبنا أن يفعل ذلك .. وبدأ فى الأول خائفا ولكن شيئا فشيئا بدأ يعتاد الأمر . ومضى وقت طويل . وارتخى شارب صاحبنا وتدلت أذناه وصار يعدل طوقه باستمرار ويتحسس رقبته وقفاه ولا يفتح فمه .

وذات يوم قدر له أن يرى البيبت هانم تهبط سلم السراية عارية الأكتاف والساقين ، فتسمر في مكانه واندفع يضحك فى جذل وبدنه يقشعر . وظل بصره معلقا بها الى أن توارت بين أشجار الحديقة .. ثم ركبه الجنون . وصار يهرول هنا وهناك ويقول : « هى .. هى التى جئت من أجلها .. أنا أريدها .. دعونى لها » .. ثم راح يبكى ويدبدب رجليه فى الأرض . ويجرى ، ويقرع رأسه فى جذوع الأشجار ، ويجعر . ثم فجأة أطلق صرخة مرعبة ، واندفع كالسهم يجرى ويتعثر ويجرى ويقفز حتى خرج من باب السور وامتلك الخلاء ، ونحن ــ أنا والجناينية ــ فى أثره فاذا بالبغلة منطلقة تجرى فى حالة هياج ، واذا به يطاردها . وعجبا كيف كان يلاحق سرعتها الجنونية ، وكيف تمكن من الامساك بذيلها والتشبث به والاستماتة عليه . فظلت تنفضه فى الأرض وتجرى وتضرب بقدميها الخلفيتين الى أن تركته جثة تتبعثر دما .. و ؟ .. (بقية الصفحة سائحة وملطخة بالحبر) ..

.. قل لى بالله عليك يا ولد .. ما معنى هذا . أسميك جدعا لو قلت لى من الذى وضع هذا المكتوب فى محفظة الزكيبة ؟ ولماذا وضعت وما علاقة ما فيه بالجثة ؟ . اذا عرفت هذا يحق لك أن تستقل بنفسك وتفتح كتابا لوحدك . أرأيت ؟ ها أنت لا تعرف . أنا نفسى لا أعرف شيئا من هذا اللغز . قسما بجلال الله أنه مثل لغز الحياة والموت . يبدو فى غاية الوضوح ولكنه فى الواقع شيء أكبر من قدرتنا على الفهم . والا فقل لى ان كنت فالحا : كيف تقودك الحياة ا لى الموت ، وكيف تلتقى الحياة بالموت فى خطوة واحدة ؟ وكيف ينكشف سر ليخفى أسرارا ؟!

خاتمـــة

وسيلة تغني :

قالت جدتي : ازرعي في قلبك عودا من الصبر ·· وفي كل خطوة خطوتها زرعت الصبر فيها ·· وغيطان البلد كلها لم تعد تطرح الا زهور الصبر وأمي ·· آه يا أماه ·· جاءك الهم أشكالا وألوانا ·· وأقعدك الكساح على عتبة الدار ·· هل أواسيك في أخي مختار الذي دهسته الأقدام في الليلة المجنونه ·· ؟ أم أواسيك في خالي معاطي ؟ أم أواسيك في فراغ الدار من الرغيف ؟ أم في الخيبة التي حلت بأبي ؟ أم أواسي البلدة كلها في الخيبة التي حلت بها ؟ لماذا يا رب كتبت علينــا أن نكون أنفارا ·· بالله ما هــذا الذي يحدث ؟ ·· لا أحد يقيم حسابا للحزن المتربع في قلوب الأنفار ·· يارب ·· الأنفار أنفسهم لا يقيمون لحزنهم حسابا ·· كلهم عرايا — يقرفون من أنفاس بعضهم قرفهم من رائحة الجوع ·· فكيف يهرعون هكذا لمقابلة السنيورة من جديد ؟ ·· كيف تصدق آذانهم هــذه الطبول ؟ ·· أمن الفرح يرقصون هكذا أم من الألم ؟ ·· لا ليس هذا أبي ؟ ولن أصدق بعد اليوم أنه أبي ·· ومن هذا الذي يراقصه ؟ عريف الكتاب ؟ يا عيب الشوم حتى هو ·· ؟ آه يا دماغي ألفك بألف طرحة سوداء لا بواحدة حتى تثبت في مكانك ومن هذا الذي يجيء من بعيد يشق الجموع ويهرول ليقف هكذا وسط الدائرة انظرن أيتها البنات التعيسات مثلي ·· هذا هو سيدنا فقيه الكتاب لعله يريد هو الآخر أن يرقص ·· ما هذا الذي يفعله ؟ ·· انه يصرخ في الناس أن تهدأ وفي الطبول أن تكف قليلا · لقد أخرج من جيبه ورقا ها هو ذا يقرأ · أترينه يخطب خطبة الجمعة ؟ ·· لكن لا ·· أنه يقول كلاما غريبا ·· ويشوح الورق في يده أترين يا بنات ؟ · هجم بعض الرجال على سيدنا ·· اختطف منه الأوراق مزقوها ·· أخرجوه من الدائرة ارتفعت الطبول ·· آه ·· قلن معي يا بنات على وقع هذه الطبول العالية ·· البيين عملني جمل واندار عمل جمال ·· لوى خزامي وشيلني تقيل لحمال ·

(صيف ١٩٧٤)

● موال فى الزمان القديم

ـ ١ ـ

فى صبيحة يوم قائظ جاء الرجل الى البلد • هبطوا على أرض النخيل •

راحــوا يقيســون الأرض ويزعقون ويشخطون • جاءت لهم حارسة النخيل وأطلقت فى الفضاء جعيرها • قال « المهندز » وهو يقبل نحوها :

ـ اهدئى يا ست •

شوحت فى وجهه دون أن تخشاه :

ـ من أنتم وماذا تفعلون فى أرض الخواجه ؟

قال « المهندز » :

نحن رجال الخاصة الخديوية •• رجال أفندينـا •• طبعا تعرفينه يا خاله •

زعقت بصوتها المشروخ :

ـ وما شأنكم بالأرض ؟

صاح « المهندز » ضائقا :

ـ ليس شأنك يا وليه •

واستدار وراح يعمل · هى الأخرى استدارت · وبعد حين أقبلت ، تجر غرارة ملأنة بحجارة · قلبتها على الأرض كوما هائلا ، وصارت تقذف الجميع ، وصار الرجال يتقازفون ويصيحون ، وقطع الحجارة تلاحقهم على الطريق مثل صبيان أشـقياء · وقال العمدة المسكين يا رجال الخاصة الخديوية لا تورطونى مع الخواجة · أنا لست قد الخواجة ولا أنتم · أرض النخيل أمامكم وقد عرفتم من قبل أن تحضروا أنهـا ملك له ·· فافعلوا ما تشاءون ولكنى لن أعاونكم على شيء · أما حارسة النخيل فانى لست قادرا على تأديبها فهى كما تصلحون ·· « حماية » ·

عادوا بعد أيام وحطوا فوق أرض البائس المسكين « عبد السلام الشوربجى » · بضع قراريط كان يفلحها ويأكل العيال من ورائها الخبز واللفت والحمد لك · ليس للمسكين من ذنب سـوى أن قراريطه في مواجهة النخيل · يومها صوتت زوجته وبكت أما هو ، فلم يصرخ ولم يبك · انما تمدد فوق حافة الزراق وصار والأرض شيئا واحدا ، وحين رفعوه عنها كان يقطر طميا وطينا وماء ووريقات خضراء ·· ثم ألقوه فى داره كومة من اللحم لا تنفع ولا تشفع ، يقضى النهار متقرفصا ينشهد الحياة ومن فمه تتساقط قطرات من الأنين المكتوم · وجاء حلاق الصحة وانصرف · وجاء أهل الله من أصحاب الكرامات · حتى القابلة هي الأخرى جاءت وأدلت بالنصيحة وكأنه انقلب أنثى تحيض ·

― ٢ ―

دخل العمدة ذات يوم كئيب وقال بسم الله يا أهل الدار ·· ثم مشى نحو القاعة الجوانيه · لكنه سمع من خلفه مواء خافتـا استطاع أن يميز فيه كلمة يا عمدة ، ثم شرفت يا عمدة ؛ نظر حواليه

فرأى فوق مصطبة الدهليز جوالا مقعيا محدودب القامة تبرق فى رأسه عينان ، كخرزتين تسبحان فى بحيرة من الصدأ ، وفيها سواد الفحم المحترق • انحنى عليه العمدة وقال : شد حيلك يا عبد السلام• الأرض يا ولدى تساوى حياتنا ولكن ما باليد حيلة الله يعوض عليك فلا تفتل نفسك وتقابل الله كافرا • أتبكى يا رجل ؟ هذا عيب • أنا لم أعرف انك هكذا مثل النسوان ••

وكان لابد لعبد السلام ان يبكى فالعمدة لا يجيىء لخير أبدا •• ويبدو أن العمدة قد أحس بما يدور فى رأس الجوال المقعى على المصطبة يزعشه البكاء بلا صوت ، فتحسس جيبه وقال مبتسما : ابسط يا عم فقد جئتك بالبشرى • وهنا انتصبت قامة الجوال • وقال العمدة وهو يخرج حافظة نقوده ويسحب من داخلها ورق البنكنوت الأخضر ويطوحها فى وجه الوجه الشاحب : تعطفت عليك سماحة أفندينا وبعثنى لك بثمن أرضك ، عشرة جنيهات بالتمام والكمال • انكمشت قامة الجوال وخرج منها صوت ولا صوت له : ربنا يجبر خاطره • وبقيت يد العمدة معلقة فى الهواء حتى تضايق • غرس نظرته الحامية فى جسد الجوال وقال لا يعجبك المبلغ طبعا •• كلام بينى وبينك يا أبا عبده لا تؤاخذنى •• أرضك كانت عجفاء مثل امرأة لا يزين صدرهـــان ثديان •• أنسيت أنك من عبطك اخترتها على واجهة ؟ أنسيت أن جيرتها للطريق جعلت الطريق يجور عليها ويحتويها ويرملها ويفسد تربتها ، كما وأن مواجهتها للنخيل حجبت الشمس عنها والهواء ؟ •• أنسيت انك ضيعت فيها شبابك ومع ذلك لم تغنك عن الشغل أجيرا فى أرض الوسية ؟ •• احمد الله على انه خلصك منها ••

تجمد الجــوال وقال العمدة بعد برهة : « وعلى فــكرة •• أفندينا سيجعلك بوابا للقصر •• الا تعرف ؟ •• ان أفندينا سيبنى فوق أرضك قصرا اسمه قصر الخاصــة الخاصــة الخديوية •• وأنت •• ستكون بوابا له • وجه الجوال مثل بيضـــة انفقشت

وسال صفارها فوق زلطة كبيرة .. قال العمدة وهو يلوى شفتيه : « النعمة ثقيلة على بنى آدم ووجه الفقر يرفسها » . انفصلت عن الجوال زلطة مستديرة ناشفة الدماغ مغمضة العينين وصارت تتطوح وتهتز وتقول : شفت يا عمدة .. لن يرضينى ثمنا لأرضى سوى ان تعود أرضى .. أما كونها بور وقد ضيعت فيهـا شبابى فهذا يجعلنى أحزن عليها ولا أفرط فيها بأى مقابل . والعمدة لم يشأ الاستماع الى بقية الكلام . فشوح فى وجه الجوال ونهض واقفا ينفض عباءته ، ثم رمى ورق البنكنوت على المصطبة وقال فى غضب : هذه فلوسك انت حر فيها .. أنا مخطىء لأنى اعتبرتك وجئت لحد عندك .. ثم خرج يبرطم . خرج العمدة يا عين . وياليل بقيت انت فى الدار دهرا طويلا ، وأمامك يتقرفص الجوال مشتاقا لنور الخلاء .

— ٣ —

كان آفندينا بذاته ينجعص أمام دوار العمدة يبك الدم من وجهه الأجرد ويبدو طربوشه كأنه منحوت مع الوجه من صـخرة واحدة . فى احدى يديه كرباج وفى الأخرى منشة ، وحوله رجال يمروحون بالمروحة : ومن حين الى حين يرفع احدى اليتيه ويضرط بصوت عال فيحترق الهواء والعمدة يلوى أنفه ويشمئز ويعتدل فى الحال ويعتذر عن وجود هذه البركة القذرة التى خلف داره . وأهل البلدة واقفون جميعهم لا يجرؤون على الاقتراب ، كما أعواد الحطب بعد تجريدها من النوار . وصاح العمدة : « يا أهل البلد . هذا أفندينا » . فلم ينطق أحد . فصاح ثانية بصوت أعلى : « وقـد تعطفت سماحته باعفائكم من الاتاوة هذا العام .. وسـوف يبلغ الكاشف بهذا حتى لا يتعب قلوبكم بالمطالبة . هبت على أعواد الحطب ريح أحدثت بها خرخشة وصـاح العمدة معلنـا : كلكم مدينون

للخواجة « جلانتي أبناء عم وشركاه » ٠٠ وهو يهددكم بنزع ملكيتكم عما قريب ٠٠ وأفندينا سوف يخلصكم من الخواجة الى الأبد ٠٠ وغدا يصبح النخيل نخيلكم ولا أحد يهددكم فى أرزاقكم ٠ صفرت الريح بين الأعواد وضرط أفندينا واحترق الهواء وصاح العمدة ٠ « ان أفندينا سيبني لكم هنا قصرا اسمه قصر الخاصة سوف يمدكم بالبذور وبالسلف ويوفر لكم المياه أيضا وسيوفر لكم كل ما تطلبون دون ان تحملوا هم السداد ٠٠ فأفندينا ليس كالخواجة انما هو موحد بالله مثلكم ويخافه ويخشى عذاب يوم القيامة ٠٠ وسيكون لكم الأب الرحيم وسوف تستظلون بقصر الخاصة فما رأيكم فى هـذا الكلام » ؟ بقيت فى مكانها الأعواد صامتة لا تعرف الرأى فليس لها فى الكلام وقال العمدة : « أفندينا لا يطلب منكم شيئا كبيرا ٠٠ انه يطلب ، فقط ان تعاونوه فى بناء القصر لوجه الله ولأجل النبى » ٠ فى الحال نطقوا فى صوت واحد : اللهم صل عليك يا نبى ٠

— ٤ —

الناس تصحو لتسرح فى الغيطان أو تجلس فوق المصاطب تنتظر من يطلبها للمساعدة لقاء غدوه أو حتى زردة شاى ٠ وفى المساء يخمدهم التعب أو يرمى بهم الزهق فى أحضان الغفر — زوجاتهم ٠ والناس فى بلدنا يتشوقون الى الفرح ويشتهون البهجة ، ويعرفون أن كل الكوارث تحدث اشتهاء للفرح ٠ حتى القمر حين يختنق فى بعض الليالى فالطبل والزغاريد يلفان البلد ولا يسكت لهما دوى حتى تنسحب الدماء الحمراء عن وجه القمر ٠ وهم يعرفون ان من لف حبل المشنقة حول القمر هن بنات الحور لابد ، ولهذا يغنون لهن قائلين فى ابتهاج حزين : « يلا يا بنات الحور سيبو القمر يدور ويلا يابنات الجنة سيبوا القمر يتهنى » ٠

فجأة هاصت الدنيا وزاطت وقام فى البلد فرح كبير ٠ امتلأت شوارعها كلها بالأفندية حمر الوجوه يرطنون فى همسهم وزعيقهم

وعند تشـويحهم • وكثر الغرباء ذوى السحن المحروقة والألسن المعووجـة ، والخرق والهلاهيل والمقاطف والفؤوس والكريكات • جاءت عربات تجرها خيول وتحمل حجرا ورملا وطينا وجيرا وحديدا وخشبا وزلطا ، وعربجية يسبون الدين ويشخرون ويتبولون وقوفا على قارعة الطريق • وأهل البلد يتطوعون بانزال الحمولات وحفر الأرض وتحويل المونة ومساعدة البنائين ، ويضحكون فى فرح ، لكن شيئا ما كان يبزغ فى الأعماق فجأة يزغد القلب يهزه يكاد يدميه ففى هذه الهجمة هربت بنات مع الأفندية ، واختلت نساء ببعض الرجال مقابل قرش أو هدية أو ربما الاعجاب بالوسامة • وكثرت حوادث الصراخ فى الليل وزهقت الأسماع من ترديد الشتائم فى العربجية ••

وفى النهاية كل شئ يهون ••

ـ ٥ ـ

قامت الجدران وارتفعت وظلت ترتفع حتى لم يعد أحد من الفلاحين يقدر على رؤية آخر الجدران • وكان ذلك يسعد الفلاحين ويجعلهم يفغرون أفواههم كلما نظروا الى هذه الجدران التى أصبحت الشمس تشرق عليها فتحولها الى ظل ينحدف على الأرض ويتمدد فى أعماق البلد وعند الغروب تبدو الجدران كأســـوار النحاس المنصهر •

ـ ٦ ـ

الفلك دواريا •• ولدى • ويا عين ذوبى على ما قد حدث • فمنذ شهور ياليل كان النخيل أعلى قامة البلد • اليوم صار القصر أعلى • لم يعد فى الوجود بلد اسمها « شبباس » لا ولم يعد فى

الحب كله بلدان تسمى باسمائها • فالت اما من القصر أو من ثالث بلد على يمينه أو من ثاني بلد على يساره • آه منك يا زمن لست في صف الغلابة أبدا ولابد انه بينك وبينهم ثأر مبيت من قديم الأزل بالله قل يا زمن هل أنت كافر بالله حتى تفعل بالخلق هذه الأفاعيل ؟ ان كنت يا زمن تنسى فلتتذكر ما فعلته فى أبناء آدم الغلبانين الشقيانين بعد انتهائهم من بناء القصر •

يومها وقف « المهندز » فوق الدرجة العليـــا ليسلم الباب الكبير ، وأشار للأنفار من أهل البلد • فتدافعوا نحوه يتساقطون ، من الفرح أم من الأعياء لا يدرى « المهدز » ولا هو يريد أن يدرى • قال يا رجال هيا نظفوا هذا الطريق بدءا من الترعة حتى مدخل القصر الكبير • في نهار واحد كان الطريق قد استوى ، بالردم والتصليح ، على جانبيه ارتصت قصارى الزرع وأحواض الورد • وبقي الطريق في انتظار أن يطب افندينا ومن معه من علية القوم المحترمين وقالوا ان القصر أنشىء لاستقبال هذا اليوم • ففى الأمر عروس •• وعريس •

- ٧ -

سد الطريق في وجه كل الفلاحين وخصص للعربات والأحذية وأقدام الخيل • وتوافد السادة الكبار • وكانت الخيول تدخـــل الطريق المعبـــد تجر عربات تحمل الأسرة والدواليب والترابيزات والكراسي والسجاجيد والألحفة وغير ذلك من المنقولات التى جعلت القصر من الداخل شيئا لا مثيل له • وصـــار خدم القصر وعبيده يحكون للناس عنه ، كما صار شيخ المسجد يصف جنة الخلد قائلا للمصلين « كأنها قصر الخاصة بكل ما فيه » •

أسفي عليك يا عبد السلام يا شوربجي • حين نقلتك زوجتك

ووضعتك أمام بوابة القصر لكى تكون بوابا له كما اتفقوا معك • صرخت الجدران لحظتها وهدرت ورددت أدواره العليـا كلها كلمة واحدة : « اكنسوا هذه الوساخة من هنا » • وكنستك أيدى اخوانك من أهالى البلد ثم كنسوا الأرض من آثار أقدامهم •• اين تذهب يا عبد السلام وانت جسـد معبأ فى غراره ؟ لكن الغرارة فجأة تنتفض وتتمزق اربا تتناثر فى الهواء • انتصب الجسد واقفا كأبينا آدم لحظة ان تساقطت عن جسده أوراق الشجر • زايك الهزال وصرت تصرخ فى مواجهة القصر لكن صوتك يعلق بجريد النخيل ويتساقط فى الأرض حواليك فيدفعك نحو القصر فى غضب • يراك النساء فيشهقن ثم يصرخن ثم يستدرن عائدات • ويتمعن فيـك الرجال ويلون الشفاه ، وصوتك المبحوح يعوى ثم يعوى • اعترضك الخفراء ظلوا يدفعونك يزغدونك يضربونك بالشلاليت وبالدباشك ووقعت ثم وقفت ثم وقعت ثم انطرحت فتركوك جسدا هامدا • وهرعوا الاستقبال الوفود والمواكب • طرح العمدة عليك عباءته • وعرضت زوجك سقف دارها لمن يعطيها ثمن الكفن • وكان النهار قد انتصف •

- ٨ -

فى الظهيرة كان الأفندية والبكوات والباشوات يتجمعون أمام القصر وبين خطوط النخيل • يضحكون يقهقهون يصيحون يطرقعون أكف بعضهم بعضا وفى فرح كما الصبيان • دهش الناس لأنهم يعرفون الأفندية خلقوا ليتجهموا فى وجوه الفلاحين ويشـخطون فيهم ويسوطونهم ويضربونهم بالشلاليت ويأخذون محصـولهم أو يشترونه منهم برخص التراب ، أما أن يكونوا مهزئين هكذا فذلك ما لم يعرفوه واليوم لا يتصورون انه واقع • الخرفان والعجول التى انتزعت من أهالى البلد وتم ذبحها بمعونتهم تحولت الى أطباق تروح

وتجيىء بين أيدى رجال يلبسون أبيض فى أبيض ‥ ثم تندلق فى عشرات الكروش تتعاقب على المائدة · فى العصر تسلقت الفوانيس والكلوبات هامات النخيل ‥ وحضرت وفود جديدة تحفها الزغاريد وطلقات الرصاص ‥ تطوعت نساء البلدة وبأصواتهن الرائعة علمن نسوان البندر أصول الزغردة · لم يكن لهن ناقة فى الموضـــوع ولا جمل ‥ ولكن نسوان بلدتنا مثلهن مثل رجالهـــا تواقات الى الفرح دائما حتى ولو تم فى بيوت غير بيوتهن · كان ركب الزغاريد طويلا وعريضا وحافلا هبط من مقدمته رجال يلبســـون الحلل الصـــفراء ويمســـكون الطبول والمزامير والدفوف وكان الفلاحـــون يتقاطرون من كل ناحية ويزحفون نحو الموكب فى حذر وخشـــية يتهدل الفرح فوق ملامحهم · جعلوا للفرح جسدا بارزا وقذفوا فى قلبه ولدانا تطير لاعبة راقصة مبارزة · غير ان الطبول ما لبثت أن خمدت بارادتها وسحقت كل نبضات البهجة ثم حلق فى سماء الدائرة نغم حرج ثم تشقق جسم الفرح ومن شقوقه طلع الخفراء بالعصى التى أخذت تنهال بلا رحمة فوق الأجساد الفرحة ، الى أن هرعت الجلاليب مذعورة وتطايرت فى الهواء بلغهم وبراطيشـــهم وضحكاتهم المكســـوفة البلهاء · صـــفصف الجو على الطرابيش والمعباءات ، لكنها جميعا كانت تسبح فى غبار بدا للفلاحين الذين وقفوا بعيدا يتفرجون ، كأنه قفص من الدخان · ثم طلبوا للغداء فهرولوا خلف بعضهم يتسابقون ·

– ٩ –

العريس ولد حليوة أما العروس فقالت من الزبد تبارك الخلاق فيما خلق · فى الدور الأرضى جلست فوق الكراسى العالية جلست تتألق وتضوى وتضمخ هواء القرية كلها بعطر فاجر مجنون ، أميرة تجاورها وصيفات بارادتهن خسفن أضواءهن مجاملة لها · وفى

الصالة الكبيرة الفخيمة والحجرات كلها نساء من بنات الحور لابد ، وعوالم فرح وآلاتية وصاجات ومزاهر وأكواب الشربات لا تكف عن الدخول والخروج رغم تعفف الحسناوات · العروس ابنة أفنديتا · أما العريس فابن أرملة حسناء باعت جسدها للباشوات ولجنود الاحتلال فأنجبته ولدا سمهرى القوام ملون العينين يبيع جسده أيضا لنفس الباشوات ونفس الجنود ، ويبيع حسنه الرقيع لأبناء القصور وبنات البيوتات ويأخذ أعينهن ثم قلوبهن ثم ينفق من خزائن آبائهن ، وقد فازت في السباق خزائن أفنديتا من أجلها جاء الفتى يعتلي الابنة والضيعة زوجا وناظرا · أى عزيا عريس وأى فرجه · كل العرسان تزف زفافا واحدا أما أنت فتزف الليلة الى العروس — الضيعة — القصر فما أسعدك ولقد حار المدعوون على أى زفاف يهنئون وكل زفاف يلزمه كلام وفعل وورود ··

— ١٠ —

كل واحدة في البلد تمنى أن يرى العريس رؤية العين · ووقف كبير الخدم أمام القصر ينظم الخفراء حول الأسوار ويزأر في الناس قائلا أيها المناكيد ما الذى تريدون رؤيته ؟ ثم يهمس فى أذن الخفراء المتلهفين : حتى أنتم تريدون رؤيته ؟ ثم يصير همسه الى ما يشبه الفحيح اللاهث : انه آدمى مثلنا وابن تسعة ولا فرق بينه وبينكم سوى أنه محظوظ دعت له آمه فى ليلة قدر وليلة القدر هذه بعيدة عن شواربكم يا أيها المناكيد فأنتم جميعا أولاد نسوان طمست الدنيا الوسخة بصيرتهن وأعماها المش والبصل واللفت عن رؤية كل شيء ولذا فواحدة من أمهاتكم لن ترى ليله القدر طول حياتها · يكتم الخفراء ضحكاتهم في أكمامهم ويعضون على نواجذهم بينما يتلفتون حواليهم فى خوف · ويستدير كبير الخدم يصفق كفا على كف ويقول عشنا وشفنا الناس لا تتلهف على رؤية العروس بل يشغلها رؤية العريس ·

لكن الموال رآه ورأى كل شيء فمن غير الموال يستطيع أن يرى. لقد كان حاضرا وكانت الأرض أيضا حاضرة : امرأة فتية عملاقة ، لكن الحزن واراها في أحد الأركان ولفعها بشاش أسود ولثمها وكمم فمها ، لكنها مع الموال تحدثت ، نشجت في النـاى وزفرت في الأرغول ونهنهت في السلامية ولطمت خدود الدف وتأوهت تحت قوس الرباب . ولقد زحفت أغاني المدينة والبشسارف والطقاطيق فشخلعت الغوازى وأغرقت الجميع في الخمر والنقود . كان العريس يخوض في بحر من اللبن ويقهقه . من يد المهنئين يتناول كئوس الخمر يجرعها في شره مجنون ثم يقهقه . تشيله الأغنيات . من فرط النشوة يتمايل . ترتمي على صـدره الغوازى يحوطنه بالأجسـاد الرخصة يشعلن فيه نار الهوى المشبوب ومن فرط الهوى يتطاير يكاد يتفتت يتمايل يتساند يتحسس يلثم ويضم يقبل يحضن يتدافع بين الحجرات يفتش عن شيء لم يستمتع به . في كل جدار مرآة وفي كل مرآة عشرات الأفراح وفي كل الأفراح لا عريس غيره . الفرح يوغل في الليل والليل يوغل في الفرح والعريس مترع بالنشوة . تعبت الحضور وانهدت الأجساد المتشيطنة وقلت كثافة الجمع وصوت الايقاع لا يصيبه الوهن . في أسماع الليل يدب يطوح جسـد عريس الشؤم الغائب عن كل وجود . ولقد عجزت كل الأيدى — من فرط البهجة عن تهدئته . انصهرت روح الشيطان بأعماقه . دار ودار وكان يقهقه ، ثم تهاوى فوق الأرض كعود القصب اليابس . اندفع القصر بحاله . أخذ يقلب في الجسد المنطرح ويشهق فزعا : يا حول الله .

- ١٢ -

غلقت الأبواب كلها • انخفضت رءوس المناكيد كأنهم الجنان • غطست البلدة كلها فى غبار رمادى كئيب • بدا أن الصقيع لن يفارقها الى الأبد ، وسيظل يصبغ نهارها بمسحة ليلية داكنة • ولم يعد أحد يمكث فيها طويلا ، فالكل يبحث عن الشمس فى خلاء بعيد ولابد أن عفريت العريس ينفخ فى بطن القرية جبالا من الركود والخوف يملأ الليل بالعفاريت المردة والنداهات و •• الطريق التى احتجزها القصر لنفسه لا تزال تستنشق رائحة الأقدام ، وتتشوق الى روث البهائم • والمناكيد يعودون مع الغروب كل يوم من طرق بعيدة وغير سالكة فاذا نظرتهم من بعيد وجدتهم كأنهم بقايا جروح غائرة فى جبين المساء • يا أيها المناكيد ما سر ما فى أعماقكم من حزن ؟ قالوا : التوق الى الفرح • يا أيها المناكيد ما سر ما فى أعماقكم من خوف ؟ قالوا : الموت تحت سنابك الأقدام •

(مارس ١٩٦٣)

● أنشودة الكورس الحزين

في حوارى قرية عابسة ، تنام مستلقية تحت ظلال الصفصاف ، وتطمئن كلما نظرت صورتها فى قاع النهر . يمر .. كل يوم .. ثلاثة صبيان وربابة .. وينشرن هذه المقاطع .

المقطع الأول :

بركات ولد غلبان ، جدع مقهور .. تنطق عيونه بالعـذاب والألم . جلبابه « الكزمير » قال : يا أهل البلد الولد غلبـان ، الولد بردان ، هذا حرام ، هل من كريم ؟ هل من عطوف القلب يستر ذلك الجسد المضام ؟!

فتغافلت عنه العيون . حتى كبار القلب قالوا : مالنا ! أو ليس للمظلوم أم تستره . مع انهم ـ يا ألف حسرة ـ يدركون المسالة . والمهزلة ، ان القلوب صديقة وربيبة للفتى بركاته ! .. ان السؤال يظل يطرح في الحوارى والحقول وعند بئر الساقية ـ ان غاب عنهم ليلة أو بضع يوم :

ـ يعنى .. لم يبن بركات .

ـ ألم يظهر هنا بركات ؟

ـ لابد أن اليأس قد أضناه .

ـ أو قل طواه الشوق للأحباب .

ـ تقصد بها الجنية ؟ ·· هو لا يبارح حضنها ·

ـ أفلا يبارح جفنها ؟!

ـ لم لا تقولوا انه قد جن ؟

ـ ذاك قول صادق ·· ذهبت بعقله الجنية ·

ـ والله قد رحمته ·· رحمته من أمه ·

ـ أمه سلبته صوابه ·

ـ فارتمى فى حضن جنية ·

ـ يا للفظاعة يا رفاق ·· هل من صخور قد ذاك القلب ؟!

ـ حينما يتزوج الشيطان اما أرملة ·· لا تنتظر منها حنانا ·

عاد الفتى بركات ؟! ·· أهلا وسهلا يا ولد · من خوفنا ذهبت بنا شتى الظنون قلنا بانك قد ذهبت الى هناك · هيه · ما حال خلق الله تحت الأرض ؟ ما حالها محبوبتك ؟ هل أتاها حديث أمك يا ولد ؟ ·· آ ·· ه تضحك ؟! · لابد انك لا تريد البوح بالسر الدفين : · نحن نعلم ان كشف السر يعنى قصم ظهرك ! لكننا والله لا نبغى سوى نفعك ·· ولتنحسر أستار سرك أو لتبقى مسدلة · لكن بحق الله قل : ما شكل ما تحت هذى الأرض آ ·· لابد ان أناسها قوم يحبون الحقيقة ! ·· لابد ان سنينهم قمر وشمس دائمان ! ·· لابد ! ···

·· ضحك الفتى بركات · مشى لف البلد · نثر السلام على المصاطب والمنادر والحوارى والدكك ·· ثم جزر خلفه البركات والدعوات وقولة اتفضل ·· صافحت قدماه أرض الناحية · بسمت له الفتيان من تحت الزلع · غنى له الصبيان :

ـ « بركات يا بركات · اغطس وقب وهات · انزل لتحت الأرض ·· واستحضر البركات · ولأهل فوق الأرض ·· استلهم

الدعوات ·· يا من أبوه مات ·· وخلف الفدادين ·· وضاعت الفدادين ·· أضاعها الشيطان ·· من أجل رمشة عين ·· سوداء لون الليل ·· والليل فيها نهار ، أحلام شيطان ·· أذاب شمعتها ·· وفقأ حبتها ·· وصار يبعثها ·· تبيع الكحل للفتيات ·· والعطر والمناديل ·· وانت يا بركات ·· تهرب لتحت الأرض ·· وتغيب في الأعماق ·· تحضنك جنية ·· تسقيك حنية ·· فترتوى وتعود ، بالخير والبركات ، والحب يا بركات » ·

في موكب الصبيان يختفي بركات ·· وينسى أهل فوق الأرض ·· وينسى ذلك الشيطان · وعند بئر الساقية ·· يحاط بصبية الحارة ·· يحكى لهم حواديت :

ـ « الليل يا أولاد غول قابع في الدار · بأستاره السوداء يحمى أمنا الغولة وغولة البر يا أولاد ·· أنيابها تغوص في أكتاف أبنائها فجوفها ضرير وقلبها شرير ·· في قبضة الشيطان ! يا ويلها منه ·· لو انها خدعته أو حركت ذنبا ·· من غير ما يعلم » ·

ـ يا لوعة الأبناء !

ـ ·· أما تدرون يا أولاد ؟

ـ أخبرنا يا بركات ·

ـ ستجيء نداهة ·· في ليلة ظلماء ·· لتنقذ الغولة ، من قبضة الشيطان وتسلب الغولة ·· روح غيلتها !

ـ وكيف يا بركات ؟

ـ ستغيب بالشيطان : تطرق عليه الباب تدعوه للصحبة ·· تربطه في حبل ·· وتلف ظهر الأرض ·· تدفنه في النار ، في أحضان ، ما لها شطئان !

ـ وبعد يا بركات ؟!

ـ تحرقه فى لمحة ··

ـ بركات ·· بركات ·· هل يخدع الشيطان ؟

بعث الفتى عينيه للاشىء · وضاعت الكلمات ·

ويظل برهة ساكنا مثل الصنم ·· وكأنه فقد الحياة الى الأبد ·· وتترى حوله النظرات تطوف بوجهه المسلوب · ومجمرة فى يد الشيخ المعمم بالقلوب ·· أخذ « تبخر » ذلك الوجه الحبيب ·

ويسرى في دخيلتهم دبيب حلو : فها هو الفتى يودع أهل فوق الأرض ·· وبعد برهة سيغيب فى الأعماق !

وبعد هنيهة وقف الفتى · أطلق فى الفضاء الرحب صرخة لوعة ·· فارتج سطح الماء فوق البئر ·· وانشق فى الحال ·· طاويا بركات ·

ويرجع موكب الصبيان · يدمدم فى خطوهم صوت الحكاية ·· ويغلى فى صدورهم الصغيرة خاطر مبهم ·

يعود الرجال من الحقول فى المساء يتأبطون حزما من الأسئلة · تسحبهم البهائم الى الدور · تختلس أعوادا من الحزم وتلوكها فى صمت ·· والرجال يجترون الخواء والسام وموكب الصبيان يلتوى وينحنى ويتعرج وينسد ويذوب فى قيعان الدور ·· الأسرة على مصاطب القيعان فى المساء ذبالة عليلة تلفظ من الهباب الأسـود أضعاف ما نبعثه من ضوء أليف · وطبق العشاء فى صحن الدار قطع شهية من قلب أمنا الغولة · وقلل من الفخار تنهمر الدموع من شبتي مآقيها ؛ دموعها قطرات ماء البئر · زغردي يا قلل ·· املئى صمت الديار طنينا أجوفا ؛ عمرى ليلها الخاوى بشىء أى شىء · الليل صوت الساقية ، نواح النواعير ، تحكى قصة الأبد المطلسم : « طارة » مهولة تدور فى هدوء قاتل تخرج من الأعماق مفتـوحة

الأحداق تبصق على هذا العالم ادفاقا من الأسرار تجيش في شتى الصدور ! ..

.. « لكان ماء البئر يا بركات يطفي لوعتك .. ما ان تحتضنك ، حتى تحس بالارتواء .. تدوخ أنت لحظتها . تدوخ وتدوخ وتكاد تهوى من شدة الفزع .. ولا يريحك سوى هذه الأحضان الحنونة ! . انها تعيد اليك صوابك . ها أنت ، بالرغم من انك قد أفقت وانزاح عنك ذلك الكابوس الثقيل .. تحس انك لا تود الانسلاخ من هذا الكيان الرطيب . آه ما أحلاه . خذ لك غطسا آخر .. وآخر .. وآخر .. ابق تحت الماء أبدا .. ما أحلى التنفس من خلال الموج .. كتل الماء تفتح خياشيمك وتبعث في جسدك الحياة .. ألا تدرى ما السر في ذلك يا ولد ؟! بالطبع لا تدرى . كل ما تدريه ، انك ساعة قذفت نفسك في هذا الخضم كنت لا تبغى الى الوجود عودة . خلعت ثوب الحياة واندفعت في جوف البئر عاريا منها .. فكيف يلتحق جسدك بهذا الثوب السحرى .. كيف لم تكن تدرى انك كنت شخلويا من النار قذفته عين الشيطان في لحظة غضب جنونية ، وكان أن ينطفى في هذا الجوف الذى يحتويك ؟! » ..

.. أرخى الفتى ذراعيه على صفحة الماء . اهتز رأسه فوقها بنشوة عارمة . صور متلاحقة تدهمه دونما هوادة أو رحمة :

في ليلة سوداء مثل الكحل دخلت أمه القاعة .. لطمت خدها .. وصرخت صرخة مكتومة جاءت بملاءة بيضاء غطت بها ذلك الجسد الممدد في الفراش . الفجر يطلع لكنه فجر كئيب . لم يكن ليله قد انسحب ، فقط ، انكمش ، وتكثف ، وانصب في كتل متراصـــة تحتشد بها القاعة ، لها عديد من الأيدى والرؤوس ، تنتفض وتصدر أصواتا مشروخة من فرط الارتياع . النعش يتهادى وسط موكب حافل بكتل أخرى تتحرك ولكنها لا تصدر أصواتا . يمر النعش بالزاوية . يزوده الفقيه بنصيبه من الصلوات .. يغبطه على متاع

الآخرة ، الذى هو ذاهب الى لقياه • انفتح باب القبر عن فجوة ظلماء فح الليل من جوفها عفن الرائحة ، لابد انه كان مسجونا بداخلها قبل نشأة الدنيا •• ليل معتق ، هب من جوف المقبرة فزعا ثم عشش فى جوف الدار وصنع له مخدعا جميلا مستقرا •• أخذت له الأم زخرفها وازينت وفى حضنه نامت !!

يا ليل يا شيطان • أمه خلعت لك السواد •• وبرق عريها فى جوفك الضرير • تقلبت الدنيـــا فى حضنك وتلوت ، وتمطت وتناءبت • وعصرهـــا ساعدك القوى بقسوة فتأوهت • تهدل على ذراعيك شعرها فكأنكما معا شجرة صفصاف رمتها الطبيعة على هامش الشطئان ! • تسلل صوت الأم من القاعة الجوانية •• كصوت مواء القط ، ممطوط مرتعش ، ميختلط بضحكات • نهض الصبى من نومه فى الدهاليز • دفع باب القاعة انشق الصمت عن شهقة فزعة ، وطنين شيء ثقيل يهوى على الأرض • توقف الوجود هنيهة • يد من جديد تطبق على عنق الصبى • تشده خارج القاعة • تعيده الى فراشه تلصقه بالأرض فى قوة جبارة • خنقت على شفتى الصبى صرخة ملتاعة • من شدة الخوف نام كأنه مات •

فى الصبح جمع صبية الحارة • وراح يحكى حلمه المشؤوم • هكذا سماه ، كيما يصدق الأولاد •• ألم ير الشيطان ؟ • لكنه لم يكمل • هبطت أمه كالقدر • جذبته من يده هوت عليه كأنها تقتله • وجاء الليل بالشيطان ، وفى عينيه نار موقدة • سددها اليه فى حدة وامره أن يقترب فتباعد الصبى : دب الفزع فى قلبه • أطلق من الريح ساقيه • فزلزلت الأرض خلفه • نظر وراءه ، فاذا الشيطان يلاحقه • علت صرخاته • ظل يجرى •• ويجرى •• وتزلزل الأرض خلفه •• والفضاء ممتد أمامه كسجن عريض • لابد أن يتوارى أين ؟ •• خيال شجرة الجميز يلمع فى صفحة البئر • الأرض تهدر خلفه • يد الشيطان كادت تلمسه • صرخ • صرخ • صرخ • انشق ماء البئر وابتلعه • اصطدم فى جوفه بأشياء بارزة • تشبثت

بها . ظل برهة معلقا بين الماء والهواء . أحس فيها بدبيب خطى الشيطان تتراجع وتبتعد ثم تختفى . خرج من أعماق البئر . ووقف وحده طويلا . أحس برهبة المكان من حوله . طن فى سمعه دبيب الخطى من جديد . خيل اليه أن خطى الشيطان تبحث عنه .. وحتما ستصل اليه . لابد أن يهرب . ولكن أين ؟ . هل من ملاذ ؟ .. والفضاء سجن فسيح ؟! نزل البئر ثانية . حرك ذراعيه وقدميه فى همجية . اكتشف انه يستطيع البقاء على سطح الماء فترة طويلة . فى الصباح ظل واقفا طول النهار فى الشمس يرتجف . رآه الناس يخرج من البئر . بانت على وجوههم دهشة . قالوا : اذن لم يمت بركات .. كما قد أعلن الشيطان ..

.. من يومها والبئر حضن حنون يحضنك . ومن يوم الى يوم تغوص فى أعماقه .. البئر نبع زلال لا قرار له .

هجر الفتى داره من ذلك اليوم البعيد . أصبحت أرض الحوارى مرقده . وخضرة الحقول مرتعه . وفى أعماق البئر يفرغ همومه . ومن حين الى حين يعود الى البلد . وفى عينيه نظرة بلهاء .. وفوق ثغره بسمة غامضة . وقيل « لقد رافق الجنية » .

ـ « ... الجنية ؟! الجنية يا من يحكون ويحيكون قصة حبك لى . آه يا حبيبتى الجنية .. آه لو التقى بك .. أو تلتقين بى ؟ .. » .. جنية ؟!

المقطع الثانى :

كانت « أم الخير » تملأ البلاص من ذلك النبع الزلال . أرخت الحبل وتركت البلاص يغوص فى الماء .. ثم انحنت ترفعها .. فانفك قفل « كردانها » .. وابتلعته أعماق البئر . صرخت « أم الخير » .. لطمت خديها .. ذهبت الى الدار من فورها صريخها صريخها يلف الحوارى ويتسرب الى القيعان من خلال أعواد الجريد المطبقة على الطاقات والنوافذ والأسطح . وانتفض الدجاج فى الحظائر

وعوت كلاب فوق الأسطح ونهق حمار وصرخ طفل على حجر أمه وانقلب « بكرج » الشاي على يد أحد الآباء فانسلخت . لفظت الدور نساءها ورجالها وبصقتهم على العتبات يشدهم فضول غريزى . « أم الخير » تتدحرج . تسابق الجميع فى سلب لب الحكاية بمختلف الأساليب . فمنهم من خطف منها جملة ومنهم من سارت خلفها تجمع ما يتساقط من فمها من كلمات . تكاثرت الكلمات وتناثرت وتحولت الى رجال ونساء وأطفال وربما دواب ، يسيرون خلفها وفى أعماقهم حماس غامض الى انتظار شيء مجهول . توقفت بهم عند منزلها . ثم ، كأنهم جميعا كانوا يدخرون ما فى حوزتهم من كلام لحين وصولهم الى هذا المكان .. فما لبث أن ارتفعت فى الجو أصوات متداخلة متشابكة تتناحر ولا تقول شيئا مفهوما على الاطلاق .

وحينما هبطت « أم الخير » صحن دارها وهبط رأسها على صدر إمها .. آبت الأصوات الى شيء يشبه التحفز أو الانتظار .. انتظار شيء ما . شيء يبدد صمت الليالى ويحرك ماء البئر الآسن فى حياتهم . ثمة ولع بمأساة ما يرقد فى كل هذه الأعماق ولع غريب ، بحدث جلل ، أمضى الجميع أعمارهم فى انتظاره .

وفى ليلتنا هذه انسحبت الشجاعة من كل الأوصال ، حتى من قلوب العديد من شبان البلد العايقين المتعشمين فى بسمة رضاء من أم الخير . فالبئر وربما كان بئرا . وأضعف مخلوق من هؤلاء خاض غمار المصارف والترع وآبار السواقى آلاف المرات . أما بئر بركات ، بئر جنيته الحبيبة .. فاين هو الشجاع الذى يضحى بعمره ويقترب منه لقاء بسمة من أم الخير ؟

الكل كان يتمنى قدوم يوم كهذا اليوم . وبالتحديد لحظة كهذه . لحظة كانت أمنية تعشش فى أذهان البلد خاصة شبابها ،

لكى تتاح لهم فرصة الاستمتاع بالكشف عن شجاعتهم واستبسالهم وطاقاتهم الثرية المختزنة فى بطن الخواء اليومى الرتيب • فما بالك وأم الخير هى صاحبة الموقف • يا طالما جاءت سيرتها فى خاطر أحد الشبان فتمنى أن تجمعه الظروف بها فى حادث يثبت لها انه ولد ولا كل الولدان • ولكن ها هى أم الخير فى كارثة ، فقدت كردانها الثمين الذى لف صيته العب كله فصار أغنية على نهديها • وها هم جميعا يرونها تتمزق : جزء عظيم من جمالها ضاع ••

مر الفتى بركات • زعقوا جميعا قائلين : تعالى يا بركات •• فجاءهم بركات يجرى وفى قفزاته حب كبير :

ـ هيا يا بركات ••

ـ احضر لنا الكردان ••

ـ خذ ما تشاء من النقود ••

ـ بركات لا يبغى نقودا •• بركات جدع ••

ـ لا تكثروا الكلمات •• هو سوف يفعل دون أن ترجوه ••

لم يدر الفتى شيئا •• لا ولم يفهم عن الكلمات •• سرب الحنان رفرف قادما يتهادى من عينى أم الخير •• ولكن من خلف نظرة انكسار مبللة بالدموع •• « ما أمتع الجمال والأحزان تغسله » •• أم الخير رفيقة الصبا •• كم لعبا سويا لعبة العريس والعروسة •• كم ذابت فى حضنه طفلة طرية شهية موردة الخدود متألقة الملامح مسمسمة •• كم بكى لأنها غضبت منه لم تستجب لندائه ساعة اللعب •• مساك الله بالخير يا أم الخير ماذا على بركات أن يفعله • هل لو فعلت يا أم الخير تسمحين لى بالجلوس فوق كرسى خدك فانجعص ويحدونى الشوق فأستحم من بحرى عينيك الصافيين ؟ أطلبى يا أم الخير • أطلبى ••

سرب الحنان يخفت .. وتتكسر أجنحته فتهوى به الى الأرض . ضحكات بلهاء تتساقط من شفتي بركات ، فتطن فى الأرض مكتومة الصدى ..

ـ همتك يا بركات .

ـ هيــا يا بركات ..

المقطع الثالث :

تزحزح الجمع دافعا بركات نحو البئر . موكب ضم أهــل البلد .. بالطبول .. والشخاليل .. والزغاريد . حملوه فوق رقابهم . وهتافهم زلزل الأعماق من نفس الفتى :

ـ « بركات يا بركات . يا ابن البلد يا أمير . اغطس وقب وهات .. كردان أم الخير .. واستحضر البركات ولأهل فــوق الأرض .. استلهم الدعوات .. يا ابن البلد يا همام » .

طرح الفتى عينيه في زهو سعيد . لابد أن الأرض ترقص له . لابد أن هذا يوم عرســه . نعم لابد . انه بالفعل هكذا . لماذا لا ؟! ابشر يا ولد .. ان هذا العرس عرسك . تبختر يا عريس فهذي ليلتك .. لا شك انهم يزفونك الى عروســك الحبيبة .. الى .. الجنية .. ويقولون كردانا ؟ وأم الخير ؟ .. لا .. انهم قد أخطأوا .. لا لم يخطئوا .. أنا الذي لم أسمع جيدا .. ليس اسمها أم الخير .. اسمها الجنية .. ولسوف تعثر على الكردان يا بركات .. وفرحا سعيدا ترشقه في صدر عروسك .. الجنية .. أليس هكذا يا أهل البلد ؟! ..

قالوا :

ـ ماذا يا فتى الفتيان ؟

قال :

ـ ألستم الآن تزفوننى ٠٠ الى الجنية ؟!

هتفوا جميعا وفى أعماقهم صدق حقيقى :

ـ نعم يا فتاتا ٠٠ وان هذا اليوم أسعد يوم ٠٠

قال بينما يهدهد نفسه فوق الرقاب :

ـ واليس ذلك الكردان كردانها ؟ ٠

قالوا وقد غاب عن أذهانهم موضوع أم الخير :

ـ فليكن ٠٠ وكل ما تبغيه ٠٠ تعطيه للجنية ٠٠

زعق الفتى زعقة هزت فروع الشجر ٠ نادى وقال :

ـ يا جنيتى ٠٠ قد جاءت العريس يا جنية ٠٠ جاء تزفه كل البلد ، فرحانة بزفافنا ٠ فلترقصى ولتسعدى ٠٠ فها آنا قادم اليك يا جنية ٠

ودب فى الأوصال لهب ساخن ٠ ودوى فى الفضـــاء قرع الطبول ٠ ولحق بالموكب موكب آخر ٠ تفتقت الأرض عن أفـواج لا حصر لهـا من البشر ٠٠ تحمل المشـاعل ، والمزامير والدفوف والشخاليل ، والبيارق ٠٠ وتهز أركان الفضاء ٠ تطايرت فى الجو آلاف الزغاريد ، كالعصافير الطليقة ، ترفرف وتحط على رأس الفتى بركات ٠٠

وعند البئر أنزلوه ٠٠ و ٠٠ تركوه ٠٠ يتقدم وحده ٠٠ ثم تراجعوا ٠٠ تماما ، كما يتركون العريس يدخل مخدع عروسـه انخرس كل شىء ٠٠ كان الوجود شملته لحظة صمت خرافية ٠٠ لم يقطعه سوى انشقاق الماء ٠٠ ثم انطباقه ٠٠ ثم ما لبث طنينه أن ذاب فى الأفق البعيد ٠٠ كما ذاب الفتى بركات فى عمق بعيده ٠ الأنفاس كأنها تعلقت بصـفحة الماء ٠ الآذان أرهفت ٠ الأحاسيس

تيقظت . الكل لاهث الأنفاس فى انتظار صرخة كصرخة العروس ، لحظة تخدش بكارتها . لكن لحظة طويلة مرت ، كأنها دهر طويل ثقيل غير أن اللحظة طالت وطالت .. واستحال الواقفون الى تماثيل .. كأنهم نتوءات بارزة على سطح الأرض ، كل ما فيها عيون تبرق وترسل الى صفحة الماء نظرات شاحبة . على أنهم ما لبثوا أن استبانوا خلال الماء كتلة غامقة تطفو على سطحها شيئا فشيئا .. ما لبثت أن تجسمت .. أنها .. بركات .. كتلة لحم ذات راس متهدل .. تقيأت على صفحة الماء دما قاتيا مشوبا بزرقة .. ثم عادت تهبط من جديد ، الى أن غابت فى الأعماق البعيدة .

وبعد جهد جهيد . استطاعت النتوءات البارزة على سطح الأرض أن تتحرك ، بما يسمح لها ـ بصعوبة شديدة ـ أن تلوى الشفاه والأعناق ، وأن تلتقى النظرات بالنظرات ، وربما يكون قد مر دهر كبير ، استطاعوا بعده أن يقولوا بأسف وأسى :

ـ واحسرتاه .. لقد أفشى السر .. فخطفت روحه الجنية » !! ..

(اكتوبر ١٩٦٤)

● عندما يــورق المــوت

انقضى الليل ٠ انسحبت ظلمته من بطن الكون ٠٠ وحطت فى صحن الدار ٠ والنسوة أشباح ٠ بقع من طين أســـود محفوف بالزرقة ٠ كلمات تتساقط فى لوعة ٠٠ تتناثر تتكاثر تتلوى فى ذعر ٠٠ وتصوت فى سمع الصبح :

ـ يا راحلة عن دارنا لم ترحلين ؟ أفتتركينا هكذا فى محنة ؟ الدار بعدك خاوية ٠٠ والشمس خنقت نفسهـا فى جوفنـا ٠٠ يا راحلة ٠٠ لم ترحلين ؟! عودى الى الدار الحزينة وابعثى فيهـا الأمل ٠٠ فلربما تخضر منك قلوبنا ٠

٠٠ اليوم ترحل جدتى ٠٠ وبالأمس رحلت أمى المسكينة : لم ترحلين يا أم عنى هكــذا ٠٠ ؟! لم لم تحمليني فى ضـــلوعك يومهـا ٠٠ ؟ لم تتركيني بينهم ٠٠ ؟ كم كنت أهوى أن أكـون بجانبك ٠ كم كنت أعشق صدرك الملان ٠٠ كم كنت أعشـــقه ٠ رضعت من حلماته رحيق الحب والدنيا ٠ دفنت فى أعماقه روحى ، وأفراحى ، وهمى ، وأحلامى وأيامى وندمى ٠ يا لهذا المصدر من جبلين ٠ من هرمين يحتضنان جدولا رقراقا بنور زاهر عاطر يا طالما دسست أنفى وشفتى بين دفتى ذلك الجدول ٠٠ فتهت عن الوجود عديدا من الدهور ٠٠ لم أكن أشـعر خلالهـا آلا بهدهدات كفك العريضـة الحنونة وهى تطبطب على فى سرعة محمومة بسـخونة

الحب ‥ وتضغطين وكأن أحشاءك لن تستريح الا بعد أن تحتويني بداخلهـــا من جديد ٠ ولعلك لم تكوني في تلك اللحظة يا أمي الحبيبة لتدركي أنني لم أكن لأشعر بأني خارج الأحشاء منك ٠ ؟ لعلك لم يدر بخلدك أنني ما كنت لأحس بضجيج الحياة ٠ الا بعد أن انسلخ من صدرك لفترة ما لسبب من الأسباب ٠ وما كان أكثرها وأشقاها من أسباب ٠ فلطالما نزعتني عن صـــدرك بعنف جبـــار وقســـوة ووحشية وكأني بهـــا كانت تغرر بي ٠ اذ تنزعني عن صدرك شيئا فشيئا ٠ لتحول بيني وبينه في النهاية الى الأبد وفي ذات الوقت تستقيني مرارة اللوعة ٠ ولهيب الحسرة والشـــوق والحرمان على مهل ٠ وها هي الحسرة تستقر الآن في قاع بطني آه يا للهب الفظيع يرتفع أواره الآن في أعماقي ‥ آه ‥ ه ‥ يا أمي ‥ آ ‥ ه ‥ يا أمي ٠

أنا رحت بلاد الغربة يا أمي كيما أصنع من نفسي شيئا ‥ كيما أشعل مصباحا يهديني لمصيري ‥ كيما أرتاح وأرجع للصدر المفتوح ‥ كيما أتسلق قمته المرتفعة ــ وفي قدمي سلاسل من أوجاع وموانع ترسخ بي وترشقني ، لا تزرعني بل ترشقني في مكاني وفي القدمين العاجزتين بريق حلو يتصـــاعد دوما كالنظرة نهفو تتطلع لشموخ الأبدية ، ترنة لصعود مزدهر بالخضرة ، تحملني النظرة وتطير وتحط على صدرك يا أمي تنصب وتقيم على صـــدرك عرسي تجلسني في زهو فوق الجبلين ‥ مرفوع الهامة والعينين أشقي للأرض رحيقك يا أمي كيما نقطف زهرتها ٠

رحت بلاد الغربة يا أمي نهشتني الغربان ، اقتطفت روحي ، وحماسي ‥ قتلتني فرجعت اليك ولم أصـــنع من نفسي شيئا ٠ عدت الى صدرك مشتاقا ملهوفا كغريق يهفو لشراع أبيض فلعلي ألقى فوق الجبلين حياتي ٠ لكني يا حسرة ‥ لم أجد الصدر المفتوح أين مكاني فوقه ؟ هل ضاق الصدر بأحزاني ؟ فعلا ‥ قد ضاق الصـــدر بأحزاني امتلأ بأحزانك يا أمي ٠ قد مات أبي من فرط الحب ‥ ضحك فمات هل راح الجنة ؟ ٠

كنت تقولين وفى عينيك لهيب : ذهب الى الجنة حيث تذكره الله تعالى والآن من هذا القادم نحو الدار ؟ من هذا الزائر يتفضل ويؤانسنا ليل نهار ؟ من هذا الغازى قلبك يا أمى ؟ من ؟ من هذا الدائب فى ترديد الكلمات الطنانة ؟ من هذا القائل أن الشمس ستشرق خضراء وتظلل سعف النخيل ؟ من هذا الواثب فى الأحلام ؟ الواعد بالأحلام .. ! الشارب من غثيات الدنيا أحقر ما فى الكأس . أنى أكرهه ، أمقته ، أمقت ظله ، أمقت صوته .. أمقت كل الدنيا اذ تهتف باسمه .

قلت لجدتى المسكينة :

ـ من هذا الضيف .. ؟

ـ قالت جدتى الطيبة :

ـ هو صاحب بيت . قد أصبح صاحب بيت منذ الآن !

قلت : ـ

ـ وكيف ؟

قالت : والدمع يبلل نبرات الصوت :

ـ الدار حزينة يا طفلى .. تحتاج لفرع يورق ويظلل هامتها ويظللنا .. ويدوس الأرض بقدم خضراء ..

قلت : ـ

ـ الدار مليئة بالجدعان فما بالك يا جدتى الطيبة المسكينة ، تأتينا برجل لا يعرفنا ولا نعرفه .. يا للدار .. تأتين لأمى بالعاشق الشارب أحقر شهوات الانسان ؟

انخرس الصوت على شفتيها فانخرس على شفتى . قالت بعد هنيهة .. :

ـ يا ابنى لا تكثر أسئلتك ٠٠

قلت : ـ

ـ أجيبينى ٠٠ لن أهدأ حتى تعطينى جوابا ٠

قالت :

ـ يابنى لست المسئولة ٠٠ اسأل أمك ٠

وسألتك يا أمي ٠٠ فالتمعت فى عينيك مهانة ٠٠ غضضت البصر ولم تعطينى أى جواب ما هذا السر الغامض ؟ ما هـــذا يا أمي ؟ ومن هذا ؟ ٠

انطلقت عبراتك يا أمى ٠ وأخذتينى فى حضنك ٠٠ وحكاية هذا الغول تلف الليل على شفتيك :

ـ قد خطفك يا أمي ٠٠ جذبك من شعرك ٠٠ ليريك القصر المسحور ، والجنة ذات الأعمدة الخضراء وذات فروع سكرى بكئوس الطمى ونفوس تسطع داخلها شمس ذهبية ـ ست الحسن هناك ما زالت تنتظر ـ حسن ـ ليجىء يخلصها من فك الغول ـ كانت أمنيتى أن أذهب لأخلصها ٠ لكن يا أمي أدركت بأنى لازلت صغيرا ، فالغول القابع فى حضنك غول جبار ٠ آ ٠٠ ه يا أمى ٠٠ من يشرب من لبنك ويخلصك ٠ آ ٠٠ ه لو انى وضعتك ما يكفينى ٠ لو انى ظللت أشم عبيرك من صغرى ٠٠ لكن يا حسرة ٠٠ لم نرضع غير الحرمان ٠

يا غول يا ساجن ست الحسن ، رحماك بست الحسن فهذا غول آخر يسجن أمى ٠٠ أمى ماتت فى يديه ٠٠ ماتت ٠٠ ودفناها ٠ ورجعنا نتجسس فى جوف الدار ونبحث عن شىء نحبيه ٠ ليس هناك سوى جدتنا ٠٠ والغول يعود ويتمدد فى جوف الدار ٠٠ يلقى باللوم علينا :

ـ أنتم يا أبناء الدار اهملتم فى شأن الأم ٠ أنتم يا أبناء الأب المارق أغفلتم رى الأرض وأضعتم ريع الأرض ٠٠ فدعوها ٠٠ ودعونى أتصرف فيها حتى أحييها ٠٠ !

بالله عليك ها نحن تركناك فماذا فعلت ؟ هل تتكلم ؟ من جعل الأرض حريقا ؟ من سحب الخضرة من سعف النخيل ؟ من أغلق باب الدار على الغربان ٠٠ ؟ هذى غربانك ما زالت تنعق فى جوف الدار ٠ ها هى بوماتك تمتص هواء الدنيا ٠٠ تحرسها شياطينك ، تحميها وتنميها ٠ من ذاك الفاعل هذا ؟ من ؟ هل تتكلم ؟! كان الأحدر أن تقتل نفسك ، أو تتوارى ـ ما دمت حريصا أن تحيا فى مجتمع الغربان ، ما دمت توارى سواتك الواضحة وضوح الخجل على خد العذراء ست الحسن ٠ هل تتكلم ؟ وتقول بانا أهملنا ٠٠ ؟ أهملنا ماذا ؟! أهملناك ؟ أم أهملنا الحق الضائع بين يديك ٠٠ أم أهملنا الشمس المنطفئة ، المحتجبة خلف ذراعيك ؟ أم أهملنا أمى وتركناها تتلظى تحت لوائك ، تتلوى ٠وتزم الشفتين لتكظم غيظ سنين الحسرة فى نبرك ٠ كانت يا حسرة تخشى كلمات الناس ٠٠ وتتحاشى أى فضيحة ٠٠ كانت فى قفصك صارخة الصمت ٠٠ طرحتها السوداء تندب حظ هواها الأعمى ٠ كانت فاقدة الحول ٠٠ لا تدرى ماذا تفعل والغربان تبدد ثمر النخيل وتبددنا ٠

هل تقصد ـ يا غولا هبط على مأمنا وانقض على أمى أننا أهملنا فى هذا كله ؟ أم ماذا تقصد ٠٠ ؟! لا تلق الذنب علينا ٠٠ لا تطمس فى الأذهان خطيئتك الكبرى : ماتت أمى ـ احترقت فى صهد الأرض العطشانة ، أكلتها الغربان ، نهشت جثتها الغربان ٠ هل تتكر هذا ؟ هل تنكره ؟ أم أنك لا تذكر هذه الأشياء ؟ ٠

أفلا تذكرنى طفلا مذعورا يتخبط فى صرخات الليل وتتقاذفه عديد من نسوة والجدة تمسك جلبابى وتحيط بالبابى ٠ وتحاول

[illegible] تحجب عنى الرؤية وأنا أنثال دموعا حارقة . صامتة .. لكن كهدير الماء يصب على المأتم . ويولد فى الجو شرارا يجتاح ضجيج الحزن الكاذب . ويغطى صرخات النسوة . ؟ أنسيت .. ساعة هبطت كل النسوة وركعن أمامك يرجونك ، دعه يراها . أنسيت الصورة ؟ صورتك الملعونة لحظتها . حين الأرض بقدم مخبولة . وأمرت بوضعى فى القاعة والاغلاق على .. حتى ندفنها ؟!

ودفنتم اياها رغما عنى .. ذهبت أمى . تركتنى أجتر أساى وحكاية ست الحسن والغول السجان . قولى يا جدتى الطيبة :

ماذا فعلت ست الحسن ؟ تتثاءب جدتنا . وتملس بالكلمات على عينى :

ــ ست الحسن هناك ما زالت فى القصر المسحور . القبر المهجور ... تنتظر الشاطر ليخلصها من فك الغول . قالت هذا بالأمس . واليوم تذكرها الله .. فماتت . قالته وماتت .. آ .. ه . كان حديثك يا جدتنى المسكينة .. سحرا يطربنى فى النوم ويجعلنى أتقابل مع ست الحسن وبنت السلطان .. أطرح بينهما أملى مرهونا بفؤادى .

ــ من تنجح فى توصيلى للجنة .. تأخذ قلبى وحياتى ، ونعيش سويا فى رغد ، اذ أنى سأقابل أمى فى الجنة . وسأجد هناك على الجبلين على الهرمين مكانا يأوينا .. يا ست الحسن .. ويعطينا عشا نبنيه .

شدتنى بنت السلطان .. جرتنى من ثوبى الريفى الواسع . وأرتنى قصورا وعبيدا ، ورجالا ليسوا كرجال البلدة ، ليسوا من طين بل من حلوى وأرتنى أرضا ليست من أرض البلدة ليست من خضرة بل من حجر ورخام وأرتنى زحمة لم أعرف فيها مخلوقا أيا كان .. وأرتنى حتى صرخت من الغربة وطلبت الجنة ..

وطلبت السير اليها ممتطيا قدمي ـ ان عز علي الركب • وعرضت حياتي ثمنا لهواها لو ألقاها •

ضحكت بنت السلطان ، وقالت ـ يا مخبول ، يا متأخر ، تلك هي الجنة •• فامرح فيها كيف تشاء • اشرب ، كل ، البس ، أرقص ، غن ، مر ، انه ، افعل ما يحلو لك ، فالدنيا ملكك • فاما وسعتك الدنيا ، فانظر في عيني ، لتطل على دنيا أخرى •• أدخلها وارفع فيها واستسلم ، ولسوف أغطيك بجفني • أو أدخل في حضني ، وتمدد ، وتمرغ ، واقس علي ، اسحقني لو شئت ، فتتني ، اجعل ثقلك يهبط بي في جوف الأرض ماذا تبغي ؟ قل ، في التوتكون المبغية بين يديك • لن أفعل أكثر من ضغطة أو حكة فص ، تنقلب الدنيا لحظتها وتجيء وتركع وتقبل قدميك • ماذا يا راضع لبن الأرض الأم ، وساقيها دم ذراعيك •• قل لي ، أتكون دماؤك قد خاوت رحم الأرض •• فلا يستسلم أحدهما الا للآخر ؟ •

جمعت حياتي ووفائي للمعهد الغالي ونطقت أخيرا ، قلت :

ـ يا بنت السلطان ، يا أحلى ما أنتجته الجان ، اصنعي معروفا ودعيني •• ما دام البر الثاني ما زال بعيدا ، ما دام هنك هناك على مرمى الأبعاد • أعرف انى لن أرجع للبيت فلا توجد أمي فيه •• لكنني لابد وأن أتحرك في جهة ما ، وما دمت تحركت فلابد وأن ألقاها •• ألقى أمي ، والجنة فالجنة مثواها ـ قال الشيخ يصلي عليها ، والجنة مأواها ـ قالت جدتي مؤكدة لي •

انشرح الجو ، في وجهي طق شرار عينا بنت السلطان حمم • أكان المردة قد وجدت في التو وأشاعت في الجو لهيبا • ياللأهوال المحدقة بأهل الأرض وبي • لفتني دوامة ، رفعتني في الجو ودارت بي وانخرطت في الدوران •• قذفتني فوق الأرض حطاما •

فتحول ظهر الأرض ، وانقلب ذراعا ممدودة تتلقف رأسي . وإذا بي مسنود الرأس ، يمتص وجودي دفء حلو يمزجني بطراوة صدر لم أعهدها الا فى حضنك يا أمى . اتفتحت عيناى ، ومن بينهما طار بريق حلو أحمر ، كبريق الصهد المتصاعد من جوف الأرض العطشانة . انطفأ الصهد بشعاع هبط على بصرى كشعاع الماء المتدفق من أعلى الجدول . كانت نظراتك يا ست الحسن .. نظرات غسلتنى من كل هموم الدنيا . فشربت الروح .. آه .. يا ست الحسن .. ما هذا الخد الشارب من طمى النيل ؟ ما هذى الخضرة فى عينيك .. رسينى يا ست الحسن .. رسينى على خدك .. ومرينى أن أطوى شراعى .. وخذينى فى حضنك .. ضميني اليك .. ضمى .. ضمى يا ست الحسن .. الجنة قدامى يا ست الحسن .. الجنة فى قلبك .. اعطينى المفتاح .. لا .. قلبك يا ست الحسن لا يألف مفتاحا ما .. وسأفتحه .. أنفاسى ستذيب الأقفال .. أولا .. قلبك يا ست الحسن غصن أخضر طاب على أمه .. وسأقطف منه فروعا أزرعها فى كل قلوب الأرض .

آه ؟ ماذا أسمع ؟ يقترب زئير ماذا ؟ الدنيا تهتز .. تتهاوى الأشياء على سطح الأرض وتردد أوراق الأشجار نحيبا وهتافا .. تتهامس فى ذعر .. الغول يمر ..

ـ ما بالك يا ست الحسن .. ما بالك واجفة القلب ؟ ارتعدت ست الحسن لطمت خديها قالت :

ـ يا ويلى .. أين أداريك .. أين ؟ لا مهرب منه .. لا يخفى فى الدنيا مكان عن عينيه قلت :

ـ دعينى يا ست الحسن ، فلسوف أخلصك .. الساعة سوف أخلصك . سطع الحب على شفتيها .. ربتت شفتاها على صدرى . قالت لى لوعة ـ اهرب يا طفلى . اهرب خيرا لك قلت ـ

وقد بدأت ترجفني رعدة : أنا يا ست الحسن شجاع ، لا أخشى شيئا حتى المارد ٠

بسم العطف على شفتيها ، في حين أخذت تتوارى عن بصرى ، وتشير بكفيها وتقول ٠

ـ لا تستسلم لشجاعتك الحمقاء ٠٠ فى هذه الحالة يا طفل لا تعتبر شجاعا بل مجنونا ٠ اهرب وانج بجلدك ٠ فاهتزت بى الأرض ، وصرخت بفزع ومرارة :

ـ دلينى يا ست الحسن ٠٠ اهديني لمكان الجنة ٠ رجع صداها قال بحسرة :

ـ الجنة والغول ؟ هل هذا معقول ؟ فلتهدأ يا طفلى ٠٠ فأنا فى القبر المجهول أنتظر خلاصى ٠ لكن فى كل الأحوال يا طفلى لا تحزن ٠٠ فخلاصى ـ أيا كان ـ سيكون ربيعا ٠٠ ويخضر سعف النخل ٠ ارتفع زئير ٠٠ طقطق صوت كسر جنبات الكون ٠ قالوا فى همس مذعور :

ـ الغول تثاءب ٠ ناديت بأعلى صوتى :

ـ يا ست الحسن ٠٠ لا أعرف كيف أعود ، ولا كيف أمر ٠ قال الصوت يحذرني :

ـ جرد نفسك من أسلحتك وامضي بدلا من أن تنزع منك وتطرد من دنيا الأحياء ٠ وارم سلامك قبل كلامك ٠٠ وابعث لأمك ألف سلام ٠

ـ يا راحلة عن دارينا لم ترحلين ؟ يا أم أهل الدار يا أصل السبب ٠٠ يا من خدعت الأهل والأحباب بالنـوم الطويل يا من نسيت قلوبهم وحنينهم وأنينهم ٠ ابعد عنها يا غول ٠٠ فالولية قلبها مقتول ٠ وابعد عنها يا قاتل ٠٠ فالولية نعشها مائل ٠

.. يا الهى .. لم يعد يوجد فى هذه الدار من يهتم بى . ليس فى هذه الدار من يهتم بى .. فاهتم بى أنت وتذكرنى . تذكرنى فلم يعد فى الدار سوى الغربان ، واليوم عشش فى نوافذها . بوابة الدار واسعة ، لكنها يا ألف حسرة مدهونة بالصدأ ، ملطخة بالصديد ، ولا طاقة لمخلوق بشرى على فتحها ، وانها لا تفتح الا لجنى ابن جنى . كل من فى الدار ميت ، وكل ما فى الدار ميت . واليوم وفى هذه اللحظة .. تتوقف روح الأشياء . جدعان العائلة يزفون الأرواح اليوم . جثة جدتى العجفاء يكفيها كفن ضيق .. لكن العائلة تكفنها بعريض الأثواب ، فالجثة ليست جثتها ، بل جثة أرواح الجدعان ، واليوم ستدفن فى القبر ، تحملها جثة جدتنا . جدتنا ستروح الجنة بالطبع لكن أرواح الجدعان ، ماذا تفعل ؟ انى لا أدرى هل يمكن أن تذهب أرواح الناس الى الجنة .. دون الأجساد .

ما بقى سوى أجساد .. حتى أنظر .. انظر يا الهى .. ماذا يمكن أن تفعل هذه الاجساد ها هى متكورة جنب الحائط تنتظر صلاة العصر وتنتظر الأكفان . جدعان البيت حجر قطع من طين من طوب ، من طمى برك ، من زفت ، من قطران .. برؤوس مائلة فى ذلة ، كالاستسلام كحقارة كلب أجرب يتلقى الركل ويعوى ويحرر ساقيه ، ليرتمى على كومة قش ، أو ينقض على جيفة نتنة ، ينسى فيها ألم الركل ..

الجامع أذن لصلاة العصر فانتفض الجميع وقام .. والتفوا حول النعش . وأنا أتسلل ما بين الأرجل : ــ لابد وأن أذهب لأشيع جثتها ، لأشيع جثة أمى فى جثتها .

الواعظ ملس فوق النعش . وتغنى كلمات : ــ كل الناس تذوق الموت . لكن .. ما كل الناس تذوق الجنة .

هيا يا جدتنا .. امض لمصيرك ومصيرك مجهول .. في قلب مقابر قريتنا انتشر الجميع بطابور يبدأ من وسط القرية انكفأ البعض على مقبرة الأم . انتفضت روح فتى وقف على مقبربة منها أنشل الفأس ولم تهو فوق الأرض . بعد الضارت بالفأس قليلا . صرخ فتانا .. صرخ صراخا شل الموكب والمنتشرين .. وانكفأ على الأرض يعانق شجرة . جذع أخضر ذو حزمة أفرع نبتت من أرض المدفن .

قال البعض : ـ في هذه البقعة ترقد رأس الأم . وقال الكل . ـ يا للحكمة .. أرض رملية تنبت شجرة ؟ لكن فتانا يتمطى . يصبح فجأة كالمارد .. كهرقل .. يفرد صدرا يسع الكون ويسد طريق الطابور القادم بالموت . يبعث فيهم صوتا كهدير الرعد :

ـ فلتقبل يا موت . أنت حقيقي والباقي زيف . أنت حقيقة كل الحقائق . أنت خلاص وأنت آمل أنت فناء وأنت حياة . وأنت ذبول وأنت أزهار . اسمعوا .. يا كل خلق الله يا أهل البلد . لا تقربوا هذا المكان . لن تقربوه .. ألا فلتسمعى يا من هناك فى قبرك المهجور قصرك المسحور .. هذا خلاصك .. ها هو الموت يورق فى قريتى .. ها هى أمى تطرح شجرة وتفتح ثقبا على جنتى .. يا أهل بلدتى ، يا كبار ويا صغار ، يا نساء ويا رجال .. يا أجنة فى بطون الأمهات ، يا بذور الزرع فى أيدى الصبايا .. من ها هنا يبدأ التاريخ رحلته الجديدة ويبدأ الانسان فى صنع الحياة .. فلتدفنوا جدتى فى مكان ما .. لا .. بل ذوبوها فى عروق الأرض .. ودعوها تزدهر .. ووالوها بالرعاية كل يوم ، لكى تشربوا روح خلاصكم .. أما أنا فانى سأبقى هنا .. فهذا خلاصى .. فان ذات يوم مررتم هنا ، ولم تجدونى فى مكمنى .. فقولوا بأنى ذهبت هناك .. الى جنتى ، وانى هناك .. متربع على صدر أمى الحبيبة .

(١٩٦

● أغنية للقمر الغـائب

•• وانزاحت عائشة ، وتمطت ، رفعت قامتها ، نفضت عن هذا الرأس المكدود شريحة ليل ، ورمتها • والليلة يا صبايا •• الليلة •• هيه •• الله كبير يا صبايا ، وغنى ، وأمير ، ويحب الناس ويكرمهم ، وخصوصا من هم فقراء ، ما أحلى حظ الفقراء ما أحلى آخرة المحتاج •• سيلاقى فى الجنة أشياء لم يرها فى حياته ، وسيأكل يلبس يغسل يتطهر من كل الأوساخ ، وينام ، و •• و •• العانس فى هذه الدنيا الخربة يا صبايا • فى الجنة تتلاقى بعريس عملاق ، وملاك ، سيحضنها ، ويقبلها ، ويتوها فى صدر رحب مترام الأطراف ـ والدنيا •• لتغور بدنياها ودناياها ، لتغور فلا نطلبها •

وانبعث من القعدة صوت حالم ، صوت صبية ، جاءت ـ عبرت، متسللة من سطح الجيران ، لتزور السطح العامر بالسمر ، قالت :

ـ يا عائشة • ما قولك فى عز هبط على عمك فجأة ، ليدندشه •• وليجعله رجلا من بين الأعيان •• يمتلك الأرض يؤجرها وينال المال بغير حساب ، ويزوج بنينا وبنات من أبنائه •• والفخر لمن يحظى بمصاهرته ؟ •

انغلقت عائشة للحظة ، بعثت نظرتها شاردة فى الجو ، عانقت القمر الطالع ، النائم كحمامة ، فى أعلى نخيل متباعد : يا جريد النخل يا عالى ، ارفق بالقمر المتخفى فى سعفك ، احضـنه ولكن

لا تخفيه ، أترى ، ها هو يتمرد في صدرك ، ويحاول أن يفلت من بين ذراعيك ..

ـ عائشة .. عائشة .. مالك ساكتة يا أخت ؟

قالت عائشة .

ـ الويل لعمي .. الويل الويل .. قد كان حريا يأخذني ويعيشني ضمن بناته .. أو لست صبية ؟ أو ليس له صبيان ؟ ـ لم يصبح في الدنيا أمان .. عمي كثرت أراضيه . عمي لا يزرع شيئا .. عمي لا يفعل شيئا الا أن يحصد مازرع الناس .. قد كان فقيرا لا يجد القوت . قد كان أبي .. وأبي ؟! ..

.. في وسـط الدار تمدد فوق حصيرة . يتقلب ، يعطي للحائط ظهره ، ويعود فيعطيها وجهه ، ويلم ضلوعا خاوية توشك تنفجر . وبألم وحلاوة روح ، تتراقص أهداب مثقلة بسنين وسنين ، تبلغ ستين ، ينفخ ، يتمطع ، يعطي للحائط ظهره ، ويمد ذراعا معروقا ليعانق آخر من أسفل ، يحضن بينهما رأسه ، فلعل النوم يجيء ، والنوم عنيد ، وبخيل ، وحقير لا يبغي أن ينجد من هم في مثل اللحظة ، لا بل هو يمعن في الكيد فيسوق عليهم أثقالا : الدنيا حكم . امثال ، وتقول الأقوال : لا حاجة في الدنيا تدعى « شطارة » ، بل يوجد شيء يدعى الحظ ، ليتك تملك قيراطا منه ، أنفع من فدان « شطارة » ، .. آه .. حكمتك يارب ، لك شأن في شأن الخلق ، اني ـ لا سمح الله ـ لا أعتب .. فأنا عبدك مهما كان ، وعلى كل هذا حظ علي ، هكذا جاء ، بخته ، ماذا سنقول ؟ لكن يا خسارة ، لكانك يا أخ « علي » لست شقيقي ، لكانك لم ترضع من ثدى أنا راضع منه ، طول عمرك هذا ، من يومك ، ولد غدار وأناني ، حتى مع نفسك في بعض الأحيان ـ تحضرني الآن حكاية ، كانت قد عبرت أحـلامي في ليلة ، حيث تمددت جواري ، في النوم تغط

وتتعمق ، واذا بى فى الحلم أراك ، تمشى وتثرثر ، وتقول كلاما لا يفهم ، عن دنيا قائمة فى رأسك ، فزجرتك ساعتها ، وأردتك أن تمشى ساكت ، فالجهد تبدد فى اليوم ، وتساقط عرقا ، قطرات ذابت فى الطين ـ كان غريبا الا يصرفك الطين ـ مع أنك فى الشغل تناولنى قطرات منه ، أتلقفها ، وأغلف منها نبت الجدران ، لا نميها ، كيما يرتفع البنيان ـ وتجىء أخيرا تفلقنى بحديث تافه ، مؤداه غرامك فى فرس تركبه وتلف القرية تتمخطر ، وتباهى بشبابك اخواتك ، وتثير عقول الفتيات ؟ ·· كنت حريا أن أزجرك · لحظتها اجتزنا الحارة ، ومررنا على بيت « استيفانوس » ، هو أعلى بيت فى القرية ، اذ يبلغ سبعة أدوار ، سكان القرية ترهبه ، فهو خراب من أعوام ، منذ اغتالت صاحبه الخمر ، وهوى فى عز شبابه ، أبقت أسرته ذكراه الحسنة ، ببقاء البيت بلا سكنى ، مع أن التفتيش العالى قد أحضر آخر ليحل مكانه وليرعى محصول الضيعة لكن فى بيت آخر ·· ورأيتك فجأة يا شيطان تتسلق جدران البيت ، كالقطة تقفز بمهارة فقذفت وراءك ابصارى ـ وأنا ذاهل ، وهناك هناك على بعد المرأى ، لمحتك عيونى كالقطة ، كالرمز ـ الشاهد ·· ما أفكه تلك اللحظة ، اذ رحت أحاول تقليدك ، فأخذت أشمر أطرافى ، وأمد يداى وقدماى وأسنانى ، أتشبث فى شىء يسندنى بحديد الشباك ، بنتوء بارز ، لكنى يا حسرة سقطت ، وأصابتنى الضحكات ، يبعثها الرائح والغادى سخرية منى ، فى حين كانت توخزنى الأمات ، لا بل كانت صرخات ، بدليل أنك ليلتها قمت بفزع وشرعت تصحينى ·· من تلك الليلة يا ملعون آمنت بأنك لابد ستعلو ·· كم كنت أنا ·· كم كنت غبيا ، وحقيرا ، وجحودا ·· ما أغبانى ، ما أعمانى ، سوأت معاملتى لك ، ورميت بقفازى فى وجهك ، صرحت بأنك ترهقنى ، اذ قل الشغل لم يصبح مثل الأول · وتجىء الأيام بصبح يأخذك فلا ترجع أبدا ·· فسألت الأفكار ، وبعثت الذهن وراءك ، لكنك عدت أخيرا ، وكأنك

أت كي تشمت في ·· لا أكتم أني متحسر · وحزين ، متأسف ، لكنك لم تفعل شيئا ، لم تلق البال الى ، بل سرت وخلفك أثوابك وثراؤك ·· في رأس ما زالت صورتك تؤرقني : الوجه المملوء دما ، عكس زمان ، والثوب الكشمير الغالي ، وصديري ، والساعة من ذهب خالص ، وحذاء لامع ، والأدهى من هذا وذاك طربوش عايق ·· أصبحت أفنديا ؟ والله عال ·· أتقول سلام ، وتمر ، لا تجلس حتى لو يضيع دقائق ؟ ·· هل تنتقم لماضيك ؟ ·· أم انك مشغول عني ؟ ·· فعلا ·· الدنيا شغلتك ، أعطتك ، رفعت من قدرك ، أنستك أخاك ، جعلتك تروح وتنسى أيا ما كانت تأتينا في زى ليالى مثل نساء عجفاوات سوداوات منكوشـات الشـعر ·· بالطول بالعرض قطعناها ·· هل هـذا سهل النسيان ؟ ·· طب اجلس برهه ·· قل سلامات ·· ازاى الصحة ·· كيف الأحوال ·· افعل شيئا ، أو لست أخاك مربيك معلمك الأشياء ؟ ·· هيه ·· يا للأزمان ·· ما عاد الأخ يحب أخاه ·· دنيا أموال ومصالح ومنافع هل هذا يرضيك يارب ؟ ·· أستغفرك وأتوب اليك ، اذ أنت ولا شك عظيم وخطير لا تفعل شيئا الا لمراد ·· طيب ·· الآن لدى سؤال : هل هذا الولد العاق يستأهل عزا يغرقه ويفيض عليه ، وأظل أنا مكدود الحال ؟ ·· آه ·· الآن تذكرت ·· الواعظ قال : من كان فقيرا في الدنيا عوضه الله بآخرته ·· يعنى أنك تعطى لعلي دنيا كيما تنزع آخرته ·· وعلى كل الأحوال فأنا أوشكت على لقياك ، فارزق عائشة يارب ، بعريس ابن حلال ، هي طبعا بنت مسكينة ، لم يتهاد لمحطتها أي قطار ·

وتثاءب « عبد الفتاح » ، وتكور مرتكنا للحطائط ، وبداء تلفان سيجارة ، والنوم خرافة ··

كانت « عائشـــة » تغنى أغنية للقمر المتخفى في سـعف النخيل ··

ـ انزلى يا بنت .. الفجر خلاص ..

ـ نم يا أبي .. ماذا صحاك ؟ ..

ـ اللغو بلا جدوى فوق الأسطح ..

لكن « اللغو » تصاعد ، واحتجب القمر وغاب ، وانثال عليه سحاب فوق سحاب .

(١٩٦٤)

الأوباش

القمر يتسلل الى الاسطبل

قال الجد « مهيوب » لحفيده « طلعت » :

يعز على أن تطلع الترحيلة ياطلعت . ولكن ، انت رجل . أما أنا فقد تعبت . أمك « توحيدة » أتعبتنى فى حياتى . لم أنجب سواها وبضعة رجال . أما الرجال فقد أخذتهم « السلطة » واحدا وراء الآخر : مرة لانشاء المصارف ، ومرة لصد غضب النيل حين يفيض عن الحد ، وثالثة لحفر قناة السويس ، ورابعـــه للجهادية وخامسة وسادســة وســابعة وعاشرة . من حب الله وفضله على تذكرنى ، فاختبرنى ، فأصابنى فوضعنى بذلك فى صفوف المؤمنين .. اذ لم يعد لى أى ولد ممن ذهبوا . والحمد لله لم يبق سوى أمك العزيزة « توحيدة » أراد أن تعوضنى عن المرحومة أمها وأن تؤنس وحدتى بك يا أعز الأبناء ..

تعرف يا طلعت ؟ .. هى الوحيدة فى بلدتنا لم تطلع الترحيلة طول حياتها . أوصتنى أمها بها خيرا فلم أعرضها للاهانة فى بلاد الناس . غير أن الزمن غدار . هبط البلدة ذات يوم رجل متقمط يركب حمار العمدة وخلفه خفير يلهث . قالوا انه رجل كبير هارب من بطش الملك ، لكن العمدة قال أنه واحد من أقاربه الذين يعيشون فى أم الدنيا ، وانه يعمل قاضيا فى المحاكم ، وقال أيضا أنه هارب من بطش الملك ـ لم نكن نعرف لماذا يريد أن يبطش به الملك .

صار الناس يذهبون الى « دوار » العمدة ليتفرجوا عليه وهو يجلس في الفراندة يدخن الغليون · من سوء بختها مرت البنية من أمامه حاملة « البلاص » قادمة من الترعة · ما كاد المساء يحل حتى جاء الخفراء ودعوني لمقابلة العمدة ·

قال لى العمدة أنني تشرفت بالرغبة السامية ، وأن حضرة القاضي قد خطب ابنتي ·· أنا ؟ ·· توحيدة ابنتي يتزوجها حضرة القاضي ؟ سامحك الله ياعمدة قل كلاما غير هذا يكون المزاح فيه خفيفا ومقبولا · غير أن حضرة القاضي قال لى في تودد : « اجلس يا عم مهيوب » · فجلست · أخرج من جيبه حزمة من ورق البنكنوت · منظرها أطار لبى · وضعها بين يدى ، قال : « عدها » · صارت يدى ترتعش ـ أنا الذى في ترحيلة العمر كلها لم أفز بورقة واحدة منها · قال : « كم ؟ » · قلت : « مائة » قال : « حلال عليك مقدم صداق لابنتك » · لم أجد كلاما لحظتها · لم أشعر الا بيدى بين يدى القاضي نقرأ عقد القران ·

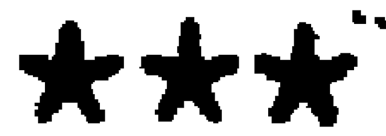
يومها قال القاضي أنني لا يجب أن أحمل الهم أو أنشغل بشيء ، فكل شيء سيكون هو مسئولا عنه ، وما على الا أن أسلمها له كما هى ، لتمكث في بيت العمدة أياما ، تسافر بعدها الى بيته ـ بيتها ، في أم الدنيا · كل فتاة ليلتهـا نظرت الى أمك في حقد مسموم ، وكل فتى نظر الى القاضي في حقد أشد سما · اندفعت الألسن تقول وتعيد وتزيد ، وانتقلت فلذة كبدى الى بيت العمدة وانتهى كل شيء ·

قل في ليلة الفرح ما شئت فانى لا أستطيع وصفة لك · انما العروس التى كانت تجلس فى بيت العمدة ليـلة العرس كالوردة المفتحة لم تستطع أن توقف سيل دموعها · كانت يا ولدى تعرف

أن هذا الفرح ليس سوى حلم قصير الأجل · فبعد ثلاثة أيام خرج القاضي مع الفجر مســـــافرا · قالوا أنه ذهب ليجهز للعروس ، ولسوف يعود ويأخذها وربما يأخذنا معها · غير أنه لم يعد ، حتى الآن لم يعد ··

ظلت أمك في بيت العمــدة حتى وضــعتك · كانت تخفي ما تلاقيه من ذل ، فللعمدة نساء أربع ولأمك حجرة الكرار · ومن يوم ما سافر زوجها شالت حمل الدار كله على ظهرها وكان لابد أن ألم لحمي ، بعد أن نفد الصبر ومات الأمل ··

واندفعت أجــرى في بلاد الله خلق الله أبحث عن أبيك · والعجيب يا ولدى أنه ما من مكان سألت فيه عنه الا وســـمعته ورأيته ولكن هيهات أن أمسك بالجسد · وها أنت ذا يا طلعت ياولدى تراني قد تعبت وكففت عن السفر وراء أبيــك ، فيكفيني السفر وراء الرغيف · ولكن أمك الحبيبة لاتزال تستقبل المساء كل يوم باسمة ، بينما تنظف زجاجة المصباح ·



·· زهق « طلعت » من هذه الحكاية التي بات يكرهها كره العمى · كثيرا ما غمز جده في ذراعه ليكف عن الاستمرار فيها ، ولكنه لايريد أن يكف عن حكايتها ليل نهار · قال طلعت لنفسه : انه لا يخشى أن يفتضح أمرى في الغربة · ثم قال لجده وهو يحزم وسطه بالمنديل المحلاوى :

ــ اننا في الترحيلة يا جدى ·· ومعنا أنفار من كل البلاد ··

فنظر اليه « مهيوب » وهرش ذقنه وابتسم · وكان طلعت يريد أن يقول له أنهما في الليل سينامان في الاسطبل مع الأنفار ككل ليلة ، وأنه ان سمع جده يحكي هذه الحكاية ثانية فسوف

يهرب ويرمي نفسه فى المصرف . على أن صفارة الخولى انطلقت من بعيد تنذر الأنفار أن ساعة القيالة قد انتهت . فأخذ « مهيوب » يلم نفسه من تحت ظل الجزورينة ويتجمع واقفا . وأخذت الأجساد المرتمية فوق الأرض تتململ وتجرجر نفسها ســـائرة فى اتجاه الخولى ..

كيف التقت البلدة بالاسطبل

« بالحـق يا ناس ديه مش بلدى »
« ولا بلد الوالدين ولا جـدى »
« لا هي بلدى ولا مسكن اجدادى »
« دى بلاد الغز والشقا يا حـادى »
(موال مصرى)

— ١ —

نظر العجوز الى « الدنيا المقلوبة » حوله وأمامه داخل الاسطبل · أيقن أن الولد قد ضاع بين الاقدام ·· وضع يده على قلبه ، وتنهد ، ثم نادى :

ـ يا طلعت ·· يا ولد يا طلعت ·

تلفت اليه أكثر من واحد ، لعـل اسـمهم جميعـا طلعت ، فعاود النداء :

ـ يا طلعت يا ابن القاضى ·· يا ابن القاضى ـ

ارتطمت به الأكتاف من كل ناحية . صـــار يترنح لاهثا شاحبا ، يلعن الاسطبل وشـــورته السوداء ، والناظر والذين خلفوه .. ثم وقع . راح يصرخ ويعافر بساقيه النحيلتين وذراعيه ، ويحاول النهوض فتمنعه الأجساد التي تتدافع ..

ـ عم مهيوب ؟ .. عم مهيوب يا دياب .

ـ دياب .. الحق بى يا ولدى ..

استطاع دياب أن يتمطع بالطول وبالعرض عدة مرات حتى أوسع للعجوز فراغا يتحرك فيـــه . نهض مهيوب يلقط أنفاسه الهاربة يتشبث بمن حواليه . تلقفه دياب تحت ذراعه ومضى به . قال مهيوب :

ـ الولد .. تاه الولد منى يادياب ..

ـ ابن القاضى ؟

ـ ومن غيره ؟

ـ لا تنشغل .. سيبين بعد أن تهدأ الحالة .

ـ من ســـوء بختنا بعث الله لنا بمن يشاركنا فى موضع القـدم .

ـ نحن نستاهل .. أن ربنا يعاملنا بسوء نيتنا .

ـ نحن أصلنا من أصل واطىء .. يكرمنا الله باسطبل ننام فيه بدلا من العراء ، وبعيدا عن التهمة الأزلية التى كانوا يلفقونها لنا كل عام .. فاذا بنا ، حتى نحن يا أبناء البلد الواحد والحارة الواحدة ، نتخانق حول المكان .

ـ آه ماذا سنفعل اليوم .. فى العام الأول كان الاسـطبل يكفينا .. وكنا نتعارك هذا يحب المصطبة ، وذاك يحب الركن

الدافىء .. أظننا اليوم سنبتهل الى الله قائلين : اللهم أكرمنا بشبر واحد .

ـ ربنا يستر .. ستصل الخناقات اليوم لرب السماء .

ـ ها .. لقد بدأت .

وأشار بيده ، فاذا برجال يرتفعون فوق الأعناق وينهالون ضربا بالعصى فوق الرؤوس والأكتاف . أخذت الجموع تتراجع . صوتت نساء ، صرخ أطفال . صار الاسطبل مثل يوم القيامة كما يصفه فقيه الجامع : لا أحد يعرف أحدا والرجل ينسى زوجته والزوجة تنسى طفلها والطفل ينسى الأبوه والأمومة ولا يفكر الا فى نفسه . غمغم مهيوب وهو يغمز دياب :

ـ شف يا دياب ان كان أحدهم من بلدنا ؟

ـ لا يظهر للعين غير الذين يضربون .. يعنى لا أحد من بلدنا .

ـ سنأكلها الليلة ان شاء الله .

عرف دياب أنها « العلقة الساخنة » التى يأكلها أهل بلدته دائما باعتبارهم « غرابوة » لا شوكة لهم .. فغمز مهيوبا فى كوعه ليطمئنه . لكن دائرة الضرب توسعت بسرعة دون أن يتحرك من مكانه أحد . زحف الضرب من مجموعة الى أخرى حتى صار بجوار وجه دياب . انتفض واستعد ليضرب من يعتدى عليه أو على بلدياته ، غير أنه فوجىء بشيخ الغفر نفسه ـ شيخ غفر التفتيش ـ يرسل الضربات فى كل اتجاه ، ويصيح آمرا :

ـ اضرب يا غفير .. اضرب ضرب موت فى أولاد الكلب الأوساخ هؤلاء ..

ـ يا شيخ الغفر حاسب يا شيخ الغفر ·· نحن مظلومون والله ما نستحق الضرب ·

صاح شيخ الغفر :

ـ اخرس يا غرباوي يانجس

ارتعش دياب · غمزه مهيوب :

ـ اسكت يا دياب ·· الضرب ليس فينا نحن ·· الضرب عـام ··

ثم أخذ يرتعش هو الآخر ··

تمكن خفراء التفتيش من اخمـاد كل حركة وصـوت ·· دفع شيخ الغفر الناس أمامه وداس فوقهم حتى وصـل الى المذود المستطيل بطول الجدار فوقف فوق حافته صائحا :

ـ ياحوش يا أولاد الزواني ·· الاصـطبل أصـلا جعل للغرابـوة من عـام مضى ·· هكذا أمرت الست ووافق التفتيش انما الباشكاتب له رأى هو الآخر ·· وليس مقبولا أن يمشي رأى الست ولا يمشي رأيه ·· قال : الاسطبل للانفار ·· صنف الأنفار ·· لا يهمنا ان كان النفر من بلد التفتيش أم من بلاد بعيدة ·· من يعمل في أرض الوسية فهو نفر رغم أنف الذين خلفوه ·· وما دام نفرا فلابد أن يبيت في الاسطبل ·· ومن ينـام في الاسـطبل ، ياحمير يا بهائم ، يحمد الله ان وجـد مكانا يأويه ·· فلا تفلقوا رؤوسنا بعد الآن ··

ـ لكن يا شيخ الغفر ، أهل البلد عندهم بيوتهم ·· وبيوتهم في نفس البلد ·· دعوا الاسطبل لنا ·· انه على قدنا ·· ونحن من بلاد بعيدة ولا مأوى لنا غير الاسطبل ··

هكذا صاح واحد من « الغرابوة » بصوت مرعوش مخرخش تراكم عيه الصدأ .. شخط فيه شيخ الغفر :

ـ انكتم أنت الآخر يا إبن الـ « .... » ..

من سوء بخته كانت الـ « .... » هذه واقفة بجوار ابنها ، فانبرت بلسان غرباوية أصيلة لم تعرف لها أهلا ولا بلدا ، ولا تعرف أصولا ولا ترعى حرمات ، غسلت شيخ الغفر وعصرته ونشرته ، وأفهمته أن هذه الـ « .... » هي بسلامتها أمه ، أمه فقط ، وأنه لهذا يعمل في التفتيش ، ولابد أن أمه قد ذاقت طعم حتى خدم التفتيش كي يصبح هو شيخا للغفر فيه . لم يستطع أي خفير أن يضربها على هواه ، فما من خيرزانة هوت عليها الا وتلقفتها بيد مدربة ثم طوحت بها في وجه الجميع ، مطوحة خلفها بصراخ متفجع موجوع ..

وصاح شيخ الغفر :

ـ ستلم علينا التفتيش .. دعوها .. هل نجعل عقولنا على قد عقلها .. أنها امرأة .. وغرباوية .. تقول ما تشتهاه فلا حياه عند أهلها .. وعلى العموم فأنا أستاهل قطع رقبتي لأني سبق أن جئت في صف الغرابوة .. ومن يجيء في صف الواطيء يأخذ على دماغه .. فوالله يا أولاد الفجرة يا غرابوة لارينكم شغلكم (ثم صرخ فجأة) الغرابوة هنا .. وأهل البلد هنا ..

وأشار نحو الباب للغرابوة ، ونحو عمق الاسطبل لأهل البلد .. فتدافعت الأجساد من جديد وراحت تتصادم ، وصاح الغرابوة : « في عرضك يا شيخ الغفر .. الحق علينا ياشيخ الغفر » . الا أن الأنفار من أهل البلد كانوا قد سيطروا بالفعل على الاسطبل . جلس من جلس وتمدد الكثيرون فاردين أذرعهم وأرجلهم

ليحددوا ـ مبدئيا ـ المسافة التى سيحتلها كل منهم على الدوام • أما الغرابوة نصاروا مثل غابة هزيلة من أعـواد التيـل تتقارب وتتقارب فى حزم صغيرة ثم تنحاز الى جوار الباب • ثم خرج الخفراء وأغلقوا باب الاسطبل بالضبة والمفتاح •

ـ ٢ ـ

صـــاح دياب :

ـ أمرنا لله يا جماعة •• لكن أين زوادتنا ؟

صـيـاح واحد :

ـ أين بلاويهـم ؟

ـ انطلقت أصوات :

ـ شوفوا أين كنتم تضعونها •

سحب مهيوب ذراع دياب خوفا من أن يشتبك فى عراك • وهنا صاح رجل :

ـ عباءة من هذه ؟

ـ عبـــاءتي •

هكذا رد مهيـوب بسرعة : كورها الرجل ورماها على طول ذراعه ، فانفردت فى الهواء ثم انطرحت فوق حزمة من أعواد التيل • صار كل واحد يخلص رأسه منها ويدفعها بشيظ كأنه يتبرأ منها • تمكن دياب من سحب طرفها ثم شـدها ، بينما يصيح مهيوب متفجعا : « والجوال •• كان معها جوال » • فرد واحد من أهل البلد : « هى الآن مع الجوال » • انفجرت الصدور ضـاحكة ، وصفق دياب وصاح :

ـ لاجوالك ولا قفتى .. سنلوص باذن الله ونأكل طينا

وقال مهيوب :

ـ الولد أيضا زمانه سرق .. ياللمصيبة .. يا ابن القاضى .. يا طلعت يا ابن القاضى ..

ردت أصوات في ضيق :

ـ القاضى وراءنا وراءنا .. نحن بعـد لم ننس القاضى الذى حكم علينا بهذا الذل .

صاح مهيوب يبكى : « يا ولد » . وكانت ثمة حركة تبـدو مقتربة من ركن بعيد ، وكان الصبى يتعثر ويقع بين الأجساد . فى لمحة قصيرة تلقى الصبى عددا من الصفعات والركلات والشلاليت والزغدات ، وكل واحد يقول له بغيظ شديد : خذ يا ابن القاضى .. سـلامات يا ابن القاضى .. ها .. القاضى .. انت والقاضى على .. » فصاح مهيوب يتلوى من الألم :

ـ حرام عليكم ياناس ياكفره .. انه ابن قاضى محترم .. لاتظنوه لعبة .. انها الأيام السود جاءت به اليكم .

تخطى الولد حدود الخطر وصار فى زمام الغرابوة . تلقفته الأيدى واسلمته الى بعضها ..

ـ فلنقعد وأمرنا لله ياعم مهيوب ... نقعد فى موضع أقدامنا .. مادام الناس لايجدون من يحكمهم . وضعوا مؤخراتهم فوق الأرض متقرفصـين .. تململت الأجسـاد المتمددة بجوارهم ، وبرطمت . زمجر دياب مثل كلب مسعور :

ـ اليس لنا ان نخمـد مثلكم يا أولاد الفرطوس ؟ .. كل واحد يقول يا نفسى .. حتى انتم ؟ ..

قال مهيوب فى تسامح مقصود :

ـ لايريدون الاتعاظ .. ربما يسهل لهم .. تتقرعن اليوم يجيئك فى الغد من يكتم أنفاسك .

وكانت نظرات طلعت قد راحت تتجول فى الأجساد المددة فى أنحاء الاسطبل وكان منظر المقابر فى بلدتهم قد حضر : مجموعة من الهياكل الطينية ذات أدمغة تتجاور . هل رأيت قبرا يتحدث الى قبر ؟ .. هكذا سأل نفسه . وقال مهيوب :

ـ أمرك لله يا ولدى .. نم على ركبتى .. أما أنا فسأنام على كتفك ياديلب .. وأما انت يا دياب فلتبحث لنفسك عن مكان بين هذه الأكتاف ..

ابتسم دياب :

ـ اطمئن ياعم مهيوب .. أغلب هذه الأكتاف من بلدتنا . ولن تميل برأسينا .. أخذت كل مقبرة تتلوى كالحية وتطلب من زميلتها أن تنزاح قليلا . وصارت المقابر تلقى بظلالها فوق بعضها .. ثم تمدد المتقرفصون . وصدرت عن دياب خرخشة وطقطقة مثل طقطقة الاصابع . فبدا عليه أنه تذكر شيئا . فدس يده فى جيبه وأخرج مظروفا كبيرا وضعه على الأرض :

ـ مخدة لائقة لك ياطلعت .. خذها وتم فوقها .

ثم تناول رأس طلعت ووضع المظروف تحتها . قال طلعت جذلا :

ـ ما هذا الورق يا خال دياب .. ان كان كتابا فسوف أقرأ فيه ..

ـ مازلت فى الكتاب يا خى ؟ انك تحلم .

رفع « مهيوب » رأسه مغتاظا :

ـ كتاب ماذا ياجدع ·· الولد في المدرســة ·· وقد جاء هنا ليدبر لنفسه بذلة وحذاء ·

قال دياب :

ـ اذن فالورق من نصيبه ·· والله بعد مامشيت عدت ثانية وأخذته ·· انه دفتر كبير ياطلعت ·· ملآن بالكتــابة والأختــام والبصمات والتساوير الغريبة ·· ذاكر فيه يا طلعت ·

يد طلعت تتحسس المظروف في فرح :

ـ من أين جئت به يا خال دياب ؟

ـ لقيتــــه

ـ أيـن ؟

ـ في مسطاح المصرف ·· رأيت طرفه والباقي منــــه كان مدفونا تحت الردم ·· كنت أفعل مثلما يفعل النــاس في مسطاح المصرف ·· وسمعت صوتا يقول : وررر ·· ررر ·· قلت ما هذا النقرزان ؟ نظرت فرأيت كلبا يبول فوق ورق ·· ضربت الكلب ونزعت الورق · فخرج هذا المظروف ·· فوضعته في عبي وجئت به ومال « مهيوب » على أذن « طلعت » وهمس :

ـ في الصباح اربطــه حــول ظهرك ·· ليحميها من عصــا الخــولي ··

ثم اعتدل ونام ·

الرأس مسنود فوق المظروف الكبير ، والعين مفنجلة لاتريد الركون الى النوم ‥ سقف الاسطبل مثل خيمة من الدخان الثقيل ، ينحدر مائلا نحو اليمين ونحو اليسار · الواح من الصاج منطرحة فوق عروق من الخشب · ما بين الجدران والسقف فراغ يتسلل منه الضوء · وتنهد طلعت وتمتم : القمر يدخل حتى فى الاسطبل ‥

وأحس برأس تعاكس رأسه ، وعرف « طلعت » انها من رءوس أهل البلد المتمددين فى شريحة بطول الاسطبل ورؤوسهم نحو الباب تلتصق برؤوس الرابوة الذين أعطوا أرجلهم فى اتجاه الباب كذلك حتى لا تصطدم برؤوس أهل البلد ‥ ثم أحس بأن الرأس تزحف حتى تجاور رأسه فوق المظروف · فتح الاثنان عينيهما ‥ وضحكا بصوت خافت ‥

ـ أتعرف القراءة والكتابة ؟

ـ نعم اننى أروح المدرسة ولولا الأجازة ما جئت هنا ·

ولمح فى عينى الرأس بريقا يزداد لمعانا فى ضوء القمر ‥ وقال الرأس أنه يود أن يتعلم الكتابة حتى يكتب شكاويه بنفسه ، ثم قال بعد برهة انه سوف يكتب عريضة ، للباشخولى يشتكى فيها الخولى ، وأخرى للباشكاتب يشتكى فيها الكاتب وثالثة للناظر يشتكى فيها الباشكاتب ، ورابعة للمفتش يشتكى فيها الناظر ، وخامسة للمندوب يشتكى فيها المفتش ، وسادسة للتفتيش يشتكى فيها المندوب ‥

ارتعش طلعت وانتفض جالسا · ومثله فعل صاحب الرأس فبدا أنه صبى عجوز جدا · وهمس « طلعت » بصوت مرتجف :

ـ ما الذى حدث لكم ·· من الذى طردكم من دوركم ؟

ـ الحكومة ··

ـ ماذا ؟

ـ الحكومة ··

ـ لماذا ؟

ـ ضديات ··

ثم تنهد مثل رجل كبير وهو يحاذى سبابتيه · انفضت أشياء كثيرة بأعماق « طلعت » ··

ـ أصل الحكاية يا ·· ما اسم الكريم ؟

ـ طلعت ··

ـ عاشت الأسامى ياسى « طلعت » ·· أما أنا فاسمى « عمرو » ·

ـ بالجودة ·

ـ أصل الحكاية ياسى « طلعت » اننا سرقنا عرق الأنفار ··

ـ سرقتم عرق الأنفار ؟ ·· عرقنا ؟

ـ الحكومة قالت هذا ·· وظلت النيابة تأخذنا وتردنا وتأخذنا وتردنا وفي الآخر حكمت علينا بأننا سرقنا ·· وطلبت منا ان نرد ما سرقناه ·· قلنا ياحكومة والله مامعنا ثمن الكفن ·· قالت الحكومة نأخذ كل ما تملكون ونبيعه ونعطى ثمنه للمقاول ·· من لم يدفع أخذوا ما عنده من أشياء ·· ومن ليس عنده يشتغل فى التفتيش نفرا والمقاول يقبض أجره ··

زام طلعت كأنه فهم الكثير · فقال « عمرو » : ان البلدة كلها جاءت تشتغل أنفارا وتنام فى الاسطبل ، ومن بين من هنا

شيخ غفر البلد وباشخولى السراية وكثيرون من الرجال المحترمين ، ويعلم الله كم من الأيام أو الشهور أو السنين سيقضونهـا هنا كي يسددوا ما عليهم . وكان « طلعت » يريد أن يسأل « عمـرو » عن الشكاوى التي يريد ان يكتبها ، ويسأله عن أشـياء كثيرة كثيرة ، لكنه تاه في دماغه وصار يدعك عينيه ويتثاءب ، فقال « عمرو » : ان الصباح رباح وأنه سوف يبرطل الخولى بخيارة خضراء ليجعل « طلعت » في الفرقة التي سيكون هو فيها حتى يجعل باله منه ، وتثاءب بدوره ، وهز « طلعت » رأسه موافقا ، ثم وضع رأسه على المظروف فطقطق بصوت عال واوسع لرأس « عمرو » مكانا على المظروف . تجاور الرأسان . أما الجسدان .. فانعكسا ..

● الفصـل الثانى ●

« طلعت » يفتح الدفتر

« قولوا الحقيقة لأمه ـ يا صبايا »
« دا الواد صغير لسه ما اتهناش »
« وريني وشـك يا ابنى يا ضنايا »
« تسلم لى عينك من رباط الشاش »
(بكائية من الدلتا)

ـ ١ ـ

اسمى « عمرو » ياسعادة البيـه . وصلتى بالمرحـوم اننى كنت أسهر الى صـلاة الفجر لكى أسمع صوته عند الاستغاثة . وأنا أيضا أحب ان استغيث مثله واصيت ..

لا أعرف الفاعل . انما الذى حدث اننا كنا نمشى على شاطىء ترعة خلاف . وكان المنسر ساعتها يخرج من البلد .. يركب الحمير والجمال فوق الأجوله والغرارات .

والله العظيم أقول الحق . كان المرحـوم حبيب الله .. والناس تحبه ..

كان يمشي ونحن نمشي وراءه ·· لنعرف ماذا جـــرى لأهل البـــلد ··

فى كل موسم شغل كانت الأنفار تجىء ·· وفي الصباح ترى البلد نفسها مسروقة · وكان الأنفـــار يشيلون التهمة · كنا ربك والحق نصدق أنهم هم السارقون ·· فالأنفـــــار كانوا ينامون على الطرقات ، وفي القنوات ، وفوق الأشجار ··

أقصد أن أقول ان أهل البلد كانوا يصدقون أن الأنفار هم الذين يسرقونهم ··

نعم نحن جميعا أنفار ·· انما هناك أنفار « غرابوة » لانعرف من أين يجيئون ··

شغلتي يابيه اننى واحد من رجالة التفتيش ·· حمار ·· حمار الكاتب وهو يلف على الأنفار ؟ ·· الكاتب لا يتنازل عنى ·· أنا موجوداً فان حمار الكاتب لايخرج ·· طبعا ·· من يجرى خلف حمار الكاتب وهو يلف عن الأنفار ؟ ·· الكاتب لايتنازل عنى ·· فى يوم طلبونى فى مكتب الوسية لأنظفه ·· فتزربن الكاتب وقال للناظر ان هذا الولد ــ أنا يعنى ــ مثل البالطو والجلباب والطربوش والقلم والحمار ·· ورأيت الناظر يضحك ويوافقه ··

سأدخل فى الموضوع · أخبرت جنابك ، أن الأنفار ·· كانوا ·· ينتشرون ·· ولهذا ··

طبعا أعرف ·· معلوماتى أن البلدة كانت حين يجىء الأنفار تحدث فيها سرقات ·· و ·· كان العمدة يرمى التهمة فى وجه الأنفـــار ·

الباشكاتب يا بيه ·· كان يلم أنفـــارا ويسلمهم للعمدة ·· طبعا كانوا يبكون ·· ولا أحد يصدق أنهم أبرياء ·· وتجىء الهجانه

فتلم الأنفار المتهمين وتربطهم في حبل وتجرجرهم وينتهى الموضوع ٠٠ أما الآن فالأنفار فى الاسطبل والبلد كلها مسروقة حتى الأعمدة ٠٠ فمن الذى سرق ؟ لابد انها الشسياطين ٠٠ أمرك يابيه ٠٠ لم أصنع لى ختما ٠٠ وسأبصم ٠٠

- ٢ -

٠٠ اسمى عبد الجواد أحمد سالم ٠٠

٠٠ أحلف بالله أقول الحق ٠٠

٠٠ شف يابيك ٠٠ يحفظك الله ٠٠ كنا ساعتها فى الظهر ٠٠ ماندرى الا والجدع يسقط وسطنا ميتا ٠٠ سابت ركبى ٠٠ كان صوت المرحوم حلوا ، ولم يكن يسكت ليلا ونهارا ، فقد كان دائما فوق المئذنة ٠٠

٠٠ شف يابك أنا – يحفظك الله – فى حالى ٠٠ لكنني أعرف أن المرحوم ليس له أعداء ٠٠ كلنا نحبه ونعشق صوته ، وننتظره ، ولو غاب لايجىء النوم ٠٠ كان يذكرنا بالله لكي نقوم ونصلى ٠٠

ليس القاتل من أبنساء البلدة أبدا ٠٠ وعلى الطلاق يابيه أنا لا أدافع عن أهل البلد فهم جميعا ملاعين والشيطان أقوى منهم ٠٠ انما أنا متأكد أن هؤلاء الملاعين كلهم يحبون « جمعه الحصاوى » ويموتون فيه حبا ٠٠

لا يابيه ٠٠ هذا لم يحدث أبدا ٠٠ لم يتجمهر ٠٠ لم يهتف بسقوط الملك ٠٠ أما الطوب فهل يعقل ان جمعه يقذف أحدا بالطوب » انه اذا اعتدى عليه أحد يرفع صوته فقط ، فى الحال يطلب للمعتدى عفوه ٠٠

العمدة يقول ما يعجبه ·· المرحوم كان يمشى فى البلد ، وهو مكشوف عنه الحجاب وهذه مســـألة بتاعة ربنـــا ·· فلما يقف يتضح أن هنا سرقة ·· وتبين السرقة ·

معلوماتى أن العمدة لايحب شيخ البلد ·· ويخاف من الأسطى فانوس ·· والأسطى فانوس يخاف من الحاج سليم ·· ومع ذلك فهم جميعا أصحاب مثل العسل على اللبن ·

فى الحق يابك ياما سمعنا ·· لكن ·· لانعرف أين طريق الحـق ··

من أدرانا ؟ ·· الواحد منا يعرف أنه مدين لأفندينا ·· لكن ما مقدار الدين ؟ هذا ما يعرفه العمدة والكاشف ·· فيقول العمدة : ادفع ·· أدفع كم ؟ ·· أدفـع كذا ·· ويكون المطلوب كثيرا ـ أكثر مما تعطيه الأرض ·· فنحرر ايصالا بالباقى والباقى فى العام التالى يتزايد ·· ما يدرى الواحد منا الا والأرض قد انتزعت منه ·· فى هذا العام تنازل أكثر من واحد عن أرضه ·· سلمها للتفتيش بلا كلام ·

يحفظك الله يابك هذا ما عندى من أقوال ··

طبعا أبصم ·

- ٣ -

« أ »

ســـأقول بأننى لم أترك الدرك · لا · أقول اننى لم أتركه الا بعد الفجر · قومى ياوليه ـ اشتركى معى فى البلوى · طبعا ، الآن تنامين ، لكن ليلتهـا تركبك عفاريت الأرض ، وأنـا ما كنت

أقدر أن أفعل شيئا . كان الليل طويلا في الدار ولم يكن النوم يريد ان يجيء . قومي ياوليه وهاتي لقمة طفح . لا أدري لماذا أجوع حين أخاف . لكن ماذا يجعلني أخاف ؟ شيخ الغفر هو المسئول : اذهب نم في الدار . ولماذا ياشيخ الغفر خدلك راحة ليلة وابسط نفسك متل ليالي السوف . ولمن أترك دركي ؟ لاخوف الليلة من شيء لأن الأنفار مسجونون في الاسطبل . قومي ياوليه . أريد أن أسألك : اذا سألوني عن دركي ، أيصح أن أتكلم عن شيخ الغفر ؟ قومي يا امرأة وردي علي . لكن يا شيخ الغفر .. ماذا جعلك تهتم براحتي في تلك الليلة ؟ كل الغفر يظهر في عيونهم انك قلت لهم مثل ما قلت لي . طبعا .. كل الدركات كانت فارغة .. والسرقات كانت من كل مكان . سنروح كلنا في داهية . قومي يا امرأة الكلب اجلسي معي وونسيني . نصف البلد الآن يحقق معهم : حتى المسروقين ، نذهب نحضرهم في اليوم الواحد مرات . المصيبة ان الحكومة للآن لم تأخذ أقوالنا .. ولا أحد يريد أن يطمئن بالي . قومي يا امرأة وهاتي الجوزة فأنا خرمان . لا أدري ماذا أقول يارب ؟ . ان سألوني عن دركي في اتلك الليلة ماذا أقول ؟ هل كنت هناك ؟ فلماذا سرقوا من محل حراستك .. هل كنت تنام ؟ وقعتك سوداء . لو أني تزوجت حمارا أو جاموسة كانت وقفت بجواري في الشدة . اتفوه . لا آخذ منك سوى بحلقة العينين .. ماذا ؟. لايعجبك كلامي ؟ قومي يابنت الكلب عليك اللعنة . قومي. قومي . قومي . قومي ..

« ب »

وصار يضربني يا سعادة البيه ولم يكن هو زوجي الذي أعرفه ، فصوت حتى التم الجيران كلهم . ما كنت أريد فضيحة وأنا يا بيه امرأة غلبانة ، مالي أحد في هذه الدنيا سواك أنت يابيه يحفظك الله . لكن . أعمل معروف . اذا كنت ستضرون الرجل

فلا داعي . ماكان بودى أن أشكوه .. صواتي كان السبب وياريتني ماصوت . خاف الناس أن أكون ميته فجاءوا بي الى هنا . وحق النبي أشرف خليقة الله لا أعرف كيف تطاوعني نفسي أن أحكي ما حكيت . انى متنازلة عن الشكوى ، فزوجي كان يخرف طول الليل ولم يقصد ان يؤذيني . فاتركوه يرجع لأولاده .. أنا لم يحدث لى شيء وهو برىء والله وكيل .. زوجي غلبان والله يا ناس ..

« ج »

أنا قلت هذا ؟ كيف ؟ .. امرأتي طالق ان كنت قلت هذا .. زوجتي هذه امرأة مجنونة ..

الحق يابيه والله اعلم أن هذا الكلام ليس غريبا على .. و .. الله وكيل .. لا أتذكر ان كنت قلته أو فكرت فيه فقط .. انما دماغي ساعتها كان يملأ قفة .. ويظهر أنه كان يخر الكلام لوحده .

.. سأقول وامرى لله .. شيخ الغفر فى تلك الليلة قابلني وقال لى اذهب ونم في حضن عيالك . فذهبت . وفى الصباح سمعت ان البلد كلها مسروقة ..

« د »

شفت يا شيخ البلد ؟ .. سمعت .. جاءت رجلى فى الموضوع .. فماذا أفعل ؟ .. الغفر كلهم سيقولون نفس الكلام . ليس لى دعوى في هذا الأمر . سأقول أنني نفذت أوامر شيخ البلد . تنكر . تنكر انك نبهت على بأن أخلى كل الدركات وأذهب لأضاجع أولادى ؟ . هه . والبانجو ؟ من الذى أهدانى حفنة البانجو وأوصانى أن أخلطها بالدخان وأشرب حتى أنبسط وأضحك وأفعل كل شيء

بمزاج ؟ · لازال البانجو موجودا عندى · لا لن أخفض صوتى بعد الآن ولتسمعنى الحكومة فى الدوار وسوف أثبت هذا فى المحضر · ما مجنون الا الشيطان أما والله مصيبة ·· امرأتى تفهم أحسن منى ·· قالت لى : قم يا مجنون شف شغلك وهات الغفر وزعهم فشيخ البلد عدو لك · هذا كلامك يتحقق يا أم أمين · ماكنت أظن بأنك تريد أن تأخذ منى مشيخة الغفر لتعطيها لواحد من أقاربك ·· ما ·· حاضر يابك ·· أنا قادم ·· وسأثبت ما كنت أقول ··

صدقنى أن هذا الرجل كذاب فى أصل وجهه · أنا شيخ البلد وأعرف أمثاله ·· أزى الصحة يابك شرفت ·

هل يعقل أن رجلا مثلى من رجال الأمن يأمر الغفر أن يناموا فى دورهم ؟ ·· هه هه ·· أهلا بك يابيك ·

هذا الرجل هو شيخ الغفر من سنوات طويلة ·· مصاب بداء الفكر والعياذ بالله ·· ويصور له الشيطان أشياء غريبة ·· ويقول أننى أريد أن أوقعه فى التهمة لآخذ منه مشيخة الغفر ·· وهو عدم المؤاخذة فى دى الكلمة رجل غبى ·· لايعرف اننى لايمكن أن أتنازل عنه أبدا ، فهو مطيع للأوامر ولا تجىء من ورائه المشاكل ·· لكن ماذا أفعل له ·· انه يمشى وراء زوجته ويسمع كلامها أكثر من كلام العمدة ·· هه ·· كيف الأحوال يابيك نورت ·

العمدة ؟ ·· معذور يابيك وحياتك عندى ·· مسكين ·· هل يرعى قطنه ؟ أم يرعى أولاده ؟ أم يجلس فى قصر التفتيش ليلعب الدومينو ؟ ·· طبعا ·· لعب الدمينو هذا مهمة من مهمات العمدة نحو الباشكاتب ، لابد أن يقوم من أمامه كل يوم مغلوبا ·· أم يلف البلاد والعزب ليحصل أموال أفندينا مع الكاشف ؟ ·

طبعا يابيك ·· الكاشف مندوب أفندينا من أجل التحصيل

·· والعمدة ليعاقب من يتأخر في الدفع ، أو يتلاءم ، أو يهرب من دفع الجزية ·· والحق لله فان العمدة يخدم الكاشف كثيرا ·· نعم ·· من لم يدفع أموالا يدفع حتى سرواله ·· أهلا بسعادة البيك ·

الله العالم يابيك ·· لا تجعلنا نرتكب معصية ·· فما أعرفه ان الدفع يسير ·· قد لا يدفع أحد كل الدين ·· لكن يدفع جزءا ، والكاشف لايرهق أحدا : ادفع ما عندك ونحرر بالباقي كمبيالة ·

العمدة كان يخزن له ·· شيء مضحك · جائز يابك · لكنني أعرف ان الكاشف لا ياتمن أباه ·· صدق يابك ، فلعل الكاشف جن ، أو ضاقت كل مخازنه ·· وعموما يابك لاتستبعد شيئا ·· فالعمدة من يومين ثلاثة أفهمنا ان خزائنه فرغت حتى من قوت بقية أيام العام ·· وهو اليوم يبلغ أنه سرق من خزائنه أشياء تخص الكاشف ·· أهلا بالأسياد ·

العمدة حر في ذمته يابيك وأنا لا أطعن في ذمته لا سمح الله··

أبدا والله يابيك لا أحمل للعمدة الأكل محبة ·· هل تجد البلد أحسن منه ؟ ·· أقسم بجلالة قدرك يابيك إن البلد مبسوطة منه لأنه لا يحب التدخل في شئون أحد ، وهو لم يتسبب لي في ضرر ·

قل يارب · أهلا بالأسياد شرفتم بلدتنا · الواحد يوشك أن يتمنى كارثة كبرى حتى يتشرف بضيافتكم أطول وقت ·· هه هه هه ··

والله يا بيك ما كنا نفعل شيئا في قعدتنا في بيت العمدة ·· كنا في المقعد ··

والمقعد يحفظك الله شيء يبنيه الواحد فوق السطح لينام فيه في القيالة .. كنا نتكلم .. أقصد . لا أتذكر بالضبط . انما رحنا نتكلم حتى نسي الواحد منا ما كان تكلمه في أول القعدة .

نفعل ؟ .. آه .. كنا نلعب الدومينو . طبعا كان هناك ضيوف غيري . كان هناك الأسطى « فانوس » .. والحاج « سليم الضبع » .. أما تعرفه يابيك ؟ .. أشهر رجل في هذه المديرية .. يورد الأنفار للتفتيش .. العقبى لك يابيك يملك أيضا نصف محاصيل المديرية ، يملكها وهي سنابل فوق الأعواد .

السر يا بيك ان الدنيا اعطته . في يده القرش على طول الخط والدنيا زواج وطلاق وكوارث ومطالب لا ترحم أحدا . والزارع لايملك قرشا قط ، وعلى طول الخط ، فماذا يفعل .. أقرضني يا حاج « سليم » .. خذ .. لكن لن أدفع الا من محصول القمح .. لا مانع .. ما ثمن الأردب الآن ؟ .. عشرة قروش مثلا .. اكتب ايصالا بثلاثة أرادب .. أمرك ياحاج . الزارع عند الحصد يسلم بالفعل ثلاثة أرادب وما قبض سوى ثمن الأردب الواحد في زمن القحط ..

الحاج سليم كما أخبرت سيادتكم يشتغل بتوريد الأنفار .. له في كل مكان متعهد .. وكل متعهد له في كل مكان صبيان ، العقبى لك يابيك .

شف يا بيك .. أنا رجل أقول الحق ولو على نفسي . فعلا .. الحاج سليم رجل حشاش .. هذا ما نعرفه جميعا عنه ، لا يتحرك الا والصنف في جيبه ، وهو معلم ، حتى في شغل مزاجه ، لا يشبع من شد الأنفاس .

أبدا والله يابيك عمري ما ذقت الصنف ولا جربته . قلت

انني أقول الحق ولو على نفسي · أشـــهد ان الجوزة بقيت طول الليل تكركر ·· وأنا لم أعرف ان كان « الحجر » حشيشا أو دخانا أقرع ·

آه ·· قلت انني أقول الحق ولو على نفسي · فى الحـــق شربت الجوزة معهم انما لم أكن أعرف ماذا أشرب ·· من أدراني يابيك ؟ ·· أهلا بك يابيك شرفت البلد كثيرا ·

فى أول القعدة كان الحاج سليم يرص الحجر بنفســـه ، ويدندش ناره ، ويقول بصوت حلو : « ميت مســا » ·· أقرضني عقلك يابيك ·· كان يسلمني البوصة ويطرقع لى بالماشة فى نغم حلو ·· فشربت ولم أسأل ما هذا ·

نرجع يابيك ·· الحاج سليم ليس من البلدة طبعـا ، بـل ليس من المديرية أصلا ··

لانعرف يابيك · هو فى العادة يحضر ليقابل أحـــد رجال التفتيش · والعادة أن الحاج يبيت عنـدنا حين يجىء ·· عنـدى أو عند العمدة لاتفرق ·· أهلا بسعادة البيك ·· قل ان الرجـل يعاشرنا من ســنوات طويلة ويعز عليـــه أن يـكون فى التفتيش ولا يمر علينا ليقضي معنا ليلة أو ليلتين · شرفت يابيك أهلا أهلا ·· من زمن طويل لم نرك · هذا والله دليل على أن البلد بخير ··

لا يابيك هذا هو كل ما عندى ·

طبعا طبعا ·· هذا هو توقيعى ·

الفصل الثالث

الفيضان

« الطور اشتكى مني وقال يادراعى »
« فرقلتك تاجى على الأوجـــاع »
« البقـــرة قالت : مقدارى ــ مالى »
« دالحيـــل والقـــوة للتيران »
« عتبكم على الفـــلاح وأنـا مالى »
« عتبكم ع اللى عـد فيكو المال »
(حدث من الدلتا)

- ١ -

كان « مريس » الخولى قد غرس العوجاية فى الأرض وارتكن عليها بجذعه فى عياقه ، وأخذ يطوح خيزرانته فى الهواء يلاعب بها خصما غير مرئى . راقبه الأولاد وهم مصطفون على حافة الزراق ، فزغولت بطونهم وقالوا فى أنفســـهم انه متشوق للضرب من أول النهار وانه لهذا يدرب العصا .. ثم هرشـــوا جميعا فى أقفيتهم وظهورهم ..

انتهى الكاتب من تدوين أســـمائهم فى الدفتر المستطيل ، ثم وضع القلم فوق أذنه وشمر الجلباب والبالطو ، وقفز القنـاة

الرفيعة التي لو صغرت لتحولت الى زراق ٠٠ فنطوح زر طربوشه وتناثر فوق سطح الطربوش ٠ ضحك الأولاد وكتموا الضـــحك فجأة ، ثم انفجروا فيه ثانية حين لمحوا ابتسامة كبيرة على شفتى « مريس » الخولى ٠

ثم دب النشاط فجأة فى الخيزرانة ، فراحت تشرخ الهـواء وتئز ٠ اعتدلت الأجساد ورفعت رءوسها ونفخت صدورها ثم ماتت فيها كل حركة ٠ تبختر « مريس » أمامهم رائحا غاديا عدة مرات ، فى المرة الأولى تأكد أنهم ثلاثون نفرا بالتمام ، وفى الثانية عرف كم غرباويا فى فرقته ، وفي الثالثة فحص وجوه البنات وعرف أن عدد الجميلات فيهن ثلاث ٠٠ فعاد ودقق فيهن وحدهن ، وتمهلت نظرته عند واحدة بعينها فامتد خيط الابتسامة المرتعشة من وجه الى آخر ٠ بطرف الخيزرانه أشار الخولى نحو البنت الحلوة وزغد صدرها صائحا فيها :

ـ أنت ٠٠ اطلعي

ارتعشت وهي تنسلت من الصف وتتقدم نحوه فى خوف ٠

قال من بين أسنانه :

ـ من أى بلد يابنت ؟

بلسان معووج ردت البنت :

ـ من عزبة الطوال ٠٠

ضحك الأنفار من أبنـاء البلد ، واحمرت وجوه بلدياتها ، وقال الخولى :

ـ ما اســـمك ؟

قالت بدلال :

ـ فكيهة ٠٠

ـ عندك بلاص ؟

انشرح وجه الفتاة ، قالت :

ـ ما عندى ·· انما أستطيع الاتيان به ··

لكنه شوح وقال :

ـ اذهبى الى عزبة السراى واحضرى واحدا منهـا ·· قولى أين دار « مريس » يدلونك عليها ·· فلما تقابلين أمى قولى لهـا اعطنى البلاص يقول لك « مريس » ·

استدارت الفتاة وراحت تتبختر وتشيعها شجيرات القطن بالحفيف · ثم قفزت وصـارت على الطريق المحفوف بأشـجار الجزورين على الجانبين · مضت فى اتجاه السراى ·

الأنفار الذين هم بلدياتهـا نفخـوا صدورهم وابتسموا · حسدهم الباقون ، فالبنت « الملاية » صارت منهم ، ستكون شغلتها فى الفرقة ملء البلاص والعودة به مرتين فى النهار ، لتمر عليهم واحدا واحدا ، وعند كل واحد يميل البلاص على رأسـها فيمتلىء الكوز فيتلقفه النفر ويكرع · أما الخولى فله « قلة » مخصـوصة توضع تحت ظليلة من أعواد التيل وفى حلقها عود النعناع وماؤها ايس من الترعة أو المصرف الراكد بل من بئر الساقية حيث الماء مرشح وبارد وصاف ، وفوق ذلك يستطيع الخولى ان يخرج من دارهم فى الصباح دون أن يشغل باله بأمر الغداء ··

ـ ٢ ـ

انفرش الضحى على الغيطان وانسكبت الشمس على شجيرات القطن فلمعت قطرات الندى فوق وريقاتهـا الخضراء ، وغاصت قمم أشجار الجزورين فى حضن الشمس فأربد لونها · ثمة أراض تتهيأ لاستقبال شتلة الأرز أغرقتها المياه وبدت من بعيـد كمرآة تمسكها الشمس بين يديها وتتفرج على نفسها فيها ·· هكذا ارتأى

الكاتب وهو يتراقص فوق الرهوان تهتز الأرض حواليه ، ومن خلفه صبى يلهث ليلحق به ٠

نظر الكاتب حواليه ثم شد لجام الحمار ليشمهل قليلا حتى يتمكن هو من تحديد الطريق الى أقرب الفرق التى تتناثر حواليه ٠ برطم ، بصق على الأرض ، المشهد الذى يجب أن يراه لم يره ، انه لايمكن أن يستريح الا اذا نظر فجأة فرأى جسورا من الظهور المحنية تزحف منكفئة فوق الأرض ، تقلب الشجيرات أو تزرع الشتلات أو تعزق الخطوط بالفؤوس أو تسلك مجرى المياه بالكريكات ٠ أما ما يراه الآن فلا يمكن أن يرضى عنه ، فالجسور كلها منهارة ، ما بين وقوف ونصف انحناء وركض سريع ٠ هذا ليس شغلا ، بل هنكرة فارغة : الخولة أصلهم أولاد كلب لا خشية لهم ، الأنفار الذين هم من أهل البلد يستهزئون بهم ولا يريدون تسييدهم ٠٠ لابد أن يتدخل التفتيش بنفسه فى هذا الأمر ٠٠ اذا استهتر الأنفار بالخولة سرقت الوسية واحترقت ٠٠ أى نفر يستهتر بالخولى يدفن فى الأرض الى منتصفه حتى يقر للخولى بالاحترام والا اقتدى بهم الغرابوة ٠٠ اذا كان الخولة لا يمثلون انظار أهل البلد فانهم فى النهاية خولة التفتيش ٠٠ اختارهم التفتيش ووضع ثقته فيهم ، ومن لم يحترمهم فهو اذن لايحترم التفتيش وتلك مصيبة ، لابد وأن يرفع بهذا تقريرا الى الباشكاتب ٠٠ ماذا كان يظن أولاد القحبة هؤلاء ؟ ٠٠ أن نختار منهم خولة تباشر الفرق ؟ كيف وهم جميعا لصوص حكمت عليهم المحكمة ٠٠ نعم لابد وان يرفع بهذا الأمر تقريرا الى الباشكاتب قبل ان يستفحل الأمر وتسقط العصا من أيدى الخولة ٠٠ ما هذا الصوت الذى بدأ يتضح ؟ ٠٠ أولاد الكلب يغنون أيضا ؟ ٠٠

ـ ياليل ياليل ياليل ٠٠ وياليل على الدنيا

حكمت على السبع راح للكلب حدا الكوم

لما صحي الكلب قال له السبع صحي النـــوم
أنا أسألك يارب يا مجـرى بحــــور العوم
ترجـــع الســـــبع يخطـــر زى عاداته
وترجع الكلب ينبش فى تـــراب الكوم

هكذا ؟ ‥ من ياترى ذلك الخولى الذى سمح بهذا الغناء ؟ -

الا يدرى أنهم بذلك يشتمون التفتيش ويلومون الحكومة ؟ ‥ لنفرض أن الحكومة حكمت عليهـــم ظلما ـ لنفـرض يعنى ـ فما دخل التفتيش فى ذلك ؟ ‥ أن الحكومة اذا بلغهـــا الأمـــر فسوف تقول أن التفتيش هو الذى يشجعهم ‥

ـ الدنيا جارت تقول البغل فى الابريق
والدهر رقص ديب من بعد فى الابريق
أخذ الرهان عيال ماتجيش ولا فى لبريق
واتلخبط الرأى ما بقيش ولا نادر
والندل عمل الولايم قال انا نادر
ماحد قادر يقول البغل في الابريق

يا للمصيبة · هذا صوت جرو وقال : البغل فى الابريق . هذا يوم أســـــود من قرون الخروب على دماغك يـا ابن المفترى يا هذا الخولى ، أما الذى يتمشدق بهذا اللغو فلى معه شأن آخر ، لقد عرفته ، انه ذلك الفلحوس عبد الســـلام باشـــخولى السراية السابق ، اله عين يتكلم بله يغنى ؟ باشخولى السراية الذى انكشف المستور لديه واتضـــح انه شـــارك فى سرقة عرق الأنفار وأله « والس » مع الذين قاموا بتهريب حقيبة المقاول ، لايختشى على دمه وها هوذا يغنى ويلخبط فى الكلام ‥ الخولة أصـــلهم أولاد كلب

حقراء برشوهم الأنفار بخيارة أو سيجارة أو كلمة ياخال •• لابد أن يريهم شغلهم ••

هبط الى الأرض واقفاً • أمر الصبى أن يربط الحمار فى هذه الشجرة ويداريه ويدارى نفسه • ثم هبط الى مسطاح المصرف• وكان منسوب المياه قليلا فمشى بحذائه حتى لايتمكن الأنفار من رؤيته• وعند أقرب ماسورة من المواسير الكثيرة التى تعبر المصرف، توقف ، ثم ركب الماسورة •• وراح يزحف فوقها بحذر شديد •

- ٣ -

اصطفت أكوام الشتلة على حافة الزراق ، وراح أحد الأنفار •• وهو رجـل طويل عريض •• يعيد ترتيبها فى حزم رفيعة ، ويفرزها ، فيرمى كل العيدان الذابلة الصفراء والتى بلا جذور • وكانت أيدى الأنفـــار تغرس الأعواد فى الأرض ، وهم يزحفون مقبلين • وحين اقتربوا من حافة الزراق كان على النفر « القيده » أن يتقدم ليتملى فى خط جديد ، ويتقدم وراءه بقية الأنفار ليتملى كل فى خطه حتى النفر الأخير « الساجه » • ولما كان « الساجه » عادة هو أضعف الأنفار فى الفرقة فعلى النفر « القيده » أن يأخذ خطه مع خطه أثناء العودة ••

انتهز الأنفار الفرصة وتلكئوا فى الوقوف عند حافة الزراق • اغتاظ الخولى ولعن الآباء والبلاد التى رمت بهم • تقدم « القيده » وأخذ حمولته من الشتلة ، وتبعه الذى يليه فالذى يليه حتى جاء دور النفر « الساجه » فلم يجد الا قدرا ضئيلا من الحزم ، فاغتبط لذلك ، وقدر أن الاهمال فى هذه الرجعة ستكون قلة نصيبة من الشتلة هى المسئولة عنه ••

لف الخولى ووقف فى مواجهتهم ونظر اليهم من أمام وتأكد ان « القيدة » ليس ولدا هنكارا كعادة بعض الغرابوة ، الذين يحاولون دائما أتعاب الغرابوة فى الجرى بلا نتيجة • خشى الخولى أن يمتدح شغله فينفشخ الولد ولا يستطيع هو بعد ذلك أن يعدل عليه الخط• تجاوز « القيده » وبكفه حجب الشمس عن عينيه ونظر الى بعيد فرأى شبح الكاتب يقترب خلسة ، فانهال ضربا على الجميع من « الســـاجة » الى « القيده » وأمرهم أن يطيبوا يوميتهم بالحلال • لو لم يكونوا رجالا كبارا لارتفعت صيحاتهم ، لكنهم اكتفوا بالنظر الى الخولى فى كراهية شديدة • قال الذى بجوار « القيدة » فى همس : على مهلك يا ابن الحلال •• لماذا تتعافى علينا •• النهـار لايزال طويلا وانت ستتعب بعد ساعة واحدة •• رغم أن « القيدة » استمع اليه الا أنه كان يمعن فى تركيز عينيه فى الأرض ويتباعد عن جاره كأن الكلام ليس له •

فى تلك اللحظة جثم شبح الكاتب ، فارتبك « القيدة » والذى بجواره • انغرزت أصابع « القيدة » فى الطين ، شدها ، فخرجت بلا فردة الجورب التى يلبســـها لتحمى يديه من التشقق ، وكان عليه أن يستعيدها ويلبسها فى الحال دون أن يلحظ أحد ، لكن جاره فى سرعة الشيطان وخسته داس بقدمه فوق الفردة فغيبها فى الطين ومضى كأنه فعل ذلك عفوا • نظر اليه « القيدة » بحقد وكراهية ، واندفع يواصل الشتل بيد عارية •

● الفصـل الرابع ●

شيخ البلدة كان السلطان

« وشـــــدادي وشــــدادی »
« لم الجمير التلاليس كتـــير »
« رايحين تلموا في غلة البرسيم »
« وشـــــدادی وشــــدادی »
« وتلموا الغلال من جميع لبلادی »
« واضرب لها بالطار يا مداحی »
« أمك حزينة وطالبة لفراحی »
(من أغـانى الحمارين)

— ١ —

.. يابيك هذا حزام . لنفرض اننى لست العمدة — نفرض يعنى ، وقدمت شكوى لـكم فماذا تفعلون ؟ .. طبعـا ستقومون بالواجب فأنتم كلكم واجب ..

أقصد اننى أمامكم الآن أحس انى لست فى نظركم عمدة . وأنا أخشى أن أكون قد زعلتكم فى شيء .. وأحب أن أقول لـكم أننى معتدى عليـه .. سرقت أمـوالى — أقصد أموال التفتيش — أقصد أموال أفندينا ..

طبعا يابك .. ان الكاشف يحفظها عندى حتى تصبح شيئا

يستاهل تعب النقــل ·· كنت أخزنها لــه ·· فماذا أقــول الآن لافندينا ؟ ··

أصــل الموضوع ومــا فيه أنني كنت أجلس مع ضــيفي ·· وكان معنا شيخ البلد والاسطى « فانوس » ·

هل أكذب ·· نعم كنا نشرب الجوزه ·· لكن اكراما لي دع مسألة الجوزة هذه ·

يو ·· يا سعادة البيه ·· كان حشيشا ، هأنذا قد قلت ·· قلت ··

كنــا ·· الاسطى فانوس والحاج سليم وشيخ البلد نجلس في بيتي ·· الله يلعنــه شــيخ البــلد ·· يتعبني دائمــا ·· ان قلت يمينا قال يسارا ·· لايحب الخير لأحد ·

كنا في تلك الليلة نتحدث ·· الحاج سليم كان يحكي لنا كيف اســتطاعت هنومه هــانم زوجة حضرة النــاظر أن تجعــل التفتيش يوافق على أن يعطي الاسطبل للانفــار ينامون فيــه بدلا من تركهم يهربون ونتعب في البحث عنهم ·· كان الحاج ســليم فرحان · فلقد ضمن بقاء الأنفار ، كان النفر اذا هرب من الشغل يدوخ السواقون وراءه ، فان وجدوه لا يرضى بالعودة الا اذا قبض بقية أجره ، وقبض الأجر ليس سهلا عند الحاج سليم ، أما الآن فسيبقى الأنفار ، وستمتنع السرقات ·· تصور يابيك شيخ البلد هذا كان يحرض الحاج سليم أن يخصم من أجر الأنفار ثمن المبيت ، مع انه يعرف ان الاسطبل ممنوح للأنفار مجانا ، وأكثر من هذا يعرف أن الأنفار لا تقبض أصلا الا العربون الذى جاءت به ·· شف الرجل الأهبل ·· مكثنا تلك الليلة نتعارك في هذا الأمر حتى أنهى اللص مهمته في سلام ·

أقصد بالعركة أن الحاج سليم كان يشاورنا ··· نقول كذا

فيقول كيت .. تعجبنا كلمة لا تعجبه كلمة .. هكذا يعنى .. لا والله يابك مالى مصلحة فى هذا الأمر .

سأقول لحضرتكم .. هذا كشف بالأشياء المسروقة .. من بيتى وحده عشرة جوالات قمح .. خمس غرارات برسيم .. أردب فول .. ثلاثة قناطير قطن .. وفوق هذا كله .. المصيبة السوداء .. حقيبة صاحبنا الحاج سليم .. ألا تعرف ما شكل حقيبته ؟ .. هى مثل الصندوق .. كبيرة .. و .. كانت فى الحق ثقيلة .

الله أعلم .. انما لو حملتها تتصور أنها مصنوعة من زلط .

لم أفتحها والله يابيك .. لا أعرف ان كان فيه أموال أو هدوم .. لكن الحاج قال ساعة تسلمها لى أنها تحمل مستقبل أولاد الناس .

جائز .. جائز كانت تحمل أموالا .. لا أعرف .. لا أعرف .

هو لم يعرف حتى الآن أن الحقيبة ضاعت .. فانه سافر قبل الفجر بقليل ..

آه .. أودعها عندى حتى يرجع من مشـــوار قرب البلد ليأخذها .. قمت بنفسى ووضعت الحقيبة فى المخزن .. ثم صعدت لأسهر فى المقعد معهم .

أغلقت المخزن طبعا .. لكن .. القفل الذى على باب المخزن قفل سوقى يسهل فشه .

والـ .. هـ .. ى .. ى .. بوصفى عمده .. استبعدت قدوم لص الى بيتى .

أتذكر أننى لما صعدت الى المقعد .. سألت الحاج عما تحويه الحقيبة .. فقال .. فيها أمعائى .. فيها مستقبل أولاد الناس .. فسكت ..

عن نفسى .. أتوقع .. واللـ .. هـ ...ى .. أراهن انها كانت تحمل بعض الخرق ، وبعض الأوراق ، وبعض الأشياء التى يستعملها فى السفر .

أنا أعرف هذا الحاج .. طبعا سيبالغ .. سيقول ان الخزينة كلها كانت فى الحقيبة .. دبرنى يابيك .

من اتهم .. فى الأول كنا نتهم الأنفار .. أما اليوم فمن نتهم ؟ ..

أعداء ؟ وما أكثر أعداء العمدة .. وخصوصـا ان كان مثلى شديدا لا يعرف أباه فى الحق .

سأقول لحضرتكم .. حين رأيت ذلك الولد المدعو جمعه .. الله يرحمه .. عرفت أن السرقات بدأت تنكشف .. فقمت لأرى ماذا جرى لى أنا أيضا .

أصـل المرحوم كان يلف البلد .. ولما رأيت الناس كلهم خلفه عرفت أنهم قادمون للشـكوى من شىء ، وأن هـذا الشىء سرقات .

كنا ساعتها نجلس فى الفرانده بجوار الدوار .. وكان الحاج قـد توكل .. كنا مازلنا فى جلستنا منذ الليل .. سلمنا على الضيف وبقينا .

آه .. المقعد ؟ .. آه .. شفـ يابيك .. جمعه .

حاضر .. حاضر .. حاضر .

كنا فى الليل فى المقعد كمـا قلت سيادتكم .. ولما ودعنـا الحاج نزلنا وجلسنا فى الفراندة .. لأن الصبح فى الفراندة عندنا يكون جميلا جدا يابيك .. والله يابك لو تجلس معنا فى الصبح دقائق تعود صبيا من جديد .

حاضر .. حاضر ..

قلت لحضرتكم ان المرحوم هو الذى ذكرنى .

أرجو أن يتكرم أسيادى بقبول الدعوة عندى هذا اليوم .. سأجهز للأسياد عشاء طيبا .

لا سمح الله يابك انى أفعل الواجب ..

حاضر .. ستضحكك طريقتنا فى التوقيع .. ولكن .. هو توقيع ..

ـ ٢ ـ

بعد اذن سعادتكم .. اصلى متعب طول النهار ولابد أن أجلس .. وهذا هو من عشمى فيكم طبعا .. لا أقول اننى فى مستوى العمدة أو شيخ البلد ولكنني أقول أن جنابكم أصحاب ذوق أبا عن جد .

ليس من الضرورى أن أعرف أصلكم .. يكفي أن أراكم .. سيماهم على وجوههم .. لا شك أن جنابك تعرف أولادى .. انهم مثلك .. أفندية محترمون .. وأيضا فى النيابة والحكومة وهم أكبر من حيث السن فقط .

وهو كذلك .. لا تؤاخذنى .. لا تؤاخذنى ..

اسمى فى شهادة الميلاد . « عبد الرحمن الكخيا » .. أما الأسطى فانوس هذه فلها حكاية .. أهل البلد أطلقوا على هذا الاسم .. أيام كنت ما زالت أعمل فى قصر التفتيش .. كنت لا أحب العمل الا فى الليل .. فالصراف الذي يريد أن يلم الغلة من الفلاحين لا ينجح الا فى الليل .

السبب يابك ان الفلاح اذا عرف انه سيدفع الدين يتغيب عن الدار ، ولا يرجع الا لينام ·· وأنا ·· موتى وسمى من يماطل فى الدفع ·· وأحب أن أتقن عملى لم المنى أعرف صنف الفلاح ·· صنف لا يجىء لمن يحترمه ·· تعطيه فوق دماغه بركع ·· ويتمسكن حتى يتمكن ·· يأخذ منك السلفة ويتفرعن بعدها ·· ووالله لقد تعبت ، ولعبت مع هؤلاء الفلاحين ·· « حاورينى يا طيطه » ·· الواحد منهم لا يشعر الا وأنا فوق دماغه ·· أقتحم الدار بلا استئذان ·· طبعا ·· أستأذن ممن ؟ من رجل واطى ؟ ومدين للتفتيش ؟

ويلوعنى فى التحصيل ؟ أقتحم عليه الدار وأنتف ريشه ·· لا يمنعنى شىء · لا برد ولا مطر ولا ظلام · الفانوس فى يدى ·· والشمسية أيضـــا فى يدى الأخرى ·· وحقيبة الأوراق والفلوس مع خفير مخصوص ·· والعمدة قيد البدهة ·· الفلاح من أخبث مخلوقات الله ·· حين أراد أن يسمينى الشبح أو الهم أو الموت أو المصيبة ، تخابث وسمانى ·· فانوس ·· وأنا طبعا مسلم ، واليهود عادة مشهورون بشغلة الصرافه ، والواحد منهم يسمى بالأسطى ·· ومع أننى لست يهوديا الا حين أساوى الحسبة ، الا أن اللقب تعلق بى وصرت أنادى بالأسطى فانوس حتى فى بيتى ·· ! ·· وللعلم فأنا من أصل تركى ·· ولهذا خدمت فى التفتيش ·

طبعا ·· نصف عقار التفتيش آل اليه بفضـــل ·· ضيعة مولانا كانت فى الأصل فدادين قليلة ·· محسوبك ضاعفها له ·· أعطى للفلاحين ديونا ·· وكان معظمهم من الأعيـــان المالكين ·· سقيتهم بعض كؤوس الخمر ·· أعجبتهم ·· طلبوها ·· افتتحت لهم خمارة ·· على فكرة ·· المنطقة التى نحن فيها الآن بما فيها بيت العمدة ·· اسمها الخمارة ·· لأن الخمارة كانت قائمة هنا قبل أن يهدمها أفندينا ·· صار الأعيان يشربون ويسكرون على الحساب ويوقعون على عقود بيـــع الأراضى مقـــابل كأس ·· أوباش كلهم ولا يصح أن يملكوا ·· وفى النهاية أنا مظلوم ·· لم آخذ أكثر من عزبة ·· عزبة هى كل مكافأتى عن خدمة عمر كامل ·

العمدة ؟ ٠٠ شيء يضحك ٠٠ أهمس في أذنكم : انه رجل كذاب ٠٠ أعرفه أبا عن جد ٠٠ أبوه كان يعاونني في الشغل وكان كالمنشار ، طالع يأكل نازل يأكل ٠٠ العمدة الآن بسم الله ما شاء الله يمتلك مساحة طين لا يستأهل منها قيراطا ٠

شف يابيك ٠٠ لا تأخذ من أقوال العمدة شيئا تعتمد عليه وتتعب نفسك في التحقيق ٠٠ العمدة هرب أشياء كثيرة ٠٠ هربها في عز الليل ٠

لا لا ٠٠ الكاشف لم يترك في بيت العمدة شيئا من محصول أفندينا ٠

ما سرق من العمدة من شيء ٠٠ لا تكتب هذا في المحضر ٠٠ لكني أخبرك بشكل شخصي ٠٠ الموضوع بكل بساطة أن العمدة سرق حقيبة الرجل الضيف ٠٠ لكن ما جاء بلاشا راح بلاشا ٠

ما تحمله الحقيبة يغري بسرقتها ٠٠ كانت تحمل ذهبا يشربه الناس ٠

كل لبيب يفهم بالاشارة ٠٠ أرجوكم لا تكتب هذا في المحضر ٠٠ انى أخدم حضرتكم من أجل عيون الحق ٠٠ فلا تتسبب لى في وجع الدماغ ٠٠ الأمر بكل صراحة ان الحاج سليم يتاجر في الحشيش والأفيون ٠٠ وكانت الحقيبة مملوءة بأجور صنف ٠

عرق الأنفار يا بيك ٠٠ ما من أحد في الأنفار يقبض أجرته بالكامل ٠

أحكي لك ٠٠ الناظر يتعاقد مع المندوب على طلب الأنفار بسعر كذا للنفر الواحد ٠٠ ويروح يتعاقد مع الحاج سليم على طلب أنفار بنصف السعر الذى تعاقد عليه مع المندوب ٠٠ الحاج سليم يتعاقد مع السواقين ــ وهم صبيان المقاولين في القرى والعزب ــ على توريد الأنفار وبنصف السعر الذى تعاقد عليه مع

الناظر .. السواقون يلمون الأنفار بالأكوام رجل وأولاده ، حارة كاملة ، نصف عزبة والنفر الواحد لا يكون له سعر ، وكل مجموعة تأخذ عربونا تقسمه على نفسها بمعرفتها .. والكل فى النهاية يعمل بهذا العربون فقط .

يشكو ؟ .. من يشكو ؟ .. ان من يريد أن يشكو عليه أن يعرف أصلا : يشكو من لمن ؟ .. ما أكثر ما فكر ناس فى الشكوى .. لكن الشكوى لا تخرج أبعد من جوف المظلوم .. ولهذا فالحاج سليم أبرع من تاجر فى الأنفار وفى الأفيون .

أعرف هذا الحاج كما أعرف وجهى فى المرآة .. كنت الصراف وكنت أقبضه ثمن الأنفار .. انه داهية لا تستهزىء به ولا تقل لى حكومة ولا غيره .. فهو يستطيع ــ عدم المؤاخذة ــ أن يبيع الحكومة ويقبض ثمنها منها دون أن تعرف الحكومة .. ولولا اننى من أصل طيب ، وأخاف الله ، ولا أحب أكل السحت لأصبحت الآن من رجاله ، ولأصبحت أساوم فى لقب الباشا .. مع ان عائلتى أكبر من هذا اللقب ، ولو كنت شغوفا به لأنهيت المسالة من زمن ، انما أرى كثيرا من تجار البصل والمغات والبخيش أخذوه ، وأنا ــ عدم المؤاخذه ــ لا أحب أن آخذه .

أمرك فلنرجع للموضوع . كنت أقول بأنى عجنت سليما وخبزته ، فكثيرا ما .. اقترض منى مبالغ ليدفعها فى صفقة أفيون كبيرة .. من طبعى اننى لا أرفض حاجة للمحتاج .. وخصوصا فى مسألة الفلوس هذه ، فى الحق كنت أسلفه ..

أم .. .. م .. م م .. طبعا هو ليس عبيطا كى يخبرنى عن أصل السبب على المكشوف .. انما كنت أعرف الأمر لوحدى .. فأنا أفهمها وهى طائرة .. وحين أسلفه لا أصير ماكينة : هات وخذ فى الحال .. لا .. المسألة تتم على مهل .. فنجان قهوة .. كرسى دخان .. غدا .. جواب .. رد الجواب .. مرسال .. يعنى لابد

ن افهم جو المسالة واضمن اموال التفتيش ـ اقصد اموالى ـ بالفهلوة كون عرفت نوع الصفقة ٠

كان يؤكد ظنى ان الحاج برد فلوسى بعد نهـــار واحد ، ويضيف اليها ما ربحته خلال النهار ٠

كان الربح يوازى ـ أحيانا ـ ربع المبلغ ٠٠ فبأى دماغ أتصور أن الحاج سليم يتاجر فى شيء مشروع ؟ ٠٠ ميز أنت يابيك ٠

لا أنكر كنت شريكا فى القعدة ، لكنى شريك بجلوس فحسب ، ولم أهتم بشيء مما دار ، ولذا لا أتذكر شيئا مما دار ٠

يعنى ٠٠ كنت ألاحظ ان العمدة مشغول بجوار مع شـــيخ البلد من ناحية ومع الحاج سليم من ناحية أخرى ٠

كنا نلعب دومينو أنا والحاج ٠٠ وكنت طول عمرى لم اغلبه ٠٠ فهو دماغ يعرف كيف يسد عليك طريق الفوز ٠٠ لكنى ليلتها غلبته ٠٠ فصرت سعيدا ، وظللت سعيدا حتى أحسست بأنى العب مع نفسى ٠٠ كنت عبيطا ٠٠ خيل لى انى أغلب والحاج سليم فى دنيا أخرى ٠٠ يلعب لعبه ، ويميل على العمدة يتكلم ، ويميل على شيخ البلد ليهمس ، وأنا من عبطى مندمج فى اللعب بكل حماس ٠

كنا نشرب طبعا ٠٠ هل انكر ؟ ٠٠ شيخ البلدة كان السلطان ـ أى كان يقوم برص الحجر وتتويجه ٠٠ كان طريفا ٠٠ فالرص مزاج يستهوى شيخ البلد طول عمره ٠٠ والحاج سليم يعرف هذا ٠٠ ويسحب الكيس من جيبه فيقضم قضـــمة كبيرة يرميهـــا فى حجر الشيخ ، فيدفنها فى كفه ليرص منها ، فتغيب القطعة فى كفه تقول ابتلعتها مقبرة أو ذابت فى دمه ؟ بعد ثلاث حجارة أو أكثر يطلب غيرها ٠٠ الحاج سليم يكون منتظرا هذا ٠٠ لكنه يحتج ، وشيخ البلد يجمع حجارة الدار كلها ويرصها فى انتظار هذه اللحظة ليشير اليها بأصبعه قائلا لقد شربنا كل هذا ، ونكون قد شربناه فعلا ولكن

من بداية القصة ، ولكن الحاج سليم يتحسس الحجر بكفه فيقدر كم دورا لعبه بالنار هذا الحجر ، ونضحك حتى نفقد كل وقار ، وفي النهاية لابد للحاج ، أن يقتطع قطعة يرميها في حجر شيخ البلد قائلا : املأ عينيك ·· ثم ينتظر المكافأة ، ويكون الشيخ مستعدا لها ، بتعميرة مضاعفة تغطي الحجر كله ونارها مسبسبه مثل حب الرمان ، ويسلمه البوصة ليسفح الحجر كله في سحبتين ·

ما يمكنني تأكيده هو أن العمدة لم يفقد شيئا انه على العكس كسب الصفقة كلها ·· فمن يدري ·· هل ثبت لكم أن الحقيبة ضاعت من بيته ؟ ·· من أدراكم ان العمدة لا يفتعل الأمر ليحظى بالصفقة وحده ؟

لا أملك اثباتا · لكن هذا ما أعرفه ·

سامحك الله ·· طبعا يمكنني التوقيع ·· وقلت لحضرتكم انني كنت الصراف الأوحد في التفتيش ·

وعلام أوقع يابيك ؟ ·

لا ·· لا ·· اسمح لي ·· ما قلناه الآن كلام يخرج عن دائرة التحقيق ·· اسمح لي ·· اني لست بجاهل ·· أولادي مثل جنابك وكلاء ومحامون ·

أعني أني أفهم أيضا في القانون ·

يعني ان كنت تريد مني أن أوقع ·· تبدأ التحقيق من جديد لكي أتكلم كلاما للتحقيق ·· أما الذي قلته الآن فكان خدمة من أجل خاطركم ·

ـ ٣ ـ

أنا ؟ ·· السواق الخصوصي ·

نعم يسمونني هكذا ·· واذن فهو اسمي

ما غريب الا الشيطان يابيك •• وما دخلي أنا اذا كان اسمي هكذا ؟

وأنا صغير كانت أمي تناديني بـ « ياشحات » •• لكن الجهادية حين طلبتني قالت للعمدة أن اسمي « سعد أبو مندور » •• وقال العمدة ان أسماء الناس كلها في دفاتر عند الحكومة •• وذهبت للفرز ، وكدت « ألبس » لولا أن « النضارة » وجدت في عيبا •• وهو أن قاعة العين فيها لا أعرف ماذا ؟ •• عشنا وشفنا للعين قاعة كالتي ننام فيها •

يابيك لا تحرق دمك مع أمثالنا •• لماذا تأكل في نفسك هكذا ؟ عنينا ؟ على الحق ؟ على الواجب ؟ •• كل هذا لا يستأهل •• ان كان علينا فملعون أبونا •• وان كان على الحق فهو ضائع ضائع •• من يوم ان وعيت وأنا أسمع الناس تتحدث عن الحق الضائع •• ولم أر هذا « الحق » يبين أبدا •• من أدرانا •• ربما لا يكون هناك ما يدعونه بالحق هذا ••

حقا حقا يابيه •• أنا فعلا ابن كلب وملعب •• كلهم يصفونني هكذا •

يا بيه •• ان من يدخل الخدمة في « الحاج سليم » لابد وأن ينسى اسمه •• فكل واحد فينا ولد •• وكل واحد منا معروف بما يفعله في خدمة الحاج ، فالولد السواق والولد الحلاق والولد العربجي والولد الحمار والولد السايس والولد الغفير والولد بتاع الزريبة •• والاسم عندنا هو الذي يجيء منه أكل العيش •

نعم يا بيه في تلك الليلة كنت مع الحاج سليم في بيت شيخ البلد وبقينا ساهرين حتى قبيل الفجر •• ثم رحلنا ، وطلع علينا النهار في مفارق الطرق •• فذهب الحاج الى بيت له في المنصورة ، وعدت أنا الى داري في « ميت الشيوخ » لكنه بعث من ينادينى فعدت اليه •• فأرسلني الى حضرة العمدة بكلمة •• فما أدرى الا وأنا واقف أمامكم ••

هي كلمة جئت بها للعمدة فقط وليس لى أن أفرط فى الأمانة هكذا أمرنا الله ٠

تضربنى ؟ ٠٠ انك ان ضربتنى فلن يتعب الا انت ٠٠ أقصد أن جسمى عرف الكرباج والبوصة والنبوت والمطواة وحد الفاس واللسع بالنار والخوزقة ٠

نعم ٠٠ جنابك قلت الفائدة : الضرب يلذ جسدى ، فأنا لم أر نفسى الا مضروبا على الدوام ٠٠ تعرف يا بك ٠٠ بعض الناس كانوا يؤجروننى لأتلقى الضرب بدلا منهم ٠

لا ٠٠ كله الا هذا ٠٠ ارح نفسك وابتعد عن هـذه الكلمة فأنا لن أفرط فى الأمانة ٠٠ هل ترضى لى بالكفر ؟ ٠٠ ان كنت ترضاه فهذا شىء آخر ٠

هى كلمة والسلام ٠٠ وحين لقيت العمدة كححت فى أذنه ولا أعرف ان كان صوتى جاء أم لم يجىء ٠٠ لكن العمدة هز رأسه موافقا فعرفت اننى قلتها ٠٠ ثم سحبنى وجاء بى الى هنا لا أدرى لماذا ؟ ٠

العمدة قال ؟ ٠٠ هو حر ٠٠ العمدة يقول ما يشاء فهو حر فى الأمانة ، وكل واحـــد حر فى الأمانة ٠٠ ولكن ما دام حـــرا فمصيبته سوداء ٠

أقصد أن أقول : لم الكذب ؟ اننى لست حرا فى أى شىء حتى أكون حر التصرف فى الأمانة ٠٠ أما العمدة فهو عمدة ٠٠ ويستطيع أن يفرط فى الأمانة كما يعجبه ٠

لماذا تشخط فى هكذا ٠٠ ان الحاج لم يفعلها معى ٠٠ هل أنا لا سمح الله عبت فى حق الحكومة ؟ ٠٠ أقول أن العمدة عمدة ويســتطيع التصرف من نفســه ٠٠ أما الركش من أمثالنــا فهم لا يستطيعون ٠

الركش هم الركش من غير مؤاخذة ·· يعنى التراب الذى لا ينفع فى تسبيخ الأرض ·· فهو لا فائدة منه ولا منجاة من ضرره ·· نعم ·· الركش ركش فى كل شىء والعمدة عمدة فى كل شىء أيضا ·

لا ·· اننى لن أقول ماذا قلت للعمدة ·· أما ان قلتم أنتم ماذا قلت أنا للعمدة فهذا يكون كلام العمدة وليس لى دخل فيه ·

العمدة قال ؟ ·· خلاص ·· هو حر ·· والله يابك صدق ما يعجبك ·· ان كنت جنابك تريد تصديق العمدة فأنتم أحرار وأنتم حكومة مع بعضكم ، ولكن مثلما ندعكم فى حالكم دعونا أنتم أيضا فى حالنا ·

أنا أقول من غير أن تتساءل عن جبلتى ·· اننى لو قلت كلمة الحاج فسوف يطلق الرصاص على ·· ويبعث بمن يقضى على أولادى ·· خير لى يا سيدى الأفندى أن أختار الموت لوحدى ·· فلكم أن تقتلونى الآن ·· ولكن الحاج سيتأكد اننى لم أخن أمانته ·· ولو قلتم اننى قلتها فسيضحك ، لأنه سوف يعرف ان موتى تحت يدكم معناه اننى لم أشأ قولها ·· وحينئذ سيرعى أولادى من بعدى ·· على اننى متأكد أنكم لن تقتلونى مهما قلت أو فعلت ·· فأنتم بالطبع لستم مجرمين ، والا فكيف نسميكم حكومه ؟ ·

الحبس ·· الحبس ·· ضعنى فى الحبس ·· هأنذا ·

● الفصل الخامس ●

قبلما تسقط المئذنة

« الحلس قال للتور مالك ومالى »
« اسحب على باطك بلا جمالى »
« يا شايله البلاصى دلى واسقينى »
« يا ساردة القصه على الجبين »
« يا مطرزه الجبه لحد الديل »
« يا محرمه العشاق نوم الليل »
(اغنية للساقية)

ـ ١ ـ

قال « دياب » لـ « الأعرج » :

ـ والله ياسى أعرج لقد تقطع قلبى .. الكاتب كان يضرب عبد السلام ضرب موت ..

وكان « دياب » يضغط بقدمه فوق سلاح الكوريك ليغوص فى الأرض وبيديه سحب الكوريك نحو بطنه بعنف ، فدفع سلاح الكوريك مزيدا من الردم راح الأعرج يتلقفها فى مقطف كبير ليسوى بها زراقا جديدا ..

ـ أقطع ذراعي ان ما كان هناك ثأر قديم بين الكاتب وعبد السلام ..

قال الأعرج وهو يتلفت حواليه ليتأكد من انهما الآن وحدهما فى هذه المقطوعية :

ـ انك لا تعرف السبب .

سر « دياب » لأن نفرا من أهل البلد رضى بأن يحادثه فى ود كأن لا فرق بينهما ، وقال :

ـ ما السبب ياسى « أعرج » ؟ .

قال الأعرج وهو يبرك فوق المقطف ويدك الردم فيه :

ـ ان التفتيش لا يطيق سيرة « جمعه » .

ـ جمعه من ؟

ـ جمعه المؤذن .. لقد كان مؤذنا وصييتا .. ولكنه قتل .. أقصد .. مات .

ـ هل ..

ـ لا .. لقد مات .. وحكم علينا جميعا أن نصير أنفارا ..

ـ لكن .. عبد السلام .. الحق لله .. لم يجيء بسيرة جمعه فى مواويله ..

اقترب الأعرج منه وهمس :

ـ المهم أن يغنى والسلام .. فكلما غنى أحد .. يتذكر الناس جمعه ..

زام « دياب » وهبطت قدمه بعنف فوق سلاح الكوريك . وقعت كتلة جامدة من الردم ، فانهال عليها بقدمه حتى نعمها ، وقال :

ـ ليست هذه أول مرة أسمع فيها اسم جمعه ..

لكن « الأعرج » نظر الى « العقال » فوجده لا يزال أقل من منسوب المياه في المصرف المجاور ، ووجده ضعيفا أيضا .. فقال كأنه واحد من رجال التفتيش :

ـ هم يا دياب .. هم يا دياب ..

وراح « دياب » يضغط بكل قوته على سلاح الكوريك . لكنه قرب رأسه من رأس الأعرج وقال هامسا :

ـ لماذا أنت خائف هكذا ؟

فنظر اليه الأعرج فى غيظ ، وراح يعبىء الردم فى المقطف دون أن يرد .. وراح « دياب » يضغط ويطرد الردم ، ولم يفكر فى اعادة السؤال .

ـ ٢ ـ

ما أن أغلق باب الاسطبل وتباعدت أقدام الخفراء حتى اشتعلت عشرات المشاعل وامتلأت سماء الاسطبل بالدخان . ابتهج « طلعت » وأحس بالفرح ، وتذكر مولد سيدى ابراهيم الدسوقى الذى ذهب اليه مرة مع جده مهيوب ، كان الدراويش يجلسون هكذا ويملئون الدنيا أصواتا وكلاما ولكن لا أحد يفهم شيئا ، ولا أحد يعرف أن كانوا يتشاجرون أم يتحدثون ..

نظر حواليه . رأى كل من فى الاسطبل يتحدث . مع ذلك هناك كثير من الأجساد تتمدد وتطلق الشخير . أراد أن يتحدث مع جده « مهيوب » ولكنه خشى أن يصل بهما الحديث الى موضوع أمه وأبيه ، فترك جده يتقلب ويبسمل ، ومد يده ليوقظ « عمرو »

ولكنه سحبها ، اذ كان « عمرو » قد التصق بالأرض ومرت من فوقه الأقدام كثيرا تبحث عن مطارحها وأشيائها ، وقال لنفسه : « لقد تعب عمرو اليوم » وأحس بأنه يحبه حبا كبيرا فهو الذى يحميه من عصا الخولى بأن يساعده فى تنقية خطه ، وقال لنفسه انه حينما يكبر يصبح أفنديا محترما سوف يجىء الى هذه البلدة ويسأل عن « عمر » وربما استطاع أن يوظفه فى وظيفة ما • حينئذ تذكر المظروف الكبير فراح يتحسسه ، لم يكن يعرف أن المظروف مسل الى هذا الحد ، انه لم يعد يستغنى عنه لحظة واحدة ، ساعة القياله يقرأ فيه وقبل النوم ، ولو كان الود وده لظل يقرأ فيه الى ما لا نهاية ، وسأل نفسه : أتكون قصة من القصص التى كان بعض الناس فى بلدته ينسخونها ويقرأونها ؟ ان أمه تحتفظ بكثير من مثل هذه القصص ذات الغلاف المزوق وتقول أنها كانت أشياء أبيه التى تركها يوم السفر فأخذتها ، قرأ فيها كثيرا وتعلم منها كيف يقرأ بسهولة ، وكيف صار بذلك لامعا فى الكتاب محظيا بشكر سيدنا على الدوام ، لكن هذه القصة التى فى هذا المظروف مملوءة بكلام كثير مما يدور فى هذه الحياة ، ففيها الأنفار والمقاول والتفتيش ، وفيها كذلك عمرو وعمدة وشيخ بلد وشيخ غفر ، وفيها حكومة ونيابة وربما قاض •• انه لمتحير فى أمر هذا المظروف ••

وبدأ يقلب الأوراق حتى وصل الى الصفحة التى كان توقف عندها ••

ـ ٣ ـ

اشـارة

من عمدة كفر أبو سالم شرقية الى نيـابة كفر الشيخ زمـام الوسية تعلق جلالة الملكة بخصـوص الحاج سليم الضبع أشهر مقاولى الأنفار وأكبرهم فى العب نفيد بأنه كان بالبلد منذ حوالى

جمعه وأنه بات ليلتها طرف زوجته وفى الصباح توكل على الله لا تدرى الى أين · وبسؤالها أجابت بأنها لا تعرف أى شىء عن عمله أو سفرياته · ولما قلنا لها كيف اذن تعيشين على ذمته ؟ قالت أنه يرسل اليها كل ما تحتاجه ·· ونحيط علم سيادتكم أننا سنجعل بالنا منه وان رأيناه أو سمعنا خبرا عنه سوف نوافيكم به دون ابطاء ··

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،

– ٤ –

بـــلاغ

حضرة المحترم السيد المبجل الأستاذ الفاضل وكيل نيـابة كفر الشيخ ··

لكم التحية والاحترام ·

أعرف سيادتكم يا سعادة البيه أن حضرة العمدة هو الذى دبر للأمر كله من طقطق لسلامو عليكم وهناك ناس كثيرون يقولون أن حقيبة الحاج سليم الضبع التى تركها عنده أمانة كانت مملوءة بالحشيش والأفيون وحضرة العمدة قام بتهريبها فى عز الليل مع رجاله أعضاء المنسر ولما عرف أن جمعه المؤذن رآه من فوق المئذنة فى الليل اكترى من قتله فى الصباح · فالعمدة ولامؤاخذه يا سعادة البيك شيخ منسر كبير يفعلها كل عام ويدعى أن الأنفار هى التى فعلتهـا والصحيح أنه متعاون مع حضرة الباشكاتب ـ أقصـد مع زوجته التى تجيد التدبير والكلام والايقاع بالناس فى شر أعمالهم ـ أى أن العمدة يابيك يعطى للباشكاتب حقه فى مقـابل أن يقوم الباشكاتب بتسليم عدد من الأنفار ينتقيهم ويأخذ بصماتهم على أوراق

ويملؤها بأقوال من عنده ويزعم أنها أقوالهم .. أنفار كما تعرف يا سعادة البيك ولا سعر لهم الواحد منهم يبصم على أى شىء حتى ولو كانت ورقة بموته خصوصا اذا كانت هذه الورقة ستجعله يفلت من الحكومة وتتركه يرجع لعياله .. وما يكاد الواحد منهم يخرج من أيدى الحكومة ويتسلم خطه فى العمل حتى يفاجأ بالعسكر يقبضون عليه ويفاجأ بأنه معترف بالسرقة وأنه مجرم محترف وسوابق وأنه وأنه .. وحينئذ لا يجديه بكاء ولا صياح فلن يسمع له أحد ، وهو يعرف هذا جيدا .. بعضهم يقع من طوله ميتا ، ومن تستمر فيه الروح تراه يمشى أمام العسكر فى ذلة مثل كلب مريض بالسل ، الأمر الذى ، يجعل العسكرى يخالف ، لأول مرة فى حياته أمر الحكومة ، فيتمنع عن ربط المقبوض عليهم بالحبل المتين أو الجنزير ، بل انه من شدة سخريته بهذا الأمر وبعدم جدواه يترك المقبوض عليهم يمرحون فى الطريق . ويرسلهم يشحذون له خيارة أو رغيفا أو قلة ماء ..

ونعرف سيادتكم يا سعادة البيك أن العمدة يشارك الحاج سليم فى تجارة الحشيش والأفيون منذ زمن بعيد ، والحق أن العمدة كان دائم الشكوى من الحاج بسبب مماطلته فى دفع الحقوق ، وكنا نعرف أن الحاج مدين للعمدة بدين ما ، لكن لا نعرف ما هو بالضبط ، وحين كنا نسأل العمدة كان يقول أنها أموال اقترضها منه الحاج ، وفى مرة أخرى يزعم أن هذه الأموال هى أثمان حبوب باعها له العمدة كيما يرسلها الحاج الى زوجاته فى النواحى القريبة . والمؤكد أن الحاج سليم ليس هو بالذى يقترض وحتى اذا حط به الحال فهو لا يقترض من رجل كالعمدة وهو أيضا ليس بالذى يشترى حبوبا بالدين ، ثم ان له مخازن أين منها مخازن التفتيش أو أفندينا نفسه . أما العمدة فانه يأخذ منك الدين قبل أن يدينك به .

ان العمدة والحاج سليم يابيك من قماشة واحدة . وتأكد يابيك ان حقيبة الحاج تذوب الآن فى أفواه مدمنى الأفيون وتحترق

على مئات الجوز هنا وهناك أنا نفسى قابلت بالأمس أحد أبناء الحظ وكان لتوه قادما من عند البائع بالتعميره • أحببت رؤية القطعة رغم أننى لست كييفا • ماكدت أفك عنها ورقة السلوفان حتى تأكدت أنها من نفس البضاعة التى كانت فى حقيبة الحاج سليم ، ثم ان الرجل نفسه أكد لى ذلك حينما قال أن التعميرة من ماركة الثلاث سنابل ، والبائع ان كان هذا يهمكم هو « محمد محمود الجرن » الكائن بعزبة صباح تبع الناحية ، وهو من أخلص خلصاء الحاج والعمدة معا • وعند ذهابى اليه للتأكد فوجئت أن البضاعة التى عنده ليست من نظام الأكياس بل من نظام الخوابير ــ وهو صنف طيب للغاية لا يرد الا من بيروت وبمعرفة الحاج سليم وحده ••

كما أعرف سيادتكم يا سعادة البيك أن الأسطى فانوس هذا رجل ليس له فى التور ولا فى الطحين • اننى لا أصاحبه ولا أحبه ولكننى أقول كلمة الحق • لقد ظلم كثيرا فى مسألة السرقات هذه ، ولو رأيتموه الآن لأدركتم براءته ، فهو يقضى الليل فى الجامع والنهار فى البيت لا يغادره • وهو حزين أشد الحزن بسبب ما جرته عليه طيبته وما جلبه عليه تواضعه حين يجلس مع مثل هؤلاء الناس • هــذا ما لزم عرفناكم وتفضــــلوا بقبول فائق الاحترام • مقدمة « فاعل خير » •

ــ ٥ ــ

ــ عليك السلام ورحمة الله وبركاته ••

وامتد الظل الكثيف وحجب ضـــوء الشـــعلة العليـــل عن الصفحات ، ومنذ برهة كان الفتيل يهتز ، وفوق الصفحات تتراقص ظلال باهتة • رفع « طلعت » وجهه رأى رجلا طويل القامة متهدل الشارب يلبس طاقية الخفراء النظاميين نحاستها مخلوعة وقد أجربت

وكلحت ، ويتذكر « طلعت » انه كثيرا ما سمع الأنفار يسخرون منها ، وهذا الرجل يرد عليهم بأنهم « بجم » لا يفهمون شيئا ، وأنه لا ينوى خلع هذه الطاقية الا حين يتأكد انه خلاص لم يعد خفيرا نظاميا يتبع عمودية الناحية ٠٠ وهو بعد لم يتأكد ٠

اعتدل « دياب » فى جلسته أما الأعرج فلم يعتدل ، انما قال :

ـ تفضل يا شيخ الغفر ٠

نظر شيخ الغفر حواليه ، شرع يجلس ، فأوسع له الأعرج مكانا بجانبه لكنه اصطدم بجسر من الأجساد المتمددة ٠ بكوعه زغد الجسد المجاور له ٠ انشرخ الهواء وامتلأ الاسطبل فجأة بالصراخ ، صراخ غرباوى واضح وملتاع ، حتى خيل لطلعت انه ان لم يصرخ هو الآخر فى الحال يكون قد تخلى عن واجب مهول ، لكن الصرخة كفت مرة واحدة ، وحولها سقف الاسطبل الى أنغام رمادية داكنة راحت تنسحب من خلال الفتحات ، فكأنها أزاحت من الفتحات كتلا هوائية متجمدة فهب صقيع غريب مفاجىء ٠ كان الاسطبل بطوله وعرضه قد صار ـ فى ظل نوره المخنوق ـ أرضا سوداء محروثة مليئة بجسور من السبخ فى غبشة الفجر الرمادية : عشرات الرءوس مرتفعة متشابهة ٠ استطال أكثر من رأس واعتدل أكثر من جسد فزلزلت الأرض زلزالها واهتز كل شىء فى الاسطبل لحظتها ٠

ـ من الذى صرخ ٠٠ هه ٠٠ من الذى صرخ ؟

هكذا صاح من يسمونه بالباشخولى عبد السلام ٠

ـ واحد من أولاد الزوانى ٠

هكذا قال الرجل الذى يلبس طاقية الخفراء والذى كان السبب فيما حدث ٠

ـ لا ٠٠ انه ليس واحدا ٠٠ لقد صرخ الاسطبل كله ٠

بهذا رد الباشخولي ·

ـ نعم هناك أصوات كثيرة صرخت ·

ـ كانت الصرخة بجانبي ·

ـ كانت في أذني ·

ـ كانت فوق صدري ·

ـ لا أدري ان كنت سمعت الصرخة أو صرختها أنا ··

واختلطت الأصـــوات · بدا الاسـطبل كأنه مخزن لكل الضــفادع التي في برك الدنيـا كلهـا · صرخ الباشخولي وهو ينهض واقفا :

ـ بس ·· الكل يسكت ·

خفت نقيق الضفادع بعض الشيء ، لكنه سرعان ما ارتفع مرة واحدة كأنما لا يعجبه الكلام · وصرخ شيخ الغفر :

ـ يبدو أنني سأقتل كلبا هذه الليلة ·

صــار الباشخولي يضرب فيمن حواليه بالرجل والبونيه · هكذا فعل شيخ الغفر هو الآخر · انتفضت الأجســاد كلها وافقة تدوس في شرها أجساد أطفال وعجائز وكهول · صارت الضربات تنهال بوحشية في كل اتجاه فوق كل جسد ليس تحت الأقدام · كما صار الاسطبل مثل حريق دب في عشرة بلدان مرة واحدة ·

زلزلت الجدران · راح باب الاســطبل يهتز ويهتز تكـاد تفصصه الطرقات من الخارج ـ كان « طلعت » قد طوى أوراقه بسرعة ولفها في المنديل المحلاوي ثم خبأها في جوال الزوادة ، ثم انحاز الى مجموعة من النساء والصبيان والعجائز كانت تنحاز بدورها الى باب الاسطبل تريد أن تحتمي به من الدمار سمعوا صوتا يصيح خلف باب الاسطبل من الخارج قائلا :

ـ اسكتوا! يا غجر .. دعوا ليلتكم تفوت على خير .. سوف تندمون .. الهانم زوجة الناظر موجودة بالعزبة الليلة ولا تزال صاحية .. ويلكم يا أولاد الزنا ، يا مقلقي الراحة يا مثيري الشغب .

لكن صوته لم يتجاوز هذه المجموعة الصغيرة ، فاختفى مرة واحدة . وتهامس العجائز المنزوون بأن شيخ غفر التفتيش ذهب ليستنجد بالباشكاتب وسوف تكون الليلة سوداء : نعم فهى لابد وأن تختتم ، وتختتم هكذا . على ان المطر سرعان ما راح ينهمر بغزارة ، كأن السماء تميل على جانبى السقف الجملون وتحكم وضع خيوطها على فتحاته .

تصادمت الأجساد ، صارت جسورا تدفع بعضها هنا وهناك تلهث تبحث عن ركن تحتمى فيه من هطول المطر ، فكلما انحازت الى ركن دهمها الصقيع وأغرقتها المياه وأعمتها السيول المتدفقة من فتحات السقف . الاسطبل يرعد يزأر دون كلام مفهوم . وكانت العيون التى نجت من رشاش المياه قد لمحت رؤوسا تطل من فتحات السقف وأيد تمسك بالخراطيم ، التى قللت مياهها شيئا فشيئا وصارت خيوطا غليظة مرتخية تشر فوق الحيطان . لم تعد الأجساد قادرة على الالتصاق ببعضها أكثر من هذا . الناس تتباعد عن الحوائط والأركان . الضغط يزهق الأرواح ، كل الصدور بين حجرى رحى . صوت خرير المياه كالكرابيج فوق الأجساد .

فجأة التوت الأعناق كلها واستدارت تنظر فى حائط العرض القريب من سراية التفتيش ، حيث لمع ضوء « باهر » فى أعلى الجدار ثم استقر على حافته .. كان ثمة فانوسا زجاجيا كبيرا قد وضع على حافة الجدار فى الفراغ الذى بينه وبين سقف الجملون ظهرت بجوار الفانوس رأس مطربشه ، ثم ظهر بجوارها فانوس آخر ، ثم تضاعف الضوء وجعل الصدور التى كانت قد تاهت منها أرواحها تتبسع فجأة لقليل من الابتهاج بمرأى الضوء . كان قد ثبت ان الوجه الذى بين الطربوش وحافة الجدار هو وجه الباشكاتب

« عشم أفندى » شخصيا • يبدو انه ذكرهم قراقوز فغرقوا فى حالة فرحة وانتظار • لكن « عشم افندى » كان قد أصر على أن يفلق حجر الجدار بذقنه المدببة لا يعرف أحد منهم ان كان هذا الصوت المشروخ هو صوته أم صوت الجدار يئن ، أم صوت خرير المياه لا يزال يجلد القلوب أم صوت السقف الجملون يكسر الصوت ليثنيه ويدحرجه الى الأذان • كان الشارب التركى بجناحيه المتصلبين يهتز ويترنح :

ـ التفتيش يعرف كيف يخمد صوت الكلاب حين تزعج النيام بلا سبب •

ألا تعرفون أن عواء الكلب معناه أنه شاهد وجه عزرائيل يدخل المكان ؟

• من يريد أن ينبئ بقدوم عزرائيل سنكافئه بضرب الرصاص، لكننا نحب أن نبرد أجسادكم فى الأول •• لعلكم تهدءون قليلا •

ثم انزاح وجهه عن حافة الجدار ، وسقط ، تماما كما تسقط رأس القراقوز خلف الستار • وانسحب الضوء فدخلت السماء السوداء فيما بين الجدار والجملون • قالب من اللحم البشرى طوله عشرة أفدنة وعرضه ثلاثة ، يعجن نفسه بنفسه فى نفسه ، يزأر باكيا نائحا ، أقدامه تخوض فى المياه التى لا تزال تتساقط من الأجساد • لم يعد هناك غرباوى وابن بلد • وصار الليل يتكوم ، وتتكوم الأجساد فوق بعضها •• وكم من صدور تعبت من رؤوس مرتمية فوقها • لكنها لم ترفسها ، خوفا من أن تكون أخا أو أبا أو صديقا أو عمة أو زوجة خال •

● الفصـل السادس ●

النجم الذى هـوى

ـ ١ ـ

« دخـل الحكيم وبص له بالعين »
« وقال له : يا زينـة الأمـرا أجيب
دواك منـــين »
« يا حـكيم العيان طبب وخد ميـه »
« طلع الحـكيم وراســـه مطاطيه »
« يا طبيب العيـان طبب وخد متين »
« طلع الحكيم يخبط على الكفـين »
(بكائيـــه)

وأخيرا قال الأعرج :

ـ فى ذاك الفجر ، فجر وصول الأنفار ، ضـحك « جمعه » المؤذن من كلامه ، مع كل فان فان الصـــلاة خير من النوم . وكان « جمعه » يصـعد الى المئذنة فجرا وصـبحا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاء . كنا نقول له : « يا أخى دوشتنا وها أنت ترانا قد أتينا لنصلى » . فكان يضحك ويقول : « انكم تمشون فوق الأرض فحسب ولم تتيقظوا بعد » . ثم يندمج : يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا ،

واسمع لنا بالرضى يا واسع الكرم ·· يارب جاءتنا سراية وانزرعت على شط مصرفنا ، مارد كبير يزحف ويسحب وراءه شكائر طين ، لا ظلمة الليل تخفيه ولا شمس الضحا تكشفه ·· يا مارد يا كاتم نفس العباد ، تظن نفسك فى العز تهنا الى آخر الدهر فيارب يارب يارب · كان ساعتها متأكدا ان أحدا فى البلدة لم ينم ، حتى الخفراء النظاميين ، أشهر النوام فى بلدتنـــا ، كانوا يروحون ويجيئون ويملئون الليل كحة وصياحا وشخطا فى الهواء بلا داع ، هى ليلة واحدة يسهرونها فى كل موسم : ليلة وصول الأنفار الى التفتيش ، وسهرهم لا يمنع حدوث السرقات أبدا ·· والغريب يا دياب أن البلد لا تسرق الا فى الليلة التى يسهرون فيها لحراستها ·

يا دياب يا أخى كتب على بلدتنـا أن تكون تابعة للتفتيش وللسراية مع انهـا ليست ملكا لأصـحاب السراية · أهل البلد صاروا خدما للسراية وهى تتحكم فى أرزاقهم · كلما اشتدت حاجة الواحد منا الى المال يلعن السراية ، وكلما نزل بأحد منا مكروه لعن السراية . أما حين يكون الواحد منهم فى عز ونفنخة فانه ـ أيضا ـ يلعن السراية · كان المرحوم يقول : « والله لو نطقت هـذه المئذنة لقالت ما فى الخمر » · نعم فهى المئذنة الوحيدة فى البلد وقد شاهدت أشياء يشيب لها الطفل · فى الصبح رأى المرحوم أتومبيلات وكارتات تدلق أمام السراية رجالا مقمطين · عند آذان العصر رأى خدم لتفتيش قد انتشروا فى البلد فجمعوا بيضها وجبنها وسمنها ولبنها ودجاجها وحمامها وخرافها · الحوارى امتلأت بنسوة يحملن أشياء يتوجهن بها نحو السراية · السكة امتلأت بالصبايا يحملن البلاليص فى اتجاه الترعة ويغيرن طريقهن المعتـاد ليمررن فى عودتهن بالسراية كل واحدة منها دعكت وجهها بورقة حمراء وكعبها بقطعة من الطوب · رجال البلد لا يستغربون فالفتيات طائشات ، انما كانوا يستغربون لمنظر النسوة المتزوجات يحلو لهن التلكؤ على « الموردة » يتحككن يغتسلن لا يتحرجن من تعرية سيقانهن · عند أذان المغرب شاهد

المرحوم خفراء السراية يلتحمون بالخفراء النظاميين ويتهامسون فى ود لم يعرفوه من قبل . قال المرحوم عند آذان العشاء امتلأت السكك بناس تروح وتجىء . قال المرحوم فى عز الليل همدت الحوارى والطرقات ، لم يكن هناك أثر للأنفار فى البلد أو على الطرقات لأن الوسية أعطت الاسطبل للأنفار . من ساعة ما علمنا بالخبر رحنا نسأل : ماذا سيقول الخفراء فى الصباح عندما تظهر السرقات بينما الأنفار محبوسون فى الاسطبل ؟ ولكن المرحوم ظل فوق المئذنة حتى طلع الصباح وارتفع الصوات فى البلد ـ نفس الصوات الذى ان سمعناه عرفنا فى الحال أن الناس قد سرقت .

ـ ٢ ـ

كانت الصفحة تظل معلقة بين يدى « طلعت » لبرهة طويلة يستمع فيها الى كلام الأعرج . وصاح فجأة :

ـ ان كلامك يا خال أعرج هو الخالق الناطق الكلام الذى هنا .

ـ هنا أين ؟

ـ هنا فى هذا الدفتر العجيب .

شوح الأعرج :

ـ يخلق من الشبه أربعين .

ثم أخذ يلف سيجارة من كيس صغير مملوء بأعقاب مفروطة يجمعها له ولد من ولدان السراية . وراح « طلعت » يشارك فى الاستماع الى الأعرج .

ـ ٣ ـ

ـ كانت الناس يا ولداه تلف حول أطراف البلد ، تدخل الحوارى وتخرج منها ولا تدرى انها دخلت وخرجت ، وأيضا

لا تدرى ان كانت تدخل أو تخرج • الكلام أيضــا كان يدور ، لا أحد يعرف من أى حنك يخرج الكلام : جاموسة محمد خطاب سرقت •• جوالات قمح ضاعت من مخزن الحاج داود •• دكان بكرى البقال اتقش ولم تبق فيه قشة واحدة •• هدوم العروسة •• عشاء العيال •• فراخ أم محمد •• ياللمصيبة ـ يومها وقف المرحوم يضحك • ولما يقف المرحوم ليضحك فمن المهم أن تتفرج • قال المرحوم : أين الخفراء ؟ • قال واحد من الواقفين : ذهبوا يسلمون السلاح ككل صباح •

قال المرحوم : ليتهم يدعونه فى السلاحليك •• انهم لا يهددون به ســـوى الناس الطيبين الذين هم فى حالهم •• أين كنت •• وكيف نرد على •• ويوم أبيك اسود •• وقدامى على الدوار •• أنا رايح أصلى الفجر •• يا ابن الكافر ؟ •• رايح أدور الساقية •• ساقية برضـــه يا ابن الكلب •• سأشترى دخان •• دخان فى عينك •• هذا والله ما نأخذه من البنادق المعلقة على الأكتاف •

ثم انه مشى • ومشينا وراءه • فتنــا على شــارع الجرانه وشارع العقالوه وبيت أحمد أفندى الشوربجى • وقف المرحــوم فوق جذع نخلة ونظر فى حارة العبابدة • الناس يتلقفون كل من يخرج من الحارة ويسألونه : ماذا حدث ؟ •• دار الشيخ عبد الباقى سرقوا منها الناف والمحراث وبردعة الحمار وعنزه قال المرحــوم ضاحكا : ترى أين كان الحمار اذن ساعة سرقت برذعته ؟ • البنت التى كانت واقفه تقول الخبر اتكسرت عيناها ودارت ابتسامتهــا بطرف شالهــا ومرقت فى الزحام • قال طفل من أهل الحارة : « الحمار كان يعشر حمارة الجيران » ضحكنا جميعا ، واندفع صوت من داخل الحارة يقول أن حمار الشيخ عبد الباقى قليل الصبر حين يهيج ، يقطع أى قيد وينط أعلى جدار • قال « بدوى عسر » بخبثه المعروف : « يا أخى قل ان حمار الشيخ عبد الباقى يعشق حمارة الجيران وبينهما غرام وهذا كل ما فى الأمر • رد فرحات

المنادى أعمى العين : « يقولون أنها ترسل له الهدايا والمراسيل » • فانفجر « بدوى » ضاحكا وشوح بدراعه وقال : « انها تجىء بنفسها وتسحبه » قال الطفل المسحوب من لسانه : « ما هذا •• ان الجيران ليس عندهم حمير » • رد عليه طفل آخر : « لا يا عبيط •• ان امرأة الجيران هى التى تعشق الحمار و •• » ارتفع أكثر من صوت بنهره : « امشى عمى فى عينك قليل الأدب » ، وقال آخرون : « خذوا فالكم من عيالكم » • مرة واحدة انتبهنا لزئيط مرتفع • كان « محمود » بن الشيخ عبد الباقى يسحب الحمار خارجا به من بيت الجيران • تصدى له بعض أبناء عمه وطلبوا منه أن يترك الحمار فى مكانه الى أن يجىء العمدة • رجال آخرون صاحوا بأن هذا عيب ، وأن الله أمر بالستر ، وعلى العبايدة أن يأخذوا حمارهم ويقولوا فى محضر التحقيق أن الحمار كان فى الحقل مثلا • قال أبناء العم ان التحقيق لن يصدق أن اللص يسرق برذعة الحمار ويترك الحمار نفسه • فجأة ظهر الشيخ عبد الباقى وأمر ابنه ان يسحب الحمار ويعود به الى البيت ثم سار خلف ابنه وحماره فى صمت ، لكنه وقف مرة واحدة والتفت الى الناس قائلا : « خلاص يا أسيادنا •• حينما يسألنا التحقيق أين كان الحمار ساعتها سنقول انه كان فى مهمة رسمية عند الجيران » • ومضى مثل نخلة قصيرة يطوحها ريح عاصف ولم تكن الريح سوى الضحكات • المرحوم هو الآخر أخذ يتطوح مثله ولكن على طريقة المنشدين فى الذكر واضعا كفيه على صدغيه ، وارتفعت الدندنة الحلوة : « يقولون ليلى بالعراق مريضه •• فقلت ياليتنى كنت الحمار المداويا » • ثم رمى بنفسه على الأرض وسار ووراءه ناس ان رششت الملح فوقها لا ينزل الى الأرض •

عند جنينة « العبد شتا » وقف المرحوم فوق تل مرتفع بين المقابر • راح الناس يتسلقون المقابر • سقطت عيونهم فى قلب الجنينة فظهرت عليهم الدهشة وصاحوا : « العبد شتا عار كما ولدته أمه ، يتقرفص يدفن رأسه بين ركبتيه ، ومحمد أفندى

الشربيني يقف وراءه يجلده بالكرباج . محمد أفندى هذا يستأجر أشجار الجنينة منذ أعوام ، مقابل عدد من كيلات القمح وأردب من الذرة يدفعها للعبد كل عام ، والعبد يحرس الجنينة مقابل حق الدخان . كان صوت الكرباج يشرخ الهواء والعبد لايئن ، ابتسم المرحوم وقال : « محمد أفندى كما تعرفون من حملة الكرابيج فى البلد .. بسم الله ماشاء الله صرف عليه أبوه حتى رباه وصيره من حملة الكرابيج » . قال رجل عجوز لعله موجود بيننا الآن : « ولسان الكرابيج فصيح » . رد المرحوم بابتسامة : « خاصة مع المواشى لأمثالنا » .

الطريق المنحدر من المقابر الى قلب الجنينة صار مثل عش النحل خطين كبيرين ، واحد يهبط الى الجنينة والثانى يصعد منها . صعدت الأخبار من الجنينة تقول : « العبد شتا هو الذى فعل بنفسه هذا ، اقعد نفسه هذه القعدة وسلم الكرباج لمحمد أفندى وطلب منه أن يظل يضربه حتى يبك الدم من جسده .. لماذا ؟ .. أصل الحكاية أن العبد شتا كان يجلس فى خص الحراسة فى عز الليل ، فدخلت عليه امرأة مهدودة الحيل راحت تسقيه أنفاس الحشيش وتذيب له سنة الآفيون فى كوب الشاى . فلما اشتد عصبه وقام وجدها رجلا ... فتح فمه ليصرخ . لكن ضربة سريعة سقطت على نافوخه فسقط ميتا ، ولم يفق من الموت الا فى الصباح ليجد نفسه عاريا ، ولم يجد قفصا واحدا من أقفاص الفاكهة التى كانت مجهزة للسفر .

وراء المرحوم مشينا . دخلنا شارع السوق . تركنا ماكينة الطحين ثم تركنا البلد كلها . ليس فى الخلاء بيوت سوى بيت « محمد أفندى الشربينى » الواقف وحده بين الحقول . عند هذا البيت وقف المرحوم فاصفرت وجوهنا . جرى المرحوم فطلع شجرة التوت القريبة ونظر فى قلب شونة الغلال ذات النوافذ العريضة . زعق كأنه مذبوح « سبحانك يارب .. تكشف المستور بارادتك » .

سألناه . أشار الى الشونة : « تفرجوا .. بالله تفرجوا » . كأن الريح هبت علينا فبعثرتنا هنا وهناك .. طلعنا فوق أكتاف بعضنا ورحنا ننظر والمرحوم يقول : « أترون .. الأقفاص التى سرقت بالأمس من جنينة العبد شتا » . من هيافتنـا سألناه : « كيف يسرق الرجل نفسه ؟ » وقال عريف الكتاب بهلفطة مقرفة : « يخربون بيوتهم بأيديهم » . حتى الطفل المسحوب من لسانه قال : « لقد سرق الأقفاص ليضرب العبد شتا » . ونظر المرحوم الينا وفى عينيه نار ، وقال : « هكذا الأمر فى البلد .. السارق يحكم المسروق ويجلده » . قلنا جميعا : لا اله الا الله . صاح المرحوم بغيظ : « لسوف يدفع العبد شتا ثمنا كبيرا يا رجال .. سيظل يعمل أجيرا طرف محمد أفندى بلا مقابل طول حياته .. وربما يموت قبل أن يفى بالدين » أكمل العجوز : « وقليل ان ما نزعت ملكية الجنينة » طرقع المرحوم بأصبعيه مؤكدا : « العبد شتا يجلد نفسه لأنه كان يعرف اللص ويتربص به ولكن اللص دخـل من الخلف ونكح رجولته .. فماذا غير الكرباج يشفى غلة الندم » . ثم دار ومشى عائدا للبلد والجميع خلفه كصبيان أشقياء يتامى ..

كان حضرة العمدة جالسـا فى الفراندة يلعب الدومينو مع شيخ البلد والأسطى فانوس صـاحب عزبة الكخيـا المجاورة للتنفتيش ـ وكنا نسـير وراءه وحولنا غبـار كثير ثقيل . وقف الأسطى فانوس وصاح : « الحق يا عمدة » وقف العمدة لاهثا : « ماذا » . قال الأسطى فانوس : لابد أن حريقـا شب فى البلد وصاح العمدة : « اللهم احرقهم جميعا .. لا يدعونا ننعم بدقيقة راحة . أما شيخ البلد فلم يقف ، وأما العمدة فلم يجلس ، بل صاح فينا : « خير يا أولاد الزانية بلا أجر .. لابد تعاركتم كالعادة » توقفنا حين توقف المرحوم ، وصرخ العمدة : « انطق يا ثور انت وهو » ثم تلفت وراءه : « ايتونى بالخفراء » .. ثم دخل وغاب عن عيوننا .

— ٤ —

قال « طلعت » لجده مهيوب :

ـ والله والله ان خالى الأعرج هذا قد لخبطنى •

ضحك مهيوب فى اعجاب :

ـ قل انك لست على بعضك •• لا تتهم الناس •

ـ انه هو وهذا الدفتر يقولان كلاما واحدا ••

مسح على كتفه بحنان :

ـ الدور والباقى على رأسك انت •• نريده أن يقول كلاما ثانيا •

اقشعرت رأس « طلعت » :

ـ أتعرف يا جدى •• أراهن أنهم جميعا قد ذاكروا فى هذا الدفتر •

ضحك « ميهوب » وزر على عينيه ، وصارت ذقنه البيضاء الطويلة تتطوح كقحف الجريد :

ـ أنهم لا يذاكرون فى القرآن •• ولا فى شيء ••

قال « طلعت » فى تصميم :

ـ أقطع ذراعى ان ما كان هناك من جلس وكتب كلامهم •

ـ سلامة ذراعك يا ابن القاضى •• يا فهيم •

تضايق « طلعت » من ذكر القاضى :

ـ كنت مرة تقول لى أن كل واحد منا يجلس على كتفيه ملكان •• ملك الحسنات وملك السيئات ••

رفع الجد أصبعه الطويلة أمام عينيه :

ــ ولكننا لا نراهما ·· وهذه حكمة الله ·· انهما فى شغلهما ليس لهما دعوة بنا ·· يكتبون كل ما يفعله أو يقوله الواحد منا بلا زيادة أو نقص ··

تحسس « طلعت » الأوراق :

ــ هذا الدفتر ··

ولكنه لم يجد كلاما يقوله · وصارت ذقن الجد تكنس الهواء من الضحك :

ــ اذن فلماذا لا تسمعنى ما تقرأ ·· خلنى معك واسمعنى ·
وأخذ « طلعت » يتمتم فى صوت خفيض بأشياء غير مفهومه ·

ــ ٥ ــ

ــ ما كان الواحد منا يتصور أن العمدة يبكى مثل الطفل · كان يشق الهدوم ويقول : « دبرنى يا شيخ البلد أنا فى عرضك » · ويرد عليه شيخ البلد وهو يدارى كسوفه : « أنت الآخر مسروق يا عمدة ·· لكن ·· يا عمدة كنت تقول بأنك بعت المحصول » ·

ورأيت شيخ البلد ينظر الى فانوس وعلى وجهه خيال كلام ، والأسطى فانوس لا يريد النظر اليه ، المهم اننا جرينا · كنا نغوص فى أرض موحله ·

طار صواب « الأشمونى » وصار يزعق : « ابتعدوا عن الأرض يا كفرة ·· سنشتلها بعد أيام ·· الكاشف سوف يجىء ليأخذ حق أفندينا من محصول الأرز ·· الكاشف لا يقبل عذرا ·· أربع سنوات لم أدفع والعمدة قال ان أدفع هذا العام » ·

يا هول المنظر · تطوح الأشمونى وارتطم دماغه بجذع الشجرة

وتفجر الدم ، وساعتها لم نعرف لمن الأشمونى مات . كنا نجرى خلف المرحوم لا نعرف أين يريد أن يذهب بنا . ولما وقف على شاطىء الترعة وقفنا نحن أيضا . رأينا بغالا وحميرا وجمالا تخرج من البلد ، ورأينا المرحوم يصرخ مرة واحدة وقد وضع يده على صدره . ورأيناه يقع . كانت رصاصة واحدة ، لا نعرف من أين انطلقت ، لكنها قصفت عمر الجدع .

● الفصـل السـابع ●

ألسنة الاوان لا تعرف أصحابها

« وقلت لها ياعين مافيكيش منافع للناس »
« واحطـك ياعين فى قمقـم من نحـاس »
« واسبك عليك ياعين القمم والرصاص »
« وارميك ياعين فى بحـــر الغطـــاس »
« قالت والنبى والله خدى على عهد الله »
« لا اخون بنت فى قمرتها »
« ولا عــروس فى جلوتهـا »
« ولا جاموســة فى ضرتهـا »

(رقية)

— ١ —

جفت مداود الاسطبل بعد أن كانت تحولت الى برك صغيرة والذين كانوا ينامون فوقها صارت خرقهم وهلاهيلهم كومة من الطين لا تبغى الجفاف · والآن لا أحد يرغب فى اعتلاء المدود فقد اتضح أنه مهما علا ليس معصوما من الخطر ·

وهز « عمرو » رأسه مؤكدا ووافقه « طلعت » على هذا الكلام

وقال أن الأنفار ذابوا في بعضهم منذ تلك الليلة ، فأى واحد ينام الآن في أى مكان ، ثم قال بعد برهة :

ـ وقلت الخناقات ..

فقال « عمرو » :

ـ والله يا طلعت يا أخى .. ماذا أقول ؟ .. اننا .. كلنا .. كل الذين فى الاسطبل نريد ان نتخانق مع أحد ..

ـ من يا ترى ؟

ـ انت أيضا معنا .. كلكم .. كلنا ..

الشعر فى رأس « طلعت » يقف :

ـ لابد أنك تقصد الخولى ؟

ـ جايز .. انما لا .. الخولى أيضا مثلنا .. يريد أن يتخانق مع أحد .

ـ يعنى لابد وأن يتخانق الواحد والسلام ..

وأخذ يفر الصفحات ويدعك عينيه ، وراح « عمرو » يحدث نفسه بصوت عال :

ـ المندوب يزعق للمفتش .. والمفتش يشخط فى الناظر .. والناظر يشتم الباشخولى ويلعن أباه .. والبشخولى يضرب الخولى ..

والخولى يمزق أجسادنا بالخيرزانه ..

وأخذت ثمة أصوات تنعق هنا وهناك ..

ـ لا أحد منكم يفتح فمه يا أولاد الكلب .. أريد أن أنام ..

ـ نم يا أخى .. ما منعك أحد ..

ـ من الذى يتكلم ؟ .. أرنى نفسك لو كنت رجلا ..

اعتدل « طلعت » ونظر « عمرو » مبتسما :

ـ اننا حسدنا الاسطبل يا عمرو ..

ولم يرد « عمرو » انما ظل ينظر نحو الضجيج مبتسما ..

ـ وحد الله يا عبد السلام .. وحد الله ..

ـ عبد السلام لا يلعب معك يا ابن الزانية ..

ـ يه .. يه .. ولماذا الغلط ؟

ـ قلت لكم مائة مرة اسمى الباشخولى .. باشخولى السراية ..

ـ لكنك الآن .. نفر ..

ـ ان ذبل الورد تبقى رائحته فيه ..

ـ انما .. بس ...

ـ خلاص يا أسيادنا .. خلاص .. نم يا باشخولى ولا يهمك .. حقك علينا .

رفع « مهيوب » رأسه وراح ينظر فى أنحاء الاسطبل ، وتأكد أن الولد « طلعت » لازال جالسا يعبث بالأوراق التى أعطاها له « دياب » . ومال واحد من الغرابوه على زميله وهمس :

ـ الباشخولى ركبته العفاريت ..

ـ أظن أنه الباشخولى الذى أدخلنا الاسطبل أول عام ..

ـ هو بعينه .. سبحان مغير الأحوال .. يومها كانت الأرض تخاف من مشط رجله .

ـ يقولون أنه طيب وابن حلال .

ـ وهل كان معنا فى الاسطبل لتعرف أنه ابن حلال أو حرام ؟

وزغد كل منهما زميله لينزاح قليلا · وكانت أعقاب السجائر قد نفدت من الأعرج فنام كمدا كما قال من ساعتها · أما « طلعت » فعاد يغرس عينيه فى الأوراق التى بات فيها العجب ··

ـ ٢ ـ

اشــارة

من بندر طنطا الى نيابة كفر الشيخ

نفيد سيادتكم أن المدعو « سليم الضبع » كان منذ ليلتين فى المدينة وبات لدى زوجته بالناحية ثم غادرها فى الصباح متوجها الى كفر الشيخ ·· هكذا قالت لنا زوجته « انجا هانم » التى لا هى « انجا » ولا « هانم » لأنها أسمت نفسها هكذا لتثبت أنهـا من عائلة ، تقول ان زوجها راح يتفاهم مع التفتيش فى شئون الأنفار ، لأنه ، كما تقول أيضا ، من كثرة خوفه على صحة الأنفار وسلامتهم سيطلب من التفتيش أن يعطيهم مكانا يبيتون فيه · وقد أكدت تحرياتنا أن الخبر صحيح اذ اننا علمنا أن التفتيش أهدى للأنفار سراية كبيرة ينامون فيها بعد طول النوم فى العراء ولابد أن هذه جهود الحاج سليم · وبسؤالنا عن الميعاد المقرر لعودة الحاج سليم أفادت زوجته المذكورة بأن ذلك يخضع للظروف ··

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ·

ـ ٣ ـ

بلاغ ثان

حضرة جناب الحكومة الكائنة بنيابة كفر الشيخ ··

أشكركم وأقدم التحية لكم ولعظمتكم أفندم ·· وبعد فأنـا

« عمرو » الذى وقف أمامكم أيام السرقات بسبب مقتل « جمعه الحصاوى » ـ أحيط علم سيادتكم أننى بينما كنت أسير خلف حمار الكاتب قابلنى حمار آخر يحمل خرجا على ظهره ويسير وحيدا • وقال الكاتب : هو حمار ضل الطريق وفر من صاحبه فلا شأن لك به • أما أنا فقلت لنفسى يظهر أن صاحب الحمار يفعل مثلما تفعل الناس بين أعواد التيل • لكن الطريق طال والحمار بلا صاحب •• فجعلت بالى منه ، وأخذت أسوقه أمامى من غير أن يشعر الكاتب • كان الخرج منتفخا وساهيت الكاتب وتسلقت ظهر الحمار ونظرت بداخل الخرج ويالهول ما رأيت الخرج ملان بأكياس صغيرة مثل كف اليد ، كل كيس من قماش العبك مبطط ككف الحلاوة العلف ومرسوم عليه ثلاث سنابل ، وأكياس أخرى مبرومة كقمع السكر • وأخذت أفك عنها ورق السلفان فاذا هى عجينة نشبه لون الطمى الغامق وذات رائحة غريبة • ومددت يدى لآخذ قضمة أذوقها ، فانشرخت أذنى وطار الشرر من عينى ولم أدر الا والكرباج السودانى يلفع رقبتى • صرخت ووقعت على الأرض ، اذ أن الكرباج السودانى لا يمسكه الا الناظر بذات نفسه ـ لم أجد الكاتب ولا حماره فعرفت أنه حود مع الجزورين الى حوض البقمه ، وعرفت أن هذا الحمار مشى بى فى طريق آخر من غير ان آخذ بالى ، وكان أمامى رجل متقمط ببذلة مثل بذلة الناظر ، وكالخواجة يلبس البرنيطة وكنت أبكى والأرض تزيحنى عن نفسها ، وكنت أشعر أننى رأيت هذا الرجل من قبل • وكنت أريد أن أصدق أنه المندوب ، الذى اذا فاجأ التفتيش بزيارة اهتزت حيطان القصر ونبحت الحمير فوق السكك وهى تجرى بسرعة هنا وهناك لكى يصدق المندوب أن الكاتب والباشكاتب والناظر والباشخولى يباشرون العمل باخلاص ••

كان جسمى ينتظر الكرباج ويغلى براد الشاى ـ لكن الأفندى مد يده •• وعدلنى وشخط فى : اسمك ايه ؟ • قلت له اسمى ولكنه لم يراع خاطر الكاتب فصفعنى على وجهى • وحين

فتحت عيني تأكدت أنني والله العظيم يا سعادة البيه أرى وجه الحاج سليم الضبع مقاول الأنفار ٠٠ أي نعم هو ٠٠ أنا لست تائها عن وجهه ٠ أعرفه حتى ولو لبس فوق وجهه وجها آخر وتعجبت ٠٠ هل الحاج سليم رقى الى مندوب ؟ ٠ المهم أنني تأكدت من أنني أرى الحاج سليم بعينه والدليل على ذلك أنني في الحال لم أعد خائفا ٠٠ فمادام الرجل الذي أقف أمامه ليس من رجال التفتيش ، فلا داعي للخوف منه حتى لو كان الشيطان ٠ وأخذت عيني تتجرأ عليه حتى وجدته في غضب ، ثم أنه تهجم على يريد أن يضربني بالبونية في وجهي ، ثم أنه فعل حركة لا يمكن ان يفعلها المندوب أو أي أفندي محترم من أهل التفتيش ، حيث أنه أخرج لسانه وطواه تحت أسنانه وضغط عليه ، هذه حركة لم أر في حياتي أحدا يفعلها غير الحاج سليم حينما كان يهدد السواقين بالضرب ٠ ومثلها رايته يفعل مع السواقين زغدني في صدري بغيظ وقال لي : « مالك وحمير الناس ٠٠ امشي في حالك واياك أن تفعل هذه الفعلة مرة أخرى » ٠ ثم أشار بيده في الهواء وجعر ، فانشقت الأرض عن رجل غريب ، من الأغراب الذين يجيئون البلد كثيرا ، غجر وعربان وتمليه وراكبي حمير فوقها أخراج ، قال له : « خذ حمارك وامشي » ٠ فقال الرجل : « حاضر يا بيه » ، وما ان استدار ليمشي حتى رأيته يطير في الهواء كقحف الجريد ثم ينكفيء على بوزه فعرفت أن الشلوت قد وصله في الموعد المناسب ورأيته يسير وراء الحمار ببطء من غير أن يمتطيه ٠

استدار الأفندي ببذلته الوجيهة ومشى وراء الرجل الغريب في اتجاه السكة الزراعية ٠ أما أنا فرحت أجري بعيدا وقد نسيت السكك ، ولما تعبت من الجري رأيت فجأة أشياء تحدث : نفس ما يدور عند زيارة المندوب أو المفتش ٠٠ السكة صارت تشغي بالخولة والباشخولة ، وجاءني هاتف يقول لي أنهم جميعا يفعلون هكذا لكي يخدعونني ويصورون لي ظلما وعدوانا أن هذا الأفندي هو المندوب بنفسه ٠ على أنني لم أصدق ما يحدث ٠ وطلع في دماغي

كلام : هل يكون هذا الرجل يمثل على الباشكاتب أيضا ؟ • لكن زوجة الباشكاتب ظهرت في دماغي ، فتذكرت أن أي زائر للتفتيش لا يمكن أن يدخله من غير أن يسلم عليها أولا ويستمع منها الى كثير من الودودة ، التي يحبونها جميعا • وقلت لنفسي : اذا كان هذا هو المندوب أو المفتش فأين الكارتة التي يجيء بها تجرها الخيول ذات الأجراس ؟ ••

صرت أجرى نحو السراية لعلني أجد الكارتة موجودة هناك • لكنني وجدت بدلا منها « عبد السلام » باشخولي السراية يقف بين مجموعة من الخولة الخصوصيين يحدثهم عن الزيارة المفاجئه التي قام بها المندوب اليوم ، حيث جاء بلا كارتة وبلا حراس وبلا كافة شيء حتى يخفى نفسه ويفاجيء الأنفار في العمل • انسحبت من لساني وقلت : « يا جماعة ان هذا المندوب هو الحاج سليم بعينه ولا أحد غيره » • فانهال « عبد السلام » على نافوخي بالضرب ، وظل الباقون يضحكون ويسخرون ، وأنا من شدة غيظي أحلف لهم أنهم جميعا غافلون ، وأن عليهم أن يدققوا النظر في وجهه حتى يعرفوا من هو بالضبط •

لكن « عبد السـلام » اعتقلني وظل يضربني بقحف الجريد حتى مزق جسدي كله •• وفي النهاية أطلق سراجي ••

في صباح اليوم التالي جررت ساقي وذهبت الى العمل فوجدتهم يطردونني من السراية ويقولون انني مجنون ، بزمتك يابك هل أنا مجنون ؟ • أنا اليوم أتعرض للجوع بينما أعول أسرة كبيرة • انني أرجو من الحكومة أن تأخذ لي حقي من التفتيش لأننا جميعا عاجزون عن الكسب ، وحتى القرش الذي دفعناه للعرضحالجي مقابل كتابة هذه العريضة استبدلناه بثلاث بيضات من بيض دجاجتنا الوحيدة •

(•• هذا الولد كذاب يابيك فوالله ما دفع لي سوى بيضـة واحدة فقط رغم أنني أنا الذي نبهته الى كتـابة هذه العريضـة

ونقشبتهـا له لكى تنصفه الحـكومة ولم يكن هو يعرف شيئا من هذا) . ويابيك ربنا يخليك اعمل معروف ردلى الحمار من جديد حتى أستطيع الانفاق على أبى وأمى وأنا مستعد للانكار بأننى أكتب لهم ورقة وأختم عليها وأحلف على المصحف والبخارى أن من رأيته كان المندوب نفسه .. أدامكم الله ذخرا للغلابة ، ونصرا للمظلومين .. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ..

— ٤ —

بلاغ ثالث

السيد الفاضل وكيل النيابه . أقدم لكم اسمى آيات التحية وأعظم أشواق التقدير والاجلال . أما بعد أعرف سيادتكم أن الذى سرق حقيبة الحاج سليم هو شيخ البلد وقد فعل فعلته نكاية فى العمدة والأسطى فانوس لأن التنافس بينهما شديد يا حضرة الوكيل وكل منهم يريد أن يكون أكثر ثراء من الآخر . لكن الواقع أن العمدة ليس غنبا ولا يحزنون ، انما هكذا يتصورونه والصيت ولا الغنى . وبصفتى واحد من أهل البلد فاننى أفهم العمدة جيدا وأعرف انه لا يملك شروى نفير وأنه والحق يقـال رجل فى منتهى الأمانـة والشرف . أما سيخ البلد فاننى أستعين عليه بالله ، انه يسرق الكحل من العين وقد شاهدته بنفسى فى تلك الليلة المشئومة ينبه على شيخ الغفر بأن يترك الغفر يستريحون فى بيوتهم حيث أن الأنفار محبوسون فى الاسطبل فلما سمعت منه هذه المقولة يا سيادة الوكيل أحسست انه ينوى شرا ، خصوصا وانه من أسرة كبيرة فى الشر . وفى عز الليل رأيت بعينى هذه التى سيأكلها الدود مجموعة من الرجال تتسلل خارجة من بيت العمدة ومعها الحقيبة ، فظللت أتابعهم حتى رأيتهم يدخلون بيت شيخ البلد . ورغم ذلك كذبت

نفسى ولكننى بعد ذلك بأيام رأيت فى حديقة بيته قطعا متناثرة من الحقيبة • وعلمت من شخص يختلط بشيخ البلد من بيته انه قد دفن البضاعة فى بئر موجود فى حديقته وأنه يبيعها بالقطاعى لناس غرباء يحضرون الى بيته ويخرجون فى عز الليل ، والعمدة برىء كل البراءة يا سيادة الوكيل من دم هذه الحقيبة السوداء • فأرجو منكم أن تقبضوا على شيخ البلد وتشدوا عليه الخناق حتى يعترف وانى واثق انه سيعترف وحينئذ تظهر الحقيقة لكم واضحة جلية •• هذا ما لزم عرفناكم وتفضلوا فائق التحية •

مقدمة •• فاعل خير •

ـ ٥ ـ

ضحك « عمرو » لا يدرى « طلعت » لماذا ، وتقرفص فوق المذود الطويل وانحنى فوق ركية نار وراح ينفخ فيهـا ليسوى عليهـا سمكات اصطادها من المصرف خلسة • ثم اعتدل ومسـح دموعه وأنفـه ••

ـ تقول أن الأوراق التى معك فيها اسمى ؟

قال « طلعت » بحده •

ـ نعم اننى وجدتك فى هذه الأوراق •

قال « عمرو » وهو ينظر اليه بحب ••

اذا رأيت امرأة تشبه خالتك •• تقول هذه خالتى ؟

قال « طلعت » ••

ـ اذا رأيت امرأة تتكلم مثل خالتى وتشبهها فى كل شىء حتى فى اسمها وشغلتها فسأقول عليها خالتى •

ـ وماذا تقول على خالتك الأصلية أيضا ؟

ـ خالتى ‥ ويكون قد أصبح لى خالتان ‥

ضحك « عمرو » وقلب سمكة على وجهها الآخر ، وفتح حياشيمه فابتسمت هى الأخرى ‥

ـ لكن ‥ الرجل الذى فى هذه الأوراق اسمه « عمرو » ؟

ـ انه أنت قلت لك ٠

ـ لابد انه سيدنا ‥ سيدنا ‥ سيدنا ‥

ـ سيدنا من ؟ ! ‥

ـ ذلك الذى يذكرونه فى الكتب ، ويتحدث عنه فقيه الجامع ‥ ألا تعرفه ؟ ‥ كيف تروح المدرسة ولا تعرفه ؟ ‥ انه ذلك الذى كان من أعز أصحاب النبى ٠

هتف « طلعت » ‥

ـ تقصد « عمرو بن العاص » ‥ لقد أخذناه فى المدرسة ٠

ـ نعم هو ‥ لابد انه هو ‥

سرح « طلعت » برهة ثم هز رأسه وتاتا مؤكدا ‥

ـ لا يا عمرو ‥ ان الأوراق التى معى ليست من نوع خطبة الجمعة ‥ وعمرو الذى فيها حمار فى التفتيش ، وأرسل بلاغا كالذى تريد ان تكتبه ‥ وطرده التفتيش وضربه عبد السلام ‥ ان الدنيا كلها من طقطق لسلامو عليكم موجودة فى هذه الأوراق ٠

طقطقت أوراق الحطب وانتفضت السمكة فوق النار ، وتراقصت ظلال النار على وجه « عمرو » وزاغ بصره فى الهواء ومصمص بشفتيه ، وأخيرا هز يده وقال فى حيرة ‥ « عجايب » ٠ ثم اعتدل مطوحا كفه فى وجه « طلعت » ، ومثل رجل فى الستين قال :

ـ يا طلعت يا أخى ·· ماذا نحن حتى تكتب أسماؤنا فى الأوراق ؟ ·· ان الأسماء في هذه الدنيا كثيرة ·

لمع فى عينى « طلعت » بريق حلو ثم هتف ··

ـ طيب ·· مالهذه الأوراق والقضية التى أخذتكم الحكومة بجرائرها وأتت بكم جميعا الى هذا الاسطبل لتصبحوا أنفارا مثلنا وتصبحوا أيضا « غرابوه » ··

قاطعه « عمرو » ··

ـ أنفار نعم ·· « غرابوه » لأ ··

ثم اغتصب ضحكة ، وربت على كتف « طلعت » ليسترضيه ·

ـ انك طبعا لست من الغرابوه ·· انك صاحبى وأنا ابن البلد ·

فلم يهتم « طلعت » بل شوح فى فروغ بال ثم صاح :

ـ ملعون أب الغرابوه « كى تنبسط ·· لكننا الآن فى القضية ·

ـ قضية ماذا ؟ ··

ـ التى حكمت عليكم جميعا أن تصبحوا أنفارا وتنامون فى الأسطبل معنا ·

ـ اننا أنفار قبل القضية ·· ولكننا لم نكن « غرابوه » فى يوم ·

ـ انك تقول هذا ·· لكن جدى « مهيوب » وغيره ممن ها هنا يقولون ان النفر نفر ·· والنفر يعنى « غرباوى » ·

ـ تريد أن تزعلنى منك « يا طلعت » ؟ ·· اننا أصحاب فلماذا الغلط ؟ ·· أم لأنك تروح المدرسة وأنا لا أروح ؟ ··

اقترب منه « طلعت » واستعار لهجة جده (مهيوب) وهدوء حركاته واتفاق الحركة مع الصوت مع شدة الود والاخوة ، قال ..

ــ لماذا تجيء بسيرة المدرسة في الموضوع ؟ .. انني لا سمح الله لا أتباهى عليك بالمدرسة .. فماذا أخذته منها .. ان جدى يقول فى أمثاله .. « أصلك وقتك » .. وأنا الآن نفر .. وغرباوى .. ولا أزعل من هذه الكلمة .

قال « عمرو » وقد شعر أنه يحدث رجلا كبيرا ، وشعر أيضا انه لولا المدرسة ولولا فك الخط ما تكلم « طلعت » هكذا وهو أصغر منه ..

ــ يا طلعت .. انك تقول أن النفر يعنى غرباوى ..

ــ ماذا تقول للتفتيش ان جاء وقال لك .. الشغل غدا فى البلد الفلانية ؟ .. هز « عمرو » رأسه فى شيء كالأسف ، وقال ..

ــ معك حق يا طلعت .. اننى لن أقول للتفتيش شيئا .. فالتفتيش لن يسألنى .. وكانت رائحة الشياط قد تصاعدت من السمك ، فسحبها « عمرو » من ذيلها ورماها بسرعة وراح يضرب أصابعه فى بعضها لينسى وجع اللسع . وجاء صوت خشن من نهاية الاسطبل زاعقا .

ــ يا من تدعى « عمرو » .. ألا تريد أن تنام ؟

قال « عمرو » ..

ــ ومالك أنت ؟

قال الصوت الخشن ..

ــ اسكت يا أخي وجعت رؤوسنا أنت والولد التلميذ .

ثم راح يبرطم ..

ـ والله عال ·· نقلبها كتاب ·· طول النهـار تشقى وفى لليل تقرا سورة عبس ·· نم يا أخى ·· يا أخى نم ··

قال « عمرو » متضايقا ··

ـ اللهم اخزك ياشيطان ··

اقشعر بدن « طلعت » وقال مثل الكبار ··

ـ وحدوا الله يا جماعة ·· دعوا الليلة تفوت على خير ··

برز رأس شيخ الغفر من وسط الاسطبل وصاح نحو المدود ··

ـ تكلم يا جدع على كيفك ·· وهات معك من يتكلم ··

قال ذو الصوت الخشن :

ـ كيف ؟ ·· الا تريد أنت الآخر أن تنام ؟

ـ والله يا جدع لقد ضاع النوم من عينى ·

ـ وما ذنبنا نحن ؟

هكذا قال ذو الصوت الخشن ، فقال « شيخ الغفر » وهو ينهض جالسا :

ـ أمثلك لا تعرف لماذا يهرب النوم من عينى ؟ ··

ـ لا والله لا أعرف ·

ـ تبقى أذن حيوانا ·

ـ الله يسامحك يا عم ·· نحن تعودنا على قلة الأدب ·

ـ افهم يا حمار ·

ودلق فى صوته كثيرا من الود :

ـ ليس من صـوت بجانبى ·· لهذا لا أنام ·· لا صـوت يؤنسنى ·

ضحك « عمرو » وهو ينزع الجلد المحروق عن السمكة :

ـ هل أنت خائف يا شيخ الغفر ؟ .

ـ أى والله يا « عمرو » يا ولدى .. كل هؤلاء الناس يناموه لصقى .. وأخاف .. تتراءى لى أحلام مثل الزفت المغلى كلما أغمضت عينى .. مصيبة .. أحس اننى بلا رفيق فى هذه الدنيا .

مصمص « طلعت » بشفتيه متعجبا :

ـ كل هؤلاء الناس بجانبه ويحس أنه بلا رفيق فى هذه الدنيا .

وصفق ذو الصوت الخشن بيديه :

ـ هذا والله شيء لم نسمع به من قبل .. الناس تطلب الهدوء لتنام وشيخ الغفر يطلب دوشة الرأس .

ثم نهض جالسنا هو الآخر يدعك ساقيه وركبتيه فى ألم ويتأوه . وقال شيخ الغفر :

ـ ووالله لو أنك مرتاح البال لنمت .. لكنك انت أيضا بلا رفيق فى هذه الدنيا .. انما انت أصلك غرباوى وسخ .

تغاضى ذو الصوت الخشن عن « غرباوى وسخ » وابتسم لأن شيخ الغفر فهمه واعتبره مثله يمكن أن يكون له رفيق فى هذه الدنيا ، هو الذى ولدته أمه فى الترحيلة وتركته يتربى وحده فى الترحيلة . وبدا كأن كل هذه الرؤوس كانت تنتظر من يدعوها للكلام ، فارتفعت ، وارتفعت معها أصوات كثيرة تقرض العيش المقدد ، وتتكلم ، فلا تعرف ان كانت تتعارك أم تتبادل الود .

الارتحال وراء القاضي

« ما سفرى الا سفر الحميرى »
« يا سفر الجندى بلا خبيرى »
« غربتنا يا زمن غرارى »
« وسقيتنا بعد الحلا مرارى »
« يا مين يبشرنى على وليفى »
« طلع الجبل ولا سكن فى الريف »

ـ ١ ـ

صاح شيخ الغفر بعد أن لم يجد نوما كالعادة :

ـ اسمع يا شاطر ٠٠ انت يا ٠٠ أخ يا تلميذ ٠

ـ قل له يا ابن القاضى وهو يرد ٠

فانتبه « طلعت » ورفع وجهه عن الصفحات ونظر فى عمق الاسطبل ٠٠ كتل من الظلام تتماوج خلال ضوء مختنق ٠ رد أخيرا :

ـ ماذا ؟ ٠٠ من يناديني ؟

شوح « شيخ الغفر » نحوه صائحا :

ـ ما هذا الذى تمقق فيه عينيك ؟ قصة عنترة أم الهلالية ؟

فرد الباشخولى « عبد السلام » :

ـ سمعت التلميذ يقول لعمرو أن هذه القصة فيها لا أدرى ماذا ؟ ·

فقال « عمرو » :

ـ فيها عمرو بن العاص ·· وكلام كالذى نقوله هنا ·

نهض « شيخ الغفر » واخترق الأجساد حتى وصل الى المذود فاقتعده بجوار « عمرو » و « طلعت » وقال :

ـ اقرأ لنا يا عم ·· أسمعنا ·

وبدا لطلعت كأن أرض الاسطبل ترتفع وتصير فى محاذاة المذود المرتفع ، ورأى رؤوسا لا حصر لها تستعد للانصات · فارتعش قليلا وبلغ ريقه ثم اندفع يقرأ ·

فقرة لعلها مهمة

اقتطعنا هذه الفقرة من كتاب دليل العمد والمشايخ وللعاملين فى الأمن العام والضبطية تأليف الاميرالاى على حلمى مدير جرجا · ونهدف من ورائها الى أننا قد نستفيد مما ورد بها من تعريفات ·

صفات العمدة وشيخ البلد : أهم هذه الصفات التى يجب أن يمتاز بها هى ·

أولا : أن يلم بواجباته العديدة المفروضة عليه ·

ثانيا : أن يكون مطيعا لرؤسائه مخلصا فى عمله ·

ثالثا : أن يكون حافظا لكرامته وسمعته ·

رابعا : أن يكون نزيها ·

خامسا : أن يكون عادلا ٠٠

سادسا : أن يكون صادقا وأمينا ٠

سابعا : أن يتمسك بأهداف الفضيلة ومكارم الأخلاق ٠

ــ شيء يلخبط ٠

ــ فعلا يا شيخ الغفر ٠

ــ يا جدع قم لننم ٠٠ بلا وجع راس ٠٠ وراءنا شغل من صبيحة ربنا ٠

ونهض شيخ الغفر وابتعد الى حيث يفترش جراله بجانب المذود فى الركن البعيد ، ولم ينس أن يدوس ــ عامدا ــ على قدم ، وربما رقبة من انتهز فرصة غيابه عن مطرحه وتمدد على راحته ٠ وهنا ارتفعت الصرخات بدأت صرخة واهية ، فكأنها موجة سريعة تدافعت داخل الاسطبل ومست فى طريقها كل وجه ثم خمدت فى الحال ، وانتفضت الأجساد جالسة تدعك فى عيونها وتتوجس ٠ وكان « دياب » أول من صاح :

ــ اخز الشيطان يا طلعت ونم ٠

وتململ « الأعرج » وهمس فى أذن دياب :

ــ ماذا يفعل الولد الذى من بلدكم ؟

همس « دياب » :

ــ لا شيء ٠٠ لكنه سيثير لنا وجع الدماغ ٠

رفع « مهيوب » رأسه وصاح :

ــ نم يا طلعت ٠

ــ طيب يا جدى ٠

وقلب أوراقه على وجهها وسكت ناظرا فى الفراغ ، ونظر الباشخولى عبد السلام الى عمرو وابتسم ٠

ـ الى اين رحت يا عمرو ؟ ٠

رد بصوت مبحوح :

ـ حاجة تمخول يا خال عبد السلام ٠٠ طلعت يقول لى : فى هذه الأوراق كلاماً كالذى نقوله ٠٠ أقصد مثل موضوعنا ٠٠ قضيتنا ٠

شرد « عبد السلام » لبرهة ثم شوح بيده فى فروغ بال :

ـ كل قضايا الدنيا تشبه بعضها ٠٠ ومن يدقق يتعب ٠

حدثت قلقلة ٠ واقترب شبح الاعرج فنظروا اليه ٠ وما أن اقترب حتى انقضت يده على الأوراق ورفعت منها حزمة ٠٠ ثم استدار عائدا ٠ ومرت برهة حتى أفاق « طلعث » من ذهوله وصاح : « ايه ٠٠ الورق ٠ هات الورق يا خال أعرج ٠٠ أعمل معروف هاته » . ونظر الى « عبد السلام » و « عمرو » يستنجد بهما ٠ لكنهما لم يفعلا شيئا ، واكتفى « عبد السلام » بان صاح فى تريقه : « ماذا فعل الورق بك يا أعرج ؟ » ٠ فضحك الأعرج من بعيد وصاح : « سأقبض الخواجة » ، فاذا بضحكة عريضة تنفجر بين الأجساد المتمددة ، اذ أن قبض الخواجة عندهم معناه قضاء الحاجة ، ذلك أن الخواجة ظل يقبض منهم طوال السنين حتى لم يعد لديهم شئ يقبضونه له سوى خرائهم ٠ انقبض صدر « طلعت » حيث عرف فيهم ستستخدم هذه الأوراق قال الباشخولى وهو يضرب ركبتيه بكفه : يلزمك أوراق مادمت ستقبض الخواجة ٠٠ والله فكره ٠٠ أنا الآخر أريد ان أقبض الخواجة ٠٠ ولكن أين أقبضه : ٠٠ ليس فى الاسطبل مكان ٠٠ على كل حال ٠٠ ليس هذا بجديد علينا ٠٠ كانت الخيول والبهائم تقضى حاجتها واقفة فى نفس هذا المكان ٠٠ ونحن أيضا نفعل مثلها ٠٠ والله عجبتنى يا أعرج فى فكرة الورق هذه » ٠ وانقض على الأوراق فسحب هو الآخر حزمة ٠٠ فلم يستطع « طلعت » حبس دموعه ٠٠ فجمع ما تبقى من الأوراق ويرمها على شكل عامود ثم دفنها فى عبه وتمدد فى مكانه ٠٠ وفجأة امتلأ

الاسطبل بصوت ضراط ورائحة فســاء لا تطاق ، وكان ثمة من يقولون فى شىء كالتشفى :

- اقبض يا خواجة .. اقبض حتى تشبع .

- ٢ -

ربت « شيخ الغفر » على ظهر « طلعت » وسأله بلا مناسبة :

- هل صحيح أن أباك قاض ؟

تفصد العرق على جبين « طلعت » وارتعشت على شفتيه ابتسامة واهية ولم يعرف بماذا يجيب ، فهو ليس متأكدا من شىء . على أن الجد « مهيوب » رفع رأسه من قرب باب الاسطبل واعتدل جالسا وصاح فى الحال :

- نعم يا شيخ الغفر .. أبوه قاضى .. قاضى بحق وحقيق .

ونظر « شيخ الغفر » الى « طلعت » متفحصا ومصمص بشفتيه فى تحسر :

- وما الذى رماك على هذا المر ؟

فتصاعدت عشرات الأصوات كالكورس :

- الذى هو أمر .

بكرة الأصوات راحت تكر

- لا حول الله .

- من رأى بلوى غيره هانت عليه بلواه .

- الدنيا مليئة .

- اللهم لك ألف حمد وألف شكر .

ـ كده رضا ·· ان زادت عن كده تفسد ·

وكان « طلعت » قد راح يكره جده كره العمى ، وهم بأن يصرخ أن يضرب أحدا في وجهه ، أن يهيل على الاسطبل كل طوب الأرض · لكن الباشبخولى عبد السلام نهض هو الآخر واخترق الأجساد وجلس بجواره :

ـ تروح المدرسة يا ولدى ؟

جاء صوت الجد مهيوب في تفاخر :

ـ قلنا وسيأخذ الابتداوية بعد عام ·· قلنا مائة مرة ·

فزام صوت جهورى كأنه الكون كله · وساد الاسطبل صمت وقور ، مقصـود لذاته ، كالصمت الذى يخيم على سرادق الجناز فجأة حينما يظهر صـاحب الجناز قادما ·· برهة طويلة مضت ثم بدأت مصمصة الشفاه تتنقل في جنبات الاسطبل ·

فجأة اضطجعت العجوز التى سلقت شيخ الغفر ذات يوم ، ثم عادت فاعتدلت جالسة ورفعت كفيها في الهواء متمتمة بشيء لم يتبينه أحد ، فلما فرغت قالت :

ـ فكرتنى يا ولدى ·· الله يمسيه بالخير ·

اعتدل « مهيوب » وكان أول من هب جالسـا ملقيـا بصره تجاهها في انتباه شديد في حين رفع « طلعت » رأسه مسلما سمعه لفم العجوز ، التى قالت دون أن تشعر بهذا أو بذاك :

ـ لخايف ان يكون هو ·

ثم شهقت ·

ـ هو من ؟ ·

صوته فح بها ترددت له أصداء في أنحاء الاسطبل ·

ـ أأنت ابن القاضي ؟ .. اذن فأنت ابنه .. يا خرام .. شفت الزمن .

ـ انت من أى بلد يا وليه ؟

هكذا شب « مهيوب » سائلا فى ود .

ـ من صفط الملوك .

رفع ذراعه صائحا كأنه يبرئ نفسه فى ساحة محكمة :

ـ رحتها .. أقسم بالله العظيم رحتها .

رمقته العجوز فى تهكم حلو ، صانعة من كفها مظلة على عينيها .

ـ اذن فأنت ذهبت الى صفط الملوك .

ـ نعم والله يا خاله .

ـ معذورة أن تظل عافرة حتى الآن .

رعد الاسطبل بضحكات غير متحفظة ، انتهت بشخر وغنج شارك فيه حتى الجد مهيوب نفسه ، وقال بلهجة حكيمة :

ـ صدقت والله يا خاله .. وهل أنت تقولين فيها ؟ .. ان الخراب يحل بأقدامنا .. ومتى ذهبنا الى مكان وحل به رزق ؟ .. لقد عاشرتك سنوات الترحيلة يا أم عبده .. واجتمعنا سويا فى محطات الغربة الطويلة .. فما رأيت وجهك الصبوح فى يوم فى محطة غربة واصابنا رزق ..

فضحك عجائز الاسطبل ضحكة غير صاخبة ، وشوحت العجوز قائلة :

ـ ياه .. صرت الآن أبوكاتو .. ولو كنت فالحا ما ضاع منك القاضي .

قال الجد مهيوب مبتسما :

ـ لو كنت فالحا ما زوجتها منه أصلا ‥ لكنه النصيب ٠

وكان « طلعت » قد اعتدل ثم تقرفص مطرطقا أذنيه ٠

ـ لكنك لم تكملى يا خاله ٠

هكذا صاح ثم ارتبك وهبط ثانية فغاص بين كتفيه ٠ قالت العجوز :

ـ كل واحـد فى بلدنا يعرف القـاضى ‥ فهـو ابن ناس طيبين ‥ صرف عليه أبوه حتى علمه وعلا مراتبه ٠

هز الجد رأسه فى تأييد بات :

ـ نعم هذا صحيح ‥ قالوا لى هذا وأكدوه ‥ ثم ماذا ؟ ٠

ـ كانوا دائما يقولون : الوفد الوفد الوفد ٠

ـ من هم ؟

ـ أهله وهو يمشون فى البلد يزعقون : الوفد الوفد ٠

زام « مهيوب » ٠ صاح شيخ الغفر :

ـ تقصد الولية أن القاضى كان وفديا ‥ فى حزب الوفد يعنى ٠

أضاف الباشخولى عبد السلام :

ـ أبا عن جد ٠

ردت العجوز :

ـ ما أعرف ‥ لكنه كان دائما يخطب مثل فقيه الجامع ‥ ويلتف الناس حوله على الجسور وعند النواصى ‥ وفى منـادر الذين يدعونه لذلك ‥ ولما صار قاضيا تزوج ابنة الباشا ٠

ضرب « مهيوب » رأسه بكفه صائحا فى ألم مشروخ :

ـ قالوا لى هذا ‥ صحيح ‥ انه من الكبار فى البلد ما قلت فى هذا شيئا والا ما زوجته حبة عينى ٠

ـ فلما تزوج ابنة الباشا ... صار باشا .

ـ باشا .. صار باشا ؟ .

هكذا جعر « مهيوب » وانتفض « طلعت » من أعماقه وراحت أنفاسه تتسلق الوجوه والصدور والأكتاف حواليه .

ـ سعادة الباشا راح سعادة الباشا جاء .. من يومها وقف عن الكلام .. لا خطب ولا جسور ولا نواصي ولا : الوفد الوفد الوفد .. وقبلها كانوا يقولون في البلد : حضرة القاضي سيجيء بماسورة للمصرف ، سيجعل الحكومة تبنى جمعية فى البلد لتشد حيل الفلاح ، سيوظف الولد فلان والولد علان .. والحق لله ما رأيت مواسير ولا جمعيات ولا استوظف من أهل البلدة أحدا .

ضحك الاسطبل ضحكة خافتة قالوا بها الكثير . وتمخطت العجوز فى طرف جنبابهـا وظلت ساكتة ، فقال شيخ الغفر بعصبية :

ـ انطقى يا وليه .. قولى .. انت مسليه

ـ كانت نسوان عائلته يقلن بينما يتعوجن ويتقصعن : حضرة القاضي لم يعد يتكلم فى البلد .. نعم .. ليس خوفا من أحد .. انه بدلا من أن يتكلم فى هذه البلد الكحيانة راح يتكلم هناك .. فى وجه بلكونة مولانا الملك .. شفت كهن النسوان .

قال « دياب » فجأة بعد نوم طال أمده :

ـ أصلها بلد العميان بلدتكم هذه يا خاله .

ـ أصلها بلد الملوك يا روح أمك .

هكذا صفعته العجوز فى الحال . وراح صوت دياب يتسلق صخب الضحك :

ـ صفط الملوك .. ها .. بلدة تتمسح فى الملوك وأهلها جميعا تمليه سل هل .

ـ افهم يا عبيط ·· بلد التملية هذه أمك ما طالتها ·· ما كان لمثل أمك أن تطولها ·· ولذا فهي قد انجبتك على أكوام السباخ فى عشش الصفيح التى أنت منها ·

ـ ناسها لا يتخيرون عنك والله يا خاله ·

ـ مع كل فبلدتنا هـذه ·· اسمع ما أقوله لك ·· بلد الملوك ·· أن تعيش فيها لابد لك من ملك ترتديه فوق ثيابك أو تحت ثيابك وقت اللزوم ·· كل واحد بفلوسه وعزوته يشترى ملكا على قده ليتحزم عليه ويطلق منه النار على من لا يعجبه ·

ـ ومن لا يستطيع شراء ملك ؟

ـ يجىء هنا ويؤانسنا في الاسطبل ·

ـ ألا يستطيع الواحد أن يربى له ملكا وليدا ·· يشترى له البرسيم أو يدرج به على القنيان ؟ وفي النهاية يذبحه ؟ ··

كان ذلك هو « عبد السلام » وارتفع الضجيج ، وصاح شيخ الغفر فيمن حوله وقد بدا على وجهه انه يفتعل المرح :

ـ لى مزاج ان تكمل الولية ما تقول ·· دمها خفيف على قلبى هذه الولية ·

ـ أى والله يا شيخ الغفر ·· دمها خفيف على قلبى أيضا ولكن آه لو تسكتوا ·

هكذا قال « طلعت » بصوت عال ·

ـ أكملى يا ولية ·· هيه ·· ثم ماذا ؟ ·· أقصد ·· كلمينا عن القاضى ·

ـ يهمك القاضى يا شيخ الغفر ؟

ـ يهمنا كلنا والله يا خاله ·

ـ والله يا أخى انتم ما يهمكم شىء فى الدنيا

ـ لماذا يا خاله ؟ ·· نحن ناس ·

ـ تقول الجد ؟ .. أنتم ناس ؟ .. لم أكن أعرف .

ـ نحن ناس مثلك بالضبط والله .

ـ الله يسخطك .. عصا من اذن تلك التي شرخت ظهورنا ؟

.. عصاتك يا شيخ الغفر أم عصا الشيطان ؟ .

ـ عصا الشيطان والله يا خاله .. الله يجازيه .

كان هذا الأخير هو عبد السلام .

ـ وانت أيضا تتكلم ؟ أين كرباجك ؟ .. نسيته ؟ .. اننا لم ننسه بعد .. أم أنكم نسيتموه يا أولاد ؟

غمغمة وزئيط مضغوم .

ـ عبيد كلكم . لكن لا ياباشخولى ، هذه الضهور كلها ، أنا معك أنها أغلظ من جلد الجاموس . فمن طول ما انهال عليها من عصى وكرابيج وشلاليت وقحوف نخيل أصبحت لا تفرق بين لسع اللهب المحرق .. انما لا .. تعال اكشف أمامى ظهر أحدنا .. ستری حبالا غليظة من الدم الأزرق النيله ، تلتف حول ظهورنا مبرومة ومجدولة .. أستطيع أن أفكها حبلا حبلا .. وحينئذ تراها فتلا رفيعه .. أقول لك أن هذه الفتلة هی طرف کرباجك يوم دخولنا الاسطبل ، وهذه الفتلة هى بوصة شيخ الغفر يوم كان اللصوص يتهموننا بالسرقة . وهذه الفتلة هى خيرزانة الكاتب يوم لم تضحك له البنت الملايه ، وهذه وهذه .. فكيف تكون مثلنا يا شيخ الغفر ؟ ..

ـ مثلكم والله يا خاله وأقل منكم .. ها أنا وحضرة الباشخولى معكم فى الاسطبل لا أحد أحسن من أحد .

ـ كيف يا ولد .. كيف تكون مثلنا وظهرك ليست كظهورنا أبدا .. أنت وأمثالك حديثو عهد بانحناء الظهور .. ورقابكم فقط هى التى تعودت على الانحناء أمام أسيادكم حتى انكسرت ..

ـ هذه الولية زودتها ٠

ـ دعها يا عبد السلام ٠٠ والله لقد انكسرت نفوسنا وصرنا مضحكه ٠٠

انها نتكلم الحق فدعها تضربنا بالبلغه ٠٠

ـ لسانها يطول علينا يا شيخ الغفر ٠٠ لا يصح هذا ٠٠ امرأة « عرباوية » كهذه لا يصح أن تهزىء الواحد منا ٠٠ نحن أولاد بلد ولنا مراكزنا ٠٠

انفجرت العجوز ضاحكة ، وكانت جميع العيون المحيطة بها تنظر فى فمها الخرب فلا تعرف أن كان هذا الصوت الجهورى يخرج منه أم من فوهة بركان ٠٠

ـ لا أحد فى هذه البلدة له مركز ٠٠ افهم هـذا ٠٠ حتى أولئك « المحاريس » الذين كانوا يعطونكم المركز هم أنفسهملا مركز لهم ٠٠ افهم يا قليب أمك ٠

اعتدل الباشخولى جالسا فى تحفز ٠٠ لكن تحفزه سرعـان ما باخ وسلبت حرارته بفعل الضحكات التى شـارك فيها حتى شيخ الغفر زميله فى المحنة ٠ اثنان لم يشـاركا فى الضـحك : « طلعت » و « عمرو » اذ راح كل منهما ينظر فى الآخر كان بينهما كلام غامض وشىء مجهول يثير لديهما قلقا مشتركا ٠٠

ـ هذه المرأة لن « تجيبها البر » ٠٠ لقد بدأ لسانها يطول على التفتيش أيضا ٠٠

وأشار الباشخولى بأصبعه نحوها كأنه يرشد البوليس عنها ٠٠

التفتيش سيدك أنت يا روح أمك ٠٠ أما أنا فليس له عندى احم ولا دستور ٠٠ عمرى الآن تسعون عاما بالتمام ٠٠ أضيعت قواى كلها فى أرض الوسية ٠٠ وأعطيت أولادى كلهم ـ وكلهم

رجال ـ للسلطة ·· السلطة أخذت من كل امرأة ولدا وأخذت منى قبيلة ·· حفروا المصارف وشقوا الترع وبنوا الكبارى ·· وفى الآخر شربت أرض السويس دماءهم فصارت قناة تمر المراكب فيها ·· كلهم ماتوا فى السخرة ·· فماذا أخذت السلطة من أبيك ؟ ·· انها أعطتك ·· أعطتك عصا وأمرتك أن تضرب من ليس فى يدهم عصى ·· سلمناكم ظهورنا لكيلا تضربوننا على بطوننا ·· أنتم أيضا كنتم تعطون ظهوركم لأهل الوسية ·· انما نحن ، ان مالت ظهورنا فرقابنا مرفوعة ، لأنها ما مالت الا للبذر والسقيا ·· أما أنتم فأعطيتم الظهور بينما الرقاب منكسة ·· ويعلم الله ماذا يفعل الواقفون خلف ذوى الرقاب المنكسة ·

انتفض الباشخولى عبد السلام معتزما الذهاب اليها لتأديبها ·· لكن شيخ الغفر تشبث بذيل ثوبه مذكرا اياه بفضيحة سابقة ·· فتقرفص عبد السلام وهو يتلمظ وينفخ ابتسمت العجوز ·

ـ تفترى علينا حتى وأنت هنا ·· ماذا تنتظر أن يفعل الله بك أكثر من هذا ؟ ··

صفق كفا على كف فى حيرة :

ـ والله ما أعرف كيف أتصرف مع هذه الحرباء التى لا تستحى ·

ـ الحرباء لا تستحى من كلب مثلك يهز ذيله كثيرا ·

فانتفض قائما وداس غير عابىء بتحذير شيخ الغفر ، وما يدرى الا ودياب يقبض على ذراعه ، ويدفعه دفعة صغيرة بعيدة الى مكانه فى لمح البصر ، فنظر اليه الباشخولى فى غيظ وتهديد ، فرفع « دياب » قبضته فى الهواء وهزها بعدوانية شديدة ·· فنكس الباشخولى رأسه فى الأرض وسكت ·· فرجع « دياب » الى مكانه يبرطم بألفاظ غامضة انهاها صائحا :

ـ تكلمى يا ولية على كيفك ·· لا يهمك من أحد انك فى عمر جدتنا ·· ولك الحق فى ان تقولى ما تشائين ·· نعم ·· فى الاسطبل تفعل ما تشاء ولا نخاف من أحد ·· طول النهار نشوف الذل من الخوله والباشخوله والكاتب ومن الشمس أيضا ··

خيم على الاسطبل صمت قصير لكنه عميق ·· صاح « طلعت » ··

ـ والنبى يا خاله ·· لم تقولى لى : ما اسم هذا القاضى ؟

فصاح « مهيوب » :

ـ صحيح ·· لم تقولى ما اسمه ؟

ـ اللهم صلى وسلم عليك يا نبى ·· اسمه : خالد الشباسى ·

ثم تثاءبت ··

ـ خالد الشباسى ؟ ··

ـ خالد الشباسى ؟ ··

ـ خالد الشباسى ؟

هكذا انتقل الاسم بين ثلاثة ، ما ان تجاوزهم رنين الاسم حتى نظروا الى بعضهم من بعيد كأنهم يتعرفون على بعضهم من جديد : الجد مهيوب وعبد السلام وشيخ الغفر · هتف « طلعت » فى جذل :

ـ تعرفه يا عم ؟ ·· هه ·· تعرفه ؟

لكن شيخ الغفر سرح بعينيه بعيدا : هه ··

هتف الجد « مهيوب » :

ـ انك تخرفين يا وليه ·· هذا ليس اسمه ·

انت أدرى ·

ـ قلت لك ليس اسمه ·

ـ انت حر ٠

ثم شوحت العجوز ٠٠

ـ يجوز أنه قاض آخر ٠

قال مهيوب ، لكنه أدار أصابع يمناه حول أذنه علامة الالتباس ، ثم صاح فجأة :

ـ طب شكله ايه ؟

رمقته العجوز على بعد :

ـ ليس طويلا ولا قصيرا ٠٠

ـ تلتين ٠٠ مضبوط ٠

ـ وجهه قمحي اللون ٠٠ لكنه يحمر حين يغضب وحين ٠٠

ـ يضحك ٠٠ مضبوط ٠

ـ في لسانه لدغه ٠٠ و ٠٠٠

ـ بس ٠٠

ثم وقف رافعا يديه :

ـ هو ٠٠ عرفته من لسانه ٠٠

وتنهد خافضا صوته في ألم :

ـ فهل يعقل أن يكون له اسمين ؟

ـ يجوز ٠٠

ـ لا ٠

ـ لعله نصاب ٠٠

ـ لا ٠

ـ هناك من يحمل اسمين ٠٠

ـ لا ٠

ـ فلان الفلانى وشهرته ..
ـ لا .
ـ اذن فأنت نسيت اسمه .
ـ كيف ؟ .. صغير أنا ؟ .. يتساقط لعابى على صدرى ؟

دب يده في صدره ، وجعل يرفع خرقة وراء خرقة ، حتى تسللت كفه الى الداخل وراحت تبحث وتبحث وعضـــلات وجهه تتقلص وتتقلص وتنعقد وتزحف التجاعيد من صــــدغيه وجبهته فتخفى عينيه ، ثم خرجت الكف ممسكة بحافظة من الجلد بدت على البعد ثمينة رغم قدمها الشديد . فتحها وأخرج ورقة مطوية ففتحها ثم فك منها ورقة أخرى راح يفردها :

ـ هذه قسيمة الزواج .

.. وقربها من عينيه :

ـ لم أذهب الى مدرسة أو كتاب .. ولكن هـــذه القسيمة علمتنى فك الخط .. أليسوا يقولون : كثرة الحزن تعلم البكاء ؟ .. نعم .. أنا كنت أجرى وراء لقمة العيش .. وصرت أجرى وراء الاثنين فى مشوار واحد .. وكانوا جميعا حين أفرغ من سؤالهم يقولون . من ؟ .. فكان على أن أفتح القسيمة مرات ومرات لأقرأ لهم الاسم والعنوان .. وكان لابد أن أكون عارفا ومتأكدا أننى أنطق الحرف الصحيح .. غير هذا كان لابد أن أعرف وأتأكد بنفسى ما الذى احتفظت به القسيمة لابنتى من حقوق رقبتها ..

ثم انتبه ، فسكت ، وراح يدقق النظر فى القسيمة وصـــاح واضعا اصبعه على الاسم :

ـ هـــذا هو « فريد أبو الشوارب » .. اســـمه هكذا .. « فريد أبو الشوارب » ..

كأن ثعبانا متسللا قرص الباشخولى « عبد السلام » فصاح أى .. آه .. ثم شرد برهة ، وردد :

ـ هذا الاسم ليس غريبا على ·· لكن ·· أمعقول أن يكون هو ؟

انتبه اليه أكثر من وجه ، خاصة وجه « شيخ الغفر » ووجه « عمرو » الذى راح ينقل البصر فيما بين شيخ الغفر والباشخولى ، فى حين كان « طلعت » ينتفض بشدة ، وكان « دياب » هو الآخر قد ظهر عليه الانتباه وراح يتابع ، ثم ان رؤوسا كثيرة تقاربت من بعضها ، منحية بعض الأجساد جانبا ·· فبدت كالأطراف المعنية · فجأة قال شيخ الغفر :

ـ هذه الولية شحططت رأسي وراءها ·· منك لله يا شيخه ·

ونطق « عمرو » بلهجة ذات معنى :

ـ الكلام يجر بعضه ··

وهتف الجد مهيوب :

ـ اسمعى يا خاله ·· منذ متى لم ترين القاضى ؟

ـ من عمر هذا الولد ··

وأشارت نحو « طلعت » · فانبرى « عبد السلام » بسرعة :

ـ ما سمعت عنه شيئا تحكينه لنا ؟

ـ أختى « حمده » تشتغل فى دارهم ·· وقبل هذه الترحيلة كنت فى البلد ، وجاءت سيرته ، فقالت أختى « حمده » : الطلبه قتلوه ··

أولاد المدارس يعنى ·· وأبوه قال : ابنى طلق العاهرة ابنة الباشا ·· يقول أصلها كانت عشيقة الملك ·· ويقول أبوه ابنى خائف من الملك والملك خائف منه ·· واختى « حمده » قالت فى أذنى : القاضى دخل السجن لأنه كان ، فيما يقولون يهدد الملك بالقتل ·

فشمل الاسطبل سكون عميق ، ثم تثاءب عبد السلام وعوى مثل الكلب حين يقال انه شاهد عزرائيل ·

- ٣ -

.. تقاربت الرؤوس . انتصبت الآذان . لكن الباشخولى « عبد السلام » ظل ساكنا لبرهة ران خلالها صمت متحفز مشحون . وكان شيخ الغفر يبدو مستعدا لفتح دماغ من يشوش عليهم هذه اللحظة ، عاقدا حاجبيه مركزا البصر فى فم الباشخولى كأنه يسمع بعينيه لا بأذنيه . وتمتم الباشخولى :

ـ من أول ما بدأنا نحكي عنه كأن لسانى يتحرك لأقول : هو الذى أعرفه . لكن لما رأيته ، في المرة الثانية ، قلت : يا عبد السلام هذا هو القاضى الذى كنت رأيته فى المحكمة وأنت واقف في القفص . في الحق لم أتأكد . أصله كان يجلس ووجهه للناس وأرى وجهه من الجنب فقط لأننى كنت في القفص وكان الأبوكاتو ـ الله يلعنه ويلعن أبوه ـ يدوش الدماغ ، يخبط على الترابيزه وعلى كفه ويصرخ ، ولم أفهم من كلامه شيئا ، لكنه كان يشير بأصبعه نحوى أنا وشيخ الغفر وعمرو وأهل البلد الأبرياء وكل الذين يقفون معى فى القفص ، انما كنت متأكدا انه يقول علينا اننا لصوص واننا نمص الدم من العروق واننا سرقنا عرق الأنفار فى الليل من وراء العمدة ، وكان القاضى ينشال وينحط ويغتاظ وينقر على الخشبة ويقول له : « يا أستاذ ان العمدة والأعيان كانوا يحتفلون بمقاول الأنفار والسهرة شغاله ودخان الحشيش يعبق البلد ولابد أنهم كانوا سعداء بشىء دخل جيوبهم » . فكنت أفرح بالقاضى لما يقول هذا الكلام ، فانظر اليه فلا أرى الا أذنه وصدغه والشعر الأبيض وسلك النظارة يغوص بينه ، وفجأة يرفع الأبوكاتو صوته ويشير نحونا ويقول ان الله أمر بشنقنا .. شغلنى ابن الكلب عن رؤية وجه القاضى يومها . ولما خرجنا من المحكمة بضمان العمدة والعمدة بضمان التفتيش أحببت القاضى وجعلت أتذكر شكله فلم أستطع ..

والله ما أعرف الآن ان كان هو قاضي المحكمة أو غيره ·· لكن العمدة بعت يطلبنى فى الليـــل · ولولا أن اثنين من الغفر جاء يطلبانني لما ذهبت ولا اعتبرت هذا العمدة الملعون · ليس من عادة العمدة أن يقول لأحد : أقعد — بل الويل لمن لا يقف عند مروره أو لا ينزل عن حماره ان كان أحدهما مقبلا نحو الآخر · انما هو فى تلك الليلة قال لى : أقعد يا عبد السلام · أقــول لكم الحق جلست · جاء خادمه — وهو غفير لا يعرف الدرك ولا حمل البنادق — ووضع الشاى أمامى ، نفس الصينية بأكوابها التى لا تخرج الا للأكابر · وبنفسه راح يصب لى الشاى فى الكوب وبزبوز البراض يصب فى دماغى أفكارا غامقة مثل صبغة اليود فقلت لنفسى اللهم اجعله خيرا · كنت أعرف من الأول أننى — كما قال لى الأبوكاتو والقاضى — شاهد اثبات · ولما سألت : يعنى ماذا شاهد اثبات ؟ · قالوا لى ·· « يعنى أنت الذى رأيت الأنفار وهى تسرق · مع أننى لم أقل هذا ، ولم أر الأنفار يسرقون أكثر من خيارة أو حزمة فجل · ولما صرخت بهذا زغدنى الباشـكاتب فى جنبى يومهـــا وقال : يا ضلالى ·· كل سنة نجىء بك لتبصم على هذا ·· أنت باشخولى السراى وكنت تبصم على أقوالك كلما حدثت السرقات ، وتشهد على أن الأنفار لصوص أولاد كلب سل مل هذه هى مهنة باشخولى السراى على الدوام ·· فهل ترجع فى أقوالك ! لو امرأة ما رجعت فى كلامها ·· لولا أنه جلبابى الوحيد لكنت شققته حتى الذيل ، انما اكتفيت بقولى : « يا حضرة الباشكاتب انك كنت تنادينى من أى مكان لكى أبصم ·· وتقول لى أبصم فكل المشتغلين فى السراى لابد أن يبصموا على المحضر ·· وكنت تقول لى بينما هم يصبغون أصبعى بالقلم الكوبيـــا : « ألست مسروقا أيضـــا ! انك من التفتيش ، وسرقة التفتيش يعني سرقتك » · فما كان من الباشكاتب ساعتها الا أنه صار يصفعنى ويضربنى بالشلوت فى حجرة الطلمبة وحدنا ويقول لى : « الجلسة فى الغد ، وأنت طول عمرك تشهد نفس الشهادة فكن رجلا واثبت على مبدئك والا حبستك المحكمة

وقلت انك نصاب ٠٠ لابد أن تقول أن الأنفار خرجوا من الاسطبل في عز الليل وهجموا على دار العمدة وسرقوا حقيبة الحاج سليم وهربوا ٠٠ فان قال لك القاضي كيف وأنت يا باشخولى أغلقت عليهم الباب بالقفل ! ٠ تقول : لقد خرجوا من بين سقف الجملون ٠٠ فان قال لك القاضي وكيف رأيتهم وتركتهم ؟ ٠٠ تقول : لقد جروا فأطلقت النار عليهم لكنها لم تصبهم ولم أستطع اللحاق بهم » ٠ قلت له يا حضرة الباشكاتب تريدنى أن أشهد زورا ؟ فشخرلى ، أى والله لقد شخر هذا الكحكوح فما نطقت ، فشد أصبعي وصبغه بالقلم الكوبيا ثم لصقه على ورقة بيضاء وقال : « هذه الورقة البيضاء هي أقوالك ٠٠ واذا غيرت فى أقوالك أمام القاضي تشهد عليك هذه الورقة » ٠ فلما طوى بصمتي ووضعها فى جيبه ابتسم وقال : « صرت الآن رجلا بحق وللتفتيش أن يجعل باله منك ويعوضك » ٠ وأظن أنه قال أيضا : « وحين يعلم المقاول سوف يعوضك » ٠ وجاءت الجلسة وقلت أمام القاضي ما قاله لى حضرة الباشكاتب ٠٠ فصاح الأبوكاتو : « شريكهم ٠٠ لقد والس على الأنفار ولابد انه أخذ حقه منهم » ٠ صرت أنظر الى حضرة الباشكاتب فلم أجده فى الجلسة ، فرحت أصرخ وأقول : « مظلوم والله ٠٠ حضرة الباشكاتب هو الذى قال لى هذا » ٠٠ فصار القاضي يضحك والناس كلهم يضحكون ٠

لفت الأيام والمحكمة لم تطلبنا ، لذا خفت حين طلبنى العمدة لوحدى ، وخفت أكثر لما رحب بى ، وخفت أكثر وأكثر لما صب لى الشاى بنفسه وقال : « تفضل ياسى عبد السلام » سى عبد السلام ٠٠ ذلك احترام ليس من ورائه خير ٠ شربت شفطة وقلت :« خير يا حضرة العمدة ؟ » ٠ فأشعل سيجارته وأعطاني علبة دخانه كي ألف لى سيجارة ٠ يا للمصيبة ماذا فى الأمر ؟ قال : « يا عبد السلام انى أقصدك فى خدمة » ٠ أقصدك ؟ وخدمة ؟ من أكون يا حضرة العمدة حتي تقصدنى فى خدمة ؟ ابتسم وقال :

« انت رجل ولا كل الرجال يا عبد السلام لكن الظروف لا تنولك » ٠ ربنا يخليك يا حضرة العمدة هذه شهادة لا تقدر بثمن ٠ قال : « أصل الحكاية انني وثقت فيك من دون الناس كلها ٠٠ حتى الغفر ٠ وهم لا يعرفون شيئا عن الموضوع الذى سأكلمك فيه الآن » ٠ قلت في نفسى لابد أنه ينوى شرا بحضرة الباشكاتب أو حضرة الناظر أو بواحدة من الزوجتين المعبتين ويريد أن يسألنى عن سر من الأسرار ، ثم جعلت أفكر في شيء يستحق أن أقوله ولا يعرفه الا واحد مثل دهس فى قلب التفتيش ، لكنه قال : جاءنى الليلة فى السر ضيف لا أحد يعلم بمجيئه غير الغفير الذى استقبله بالركوبة عند المحطة ٠٠ أما غفيرى فهو على ضمانتى ولسانه فى محفظتى وأما أنت فثقتى فيــك كبيرة » قلت له رقبتى فداءك يا حضرة العمدة وسرك فى بئر مظلم ٠ هز رأسه وقال : « عيب ٠٠ أتعرفنى بك يا عبد السلام ؟ ٠٠ لكن ما علينا ٠٠ هذا الضيف عزيز على مثل عينى ٠٠ وهو يريد أن يصل الى بلدة قريبة ها هنا بيننا وبينها فركة كعب ٠٠ اسمها الحصة ٠٠ وطبعا ٠٠ لا يصح ٠٠ أن أتركه يذهب الى هذه البلدة وحده فى عز الليل ٠٠ كما أن غفيرى لا يصلح لتوصيله » ٠

دماغى لف يا جدعان ٠ الغفير الذى قابله لا يعجز عن توصيله لكن العمدة قال : « الرجل أصله من كبار القوم ومقامه أعلى مما يتصور خيالك ولا يريد ان يجلب لى وجع الدماغ فى البلد » ٠ طيب ، أحكمت ان يسافر الليلة ؟ ٠ قال وهو يقرب فمه من أذنى : « سعادة البيك له أقارب فى هذه البلدة لم يروه من سنين طويلة ولأسباب يعلمها الله يريد أن يزورهم فى السر ٠٠ يقولون أنهــا زوجته ٠٠ ويقولون ــ بينى وبينك ــ انها امرأة يعشقها وتعشقه وأنهــا فلاحة فقيرة » ٠ فرأيتنى أكره الرجل وقلت لنفسى والله ما يستحق التوصيل مثل هذا الفلاتى ٠ واذا بالعمدة يمسكنى من اليد التى توجعنى ٠ قال وهو يميل على أذنى ثانية : خل بالك ٠٠ خدمة الناس لا تضيع هدرا ٠٠ قدم السبت تجد الأحد قدامك ٠٠

أتفهم ؟ ·· أنت في بلوى ·· قضية ومحكمة ·· هذا الرجل اذا انبسط منك سيخدمك ·· سينجيك من هذه القضية » · قلت له أيقدر حقا يا حضرة العمدة ؟ فرجع بظهره مشسوحا فى وجهى : « انه المحكمة نفسها · اذا قال لجدرانها قومى من مطرحك تقوم فى الحال » · فجعلت أهرش في قفاى ولم أتكلم ·

الا والرجل يدخل علينا · طول بعرض كفرعون ، البدلة السوداء والطربوش والشعر الأبيض حول أذنيه وسلك النظارة الذهب يغوص فيه ، وتلك العقدة المفرشحة التى يعقدها الأفندية حول رقابهم ، والعصا الأبنوس فى يده ، وفى اليد الأخرى شنطة من الجلد مثل شنطة المحضر والصراف والكاشف · قال وهو يشد سلسلة الساعة من جيب فوق سرته ثم ينظر فى الساعة الذهب » « الوقت خلاص يا عمدة سيطلع علينا الفجر فى الطريق » هب العمدة واقفا وأنا قبله · وظللت أرتعش اذ أن الرجل كان ينظر الى · قال العمدة : « خلاص يا سعادة البيك ·· هذا الرجل المحترم سوف يوصلك ·· انه مثل أخى وأكثر ·· فلا يكن عندك أى شاغل من ناحيته » · نظر الرجل الى ثانية وابتسم وهز رأسه والعمدة يقول : « هذا هو خالد بك فريد أعز أصحابى فلا تتركه الا حين يأمرك ·· مفهوم ؟ · فهززت رأسى وقلت ·· مفهوم · ومشى الرجل فمشينا وراءه · وحين رأيت صدغه وسلك النظارة الذهبى والشعر الأبيض حلفت بالطلاق أنى رأيته من قبل ، ولم يطلع من بالى ، وصرت أتذكر وأتذكر ··

ظلت الركوبة تمشى طويلا داخل جنينة العمدة وأنا أترنح خلفها ويغرزنى الظلام فى طين الأرض المروية حتى طلعنا على الطريق الزراعى بين أشجار الجزورين فخلصت قدمى من الطين وفتحت صدرى للهواء فتبختر الرهوان · من حسن حظى طلع القمر ، فصرت أجرى وأجرى أريد – بس – ان أنظر فى وجه الرجل لأتأكد من شكله ، لكن الرهوان يسبقنى فلا أرى الا صدغيه من هنا مرة ومن هنا أخرى · قال فجأة : « اقترب الفجر يا عبد السلام » ·

شهقت ، وحلفت بالطلاق مرة ثانية أن الذى يقول يا عبد السلام هكذا هو الرجل القاضى فى المحكمة ، وصوته ليس غريبا على ٠ قلت : « الفجر بعيد يا سعادة البيك » ٠ قال ٠ « أنت وفدى أم دستورى أم سعدى ؟ » ٠ ففرحت لأنه كلمنى هكـذا ، ثم اننى ضحكت ، فعاد يقول ٠٠ « اوعى ماتكونش وفدى » ثم ابتسم ٠ فجريت بجانبه ثم كشفت ذراعى وقلت : « أنا هذا يا سعادة البيك » ، وجعلت أرفع سمانة ذراعى نحو عينيه ليرى ٠ فاذا به يوقف الركوبه ويدقق النظر فى سمانة ذراعى ثم ينظر فى وجهى نظرة لم ينظرها أحد فى وجهى سوى حضرة القاضى فى المحكمة أول مرة وقفت فيها أمامه ٠٠ أشعل عود كبريت وأمسك بسمانة ذراعى وصار ينظر فيها ووجهه يضىء بالفرح ثم أطفأ العود وقال لى وهو يبتسم : « تعرف هذا الرجل الذى ترسمه على ذراعك يا عبد السلام ؟ » ٠ قلت : « طبعا يا سعادة البيك ٠٠ انه سعد ٠٠ سعد زغلول : ٠ فصار الرجل يربت على كتفى مثل أبى ، ثم أخرج محفظته وأعطانى جنيها بحاله حتى صرت أرقص من الفرح ٠

ولقيتنى أسأله : « عدم المؤاخذة ياسعادة البيك ٠٠ حضرتك من نواحينا ؟ ٠ عدم المؤاخذة فأنا أريد أن أتشرف » ٠ هز رأسه وقال : نعم ياعبد السلام أنا من هذه المديرية وبلدتى فى الأصـل هـذه التى تختبىء فى سعف النخيل ولا يبين منها سوى طـرف المئـذنة ٠٠ أرض العـائلة زحفت عليها أرض الوسية وابتلعتهـا ٠٠ طبعا يا عبد السـلام أنت تعرف أن الملكة نازلى لما تزوجت الملك فؤاد أبوها صبح عليها بهـذه المديرية كلهـا ٠ نعـم ٠٠ فى صباحية فرحهـا كانت المقتلة دائرة فى بلدتنـا ٠٠ أبـى واخـوتى وأعمـامى ، بالفئـوس والـكريكات والشـوم والبلط والسـكاكين ٠٠ وغفـر التفتيش والهجـانة والعسـاكر السوارى بالبنادق والكرابيج والعصى ٠٠ مـات من اخوتى من مـات وجـرح من أعمامى من جرح فلم نحزن الما أكلتنا الحسرة على عمى الذى دخلوا عليه الدار وطعنوه بالخنجر وهـو يصلى فمـات راكعـا

فحلفنا جميعا الا نركع لغير الله ·· وقاتلنا حتى جاءت الدنيا كلها لتحكم ، وجاء المفتش ودفع الدية ودفع ما قال انه ثمن الأرض ولكننا لم نسكت · فأعطونا بدلا منها أرضا فى مديرية أخرى من أراضى طرح البحر كلفتنا الجلد والسقط » ·

ذاك ما قاله الرجل والله يا اخوان · قلت فى نفسى والله ما يكون هذا الرجل فلاتيا أبدا · وقلت له : « ياسعادة البيك العمدة يقول أنك عدم المؤاخذة ·· لك هنيا ناس ·· أظنها امرأة أو ·· » · فلم يتركنى أكمل ، وقال : ان كان على الزوجة فانا لي زوجة هنا فى بلدة صغيرة فى نفس المديرية سوف أذهب اليها بعد أن أنتهي من هذا المشوار » · والرجل حكى أشياء كثيرة لست أذكرها كلها · أظنه قال : اسمع يا عبد السلام ·· ألم تعرفوا بعد من الذى سرق عرق الانفار ؟ · لا أعرف من أين جاءتني هذه الشجاعة ، قلت في الحال : « مقاول الانفار ياسعادة البيك » · ابتسم الرجل ، لا أظنه ضحك بصوت عال ، وقال : « كيف حكمت بهذا ياعبد السلام ؟» · فقلت : « والله يا سعادة البيك ما يستطيع أن يفعلها غيره ، وعلى فكره ياسعادة البيك ، هذا المقاول وضع عند العمدة حقيبة فارغة ، وكان يعرف انها ستسرق ، فلما سرقت زعم ان بها عرق الأنفار » · فاذا بالرجل يحتضن الحقيبة التى معه بخوف ، واذا به يضحك ، ويقول : « اقتربت من الحقيقة ولكن ربما يكون ناظر الوسية هو الذى سرق » · وقف شعرى والله يا اخوان ، ناظر الوسية ؟ انه صحيح يوالس مع المقاول ، يأخذ نصف المقاولة ويقبل من المقاول أنفارا لا تنفع ولا تشفع ، لكن كيف يسرق حقيبة كهذه ؟ ·· قال الرجل وهو يشير الى حقيبته : « سوف يتضح كل شيء عمن قريب » · صرت أنا أنظر الى الحقيبة التى معه وأتعجب لماذا أشار اليها ؟ وكنت أريد أن اساله وتحرك لساني بالفعل ، ولكن ···

ومصمص « عبد السلام » بشفته وسكت ··

ـ لكن ماذا ؟

هكذا ارتفع الصياح من حوله ، حتى أنه انزعج ، وصـــار يتلفت حواليه في خوف ٠٠

ـ لكن ماذا ٠٠ أكمل ٠٠

اعتدل « عبد السلام » وشرد بصره وزاغ :

ـ فجـأة وجدناهم يقبلون نحـونا من بعيد ٠ كانوا ثلاثة ٠ وكانوا يركبون الخيل ٠

قلت في نفسي : لابد أنها دورية الليل ٠ وقلت هذا للرجل ٠ فلم يبد عليه الخوف مثلي ، بل انه ضحك ضحكة قصيرة وقال : « دع كل واحد وشأنه » ٠ فما كان مني الا أنني التصقت بالحمار لاحتمى به ٠ ثم اتضح أنها تشبه دورية الليل ولكن بعلم الله ان كانت هي حقـا أم هي دورية أخـرى ، الا أنهـم صاحوا قائلين : « قف مكانك » ٠ فلم نقف ٠ فصاحوا ثانية : » قلنا قف مكانك » ٠ فلم نسمع كلامهم ، والحمـار الملعون صـار يبرطع من الخوف ، وما أدري الا والرصاص ينطلق مارا من فوق رأسي بالضبط ، فقلت جاءك الموت يا تارك الصلاة واخذت أهر ٠ وكان الرجل يصـيح بي : « أوقف هذا الحمار » ، وكان يرفع يده الى أعلى ، والحمار الملعون لا يريد التوقف ٠ هب ٠٠ خطوة والثانية صار الخيل فوق رؤوسنا ٠ رأيت وجوههم ٠ كانت وجوها مجرمه ٠ فوقعت من طولي وادعيت الموت ٠ أما هم فأمسكوا بالحمار ، وصاح كبيرهم : « أتعبتنا يا رجل ٠٠ نحن نبحث عنك من مدة طويلة وأنت هارب من العدالة ٠٠ الحمد لله أنك وقعت في أيدينا » ٠ وضحك الرجـل بصوت عال حتى كاد يقع من فوق الحمار وقال : « أنا ؟ ٠٠ أنا يا أخ أنت وهو لست هاربا من العدالة ٠٠ أنا هارب من أجـل العدالة وأنتم الصادقون » ٠ فقال كبيرهم بتهكم : « ومن أنت ان شاء الله ؟ » ٠ فقلت في نفسي : والله ما هذه ألفاظ الدورية أبدا ، انها ألفاظ من بلدتنا وأصواتهـا أيضا أكاد اعرفها وان كانت

متنكرة في زى أفندية · وقال الرجل : « أنا العدالة ، نفسها يا أخ انت وهو ·· وسفرى الليلة من أجل العدالة ·· معى قضية سوف أقرأها في بلدتى على مهل وأكتب الحكم فيها على رواقه » · صرخ كبيرهم كأنه ناظر الوسية بالضبط : « لا نأكل من هذا الكلام ·· قل لنا من أنت أحسن لك » أخرج الرجل من جيبه أوراقا مدها نحوهم ـ رأيتهم ـ وأنا ممدد على الأرض أبربش بعينيى ـ يتلهفون على جذب المحفظة التى يخرج منها الأوراق · فلما ـ رأيهم منشغلين صرت أزحف حتى انقلبت في المصرف الجاف واختفيت بين أعواد البوص ، وسمعتهم يتصايحون بكلام لم أفهمه وصار صياحهم يبتعد عن أذنى شيئا فشيئا ولكننى لم أخرج من البوص الا حين خرج الصبح من بوابة الفجر · ومن يومها لم أعرف ماذا حدث ، وحتى العمدة لم يسألنى عن شيء بعد ذلك ، بل انه عاد من جديد لا يعرفنى ولا يحترمنى ··

شوح بذراعه في الهواء علامة على انه لم يعد عنده كلام · ولكن الصمت ظل مطبقا لبرهة بدت طويلة ··

وزام « شيخ الغفر » زومة طويلة عميقة ، ثم مال على « طلعت » وقال كأنما ليحاول نسيان الأمر برمته :

ـ لقد نسيناك يا ولدى ·· أرنا الآن ماذا تقرأ ·· وكيف تقرأ ··

فبدأ كأن الاسطبل ترتفع أرضه ، لتصير في محاذاة المدود المرتفع · وكانت رؤوس كثيرة مستعدة للانصات بشغف · وراح ·· « طلعت » يقرأ في طلاقة لم يكن عرفها من قبل أبدا خاصة في حصص المطالعة ··

● الفصل التاسع ●

جنون التفاصيل

« أقسمت عليك أيها السم السموم
« ان كنت في الدم تخرج الى اللحم »
« وان كنت في اللحم تخرج الى العضم »
« وان كنت في العضم تخرج الى الجلد »
« وان كنت في الجلد تخرج الى الشعر »
» وان كنت في الشعر تخرج الى الهوا »
« بحق من هو على العرش استوى »

(تعزيمة تلقى على الملدوغ)

أظن انه قد آن الأوان لأن أنفجر ، ولكن على طريقتى الخاصة أو بمعنى أصح بقياس مهنتى : أكتب تقريرى ٠ أنا وكيل النائب العام الذى رزىء بمهمة التحقيق فى هذه القضية الخرافية الواقعية المجنونة العاقلة ٠

فى الواقع اننى لم أعد أعرف بالضبط أن كان ما حدث قد حدث بالفعل أم انه مجرد كابوس ثقيل الوطأة ٠ ومصدر الدهشة ليس فى أن ما حدث قد حدث فى قرية من قرى مصر ، فهو بالنسبة الى ما حدث من قبل وما قد يحدث من بعد شيء عادى

تماما ويحدث كل يوم ، ولـكن مصدر الدهشة حقا ، وما أصاب توازنى من صدع حاد هو أن يكون هـذا الذى حدث واقعا قائمـا فى قرية مصرية على شمال الدلتا وسـط برية من براريها ، وفى سنة ١٩٥٠ على وجـه التحديد ، حيث تموج البـلاد بتيـارات سياسية وثقافيـة متعـددة ، وحيث قطعت البلاد شوطا هائلا فى الدنو من الحضارة الغربية المعاصرة ، حيث تتأهب البلاد لقفـزة تنقض بها على قلب العدو فتخلص منه خلاص الابد ، وحيث قـد توهم مثقفو هذه البلدة أنهم يقودون شعبا واسع الوعى والنطاق .. وحيث كنت أنـا نفسى أتوهم أن أبنـاء بلدتى من الفلاحـين والتجار والحرفيين قد صاروا على وشك الوثوب على مقود الأمـور فى هذه البلاد .. اذا بى فجأة أرانى أخوض فى الخرافة خوضـا أكتشف قرية مصرية لم يصل الى علمها بعد أن البلد لم يعـد فيهـا سلاطين ، وأن ملكا اسمه فؤاد قد توفاه الله وحـل محـله ابن لـه يدعى فاروق ، ولم يصل الى علمها بعـد أن نظام جبـاة الضرائب قد انقرض ، ولم يعد هناك ما يسمى « بالكاشف » الذى يحصـل الاتاوة لأفنديها . انهم قبيلة من البشر تجمد بهـا الزمن تماما ، حتى أنك وأنت تدخل بين أهلها وتتسرب الى نفوسهم يخيـل اليك أنك تتخبط فى كهف طوله بلا نهاية وضيقه ضيق القبـر . لهم أب واحد وصحبة واحدة ، أمـا أبوهم المقـدس فهـو زعيمنـا الخالد « سعد زغلول » هو ذلك الأب الذى ألقيت على عاتقه مهمة الخـلاص لهم من كـرباج الزمن الاعمى .. من مصـاصى الدمـاء الغرباء وأذيالهم ومخالبهم الكامنة بين ظهرانيهـم ، ومن أجـدر منه بالقيام بهذه المهمة ؟ ان ايمانهم بقدرته فائق الحـد ، ايمـان بعمق مأساتهم ، وتحميله شاهق الامنيـات . ولهـذا فمـا أشد مـرارة المأسـاة فى حلوقهم . وما أبشع الشعور بالفجيعة ، لقـد قالها سعد .. « لافائدة » ، ولم يكتف بقولهـا . بل قالهـا ومات . فانهارت بذلك كل آمالهم ، وتهـاوى كل نجم مضىء فى الافق ، وصرت تراهم بلا مزاج وبلا رغبـة فى المعـرفة وحتى بلا رغبـة فى

اقامة الجسور بينهم وبين كافة الأفندية . فكل الأفندية في نظرهم أبناء المدينة الكافرة ، وكلهم ينتمون الى الحكومة وكل ما ينتمي الى الحكومة من قريب أو بعيد ليس أهلا للثقة بأي مقياس انه عدو لدود غير انه مفروض على الواحد منهم أن يعتبره صديقا ماذا والا ، وما الداعي لدوشة الدماغ ؟ ليكن صديقا ، وقد قالوا للكنيسة اسلمي فقالت أسلم ولكن ما في القلب في القلب ، ويا أيها الأفندي المبجل اذا ما استقبلك أهل هذه البلدة استقبالا حافلا مهيبا ، واذا ما صفقوا لك تصفيقا مدويا وهتفت حناجرهم في الثناء بذكرك فلا تظنن انك قد صرت في القلب منهم وامتلكت النواصي .. ، لا .. رويدك وخفف من غلوائك فلعلك لم تخط من نفوسهم خطوة واحدة ، بل انني أقول لك : كلما بولغ في تبجيلك عليك بالتوقف فورا لمراجعة نفسك لأن هذا معناه شيء من اثنين لا ثالث لهما ..

اما اتقاء لشرك واما اعتلاء لظهرك بكل سلاسة المكر الأصيل .

وأما الصحبة التي كانت تجمع هذه القرية أو هذه القبيلة فكانت تسمى «الوفد» أؤكد لك أنك اذا حاولت معرفة أبعاد الوفد كحزب سياسي في نظرهم فلن تصل الى شيء ذي بال ، ولكنك ستجد انهم اختاروا هذا الاسم رمزا لتجمعهم على مؤازرة الأب والانضواء تحت لوائه .

أعرف أنه ليس من حقي أن أكتب هذا الكلام هنا ، فليس هذا مجاله . والمطلوب مني أن أكتب تقريرا أو مذكرة قانونية بما انتهت اليه هذه القضية الشديدة التعقيد لشدة بساطتها . ولكن من لي بعقل قوي يستطيع استيعاب هذا الواقع ويظل فوقه . ان الانسان حين يصطدم بواقع كهذا لابد ان يتساءل : كيف ظل هذا الواقع قائما حتى الآن ؟ .. ؛ ومن المسئول عن ذلك ؟ .. لا شك أن هناك من يستفيد من بقاء هذا الواقع على ما هو

عليه . فهو لا يمكن ان يكون نبتا شيطانيا ، كرقعة عريضة من الحلفاء في وسط صحراء قاحله ، بل ان الشيطاني حقا هو تلك القوة العاتية التي ظلت مسيطرة على هذا الواقع كل هذا الدهر فحولته الى دهاء ، وأقامت حوله سورا كالذى يقام حول حديقة الحيوانات غير أنها هنا حيوانات منتجة ·

ليعتبر المشرع هذا الكلام لغوا ، ليشطبه ان أراد ، ليشطبني أنا نفسي من سجلات الميرى ، ولكنني لابد أن أسجل هنا أنني فشلت في أن أكون قانونيا في نظرتي وسلوكي ، ذلك أنني فشلت في فهم أبعاد هذه القوى الشيطانية العاتية التي تكمن خلف هذا الواقع والتي كدت أمسكها بيدى مسكا ، والتي كنت أحس بما يقرب من اليقين أنني ريشة في يدها ، وانني سخرت أيضا لخدمة أغراضها ، وأن دائرة التحقيق كلما توسعت امتد ضوؤها الى أماد شاهقة ويجد الجد حتى يصير هزلا ، ويتصاعد الهزل حتى يعانق الجد ، وفي اللحظة التي يناوشك فيها اليقين بأن الأمر يجرى بصورة عفوية تماما ، يداهمك اليقين فجأة بأن الامر محكم غاية الاحكام ، وأن هذه العفوية نفسها مجرد قشرة لكنها سميكة كقشرة الأرض تحتاج الى حفار آلى قوى اذا أردت الوصول الى نبع المياه في جوفها ·

تقرير :

انتقلنا في مساء اليوم التالي لوصول هذه العريضة السالفة الذكر ، ومعنا تصريح من النائب العام بتفتيش بيت شيخ البلد وحديقته : أخضعنا البيت كله لتفتيش دقيق ، وبدون شوشرة في الأول ، كانت الرغبة في معرفة التفاصيل قد وصلت بي الى حد الجنون ، حتى خيل الى أن كل شيء تقع عليه عيني أو تسمعه أذني لابد يحتوى على تفاصيل غامضة لو كشفت عنها لاتضحت حقائق غير التي نعرفها عنها · وأحس أنني تحولت الى أعين

لا حصر لهـا ترقب وتراقب ولا تمل ولا تكل وليس ببعيـــد أن يصيبنى جنون حقيقى ان لم يكن قد أصابني بالفعل ·

أدهشنا أن وجدنا البئر المشار اليه فى العريضة المثبتة موجودا بالفعل غير أنه كان خاليا من كل شىء سـوى الفراغ · كان مغطى بصخرة عريضة مربعـة لكنها متليسة بطبقة من الطـين مغـروس فيها بعض الحشائش المصفره ، الا أن الصخرة حينمـا تغطى البئر تلتصق بقشرة الأرض التصـاقا تامـا حتى يصـبح من الصـعوبة اكتشاف علائم تدل على أن هنا فتحة بئر · ولو ترك الأمر لخبرتنا التفتيشية لعجزت كل العجز عن اكتشاف موضع البئر · وممـا أثار دهشتنا حقا ان شيخ البلد (هو يسـير خلفنا حاملا المصـباح بنفسه قال :

ــ لعلكم تبحثون عن البئر ؟ ·

فأحسست بمحاولاتي تبوخ · قلت له :

ــ طبعا نبحث عن البئر ·· فأين هو ؟

تقدم بضـع خطوات ، صاح آمرا أحـد الأولاد بأن يرفـع الصخرة · ففعل · هبطنا جميعا الى الأرض بواسطة سلم مبنى نميل برءوسنا داخـــل البئر وشيخ البلد يغوص بالمصـــباح فى جوفه ليرينا عمق ما فيه من فراغ · خليـط من الروائح النفـــاذة يتصاعد من البئر تشى بأن البئر يستخدم فى تخزين أشـياء كثـيرة ومتنوعة · رحت اتلفت حوالى مداريا سخريتى من نتيجة التحقيق إبتسم شيخ البلد وقال أن هذا البئر يجر عليه كثيرا من المتاعب ولهذا فهو ليس عبيطا حتى يخزن فيه شيئا هاما ، فضلا عن أن يضع فيه شيئا كالذى « فى رءوسنا » · ولم نكن قد أشرنا له بعد عما فى رءوسنا · فصحت فيه :

ــ ماذا تعنى بما فى رءوسنا ؟ ··

ابتسم كثعلت عجوز مـراوغ ·· قال مشـــوحا بذراعه في الهـواء :

ـ أي شيء يا بيك ··

صرخت فيه امرا اياه أن يكف عن المـراوغة ويجيء صريحـا معتدلا · رسم على وجهـه سـذاجة بريئة ، قـال في مسـكنه :

ـ يابيك انكم لم تجيئوا هنا من الباب للطاق ، ولم تحضروا أيضا للفسحة أو للتفرج على بئر أثرى كهذا ·· فلابد أن البئر ليس هدفكم وحـده ·· شيء معين في جوف البئر قيـل لحضرتكم انه موجود ، فجئتم تبحثون عنه ·· أليس كذلك بالذمة يابيك ؟ ·· هه هه ·· شرفتم والله يابيك ·· عودوا كي تأخـذوا الشـاى قبل أن يبرد ·

نظرت اليه في غضب وحقد · أضاف :

ـ أما هذا الشيء الذى تبحثون عنه فلا أعرفه أبدا ·· وسبق أن قلت هذا من قبل ·· ثق في شخصي يابيك فأنـا لست صغيرا ثم إنني لست من الرعاع ··

وكان لابد أن أسأله عن قصة هذا البئر والحكمة من انشائه · في اللحظة التى أوشكت فيها على النطق بالسـؤال اقترب شيخ البلد مني وقـال بلهجة الهمس رغم علو صـوته أن هذا البئر من الموروثات الهامة بالنسبة للعائلة ، مثل البيت والاطيان والحديقـة بل ولقب العائلة نفسها ·· فهو يدل ـ فيما يزعم ـ على عراقـة مـا ، وعلى أن العائلة كانت تتميز بامكانيات خاصة · وأضـاف بينمـا يتمخط ويمسح فمـه وذقنه بطرف كمه الواسع ، أن ردم هـذا البئر جريمة كبرى في حق العائلة وهو ليس بمجنون حتى يفكر فيها لأنه اذا ردمه فمعنى ذلك انه ـ ببساطة ـ يردم اســم العـائلة ·

دخلنا المندرة ، دار حول نفسه في فراغها وصفق كفا على كف ، قال وقد أحسست أن صوته أفلت منه :

ـ منه لله العمدة ٠٠ شكوته للذى لا يغفل ولا ينام ٠٠ لكن باذن الله ربنا سينتقم منه ٠

واستدار الينا ثانية وبدا أنه تذكر وجودنا ٠٠ أشار الى الكنب قائلا ٠٠

ـ تفضلوا يابيك لتستريحوا ٠٠

كنا بالحق متعبين ٠ جلسنا ٠ جاءنى احساس بأن سبه للعمدة على هذا النحو أمر يجب أن يبحث جيدا ٠ انتهزت فرصة شروده فربت على كتفه وقلت ٠٠

ـ هون عليك ٠٠ ربنا كبير ٠٠

قال بلهجة جهيره :

ـ معلو ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ م

ثم تناول صينية الشاى وقدمها لى ٠ أخذت كوبا وأومأت لمن معى الا يمانعوا في شرب الشاى ٠ قلت بلهجة ودية خالصة :

ـ ماله العمدة ٠٠ عامل فيك ايه ؟

انطلق يسب العمدة سبا صريحا غليظا ومغيظا الأمر الذى جعلنى أتراجع بظهرى لأستريح قليلا :

ـ لابد أن في الأمر شيئا يغضبك على هذا النحو

صمت قليلا ٠٠ اندفع فجأة وبلا تمهيد :

ـ تصور يابيك ٠٠ هذا الرجل ٠٠ بـ ٠٠ يتهمنى بسرقة الحقيبة ؟ ٠

ـ كيف يا شيخ البلد ؟

ـ هذا ما حدث

ـ هل لديه دليل على ما يقول ؟

ـ أتحــداه ..

ـ فكيف اذن يتهمك ؟

ـ رجل لا يستحي .. نعم .. هو رجل لا يستحي وكفى

ـ لكن لابد أن هناك سببا دفعه لهذا الاتهام .

ـ مجنون يا بيك .. هذا كل ما فى الأمر .

ـ وكيف بلغك أنه يتهمك ؟

ـ فى الأول سمعت الخبر من بعض الناس .. كذبته .. وبقيت على الود والزمالة فى الحكومة .. وفى ليلة .. فوجئت به يصارحنى .. يسألنى ان كنت بالفعل قد تصرفت فى الحقيبة من خلف ظهره ..

ـ هل كانت الحقيبة فى بيتك أم فى بيته ؟

ـ كانت فى بيته هو .. فى حجرة الكرار .

ـ فكيف اذن يتسنى لك حرية التصرف فيها ؟

ـ أنك يا بيك لا تدرى . .عدم المؤاخذة .. كم هـو خبيث ولئيم .. لقـد ظـن أننى .. على حسب قوله .. أردت حمـــاية الحقيبة فأرسلت فى السر من يقوم بنقلها من بيته الى بيتى ..

ـ ولماذا فى السر ؟

ـ حتى لا يعارضنى ..

ـ هـل كانت مســألة اخفائها أو حمايتها أمرا مطروحـــا بينكما :

ارتبك قليلا · اصفر لونه · بلع ريقه · تلعثم :

ـ هه ·· ا ·· آه · انه يفترض هذا ·· أو · لا أدرى ·

ـ وما الحكمة في أن تهتم بها لدرجة أن تفكر في نقلها الى بيتك ؟

ـ لم أنقلها والله يا بيك ·

ـ اقصد حسبما يقول العمدة ·

ـ انه يقول الكثير ·· يخرف كما يشاء ··

ـ لكن لابد أنك كنت مهتما بأمرها ··

ارتبك ثانية · شفط من الشاى رشفة قال بعدها :

ـ أرجو أن يعجبك الشاى ·

ـ ممتع يا شيخ البلد ·

ـ بالهناء والشفاء ·· أخشى أن يصد نفسكم عن العشاء ·

ـ عشاء ماذا ؟

ـ عم قليل ينتهى الأولاد من تجهيزه ·· أسرعوا يا أولاد

فكرت فى الاعتراض ، لكننى أحجمت · فأنا فى الواقع لم أعد وكيلا للنائب العام ، على الأقل فى هذه اللحظة ، أنا رجل جن بالبحث عن التفاصيل بأى ثمن ، لقد شاءت ظروف العمل أن تضع رأسى برأسها فتوصلنى ـ وانا لم اتجاوز ابجدية العمل ـ فى قضية كهذه ليست فحسب معقدة بل هى فى نظرى تصلح للفرجة أكثر مما تدعو للتحقيق · قد يكون قولى هذا دليلا على عجزى من الناحية العملية ، أو دليلا على سذاجتى كشاب لم تضعه الحياة فى تجربة خشنة من قبل ، ولكن المهم أننى صادق مع نفسى ولا يعنينى ان كان تقريرى هذا فى صيغة قانونية أم همجية ، انما الذى يعنينى بحق هو أننى اجرب

محـاولة الوصـول الى الحقيقة بأسلوبى الخـاص ، غير مرتدثوب النيابة وان كنت أحتمى بدرعها ٠

خلعت حذائى وتربعت فوق الكنبة فانبسط شيخ البلد غاية الانبساط ٠ بدأت أتحدث فى كثير من الأشياء التافهه ، عن صعوبة الحياة ، عن الأحزاب ، عن التفتيش ، الملك ، أفندينا ، الضرائب الباهظة ٠ بل وأطريت ذوق شيخ البلد فى اختيار جلبابه وامتدحت صوفته الانجليزى ٠ وحدثنى هو عن حضرة المأمور وما تفعله بهم زياراته الليلية المتكررة والمفاجئة ٠ وكان المأمور قد ميل على الكنبة المجاورة وارتفع شخيره فجأة مثل نلاطم السحب فى يـوم شتوى عاصف ٠ ونظر اليه شيخ البلد وابتسم ومال على كأنه يختصنى بشرف عظيم ، قال :

ـ يدوخنـا والله ياسعادة البيك ٠٠ يحضر فى الفارغـة والملانه ٠٠ وأحيانا بلا سبب واضح ٠٠ الا أننا نكشف فى آخـر الزيارة أن الكسكسى قد وحشه خصوصا مع البط المحمر فى السمن ٠٠ ثم راح يحدثنى عن زوجة الناظر التى تحـكم التفتيش وزوجة الباشكاتب التى تحكم البلد ٠ وقال أن هاتين السيدتين همـا كل شىء فى هذه الناحية كلها ولا سلطة تقف أمامهما فى المديرية ٠٠

السبع ورقات المنجيات

الورقة الأولى :

جاءت الطبلية العريضة وتقرفصت أمامنا ، ثم تبعتها صينية نحاسية ٠ أعرض منها ٠ توالى دخول وخروج رهط من الرجـال كل يعمل شيئا ٠ كان ثمة « ريس » لهؤلاء جميعا ، أخذ يلقى الأوامر لهذا وذاك ، ويختصر طريق القادمين بالأطباق فيأخذها عنهم ويضعها

بعناية • كانت طقوس الوليمة جديرة بأن تحظى بانتباهى ، لولا أن هذا الـ « زيس » شغلنى بكثرة النظرات الموجهة الى ، فلقد أحسست أنه يتصيد عينى ليركز البصر فيها بشكل بالغ الاصرار والالحاح ، وكلما وجه ملاحظة الى حامل طبق أعقبها بنظره الى كأنه يرينى مدى اهتمامه بى وبشهيتى •

رأيت أن أبدأ معه حوارا ما • طلبت منه ان يدعو رجالنا للمجىء من خارج الحجرة والجلوس معنا فنحن جميعا واحد • ورجالنا الذين قصدتهم ليسوا سوى شرطيين ومخبر سرى ، وكانوا قد تخلفوا عند دخولنا المندرة تحرجا من الجلوس فى حضرة وكيل النيابة والمأمور وضابط المباحث فى غرفة واحدة • الا أن الرجل نظر الى نظرة أولاد ليل فاجرة ، ثم صاح قائلا مع هزة من يده :

ـ لاتحمل هم الرجال يابيك • فلهم طعامهم •• ثم انك صدقت فى أننا جميعا واحد •• تعجبنى والله ياسعادة البيك •

لم أسترح لمنظره أو لهجته • قدرت أنه يستهدفنى لسبب ما • ولربما أراد أن يبلغنى شيئا ولذا فهو يقوم بتوسيع الطريق الى • قررت بينى وبين نفسى أن أعطيه الفرصة ولكن دون أن أكون البادىء بها جهرا • قال شيخ البلد :

ـ تفضلوا يا أسيادى

ثم نظر الى المأمور ، ونظر الى برجاء أن أتولى ايقاظه ، ففعلت ، ورغم أنه كان جسدا ميتا لاحراك فيه يتصاعد منه فحيح أجوف مصحوب بقلاقل رعدية الا أننى ما كدت أشرع فى ايقاظه حتى رأيته ـ ولا أدرى كيف ـ قد تربع أمام الصينية قبل ان أتأهب أنا للسير نحوها • حينئذ رمقنى شيخ البلد بنظرة ساخرة أرغمتنى على الضحك بصوت عال ••

تحلقنا الصينية • شمر شيخ البلد ذراعه وضرب يده عدة

ضربات هنا وهناك أفسد بها الأشياء فى الأطباق ـ اشارة للكرم ـ ثم حركها تجاهنا ، ثم قال بلهجة بدت لحظتها كايقـاع موسيقى ثابت فيما بينهما على الدوام :

ـ بايدك ياحضرة المأمور

شمر المأمور ذراعيـــه ، دب يديه فى الأوزة الكبيرة المحمرة ونزل فيها تفسيخا وتفصيصا حتى خلص لحمها من العظام بدربة فائقة ثم هز يديه بحركة من ينفضها من المسئولية ويعلن أن كل واحد مسئول عن الكمية التى يحتاجها ·· ثم نشطت الملاعق كسيوف تنطلق من قلعة حصينة ·

فى الحق كان من الطريف أن أستمتع بمشاهدة هذه العمليـة التى يقودها المأمور فى استبسال كبير · لكن الرجل الذى يحوم حولى ويحاول أن يحكم السيطرة على انتباهى أرغمنى على مد جسر جوى بالغ السرية فيما بيننا · وكنت جائعا ، الا أن منظر المأمور وهو يبدو كمن ينتقم من عدو مجهول ، ومتابعة شيخ البلد له فى انتباه جعلنى أحس فجأة بفقدان الشهية ·

نهضت واقفا · فى لمح البصر فقفز الرجل أمامى فى فـرح صبيانى ووضع الفوطة على كتفى وتقدمنى قائلا :

ـ تفضل يابيك ·

مضيت خلفه حتى نهاية المندره · وصلنا الى ركن قصى مجاور للباب حيث يوضع الطشت والابريق · انحنى الرجـــل متنـاولا الابريق · وانحنيت فتناولت الصابونة · راح يصب الماء على يدى فى احتراس شديد · أخذت أتلكأ حتى أعطيه فرصـة لمحادثتى · فوجئت بأنفاسه تقترب من رقبتى ، ثم بصوته يسرخ داخل أذنى :

ـ انك طيب يابيك وابن حلال كما يبدو عليك ··

قلت :

ـ كتر خيرك ياعم ٠٠ انت الأحسن ٠

تلفت حواليه فى تلصص ٠ مال على أذنى هامســـا بصوت مرتعش ذى رهبة كادت تربكنى :

ـ أنا محتاج لك ياسعادة البيك ٠٠ محتاج لك ٠٠ أريدك أن تاخذ لى حقى من هؤلاء الكفرة ٠ ربنــــا بعتك لى ٠٠ ربنا فوق وأنت تحت ٠٠ أنا وقعت من السماء وأنت تلقفتنى ٠

اقشعرت رقبتى ٠ ارتعشت قليلا :

ـ ما الحكاية بالضبط ؟

ـ لابد أن أجلس مع جنابك بعض الوقت ٠٠ لكى أحكى لك الحدوته ٠٠ اعمل معروف يابيك ٠٠ اقبل أن تجلس معى ولو برهة على إنفراد ٠٠ ولا تجعل شيخ البلد يعرف شيئا ٠٠

تشبثت بمظهر عدم الاهتمام ٠ قلت :

ـ دبر لى لقاء بمعرفتك

همس فى أذنى :

ـ تعرف من الذى قتل « جمعة المؤذن » ؟

التصقت قدمى بالأرض ٠ ترنحت الأفكار فى رأسى ٠ خرج السؤال من صدرى كالفحيح :

ـ مــن ؟ ٠٠

ـ أنــا ٠٠

ـ أنت ؟ ٠٠ تقول أنت ؟ ٠٠

ـ نعم أنا ٠٠

هكذا ببساطة ؟ ..

خيل الى أن كل الدماء التى فى عروقى تصعد الى أذنى .. هل كان من الأوفق أن أصدر حكما بالقبض عليه فى الحال .. لقد خشيت أن يجىء ذلك على حساب كثير من المعلومات التى يمكن أن أستفيد بها . ان القضية الآن لم تعد مجرد قتل المؤذن « جمعة الحصاوى » ، انما هى قضية بلدة بكاملها تعرضت للسرقة دفعة واحدة فى بضع ساعات ، حتى حكامها تعرضوا للسرقة أيضا ، أو هكذا زعموا ، والحق أننى لم أعد قادرا على تنظيم التحقيق ، على رسم هيكل شكلى له على الأقل فى رأسى ، فهل أحقق فى مقتل « جمعة المؤذن » ؟ أم فى السرقة التى تعرض لها الأهالى ؟ أم فى سرقة الحكومة نفسها ؟ أم فى ضياع عرق الأنفار ؟ . المؤكد أن كل هذه الأشياء متشابكة ، وأى طريق الى احدها يؤدى بالضرورة الى لب القضية برمتها ؟ . ولكن هل ترانى أترك هذا وذاك وأحقق فيما هو أدهى من ذلك .. وهو أن حكومة البلد نفسها متهمة بالسرقة أيضا ؟ ، وذلك من واقع الأوراق التى يضمها هذا الملف العجيب ؟ .. مهما يكن من أمر فان هذا الذى أدلى بهذا الاعتراف الآن بهذه البساطة موجود تحت يدنا ويمكن التحفظ عليه ..

أعدت مسح يدى بالفوطة للمرة العشرين ربما . وسألته بسرعة وبصوت خافت :

ـ وقتلته ليه ؟ ..

ذاب جسده الفاره فى صوت باك حزين :

ـ منهم لله يابيك .. أوقعونى فى المصيبة من غير ثمن ..

ـ من هم ؟

ـ الأسطى فانوس ..

ـ مـن ؟ ..

ـ الأسطى زفت .. بلامؤاخذه ..

ـ الأسطى فانوس هو الذى جعلك تقتل جمعة المؤذن ؟

ـ هو ياسعادة البيك ..

ـ ما السبب ؟ ..

ـ لا أعرف .. ولكنى قتلت

ـ ولماذا رضيت بقتله ؟

ـ الغلب ياسعادة البيك .. الدنيا الوسخة .

أقبل المأمور كالعربة الكارو يزيق بحذائه الميرى ويزدرد بقايا الطعام فى فمه . تذكرت أننى لم أعرف اسم هذا الرجل . قلت له قبل أن يبتعد خلف المأمور :

ـ متشكر يا ..

ـ خدامك ابراهيم ... ابراهيم السيد عبده .

ـ عاشت الأسامى ..

وعدت الى جلستى فوق الكنبة أحاول تجميع رأسى التى بعثرت .

الورقة الثانية :

انتصف الليل تقريبا ، بدأ شيخ البلد يفقد الأمل فى انصرافنا ، وبدأت ألحظ توتره الخفى ، وأدرك كم هو رجل حصيف محنك ليس من السهل أن يهزم وليس من اليسير أن ينفعل . اعترت المأمور لحظة نشاط مفاجئة . راح يكثر من الوقوف والذهاب الى دورة المياه . أخيرا تربع بجوارى . همس فى أذنى قائلا :

ـ أظن القعدة وافقت هواك ..

لم أرد ، ربما لخوفى من التسرع فى الرد ، وأنا فى أعماقى ميال للبقاء ولا أريد اظهار السعى اليـه . الا أنه عاجلنى قائلا ـ كأننى وافقته على رأيه :

ـ تعجبنى .. أنا أحب الشبان المفتحين مثلك وأحب الشغل معهم .. باخلاص ونية صافية ..

ثم صمت برهة وأضاف :

ـ ولا . نظرتي ليست فى محلها ؟

أفهمته بحركة من رأسي أنني راض عن كل ما يقول ويفعل ، فانبسط وجهه واخضوضر شاربه في ضوء وهج الوابور ذى الايقاع الهادىء الأليف . حيانى بهزة من رأسه كأنه يرحب بى لأول مرة فى حياته ، وقال بصوت فيه غنة رجاليه ممجوجه :

ـ يعنى .. صافى يالبن ؟ ..

أثرت هز الرأس تجنبا للدخول فى كلام . بحركة مسرحية متقنة زحف رأسه نحو شيخ البلد وضرب له حاجبه الأيمن ضربة كدت أسمع لها صوتا ، ابتسم شيخ البلد كأنه يتنهد بعد مجىء الفرح وانحنى فى جلسته تجاه الباب صائحا بلهجة أمرة مبتـورة الايقـاع :

ـ النار ياولد ..

و ...

تهت . لا أدرى كيف تربـع « المنقد » والتفت حوله كتيبـة من الحجارة صفت على رقعة عريضة من الخشب . كنت قد سرحت سرحه فارغة من المحتوى . لم أفق الا وظـل عود غليظ يزحف

على الحائط المجاور لى . كانت بوصة الجوزة تلمس شفتى . اعتذرت . فلما انزعج المأمور من اعتذارى أبديت عدم اعتراضى على ما يفعلون ، وسحب « ابراهيم » الجوزة من شفتى المأمور وغمز له قائلا بلهجة ذات معنى :

ـ ايه رأيك فى التعميرة دى ياحضرة المأمور ؟

كتم المأمور نفس الدخان فى منخاويه وسربه على مهل ، وقال كأنه على علم سابق بها :

ـ جميلة فعلا .. بس يا خسارة .

ونظر لى ابراهيم وغمز بعينه . ويبدو أن المأمور لحظه ، فمال نحوى قائلاً :

ـ تعرف تعميرة من هذه ؟

ـ لا والله لم يحصل لى الشرف ..

ـ هذه هى تعميرة الحاج سليم .. التى كانت فى حقيبته .

ـ الحقيبة المسروقة ؟

ـ اسم الله عليك ..

ـ !! .. !! .. !! ..

ثم انفجرت ضاحكا . لكننى لم أستطع منع نفسى من السؤال :

ـ وكيف وصلت اليك يا حضرة المأمور ؟

فأشار بيده وهو يقتطع التعميرة بمزاج ويضعها فوق الحجر :

ـ البركة فى شيخ البلد ..

ـ شيخ البلد ؟

ارتبك شيخ البلد ، تململ ، قال فى هدوء منمطع النظير

ـ أنت الآن يا حضرة المأمور ستجعل سـعادة البيك يشك فينا بحق وحقيق .

قلت بلهجة حاولت ألا تكون جادة :

ـ أنـا أحب أن أعرف كيف حصلت على هذه التعميرة ؟ .. الجيدة ..

أشار بدوره الى ابراهيم : قال :

ـ هذا الولد الملعون .. أصله كان حاضرا ساعتها .. الحاج سليم أعطاه تموينه ..

ـ أنت اذن تعرف الحاج سليم جيدا يا ابراهيم ؟

نهض ابراهيم ، راح يسيخ الجوزة ويدلق ماءها الأصفر على الأرض :

ـ لا وأنت الصادق ياشيخ البلد .. الذى أعطانى التموين هو الأسطى فانوس ..

ـ أعطاها لك من جيبه ؟

هكذا قلت بسرعة . فرد ابراهيم :

ـ ليس فى جيبه شىء طبعا .. لقد فتح الحقيبة وأخـرج منها كيسا .. أعطانى منه قطعة وشال الباقى تحت فخذه ..

ـ معنى ذلك أن الحقيبة كانت ملانه بالحشيش والأفيون ؟

ـ لم أر ...

تقول أنه فتح الحقيبة أمامك .

ـ لم يفتحها .. قل أنه رفع الغطاء وسرب يده الى داخلها ثم أخرجها بالكيس .. فلم أر ما بداخلها .. الحق لله ..

ـ وأين وضع الحقيبة ؟

ـ مكانها فى الحجرة .. فى دار العمدة ..

ـ وأين كان العمدة ساعتها ؟

ـ كان حاضرا أيضا ..

ـ والحاج سليم ؟

ـ كان موجودا هو الآخر ..

ـ وكان يوافق على ما يحدث ؟

ـ وماله هو ؟ .. يوافق أو لا يوافق ؟ ..

ـ ان الحقيبة حقيبته ..

ـ لم تكن حقيبته .. الأسطى فانوس أخرج الكيس من حقيبته هو ..

ـ الأسطى فانوس هو الآخر له حقيبة ؟

ـ طبعا .

ـ سرقت هى الأخرى ياترى ؟

ـ الله أعلم .. السرقة هذه .. الله أعلم بها

ـ لكن لماذا يعطيك الأسطى فانوس هذا الكيس ؟

ـ كل واحد يشتغل فى المشروع يأخذ حقه ..

ـ أى مشروع ؟

ـ مشروع النقل ..

ثم ضحك عاليا وبطريقة ضايقتنى . تمنيت لحظتها أن يكون هذا الحوار فى حالة رسمية ، اذن لأمرت بضرب ابراهيم حتى

يبين له أصحاب . الا أنني حاولت كتمان ضيقي ، وقلت مجاهدا ألا أكون خشنا أو رسميا :

ـ مشروع ماذا ؟

شوح شيخ البلد . وقال :

ـ هذا الولد الملعون كان قد وقع في فخ العمدة والأسطى فانوس ..

ـ بمعنى ؟

ـ قل يارب ..

فقلت : يارب . وأحسست أنني سأفقد عقلي حتما ان استمر الوضع هكذا ، بل وندمت لأني تنازلت عن هيأتي الرسمية ، لكنني ما لبثت أن صبرت نفسي قائلا لها ربما كان هذا طريقا الى المعرفة فلنستمر الى النهاية . ثم سيطرت على فكرة الانفراد بابراهيم ..

واذا بالمأمور يقول في تشف :

ـ قل له يا أبا خليل على الحقيقة ولا تخش شيئا .. قل لسعادة البيك حتى يعرف أننا غلابة ونشتغل لحساب الآخرين .

وضغط على « الآخرين » . فقال ابراهيم :

ـ ان الحكاية معروفة من طقطق لسلامو عليكم .. ولابد أن سعادة البيك يعرفها هو الآخر .

هززت رأسي بالنفي . ابتسم المأمور في خبث :

ـ ان سعادة البيك حديث التخرج ولايعرف هذه الحكاية .

قال ابراهيم :

ـ كل الدنيا تعرف .. حتى الأطفال .

صرخت :

تعرف ماذا .. تكلم .

ـ ياسعادة البيك .. الحشيش الذى يضبطه رجال الحدود بالأطنان « أين يذهب » ؟

قلت منفعلا :

ـ تحرقه الحكومة طبعا .

فنظر شيخ البلد الى المأمور وهو يشد الأنفاس بعمق . وقال ابراهيـم :

ـ لا .. انها لاتحرق الا شيئا ضئيلا .

ـ والبـاقى ؟ .

ـ رزق الهبل على المجانين .

وضحك ضحكة مكتومة .. وأكمل المأمور :

ـ رتب كبيرة ياسعادة البيك .. كل واحد يأخذ حقه .

ـ ماذا ؟ .. ماذا ؟

ـ انك مازلت شابا شريفا وفقيرا .. ربنا يكرمك .

ـ وهل يشربونه كلهم ؟

قال ابراهيم :

ـ يوزعونه يا سعادة البيك على من يبيعه لحسابهم .. و .. يوفرون له الحماية والأمن .. وأهى ماشية يا سعادة البيك .

لمعت فى عينى المأمور جمرات متوهجة بالخبث والتشفى . ثم قبل يده وجها وظهرا وقال :

ـ ربنا يغنيها بالحلال .

فكرت فى الذهاب الى دورة المياه بهدف أن يصطحبنى ابراهيم

اليها فأتكلم معه قليلا . غير انني ماكدت أبدى الرغبة حتى وقف شيخ البلد بنفسه وقال :

ـ تفضل سعادتك ..

ومضى أمامي .

صحت أحتج على تعبه وأطلب الاكتفاء بابراهيم . فلم يوافق فأقسمت ان يعفي نفسه ، وأقسم ان يصطحبني ، واقترح المأمور أن تجيء دورة المياه الينا .. أخيرا لم أستطع التراجع .

جنون التفاصيل يربكني ويوقعني في كثير من الحمق بلاشك . أحس أنه يجعلني مسخا مجنونا مثيرا للضحك .

مضى شيخ البلد أمامي ولحقت به . توقفت على عتبة المندرة حتى ظهر ابراهيم في الدهليز من كوعة جانبيـة حاملا مصباحا أشار به الى فذهبت اليـه . فاذا بهذه الكوعة تعريشـة ضيقة مسقوفة بالبوص ، تتصاعد منها رائحة نتنه . قال ابراهيم :

ـ خل بالك يابيك .. فتحة الكبنيه على اليمين وأنت داخل .

رغم أنه علق المصباح على الحائط وخـرج ساحبا البـاب الصـفيح خلفه الا أنني لم أتمكن من حفظ توازني في جلستي المتقرفصة ، وحين تبين لى انني أعاني من عدم التوازن أدركت مدى سخف المحاولة لأنني أساسا لم تكن بي حاجة الى دورة المياه .

طرقات على الباب الصفيح أفزعتني . ثم وورب البـاب ، وامتدت ذراع وضعت أمامي أبريق الماء . صـعدت نظراتي من الابريق الى الذراع الى الفراغ الموارب فوجدت وجهـا خيل الى أنه معلق في الظلام تلمع فيه عينان لوزيتان حادتان انتفض جسـدي وسقط من مؤخرتي صوت قبيح طويل النفس . حينئذ ارتـج الباب ثم ارتجت التعريشة كلها بصوت ضاحك ، وصـار الوجه

المعلق فى الهواء يرعد بضحكة متواصلة ويرتج مثل كرة من المطاط. اختـــل ما بقي من توازني وأحسست انني مهان . لكنني افتعلت ابتسامة ، على أن صوت شيخ البلد خرج من الوجه المعلق فى الهواء قائلا وهو يحاول التقاط الأنفاس من فرط اللهاث :

ـ يا سعادة البيك .. أنت من غير مؤاخذة لم .. لم تخلع البنطلون .

انتفضت واقفا . تحسست أفخاذي بحـــركة لا ارادية في فزع لا ارادي أيضـــا . نعم ، لم أكن قد أسقطت البنطلون .. قال شـــيخ البلد :

ـ ماذا اذن لو كنت شربت ؟ .

رحت أفكر فى اعتذار يمكن الاستماع اليه . لكن شيخ البلد فتح الباب عن آخره ، فخيل الى أنه قد هتك كل أسرارى . رفـع المصباح وتقدمنى قائلا فى خبث شديد :

ـ تفضل تفضـــل .

فخرجت صاغرا .

دخل بى حجرة صغيرة بها سرير ذو عمدان صفراء . بجواره كنبة عريضة ينام فوقها صبى صغير . جلست حيث أشـــار لى . قال وهو يتهزز أمامى مثل ذئب لئيم انني يجب أن أعتبر البيت بيتى وأتصرف كما يحلو لى . فقلت : طبعا طبعا . نظر فى عينى متراجعا بذقنه الى مستوي صدره مما أنبت له ذقنـــا ثانية وثالثة وعديدا من ذقون صغيرة آخذة فى التضـــاؤل . قال كمـــا يخاطب المتهمين :

يا بيك أنت ممتنع عن الصراحة .. لماذا ؟ .. من ناحيتنـــا

فقد فتحنا لك قلبنا .. ألا تفتح قلبك أنت أيضـــا وتجعل المسألة أخـوية ؟

وجدتني أؤكد أنني بالفعل قد رفعت الكلفة بيني « وبينهم » وسألته ببراءة : « ولا آيه » . فهز رأسه موافقـــا ولكن في خبث عميق : « طبعا » ثم أضاف باسما :

ــ الصوت الذى سمعناه منذ قليل تستطيع أن تعيده على راحتـــك .

فتساقط العرق فوق جبيني والتهب رأسى .

ــ تستطيع اذن أن تشرب هذه السيجارة الحلوة ؟

لم تكن سيجارة ، انما كانت خابورا في حجـم الأصبع الكبير قلت له أنني حقيقة لا أشرب هذا الشيء ولا أنوى أن أجربه لاعتبارات صحية ليس أكثر . وقلت له أيضا انتى أشكره على كرمه ، فأخرج من جيبه علبة من الصفيح نزع منها مسمارا مبططا غمســـــه في جوفها فعلقت به قطعة من عجينة بنية اللون أغلب الظن أنها أفيون، قدمها لى قائلا في رجاء :

ــ اذن فهذه اللحسة على لسانك .

تراجعت بفمي جزعا مشمئزا ، فزحفت يده باصرار :

ــ ستفرفشك وتنعشك .. وتجعلك آخر « فللى » .. وتظل مفنجل العين حتى صباح بعد غد .

وقربها من شفتى :

ــ لاتخف . انها أفيون خام .. من نوع فاخر .

فتحت فمي لأتكلم ، فاذا بالقطعة فوق لساني : ومن يدرى

ربما كنت في أعماقي أريد تجريب هذا النـــوع من المكيفـات ·
قبل أن تنفجر الدماء من وجهي أسرع بالقلة صائحا منذرا :

ـ لو بصقتها يجيئك مغص مؤلم ·· ابلعها وأمرك لله ·

وكنت بالفعل قد بلعتها دون أن أدرى ، وأحسست أن مياه البحر كلها لن تغسل عن حلقي الشعور بالغثيان ·

الورقة الثالثة :

من لى بألفاظ تصور حقيقة الحال التي وصلت اليهـا بعـد كوب الشاي الرابعة ؟ والتي فتحت شهيتي للسـجائر والحديث فجأة انتبهت فاذا أنا في حالة من الصفاء لم أشعر لهـا بنظير في حياتي · كل شيء في نظري وعقلي ووجداني وحولي متوافق متوائم لا غبار عليه ·· أي هدوء ذلك الذي حل بأعصابي ونفث في عروقي دما ساخنا يتصاعد ليدفق في رأسي ، لكن شيئا من دفق الأفكار اللامعة والخواطر الثمينـة لا يستقر في رأسي الا ريثما تتدافـع موجاته لتسقط في آبار مجهـــولة من رأسي · لكنني مـع ذلك مستريح البال كأنني قد خرجت من الدنيـــا ظافرا مؤديا جميع الحسنات والفروض والواجبات على أكمل وجه ·· طرائح السجائر تتكوم أمامي وتنفذ ثم تتكوم من جـديد وأرى أن أى شيء ماعدا الاستمرار في الشرب سخف لاموجب له ··

فجأة دخل المخبر السرى في صحبة « ابراهيم » · دهشت فلعلنى قد نسيت الهيئة المصاحبة لى · تقدم المخبر السرى مني ثم همس في أذني :

ـ اثنان يقفان خارج الدار يتسنطان ·· جناب المأمور يقول لحضرتك هل نقبض عليهما ؟

لا أدرى لماذا نظـــرت الى شـيخ البلد · هل تراني كنت

سننجد به وأسنفتيه فيما يجب علينا أن نفعله ؟ • معنى ذلك أن شخصيتنا قد بهتت ولم يعد لها لزوم ، لكننى لم استسلم لهذا الخاطر وان كنت أومن أن شخصيتنا باهته من الأساس منذ أن استعانت الرتب الكبيرة بمن يبيع لها نصيبها من الحشيش المضبوط ، ولقد أيقنت أن وجودنا الودى يمكن أن يكون بديلا لقوة السلطة فينا ، ذلك أن قوة سلطتنا – أيضا – لم تعد بذات بال منذ أن تهنا في التحقيق وتضاربتنا أمواجه الهادرة ، كما وأن أحدا من المسئولين الكبار لم يهتم بهذه القضية أدنى اهتمام ، ولولا حماسى أنا الخاص لمعرفة أصولها ودراستها لكان من السهل كلفتة التحقيق وتقفيل موضوعاته بأى شكل ويادار مادخلك شر • ثم ، لعلنا بوجودنا البسيط يمكن أن نحقق مالم نحققه بوجودنا المركب •

تلقف شيخ البلد نظرتي واستفهم منى عما اسر به المخبر السرى ، فأخبرته بالخبر • فهز رأسه بحركة العارف بالأمور لكن صفحة وجهه انقلبت في الحال ، ثم هز رأسه مرة أخرى هزة حاسمة وقال :

– اقبض عليهم •

ثم اقترب مني وهمس بحروف متآكلة :

– العمدة مازال موقنا أننى تصرفت فى الحقيبة •• وأننى الآن •• عدم المؤاخذة •• أحاول أن أشترى سكوتكم •

قلت له اننى أريد أن أتفاهم معه فى هذه النقطة بالذات • فقال :

– وماله يا سعادة البيك ؟

وأشعل لى سيجارة • نفثت الدخان وقلت له :

ـ الآن وقد صرنا أصدقاء أريدك أن تكون صريحا معى كل الصراحة ٠

اقترب منى ٠ أومأت للمخبز السرى بأن يقبض على الشخصين٠ قال شيخ البلد :

ـ لا أكذب عليك ٠٠ العمدة والأسطى فانوس اتفقا معا على أن يسرقا الحقيبة ويهرباها ٠

ـ كيف عرفت ؟

ـ كل شىء كان أمامى ٠

ـ وأنت ٠٠ كنت توافق ؟

ـ أنا كنت أقعد معهم فقط ٠٠ انما ورأس أبى ما وافقت ٠

ـ وقلت لهم انك غير موافق ؟

ـ لم أقل ٠٠ لكن لم أقل أيضـــا أننى موافق ٠٠ أى والله ما قلت ٠

تذكرت ما قاله شيخ الخفراء فى التحقيق من أن شيخ البلد أمره بتسريح الخفراء فى تلك الليلة ٠ ولكننى جاهدت الا يبـــدو على وجهى شىء من ذلك ٠ جاملت شيخ البلد بأن قلت :

ـ العمدة رجل وسخ ٠

فتهللت أسارير شيخ البلد وتقافز الفرح على وجهه واندمج فى ضحكة حبورة بدا خلالها كطفل عجوز ٠ وأشار بيده فى الهواء كأنه يقول : أعد ٠ الا أنه قال وهو يكح بشدة :

ـ أى والله صدقت ٠

ـ ولماذا فكر فى سرقة الحقيبة ؟

ـ يقول لك : الحاج سليم هذا رجل مفترى ٠٠ عمره ما أعطى للانفار حقهم ٠

ـ والعمدة ٠٠ يريد الانتقام للأنفار بسرقة الحقيبة ؟

ـ يقول : اننا نخدمه كثيرا وهو يغلق مخه ٠٠ لايبز بشيء ٠٠ يضحك علينا بالتعميرة ٠٠ كل واحد كيس حشيش وانتهينا ٠

ـ هل الحاج سليم تاجر مخدرات كبير ؟ ٠٠ مهرب مثلا ؟ ٠

ـ لا ٠٠ كما قال الولد ابراهيم ٠٠ انه يوزع فقط لحساب بعضهم ٠

ـ وما نوع الخدمة التي يؤديها العمدة ؟

ـ أول هام ٠٠ يخيف الأنفار من شكوى الحاج سليم ٠٠ فالخفراء أفهموا الأنفار أن الحاج سليم حماية ، وجبار ، ومن يشتكيه يروح فى داهية ٠

ـ يعنى بيعملوا ارهاب للأنفار ٠

ـ العمدة هو الذى يعمل ٠٠ الخفراء أنفسهم يصدقون ٠٠ مثل الأنفار ٠

ـ والأنفار يصدقون ؟

ـ يصدقون وفى نفس الوقت لايصدقون ٠٠ والمهم أنهم لايشتكون ٠

ـ شيء غريب ٠

ـ ثانى هام ٠٠ العمدة كما سبق أن قلت لحضرتكم يخدم الحاج سليم فى حكاية التوصيل ، التى تتكرر كل مرة ٠

ـ انك لم تقل لى شيئا كهذا ٠

ـ لابد أنى نسيت ٠٠ لكن أنا الآن أفتح لك قلبى ٠٠ أعلم يا بيك اننى أول من يتمنى ظهور هذه الحقيبة ٠٠ اذا كنتم

مشغولين بأمرها قيراطا فأنا مهتم به أربعة وعشرين .. انني أنا الذى سرقت ولا أحد غيرى .. حقيبة مثل هذه بها كل هذه الكمية من الذهب الأخضر تضيع من يدى هكذا عينى عينك .. أخشى ان أموت بحسرتها .

ـ لكنك سبق أن قلت : المشروع .. ثم قلت الآن التوصيل .. أرجو التوضيح ..

ـ المشروع هو مشروع النقل كما قلت لحضرتكم .. يعنى التوصيل كما قلت الآن .. أى ان الحاج كان يجعل من بيت العمدة مركزا .. والواقع انه من شدة خبثه ولؤمه .. العمدة يعنى .. كان يستغفلنى ويجعل من بئرى هذا مخزنا .. كان يدبر الخطة من وراء ظهرى هو والأسطى فانوس .. ويقول لى : هناك أمانة نريد حفظها عندك فى البئر عدة أيام .. من عبطى أوافق .. ويضعون الأمانة .. فى العادة تكون جوالا أو جوالين أو صرة مثل صرة الهدوم .. لم أكن فى العادة أعرف ما فيها بعلم الله ، ولكن .. هذه الحقيبة علمتنى أن فى الأمر مكسب كبير .. المهم أن العمدة كان يرسل كل حين من يفتح البئر وينزل بداخله ويغلق على نفسه ثم يخرج حاملا شيئا ما ..

ـ نرجع للاتفاق الذى تم بشأن سرقة الحقيبة ؟ ..

ـ نعم .. ظن الوغد أننى معهما فى العملية .. نقبهما جاء على شونة ..

ـ هل العمدة وحده هو الذى يتهمك بالخيانة ؟

ـ سترغمنى يابيك على الاعتراف ثانية ؟ .. ولكن لا يضر .. اننى صاغ سليم .. أصل الحكاية ان العمدة بعد أن تم الاتفاق على أن نقوم نحن الثلاثة بتهريب الحقيبة .. عاد فى المساء

وانفرد بي في ركن بعيد ·· وعرض علي أن نقوم أنا وهو فقط بتهريب الحقيبة من وراء ظهر الأسطى فانوس ونفوز بها وحدنا ·

ألم تفكروا فى عاقبة الأمر ؟

ـ اننا ·· أقصد العمدة والأسطى فانوس ·· كنا نعتقد أن البلدة فى الصباح ستتعرض للسرقات ·· بسبب وجود الأنفار ··

ـ هل الأنفار يسرقون بالفعل ؟

ـ المعروف انهم يسرقون ·· وكل مرة يتم القبض على مجموعة منهـم ·

ـ المهم ·· اتفق العمدة معك على ··

ـ لكنني لم أوافق طبعا ·

ـ هل قلت له ذلك ؟ ··

ـ فى الواقع هززت رأسى فقط ·· فلعله تصور أننى أهزها موافقـا ·

ـ ولماذا لم تقل له انك لا توافق ؟

ـ المفاجأة ألجمتنى ·· أوقفت لسـانى يابيك ·· ولهذا فالعمدة يتصور اننى نفذت رغبته وقمت بتهريب الحقيبة ثم طمعت فيها وأنكرت ··

ثم يتنهد بحركة مسرحية متقنة ، وقال :

ـ اقبض على الكلاب الذين يقفون خارج الدار ليعرفوا اننى سـليم ·

يبدو أن كثرة التفاصيل مثلها مثل قلتها تماما ·· فى الأول كانت التفاصيل كالمصابيح تضىء أمامى الطريق الى الحقيقة ، ولهذا أحببت التفاصيل واستهدفتها ولكن هأنذا أغرق فى التفاصـيل المتضاربة فلم أعد أعرف خلالها طريقا · انها تبدو لى مثل ركام من

الظلام ، ربما كانت حزمة من الأضواء الباهرة سلطت وهجها على عينى فلم أعد قادرا على رؤية شىء ، حتى هذا الرجل الذى يجلس أمامى ، لم أعد قادرا على معرفة حقيقته بالضبط : هل هو عبيط ؟ أبله ؟ خبيث ؟ شرير ؟ كلما عاملته على انه أبله يتضح لى فى اللحظة التالية أن الأبله الحقيقى هو أنا • وكلما احتشدت له باعتبساره خبيثا شريرا فاجأنى بأنه عبيط •• انه فيما يبدو خليط متنافر من الخبث والبله والمكر والشر ، مناور مداور مخادع لايستهان به •

الورقة الرابعة :

حتى هذه اللحظة لا أستطيع أن أتصور ما حدث على حقيقته • فى الواقع لم أكن أتخيل مطلقا أن يحدث ما حدث •• فى البداية خيــل الى أن حالة الصفاء الشديدة التى اعترتنى قد بلغت مــن العذوبة والرقة أن جعلتنى أرى فى لحظة واحــدة مالم يكن من الممكن رؤيته فى سنوات •

فجأة دفع المخبر السرى بأحـــد الشخصين فمثل أمامى فى حركة تمثيلية وراح يوهمنى أنه من فرط الغلب يكاد يركع أمامى • دققت فى ملامحه برهة فارتجفت كل عروقى • ولما نكس رأســه فى الأرض ليخفى ملامحــه كنت قد تأكدت نمـــاما من حقيقـــة شخصيته ، وسيطر على جسدى خدر لذيذ نظرت الى المخبر الذى كان ماثلا بالباب يستعد للانصراف وسألته وأنا أعنى هذه لألفاظ بالتحديد :

ـ أين الحمار الثانى ؟

ابتسم المخبر السرى رغما عنه وأضاف ساخرا دون قصد :

ـ دول طلعوا تلاته يابيه ••

ـ حــلو ••

هكذا صحت ، ثم أضفت مثل أولاد الحظ :

ـ ليلتنا أنس ان شاء الله ٠٠

وأحسست أن غلافا من الخجل البسيط يغلف وجه الرجل المقبوض عليه وبدا انه يريد أن يستدركني بقول ما ٠ برق في ذهني خاطر تخيلت معه صورة الحمار الثاني الذي ان كان هو حقا اكتملت الصورة ٠٠ ناديت :

ـ أحضرهم حالا ٠٠

ضغط المخبر السري على شفته السفلى كأنه يغمزني ، وأشار الى الداخل :

ـ موجودين يابيك ٠٠ مع حضرة المأمور ٠٠

ثم اقترب مني وهمس في أذني :

ـ أصلنا عرفناه ٠٠ مقدرش ينكر ٠

ـ همست :

ـ مـن ؟

ـ حضر العمدة ٠٠

ولم يقاوم الضحك ٠٠ أنا نفسي أفلتت مني ضحكة سوقية جدا لاتليق برجل مثلي ، لكنني ـ ربما لكي أمسح أثرها الانفعالي المفاجيء ـ صرخت بأعلى صوتي ، ومن أعماق الكبرياء السلطوي الأجوف :

ـ قل للمأمور يقبض عليه رسميا ٠

واذا بالمأمور يدخل :

ـ لا لزوم للانفعال يابيك ٠٠ أنا من نفسي عملت الواجب ٠

ثم اقترب مني :

ـ لا ٠٠ اننى أعجبك ٠٠ أعمل كل حاجة نعم ٠٠ لكن ساعة الجد جد ٠٠

ـ وأين هو ؟

ـ حبسـناه ٠٠

ـ أيـن ؟

ـ فى البئر !

ـ نعم يابيك ٠٠ حضرتك لاتعرفنى جيدا كما يبدو

لو قرأت هذا فى قصة لاشعلت النار فيها وقلت : أسفاف ومهما يكن من أمر فان جنون التفاصيل لم يعد جنونا بل صـار واقعا ٠ لم أعد أبحث عن التفاصيل انما صارت هى تتدفق على ٠٠

ـ أقعد يا حضرة المأمور ٠٠

جلس ٠ استدرت الى الشخص الواقف :

ـ أنت يارجل ٠٠ اخلع هذه البلاوى التى ترتديها واظهر على حقيقتك ٠

بنبرة خافتة كأنه يلعب بآخر نفس فى صدره قال :

ـ أبدا والله يابيك ٠٠ أنا رجل عرباوى غلبان لا هنا ولا هناك ٠٠ الحظ الأسود هو الذى رمانى ولا أعرف أى شىء ٠٠ انما كنت ألف حول البيت وكنت أريد أن أشرب ٠

أشعلت سيجارة ٠ قلت بصوت عال انه ليس من الغريب أن ينجحوا فى حياتهم ويصيروا ذوى أملاك ومناصب طالما أن لديهم هذه القدرة على التمثيل ٠ فلم تتحـرك عضـلة واحدة فى ملامح صاحبنا ، فأحسست برغبة فى تعذيبه ، صرخت فيه أمرا :

ـ أدر وجهك للحائط

استدار بالفعل ٠

ــ ارفع يديك لفوق ..

رفعهما . استبدرت الى المامور :

ــ قل لى ياحضرة المامور ماذا حدث فى غيبتى عنك ؟

فانتفخت أوداج المامور وأحس بفرح كبير وشرع يحكي ..

قال المامور :

ــ كانت القعدة قد احلوت واختتمت على خير ، وانـزوى ابراهيم مع المخبر السري في ركن المندرة وتبادلا الهمس والايماء ، ثم غاب المخبر برهة وعاد ليهمس في أذني أن هناك شيئا غير طبيعى يحدث فى الخلاء ، فما كاد السيد ضابط المباحث يسمع ذلك حتى نهض وراح يمشى على أطراف أصابعه وخرج ، ثم غاب طويلا ، وسمعت صوت خفير مفاجىء تحت الشباك البحرى مباشرة يصيح مرتعـدا :

ــ من هنـاك ؟

ــ ماذا تفعل عندك يا خفير ؟

ــ أمسك الدرك ياسعادة البيك .

ــ من أدراك انني بيك ؟

ــ مادمت عند شيخ البلد تكون ..

ــ تعال هنـــا .

وسمعت خطواتهما مقبلة . لكن صوت الخفير كان يطن فى أذنى بصوت أعرفه جيدا . فجأة دخل السيد ضابط المباحث ومعه الخفير . حمدت الله أننا كنا قد أنهينا « المســـألة » ولم يبق من أثرها سوى رائحة ماء الجوزة وقليل من سحب الدخـــان . قال الضابط : « قف هنا يا خفير » ، ثم جلس بجانبى وراح يخاطبه .

ــ من الذى أرسلك الى هنا بالضبط .. ولماذا ؟

قال الخفير بصوته الذى أعرفه جيدا :

ــ لا أحد أرسلني والله ياسعادة البيك .. أنا أمسك دركي ..

ــ ودركك تحت الشباك مباشرة ياخفير ؟

فسمعنا في الحال صوت شخير عال ، أدركت انه ليس صادرا من جثة نائمة بحق ، انه صوت يمثل الشخير . أخذت اتحدث مع السيد الضابط بأى كلام ، فكف صوت الشخير ، فكففت عن الكلام ، فارتفع الشخير ثانية . فضحكت . اذ أن الرجل من فرط احساسه بالخوف من أن نراه خيل اليه أننا بالفعل نراه ، فراح يغطي نفسه بصوت الشخير .. كلها حركات قرعاء ولا نأكل منها كما تعرف . ولذلك خرجت . رأيت جسدا عملاقا ممددا على مصطبة تحت الشباك . عفقته من رقبته . لم يفلفص . أوقفته دفعته أمامي الى الداخل . وان هى الا برهة حتى دخل المخبر السرى بشخص منهم وقال السيد الضابط اننا يجب أن نبلغك ، فقلت له لا داعى لازعاج سيادتك فأنت مشغول فى التباحث مع شيخ البلد وعلينا أن نقوم بدراسة أمرهم فان وجدنا شيئا يستحق التبليغ أبلغنا به .

الواقع أن الأمر بدا طريفا . فالخفير اياه منكس الرأس يرتجف . قمت لأعطيه التحية المناسبة . رفعت كفي ، انتفض الخفير ومد ذراعيه يحمى بهما وجهه صائحا يكاد يبكى ؟

ــ حاسب يا حضرة المأمور .. سأقول لك .. سأقول لك

صرخت فيه بغيظ :

ــ انطق بسرعة .. من أنت بالضبط ؟

بذلة ومسكنة أجاب :

ــ أنا .. أنا .. أنا العمدة ..

طار صـــوابى يا أفندم وحلفت بشرف أمي ان أظـل أعامله كخفير بل أقل . سحبته من يده الى الحديقة ومعنا ضابط المباحث. نزعت عنه اللبدة والبندقية وأوقفته على يديه ورجليــه وأمرته أن يعترف بكل شيء دون لف أو دوران ، لكنه ، تصـور ، أخذ يبكى مثل الطفل ، وقال أنه كان ينوي أن يعرف ما الذى سنفعله بشيخ البلد حينما نعثر على الحقيبة .. وسألته :

ـ آه .. يعنى متأكد أنت أن الحقيبة عند شـيخ البلد ؟

أجـــاب :

ـ طبعا .. مثلما أنا متأكد انك حضرة المأمور

ـ وان طلعت كداب ياحلو ؟

ـ اشنقونى ..

ـ ايه .. نشنقك ؟

ـ أكلم حضرتك بقدر ما أعرف ..

ـ أتعرف أين يخفيها شيخ البلد ؟

ـ فى البئر طبعا ..

ـ عجايب .. ولكننا فتشنا البئر قطعة قطعة ..

ـ لايمكن .. هذا غير ممكن ..

ـ تكذبنا يارجل ؟

ـ ألم ينر لكم باللمبة فقط ؟

ـ كيف عرفت ؟

ـ أنا شفت كل حاجة يا حضرة المأمور

ـ اذن فأنت خفير من لحظة ما حضرنا ؟

ـ أنا خفير من قبل أن تتحركوا من المركز .

ـ الك اخباريات يا ابن الـ ....

ـ لا لزوم لهذا يا حضرة المأمور

ـ أخرس باضلالى يانصاب

ـ ما دمت قلت هذا .. فرأسى وألف سيف أن أريكم صدق كلامى ..

طيب . خليك مع الكذاب الى باب الدار كما يقولون . ويقول المثل : الجمل طلع النخلة .. اذن فهذا هو الجمـل وها هى ذى النخلة . وعليه بعثت المخبر السرى ليراقب شيخ البلد ويبقيه مكانه حتى لايجىء أو يعرف شيئا مما يدور .

تقدم العمدة أمامنـــا حتى موضع البئر فرفع غطاءه بدربة واضحة ثم هبط الى الداخل ، وكان واضحا أن قدميه تعرفان مواضع نتوءات بارزة تستخدم كسلم سرى للصعود والهبوط . تسمرت فى مكانى . لقد أشـــعل عدة شمعات كانت متناثرة فى عدد من الطاقات فى سفح البئر . لم تكن نرى من جســـده الكبير سوى رأسه فقط وهو بأعماق البئر . فتح بابا جانبيا ثم أشـعل شمعة جديدة ودخل . غاب برهة طويلة تقطعت فيها أنفاسى مع الضوء العليل المتراقص . وأخيراً خرج العمدة من الفتحة الجانبية وهو يبكى مرددا فى هستيريا :

ـ معقول ؟ .. معقول ؟ .. يا ابن الأبالسة .. تعملها فى .. أنت واعر الى هذا الحـد ؟ .. كنت أستهزىء بك .. لكننى ابن كلب لم أجد من يحسن تربيتى ..

وقعت الشمعة من يده فداســـها فى غيظ ، ثم راح يصعد الدرج السرى ويتعثر ويسقط فيصرخ وينفخ من الم ومـن غيظ ولا يكف رغم ذلك عن السب :

ـ أنا أستاهل ٠٠ اننى عبيط ٠٠ لا أصلح للعمودية جنب هذا الداهية ٠٠

ثم وقف أمامى منهارا :

ـ من حقك الآن أن تفعل بى ما تشاء ٠

ـ اخرس ياضلالى ٠٠

ـ ضلالى ؟ ٠٠ على الطلاق الحقيبة كانت هنا ٠٠ انما ٠٠ انما ٠٠ هو شيخ البلد والأجر على الله ٠٠ كيف اتفقت معه ؟ ٠٠ كيف وضعت يدى فى يده ٠٠

ـ لاتخرف ٠٠ ما الذى بينك وبين شيخ البلد ؟

ـ ياحضرة المأمور ٠٠ صدقنى ٠٠

ـ مازلت تصر على ان الحقيبة كانت هنا ؟

ـ اننى أنا الذى وضعتها بيدى ٠٠

دارت بى الدنيا يا أفندم ٠ ابن المفضوحة هو الذى وضع الحقيبة فى البئر ٠ فى حجـــرة مثـل الفسقية ٠ يعنى معترف بالسرقة ٠٠ هو يسرق ونحن ندوخ ٠ أضاف العمدة :

ـ الم اقل لك أننى طيب ؟ ٠٠ مثل الدلو اندلقت بمجرد أن لمسنى شيخ البلد ٠٠ ضحك على ٠٠ قال أننا نفعل خيرا لو قمنا بتهريب الحقيبة فى عز الليل ٠٠ ياشيخ البلد عيب عليك لايصح أن تفعل هذا ٠٠ ياعمدة صل على النبى فالحاج سليم لاينفع معه غير هذا ٠٠ لماذا ياشيخ البلد ؟ ٠٠ لأنه لص ، طول عمرنا نخـدمه ولا يضع فى عينيه حصوة ملح ٠٠ومالنا نحن ياشيخ البلد ، أنصير لصوصا على آخر الزمن ؟ ٠٠ ياعمدة لاتكن عبيطا ، ان سرقة مثل هذا تكون حسنة من الحسنات لأن فلوسه كلها حرام فى حرام ٠٠ تصور ياحضرة المأمور كيف أدخلها الرجل فى دماغى حتى وافقت

.. ولا أعرف كيف تحمست وجئت بنفسي لوضعها والاطمئنان على مكانها .. كنت أريد أن أبعد التهمة عن بيتي .. فاذا بي أضيع الأمانة في فوهة قبر .. أين خبأها بحق الله ؟ .. متى سربها ؟ .. انه اذن لساحر .. ماكنت أعرف أنه شيطان الى هذا الحد ..

لصان كبيران أنتما اذن ؟ ــ هكذا قلت في نفسي ــ والله اني لمنتقم من جلد أباء الذين خلفوكم ، هل يضيع تعبي هذا كله أونطة ؟ .. أكلف دماغي وتنسفوه ؟ . المهم يا أفندم حكمت على العمدة أن يهبط البئر ثانية ويحبس نفسه في الحجرة التي خبأ فيها الحقيبة ، وحرسنا على فوهة البئر شيخ الخفراء نفسه ، الذي جيء به فورا من عقر داره ــ مصيبة أمه سوداء هو الآخر . والآن ها هو اللص الثاني ، لابد أن يحبس مع زميله في نفس الحجرة حتى تجيء الحقيبة من تحت طقاطيق الأرض . من دوار العمدة نفسه سأبلغ اشارة للمركز ينهضنا بقوة من الهجانة . أما صاحب الشخير العملاق فقد نجح حتى الآن في ادعاء الخرس . ولكن سوف يتكلم حتى لو كان أخرسا بالفعل . دعه الآن حتى أروق له مادمنا وضعنا أيدينا على الفاعل الحقيقي ..

الورقة الخامسة :

تحول شيخ البلد الى جسد يتطوح مثل عود من الجريد تجتاحه رياح الخماسين . أخذ يفعل أشياء لايمكن أن أفهمها . يصرخ يبكي يزغرد يشوح بيديه يضرط بفمه يشخر بأنفه . يريد أن يرشم الجنون طبعا . كلمات تتساقط منه منغومة على شكل عديد الثكالى :

ــ يا غراب البين شحوالك .. ايش خلانا على بالك ؟

ثم تغير نغمة العديد الى ايقاع لطم الخدود :

ـ العمدة عايز يخرب بيتي ليـــه .. العمدة حط الشنطة وبايديه .. ومن الكلام ده رح يجيله ايه ؟ ..

المأمور حقا لا يأكل من مثل هذا الكلام . قام فلوى ذراع شيخ البلد بعنف استغربته منه هو الذى أطاح بالأرزة منذ قليل .

قال شيخ البلد لاويا عنقه محاولا أن يواجه المأمور :

ـ أنا .. أريد أن .. أقول لك ياحضرة المأمور .. لك حق تفعل بي هذا .. لكن .. أنا لست نذلا الى هذا الحد .. أنا عندى نظر .. لو كنت أخذت الحقيبة فعلا كنت .. أقصد كنت وفرت عليك هذا كله .. كنت .. انك لاشك تفهم قصدى .. سبق أن كنت رجلا معك ونفذت كلامي وأعطيتك حقك ..

اشتعلت النار في المأمور . بركبته دفع شـــيخ البـلد في مؤخرته فقلبه على وجهه . صاح شيخ البلد وهو ينهض :

ـ اخص على التربية ..

دفعه المأمور أمامه وخرج به . وجاءني صوته من بعيد يأمره بالنزول الى البئر .. ورحت أرتجف وأنا أتسمع أصـوات صراخ مكتوم تصل من أعماق حجرات داخلية بعيدة أو من فوق السطح لا أدرى . ووضح في أذني صوت نسائي يصيح مولولا :

ـ يادى المصيبه .. حطوه روخر في البير .. اللى سرق سرق واحنا نتحط في البير .. منه لله الحاج ســليم .. قبـل مايتحرك من البلد بعت رجالته سرقوا الشنطة من البير .. ليــه مايقولوش الكلام ده للنيابة ..

جالت بذهني خواطر كثيرة متضاربة ومتناقضة من الصعب الامساك بها . وأحسست بميل لتصديق هذا الصوت . لكن ثمة احساس بالخطر انتابني . وكان من الممكن أن انهار بعد أن ارتفع

صوتنا الى هذا الحد ، وبعد أن اعتدى سيادة المأمور على كل من العمدة وشيخ البلد فى عقر دارهما ، لولا أن دخل المخبر السرى وأبلغنى أن السيد ضابط المباحث ·· بعد اذنى ــ قد اتصل بالمركز وأبلغه بكل أسف عن الظروف طالبـــا منه قوة من العســـاكر للاحتياط ··

أمـرت المخبر السرى أن ينزع الملابس التنكرية عـن هـذا الرجل ــ فما أن تقدم المخبر ليفعل حتى انتقض الرجل واقفـا واقترب منى قائلا فى نبرة مرتعشة :

ــ ان الله حليم ستار يا ســـعادة البيك ·· حضرة جنابك عرفتنى خلاص ··

امرته فى صلف أن ينطق باسمه · قال مترددا :

ــ ما ·· ما ·· حضرة جنابك عرفتنى ··

ــ انطق باسمك

ــ أنا ·· أنا الأسطى فانوس ··

ــ أهلا وسهلا ·· شرفت ياسعادة الباشا ·

ــ الله يشرف مقدارك ياسعادة البيك ·

ــ شف يا أسطى فانوس ·· لن ينقذك سوى شىء واحـد فقط ·· أن تتكلم بصراحة ·· وتعترف بكل شىء ·· و ·· لاحظ أن كلام العمـدة ليس كل شىء ·· احتمال كبير أنه يهلوس ·· يخرف ··

قال بعد تردد :

ــ فــ ·· فعلا ياسعادة البيك ·· العمدة يخرف ·

ــ احذر أن تختلق كلاما تنجو به ·· ففى هذه المرة سنسوف أسويك على الجنبين ·· حتى لو كان ابنك وزيرا ··

مال برأسه موافقا ، وأضاف :

ـ العمدة يخرف تخريفا جامدا ..

ـ كيف ؟

ـ انه رجل لئيم .. يسوق العبط على الهبالة .. يريد بكل وسيله أن تفهم الحكومة أن واحدا غيره حصل على الحقيبة ..

ـ لكنه اعترف على نفسه .. وسواء ضاعت الحقيبة منه أم من شريكه فان هذا لن يغير من موقفه شيئا ..

ـ غدا أذكركم أن محاميه سيعتمد على نقطة ما في هذا الكلام ويدافع منها عن العمدة ..

ـ أفصح عن غرضك ..

ـ أكبر دليل على كذب العمدة هو قوله بأن الحقيبة كانت في بئر شيخ البلد ..

ـ يقول أنه اتفق مع شيخ البلد على سرقتها .. وعلى هذا ثم نقلها بمعرفته سرا من بيت العمدة الى بئر شيخ البلد

ـ كذاب .. كذاب في أصل وشبه ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لأن الحقيبة كانت في بيتى أنا ..

ـ نعم ؟ .. ماذا قلت ؟

ـ أقول أن الحقيبة كانت في بيتى أنا .. ألا تصدقني ؟

ـ وهل يجرؤ مثلي على عدم تصديقك ؟

ـ ورأس أبي يا سعادة البيك انى أتكلم الصدق ..

لم أعد أثق في أنني متيقظ العقل . ان طاقات جبارة ترفع رءوسها الآن في أعماقي تبعث في نشاطا لا أدرى من أين جاء .

لكن جوا من أجواء الحلم يسيطر على كل شيء ، فاننا كثيرا مانرى فى الحلم أنفسنا فى عشرات الأماكن بآلاف المشاهد فيما لايزيد عن بضع دقائق . وفى الحلم لانسأل أنفسنا كيف حدث هذا أو كيف يمكن أن يكون .. واننى اذ أكتب هذا التقرير ـ غير الرسمى وغير القانونى ، والذى سأصر رغم ذلك على وضعه فى ملف القضية ـ لا أحس أننى قد أفقت بعد من هذا الحلم السخيف ، ولعلنى فى أعمق أعماقى لا أرغب فى الافاقة منه ، ولعلنى أحب الآن أن أضحى بكل الصيغ القانونية فى سبيل أن أذكر كل ماحدث بأمانة شديدة ، كما حدث وبكل جذافيره حتى لو كان ذلك على حساب سمعة النيابة والبوليس ومظهرهما ..

وبعد ، يقول هذا الرجل المدعو بالاسطى فانوس أن الحقيبة كانت فى بيته هو ، مع أن البلاغ الذى قمنا على أساسه فى البداية يقول أن الحقيبة سرقت من بيت العمدة .. وبالرغم من أن العمدة بنفسه عاد وذكر أنه سرق الحقيبة بالاشتراك مع شيخ البلد ، وأرشد عن مكانها .. فكيف انتقلت الحقيبة من بيت العمدة الى بيت الأسطى فانوس ، وكيف تسربت من بيت الأسطى فانوس الى بئر شيخ البلد ؟ .. ثم كيف تسربت بعد ذلك من بئر شيخ البلد الى مكان مجهول ؟ .

هذا ما يحاول الأسطى فانوس أن يجيب عنه

قال الأسطى فانوس .

ـ أصل الحكاية يابيك أنك عدم المؤاخذة غير آخذ بالك مما حدث . كيف ؟ .. أنا أقول لك : ليلتها شربت حتى تسلطنت تماما واحسست أننى لابد أن أزوغ قبل أن أصير مضحكة القعدة . لكن .. هل اقوم واترك حقى ؟ .. نعم ان لى حقا .. أمرى لله سأقول .. كان العمدة قد اقترض منى ثمن ثلاثة أرادب من القمح ووعد بتسليمى القمح فى المحصول .. ومرت محاصيل كثيرة

والعمدة « يطرمخ » وأنا أستعمل الذوق ، فأنا والله طيب وألتمس العذر للناس دائما ٠٠ وكنت أشفق على العمدة وأقول ياولد ربما كان معذورا فاصبر عليه ٠٠ أما في تلك الليلة فهاهي ذي الثروة تهبط على العمدة ، اذ أنه سيقبض من الحاج سليم نصيبه جزاء مساعدته في تهريب الحقيبة ٠٠ قل أنني استأذنت لشم الهواء على السطح ٠٠ جلست فوق خن الأرانب وذاب رأسي في ضوء القمر الذى لا أدرى لماذا أريد وجهه في تلك الليلة هكذا ٠٠ فكرت كثيرا في الكلام الذى ينبغي ان أقوله للعمدة ، وفي كيفية التصرف ٠٠ ويظهر أني غبت عن القعدة وقتا طويلا حتى أن العمدة جاء وجلس بجانبي ٠٠ قلت : فرصة ٠ ولكن خطر لى شيء : لابد أن العمدة جاء ليفاتحني في الأمر ٠٠ الا أنه قال بعد برهة :

ـ مالك ياخواجة ٠٠ بتفكر في ايه ؟

وبالمناسبة ٠ المقربون مني ينادونني بلقب الخواجة ، وهو لقب ربك والحق يسعدني ، على أنني في تلك اللحظة صحت فيه مشوحا بيدى في الهواء :

ـ لاخواجه ولازفت ٠٠ أريد نقودا ٠

زام العمدة :

ـ تريد مطالبتي بالثلاثة أرادب ؟

ـ ان جئت للحقيقة أنا ٠٠ أفكر ان اقترض منك مبلغا بسيطا ٠

ـ لا ٠٠ دعك من حكاية السلف هذه ٠٠ فانت يمكنك ان تأخذ حقك جيدا ٠

ـ أنا في عرضك ٠

ثم مال وهمس في أذني :

ـ أريد أن أعرض عليك موضوعا .. اذا وافقتني سنأكل الشهد معا .

ـ أي موضوع ياترى ؟

ـ أنت تعرف أن هذا الرجل ضلالي وابن كلب لايعرف ربنا .

ـ أي رجل ؟

ـ الحاج زفت .. طول عمرنا نخدمه بلا ثمن .

ـ الموضوع .. ما الموضوع .

ـ تعرف أن البلدة في الصباح سيتضح انها سرقت .. الأنفار هنا كما تعلم .. ما المانع أن الحقيبة تسرق مع البلد ؟ .

ـ وما المطلوب مني ؟

ـ تضع الحقيبة عندك .. في بيتك .. فأنت بعيد عن الشبهات .

ـ وبعد أن تهدأ الأمور .. نتصرف .

لست لصا والله يا سعادة البيك . لكنني وجدتها فرصة . وقلت لنفسي : أخذ الحقيبة عندي واتصرف فيها وحدي . وبالفعل نقلت الحقيبة ، ولكنني في الصباح لم أجدها مكانها وعرفت أن رجال العمدة عادوا في الفجر ونقلوا الحقيبة الى بيته من جديد دون علمي ..

● الفصل العاشر ●

للوعد والمكتوب

« يارب صبحنا صباح الخير »
« صباح خواجه ما عليه دين »
« يارب صبرنا صبر أيوب »
« وأيوب لماصبر وفي الوعد والمكتوب »

(اغنية للساقية)

ـ ١ ـ

هتف « عبد السلام » متلهفا :

ـ هيه ٠٠ وبعد ٠

وكان قد وقف ثم عاد يتقرفص أمام « طلعت » :

ـ أكمل ٠٠ لماذا توقفت عن القراءة ؟

وقال « شيخ الغفر » بانفعال شديد :

ـ كنت لبيبا على طول ٠٠ فما الذى أربكك وأوقفك ؟

وهنا قال « دياب » فى أعجاب وزهو :

ـ خل بالك يا طلعت ٠

واذا بالجد « مهيوب » يهب قاعدا :

ـ طلعت لا مثيل له في العب كله ·· ها أنتم قد سمعتموه وهو يقرأ مثل البلبل ·· والله ما رأيت أحدا في الدنيا يقرأ بمثل هذه الفصاحة ·· طبعا ·· أمه لم تشأ بهدلته في الغيطان فتركته لحفظ القرآن والعلم منذ تحرك لسانه في حنكه ·· والله لولا انه يريد أن يشترى لنفسه بذلة الشهادة الابتدائية لما تركناه يذهب الى الترحيلة ·

وكان « الاعرج » قد فتح فمه في بلاهة واخذ ينظر هنا وهناك · أما « عمرو » فقد راح في شرود · وأما الانفار فان معظمهم قد تيقظ ، وقليل منهم كان قد فهم ما يسمع وراح يقول كلاما على الوجيعة · والأقل نطفت وجوههم بالفجيعة · وأخيرا نظر « طلعت » اليهم في حيرة ·· فصاح « عبد السلام » في غيظ شديد :

ـ ما هذا الدلع الفارغ ·· قلنا لك اقرأ ·

قال « طلعت » :

ـ اقرأ ماذا ·· لم يبق هناك شيء لم اقرأه ·

انتبه الجميع وفزعوا :

ـ نفد الكلام ؟ ·· أين بقية الورق ؟

قال « طلعت » كأنه يصفعهم على وجوههم بالصرمة القديمة :

ـ لقد أخذتم الورق ومسحتم به مؤخراتكم ·

وجموا كلهم ·

ـ كيف ؟ ·· من الذى فعل هذا ؟

ـ أنتم ·· كلكم ·· خال الاعرج هو الذى نبهكم فرحتم تفعلون مثله ·

ـ ولماذا تركتنا نفعل هذا ؟

هكذا صاح « عمرو » فجأة بصوت باك ·· قال « طلعت » :

ـ كنتم تشدون المظروف من تحت رأسي وتأخذون الورق ٠٠ لولا أنني كنت أخبيء الورق الذى لم أقرأه ٠٠ وحتى هذا كنتم تسحبونه من تحت ثيابي وانا نائم ٠

قال نفر من الغرابوه :

ـ يا خسارة ٠٠ كانت حدوته مسلية ٠

ضحك « دياب » ٠ وقال « عبد السلام » :

ـ حدوته ؟ ٠٠ يقول حدوته ٠

رد « شيخ الغفر » :

ـ والله أكبر حدوته ٠

هب « عبد السلام » واقفا :

ـ انها قضية ٠٠ قضيتنا نحن ٠٠ فكيف تسميها حدوته ؟

ـ كل هذا الذى حدث ٠٠ ولا تكون حدوته ؟

ـ لكن ٠٠ ماذا جاء بقضيتنا في ورق كهذا ٠٠ وكيف يجيء الورق الى الاسطبل ؟

ـ الا تكون قضيتنا ؟

ـ أقطع ذراعي ان ما كان قضيتنا ٠٠ التي في هذه الأوراق ٠

ـ يا بني آدم ٠٠ قضيتنا في المحكمة ٠٠ فما الذى يأتي بها الى الاسطبل ؟

ـ حتى لو لم تكن قضيتنا فهي قضيتنا !

ان دماغي سوف ينكسر ٠

ـ نريد أن نعرف ماذا تم ؟

ـ الذى تم أننا جئنا هنا ٠٠ الى الاسطبل ٠٠ وصرنا غرابوه ٠

ـ وجاءت قضيتنا معنا ٠٠ شيء غريب والله ٠

ـ وحقيبة الحاج سليم ٠٠ من الذى سرقها ؟

ـ نحن .
ـ متأكد أنت ؟ .
ـ هذا ما قالته المحكمة .. ثم حكمت علينا .
ـ هل قالت المحكمة هذا امام عينيك ؟
ـ لا أعرف .
ـ والمكتوب هنا ؟
ـ حقيبة الحاج سليم .. التى هى عرق الانفار .. سرقها الحكام الاعيان .
ـ لا .. لقد سرقها الحاج سليم بنفسه .. أنسيت ؟
ـ نسيت ماذا ؟
ـ قالت الأوراق شيئا من هذا .
ـ هل قالت هذا حقا ؟
ـ أنا متأكد .
ـ اراهن .
ـ قالت .. قالت .. قالت .
ـ اقرأ لنا يا طلعت لنرى هل قالت أم لا ؟
قال « طلعت » فى غيظ :
ـ لم يعد هناك ورق .. سوى ورقتين اثنتين .
ـ مصيبة سوداء .. كارثة .
قال وهو يتلذذ بإيلامهم :
ـ كنتم تسرقون الورق .. وتمسحون به مؤخراتكم .
ـ والله اننا لحيوانات .. بهائم .. كيف نفعل هذا ؟
ـ تسألوننى ؟
ـ نريد أن نعرف من الذى سرق عرق الانفار .
ـ نريد أن نعرف هل حكمت المحكمة علينا حقا أم لا ؟
قال « طلعت » :

ـ هل ذهبتم الى المحكمة ؟

قال « عبد السلام » مشوحا بذراعه الطويلة المشعرة :

ـ مئات المرات ٠

ونطق القاضى بالحكم أمامكم ؟

ـ هذا مالا نعرفه ٠

ـ لم ينطق ؟

ـ لا ٠٠ لقد نطق ٠

ـ ماذا قال اذن ٠٠ بالضبط بالضبط ٠٠ ؟

قال « شيخ الغفر » :

ـ لم نفهم كلام القاضى يومها ٠

قال « عمرو » :

ـ انك تنسى يا شيخ الغفر ٠

شوح « عبد السلام » :

ـ أنا أيضا نسيت ٠

قال « عمرو » :

ـ يومها قال الابوكاتو ٠

ـ كان مع الاسطى فانوس ٠

ـ وشيخ البلد أيضا كان معه واحد ٠

ـ والعمدة كذلك ٠

ـ لكن الابوكاتو ٠٠ قال يومها ان القاضى سينطق بالحكم فى المرة القادمة ٠

ـ بالضبط ٠٠ بالضبط يا عمرو ٠٠ قالوا لنا تعالوا فى الجلسة القادمة ٠٠ وأنا نفسى ذهبت الى الكاتب الذى يجلس بجوار القاضى ٠٠ غير أنه لم يسمح لى بالاقتراب منه ٠٠ اعطيت

بريزة يشتغل بها رجلان طول النهار للولد كاتب المحامى وبعثته لكاتب الجلسة يسأله ٠

فماذا قال لك ؟

ـ قال أن القضية تأجلت للنطق بالحكم ٠٠ ثم كتب لى ورقة صغيرة قال انها تاريخ الجلسة ٠٠ أين راحت ؟ ٠

وأخذ يبحث فى محفظته ٠ فلم يجد بها سوى ثلاثة اختام مربوطة ببعضها فى فتلة دوبارة ، وقسيمة زواج ، وورقة قال انها شرط ملكية الدار التى نزعوها منه مؤخرا ولم تكف للسداد ٠ وكانت عين « طلعت » قد اتسعت وبرق فيها كلام كثير بعيد الغور ، لكن يبدو أنه لم يستطع الامساك به ٠٠ فقال فى لهوجة :

ـ لا يهم يا خال « عبد السلام » ٠٠ لا يهم ٠٠ هذه الورقة لا أهمية لها ٠

شوح « عبد السلام » وزفر ، ثم دب المحفظة فى جيبه ٠

ـ المهم ٠٠ هل ذهبتم الى المحكمة يوم جلسة النطق بالحكم ؟ ردت أصوات كثيرة ٠

ـ لا ٠٠ لم نذهب ٠٠ لم تكن نعرف ٠٠ لم يقل لنا أحد ٠

ـ كيف هذا ؟

العمدة أرسل الينا الخفراء ٠٠ فلمونا من المنازل ٠٠

ـ العمدة كان متهما هو الآخر ٠٠ فكيف هو الذى يبعث لكم ؟ ٠

ـ لكنه عمدة ٠٠ نعم انه متهم ٠٠ ولكنه عمدة ٠٠

ـ فكيف اذن جئتم الى الاسطبل وصرتم أنفارا ؟ ٠٠

ـ أخذنا الخفراء الى الدوار ٠٠ وكان هناك العمدة وشيخ البلد والاسطى فانوس وأفندية كثيرون لم نعرف من هم ٠٠

وقال العمدة أن المحكمة حكمت علينا جميعا برد ما سرقناه من الحاج سليم ·· ثم صاروا بعد ذلك يأخذوننا ويتركوننا كل يوم ·· ومن لم يستطع أن يدفع شيئا جاء الى هنا ليشتغل والحاج سليم يقبض يوميته ··

قال « عمرو » وهو يجز على أنيابه :

وقال « عبد السلام » :

ـ ليتنى صدقتك يا طلعت من الأول

ـ نحن نستأهل ما يجرى لنا ·

قال الجد « مهيوب » فى تشف واضح :

ـ طبعا ·· قضيتكم بين أيديكم ·· تمسحون بها مؤخراتكم ؟

ونفخ « شيخ الغفر » كل الهواء الذى فى صدره ، وزغد الأعرج فى جنبه قائلا : « انزاح » · فقال الأعرج :

ـ ما فعلنا شرا ·· لقد كان ورقا ·· وانتفعنا به

قال « طلعت » فى استنكار :

ـ مسحتم به مؤخراتكم ··

قال « الاعرج » مستنكرا هو الآخر :

ـ ما العيب قل لى ·· قبل مجىء الورق كنا نضع خراءنا تحت أقدامنا ·· ها أنتم ترون الآن ان الاسطبل صار بلا رائحة نتنه ·· اننى الآن أنعى الهم ·· ولا أدرى ماذا سأفعل بعد أن نفذ الورق ·· ويكون شيخ الغفر رجلا بحق لو أعطانى الورقتين الباقتين لانى محتاج اليهما الآن ··

صرخ الجميع :

ـ والله نأخذ رقبتك قبل أن تأخذهما ·

وقال « عمرو » بحقد شديد :

ـ من أدراني أن الاعرج لم يلف خراءه باسمى وعريضتى ؟

فصاح « الاعرج » بنفس الحقد :

ـ ولماذا الا تكون أنت نفسك الذى لففت ؟ ·· من ذا الذى كان يرمى تلك اللفة الكبيرة الساخنة ، يوم جاءت فى دماغ واحد من السائرين فى الشارع خبط لزق ووقعنا فى عرضه حتى تفوت الليلة على خير ؟ ·· هيه ·· قل ··

لكن « عمرو » انخرس · الا أنه صرخ فجأة صرخة مفجوعة ، اذ كانت سنته قد غاصت فى لسانه · وعاد « شيخ الغفر » يزغد الأعرج ثانية فى جنبه قائلا :

ـ قلت لك انزاح ·· انزاح يا وجه الخراب ··

امسك « الاعرج » جنبه وصاح متألما ، ثم سب ديك القضية وكل من فيها · هجم عليه « شيخ الغفر » وبرك فوقه ، وظل يضربه حتى لم يعد فيهما نفس · ولم يجرؤ مخلوق على رفع صوته بالصراخ أو الصياح ، بل ان المتعاركين كانا يدقان عنق بعضهما البعض فى صمت ، ولا صوت الا صوت اهتزاز الجدران وزلزلة الباب والأرض ··

ـ ٢ ـ

كانت فرقة العزيق قد انتهت من الشريحة الشرقية لحوض السلكاوى ، وأمر الخلولى بأن ينتقلوا للتخليص على الشريحة الغربية لانهم فى هذا اليوم فقط عليهم أن يقطعوا « فرط » حوض السلكاوى بكامله · تقدم « القيدة » حاملا فأسه على كتفه

وخلفه صف من الانفار ينتهى « بالساقة » • على مقربة منهم مشى الخولى يجر ساقيه وبلغته القديمة ويطوح عصاه • كانوا جميعا يمشون فى تراخ ليمنحوا ظهورهم فرصة للاعتدال من عناء الانحناء الطويل •

منظرهم لم يعجب الخولى • خيل اليه أنه لم يكن قد دقق فيهم جيدا حين تسلمهم ، ولو فعل ، لما اكشف الآن أنهم جميعا مصابون بالهزال أو العرج حتى « القيدة » نفسه ذا قدم طبيعية والأخرى مكورة كالقنفذ بلا أصابع ولا كعب ، أما « الساقة » فكان مريضا بالطحال وبعين واحده • قال الخولى لنفسه : « هذه فرقة لا تنفع للعزيق ولا لشتل الارز ولا حتى نقاوة اللطع •• من الجائز أن تنفع فى أى شيء أما العزيق فلا » • ثم بصق على الأرض ، ولعن أب الرجل الذى لا يسمى ، وزعق :

ـ أفرش لكم لتناموا ؟ •• يا أولاد الكلب يا من لا ماركة لهم ؟

وانهال عليهم بالضرب ••

صار كل منهم يدفع الآخر أمامه مهرولا ، وأيدى الفئوس تزغد الاكتاف من الامام وحديدها يصطدم بالوجوه من الخلف • شيئا فشيئا بدأت المسافات بينهم تتسع • واذا بالكاتب قد خرج من بين أعواد التيل ووقف يتابعهم خلسه ويخيل اليه أنهم يرقصون رقصة همجية غامضة •

ـ عال عال •• والله عال •• اليس عندكم رقص أحسن من هذا ؟ ••

هكذا صاح الكاتب متهللا ، ولكن بصوت فيه نغمة سابت لها ركب الجميع ، وارتبك الخولى وانهال عليهم بالضرب من

« الساقة » الى « القيدة » صاروا يبرطعون تحت وابل العصى ، كالأغنام الهزيلة ، لكن الكاتب صرخ : « قفوا » فتسمروا فى أماكنهم يلهثون يلقطون النفس ..

تقدم منهم الكاتب والشرر يتطاير من عينيه :

ـ نحن حقا اتينا بكم هاهنا لتشتغلوا لا لترقصوا على شاطىء القناة .. وما دمتم قلبتم المسألة رقصا اذا لابد وأن ترقصوا جيدا ... انكم فى النهاية لابد وأن تتقنوا شيئا .. أى شيء .. ولكن نكلم من ؟ .. نكلم من وأنتم جميعا زباله مقطوعو الحيل والقلب والنفس .. أهذا منظر أنفار « شغيله » نهارهم لم يبدأ بعد ؟ .. ماذا ستكون حالكم اذن فى زنقة القيالة ؟ .. ستموتون باذن الله .. أنا أعرف هذا .. حضرة الباشكاتب محق فى قوله ان المقاول يورد للتفتيش جثثا لم تجد مكانا تموت فيه ، فاختارتنا ، اكرمها الله ، لتموت فى أرضنا .. انما وحق بارىء الأرض والسموات انى ما أعرف غير الخنق باليد .. وسوف أكون مبعوث العناية الالهية فى التخليص على أى منكم اذا ما بدأ يتثاءب ، لكى أريحه من التعب .. الى أين أنتم ذاهبون الآن .. أقصد أين الفرح الذى أردتم أن تذهبوا اليه راقصين ؟ .. لعله فرح أمكم القحباء ؟ ..

و « لطع » هذه الكلمة الأخيرة في وجه الخولى ، الذى نكس رأسه فى الأرض ولم يتكلم ، فصرخ الكاتب : « انطق » . فقال الخولى :

ـ كنا .. يا حضرة الكاتب .. ذاهبين الى الشرخة الجديدة

ـ ألا يجب الانتهاء أولا من القديمة ؟

ـ خلصنا عليها والحمد لله .

راح الكاتب ينظر حواليه فى الأرض مرددا بسخرية :

ـ نعم ٠٠ ماذا تقول ؟

ثم أخذ يشـــير ببوز الشمسية الى خطوط القطن التى يقف على ضفتها :

ـ طبعا ستقول أنكم عزقتم هذه ؟

قال الخولى :

ـ نعم ٠٠ عزقناها

مد الكاتب يده وشد الخولى من خناقه فى غيظ ـ رغم أن الخولى يزن عشرة من أمثال الكاتب ، الا أن يد الكاتب ، على ضعفها وهزالها ، استطاعت أن تقلب الخولى على وجهه مطوحا بيديه الى الخف يحمى بهما مؤخرته من الشلوت الذى يعرف أنه سيناله ، وقد ناله ٠٠

شحبت الأجساد الهزيلة وتهدلت كروشها وأخذت صدورها تعلو وتهبط ٠ وخرجت الألسنة الجافة المبيضة ومرت على الشفاه المتشققة خلسة ثم اختبات كانت خيزرانة الخولى قد تطايرت الى بعيد ٠٠ فخطا الكاتب نحوها وعدلها فى يده ، ثم أخذ يطوحها فى وجه الصف آمرا :

ـ هنا ٠٠ هنا يا أبناء المفضوحة أنت وهو ٠٠ اعزقوا الأرض بما يرضى الله ٠٠

من آخر الصف جاء « القيده » يسحب خلفه بقية الصف ٠

وصارت الخيزرانه تنتفض على ظهر لتستريح فوق آخر ٠

— ٣ —

ـ النفر منا اذا ضرب فى النهار يظل يضرب حتى آخره ·· افهم هذا

هكذا همس « عمرو » فى اذن « طلعت » الذى تملى فى خط بجواره خلف « طلعت » وأعاد تقليب الشجرة من جديد · تناها الى اليمين مرة والى اليسار أخرى ، وفى كل مرة دقق النظر · صرخت الخيزرانة فوق ظهر « الساقة » فاندفع الولد فى الهواء صارخا وانحط فوق الأرض باكيا · وبكى « طلعت » لبكائه ، فقد كان الولد يؤهنه وينوح من قاع بطنه ·· فأحس طلعت أن الولد يبكى عن سنين طويلة مضت ، كأنه ادخر كل البكاء لهذه الضربة فحسب ·

وقف الخولى عند الشجيرة التى نط منها الولد ، وبطرف العصا أشار له أن يعود · الولد يزحف عائدا وصوت بكائه يضيع فى خشخشة الأوراق · دود القطن يتساقط زاحفا على الأرض والخولى يكز على أنيابه · والخيزرانة ترتفع وتهوى ، وترتفع وتهوى · الولد مثل سمكة حية تنتفض فوق النار ·

زحف الأنفار ببطء ، الرعشة فى أرجلهم فى أيديهم فى أنفاسهم فى نظراتهم ··

صرخ الخولى فى الولد « الساقه » :

ـ ارجع خذ الخط من أوله يا ابن الرفضى

ـ ط ·· ط · طيب ··

ـ اشتغل ··

ـ حا ·· شتغل أهه ·· اه ·· اهىء ··

ـ وطى يابن الرفضى ·· وطى ··

ـ حـ ·· حاضر ·· حاوطى أهه

نقص الصف واحدا ، تخلف الى الوراء قليلا · صاح الولد « الفتاش » بصوته الأخنف :

ـ لطعة مشنيره وراء الساقه

الوجوه كلها كشرت ، ونظرت الى الوراء خلسه ، وفى همس لعنت أب الفتاش وأمه ، وقالت أنه غرباوى وسخ ، وصاح الخولى بهدوء :

ـ ارجع ·· ارجع اقطفها ·· لا تخف

لم يكن الولد « الساقه » قد كف عن البكاء بعد · انتصب منعقد الوجه · فوجىء بظل الخولى وراءه فصرخ · وظل الخولى واقفا فى هدوء وقال :

ـ اقطفها ·· احذر أن تقطف الورقة كلها

بحرص شديد ورعشة اقتطف الولد اللطعة وارتدت بها يده لتضعها فى الكيس المعلق فى رقبته · لكن يد الخولى أطبقت عليها ، ورفعتها الى فم الولد · نظر اليه الولد فى رعب وانكمش · صاح الخولى : « هيا ·· ضعها فى فمك » · ارتعد الاولاد · مالوا برءوسهم حتى كادوا يدخلونها بين سيقانهم المنفرجه لكى يتمكنوا من الرؤية دون أن يستديروا · الولد يفتح حنكه عنوة ، تصطك أسنانه ··

ـ أتقرف منها ؟ فمك مثل المجرور ·· كلها يا ابن الكلب ·

وارتفعت العصا · التهم الولد اللطعة مغمضا عينيه · صار يمضغ · وحين شد » طلعت » عينيه بسرعة ليرى بهما الوريقات التى كان الدود قد أحرقهـا وشنيطها أيقن ان الولد « الساقه »

كان ـ خوفا من العصار يمضغ اللطعة فى استمتاع كأنها الحلاوة الطحينية ٠

همس « عمرو » فى أذن «طلعت » :

ـ هذا مـا يحدث على الدوام ٠٠ الولـد عميت عينـاه ٠٠ خلاص ٠٠ فى كل خطوة سيترك وراءه لطعة ٠٠ سيموت من الضرب طول النهار ٠

ومال على خط « طلعت » وساعده فى تقليب الشجيرات ٠ اصطدمت قدم « طلعت » بقطعة من الزجـاج فأمسكها ليزيحها صاح المفتاش بصوت كله سعادة :

ـ لطعة وراء القيده ٠

انهار الصف كله فى الحال ٠ مالت الظهور حتى كادت تبرك فى الأرض ، وتقوست أخرى لتتمكن من النظر فى جذع الشجيرات، وتراجعت أجساد بضع خطوات لتعيد تقليب مافات ٠ وصـــارت الأعين تختلـس النظر الى الخولى فى ترقب ، والى « القيـده » فى اشفاق وتحسر ٠٠ فان لطعة وراء « القيده » معناهـا أنهم جميعـا أولاد كلب لا يعملون ولا ينفعون ، والمصـيبة أن العصـا هى التى تقول ذلك بوضوح وبلا ملل ٠

ولكن الخولى وقف مستندا على عصاه العوجاية ، عاوجا رقبته فى اندهـاش ٠٠ والقيدة مسـمر فى مكانه ٠ وقال الخولى بهدوء مخيف :

ـ نهارك بانت بشائره ٠٠ ارجع واقطفها بنفسك ٠

صار « القيده » يمشى وسط الخط مرتعشا ولكنه ماسـك جسده ٠ مال على الشجيرة نـاظرا فيها كأنـه غـير مصدق ، ثم اقتطفها ٠ وكان المفروض أن يفعل فعلا خسيسا يعاقب به « المفتاش »

ويكيد له كأن يمزق اللطعة أو يفركها فينقص بذلك عدد اللطع فى كيس « الفتاش » فتنتقص آخر النهار سمعته بين الفتاشين · لكن هذا الولد « قيده » بحق ويعرف الأصول ولقد آذاه الفتاش حقا ولكن ها هو ذا يسلمــه اللطعة سليمة فأن ينقص كيس الفتاش أو يزيد أمر لا يزعزع مركزك « قيده » انما الذى يزعزعه حقا هو أن يترك وراءه لطعة · ثم ان « القيده » بدأ الصغل من نفس الشجيرة، وأخذ يزحف بدربة وسرعة حتى لحق بالأنفار ـ وكانوا يتلكئون فى انتظاره ·

مـا ان حاذاهم حتى زغده الخولى بسن العوجاية ـ خلسة ـ فى جنبه فرفع رأســه ناحيــة الخولى فى ثبات و « تنح » لــه · فزغده ثانيــة · فنظــر اليــه بكراهية وقــد تقلص وجهــه وبرزت أنيــابه الصفراء · ولمــا تأكــد للخولى أن الفــرقة لحظت كل شيء صاح فى عداوه :

ـ خل يومك يفوت على خير ·· نعم ·· ليس عندى خيار وفقوس ·

استغرب « القيده » فالعادة أن « القوايد » لا يجب تهزيأهم أمام بقية الانفار ·· ولم يمنع الشرر من أن ينطلق ·· فأعطـاه الخولى ظهره قصرا للشر وأضاف :

ـ ان تكررت فسوف تأكلها انت أيضا ·

وهنا صرخ « الفتاش » وارتمى فوق الأرض يجعر ·

نظر « عمرو » الى « طلعت » ولكزه فى فرح هامسا :

ـ يستأهل ·· أنا الذى غرزت له الزجاجة فى الأرض لكى تذبح قدمه فلا يفترى بعد ذلك ؛

اقشعر بدن « طلعت » وتضايق من « عمرو » ومع ذلك ابتسم ليجامله ، وقال :

ـ حقا ٠٠ انه يستاهل

صراخ الفتاش يدوى ، يزعج العصافير على الجزورين ، يخرم طبلة الاذن ٠ كان متكوما فوق الأرض ممسكا قدمه بيديه ، والدم يتدفق ويتسرب فى شقوق الأرض ٠ جاء الخولى ورفسه بقدمه فى غيظ وأمره أن يبطل الجعير ٠ ثم تقرفص أمامه وانتزع قطعة الزجاج من بطن القدم وحشا الجرح بحفنة من التراب الأسود الرطب ، ولصق فوقه ورقة قطن خضراء ٠ أما الفتاش فقد مزق شريحة من قميصه المهترىء ولف بها قدمه وقام يحجل على قدم واحدة ٠

شخر الخولى ، صاح ٠٠

ـ لا وحياة أمك ٠٠ هذا كلام لا ينفعنا ٠٠ دس بقدمك فوق الأرض وامش ، والا دست أنا فوق رقبتك ٠

فداس الولد فوق ألمه ولكنه لم يقدر على حبس البكاء ٠ مال على أول شجرة ثم صاح بصوته الباكى :

ـ لطعه وراء الولد التلميذ ٠٠ عدو الشمس هذا ٠٠

انتفض « طلعت » ٠ لكنه ترك قلبه يسقط بين قدميه حتى لا تسقط من عينيه دمعة واحدة ٠

ـ ٤ ـ

ستة رجال كانوا يطهرون المصرف فى أسفل حقول الأرز ٠ يصطفون وراء بعضهم تفصل بينهم مسافات بعيدة ، وكتلة

الطين الأزرق تتكوم على الجانبين وتربط فيما بينهم . وكان الخولى قد جلس على مقربة منهم تحت شجرة الجميز وأخذ يبرم لنفسه سيجارة ، ويتفتف بقايا ورق البافرة وينظر الى هنا وهناك خلسة . شاربه الكثيف الاشيب أخذ يهتز فيما هو يسحب النفس من السيجارة . فتح فمه ليصب القدر اللائق من الشتائم حتى لا يتصور الانفار انه قد نام . لكنه أغلق فمه . وتصعب ، ثم غمغم : « سبحان مغير الاحوال » . الا أنه أيقن ألا مفر من الكلام ، فصاح وهو يزدرد بقايا الدخان .

ـ وبعد .. وبعد يا شيخ الغفر .. ألا تريد أن تفوتها على خير ؟ .. اخز الشيطان يا رجل واشتغل بما يرضى الله .. حكاية انك شيخ غفر هذه كانت زمان .. أنت الآن نفر .. أنت لست أحسن من أحد .. فلا تجعلونى أعاملكم كالصغار فاقف وراءكم بالبوصة .. واننى لفاعل هذا بدون شك .

وكان « شيخ الغفر » يرتدى القميص الأزرق البيسه ويخوض فى الطين بقدميه ويديه مقابل ستة قروش فى اليوم ، لا ليؤكل بها أولاده بل ليقبضها المقاول نيابة عنه خصما من الدين الذى حكمت به الحكومة عليه . فغمغم « شيخ الغفر » وهو يكوم الطين الأزرق بيديه فى قاع المصرف : « هه .. لا يكفيه أن الزمن الاعمى وضعه خوليا على شيخ الغفر » وضغط حفنة من الطين بيديه وطوحها على الشاطىء : « عبد من عبيد التفتيش لا هنا ولا هناك .. يعرف أننا نشتغل سخره .. ويعرف أننى أعرف الحقيقة أكثر من غيرى ثم يسوق الخولية على » . انحنى ليجمع الطين من قاع المصرف وقال لنفسه انه لابد أن يرى هذا الخولى مركزه قبل أن يمرمط كرامته أمام الانفار ، ثم انسابت كومة الطين من بين يديه فانحنى يلمها من جديد .

ـ اذا لم أستطع تربيتك يا شيخ الغفر سأحلق شاربى ..

هكذا صاح الخولى رافعا رقبته من بين ركبتيه . طوح « شيخ الغفر » بكومه الطين الأزرق على الشاطىء ، وبصوت عال وصف فرج أم الخولى بأنه أحمر . هنا انتفضت كومة اللحم تحت شجرة الجميز محاولة النهوض مطوحة بالعصا ، لكنها تعثرت ، فانهارت متكومة ، ثم سارت تتدحرج ، اكتسحت فى طريقها كتل الطين الطازج فتلفعت بها ثم هوت الى قاع المصرف .

صاح « شيخ الغفر » مستغيثا ، وخلص قدميه من قاع المصرف وانطلق يجرى على الشاطىء .. رأى ظلالا كثيرة لرجال كثيرين قادمين يجرون نحوه . رمى بنفسه فى المصرف وشد الخولى من جلبابه . فخرج يشر منه الماء الرمادى ، يلهث يشهق ، يتطوح رأسه على كتفيه . كان يغمغم و « شيخ الغفر » يسنده . حين تمكن من الوقوف على قدميه رفع ذراعه الهزيلة وخبط « شيخ الغفر » بالقلم على وجهه . عرف « شيخ الغفر » أن الخولى ما كان ليجرؤ على هذه الفعلة فى غير هذه اللحظة ، فابتسم ، وأمسك يد الخولى فأعادها الى جنبه فى هدوء ولكن بتهديد . تجمع بعض الانفار وسألوا عن الحكاية ، فاستدار لهم الخولى وشخط فيهم صائحا بأن الحكاية هى أن يعودوا الى الشغل ولا يعملوها حلوانه فى سلوانه .

وكان « شيخ الغفر » هو أول من استدار عائدا الى حيث كان .

— ٥ —

— خولينا يا أبو دكه صوف ..

يا أبو دكه صوف .

شربنا واعمل معروف ٠

اعمل معروف ٠

خولينا يا أبو دكه حرير ٠

يا أبو دكه حرير ٠

شربنا وانت الأمير ٠

انت الأمير ٠

واحلو صوت البنت « هانم » وصار الانفار يرددون خلفها في غنـاء شـجى دامع ٠ وكانت شمس الظهـيرة تتوسط السـماء وتركب فوق الظهور المنحنية ، والحيـاة تسـيل عرقـا يتساقط فوق الاعواد النابتة ٠

تلفت الخولى خواليه وصار يدندن هو الآخر : « يا حلو سلامات من العام اللى فات بهلال » ٠٠ وصل الانفار الى حافة الزراق ـ وهو الجسر الرفيع الذى تتفرع منـه الخطوط التى تنتظم الأرض تلكأ « القيده » قليلا فنظر اليه الانفار باستحسان ، وانتظروا أن يصيح الخـولى صيحته المنتظـرة ٠٠ « اقعـدوا اتشربوا » لـكى يجلسوا فى الحال فى أماكنهم يتشربوا أنفاسهم لبضـع ثـوان ٠ على أن الخولى صاح بينما يضغط بأسنانه على لسانه : « لا أريد اللكاعة يا ابن الحمـار أنت وهـو » ٠ فانتفض « القيده » وقفـز سائرا على حـافة الزراق والأنفار تنط من خطوطها وتنتظم وراءه ثم تتملى في خطوط جديدة بجواره ٠ فلمـا اكتمل شملهم بـدأ « القيـده » يقلب الشـجيرات متعمدا اظهـار التعب ، فاسـتمات الانفار وتهامسـوا : « نشف رأس الخـولى » وفى الحـال ارتفـع صوت البنت هانم :

ـ خولينا يا ابن الاصول ٠٠

يا ابن الاصول ٠

شربنا من غير ما تقول ٠

من غير ما نقول ٠

اعتدل الخولى وفرد الشمسية فوق رأسه وزأر :

ـ اشتغل يابن اللوطى منك له ٠

ثم انطرحت عصاه ـ من باب المرح فقط ـ فوق ظهر « الساقه » فصرخ . ثم امتلأت الخطوط بالصراخ ٠ فجأة ظهر الباشخولى بجانب الخولى وكان قد طلع من بين أعواد التيل ، وأخذ يروح ويجىء منكسا رأسه فى الأرض ، يقلب الشجيرات بعصاه العوجاية ويلقى نظرات عابره ٠ ثم ظل صامتا فى انتظار أن يصيح أحد الفتاشين معلنا عن لطعه وراء فلان أو علان ٠ لكن جميع الفتاشين كانوا مثل الزنابير رائحين عائدين خلف الانفار بالعرض ، ولا يصيحون بأى شىء انما يقطفون اللطعة من وراء النفر خلسه وفى دربة ، فاللطعة فى هذه اللحظة فقط لن تكون وراء النفر فلان بل تكون وراء الخولى نفسه ٠

سرح الخولى بناظريه مطلقا من فمه صفيرا بنغمة : « يا وابور الساعة اتناشر يا مقبل ع الصعيد » ٠ زهق الباشخولى من التنحنح ، فكح وبصق على الأرض فى غيظ ٠ هنا نظر اليه الخولى صائحا بدهشه خبيثة :

ـ باشخولى ؟ ٠٠ أهلا باشخولى ٠

ال الباشخولى :

ـ أقفل هذه الشمسية ٠٠

ـ لماذا ؟ ٠٠

ـ الشمسية لا يمسكها الا الكاتب ·· الباشكاتب ·· الناظر أنا يا باشخولى لا أمسك شمسية ·

ـ ما ذنبى اذا لم يكن عندك شمسية ؟

صاح الباشخولى مشوحا :

ـ لا نأخذ منك سوى طولة اللسان

ـ احترم نفسك يا باشخولى

هكذا زار الخولى ضاربا الأرض بقدمه ·

ـ طيب ·· طيب ·· سأريك كيف أحترم نفسى

واستدار الباشخولى وصار يهرول حتى اختفى · صاح الخولى متعمدا أن يسمع الباشخولى صوته ··

ـ أقعدوا اتشربوا يا ولاد ·

جلس الانفار فى أماكنهم · امتدت أيديهم وسحبت من ظهورهم قطعا من العيش المقدد راحت تطحنه براحتى اليد ثم تسفه فى نهم · ومال بعضهم على بعض وهمس مؤكدا أن ما يقال عن هذا الخولى يبدو صحيحا ، وأن أمه الخادمة فى سراى التفتيش تسنده وتحميه ·

ـ ٦ ـ

العين تبكى وتشاشى
وتقول الكاتب ماجاشى

والعين تبكى وتشاشى
وتقول الكاتب ماجاشى

والكاتب يعرف أن هؤلاء الملاعين يعرفون انه قد جاء بالفعل وانهم لم يحلموا بمجيئه هكذا الا لكونهم رأوه بالفعل · على أنه لم يستطع منع نفسه من الابتهاج · لكنه حاول ان يشد جلد وجهه من الان حتى يصدق الانفار صراخه ساعة يبدأ الصراخ ، فانه ان لم يطلق فى كل فرقة بضع صرخات هائجة لا يكون كاتبا بحق وحقيق ولا يصلح لتمثيل التفتيش · هو يعرف أن الانفار يتمنون لحظة قدومه فى الظهيرة ليدون أسماءهم وعددهم ، وفى العصارى ليراجع الكشوف عليهم ففى مثل هذه اللحظة يسمح لهم بالوقوف لدقائق يريحون فيها ظهورهم الى أن ينتهى الكاتب من مهمته ويتأكد أن هذا الصوت خرج من هذا الجسد وأن هذا الجسد هو نفسه الاسم المدون فى دفتر التفتيش ·

كانت الفرقة تقبل زاحفة من بعيد متكورة الاجساد مثل صف من القرود عارية الاذرع والسيقان والمؤخرات · رآه الخولى ، فأقبل نحوه مهرولا · رفع الكاتب ذراعه وبسط كفه نحو الخولى مشيرا له بالبقاء حتى يجىء مع الفرقة على مهلهم · ولو لم تكن مياه الرى قد راحت تتسرب خلال الزراريق لاخترق الكاتب الأرض ذاهبا الى الفرقة ·

ـ والعين تبكى وتشاشى ·

وتقول الكاتب ما جاشى ·

والابتسامة غلبت مقاومة الكاتب ونورت وجهه · وتذكر المنديل الذى فرده على رأسه تحت الطربوش · فرفع الطربوش وأزاح المنديل ماسحا عرقه قصار المنديل مثل الأرض تماما ، فكوره ووضعه فى جيب الجلباب السكروته المهفهف · وفتح دفتره المستطيل وراح يفر صفحاته · على أن أذنه كانت تستلب صوت البنت التى تقوم بالحداء ويرد الانفار عليها · فى صوت

الملعونة جلجلة مبحوحه تهدر فى عروقه · لابد أنها غرباويه - فالأمر الذى لا يجد له تفسيرا حتى الآن هو ان الغرباويات جميعهن حلويات الصوت ، لا يقصد حلاوة الصوت كأنهن المطربات ، ولكن آه من تلك الحلاوة التى لم يسمعها الا فى أصواتهن ، لا يستطيع وصفها ، لكن شيئا ما فيها يجعلك تحس بالرغبة فى البكاء ، وتذرف من الدموع ما يغسل صدرك من وساخة الاوجاع ، ولابد ان تتذكر اهلك وعيالك وكل ذويك فى البلدان البعيدة · انما لا · انه لا يجب أن يأكل من هذا الكلام · ومع ذلك فان هذه الجلجلة التى فى هذا الصوت صريحة وواضحة وهو لن يتغابى أمامها · ملعون أبو زوجته التى غارت فى كسحة ، انه عما قريب سوف يتزوج واحدة من أصل تركى تكون عونا له على « مصاعب » الحياة · وقال لنفسه أنه يجب ان يسأل هذه البنت عن اسمها · لا بأس من أن يمتدح صوتها · لا ·· يجب ان يظل كاتبا ويطلبها الآن لمساعدة خدم السراى فى أمر من الأمور ·

ـ والعين تبكى وتنوح ·

وتقول الكاتب مروح ·

وهدرت موجة الأصوات · كانت ثمة ظلال قاتمة يشتد زحفها · استغرب الكاتب كيف يخرج هذا الصوت الحلو من هذه القرود العمشاء ؟ · أحس بأنه يجب ان يؤجل فكرة دعوة البنت للمساعدة ، ثم بصق ، وكانت عينه قد سطت على البنت الغرباويه فذهب اليها بينما كانت مستمرة فى الحداء ·

التحمت عيون الظهيرة بعيون الانفار وسرت وراء الكاتب عدة خطوات ذاهلة · وقف ناظرا الى البنت نظرة التوت لها كل ملامحه التواء شريرا · تدفق الدم فى خدى البنت وازاح عن وجهها القشرة المحروقة كان جسدها قد استوعب الخطر الغامض

المجهـول • الـكاتب يحاذيها وهذا شرف يستوجب الترحـاب • انهزمت الابتسامة التي كانت مثل كرة من البللور تتقـافز فـوق ملامحها بينما هي تنتفض رافعة يديهـا تنقى بهما شرا غامضـا • ثم انهـا صرخت ، ووقعت على الأرض ، لكن عيون الظهـيرة لم تصدق انه زغدها بعنف فى جنبهـا • وحين رفعهـا عن الأرض قابضا بكفه على ذراعهـا ليزرعها واقفة ثم يصفعها على خدهـا جحظت عيـون الظهيرة واجمـة • وكان صـوت البنت يتلوى مع المياه الداكنة المنسربة خـلال القنيان والزراريق ، وبنفس الجلجلة التى كانت تغنى بها بكت بحرقة •

انكسرت العيون ، وتقهقر الكاتب بعـد ان زرعهـا فى الصف من جديد • راح يلهث ويعدل طربوشه • ثم أخذ ينادى الأسـماء واتر كل اسم ينسمع كلمـة : أفنـدى • واذ صـار كل شىء على التمام وطوى الكاتب دفتـره تحت ابطـه حـاذاه الخـولى وهمس فى أذنه :

ــ ما الأمر يا حضرة الكاتب •• ما الذى فعلته هذه البنت ؟

طوح الكاتب رأسه ودمدم فى اشمئزاز :

ــ بنت كلب •• غرباويه •

ــ نعم •• ولكن ماذا فعلت حتى نريها شغلها • لابد انها أجرمت •

فهز رأسه ثانية وتهيأ للسير وهو يتمتم :

ــ انها بنت كلب والسلام •

واستعد ليقفز القناة • وكان هـدير الاصوات المتباعدة قـد جدأ يودعـه بنفس النبرة ، وبحـداء نفس البنت : العـين تبكى وتنوح •• وتقول الكاتب مروح •

● الفصل الحادى عشر ●

لغــة المسوقة

« ركبـونى الرحا وقالوا شديده »
« يا كام بالهنا والليالى السعيدة »
« طحين الرحا ع الشباب قاسى »
« وأنا عجيبـه من عجايب ناسى »
« طحنت الرحايه مالقيت لى حيل »
« ليه العجوزه اللى ماتنام الليل ؟ »
« طحين الرحايه ع الشباب عذاب ؟
« ليه العجـوزه وخادم الأحبـاب »
« نزلونى سوق العبيد ورضيت »
« وعيطونى باسم المره ٠٠ مارضيت »
« ونادوا وقالوا : يا بخيت رضيت »

(من أغانى الرحى)

- ١ -

جلس « عشم أفندى » الباشكاتب فى شرفة السراى واضعا رجلا على رجل · رغم أنه لم يكن هناك ذباب ولا بعوض فى تلك اللحظة الا أنه حرص على حمل المنشة فى يمناه · لم يكن هناك شيء محدد يريد أن يفعله · راح يتلفت حواليه محاولا أن يكون ملكا أو رجلا عظيما : ولابد أنه كان يتساءل : لماذا جمع خفراء التفتيش كلهم الآن تحت السراية ؟ · من المؤكد أنه كان يريد أن يكلفهم بشيء ·· فما هو هذا الشيء ؟ · المؤكد أيضا انه شيء هام ·· اللعنة ·

ارتكن بكوعيه على حافة الشرفه · رآهم ينكمشون يتداخلون فى بعضهم ويصلحون من هيآتهم · انبسطت ملامحه نطقت بالسعادة · ظل هكذا برهة طويلة · تحركت شفتاه لكن دون صوت · أخذ يذب الهواء فى عصبية · جلس مسندا ذراعه على حافة الشرفه · أخذ يدعك فى جبهته ، كأنه بدعكة مقبلة سوف يمسك بذهنه ويقرره بالشيء الذى يريد ·

·· لم يتحرك أحد من الخفراء · ظلوا كما تركهم منذ برهة · لكن عيونهم دب فيها نشاط سريع ، راحت تتقافز نحو بعضها فى خبث ضاحك ، تشير لبعضها البعض الى حافة الشرفة · لمحة سريعة والتقت كل العيون على نقطة واحدة ، ثم اندفعت الأجساد تهتز فى عنف بفعل ضحكات مكبوته تتمرد على الحبس فى الصدور ، فتخرج من الأنوف والحلوق ، لتهرب وتختفى فى الحال وقد تنكرت لها الوجوه بسرعة · لم تكن القطة التى التقت عليها العيون سوى رأس مقبض المنشة العاجى المستطيل ، المبروم فى

شكل معين ، البرونزى اللون ، الذى ينتهى برأس مقلوظة تترك فى الذهن انطباعا قبيحا .

أخذت الضحكات الهاربة من محابسها تطوف بأذهان الخفراء ثم ما تلبث أن تعود آلى حيث انطلقت لتنطلق من جديد ، تتحول الى حوار هامس غير منطوق ، حوار كثيرا ما دار بينهم فى غير هذا المكان حول هذه المنشة وحول مقبضها هذا بالتحديد .. فعشم أفندى لا يترك هذه المنشـة من يده أبدا حتى وهو نائم . حينئذ يضيف أحدهم قائلا فى خبث : « بل هو لا ينتفع بها الا عند النوم » . وهنا يتطوع ثالث فيمتدح اليد العاجية ونعومتها ، ويمتدح ـ فى نفس الجملة ـ شباب الست اجلال .. وجسدها المتفجر بالحيوية . تصطدم هذه الصورة بصورة « عشم أفندى » بساقيه الهزيلتين فتنفجر الضحكات صاخبة عالية مدوية فى الحقول البعيدة العريضة .

ارتعد « عشم أفندى » وكذب أذنه فى أن يكون ما وصل اليه ضحكا ، ثم هب واقفا فى غضب شرس . مال بجذعه فوق الحافة شاملا الجميع بنظرة مؤنبة مستفزة . الوجوه صـــامتة . لكن صمتها يشي بأنها انتهت لتوها من افراغ شيء كان يثقل الصدور ازدادت حيرته . بصق فى الهواء بغيظ ، جلس ، يكاد يعصف به الغضب . صفق بيديه .. وطلب شيخ خفراء التفتيش .

تقدم شيخ خفراء التفتيش ومثل بين يدى الباشكاتب ينتظر أوامره ، انجعص الباشكاتب وذب الهواء بالمنشة كمـا يفعل عليه القوم القادمون من الباب العالى تصـــلب شيخ الخفراء فى وقفه باحترام كبير ، ولابد أن رأيه فى هذه المنشة .. الذى كثيرا ما ردده بين الخفراء ـ قد طاف بذهنه الآن . ففى رأيه أن التفتيش قد سلم هذه المنشة « لعشم أفندى » مثلما يوزع البنادق على الخفراء والعصى على الخولة والباشخوله ، فاذا كانت البندقية سلاح الخفير والعوجاية سلاحا للباشخولى والخيرزانة سلاحا للخولى والكرباج سلاحا للناظر فالمنشة أيضا سـلاح للباشكاتب .. كيف يا شيخ الخفر ؟ ..

افهموا يا بهائم .. فبها . نعم بهذه المنشة يقتنع الأنفار كلهم انه ليس موظفا مثل أى موظف ، انما هو ذو صلة وثيقة بأصحاب الوسية ، يتقمط بالبذلة مثلهم . ويلبس الطربوش والبرنطية ، ومثلهم أيضا لا يدع المنشة من يده ، هكذا علية القوم كلهم . وهكذا أيضا لا تكف المنشة عن الذب يمينا وشمالا خاصة حينما يمثل أحد على شاكلتنا بين يدى أحدهم .

انحرف شعر المنشة ولسع وجه شيخ الخفراء . ارتعد . خيل اليه أن المنشة عرفت ما يدور فى ذهنه ، فكف ذهنه عن التفكير تماما . ظل واقفا كالصنم حتى ينتهى الباشكاتب من رشف القهوة . ويبدو انه خاف أن تعلن المنشة عما رأته فى ذهنه فتقدم باهتمام وأشعل عود الكبريت أمام سيجارة الباشكاتب لكن ذبة واحدة من المنشة أطارت العود والعلبة من يده فلم يفكر فى الانحناء لاستعادتها .

شخط الباشكاتب :

ـ هيه .. ماذا تم فى الاسطبل ؟

ارتخى شارب شيخ الخفراء ..

ـ كان المفتاح لدى الست .. ولم نعرف .. أقصد .. لم نعرف ما كان يحدث .. رفع الباشكاتب رأسه باهتمام ..

ـ هل حدث شىء جديد بالداخل ؟

ـ ما يحدث كل يوم .. الصراخ طول الليل .. العراك ـ الناس تجرأت .. تشتم التفتيش والمقاول والعمدة والقاضى . هناك أيضا الولد الذى يغنى فى الليل ويترحم على رجل مات كان بيده الأمر ، والبلدة كلها تسمعه وتبكى بحرقة .. ثم أنه يستغيث قبل أذان الفجر كل يوم .

اعتدل الباشكاتب .. هتف :

ـ وماذا بعد ؟

ـ كنا في العــادة نضرب الباب بدبشك البندقية فتنقطع الأصوات في الحال وتختفي ٠٠ أما اليوم فانهم يلعنون أب الكبير في هذا البلد ٠

خبط الفنجان في الطبق :

ـ وما السبب في هذا ؟ ٠٠

ـ الله أعلم ٠

ـ لابد أن تعلم ٠٠ ما وظيفتك هنا ؟ ٠٠

ـ والله ٠٠ يا سيدى ٠٠ انهم ٠٠ الأنفار ٠٠ يقولون كلاما كثيرا نسمعه في الليل ٠٠ يقولون ما لم نسمعه في حياتنا أبدا عن الأنفار ٠٠ لقد نفخ الله في صورتهم ، فجعلهم يرفعون صوتهم على آخر الزمن ٠

وقف الباشكاتب :

ـ ماذا يقولون ؟ ٠٠

ـ كلام كثير ٠٠ عن الأجرة التى ٠٠ عدم المؤاخذة أكلهــا المقاول ٠٠ عن الذمة التى شبع الحصان من الجرى فيها ٠ يقولون أيضــا عن ٠٠ حاميهــا ٠٠ و ٠٠ عدم المؤاخذة ٠٠ حراميها ٠٠ يضحكون كثيرا يا حضرة الباشكاتب ٠٠ ولما نبهنا عليهم بأن يكفوا عن هذه المسخرة ويتركوا سيرة العمدة والمقاول والتفتيش أثنــاء ضحكهم بدأ الولد يغنى وهم يزاطون خلفه ٠٠ ويستغيث ويؤذن للفجر كأن جامع أمه في الاسطبل ٠

ـ يستغيث ؟! ٠

ـ أى نعم ٠٠ بكلام جديد لم نسمعه من قبل ٠

أنهى الباشكاتب آخر شفطة فى الفنجان ، وأخذ لسانه يلوك طعم البن فى فمه · والمنشة لا تكف عن الحركة · أشعل سيجارة أخرى وزام وراح ينظر الى شيخ الخفراء فى تشكك · الأمر الذى جعل شيخ الخفراء يضع وجهه فى الأرض ·

ــ اسمع يا شيخ الغفر ·· انت لست صريحا ·· انت من حزب الست هنومة زوجة الناظر ·· انتفض شيخ الخفراء وخبط صدره بيده ··

ــ أنا ؟ ·· أبدا والله ·· أنا من حزب التفتيش · وأنا خادمك ··

اعتدل الباشكاتب ؟

ــ جاءنى من يخبرنى أن فى الأمر مظروفا وورقا ·· وولد صغير يقرأ ·· محاضر وبلاغات وقضية ومحكمة ·· وبلد وتفتيش ومقاول وأنفار وعمدة وخفراء وكاتب وباشكاتب وجمعة المؤذن فما هذا الكلام ؟ ·

شحب وجه شيخ الخفراء · ابتلع ريقه · تنحنح :

ــ والله يا حضرة الباشكاتب ·· الحقيقة يعنى ·· كنت وأنا أمر فى الدرك حول الاسطبل أسمع ولدا يقرأ ·· وكنت أقف لأتصنت ·· فأسمع كلاما غريبا ·· كلاما مما تقوله ناس أمام النيابة ، وتقوله النيابة نفسها ·· والولد يا حضرة الباشكاتب لبيب وفصيح ·

وقف الباشكاتب · اندفعت شعيرات المنشة تلسع الهواء فى غضب · انزاح الطربوش الى الوراء ثم أعيد الى الأمام ·· « اذن فكلام الأعرج صحيح ·· وكنت أظنه يكذب من أجل مكافأة » ·

ــ هل قلت الأعرج يا حضرة الباشكاتب ؟ ·

صرخ ٠٠

ـ لم أقل شيئا ٠٠

ـ لابد أن أذنى أصابها الطرش ٠

ـ في الاسطبل فتنة ٠٠ أتفهم يا بهيم ؟ ٠

ـ نعم ٠٠

ـ فى الاسطبل فتنة ٠٠ جازاها الله زوجة الناظر ٠٠ هى السبب فى هذه الفتنة ٠٠ يعني لو سمعت كلامى وتركت الأنفار يبيتون فى الخلاء لما كان هناك الآن ما يقلق بالنا ٠٠ كانوا يسرقون البلد نعم ٠٠ ولكننا كنا تقبض على اللصـوص ونحبسهم وينتهى الأمر ٠

ثم جلس ٠ أشعل سيجارة ٠ سكنت المنشة تماما ٠٠

ـ اسمع يا شيخ الغفر ٠٠

ـ نعم ٠٠

ـ اذهب الآن وهات العمدة وشيخ البلد والأسطى فانوس ٠ قل لهم اننى اريدهم في الحال ٠

ـ سأذهب ٠

ـ سأبصق هنا بصقة ٠٠ اذا لم تعد قبل أن تجف هـذه سأريك شغلك ٠٠ استدار شيخ الخفراء وانطلق يجرى فى اتجاه البلد ٠ ونسى أن يكلم الخفراء الواقفين تحت الشرفة ، فظلوا كما هم ، لا يتحركون ٠

- ٢ -

اجتاز باشخولى السراى عتبة داره فى غبشة الصباح الباكر .. فهلل لخطوه سقف الدار المعرش بالبـوص وأعواد الحطب . زقزقت بعض العصافير المنتمية بأعشاشهـا الى هذه السقوف منذ أزمان بعيدة . انطلقت يمامة ثم حطت على قبـة الفرن فوق برام منكفىء على وجهه وأخذت تدعو الناس أن « وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم » - فهكذا تقول اليمامة كلما صاحت .

راح باشخولى السراى يقلب كافة الأوانى المنكفأة ليبحث تحتها عن طعام يزدرده بعد طول الحـرى والكلام . لم تذعر اليمامة ، لم يطر العصفور حتى السحلية المتلونة بلون الرماد والطين ظلت تبرق بعينها فى عنق الحجر . لم يجد الباشخولى شيئا يأكله . عاد الى المصطبة التى فى صدر الدهليز . حياه الكلب ، « عتريس » ، بأن مط رقبته وتثاءب ثم تلمظ ، وخفض رأسه خفضة سريعة كأنه يتوقع ضربة مفاجئة ، غير انه لم يبدو عليه الخوف أو الفرح .

جلس فوق أول درجة من السلم الطينى المتآكل المواجه للباب صدره يعلو ويهبط فى غضب . ماذا يفعل بحق الله ؟ . لقد صنع المستحيل كى ينفرد وحده بالبقاء فى هذه الدار مع أهله وعياله ، لكن هذه المخلوقات تأبى الا أن تشـاركه فيهـا ، تفرض نفسهـا بالقوة .. نعم وأى قوة أشدة من قوة هذه المخلوقات .. ان سد بالطين جحرا خرج له الفأر من تحت الصندوق أو من داخله .. وأن سحق رأس ثعبان أطلت له أخرى من شق فى سقيفة الدار . تصدت الدار كلها ليال بطولها وقامت بتنقية أجساد بعضها البعض من القمل والبراغيث كما تعمل فى تنقية الدود من أشجار القطن ، ومطاردتهـا فى ثنايا الوسـائد والملابس ولا فائدة .. أما الحمام واليمام والعصافير فلا ضير منها . ربما كانت هى والكلب « عتريس » تؤنس وحشة الدار وتملأ الليل زقزقة وهديلا ونبـاحا .. لكن أغيثونا من بقية المخلوقات التى تشفط دمنا من العروق .

. . . يارب هل كتب علينـا أن نبقي في هذه العيشة الهباب الى ما لا نهـابة ؟ • الجميع يغتني وينتقل الى دور جديدة ، وفلوس جديدة ، أما أنا فتكفيني هذه الخرابة ، الحق علي طبعا لأنني سكت على هذا • اندفع واقفـا ومضى فى اتجاه القاعة الجوانية : كلمـا شكوت حالى للباشكاتب شوح لى قائلا : « دعك من « الفلسفة » « فوالله ياناس لا أنا ولا أبى عرفنـا يوما ما هـذه الفلسفة » لا لبسناها ولا أكلناها ولا شربناها ولا عرفنا لها طعما أو صنفا أو مكانا ، لا أفهم من أمرها شيئا سوى أنها تجيء دائما فى وجهى كلما شكوت حالى •

دخل القاعة تتحسس عيناه الظلام •• لقد عرفت أن هـذا التفتيش نذل وابن كلب ، وكل من يخدمونه كلاب من ظهور كلاب • تعثر وانكفأ على وجهه • نهض • نفض يديه من التراب اذا كانت « الفلسفة » هى أن أنتقل بأولادى الى مسكن نظيف من مساكن التفتيش فأنا سوف أظل فى « الفلسفة » على طول رائحة الظلام المختزن تضيق صدره •• ها هم الأنفار •• الأنفار •• قد حصلوا على مسكن ، قصر يسمونه ظلما بالاسطبل • صحيح أنه بنى للبغال والجياد والأبقار والأغنام ، لكن من قال ان الأنفار يمكن أن يصبحوا فى معزة ساكنى الاسطبل السابقين ، من كان يتصور هذا ؟ أن ترتقى الحـال بالغـرابوة هكذا ؟ • والله أن الأيـام كانت تلعب لمصلحتهم فى السنوات الماضية ، فالتفتيش يستجلب قطعانا جديدة من الخيول والأبقـار من أنواع غالية الثمن •• قامت فى دماغ المفتش • نعم •• أيامها كنت سائسا فى الاسطبل وعرفت ورأيت كيف قامت فى دماغ المفتش •• قال : سأبنى اسطبلا جديدا داخل سور السراية نفسها ، حتى يستطيع الواقف فى فراندة السراى أن يميز ويختار منها ما يصلـح للركوب أو للذبيح فى الحال دون مشقة •• أيامهـا لم نصدق •• لكن ذلك الأفندى الرفيـع المدعو الباشمهندز راح ينط شمالا ويمينا فما مر شهر واحد حتى كان

الاسطبل الجديد يفتح أبوابه لسكانه الجدد . هنيئا لكم يا غرابوة يا أولاد القحباء ولكن من حقنا أن يكون لنا من الحب جانب .. انما لى مع التفتيش كلام .. بس صبرك .. ان كان حضرة الناظر يسكن فى قصر ذى فراندة ، والباشكاتب يسكن فى قصر ذى بلكونة ، فباشخولى السراية من حقه أن يسكن فى بيت ذى سقف وبه فرش وغطاء ..

مضى خطوات أخرى فى جوف الظلام . قال لنفسه أنه حين كان سائسا فى الاسطبل كان ينام فى حجرة مبنية بالبتن ، مبلطة ، حتى مصطبتها هى الأخرى مبلطة ، الماء فيها حنفية وخرطوم ودلو ، وما أحلى النوم ساعة القيالة فوق هذه المصطبة الساقعة .. اليوم أنا باشخولى السراى يحسدنى الناس ولكننى أسكن فى هذه الخرابة التى حسبوها على دارا . على أى شىء يحسدنى هؤلاء المغفلون ؟ .

تعبت عينه من الظلام . توجه الى الركن حيث أمسك بجريدة طويلة دفع بها غطاء « الناروزة » فانزاح عن فتحة فى السقف انهمر منها شعاع الشمس مثل عامود أزرق من النور والغبار والدخان . انكشفت القاعة . الطاقة التى فى أسفل الجدار المقابل لا تزال بها علبة الدخان كما تركها بالأمس فارغة .. لقد نسى أن يمر على الدكان ليشترى دخانا على الحساب . ابتسم حين رنت فى دماغه قولة : على الحساب ، فهو الآن مثل الأفندية فى الميرى يقبض كل شهر . بيت النية على أن ينزل البلد اليوم ليشترى شايا وسكرا ودخانا . مد يده تحت المخدة وسحب « النوتة » الكبيرة ذات الجلدة السوداء التى تشبه المحفظة الأنيقة مكتوب عليها بالأصفر كلام ..

ارتعش شاربه وهو يسحبها . امتدت يده اليمنى لتبرم طرف شاربه وهو يتذكر « بكرى » صاحب الدكان حين أغراه بربع أوقية دخان من أجل أن يأخذ هذه النوتة يقيد فيها حساباته ، لكنه برم شاربه كما يبرمه الآن وقال له : « أنت أحسن منى ؟ .. أكتب

فيها حسابى أنا وتبقى عندى » • كان سعيدا أن (بكرى) يعرف أن باشخولى السراية يستطيع أن يحصل على مثل هذه النوتة الكبيرة المحترمة •

•• برزت النوتة أمام عينيه سوداء لامعه جديدة • لورقهسا رائحة تدخل الخياشيم ، وشخبطة « بكرى » بالقلم الكوبيــا فى الصفحات الاخيرة لها رائحة هى الأخرى • أخذ يفرها مثلما يفعل كلما أمسك بها • توانرت صفحات مكتوبة بالحبر الأخضر وراء بعضها • ارتعد • ارتكن الى الحائط • الرعشة تتمشى فى جسده • سقطت النوتة من يده • عامود الضوء الأزرق الساقط من « الناروزه » يتضخم ويصير كبيرا ثم يختفى ويسقط الظلام ، وتد أرجح الأرض •• وتزحف وتختفى به فى خلاء بعيد بعيد •

•• كان « الرجل » يركب الحمـــار على شــاطىء القناة وهو مختبىء فى بئر السافية يطل برأسه كل برهــة ليرى أين ذهب الحمار • وكان باشخولى السراى السابق « عبد السلام » الذى هو فى الاسطبل الآن ــ قد مر به عائدا الى البلد يلهث ، وكانت دورية المساء قد تركت الرجل يمشى فى حاله • مر به الحمار يدقدق أرض الليل و « الرجل » فوقه يتمايل ويحاول أن يهدىء من الجرى • كانَ لابد له أن يترك بئر الساقية ويمشى وراء الحمار فان حضرة الناظر حين جاء به الى هذه الناحية بالكارته لم يكن يقصد أن يفرجه على بلدة أخرى ، انما أتى به ليفعل شيئا ما ، ولابد أن يفعله ، والا فسيبقى كما هو سائسا فى الاسطبل ولا يصبح « باشخولى السراى » كما يريد • قال لنفسه ساعتها : كيف عرف حضرة الناظر أن هذا الرجل سيمر من هذه الطريق فى هذه الليلة ؟ •

لكنه قال لنفسه أيضــا : حضرة الناظر يستطيع أن يعرف ما يشاء وهذا ليس شغلى أنا •• على فقط أن أفرغ هذه الغدارة فى جسده ، ثم بدأ فى الحال فأحكم النيشان • اهتز الفضاء • تطايرت

العصافير ونهق الحمار وهاج ، وهوى الرجل فى الأرض واندفع الحمار يبرطع في الحقول البعيدة حتى اختفى · ذهب الى الجثة ؛ كانت يدها تقبض على حقيبة جلدية جميلة ، نزعها ودحرج الجثة فى المصرف بعد أن ربط فوق صدرها حجرا كبيرا · ارتد عائدا · كانت الكارتة تنتظره على السكة الزراعية البعيدة ، لكنه حين وصلها لم يجد بها أحد ، حتى الحوذى لم يجده · أطلق صوته فى الفضاء العريض مناديا عدة مرات ، فلما لم يجبه أحد ركب الكارتة وانطلق · لم يطق صبرا · فتح الحقيبة · لم يجد به سوى حزمة كبيرة من الأوراق داخل مظروف أصفر ، ونوته ذات جلد سميك لامع · ارتعد ، قال لنفسه انه سيتخلص من هذه الأوراق ويحتفظ لنفسه بالحقيبة · وكان قد دخل فى زمام التفتيش والفجر يقترب ، فهبط ليفعل مثلما تفعل الناس ، ثم حفر حفرة صغيرة فى أكوام الردم ودفن المظروف وأهال عليه التراب وعاد الى الكارتة فركبها · لكن الحقيبة أفزعته ، وأحس أنها ربما تدل عليه الحكومة ، لم يجد فى ذهنه كلاما يرد به حينما يسأله أحد : من أين جئت بهذه الحقيبة ؟ · ففى الحال نزع الخنجر المربوط فى ذراعه وراح يمزق جلد الحقيبة الى قطع صغيرة يطوح بها فى الترعة ، أما النوته فانه استخسرها ولابد أن من يراها سيعتقد أنه أخذها من التفتيش ، وأحس بسعادة حين وجدها تستقر مستريحة فى جيب صديريه · الناظر لم يكذب عليه فى الحقيقة ، قال له ·· « سأعينك باشخولى السراى بعد أن نفعل ما طلبت منك » ولقد صدق · لكنه لم يصدق أبدا حين قال له : « ستكون مبسوطا وكل ما تحتاجه تأخذه منى أنا » ·· فما الذى أخذه ياحسره ؟ ·· يومية كالتى كان يأخذها من قبله « عبد السلام » كل ما فى الأمر انه بدلا من أن يقبض كل جمعة صار يقبض كل شهرا ، يا فرحتى ·

زيق باب الدار فارتعد ، ورمى النوته وخرج الى وسط الدار ·

انفتح الباب على وسعه · دخلت زوجته « دهبية » مثنية

ساقيها عبر العتبة خوف اصطدام السقف بالبلاص . صبحته بالخير فسألها ان كان عندها شيء « يطفحه » فمالت تسند البلاص بجانب الزير وتفتح الكوز فوقه قائلة : عندي ..

ـ قالتها بلهجة معجبانية واعدة ، فما الذى عندها يا ترى ؟ .

اقتربت منه تمسح يديها فى ثوبها وتقف أمامه برهة .. كاد ينهرها . لكن شيئا ما على وجهها منعه عن ذلك .. لعله التعب الشديد الذى يتمشى فى خدودها ولعله الذبول فى عينيها .. مسكينة .. كثيرا ما انتهرها لا لشيء الا لكونه باشخولى السراية .. وكثيرا ما أنب نفسه وتعجب كيف تعود على الشخط والنطر والزغد والتوبيخ حتى مع أولاده ؟ .. لكن .. اسكت يا شيخ .. انت طول الليل والنهار فى شغل التفتيش .. انت على الدوام باشخولى السراية و « دهبية » . انها مثلك تماما . كان الله فى عونها .. لا تهدأ لحظة واحدة . من بيت الناظر الى بيت الباشكاتب الى استراحة السراية الى الدار .. كانسة غاسلة طابخة ناقلة للمياه من الآبار البعيدة .. طول عمرها تبارك فى الجزى على التكك فى خدمة التفتيش .. كثيرا ما التقينا سويا فى مكان واحد لغرضين مختلفين كلاهما يخص التفتيش أو بعض أهله .. لكننى خنشور لا أعطى هدية أو حلاوة بق .. أما أنت يا دهبية ، فبفضلك وبحلاوة لسانك نكسو الأولاد ونطعمهم .. أعرف أنك الآن مهدودة الحيل .. قضيت النهار فى خبيز الست « هنومة » والليل فى غسيل الست « احلال » ، ومع ذلك صعبت عليك دارنا ألا تنـال من عنايتك ما تستحقه وها أنت تشمرين الذراعين تسخنين المقشة تتقرفصين تبدأين فى الكنس ، هذا والله حرام .

ـ تعالى يا دهبية .. اتركى الكنس الآن

سأفرش لك الحصير لتأكل .

ـ أنت مهدودة الحيل .

ـ قشر ٠

ثم أكملت استدارتها حول نفسها وهى متقرفصة ما تزال تعمل بالمقشة :

ـ تحمل شيئا على دماغك ٠

ـ احمل الدنيا كلها ٠

ـ كفى الله الشر ٠

ـ لا اعرف ٠٠ لكننى غاضب على هذه الدار ٠

ـ قل لى ٠٠ ما الذى يحدث الآن فى الاسطبل ؟

ـ لا اعرف ٠٠ لا أعرف ٠

ـ ان الدنيا قائمة على زبانها ٠

ـ الست هنومة تريد أن تحرق الست اجلال ٠٠ وحضرة الناظر لا يطيق رؤية حضرة الباشكاتب ٠٠ والباشكاتب يلصق به كل التهم ٠٠ كل واحد يقول انه خائف على مصلحة التفتيش ٠٠ ها ٠٠ وعلى الطلاق ما يخاف الواحد منهم الا على مصلحته هو وحده ٠

ـ أى ٠٠ ى ٠٠ ى ٠٠ كيف يا كامل ؟

ـ احدهما يتاجر فى عرق الأنفـــار ٠٠ والثانى يتاجر فى محصول التفتيش ٠

أخذت « دهبية » تتلفت حواليها فى توجس ، تنظر فى ثقوب الباب تبحث عن الآذان التى هى للحيطان ٠ اغتاظ الباشـــخولى وصـــاح :

ـ مم تخافين ٠٠ كفرنا ؟

ـ اقفل فمك واخز الشيطان ٠

ـ لم يضيع الأنفار سوى الخوف ٠٠ نعرف كل شيء ولا نفتح فمنا بشيء ٠٠ ولو قلنا كنا قبضنا الثمن ٠٠ لكننا نسكت ٠٠ نتخيل أن السكوت له ثمن ٠

ـ ضحكت « دهبية » ، شوحت :

ـ عشنا وشفنا ٠٠ للسكوت ثمن ٠

ـ كل واحد فى هذا التفتيش يعيش من الثمن الذى يقبضه جزاء سكوته ٠٠ هل يفعل أحد شيئا ؟ ٠٠ أبدا ٠٠ كل واحد يرى ويسكت ٠٠ وكل من يقولون له : افعل كذا ٠٠ يفعل ٠٠ ويسكت ٠٠ وكل واحد يحب دائما أن يعرف ٠٠ ليتعلم كيف يبدو عليه أنه لا يعرف ٠

ـ كامل ٠٠ قم يا حبيبى لتأكل ٠

ـ احضرى لى « الطفح » ها هنا ٠

ذهبت « دهبية » ، وأثناء عودتها سمعته :

ـ أنا أحسن واحد فى التفتيش « لا يعرف شيئا » ٠٠ انما والله لن أسكت بعد اليوم ٠

الطبلية توضع أمامه :

ـ ما الذى ستفعله بحق الله ٠٠ هه ٠٠ ما الذى ستفعله ؟

وقفت شعرات ذقنه البيضاء ، كادت تسود فى نظر « دهبية » لشدة الغضب الذى تراه لأول مرة فى وجه زوجها ٠

بقى ساكنا برهة ، وفجأة ٠٠

ـ انك تستهزئين بى ٠٠ انما أنا ٠٠ الذى يجلس أمامك

هكذا .. يستطيع أن يفضح أجعص من هؤلاء .. إننى أعرف الكثير يا دهبية .. لكننى لا أستطيع الكلام . ولقد طال سكوتى حتى ظنوا إننى بحق وحقيق .. لا أعرف شيئا .. مع اننى لو فتحت فمى لأتثاءب فسوف آخذ نقودا .. هاتى الأكل هاتى .. انت عبيطة ؟

برقت عينه بفرح صبيانى مفاجىء . عاد يتفحص ما أمامه على الطبلية غير مصدق لما يرى .. ما هذا .. ما هذه الأملة ؟ .

ـ نصف ديك رومى .

ـ ظننته نصف حصان .

ـ بالهنا والشفاء .

ـ لكن من أين ؟

ـ الست هنية .. كانت تنتظر ضيوفا .. فكسرت رقبة أكبر ديك فى « عشة » التفتيش .. ولم يحضر أحد .. فجاء من نصيبنا .

ـ انه أعلم بالحال ..

طبق من الكسكسى يخرج من تحت الطبليه تفوح منه رائحة السمن البلدى المقدوح ، ورائحة الشواء .. لم يضع وقتا .. هد الملعقة الخشبية وراح يداعب الكسكسى ويطوح به الى فمه فى نهم ، ثم قال وهو يفسخ اللحمة الى قطع صغيرة :

ـ دهبية .. هذا الكلام لا يخرج من عتبة الدار

ـ كلام ماذا ؟ .

ـ الذى قلته لك الآن .

ـ وحق أشرف خليقة الله لا أتذكر شيئا مما قلت .

داعب شفتيها بشريحة من الفخذ وطوح فى فمه بأخرى :

ـ على فكره .. كلامى هذا دليل على حبى لحضرة الناظر .. ورحمة أبى اننى أتمنى له الخير دائما .. انه يعرف اننى أعرف وأسكت .. أسكت من أجل خاطره هو فقط .. لكن لو على حد الباشكاتب كنت قلبت الدنيا على رأس الجميع .

هتفت فيما تضع يدها فى سيالتها :

ـ فكرتنى .. الست اجلال أعطتنى وزرقة شاى .

أنى له أن يعقد « وزرة » شاى محترمة يعدل بها رأسه :

ـ طيبة والله هذه السيدة .. اننى أحبها .. والله ما أحد غيرها يجعلنى أطاوع الباشكاتب .. انها بنكرة .. لو وضعت على الجرح يطيب .. أما الباشكاتب استعنت عليه بالله .

قالت « دهبية » فى غبطة :

ـ انه سيجعل ابننا خادما فى أم الدنيا .. عند قريبة له هناك .

تراجعت الملعقة عن فمه .. هتف غير مصدق :

ـ بالذمة حصل ؟

ـ الرجل لم يكذب على أبدا .

ـ انه رجل طيب والله .. اننى أحبه كل الحب هذا الباشكاتب .

طرقات على الباب .. نداء :

ـ كامل .. يا سليم .. يا كامل يا سليم .

توقفا عن الأكل . أنصتا تجاه الباب .. قال الباشخولى :

ـ من ينادى ؟

ـ افتح ٠

ارتعش ٠ نهض ٠ فتح الباب :

ـ شيخ الغفر ؟

قال « شيخ الغفر » لمن معه :

ـ هذا هو كامل سليم الذي تطلبونه يا أسيادنا ٠

اخذت « دهبية » تلم الأكل بسرعة ٠٠ أما الباشخولى فقد راح ينظر فيمن يقفون بفتحة الباب : ثلاثة رجال غلاظ ، الواحد منهم يغلق الحائط بسيف اليد الواحدة ٠ قال :

ـ ماذا ٠٠ ماذا ؟ ٠

اشار له « شيخ الغفر » ٠٠ فخرج ٠ قال :

ـ أنا عائد بعد قليل يا دهبية ٠

ثم اغلق الباب خلفه ومضي معهم ٠

ـ ماذا حدث ٠٠ خير يا جماعه ؟

ـ انت مطلوب ٠

ـ أين ؟

ـ فى المديرية ؟ ٠

استدار الباشخولى « كامل » عائدا ليبلغ الخبر الى « دهبية » لكن يد كبيرهم كانت قد طوقت عنقه وأدارته فى عنف ٠ فنظر اليه الباشخولى محاولا اخفاء غضبه ، لكنه نكس رأسه وسار ٠

كان الباشخولى يتوقف من حين الى حين ويسأل :

ـ خير ·· لماذا لا تقولون لى ؟

فلا ينطق أحد · فيمشى · ثم يقترب من كبيرهم هامسا :

ـ أنا كامل عبد الحميد كامل سليم ·

ـ نعم ·· اعرف أنه أنت ·· والا ماجئنا بك ·

ـ ماذا حدث ؟

ـ لا أعرف ·

ظل يمشى معهم · يخرمون من قلب الأراضى · يتخطون المصارف · جاء الظهر وجاء العصر واصفرت الشمس ثم احمرت ثم هبط المساء وهم ما زالوا يسيرون بلا طعام ·

فجأة توقفوا · رفع الباشخولى رأسه عن الأرض قليلا ، فاذا بالأرض التى أمامه كلها لامعة ، فبدت فى الليل المدلهم مثل بقايا شحم يلمع فى قاع اناء جوفه داكن كان التعب قد هده ، وبدأ يرى أشباحا تقف على رؤوسها أمامه · دعك عينيه فتحهما بصعوبة · أمامه بحر عريض هائل لم يره من قبل أبدا · اقشعر جسمه وشل لسانه فوقف ذاهلا صامتا · فوجىء بمن يطوقه من الخلف ويكتفه بحبل ويعصب عينيه بمنديل · فوجىء بنفسه يتهاوى بسرعة ، ثم يهتز فى الفضاء رائحا غاديا عدة مرات ·· ثم يطير كريشة فى مهب الريح ·· ثم يسقط فى أعماق البحر ·· ويغيب فى ظلام لا نهاية له ·

الفصل الثاني عشر

الموت بالمجان

دخل الحكيم يركز على النبوت »
(روح بلادك يا غريب لتموت)
(دخل الحكيم يركز على جريدة)
(قال الحكيم ما ليش خلاص في ده)
(قالوا الحكيم في الزاوية جبته)
(ومشيت على قدمي وركبته)
(قالوا الحكيم في الزاوية جبناه)
(ومشيت على قدمي وركبناه)
(بكائية من الدلتا)

شيء غريب قد حدث في الاسطبل ، جعل الناس تختلط ببعضها اختلاطا لم يسبق له مثيل : أي واحد ينام في أي مكان .. وأي مكان يتسع للجميع « عمرو » الآن هو الكل في الكل .. يقف نصف وقفة على المذود .. يضع يده على خده .. ملامحه ليست ملامحه .. وجهه يرتدي في هذه اللحظة وجها آخر يبك الدم منه ، كأنه يبكي بلا دموع .. صوته أيضا يبكي ، ينوح من أعماق بعيدة :

الناس نابها بخت كامل وأنا نابني ربع بخت ومل .

والبين عملني جمل .. واندار عمل جمال ؟

لوى خزامي وشيلني تقيل لحمال .

أنا قلت يا بين هوه الحمل التقيل ينشال ؟

قال يا جدع بطل وعوعه وامشي .

ان كان زمانك كده أيش يعمل الجمال ؟

زأر الاسطبل كله دفعة واحدة :

ــ يا سلام .. تاني .. تاني يا عمرو .. تاني يا حبيبي .

قال « عبد السلام » :

ــ بالراحة يا جماعة .. لا تزعقوا هكذا .. أنتم تعرفون أن « البين » وراءنا في كل مكان .. « البين » يقف الآن تحت جدار الاسطبل .. لا يهمنا منه طبعا .. لكن « البين » اذا قامت في دماغه رحنا في داهيه .

ظلت الأصوات ساهرة في الحلوق لكن شيئا من كلامهــا

لا يفهم . وارتفعت بعض الأكف وانبسطت فى الهـواء متماوجة ترتفع وتنخفض كأنها تهبط بالأصوات الى قاع البطون . راحت الأصـوات تهبط شيئا فشيئا . الى أن وضح صوت الأرغول وأخذ يطلق حشرجته المتقطعة ، والرءوس تتمايل مغمضة العيون .

تعجب « طلعت » من أن هذه القطع من البوص ، التى ظل « دياب » يقطعها من الحقل ويسويها بالمطواة ويخرمها ثم يدخل كل عقلة منها في الأخرى يمكن أن تخرج منها هذه الأنغام الجميلة التي تذيب الدموع في العيون ، تذكر « طلعت » بأمه وبأبيه الذى لم يره ولم يعرف عنه شيئا .

كان « عمرو » ينظر الى « دياب » فى انبساط واعجاب ، ومثل المغنيين الكبار يضم أصـابعه محركا بهـا ذراعه فى الهواء أمام « دياب » ليهدىء النغم أو يلهبه .. ثم يبكى الأرغول فى نشجة سريعة واحدة ، وارتفع صوت « عمرو » مدويا :

من فعل ليام كرهنا الدنيا وما فيها

النفس زهقت من الأحوال وما فيها

عجزنا من غير أوان والفكر بهدلنا

وكل ساعة نقول بكره حتتعدل

وصاحب العقل فى الدنيا عايش مظلوم

يشوف ويسكت ولا يقدرشى يتكلم

يبقى فى النار ومشى قادر يقول : مظلوم

وصاحب الأصل من فعل الزمان حاير

الكلب شفته حكم .. أمامه الأسد حاير

الدنيا حالها كده .. فيها الأصيل حاير

لها أصل جاير .. وبيتوه الأصيل فيها

انطلقت زغرودة كسيحة بلا اجنحة . تلفتت جميع الرقاب تبحث عن أصلها ، عرفوا انها تلك المرأة التى سلقت شيخ الخفراء ذات يوم . ضحكوا . وقف شيخ خفراء التفتيش السابق ونظر نحوها ضاحكا ..

ـ تظنين نفسك فى فرح يا وليه ؟

ـ الغناء يجعلنى أزغرد والسلام .

ضحك متلفتا حواليه :

ـ تظن أننا نغنى .. أننا يا وليه لا نغنى .. أقصد .. لسنا نغنى غناء الأفراح والليالى الملاح .. اننا نغنى بدلا من أن نبكى .

ـ البكاء مكتوب علينا حتى فى التغنى ؟

دخل الأرغول واكتسح كل الأصوات وغطى عليها ، ناشجا طاغيا . فى أعقابه دخل « عمرو » ..

يا عيني قل البكا يوم روايق لك

عماله تبكي ودمع العين رايق لك

عمال يخطط فى التراب ورايق لك

وان آذن الله ورجعت أنا بـــلدى

لاخلع هدوم الشقا والبس هدوم بلدى

واعمل وليمه تكفى كل من بلدى

تفضى ياعين ويبقى الحى رايك لك

يا لـ .. ل يا .. ليل يا لـــ ..

ثم هوى على الأرض راكعا يصرخ .. قطعة من السماء سقطت فوقه باركة عليه .. ثم هبطت قطعة أخرى راكبة فوق كتفى ذياب ، ثم راحت السماء تتساقط فوق الناس من كل ناحية ، والصراخ يرتفع وينكتم في الجبال . أقدام تدوس فوق الأجساد وتهوى عليهـا بالعصى وقحوف النخيل . نحيب . نهنهة .. صوات ..

ـ هذه الأغنام تسكت في الحال .

ـ ولا كلمة .

ـ المواشي تبطل جعيرها .

ـ يزن الدبور على خراب عشه .

ـ جئنا بالحبال والسكاكين .

ـ فلربما وجدنا من يستأهل الذبح بها هنا .

عيون الأنفار ذاهلة . تلقى هنا وهناك . تعجب مما ترى : رجال غلاظ لا يدرى أحد كيف وصلوا إلى المذود الدائر مع الحوائط الأربع .. رجال لم يرهم أحد من قبل في التفتيش أو في البلد ، سود الوجوه ، عمالقة ، بعضهم يتقمط مثل العساكر السوارى ويمسك كرباجا مطويا . بعضهم الآخر يرتدى الجلباب ويحمل البندقية على كتفيه .

كفت الأصوات داخل الاسطبل . تصاعد من خارجه لغط ينسلق الجدران من جميع النواحى .

العيون كلهـا ترتفع الى أعلى الجدار ، فى الفراغ الموجود بين الجدار والسقف الجملون . سلم خشبى طويل يزحف على حافة الجدار داخلا ، ثم يأخذ فى الميل . تلقفه أحد لابسى الجلباب حاملى البنادق . عدله . أوقفه مسندا اياه على الحائط . بزوجة الباشكاتب

بطربوشه مثل القراقوز . راح يتكور على حافة الجدار ويتقرفص حتى زحف السلم تحته فاعتلاه وأخذ يهبط في أعقابه ظهر أفندي آخر ، ثم ثالث ، ثم رابع ، وخامس .

وقفوا فوق المدود .. هبط أحد لابسي الجلباب حاملي البنادق . غاص بين الأجساد . سرت في الاسطبل رجفة عنيفة تساقطت لها كثير من الأجساد زغديش العصـــا رجلا عفيا مشيرا له نحو المدود قائلا : « اطلع » .. فمضى الرجـــل كأنه يغوص في وحـــل . ثم تبعه أربعة رجال طوال عراض .. وحين صاروا أمام المدود أمرهم واحد من المقمطين بالصعود الى المدود فصعدوا يترنحون .. أوقفهم وراء بعضهم ، ثم أمسك أولهم من رقبته وكسر قامته وعدله في وضـــوع الركوع . ثم أمر الباقين أن يفعلوا مثله .. ففعلوا .. فصـــاح :

ــ تفضلوا يا سعادة البيه .

تقدم الباشكاتب وجلس فوق أحد الظهور واضعا ساقا على ساق .. ففعل مثله بقية الأفندية .. واستراحوا في جلستهم .. وكان ثمة فوانيس قد انتشرت على حافة الجدران الأربعة .

أشعل الباشكاتب سيجارة :

ــ هاتوا ذلك الولد المدعو طلعت .

صرخ الجد « مهيوب » خابطا ركبتيه بيديه :

ــ كبــدي .. آه يا كبــدي .. الولد .. ماذا تريدون من الولد ؟

طار في الهواء رجل كالخفاش ، ثم هبط عليه . فكبســه في الأرض .. حينئذ اندفع « طلعت » يبكي في فزع :

ــ آه يا جدي .. حاسب يا عم .. أنا أهه بس سيبه ..

صاح الباشكاتب :

ـ تعالى يا ولد .. تعالى هنا .

صاح « مهيوب » وهو يبكى :

ـ اتركوه .. انه صغير ولم يفعل شيئا .. ما الذى فعله ؟

شكمه الرجل فى فكه بقبضته :

ـ اخرس أنت الآن .

ـ تضربنى وأنا فى عمر أبيك .. يا قليل الحياء ؟

شيع له لكمة فى جنبه ، فانكسرت قامة الجد « مهيوب » وتلوى من الألم :

ـ ملعون .. كافر .. مفترى .

شيع له الأخرى فى بطنه ، والثالثة فى صدره ، ورابعة فوق رأسه ، وخامسة وسادسة . ترنح الجد « مهيوب » . وسقط لسانه وراح يلهث ويزغط . بدفعة سريعة طوحه الرجل خلف ظهره ووقف مكانه . انطرح الجد « مهيوب » كما يتهاوى خيال المآته . تلقفته أيدى بلدياته ، سحبته ، أوسعت له شريحة مددته فيها . كان رأسه يتدلى ويتطوح ، ولما وضع أحدهم يده على قلبه وأمسك رسغه لم يجرؤ على النطق بأن الجد « مهيوب » قد مات .

سقط « طلعت » من بين الأيدى أمام الباشكاتب يرتجف ..

ـ أنت طلعت ؟

ـ نـ .. نعم .

نظر الباشكاتب الى الأفندى الجالس بجواره . قال الأفندى :

ـ يا ولد .. أين الأوراق التى معك ؟

ـ ضاعت ..

ـ ضاعت ؟ ·· مصيبة أمك سوداء ·

انفجر « طلعت » يبكي ·· لقد دخلت أمسه في الأمـر ·· صـاح :

ـ والله ضاعت ·

ـ كيف ؟ ·· أين ؟ ·· انطق ·

ـ اخذها الناس ومسحوا بها مؤخراتهم ·

ضحك الأفندية · نظـر أحدهم الى آخر ·· قال الأفنـدي المتكلم :

ـ هذا الولد يسوق العبط على الهباله ·

ـ السقف موجود والحبل موجود ·· والكرباج ·· ها هو ذا ·

هكذا قال الباشكاتب · ففى الحال تسلق أحد المقمطين السلم وربط الحبل فى القضبان الحديدية التى يستوى فوقهـا خشب السقف · صنع منه عقدة مفتوحة الفم · صرخ الأفندى المتكلم :

ـ هيه ·· تقول الحق أم ·

صار جسد « طلعت » ينتفض · نظر الأفندى بجانبه · تقدم أحدهم ورفع « طلعت » من تحت ابطيه وسار به نحو الحبل المعقود ، و « طلعت » يصرخ ويرفس الهواء برجليه :

ـ سيبوني ·· سيبوني ·· يا ولاد الكلب ·

هبده الرجل فوق الأجساد ثم رفعه من جديد ليعلقه ·

ـ سيبوه يا كفره ·· يا لصوص ·

تلفت الجميع · وقف الأفندية جميعا يبعثون البصر في عمق

الاسطبل ، فاذا بالمرأة التي سلقت شيخ الخفراء ـ والتى سبق أن زغردت ـ تزحف نحوهم وهى تنتفض كالطائر الذبيح :

ـ تريدون أن تصوروا قتيلا آخر .. لقد مات مهيوب .

ـ مات ؟ .. جدى مات ؟ .. يا خلق هو .. و ٥٠٠٠ ، جدى .. جدى .. وشق ثوبه من الطوق مثل الرجال ، وبرأسه الصغيرة دب الرجل فى وجهه فظارا صوانب الرجل وصرخ ، ووقع « طلعت » من بين يديه ، واندفع يجري فوق الأجساد ، يتساقط وينهض وهو يجعر ويبكى الى أن وقع ولم يستطع القيام . أما الرجل فقد أخرج منديلا راح يجفف به الدماء السائلة من فمه وأنفه . وكان لابسو الجلاليب حاملو البنادق قد أحاطوا بالمرأة وراحوا يضربونها ، فأطلقت صبواتا ملتباعا يمزق ليل التفتيش ويوقظ فيه حتى ورق الشجر .. تكفل الرجل بتكميمها بشاشها الاسود لكنهم لم يتمكنوا من ايقاف عوائها المتواصل ..

قال الأفندى المتكلم :

ـ هاتوا الولد .

قال الرجل المقمط الذى يجفف دمه :

ـ الولد مغمى عليه .

ـ نريد أن نعرف أين ذهبت الأوراق .. حتى لو كان ميتا .

ـ قلنا لكم أن الورق ضاع .. مسحنا به مؤخراتنا .

نظروا ليعرفوا من ذا الذى يتكلم . قال الباشكاتب :

ـ تعال هنا .. أرنا وجهك .

تقدم شيخ خفراء التفتيش بقدم ثابتة . هب فيه الباشكاتب .

ـ أهو إنت ؟ ..

ثم نظر الى الأفندية :

ـ انه شيخ الغفر اياه ·· المتهم فى السرقة ·· والمحكوم عليه أيضا ·· امسكوه من فضلكم ·· انه ضلع كبير فى الموضوع ·

امسكوه بالفعل · كتفوه · تمطع « شيخ الغفر » وفك نفسه من أيديهم · زحزحوه حتى الصقوه بالحائط ونيموه على بطنه وجلسوا فوقه وهو يصرخ ··

ـ قلنا ضاع الورق ·· لم يبق سوى ورقتين اثنتين ·

ـ اين هما ··

فتشه الرجال · اخرجوا من محفظته ورقتين مطويتين اعطوهما للأفندى المتكلم فتناولهما ونظر فيهما وصاح :

ـ صح ·· هو الورق المقصود ·· الحمد لله ·

ـ اذن يكون هذا هو المجرم الأول ·· اقبضوا عليه ·

هكذا صاح الباشكاتب · قال الأفندى المتكلم :

ـ مبروك عليك السجن ·

جعر « شيخ الغفر » بصوت مشروخ :

ـ سجن ·· ها ·· ما السجن وما الاسطبل ·· انكم تنصبون على الأنفار وعلينا بعد ان سرقتم عرقنا جميعا ·· لن يتركم الله ·· سوف يخلص لنا منكم يا لصوص يا كفره ·

انهالت عليه العصى والكرابيج وصار يصرخ · قال الأفندى المتكلم :

ـ سوف تعدم اذا لم تقل لنا من أين جئت بهذه الأوراق ·

ـ لقد وجدناها تحت الردم ·

ـ من الذى وجدها ؟

ـ واحد من هنا ٠٠ دياب ٠٠ نعم دياب ٠

قال الأفندية :

ـ أين هو دياب هذا ٠٠ هاتوا دياب

ـ أنا ٠٠

وتقدم « دياب » نحوهم ٠

ـ شوفوا الواجب معه أولا ٠

تقدم منه أربعة رجال ٠ علقوه فى السقف من تحت ابطيه انهالوا عليه ضربا بقحوف الجريد وهو يصرخ :

ـ أنا فى عرضكم ٠٠ فى عرض النبى ٠٠ والله العظيم أنا لقيته تحت الردم ٠٠ قلت ورق للولد يذاكر فيه ٠٠ أحلف على المصحف ٠٠ أريكم المكان الذى وجدته فيه ٠٠

لكنهم لم يكفوا عن ضربه بينما راح الأفندية يتبادلون النظرات ويميلون على بعضهم بعضا ويتهامسون ٠ فجأة اكتشف « دياب » أن ذراعيه طليقتان دفع جسده الى أعلى وأمسك الحبل بيديه فارتفع حتى خبط رأسه فى القضيب الحديد ، والعصى تلاحقه ٠ تمكن من الاستناد بذراعيه على القضيب الحديد ، ثم وضع كل قوته فى قدمه وطوح بها فى وجه أحدهم فسقط يصرخ والدم يتدفق من فمه ٠ انهالت العصى ٠ لكن القدم الأخرى لبست بعنف شديد فى وجه آخر ، فسقط أيضا ٠ ثم أخذ « دياب » يرفع نفسه أكثر وأكثر حتى استطاع أن يشبك طرف قدمه فى القضيب الحديد ، ثم اقترب منه ولوى جسده فصار نائما فوق القضيب ، ثم أخرج من جيبه مطواة قطع بهـا الحبل وأمسكه بيـده ثم اعتدل راكبا كالبهلوان المدهش ، وصار يصرخ بأعلى صوته :

ـ قتلتهم مهيوب يا كفره ·· ماذا تريدون ؟ ·· والله العظيم لن يفوت مقتل مهيوب على خير ·· ماذا فعل بكم هـذا العجوز الغلبان ؟ ·· ونحن أيضا ·· ماذا فعلنا بكم ؟ ·· دعونا نعود الى بلادنا ·· ما الذى أخذناه منكم ومن التفتيش ؟ هه ؟ ·· أكلتم علينا أيام شقاءنا والآخر تضربوننا ·· نشتغل فى ارضكم بعرقنا ودمنا ولانأخذ أجرا وتريدون قتلنا ؟ من يقترب منى سأشرب من دمه ·· لقد نشفت البركة وبانت زقازيقها ·· ليس فى قعر البركة غير الطين لقد عرفنا كل شىء ·· طول عمرنا نشتغل بالعربون ·· وقليل الشرف هو الذى يستطيع العيش بينكم ·· أما نحن ·· فالضرب فوق ·· والله عال ·· راح الباشكاتب جاء الناظر ·· راح الخولى جاء الباشخولى ·· على ماذا هذا كله ! ·· سوف أخرج من هذا الاسطبل الى بلدنا والرجل يتعرض لى ·· نعم ستقولون لى أننى لن أستطيع ·· هل لكم عندى شىء ؟ أنا الذى له عندكم ·· أنا الدائن ·· أنا الدائن ··

وقف الباشكاتب صارخا :

ـ هاتوه ·· اصعدوا اليه وهاتوه ·· سأضربه بنفسى لن يشفى غليلى سوى أن أضربه بنفسى حتى يموت ·

وكانت القضبان الحديدية التى يرتكز عليها سقف الجملون قد صارت مركبة ، يزحف عليها رجال قادمون من هنا وهناك وقد تنبه « دياب » اليهم فطوى الحبل وشيع به ضربة عنيفة فى عين أحدهم سقط على أثرها · ثم زحف نحو الجدار ، واذ رأى شخصا آخر يقترب منه عند تقاطع القضبان ضربه بقدمه فى ساقه فأخل بتوازنه وسقط هو الآخر يصرخ · وكان هناك شخص ثالث يقترب من ناحية التقاطع الآخر نجح فى أن يطوق ذراعيه من الخلف ، لكن دياب بكل قوته واستمواته فك نفسه وطعنه بالمطواة فى رقبته فسقط فاقد النطق · فصرخ الباشكاتب :

ـ ماذا تنتظرون بعد هذا ؟ .

وكان « دياب » قد صار على حافة الجدار مستعدا للقفز الى الخلاء . لكن طلقا ناريا لحق به ، فاندفع الى الأمام دفعة صغيرة ثم ارتد وهوى على أرض الاسطبل . وهنا صرخت امرأة صرخة فــزعة :

ـ يالهوى .. مات طفل .. وقع فوقه .. مات ..

وامتلأ الاسطبل بصراخ وهدير ارتجت له الأرض . ولكن قلب التفتيش لم يهتز .

● الفصل الثالث عشر ●

بيوت للغرباء

« حكمت يا بين بخنقي .. »
« بحبح القيمه .. »
« لا أم تبكي .. »
« ولا عمـــه .. »
« ولا خيــه .. »
(مقطع من حدوته مصرية قديمة)

- ١ -

أريد وجه النهار . صـار رماديا قاتما ، لا نسمة هواء الجو ناشف كالحديد الصلب ، كأن الكون كله قد اختنقت أنفاسه كانت أكوام الردم تترامى على حافة الترعة ، وأشجار الجازورين تقف فى قلبها طويلة كهيافة الرجال ، تتدلى فروعها ميتة لا حياة فيها . شراذم الأنفار ملقاة على أكوام الردم رجالا ونساء وأطفالا يتسربلون فى خرق لونها لون الأفق الرمادى القاتم الكئيب لون أكوام الردم لون أفرع الجازورين : بقايا طين أزرق جاف .

كانوا يتناثرون على قمم عالية . يتقرفصون ينظرون أمامهم فى بلاهة وخوف ، يلتصقون بالردم مثلما تلتصق خرقهم بأجسادهم : بفعل الرطوبة وحدها . عيونهم مرسلة الى هناك ، حيث ينتصب القصر شامخا أمامهم قاتم الوجه مخيفا ، معقد الشـكل ، عشرات النوافذ والأبواب والأضلاع ، أعمدة من النوافذ الصغيرة تتسـلق أعمدة أخرى من النوافذ الكبيرة ، أسقف من الجملون متعددة الأحجام والزوايا ، فوانيس معلقة فى مشاكيها ، سور أخضر وحديد وجرس وبنادق ، الكون كله صامت ينتظر انفجار بركان .

الاسطبل فى نهاية البصر ، يلتف حول القصر كفتحة القوس القصر وسطه كنجمة بأربع وعشرين ضلعا ، مع ذلك فأقدام الأنفار تقطع المسافة بين القصر والاسـطبل فى ضـحوة كاملة . العيون الشاخصة يصيبها الملل ، ترتد باحثة عن بعضها البعض فى لمعات بلا معنى ، قد اختفى منها الحزن ، لم يعد فيها سوى البلادة ، بقايا ذبول تجمد فى الوجوه منذ زمن بعيد .. من يعزى من ؟ .. ابن هذه المرأة دهسته الأقدام .. زوج هذه المرأة فرمه النورج .. هى نفسها انكسر ساقها مرة وانفقأت لهـا عين مرة أخرى ، تتقيأ الآن دما فليس فى بطنها ما تتقيأه سوى أمعاءها .. هذا العجوز

المسكين مكسور الضلوع فى ليلة الاسطبل القريبة .. هذه الصبية مذبوح وجهها بالكرباج ومات أبوها ولم تعرف وربما لن تعرف انه مات .. هذا الصبى مات جده وثمانية من بلدياته ، مع ذلك فها هو ذا يجلس بينهم وقد شاخ عمره تماما وكبر أربعين عاما دفعة واحدة ، يتقرفص مسندا رأسه على ذراعيه فوق ركبتيه ، فحمة احترقت من لهيب البكاء وحرارة المأساة فلم يعد فيها نفس تقول به آه .

فجأة تقلب ، كأن الأرض مالت فحركتهم فبعثرتهم ثم عادت فالصقتهم بالأرض من جديد فى غمضة عين . شخصوا فى اتجاه النجمة الهائلة ذات الأربعة والعشرين ضلعا التى تحتويها فتحة القوس الأصفر الشاحب . كانت (النيابة) خارجة من البلد متجهة نحو الطريق الزراعى .. فرسان كبيران فى المقدمة ، فوق كل فرس رجل متقمط بالأصفر فى أصفر وجهه أسود غليظ الملامح ، طربوشه مثل وجهه أسمر كالح فى يد كل منهما كرباج مطوى .

خلفهما ظهرت « الكارتة » بجرسها ، وراءها خفيران . ظل هذا الموكب يقترب ويقترب ويملأ الدنيا غبارا ، حتى اذا ما استدار على الطريق الزراعى وصار يمشى بحزاء الأنفار ــ هدأ من خطوة والتوى الفرسان داخل الكتل المتراصة . صاح أحدهم :

ــ أين الولد المدعو طلعت ؟

نكست الرءوس ولم ترد .

ــ قلنا أين المدعو زفت ؟

ارتفعت الرءوس من جديد . راحت تتلفت حواليها فى بلاهة لا تعرف أين أحد ، لا تقوى على النطق :

وصلت « الكارتة » توقفت واطل منها وجه أحمر شباب الملامح ، صاح :

ـ حاولوا أن تعرفوه بالهدوء .. اذا كان قد مات هو الآخر فأين جثته ؟

نزل أحدهما عن فرسه مطوحا كرباجه المطوى فى الهواء . جاء خفير يجرى . أمسك بالفرس من لجامه . صار حامل الكرباج المتقمط يجوس بين أكوام اللحم المتراصة ، يتفرسها يزغد الصبيان واحدا واحدا بطرف الكرباج قائلا :

ـ انت طلعت ؟

فيشخص الصبى نحوه فى ذعر هازا رأسه بالنفى . فلما اقترب من « طلعت » كان الكرباج قد سئم الزغد وسئم حاملة السؤال بالنظر فيه . كان « طلعت » يحس انه ميت بالفعل ولن يقوى حتى على الاحساس بالضرب لما تجاوزه الكرباج والمارد ازداد رأسه التصاقا بذراعيه ولم يكن فى رأسه شىء سوى الردم والطين المعجون بأنهار الدموع .

صاح الوجه الأحمر المطل من فتحة الكارتة :

ـ على كل حال سوف نجىء به من أى مكان يذهب اليه .. انه مطلوب في التحقيق ولابد أن يظهر ولا يختف .. ان ظهر من تلقاء نفسه فسوف نراضيه ونكرمه واذا قبضنا عليه فسوف نريه شغله .

ثم أشار بذراعيه نحو الاسطبل فى رصانة :

ـ من كان له جثة قريب أو أخ أو أب أو أم أو أى شىء فليذهب ويتسلمها لقد أمرنا بدفنها .

ثم اختفى وجهه ، صعد المارد الى فرسه . استأنف الموكب زحفه من جديد أخذ يتباعد ، يختفى بين شواشى الجازورين البعيدة يصبح قطعة من لونها الرمادى . أخذت الأجساد تزداد التصاقا بالردم ، مثلما تلتصق خرقهم بجلودهم : بفعل الرطوبة وحدها .

- ٢ -

ـ ليس للغرباء فى هذه الدنيا بيوت ٠

هكذا قال « طلعت » وهو يقف حائرا أمام جثة جده « مهيوب » وجثث « دياب » و « صالح » و « سماعين » وغيرهم من بلدياته ٠ كانت عيناه قد ضاقتا وذبل لحيها الضوء من طول البكاء ، مع ذلك فخيوط الدموع تنثال على خديه دون صوت ٠

ـ عيه ٠٠ ليس للغرباء فى هذه الدنيا بيوت ٠٠ انما لهم مقابر ٠

قالت العجوز التى سلقت شيخ الخفراء ذات يوم ٠ ثم تحاملت وذهبت الى « طلعت » واحتوته فى صدرها :

ـ كفاك بكاء يا ولدى ٠٠ لقد قطعت قلبي وقطعت نفسك ٠٠ مثلك لا يصح ان يبكى ٠٠ مثلك رجل ، ولد رجلا ٠٠ فتحمل ما أصابك يكرمك الله ٠٠ والله انك لرابح فى دنياك ٠ وأن الله لعوضك جزاء ما لقيت من اختباره ٠٠ فلا تحزن يا ولدى ٠٠ استكان « طلعت » فى صدرها واختفى ، وكان يرتعش كسمكة فوق النار ٠ لم يعد فى الاسطبل أحد من بلدياته أو ممن يحملون همه ٠ حتى « عمرو » أصابته طلقة رصاص فى قلبه ٠ « عبد السلام » و « شيخ الغفر » و « الأعرج » لم يعد لهم وجود ، ولابد انهم ذهبوا مع النيابة ٠ الاسطبل لم يعد مزدحما بأحد ٠ أين ذهب كل الأنفار ؟ ٠ لا يعقل ان يكونوا كلهم قد ماتوا ٠ لابد ان كثيرين منهم قد هربوا ٠ أما هو فكيف يهرب ؟ ٠ كيف وأمامه جثة جدة « مهيوب » وجثث بلدياته ؟ ٠

احتضنته العجوز ٠ صوتت :

ـ أليس هنا من رجال ؟ ٠٠

ربما كانت صـــادقة ، فليس هؤلاء برجال أبدا ، مع انهم ذكور ، يتكورون على أنفسهم يعلوهم الصـدأ لا يجرءون على رفع هاماتهم فى أى وجه .

ـ قوموا يا أبناء السفلة وادفنوا موتاكم ..

هرش واحد فى قفاه . بصق آخر على الأرض . بصق ثالث ماذا يفعلون ؟ . انهم لابد أن يدفنوا موتاهم هذا حق . ولكن أين يدفنوها ؟ أين المقابر أولا ؟ وأين ماء الغسل والأكفان ؟

كانت أبواب الاسطبل مفتوحة على وسعها . من أحدهما تقدمت العجوز ساحبة « طلعت » من يده فى حزم وقوة :

ـ تعالى معى .. أنت اللى راجل انت وحتستحمل .

مضى معها دون تردد :

ـ الى أين نذهب يا خاله ؟

ـ امض معى .. الست تريد أن تدفن جدك ؟

ـ بكى « طلعت » من جديد ، وتكسر صوته فى نهنهة ، وشعر بقلبه يهتز وينتفض :

ـ و .. أمى .. أمى يا خاله ؟

ـ مالك ولامك .. ما دخلها هنا ؟

ارتفع صوته بجعير ملتاع :

ـ ماذا اقول لها ؟ ... كانت تخشى أن يعود لها بدونى .
فاذا بى ساعود لها بدونه .

ـ الحى أبقى من الميت .. لقد أخذ المرحوم عمره ونصيبه ..
الدور والباقى عليك انت..

ـ و ٠٠ و ٠٠ أمي ٠ انها لابد أن تراه ٠

ـ يا كبدى ٠٠ وكيف تراه ؟ ٠

ـ ألا نستطيع أن نسافر به ؟ ٠

ـ سافر ان قدرت ٠٠ يالك من ولد طيب ٠٠ كيف تسافر به ؟ ٠٠ تقطع الطريق من هنا لبلدتكم في عشرة أيام على قدميك ٠٠ من يحمله لك ؟ ٠٠ تحمله أنت ؟ ٠٠ حتى بلدياتك لم يبق منهم سوي أبى كرش وأعور العين وأبى طحال ، اتظن أنهم يحملون لك ؟ ٠٠ تموت من الجوع والبرد والعطش والتعب فى الطريق ٠٠ تتعفن جثثكم جميعا وربما أكلتكم الذئاب قبل كل شيء ٠٠ امض يا ولدي ٠٠ لا تكن عبيطا ٠٠ اكرام الميت دفنه ٠

وكان الاسطبل يتراجع خلفهما ويبتعد ويتضاءل حجمه : والعجوز تحجل على الطريق الزراعي و « طلعت » يلهث بجوارها غارقا فى الدموع وفى العرق ، يتعثر يكبو يعتدل ٠ أخيرا لاحت لهما ربوة عالية تتصاعد منها رقاب ورؤوس حجرية بيضاء ، وأشجار عتيقة ، وأشواك ٠ وحلقا ٠ انحرف الطريق الزراعى المعد للعربات والكارتات ، وصار الى اليمين مدقا منحدرا ٠ أخذ يصعدانه ويغوصان بقدميهما فى التراب ٠

ـ السلام عليكم ٠

قالت العجوز ٠ دهش « طلعت » لأن ثمة أحد لم يكن موجودا يتلقى السلام ٠ لكنه مشى وراءها ، فظللتهما فروع جميز عتيقة ممتدة متعانقة تضع كهفا مظلما فى عز الظهر ٠ تسربت الى أنفيهما رائحة زهور برية نفاذة يسمونها فساء الكلاب ، ورائحة أشواك حادة لها عشرات الأسماء ٠ والمقابر مرتمية تحت الأشجار وفى قلب الحفر ، بعضها مبنى على هيئة منزل صغير ، وأخرى على هيئة هرم مستطيل منتفخ كظهر الجاموسة ، وثالثة على هيئة مصطبة ورابعة مجرد كومة من الرمل يعلوها شاهد ٠

اقشعر بدن « طلعت » وأحس بجلد وجهه يؤلمه من الوخز ، وبجفونه تدب فيها نار حامية • راح يتابع العجوز • وراحت هي تدخل بين الصفوف وتخرج وترتد عائدة وتقف ناظرة حواليها متمتمة بكلام • تناهى الى سمعيهما صوت هدير يزحف من جميع الاتجاهات ، لزحفه على الأرض وقع مخيف ومقبض • لغط غير مفهوم وصياح • ثم صار الزحف يقترب ويقترب حتى امتلأت ربوة المقابر بالأشباح تظهر فجأة من منحدر أو تخرج من حفرة أو تهبط من عل • ارتعد « طلعت » وازداد اقترابا من العجوز وقد أحس في ظلها بكثير من الأمان ، فهو يوقن انها قوية قوة الأبد ، وتمنى أن تكون رجلا يصادقه ويذهب معه الى كل مكان •

غمزته في يده بألا يخاف من شيء • فتوقف بجوارها •• مرتعشا • تكاثرت الأشباح وتناثرت الى أجزاء تقف أمام المقابر أو تلف حولها أو تصنع بعض الاصلاحات •

قالت العجوز لطلعت كأنها تزيل خوفه :

ـ جاء كل واحد ليحمي مقبرته •• يظن اننا جئنا لنفتحها ونحشر فيها بلاوينا •• لكن لا •• أنا لا أحب نبش المقابر •

سحبته ومضت نحو العمق ناظرة بعينها هنا وهناك ، تلقي السلام على الواقفين وتعافيهم بالعافية كأنهم أقاربها المقربين ، تقرأ الفاتحة لكل قبر تمر من أمامه اكراما لأهله وبعثا للطمأنينة في نفوسهم ، ثم ارتفع صوتها في الوجوه وقد لمعت عيناها ببريق جهنمي مخيف :

ـ أنا لا أحب نبش القبور أتفهمون ؟ •• أعرف انها ضيقة •• ضيقة •• فكيف أضيق على أهلها أكثر ؟ •• القبور ضيقة لأنها تزدحم بذنوبنا التي تدفن معنا •• ولكن •• هناك موتى لابد من ايوائهم •• الغريب مكروم لأجل النبي ياناس •• ومن لم يكرمنا أحياء ينوبه الثواب اذا أكرمنا موتى •• أعرف أنكم يا أهل هذه

البلدة غرباء مثلنا وان كنتم تبيتون في دوركم ٠٠ وأعرف انكم تعرفون أن دوركم ليست بدوركم ، وانكم ضيوف عليها تؤجرونها من الزمن بعرق السنين لمن يقبض وهو مرتدح ، ولهذا فأنتم تهتمون بهذه الدور التي تقفون الآن لحراستها من سطوة جئتنا ٠٠ أنتم محقون فهذه دوركم الحقيقية ٠٠ هذه دوركم التي تزينونها وترطبونها وتتهيأون للرقاد فيها آمنين مطمئنين ٠٠ ان الله حق والموت حق ٠٠ وهذه الدور لن تحميكم من جهنم ٠٠ فلا يحميكم من عذاب الجحيم الا سلامة نفوسكم ٠٠ ان الأجسام اذا تجاورت صنعت جسرا من النخيل الأخضر في جنة الخلد ٠

تقدم منها رجل وقور ، يرفع ذيل ثوبه الأبيض النظيف من الأرض ، ويطوح بيده المسبحة :

ــ اسمعي يا خالة ٠٠ كلامك حق ٠ ولكن ٠٠ ضعي نفسك في موضعنا ٠٠ اننا نتشاءم من فتح مقابرنا حتى ولو تبرعا لوجه الله ٠٠ لكنا والله نصدق كلامك ويقول كل منا لنفسه أفظع منه ٠٠ لكن ماذا نفعل ؟ النفس أمارة بالسوء ٠

وكانت سحابات الغبار الكثيف قد هدأت قليلا ، ولكنهـا سرعان ما ارتفعت ثانيـة قادمة من اتجاه الاسطبل ٠ ثم ازدادت كثافتها وظهر من خلفها معظم الذين كانوا في الاسطبل ، يمشون في بلاهة كنعوش تســير وحدهــا ، فما أن وجدوا « طلعت » و « العجوز » حتى وقفوا منتظرين ٠

بدأ الرجل ذو الثوب الأبيض النظيف يتجه اليهم :

ــ حاسبوا يا أسيادنا ٠٠ ليس هكـذا تدخلون المقابر ٠٠ انكم تدوسون فوقها وتدهسونها ٠٠ هذه جريمة ٠٠

ــ قالت العجوز في حدة :

ــ أما الذين يدوسون فوقنا فليسوا مذنبين ٠

استدار اليها :

ـ شوفى يا خاله ٠٠ أرض الله واسعة ٠٠ وكلنا سنموت ٠٠ وربما نموت أشنع ميته فنجد من يستر لحمنا ٠٠ تعال يا خاله ٠٠ تعال معى ٠

واستدار وصار يمشى ٠ فمشت بجـواره والجميع خلفهما ٠ مشوار طويل بين الصفوف أفضى بهم الى وسعاية كبيرة على شكل حفرة ، كأنها بئر جف من زمان ٠ قال الرجل ذو الثوب النظيف انها بفعل الذئاب واللصوص فى الزمن القديم ، وأن هذه الوسعاية هى الوحيدة التى لا يملكها أحد ، ولا يريد أن يملكها أحد ، فهيا ادفنوا فيها موتاكم ، أتنفع ؟ أنا شخصيا أرى أن البطر عليها فعل لا يرضى الله ٠

أومأت العجوز برأسها موافقة ، ثم نظرت الى بنى بلدتهـا الذين جاءوا وراءها ٠ صاحت وهى تشمر ذراعيها :

ـ اذهبوا وانقلوا الجثث وهاتوها الى ٠

دب فيهم الحماس وانطلقوا يبرطمون خلف بعضـهم ، فلقد وجدوا ما يمكن أن يفعلوه ٠ أما « طلعت » فقد انزوى بعيدا يحاول البكاء ولكن دموعه تحجرت فى حلقه الجاف ٠ صاحت العجوز فى الرجل ذو الثوب النظيف :

ـ ايتونى بفأس ومقطف ٠

أخذ الرجل يهرول مبتعدا ٠ تابعه « طلعت » فرآه يختفى بين المقـابر البعيدة ٠ التوت أمعاؤه ، التوت رأسه نحو العجوز كانت تلف حول الحفرة وتقيسها بقدمها طولا وعرضا ٠ ثم ظهر صف من الرجال يمسكون الفئوس والكريكات والمقاطف اتضح فى مقدمتهم الرجـل الذى كان يلبس جلبـابا نظيفا وقد خلعه وظل بالفانلة والسروال ، فما أن اقتربوا من الحفرة حتى صاح :

ـ هيه ·· هيا يا رجال ·· كله فى سبيل الله :

انقضوا على الحفرة وانهالت فئوسهم وكريكاتهم تكوم جوفها وتنزحه وانطلق آخرون يجلبون آكوام التراب من كل ناحية ثم امتلأت الدنيا كلها بالغبار ، اختفى كل شيء اختفاء تاما ؛ أقدام تزحف مقبلة تئن وتتوجع وتبسمل وتحوقل · صاحت العجوز :

ـ انتظروا بعيدا ·· ضعوا الجثث ها هنا بجوار بعضها ·· اذا لم يحضرها ، الماء وجب التيمم حتى فى الغسل ·

نزلت الى الحفرة التى ازدادت عمقا واتساعا كحجرة كبيرة تقرفصت وانكمشت على نفسها ، وظلت تتقلص وتتقلص · وتختفى أطرافها شيئا فشيئا داخل ثيابها السوداء ، حتى رأسها لم يعد له وجود · تحولت الى كومة من الفحم تتقلص وتنفرج ، ثم ظهر ذراع ، وخلفه ظهر الثانى · ثم نهضت واقفة · فوقع من جوفها ثوب أبيض ذو كورنيش · رفعته فى يدها فتبينوا انه قميصها الداخلى ، ودهشوا من نظافته ظلوا يبحلقون فيها ، فاذا بها تمزقه بكل هدوء ، الى شرائح متساوية · تصنع منها أربطة والثمة ، وصاحت :

ـ ايتونى بواحد واحد ·

ففى الحال اقتربت أذرع الرجال بواحد كلوح الخشب · تلقفته أذرع أخرى من داخل الحفرة وطرحوا الجثة أرضا فى هدوء · تقرفصت أمامه العجوز وأسبلت عينيه وصاحت بصوت مرتعش رهيب :

ـ أشهد أن لا اله الا الله ·· الموت حق ·

ثم راحت تمرز يديها على الرمل الطرى المنزوح من الحفرة ، وتعود فتمررهما على الجثة متمتمة بكلام مضغوم · ثم سحبت شريحة من قميصها ولثمته · صار « طلعت » ينتفض كفرخ مذبوح ، لقد كانت جثة « دياب » ، ها هى ذو العجوز توسع لرأسه مكانا

فسيحا ، ثم تصنع من التراب جسرا رفيعا · ثم طلبت الجثة الثانية فعلت بها ما فعلته فى الأولى · الى أن أقبلت جثة الجد « مهيوب » تشق سحب الغبار مندفعة نحو الحفرة ، وكانت المحفظة تتدلى من فتحة الصديرى المربوطة بفتلة دوبارة ·

غاص « طلعت » فى بئر سحيق مظلم · صار يطلق صيحات هستيرية متتالية متداخلة ، ويلقى بنفسه فوق جده ويصرخ فى شراسة · يشده الرجال ويحكمون لف الأذرع حوله ولكن الجسد النحيل ينتفض من الألم ويفقد القدرة على النباح ، وتتحول أصواته الى رغوة من الزبد تتناثر بين شدقيه ·

وحين كان الرجال يحملونه عائدين به الى الاســـطبل خلف العجوز المتعبة لم يكن يدرى بأى شىء ممـا يدور حوله ، ولم يكن يحس بيد العجوز وهى تدس محفظة جده فى جيبه هامسة فى أذنه :

ـ احذر أن تضيعها ·· انها قسيمة زواج أمك ·· ربمـا صارت مجرد ورقة لا نفع فيها ·· ولكن ·· من بغيرها يصدق انك من أب وأم معلومين ؟

وفى تلك الليلة لم يغلق الاسطبل من الخارج بالقفل ·· لأن الذين لم يهربوا غير قادرين على الهرب ·

ـ ٤ ـ

رغم أن الاســطبل يبيت مفتوحا منذ ليـال ، الا انهم حين يستيقظون فى الصباح يظلوا فى أماكنهم لا يتحركون الا بعد أن يجىء من يفتح الباب داخلا يصيح فيهم : « انهض يا كلب انت وهو ·· تظلوا نائمين للضحى ؟ » ·

فيهبون واقفين ·

واليوم هبوا واقفين على الرغم من أن أحدا لم يصح فيهم تلك الصيحة المعهودة · كان الباب قد انفتح بهدوء وأطلق زيقا غليظا ، ثم دخل رجل لم يروه من قبل . يرتدى جلبابا بياقة من الأقطان وكمين رفيعين وفتحة الصدر قصيرة كفشخة الحنك ، جلباب لا يرتديه الا القصابين وتجار الطيور وتجار الخضار ، وقد لا يكون الشخص نفسه واحدا من هؤلاء ولا أولئك ولكنه يرتدى هذا الثوب اكراما لأهله ورمزا على انتمائه لهم ·

ظل واقفا برهة لا ينطق حتى اكتمل وقوفهم جميعا · فقال بهدوء مخيف :

ـ اسمع يا مقصوف الرقبة انت وهو ·· وجع دماغ لا أريد ·· انا تعبان وخلقى ضيق ·· ولا أحب اعادة أى كلمة أقولها ـ هى كلمة ·· والآن ·· تعرفون أن قدمكم كان على أرض الوسية نحسا فى نحس ·· الدود يرعى الآن فى القطن ·· كل شىء تغير اليوم فى الوسية ما عدا أنتم ·· الناس الذين كنتم ترونهم كل يوم تاب الله عليهم من رؤية وجوهكم النكدة ·· لم يعد هناك ولى واحد ممن كنتم تعرفونهم ·· والذين كنتم تعرفونهم من قبل شىء ، والذين ستعرفونهم اليوم شىء آخر ·· انهم يفهمون أنكم لا تحسنون الضرب الا بالمسوقة ·· فاتقوا الله فى أبدانكم وامتثلوا للعمل بما يرضى الله ·· والآن ·· شدوا حيلكم ·· ارفعوا رؤسكم · انفخوا صدوركم واسترجلوا قليلا انكم سوف تعرضون الآن على سيادة المندوب شخصيا وبذات نفسه ·· نعم ·· أتفهمون ما معنى المندوب ؟ ·· المندوب هنا من ليلة أمس ، وسوف نذهب اليه جميعا ليرانا ويتأكد أن فى التفتيش رجالا وأنفارا بحق ·· فهيا ·· صفوا انفسكم وتحركوا أمامى ·

تدافعت أمواج هزيلة من الأذرع والمناكب والأرداف محاولة أن تصنع من نفسها صفا واحدا ·

ـ ٥ ـ

كانت مقدمة الطابور تقبل من بعيد تطوح أذرعها فى الهواء وتبدو كالغربان الكالحة .

وكان فى انتظارهم مجموعة من الرجال تمتلىء بهم وسعاية أمام القصر . فلما تكامل طابور الأنفار صدر الأمر بتوقفهم فى مكانهم .. فتوقف الأنفار فى أماكنهم ..

اتسلت الرجل الذى أتى بهم من الاسطبل واتجه نحو مجموعة الرحال وشخط فيهم :

ـ صفو أنفسكم انتم أيضا .

صاح واحد منهم :

ـ كيف يا باشخولى ؟

زحف الزغدات واللكزات بين ظهور الأنفار ، وتعاقبت الهمسة :

ـ باشخولى .. باشخولى السراى الجديد ..

قال الباشخولى الجديد :

ـ ألا تعرف كيف تصطف يا أعمى العين ؟

كان الرجل بالفعل أعمى ، كان أعمش العينين يربط رأسه بمنديل محلاوى وينظر فى موضع قدميه كلما خطا .

صاح الباشخولى :

ـ « القيده » فى الأول .. والساقه فى الآخر .

ـ قيده ؟ .. وساقه ؟

نظر الأنفار فى قائل هذه الكلمة ، فاذا به رجل هزيل ذى قدم واحدة ، يتابط عكازا بدلا من الساق المفقودة ، ويحجل بالقدم والعكاز رائحا غاديا مطوحا بخرزانته فى الهواء ·

برطمت العجوز فى تعجب :

ـ لم يبق سوى هذا الأعرج المسخه يعملونه خوليا علينا ·

فهمس واحد بجوارها ؟

ـ ستجدينه أشدهم قوة ·· كل ذى عاهة جبار ·

احتشت الأصوات بين مجموعة الرجال · ارتفع صوت الباشخولى مزمجرا :

ـ أنا الباشخولى واختار كيف أشاء ··

ـ انك لم تعين بعد ··

ـ لكنهم كلفونى بالعمل أمامكم ·· فما معنى التعيين اذن ؟ ·

ـ انهم سوف يعيدون النظر فى هذا الأمر ·

ـ اخرس يا أبا طحال ·· يا عيان بكيفك ·

دقق فيه الأنفار · كان بالفعل أكرشا مريضـــا بالطحال ، اصفر الوجه حاد الملامح لا ينبىء وجهه عن أى تخير ·

ـ « القيده » يقف في أول الصف ·· هيا يا حكيم ·· امسك « القيده » ·

برز « حكيم » ، رجل قصير غليظ ذو شارب مفتول ، على وجهه جد مثير للضحك · صار يتهادى كالبطة المختالة ثم وقف فى المقدمة بجوار صف الأنفار ·

ـ الذى وراءه ·

هكذا صاح الباشخولى ، ثم أردف : اطلع يا فلان .. وراءه فلان .. ثم فلان ، حتى اكتمل صف من الخولة بجوار صف الأنفار : القيدة « حنيم » ذو الشارب المفتول ، والساقة الرجل الأعرج ذو الساق الواحدة والعكاز .. أما الباشخولى فانه ظل يروح ويجيء أمام الصفين المتجاورين ، يشخط دون داع ، ويسب ويلعن من يكون في رأسه أى خبث أو لؤم .

وكانوا في انتظار أن يخرج المندوب من القصر ليشاهدهم ويعاينهم ويلقى عليهم اوامره وما عنده من توصيات وشتائم في الرجال السابقين . غير أن الوقفة طالت حتى الضحى ، وبدأ العرق يتصبب منهم جميعا . والباشخولى أمام القصر واقف يتأهب لملاقاة المندوب ، لكنه رأى أحد السياس مقبلا يجر فرسا في اتجاه الترعة .

صاح السايس ضاحكا في سخرية :

ـ ماتم هذا يا باشخولى ؟ ..

ـ ماتم أمك باذن الله ..

هكذا صاح الباشخولى . فأخرج السايس لسانه وانفجر ضاحكا :

ـ لماذا تقف هكذا أنت ـ .. وبنى اسرائيل ؟ .

ثم أغرق في ضحك هستيرى :

ـ مع أنى والله ما أعرف بنى أسرائيل هؤلاء يطلعون ماذا ؟ .

ـ سعادة المندوب صحا من النوم أم لا ؟

ـ مندوب ؟ .. هاهاها .. أتنتظر المندوب ؟ .. هاهاها .. ى ..

ـ نعم المندوب .. هاهاها ... ى .

هكذا رد مقلدا اياه ٠

ـ يا جدع ٠٠ المندوب ليس هنا ٠

ـ ليس هنا ٠٠ كيف ؟ ٠

ـ المندوب بات الليلة في بيت حضرة الناظر ٠

ـ حقا ؟ ٠

ـ نعم ٠٠ عزمته الست على العشاء ٠٠ ويظهر ان الطعام كان دسما وثقيلا ٠٠ فنام سيادة المندوب في مطرحه ٠

ـ أو لعله لم ينم بعد ٠

هكذا أضاف ذو الساق الواحدة ٠

ـ يا للمصيبة ٠٠ ماذا سيقول عنى الآن ؟ ٠

ـ سيقول انك حمار ٠

ـ ثم زغد الفرس وانطلق يجرى ٠٠

استدار الباشخولى وصاح فى الجميع :

ـ نهاركم اسود من قرون الخروب ٠٠ اطلعوا بنا الآن على بيت حضرة الناظر ٠٠ لنقف أمامه حتى يصحو من النوم فيجدنا في انتظاره ٠

رفع قامته وصاح مقلدا شيخ الخفراء :

ـ معتادا ٠٠ ن ٠٠ مارش ٠

فمضى « القيده » من صف الخولة سائرا يجاوره القيده من صف الأنفار ٠ لكن الباشخولى صاح من جديد :

ـ قف ٠٠

فتوقفوا ..

الأفضل أن نكون أكثر تنظيما من هذا .. كل خولى يمشى وراء فرقته ..

ـ كيف ؟

ـ بسيطة .. ما عليك الا أن تعد عشرين نفرا وتقف وراءهم .

ـ واذا زاد عددنا عن عدد الأنفار ؟

ـ قسموهم على بعضكم .

فبدأ صف الأنفار يتمطى ، كل بضعة أنفار ينحشر « خولى » يسوقهم بعصاه . حتى صار الصف طويلا وفكها : يبدأ بقيدة الأنفار ، وينتهى بسافة الخولة : الرجل ذو الساق الواحدة والعكاز .

تلوى الصف قليلا وصنع نصف دائرة لكى يستدير عائدا الى بيت حضرة الناظر .

ـ ٦ ـ

بيت حضرة الناظر يقع فى أعماق حارة جميلة وضيقة ، فى مواجهة الداخل تماما . وهى ليست حارة من السكان ، انما هى طريق طويل فيما بين الحديقة وبين المخازن والأبراج والحواصل الملحقة ببيت الناظر . أما الحديقة فطولها ثلاثة أفدنة يلتف حولها سور من الأسلاك الشائكة . وأما المخازن والحواصل والأبراج فعلى يسار الداخل وفى مواجهة الحديقة .

وكانت الست « هنومه هانم » تطل من خلف المشربية الصغيرة حين لاح لها طابور يقترب من أول الحارة ثم يدخلها صبانعا جلبة

شديدة · كاد قلبها يسقط فى قدميها من فرط الغيظ · أزاحت الستار أطلت برأسها الندى الصبوح . صاحت :

ـ أين أنتم ذاهبون يا مواشى ؟

فتوقفوا فى الحال . وتصادموا · وظهر الباشخولى مقبلا نحوها فى خنـــوع :

ـ عدم المؤاخذة يا ست هانم ·· جئنا لنقابل المندوب حسب طلبه ·

ـ وهل قال لك المندوب اصنع طابورا من الغربان وهاته ؟ ·

ـ أنا رجل منظم يا ست هانم ·

ـ ومن قال لك أن المندوب هنا ؟ ·

أسقط ما فى يده · تردد · صار يتمتم :

ـ أنا ·· لم يقل لى أحد ياست ··

ـ على كل حال ســيادة المندوب مستغرق فى النــوم ·· ولا نستطيع اقلاقه الآن ·· اذهبوا ··

ـ اننا نفعل الواجب يا ست هانم ·· فما الذى تأمرين به ؟

اشارت بذراعها نحو الأفق البعيد :

ـ انكشحوا ·· اذهبوا الى عملكم ·· وحين يصحو سوف يمر عليكم فى العمل ·

استدار الباشخولى طائعــا · ارتبك قليلا · الحارة ضيقة ، ومسدودة ببيت الناظر ، ولابد من الطابور · أخيرا صاح :

ـ للخا ·· لف ·· در ·

استدار الأنفار حول أنفسهم فى الاتجاه المضاد ·

ـ معتادا .. ن .. مارش .

اندفع العكاز يخطو فى المقدمة سابقا الساق الواحدة ، ومضى خلفه الأنفار ودقة العكاز فوق الأرض تنظم خطوهم وتقوده . ولم يكن صاحب العكاز يدرى أن فرقته نقصت واحدا ، وأن هذا الواحد قد تسلل وزحف على بطنه تحت الأسلاك الشائكة واختفى فى سور الحديقة المعرش باللبلاب .

ـ ٧ ـ

صار قلب « طلعت » يدق بعنف وهو ينكمش على نفسه بين العشب واللبلاب . وينظر من ثناياه متفرجا على الطابور الذى كان منذ برهة واحدا منه . ورغم أنه لم يكن مدركا تماما لخطورة ما فعل . بل لم يكن فى كامل وعيه ، الا انه ابتسم ساخرا وقد داخله شىء من الاطمئنان على ما فعل . غير أن الابتسامة أفلتت ضحكة قصيرة مكتومة . حين اقتحمه من الطابور صوت لعله صوت العجوز هامسا فى كمد :

ـ فى السنين العمياء يصبح الأعرج قيده .

● القمر يتسلل الى الاسطبل ●

فتح « طلعت » عينيه فجأة ، كأنه يفتحها لأول مرة منذ سنين طويلة كانت جفونه مليئة بالعماص ، والقمر يداعبه من خـــلال العشب واللبلاب . وينظر اليه بعينين باسمتين . أدرك « طلعت » انه انكسر تحت سلطان النوم والخوف فلم يدر الا والنهار قد ولى . لم يكتشفوا غيابه اذن ، لم يمر أحد في الحديقة طول النهار . كان المكان رطبا وجميلا وكان ظهر « طلعت » ملتصق بالأرض يبقى حراكا .. لكن الخوف سرعان ما دب في قلبه ، فانتفض جالسا ، ثم أخذ يزحف وسط الزراريق المستقيمة مع أضلاع الحديقة حتى صار في نهايتها البعيدة ، وصار بيت الناظر خلف ظهره ولا يزال نحو يزحف في الحديقة الكثيفة التى أفضت به الى ترعة رآها والصحة من خلال السور الشائك المعرش . بيد مرتعشة رفع سلكا شائكا الى أعلى ، جذبه بكل قوته ، شبكه في السلك الذى فوقه .. طأطأ رأسه ثم دفنهـــا في الفجوة المأمونة ، مغمضا عينيه اتقاء لأطراف العشب واللبلاب .. فصار في الخلاء ..

اندفع يجرى بحذاء الترعة . ويجرى . ويجرى . ولما أحس انه تجاوز حدود القرية ، واختفى القصر والاسطبل فى الأفق البعيد . تمدد على شاطىء الترعة يلهث ويشرب أنفاسه . استراح ظهره فوق الأرض وكأنه سيلتصق بها الى الأبد . التقت عيناه بعيني القمر في وسط السماء . رأى فى عيني القمر صديقه « عمرو » و « دياب » . والمالف . والنيابة وشيخ البلد وأباه والقتلة والسفاكين وجده « مهيوب » . ورأى أمه . وكانت خيوط الدموع تنثال على خديه . وتصنع نقطا بللورية سميكة على وجه القمر .. وكان يحس انه يعرف كل شيء ، كل شيء فى هذه الدنيا . ويحس انه لن يقوى على السكوت على ما يعرف ، وانه لم يعد ذلك الصبى القديم .. سوف ينتقم لجده « مهيوب » ، ولأمه ، ولعمرو ، وللدنيا كلها . ثم خيل اليه انه يستطيل فوق الأرض . وأن دماغه ينتفخ . وينتفخ ويصير صندوقا هائلا يسع كل هذه الدنيا .

رأى على الأرض ثعبانا كبيرا يزحف بسرعة رهيبة ، ويقفز مختفيا بين أعواد البوص على شاطىء الترعة . انتفض واقشعر جسمه . اعتدل مسرعا . نهض واقفا . ثم أخذ يمشي على أطراف أصابعه ، ثم أخذ يجرى ، يجرى ، حتى تهافتت أنفاسه فارتمى على ساقية مهجورة . ووضع يديه على وجهه .. الى أين هو ذاهب ؟ وكيف فعل ما فعل ؟ كيف تم كل شيء بهذه البساطة ؟ ان مقتل جده « مهيوب » ومقتل « دياب » و « عمرو » والجميع أسهل من ان يرى نفسه طليقا هكذا ، شيء لم يكن يتصوره أبدا . كيف ترك جده « مهيوب » ؟ أيرجع للبلدة بدونه ؟ ماذا يقول لأمه ؟ أتراه يستطيع العودة الى بلدته ؟ لا .. انه لن يستطيع ، لن يستطيع رؤية وجه أمه .. يعرف بالضبط ماذا سيحدث لها ان هو عاد وحده بدون جده مهيوب . ستكون الكارثة عظيمة .. انه يحب أمه ، لهذا فهو لن يستطيع رؤية وجهها ساعة تتلقى النبأ .

انتبه رأى نفسه يمشي ، ورأى نفسه يدخل فى طريق لم يكن

في حسبانه طريق يؤدي الى بلدة كبيرة واضحة · في الطريق ناس يمشون راكبين وراجلين · أحس بالخوف برهة انقلب الخوف الى شعور بالأمان ·· ان أحداً من السائرين لم يعبأ به ، لم يقبض عليه ، لم يسأله من أنت وابن من ؟ ··

ظل يمشي · والقمر يمشي معه · يختفي في الشوارع ويظهر من جديد في الحوديات والاجران · انتبه مرة أخرى : الى أين يذهب بالضبط ؟ لم يعرف الجواب رأى شيخا معمما يمشي مهرولا فيما يتمتم بكلمات وآيات · مشى وراءه مسرعا · تذكر الغرباء الذين يجيئون قريته « بلاد الله خلق الله » ، ويبيتون في المسجد الجامع وفي الصباح يعطيهم الناس القروش والارغفة ·

قاده الشيخ الى وسعاية ، وفي المواجهة جامع كبير ، وللجامع مئذنة · اقشعر بدنه من فرح غامض ، وانفتحت في داخله طاقات من الضوء · تذكر « عمرو » وجمعة المؤذن ، والاستغاثة ، والحب ، وانكشاف الرؤية ، و ·· والشكاوى · الشكاوى التي كان يريد أن يكتبها لعمرو · ما الذي كان يريد عمرو أن يقوله في شكاويه ·· وتذكر الشكاوى العديدة التي قرأها في الملف ، تذكر أمه ، والقاضي المجهول الذي رمى بذرته في جوفها واختفى ، لا يعرف ان كان ذلك الأب المجهول نذلا أو كريما ·· لكنه يتذكر الآن كل الأغاني التي كانت أمه تغنيها كلما انفردت بنفسها ، والمواويل التي سمعها وتعلمها من الغرابوه ، وما تعلمه من عمرو ·

هرول الشيخ في داخل المسجد ، وهرول في أعقابه « طلعت » · اتجه الشيخ الى الميضاة ، ومثلما فعل الشيخ فعل قال له الشيخ أثناء الوضوء سويا :

ــ زمزم .

فغمغم بكلمات مضغمه ضحك لهما الشيخ بسرور ، ثم انهى وضوءه وانطلق فى صحن الجامع يبسمل ٠

وقف « طلعت » وحده على حافة الميضاة ٠ الجو ساكن ورهيب لكنه مريح مع ذلك ٠ رأى على يمينه بابا عرف أنه باب المئذنة ٠٠ دفعه بيده فانفتح ، فتراقص قلبه ٠ دلف داخلا ، احتواه الظلام ، لكنه تحسس درجات السلم وسلكها صاعدا ٠ ظل يصعد وقلبه يتقافز معه ، حتى رأى نورا يتسلل من أعلى فى فتحة المئذنة ٠ اندفع متراقصا ٠ دخل شرفة المئذنة ، وقف مطلا على الخلاء الفسيح ، وعلى وجه القمر ٠

تضاعف وجه القمر ، وأحس « طلعت » انه يرى كل شيء أكثر من ذى قبل ، وأنه من هذه الشرفة يستطيع أن يرى ما لا يراه بقية عباد الله ٠ انبثقت فى دماغه كلمات لا تحصى : من أغانى أمه ، من مواويل الغرابوه ، من شكاوى عمرو ٠ من استغاثات جمعة المؤذن ٠ رفع ذراعيه ووضع كفيه على خديه ٠٠ صاح فجأة مستغيثا :

ــ يارب يا ٠٠ رب يارا ٠٠ ا ٠٠ أ ٠ ب ٠

ثم توقف مرتصدا ، اذ ارتد اليه صوته قادما من الأفق البعيد ، رائقا بريئا ، شديد الحزن ، رنانا ٠ فأعاد الجملة من جديد ٠ وما أن أتمها حتى رأى كثيرا من الاشباح تخرج من المسجد وتبزغ من الحوارى وتقف تحت المئذنة رافعة رأسها نحوه فى انبهار ٠

ارتعشت أوصاله ، ارتعشت كفه خلف أذنه ٠ خرج صوته متماوجا حلو الرعشة حلو الرنين :

ــ يالـ ٠ ب ٠٠ يالـ ٠ مـ ٠ صـ ٠ طفى بلغ مقسا ٠

سـيدنا ٠٠ أ ٠٠ آ ٠٠ واسمح ٠٠ لنا بالرضا يا واسع الكرم ٠٠ ى ٠٠ ى ٠٠ ى ٠٠ ٠

هتف أكثر من صوت :

ـ الله يفتح عليك يا ابنى ٠٠ ياسلام ٠٠ الله يفتح عليك ٠ كمان والنبى ٠

هنا أحس بأنه يولد من جديد ، وأن الدنيا تعطيه وجهها ٠ فى الحال وذكر أمه ٠ ثم تذكر جده « مهيوب » ٠٠ انه لن يتركه لن يترك هـذا المكان ، سوف يعود اليه ليزور قبره ، ويقيم بجـواره ٠ سـوف يشكر الله ، وللدنيا ، كل ما قرأة فى الملف ، وتصيح هاتفة تطلب المزيد ، ويبدو عليهـا الانشراح من كـلام وما سمعه من « عمرو » وما عاشه مع أمه ٠

صـار صـوته يجلجل فى الأفق ، والنـاس تتزايد وتتزايد امـام المسـجد ، فتظل واقفه محملقـة فى المئذنة فى انبهـار ، وتصيح هاتفـة تطلب المزيد ، ويبدو عليهـا الانشراح من كلام يقوله ولا يدرى كيف قاله ومن أين جـاء ٠ هنـا ابتسمت أمـه فى الظلام ، وكانت رائعـة ، رائعـة ، كانت فى الواقـع تريد أن تبكى ٠ فما بالها لو رجع اليها بدون جده « مهيوب » ؟ ٠٠ انـه لن يرى هذا المنظر ، لن يراه ، فلسوف تموت أمـه لو عاد اليهـا بدون جده مهيوب ٠٠ لن يتركها تموت ٠٠ ولسـوف تحـزن لو طال غيابهما ٠٠ نعم سوف تحـزن ، ولـكنه واثـق انهـا ستظل تستقبل المساء كل يوم بابتسامة ، بينما تنظف زجاجـة المصباح ٠

ـ تمت ـ

المادى / السبت ١٠ سبتمبر سنة ١٩٧٧

الوتد

رباعية

● الـوتد

كثيرا ما تمنى أبناء الدار موت الحاجة (تعلبــه » · مع ذلك ما تكاد تلم بها وعكة صغيرة حتى تنقلب الدار كلهــا كانما القيامة على وشك أن تقوم · يجيء حلاق الصحة وينصرف عددا من المرات ، ويحضر القريب والبعيد من الأقارب والاصهار والمعارف ، حتى لتصير الحارة كلهــا ـ وهي كلها بيوتنا ـ زريبة كبيرة تضيق بركائبهم التي يبدو عليها الحزن هي الأخرى ، اذ تقف مدلية الآذان عازفة عن الطعام والنهيق · وتتحول الدار الى مولد صغير تــروح فيــه النساء بقلق مصطنع ، ويظل « المنقد » مشتعلا وفوقه براض الشاى يغلي وينشر رائحته النفاذة ·· ويفرح الأطفال الصغار ويطير النوم من عيونهم ·

في العادة لا يطول مرض الحاجة « تعلبه » فكثيرا ما ســـلم الأولاد بموتها واستعدوا لتجهيز الكفن ، فاذا ما انشرخت السماء عن قرص الشمس وتسللت أشعته من الناروزة في وسط الدهاليز، فوجيء الجميع بصوتها يهمهم في وســط الدار متمتما بالادعيـــة فيما هي تتوضأ · على الفور تطقطق الأسرة داخل القاعات المغلقــة

وتتسابق نسوان الدار في الخروج اليها · حينئذ لا تتحرك الحاجه « نعلبه » ، تصل منحنية على درجات السلم الطيني في مدخل الكنيف تواصل الوضوء والهمهمة غير عابئة بأحد · لكن نسوان الدار غير تائهات عنها ، فهن يتأكدن انها ترى بظهرها وتسطيع ان تعرف — دون ان تنظر — أى باب انفتح من أبواب القاعات وأيها مازال مغلقا ، وان هي الا ثوان معدودة حتى نستدير عائدة بأبريق الماء متوجهة الى قاعتها الخاصـــة · تسب بنت أم صفيحه وتلعن بنت أبى جوال والبنت التى لا تسمى ، فقاعتها حتى الآن لم نفتح ، انهــا بنت عاهرة لا تريد أن تبرح حضن الولد وسوف تقضى عليه في جمعه وتفقد الدار ولدا ، هو أيضا يجب أن يختشى على دمه ويضع فى عينيه حصوة ملح ، يجب أن يكون رجلا بحق وحقيق فيدفعها بعيدا عنه ويصحو ، وهذه البنت التى لم تنم الا بعد الفجر ، أليست تعرف أن اليوم يومها فى كنس الدار وهذا الولد الشملول أليس الدور عليه ليسرح بالبهائم ؟ وهذا الطويل الهايف أبو نبوت ولاسه هل نسى انه الملكف بانتظار المياه فى الترعة الشرقانة ؟ وهذا العيان بكيفه أليس وراءه ساقيـــة سوف تدور فى الحوض الجديد ؟ ·· فليدر عليكم الزمن جميعا ويدوخكم طول حياتكم يا أبناء بطنى لتكن هذه نومتكم الأخيرة باذن الله ·· هل هذا عدل ؟ هل هذه رجولة ؟ هل من طبعنا ان تركبنا نسوان الدار ؟ هل خلقت رجلا لينام فى حضن امرأة ؟ ان هى الا قحباء ابتليت بها الدار فى الزمن الاعمى··

يكون يوما أسود على تلك التى تأخرت فى الصحو عن بقيـة النسوان ، ويضيع صوت الحاجة تعلبه فى زحام شديد من الكلمات لا يعرف أهل الدار ان كانت صـــلاة أم دعاء أم لعنـــات · البنت « سميحة » بنت ابراهيم الكاشف التى هى آخر زوجة دخلت هذه الدار لأصغر أعمامى « طلبة » هى الوحيدة التى تأكل عقل الحاجة · دائما فى قدميها وتحت يديها ، دائما كانسة غاسلة صاعدة هابطة

من الدار الى السطح تستقبل البهائم تترب الزريبة تحلبها ولا تكف عن الحركة ، حتى عند الغذاء أو العشاء تكون آخر من تأكل من نسوان الدار الثمانية الباقين ·

ذلك أن دارنا تضم تسع نساء غير الحاجة تعلبـه · « زوجه عمي درويش » الذى من فرط دونه وكبر مقامه في البلد يبدو اكبر سنا من أمه تعلبـه · وزوجـة « عمي عبد العزيز » الذى هو كبير أيضا وله عصا شهيرة مثل عصا « عمي درويش » وربما افخم ، هو يلي في الأهمية « عمي درويش » اذ يدخل في اختصاصه كل ما يتعلق بشئون الزرع والقلع والحصـــاد والتذرية والتخزين · وزوجة « عمي عيسى » ، الذى يلي « عمي عبـــد العزيز » في السن فقط ولا يليه في الأهمية لهبوط طبعه وميله الى الأكل والسخرية وعمل نوع من الفصولات المضحكة في خلق الله بقسوة كثيرا ما تترتب عنها نتائج ســـخيفة تنزعج لها الدار وتضطر « عمي درويش » لاستقبال كثير من الضيوف الغاضبين ، وتكلف الحاجـة تعلبـه حفنة من الشاي وهبرة من السكر المخزون دائما في دولابها الغائص في الحائط بجوار رأسـها مباشرة ، ولذا فان « عمي عيسى » قد اختص بأمر واحد فقط هو الجمل ، هو المسئول عنه مسئوليـــة تامة ، يؤكله وينيمه في « المنخ » المعزول وحده جـوار الزريبـــة او يقص شعره أو ينقل به الأحمال للدار ولدور الآخرين ، وقد علم جماة صفاته ابتداء من تدخين اللفائف الى الضرب فجأة في الأرض براحة القدم حتى ليرتعد من حوله ، فاذا ما ارتعد أحد أو صرخ من المفاجأة صهلل الجمل كصاحبه تماما وضرب بالقلة التى هي لسانه حين يخرجه الى جانب فمه مبقللا بصوت ضاحك · وزوجة « عمي طاهر » ، القصير ، الذى يبدو أصفر بعلة وكرش لكنه ناشف كعود الحديد ، له اختصاصات كثيرة وغريبة ، وهو المسئول عن الطحين، يحمل القمح على بضع حمير الى الموردة على ترعة المشروع ليغسله ، ثم يعود فيشرف على نشره في الشمس ، ثم يحمله الى ماكينة الطحين

فيطحنه ويعود به ، هو المسئول كذلك عن خدمة « عمي درويش »
وضيوفه الذين لا يعتاون يدخلون الدار ليل نهار صائحين : يارب
ياساتر ، وما بين يارب ياساتر ومع السلامه يارجاله دقائق بل
ثوان لان المقبلين يصطدمون بالمنصرفين دون توقف ، « عمي طاهر »
يستقبل ركائبهم فيلحقها بالزريبة ويعود بها اليهم عند الانصراف
مرتبه البرادع ، هو كذلك صاحب السلطنة في قعدة الشـــاي ،
خبير بتوليع القوالح في المنقد واخفائها تحت الرماد مشتعله لتبقى
زمنا طويلا يسمع لعمي درويش في أي لحظة أن يقول في ثقــة :
رص كرسي دخان ياطاهر • وزوجة « عمي صادق » المسكينة ، منذ
تزوجها لم يقدر لها أن تهنأ في حضنه شهرا كاملا ، فشغلته طلوع
الأسواق ينتقل اليها من بلد الى بلد ويمكث هنا يومين وهنا ثلاثة
يبيع ويشترى للدار أشياء كثيرة يستلقط جمــــلا ، يتخلص من
جاموسة غير مدرارة ، يبيع صوف الغنم وزبل الحمـــــام ، لعودته
فرحة لا مثيل لها ، ففي اخراجه أحرمة وبطاطين وأقمشــة وطرح
وبلغ وشباشب وهريسة وحب العزيز والحمص كثيرا ما يفاجأ القوم
بأن أطفال الحارة كلهم ـ وهم أبناؤنا أيضا ـ قد أصبحوا يلبسون
الطواقي الجديدة الملونة المزوقة فيعرفون أن « عمي صـــادق » قد
عاد بليل • وزوجة « عمي عبد الباقي » الغنام ، الوحيد الذي يعرف
كيف يتعامل مع الحاجة « تعلبه » يحب عادتين في حيـــاته الى حـد
العشق : التوغل بأغنامه في حقول بعيدة وشوارع وعره ، والذهاب
الى مولد ســـيدى ابراهيم الدسوقي كل عام أيا كانت الظروف
والأوضاع ، يقضي هناك الاسبوع كله اذ هو درويش وأخذ العهد على
يدى عمه في الطريقة الشيخ الشرنوبي ، وهو خير من يذبح له ذبائحه
ويسلخها ويطهيها ويأكل أطايبها عن طيب خاطر من الجميع ، والحاجة
« تعلبه » لا تعطيه أو تعطي أحدا نقودا يصرفها فضلا عن أن يذهب
بها الى الموالد ، وهو يخرج لها لسانه في السر ، اذ هي لا تعـــرف
عدد الأغنام التي يشغى بها « المراح » الكبير جـوار الدار الكبيرة ،

مما أسهل أن يخبي عنزتين وثلاث حـوالا سرعان ما تكبر وسرعان ما يبيعها في الطريق ليشتري الدخان اللف وخيوط الصوف التي يصنع منها الطواقي بالسنة المدببة فيما هو سـائر خلف الاغنام . ويدخر منها للمولد . وزوجة « عمي طابه » أصغر الأعمام ، الذي لبس الجبة والقفطان والعمامة من طفولته ودرس في المعهد الديني بدسوق أعواما طويلة من سنة أربعين حتى العام الثامن والاربعين من القرن العشرين كما يحلو له أن يردد ، عاد بعـدها يحمـل لقب الشيخ الى الأبد ، يؤم الناس للصلاة في مسجد « العصاروة » ويخطب من على منبره خطبة الجمعة ممسكا بالسيف الخشبي المعـد لذلك . فيبدو بشبابه المزهـر ووجـه المتـورد تحت العمامة المقلوظة ذات الطربوش القرمزي ، والشال الأبيض بياضا ناصعا بفعل شـطارة سميحة بنت الكاشف زوجته التي تتباهى أمها كلما رأت شبـال الشيخ أن غسيل بنتها يشرب من فوقه العصفور ، يبدو الشيخ طلبه كنبي صغير يهز القوم بحدة نبراته وزلزلة صوته الجهوري المرن ينطق اللغة العربية بنفس اللهجة الفخيمة المقلوظة التي يقرأ بهـا آيات القرآن الكريم والأحاديث ، يتلون صـوته صعودا وهبوطا ، خفـة وشدة ، رقة وخشـونة ، يؤنب ويبكت ، يسخر ويشمت ، يأسى ويبكي ، يغني ويترنم ، والناس من حوله في مصمصة شفاه وبسملة وصيحات ألفاظ وسيل دموع ، أمين أمانة مطلقة ، لا يقبل ابـداء ملاحظة ، لديه ميزان قباني كان في الأصـل من ممتلكات العائلة اذ أن واردها كثير وصادرها كثير فلابد أن يكون لها ميزانها الخاص ، وقد آل أخيرا الى عمي الشيخ « طلبه » ، ليس عن رغبـة في كسب فما أزهده ، بل من قبيل نشر الموازين الصحيحة بين الناس ، فهو على الأقل يثق في صدق موازينه ويدمغها باسـتمرار ، يسـجل صياحه عند الميزان عدد الشرط التي قد تزن درهما ، ان اشترى منك شيئا أعطاك ، فان لم تجد فكه ورقة ماليـة مثلا فانه يترك الشيء باصرار لا يقبل الجدل ، وان باعك شيئا فبالصـلاة على النبي ،

لا ينطق من فمه سعرا أبدا ، يدعوه أصـــحاب مخازن الحبوب من التجار الكبـــار والعائلات الكبيرة ليكيل لهم بمكياله قمحا او درة او شعيرا أو برسيما أو فولا ، فتراه يشيع المكيال مع ولد منا ، ثم يخطف ركعتين على الماشي بمناسبة مروره على المسجد ، اذ لا يصح أن يمر على مسجد دون أن يحييه ولو بالتطهر من أداء الحاجة ، ومادمت تطهرت فالأحسن أن تتوضـــأ لتكون جاهزا على الدوام للصـــلاة ، ومادمت توضأت فلا بأس من ركعتين سنة الوضوء ، وقد يحل الظهر بعـد خمس دقائق ولم يجيء المؤذن بعد ، فليبق - بالمره - يؤدى الأذان على باب المسجد ، ثم يتلكأ فى صلوات الصدقة ، فهذه صلاة ظهر بالنيابة عن أبيه الذى لم يكن يصلى ، وظهر آخـر بالنيابة عن الحاجه تعلبه ، وثالث بالنيابة عن نفسه لظهر قادم قد لا يكون فيه حيا يرزق ، حتى اذا ما تجمع فى صحن المسجد عدد كبير يملأ العين بثلاثة صفوف أو أربعة ابتهج بهجة عظيمة وشرع يقيم الصـــلاة متقدما نحو الايوان المجاور للمنبر ، فاذا ما انتهى من الصـــلاة ظل وقتا طويلا فى ختام كأنه يجدد العهـد كل وقت بنفس الحماس ، ثم ينهض فى بسملة وحوقلة متأبطا شبشبه المتين الجديد باستمرار ، حيث يوسع له الاخرون فيرمى شبشبه على العتبة الخارجية فيصك الأرض فيعبر بقدمه الدرابزين الخشبى ثم يمضى الى العمـل الذى طلب له ، فما أن يصل حتى يخلع الجبة والقفطان والعمامة ويسلمها لأهل الدار ويرتدى جلبابا قديما وطاقية ، حيث يغوص فى جبال من الحبوب ممسكا بورقة وقلم من الكوبياء يرقب الكيال وهو يملأ المكيال ويعد ، وينبه الى أشياء لا تصح ، وعند الزوائد والنواقص يقف فى صف المشترى على طول الخط ، خاصـــة اذا كان يشترى للأكل لا للمتاجرة ٠

ويحق لدارنا وللعكايشه كلهم أن يفخروا بعمى « الشيخ طلبه » الذى تكاد شهرته فى العب كله تنافس شهرة « عمى درويش » لولا أن العين لا تعلو على الحاجب ٠ جميعا نحبـــه ونحترمه ونقف له

اذا فات علينا ونحن جلوس فى أى مكان . ولم يكن يعيبه فى نظرنا سوى شيء واحد .. وقوفه دائما فى صف الحاجة « نعليه » ، مظلومة أو ظالمة ، فهي دائما أبدا تصيح معلنة بأعلى صوت أنها مظلومة فى هذه الدار ولا أحد يريد أن يرحمها . وكل أعمامي يعرفون سر وقوفه فى صفها ، اذ هى التى تمده سرا بما يحتاجه من أموال ، ولها كل سنة حجة وفى كل حجة يحظى هو بنصيب الأسـد من هداياها ، من جبب وقفاطين وشيلان كشمير وشاهي وقطيفات وسبح وطرابيش حتى جعلت منظره ـ كما تقول ـ عليـه القيمة منله . وأعمـامى لا يتورعون عن مصارحة « عمي طلبه » برأيهم في موقفـه ، ولكن بنفس الدرجة من الاحترام والتوقير كأن يقول له عمى عبد العزيز مثلا : « يعني ياشيخ طلبه ما هو برضه انت مش ممكن حتجيب عليها الحق أبدا واحنا عارفين » . فيبتسم عمي الشيخ طلبه ويهز رأسه كأنه يقرأ القرآن فيما هو يخيط بردعة حماره الخاص : « لا دخل لهذا والله .. أعرف ما تفكرون فيه .. لكن لا دخل لهذا أبدا » . ولو استمع « عمي درويش » لرده هذا لركز فيه عينيـه النافذتين رافعا حاجبيه فى سخرية واستنكار مرددا من بين نواجذه : « اطلع من دول ياشيخ طلبه .. انت ؟ .. دا انت بلوه مسيحه .. دا انت الشيخطان طلبه » ولو نطق بهذه النكته أحد أيا كان مركز فى البلدة لبصق « الشيخ طلبه » فى وجهه ولخرجت تبابيت العكايشه تطلب الثأر والدمار ، أما وقد قالها « عمي درويش » فان عمي الشيخ يحمر وجهه خجلا ويعض على نواجذه ضاحكا بعمق ، بهيج حينئذ يراقبـه « عمي درويش » ضاحكا بعمق هو الآخر ولكن دون صوت ، فقط ينتفش شاربه الكثيف وتتسع خدوده وتختفي عيناه تحت كرمشات باسمة ، ثم ما يلبث أن يقول معلقا : « يعني انت من ناحية والست حرمك من ناحية » ، فبمجرد أن يقول « حرمك » ترن فى الدار أصداء ضاحكة أطلقتها أصوات كثيرة مجهولة فى الدار ، لعلها أصداء الضحكة التي أطلقها نسوان الدار ذات يوم بعيد حين أبدى « عمي درويش »

هذه الملاحظة لاول مرة ثم كتمنها فجأة حين صرخ فيهن أن يتحشمن .

وكان يحلو لى أن أقلد « عمي درويش » في كل شيء . فأصيح صيحته وأرسم تكشيرته وأهز هزة عصاه وأشوح بيدى عند الحديث، وأهب فى الأولاد بالعصا لأفض خناقتهم المفتعلة من قبيل اللعب . ويبدو أنني كنت أقرب أبناء الدار كلهم شـــبها بعمى درويش فى الملامح والطول والصوت .. ولكن ليس هذا ما جعل « عمي درويش » يتحيز لى ويجلسنى بجواره ويشترى لى الحلوى كلما صادفته فى أحد الدكاكين . والمؤكد أن اصطفاء « عمي درويش » لى قد جلب على حب الدار كلها ، لدرجة أنني كنت الوحيد الذى لا يوقع عليه عقاب لأى خطأ أتاه رغم شقاوتي التي يضرب بها المثل في نطاق عائلتنـا التى تشغل حارة بأكملها . وهم رغم اســـتيائهم من شــــقاوتي وتنديدهم بها أمام كل ضيف وفي كل لحظة صفاء فانهم يذكرون ما يسمونه بنوادرى التى يتسامرون بها جميعا ، كل واحد يتفنن في اعادة صياغتها بشكل خاص حتى يجلب المزيد مـن الضحك . فلا أعرف ان كانوا يمتدحوننى أو يسلخوننى ، من ذلك مثـلا أن جدى الكبير المرحوم في أواخر أيامه كان شـديدا على أهل الدار . وقد نبه عليهم جميعا ألا يسهر الواحد منهم خارج الدار بعد صلاة العشاء وان تأخر أحدهم ـ بما فيهم عمي طلبه ـ فسوف لن يبيت في الدار فضلا عن انه « سيأكلها » بالنبوت وربما بالبلغة كل حسب قدره ، ثم صمت برهة واستدرك قائلا « هذا طبعا لا يشمل عمكم درويش » وكنا نظنها مجرد نكته ، والمؤكد أن جدى كان يعتبرها كذلك ، لكن « الحاجة تعلبه » حولتها الى حقيقة ، وبواسطة « عمى درويش » تم تنفيذ كل ذلك بدقة . وقد حدث أن سرحت وراء فرح يجوب البلدة بطبوله وزموره ، وظللت ألف وراءه حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعدت مع رهط من أبناء العائلة لا يشملهم قرار دارنا ؛ طرقت الباب بواسطة مقبض نحاس مثبت على البوابة ، واذا بصوت

جدى يصيح من خلف البوابة مباشره حيث ينـــام على الدوام : « مين اللى بيخبط ؟ » ، وكان فى صوته عداء ورهبة . فتذكرت قراره ، فارتعدت وتلعثمت ، فبقى صامتا لبرهة طويلة . فطرقت من جديد ، فصاح بصـوت جهورى : « مين » قلت بخوف ووجـــل : « أنا » قال بشخطه : « انت مين ؟ » . قلت بسرعة وتلقائية مسرسعة: « أنا .. أنا .. أنا أبويا درويش » . فانفجرت ضحكة جدى داوية وفتح الباب قائلا : « طب ادخل يا أبوك درويش » فدفعت نفسى منسلا ، فلسعنى بطرف العصا فوق مؤخرتى وهو يواصل الضحك، وفى الصباح راح يحكى ما حدث كلما التقى أحدا ، ولم تمت هذه الحكاية أبدا ..

الا أننى لم أكن أدرك ايامها أن سر عطفهم جميعا على وتمييزهم لى فى المعاملة هو أننى ابن لاحدى سيدات هذه الدار هى على التحديد « عمتى بهية » فكيف تكون هى أمى وهى عمتى ؟ لقد كانت عمتى بهية ـ أقصد أمى « بهية » قد تزوجت من ابن عم لها مات فى عز شبابه بعد أن أنجبنى ، وكانت أمى تحبه حبا شديدا ، فانتقلت الى دار أهلها رافضة الزواج من أحد حتى تربينى ، ولست أذكر بيت أبى فى دار مجاورة لدارنا ، فلقد تفتحت عينـــاى على هذه الدار المحتشدة بعشرات من الأطفال الصغار مثلى أو أكبر قليلا يرتعون وينادون أهل الدار كلهم بلقب واحد هو ياعمى أو ياعمتى ، فصرت مثلهم أنادي على أمى قائلا ياعمتى . وكانت « الحاجة فاطمة تعلبة » تحب أمى هذه وتصطحبها معها الى الحجاز بين حجة وأخرى ، ومن كثرة ما حجت وتعهدت بالسلوك السوى بدا كأنها تكاد تقترب فى العمر من أمها « تعلبه » . أما عمتى الثانية « بسيمه » فهى آخر بطن أنجبتها الحاجة « تعلبه » منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاما أو يزيد ، وهى ـ عمتى بسيمة ـ بيضاء الوجه لكنهــا ذات طابع رجولى ، وقريبة الشبه بعمى درويش فى الطول والخشونة والصوت وأشياء كثيرة تبدو عظيمة بل وجميلة فى « عمى درويش » ، ولكنها

في « عمتي بسيمة » قد عطلتها عن الزواج كل هذه السنين ، ومع ذلك لا تريد أن تنزل عن كبريائها وتهتم بنفسها كأنثى ٠٠ وها هي ذي تراقب « سميحة » بنت الكاشف وهي تدعك قدمي « الحاجة تعلبه » بالمياه الساخنة المملحة . ونتفرج على جسد « سميحه » وهو ينتعض وينبجر أنوثة فتكاد تنازلها كما الرجال ٠٠

النسوان جميعا يضحكن في سرهن ولا يعلقن بكلمة على النشاط الذى تبديه « سميحة » تجاه حماتها ، لكن نظراتهن ـ التى لم تحمل فى حياتها ودا الا في هذه اللحظة ـ تقول أن المفعوصة لن تلبث أن تفقد حيويتها بعد زمن يقصر أو يطول مثلما فقدن ، وأنهن سوف يتفرجن حينما تنقلب عليها « الحاجة تعلبه » وتسقيها المر مثلما سقتهن ٠٠

. . . .

زينب ومريم وسكينة وبهانه وهانم وبهيه وعزيزة وبسيمة لا يردن الاعتراف بأن « سميحة » بنت الكاشف صبية لا تزال في سن أبنائهن ٠ وأنها زوجة « الشيخ طلبه » صاحب المعزة ، وأنها تبعا لهذا وذاك يجب أن تحظى بشيء من الحنية ولو من باب المجاملة على الأقل باعتبارها عروس جديدة ، انمـا هى في نظرهن امرأة وكفى ، امرأة مثلهن ، ومثلهن خضعت لاختبارات قاسية وجارحة قبل أن تجيء الى هذه الدار زوجة لأحـد أبنائها ، حيث ذهبت « الحاجة فاطمة تعلبه » الى بيت أهلها ، فعرتها من ثيابها وكشفت عليها جزءا جزءا ، واعترضت على بعض الأجزاء من عدم جمـال أو تناسق ، ورضيت كما ترضى دائما على ذمة المقولة الشـهيرة : « الحلو ما بيكملش » ، الا أنهـا تكون قد اقتنعت أن النقص فى أجزاء يعوضه الفائض في أجزاء أخرى ، وذهب وفد من «العكايشه» يقودهم « عمى درويش » فأكلوا من طبيخ يدها أكثر من مرة ، وقيل أنها لا تجيد تنظيف « أم الشلاتيت » ـ أى أحشـاء الذبائح من مصارين وعفشه وكرشه وما الى ذلك ـ فذهب وفد نسائى من عائلة

« الثعالبه » وشاهدن سميحه وهي تنظف « أم الشلاتيت » أمامهن ، ومع ذلك ظلت « الحاجة تعلبـــه » تؤجـــل وتماطل حتى هـــام « الشيخ طلبه » وساق عليهـــا « عمي درويش » فرضيت ، وجيء بالمفعوصة لنأكل بعمل الولية حلاوة ٠٠ ان في هذا خطر ، فعن طريقها يركب الشيخ أكثر مما هو راكب ، انه « طلبه » والأجر على الله ، ناعم ، مؤدب ، يشق الهدوم كلما صاحت أمه بآهة صغيرة ، ولابد أنه يريدها تكتب الأرض باسمه قبل أن تموت ، أو لابد انه يتصور انه يمكن أن يمسك المصروف في يده لكن لا ٠٠ انه وزوجته يتعشمان عشم ابليس في الجنة ٠

ينفرط عقد النسوان بعد أن يشبعن من الودودة أمام وسعاية الفرن في « الدويرة » الملحقة بالدار منفصلة عنها متصلة بهـــا ٠ في تلك اللحظة تكون « سميحة » قد بدأت تتلقى الشـــتائم نيابة عن مريم ـ الكلبة بنت الكلب ـ التي كان اليوم يومها في شغل الدار ، ومن بين الأعمال التي ينبغي أن تؤديها يوم خدمتها دعك قدمي الحاجة تعلبه ساعة أو ساعتين في مطلع النهار ٠٠

ـ أمال بنت أم صفيحة ما جاتش ليه عشان تدعك لي رجلي ٠٠ هما حيصدروكي في كل حاجة ؟ ٠٠ ثم تتثاءب ٠ فتقول « سميحة » وهي تخشى أن يفتضح كذبها :

ـ لازم تحنن البهايم ٠٠ أصل البهايم بتنعب في الحليب الصبح ٠٠

هنا تكون مريم قد تقرفصت فوق الأرض فاشخة وركيها في لا مبالاة ابيحت لها بحكم عمرها الطويل في دار العكايشه ، فهي زوجة أكبر الرجال ، وقد تهدل جسدها وانهد كيانهـــا في خدمة هذه الدار واعطائها عشرة من الولدان صبيانا وبنـــات ٠ زحفت باليتيها فوق الأرض ممسكة بالمقشة المصنوعة من قحف الجريد ،

لكنها عند باب قاعة الحاجة تعلبه تتمهل وتستعيض بيديهـا عن المقشة في كنس التراب حتى لا تصدر صوتا يكشف عن وجودها ، وهى تريد أن تسمع جيدا ، ولسوف تجعل نهار الحاجة أسـود اذا لم تمسك لسانها عنها • أصاخت السمع جيدا فى اتجاه الباب • تقول « الحاجة تعلبه » ويدها لا تكف عن مشاغبة المسبحة :

ـ زهقت والله يابنتي من هذه الولية •• أكثر من ثلاثين عام وهى تناكفنى بلا فائدة • آه لو لم تكن زوجة لأعز الرجال ••

البنت « سميحة » دائمة النظر فى فرجة الباب • لمحت خيال « مريم » متقرفصا يزحف على صدغ الباب ، وهو ما لم تفطن اليه « مريم » فغمزت « سميحة » بفمها للحاجة « تعلبـه » مشيرة الى الخيال . فتأوهت « الحاجة تعلبه » بنبرة المرض العضال :

ـ آه •• لم يعـد أحد فى هذه الدار يرحمنى •• لقد تعبت وآن لى أن أستريح •

تحس « مريم » بشعور الانتصار ، تأخذها من قصيره وتبتعد شيئا فشيئا ، ثم لما تتأكد أن « الحاجة تعلبه » لن تأتى بسيرتها ثانية تلتقط المقشة وتعلن عن وجودها مؤجلة كالعادة ثورتها الى لحظة مناسبة ، صحيح أن هذه اللحظة المناسبة لم ولن تجيء أبدا . ولكن ثمة شعور باقتراب الخلاص يرقد فى قعر بطنها كلما تقدمت صحة « الحاجة تعلبـه » فى الوهن والمرض ، فمن غيرك يامريم يصلح بعدها لادارة الدار ؟ وقد تقفز شخصية « عمتى بهية » الى ذهنها وقد تربعت على السرير بعد موت « تعلبه » ، وقد تطغى عليها صورة « عمى درويش » تعشمها فى سيادة على حسه مقبله ، على أنها فجأة تنفض المقشة فى الأرض بغضب مكتوم لاعنة العيشة والى عايشينها ، ثم تستند على الحائط متقرفصة واضعة كفها على خدها ، ثم تنساب دموعها مختلطة بمخاطها •• فأعرف أنهـا يئست من

الانتصار على « الحاجة تعلبه » يأسا نهائيـــا ، ذلك أن زوجهـا « عمي درويش » بجلالة قدره ، الذى ينحنى له أتخن جعيص فى البلد ، ولا يمر عليه راكب الا وترجل حتى لو كان العمدة نفسه ، والذى على يديه تقام أعتى سرادقات الأفراح وأجل المآتم ، وبكلمة منه تفض أعقد المشكلات ، هو نفسه ينحنى للحاجة تعلبه ويقبل يدها ويخاطبها بلهجة الطفل الصغير حين يقول : يا امه ، أما حين يجىء بسيرتها لدى الآخرين فانه يقول : الحاجة ٠٠ فيعرف الجميع انه يقصد « الحاجة فاطمة تعلبه » ٠٠

و « مريم » زوجة « عمي درويش » تمت الينـا بصلة قربى وثيقة ، اذ هى من فرع « العكايشة » الذى تتكون منه بلدة كاملة على مسيرة ساعتين بالحمار من بلدتنـا ٠ وكثيرا ما نشب الخلاف بينها وبين « الحاجة تعلبه » أدى الى الشروع فى الغضب والسفر الى أهلها ، لكنها سرعان ما تهدأ بمجرد أن يشخط فيها «عمي درويش» ، أما ان طولت فى الكلام فانه يصفعها بالكف على وجههـــا ، وان تزربن فانه ينهال عليها بقحف الجريد أو بعصاه اذا لم تحترم أمه وتكسر عينها أمامها ، فتذهب « مريم » الى غرفتها محطمه ، ولكنها فى الصباح تخرج من القاعة كشجرة جميز مغسولة بمياه المطر ، ولا أثر لما حدث عليها ، والمؤكد أن « عمي درويش » كان يسقيها فى الليل مفعولا سحريا يساعدها على الهدوء والخضوع ٠

« أما زينب » زوجة « عمي عبد العزيز » فانها مهياصة كبيرة ، معاهم معاهم عليهم عليهم هى الأخرى قريبة لنا ومن نفس الحارة ، ربتها « تعلبه » على يديها من الصغر ، بل وخطبتها لعمي وهى طفلة غريرة ، فكانت بحكم اتصالها بالدار تفهم « الحاجة فاطمة تعلبه » حق الفهم ، فلا ترد عليها حين توبخها مهما كان التوبيخ جارحـا صاعقا ، بل تقابل كل ذلك بالضحك الصافى حيث ينعقد الدم تحت خط المنديل أبو أويه وينزرد وجهها المســتدير الغليظ الملامح ،

ويتدفق صوتها المجلجل فيه بحة صوت العكايشة ، وينضح وجهها بطيبه فنبهم ، و « الحاجة تعلبه » تحب منها كلمة « يا امه » حينما تنصقها بصوتها الأنثوى الرنان رغم بحته ، فما أن تسمع هذه اللفظة منها حتى تسامحها فيما ترى أنه خطؤها ، تقول لها : « حاكم أنا عارفاكى تلمه ميأثرش فيكى كلام ولا كرباج حتى ٠٠ داهية تسمك قبيلة الحيا » ٠ غير أن فى صوتها نبرة مميزة ، اذ انها حين تخاطب « زينب » ــ حتى ولو كانت تشتمها ــ لا تنسى انها تخاطب واحدة من بنات العائلة ، فيحمل صوتها رنة خاصة تفصل بين الغضب والحنان ، بين الشتم المقذع والتحفظ ٠٠

يطيب لـ « سكينة » زوجة « عمى عيسى » أن تدخل على هذه الأرض الممهدة ، فاذ تحس أن غضب « الحاجة تعلبه » على قريبتها « زينب » سوف يصير الى جد ، تبتسم « سكينة » وتنهض من غرفتها تتبختر فى وسط الدار كالأوزة ، تلم شعرها المنسابة جدائله تحت منديل مشغول بالفل والترتر ، يتضوع منها عطر صابون الوجه المخبأ دوما فى صندوقها الخاص ، تدخل بينهما دافعة « زينب » الى بعيد دفعة حادة مليئة بالعشم قائلة من خلال وجهها الباسم على الدوام : « اختشى بقى وخلى عندك شوية من الأحمر » ٠ زينب لا تزعل منها اذ هى خفيفة الدم جدا ، وبنت ناس مبسوطين فى وسط البلد ، وليست تحب الخناق أو الدس أو الوقيعة وان أحبت الودودة أمام الفرن ، لا أمل لها فى هذه الدنيا سوى أن تنجب ، ولدا أو بنتا كل عطية الله محبوبة مرغوبة . يحمر وجهها كلما جاءت سيرة الخلف ، ينصحها نسوان الدار فى وسعاية الفرن بأنها يجب أن تذهب الى الساحر فلان أو العرافة فلانة لترى لها رأيا فى مسألة الخلفة ، حينئذ يزداد وجهها احمرارا وخجلا ، ويلمع فى عينيها حزن عميق كاب ، ربما لاحساسها بأنها مجرد ضيفة على هذه الدار سوف يطلقها « عمى عيسى » ان عاجلا أو آجلا اما برغبته أو برغبتها فى سبيل الانجاب ، ذلك أن

عمى عيسى » كثير الزواج ، فسكينة هده هي زوجته الرابعة ، أما الثلاث الأوليات فقد طلقهن واحدة وراء الأخرى لأسباب غامضة تتحدد دائما فى الخلفة كسبب ظاهرى . وهو محظوظ جدا فى النساء ، فكل زوجاته كن من أجمل جميلات البلد . وليس هناك احد يتعرض للحسد بسبب النساء مثل « عمى عيسى » وهذا هو تفسيره الخاص لفشل زيجاته ، فالقـر يخرب البيوت ياجدعان . يلمع الخبث فى عينى « عمتى بهية » ــ أقصد أمى ــ وهن بارشات أمام الفرن بعد الخبيز ــ تريد أن تعرف منها ما اذا كان «عمى عيسى» ، فى النساء حقا فتستنزل اللعنات على زوجاته السابقة ، أم أنه عاجز فتلتمس لهن العذر وله الشـفاء . تقـول وهى تدارى ابتسامتها تحت طرحتها السوداء : « أنا طول الليل سنسامعة هبد ورزع فى القاعة » ــ ذلك أن قاعتنا مجاورة لقاعة « عمى عيسى » ــ فننظر إليها سـكينة نظرة ذات معنى يلمع فى عينيها ويجبرها على الخروج من الحزن الى الابتسام الشفيف البهيج . « يعنى قصدك ايه ياعمتى ؟ » فتقول عمتى بهية : « باقول يكون حط همه فيكى ونزل ضرب بدال ما يعمل حاجة تانيه ما هو شرز » . تهز سكينة كتفيها باسمه : « وحيضربنى ليه ؟ » تقول عمتى بسيمه وقد فهمت قصد أختها : « دى باين عليها مضروبة بصحيح خـدودها مورمه أهه .. ولا دى باين عليها عضه » تقول « عمتى بهيـة » فى خبث « هو بيضربك يابت » تقول « سكينة » بهزة من كتفيها : « أيـوه بيضربنى » غيـامة من الحزن تعبر عينى كل من « عمتى بهية » و « عمتى بسيمة » ، سرعان ما تنقلب الى لمحة حقد على « سكينة » ليس له سبب واضح ، لكن « سـكينة » تستطرد وهى تتعثر فى خجلها : « أصل يا أختى تقوليش وحش وانطلق ... عاير كل ليلة كل ليلة .. لما هدنى » تلمع السـعادة فى عينى « عمتى بهية » و « عمتى بسيمة » ، ويلمع بعض الغيظ فى عيون الباقيـات ، وتستطرد سكينة « أنا متهيألى النسوان بتتطلق منه عشـان كده

مش عشان الخلفة » ، تـرد جوقة النســاء كلهـــا دفعة واحدة : « عجايب » فتستدرك سكينة : « بس والخلفة برضــــه ‥ مش عارفة لها سبب بصراحة ‥ يمكن العيب مننا كلنا » ترد « عمتى بهية » في بجاحة قوية : « جايز ما هى الدنيا مليانة عجايب » ٠

حينئذ ينطلق الصوت فجأة مدويا كالقنبلة الصاعقة : « لا اله الا الله ‥ سيدنا محمد رسول الله » فيبصقن جميعا فى عبهن رغم أن « الحاجة تعلبه » تفاجئهن بهذه الصيحة من حين الى حين فيهتز منها حتى السائرون في الشارع العمومي ويردون الصيحة خلفها ولكن في بسبسة خاشعة متفائلة ٠ ثم تكف اصواتهن عن اللغو ، وتنهض كل الى عمل معروف لها سلفا ‥

الوحيدة التى تضيق بانقطاع هذا الحديث هى « بهـــانة » زوجة « عمى طاهر » ، الرفيعة المسلوعة ، المربربة ، الشاحبة الوجه باستمرار شحوبا مثيرا للخيال ، الحريصة على دعك كعبيها بقطعة من الطوب الأحمر ، تترك نفسها دائما بلا شــــال أو طرحة كأنهــا لا تزال فتاة صغيرة رغم ما أنجبته من أولاد كثار مسمسبى الوجوه مثلها ، ذوى أحجام محندقه وملامح غريبة بعض الشيء عن ملامح العكايشه ، وان حملت نفس الدماء ونفس الطبيعة الميـاله لفرض السيطرة أو العراك بلا سبب ، ولا تفسير له فى نظر أهل البلدة الا أنه من قبيل هبل العكايشه كما يقولون في خلواتهم ٠ و « بهانه » ولوعة بحديث النسوان عن الجنس ، وتدب فيهـــا حيوية غريبة وتجرى الدماء تحت الشحوب ، ومن كثرة انفعالهـــا لا تكف عن الحركة حتي وهي جالسة ٠ يحبهـــا الجميع من أعماق قلوبهن ، لكنهن يتناسين هذا الحب كلما تذكرن ان « الحاجة تعلبه » تعزها أكثر منهن ، ذلك أنها ـ بهانه ـ كالدبور ، ومثــل زوجتها منوطة بأعمال الخدمة العامة ، ليس بتكليف من أحـد انما هكذا درجت الأمور بالنسبة لها منذ تزوجت من « عمى طاهر » ، وهي بنت رجل

كان نعيا ورعا يمت بصلة قربى « للحاجه نعيمه » وسلك اتقيت من قسوة الاختبار وان لم نعف منه تماما . كانت ترافق ابوتنا على الدوام حتى عند طلوعه الحجاز اذ لم يكن قد انجب سواها ، وعند مروره على بيوت الاعيان ليقرا رواتب السور القرانيه في مكان ما من الدار يحدده له صاحبها . وعلى الرغم من انها استحقت لقب الحاجه عدة مرات فانها لم تحمله أبدا ، ربما لخوفها من ان يضفى عليها كبرا في السن . او يقيدها في حركتها ، او يلزمها بالصلاة التي لا تجد لها وقتا أبدا ، لكنها كثيرا ما تستدر اللقب عند احتياجها له للدفاع عن كذبة أو خطأ او شيء اضطرت لنفيه عن نفسها ، حينئذ فقط تصيح بصوت يحاول جاهدا اخفاء نبرات الانوثه الصارخة فيه : « وحياة اللي زرته وحطيت ايدى على شباكه ما حصل .. مش عيب ؟ » . لا أحد يستطيع أن يشتمها أو يجرحها بكلمه لانها لا تعطى لأحد فرصـــه لذلك ، فهي تقوم بعبء كبير دون تذمر أو ضيق . فمن مهمتها مثلا تلصيق الجلة في اقراص بعد جمعها من الزريبة والحارة ، ونقل أحمـــال الحمية من حطب ودريس وقش أرز وأعواد ذره ، حيث يبرك الجمل أمام الدار وينفك حمله . ففي دقائق معدودة تكون قد نقلته ورتبتـه فوق السطح ، وغسيل ملابس « الحاجه تعلبه » وتطليع فراشها للشمس . وكل طيـور الدار لا تعشق سواها ، ومن المالوف أن نكون سـائرة في وسط الدار ووراءها جوقة هائلة من الدجـــاج والأوز والبط والأرانب والرومي تطلق سمفونية من الأصوات يزداد ارتفاع ضجيجها كلما همت « بهانه » برفع يدها كأنمـــا يتوقعون ان تبذر لهم الحب كالعادة ، ولذا فهي خبيرة بالطيور ، وبامســـاك أي طائر في لمح البصر ، خبيرة أيضا في تزغيط البط أو الأوز المرشـــح للذبح في المواسم والأعياد وأيام الأسواق باعتبارها أياما مفترجة ، اذ تصنع عجينة من الردة والشعير وبقـــايا الطعام تجعلها أصابع كالكفته تنشفها ثم تعود فتغمســها في الماء وقد نيمت البطة تحت فخذها

الذى يبدو فى هذه اللحظة أضخم وأجمل مما يبـــدو وهى واقفه أو سائرة ، ممسكة بعنق البطة فاتحة فمها لتحشر فيــه الاصبع وراء الاخر وتضغط باطراف أصابعها برفق على رقبـــة البطـه ليتزحزح الاصبع ويسقط فى البطن ، وبين الاصبع والاصبع بعض قطرات مياه ··

حاول « عمى طاهر » مرة أن ينبه عليها بأنها بخفتهـا هذه وعدم تحشمها فى اللبس قد يطمع فيها الناس فيعاكسونهــا · فنهره « عمى درويش » بنظرة نارية لاســعة ، وأمسكته « الحاجة تعلبه » من اذنه وفركتها بقسوة وهى تزأر فيه :

ـ لا أحد فى هذه البلدة كلها يجرؤ على معاكســـة امـرأة متزوجة من ابن الحاجة تعلبه وشقيق الحاج درويش ·· اللهم الا أن تكون هى التى تجلب المعاكسة ·· وليس هذا ، الشر بره وبعيد ، من طبيعة بهانه ·· انها خسارة فى عضمك ·

فمن يومها لم يفتح فمه بملاحظـة عليها · مع ذلك فحـين تغضب منها « الحاجة تعلبه » لسبب من الأسباب فانهـــا تسبها صائحـــة :

ـ آه يامره يالى معندكيش خشا ولا وقار ·· يالى عمـرك ما تعرفي الحشمه ·· ياصفره يا مسلوعه ·· ياريتنى كنت صدغت وشك بالشبشب بدال ما ألبسك طرحة الفرح ·

فحينئذ تقبع « بهانه » فى ركن من قاعتها تنتفض كعصفور بلله المطر ، ثم تمســح عن خديهــا دمعتين متطفلتين ، وتنهض صاعدة الى السطح كأنما لتدفن حزنها فى شغل لا ينتهى ·

حينئذ تتقدم « هانم » زوجة « عمى صــــادق » لتهدىء من غضب « الحاجة تعلبه » ذلك أن هانم أكثر نسوان الدار حبا لبهانه وفيما لشخصية الحاجة ، تريـد أن تضرب عصفورين بحجـــر :

تسكت الشتائم عن صديقتها وترضي مشاعر الحاجه : « روقي دمك بس يا امه » تقولها « هانم » وهي تدخل القاعه ثم تجلس بجوار حماتها متسائلة : « ايه بس اللى مزعلك ؟ » . يتضح ان الامر في غاية العجب : لقد أبلغتها « بهانه » ان طواجن اللبن في الحاصل فوق السطح بلغت عشرة ، منها سته من اللبن الرائب والباقي طازج ، فلما صعدت « تعلبه » لتتولى بنفسها الاشراف على عمليـة عزل القشدة عن الرائب واعداد طريحتين او ثلاث من خرط الجبن الفريش وجدت عدد الطواجن تسعه فقط ، فتساءلت ، فزعمت « بهانه » أن الطاجن العاشر شربه الأولاد في الصباح ، فاستدعت « تعلبه » كافة الأولاد ولفت بهم لتعرف بطريق غير مباشر ان كانوا قد شربوا في الصباح لبنا أم افطروا بالجبن فقط ، فاتضح لها ان الأولاد لم يشربوا لبنا هذا الصباح ، فجنت « تعلبـه » وطقست وسألت النسوان واحدة واحدة عن مصير طاجن اللبن الذى خـرج من العدد المرصود . فشهدت « سميحة » بنت الكاشف أنهـــا شاهدت الطاجن يندلق من « بهانه » غصبا عنها، فلمـاذا تكذب عليها « بهانه » ؟ هل هي علمتها هذا ؟ هل الكذب من شـيمة أهل هذه الدار ؟ وكيف بالله لمن زار النبى وملس على شـباكه مثلها أن يكذب ؟ انها ملعونة وسوف يقصم الله ظهرها باذن الله . ان الحج ليس لعبه ، انه عهد ، ولهذا فليس من الصواب أن يتجرأ عليـه المفاعيص أمثالها ممن لايفهمون عهد الله والرسول .

توافقها « هانم » على كل ما تقول ، مرددة مع كل هزة رأس : « طبعا ياست الحاجه طبعا » . فتعاجلها حماتها : « طابت وانهرت »، ثم تشوح بيدها مستأنفة التسبيح بالمسبحة ، ثم تهدأ قليلا وتكور المسبحة في حجرها كأنما تنتبه الى وجود هانم لأول مرة ، تربت على كتفيها : « ازيك يابنتي عامله ايه ؟ » فترد هانم : « بخير ياست الحاجة الحمد لله » . فتنبرى الحاجة ــ دون مناسبة ــ تحكي لها عن نساء عشن بعيدا عن أزواجهن سنوات طوالا فلم يفرطن في

عفنهن ، حكايات سمعنها بعد ذلك في الف ليله وليلة وغيرها من المصادر الشفاهيه ، عن نساء حمين انفسهن فكافأهن السماء اعظم مكافاه بطلوع الحجاز والسعه في الرزق والبركه في الأولاد ٠ فيقشعر بدن « هانم » وتردد : « اوعدنا يارب » ثم تندمج في قراءة بعض آيات اغلب الظن انها آيه الكرسي ، ثم تملس على وجهها المستطيل الذى ينطق بالشوق والبراءة والاحساس بفقد شيء ما أو بتوقع شيء ما غير سار ٠ ونعرف « الحاجة تعلبه » ان « هانم » مستمعه جيدة ، ربما كانت الوحيدة من بين نسوان الدار مستعدة للسمر والاستماع في انتباه الى مالا نهايه ، دون أن تعترض على شيء او تستوثق من صحة شيء ٠ ثم انها ونيس لا مثيل له ، اذا طلب منها الحديث تحدثت عن أشياء لا رابط بينها لكنها مثيرة للاحساس بالميل دافعة الى الضحك مع ذلك ، عن عفريت قابلها ذات فجر كاذب وهي تملأ البلاص من الترعة فوقفت له صامدة مسلحة بآيه الكرسي ، فتخاذل أمامها وصار يلاعبها ، فصاحت : « ياسليمان » فاختفى العفريت في الحال ووجدت أمامها رجلا مقبلا يجرى نحوها صائحا : « مالك ياست فيه ايه » فضحكت قائلة انها كانت تنادى سيدنا سليمان ، فقال لها أنه هو الآخر اسمه سليمان وقد جاءها منقذا ٠٠ فعرفت انه سيدنا سليمان بنفسه ، والدليل على ذلك انه ظل سائرا خلفها يحرسها حتى باب الدار وقال لها : « سلمى على الحاجة تعلبه والحاج درويش » فنظرت فلم تجده ٠ واذ يبدو عدم التصديق في عيون النسوان تزأر فيهن « تعلبه » صائحة :

ـ ويخلق ما لا تعلمون ٠٠ لماذا لا يكون سيدنا سليمان ٠٠ وعلى كل حال ما دام قال لها سلمى لى على الحاجة وعلى درويش فانه يكون سيدنا سليمان ٠ هو بعينه ٠ ما دام غير معروف بشخصه لهانم وما دامت لم تره من قبل ولا تعرف له شبها في البلد ٠٠ انه هو اذن ٠٠ انني لا أكف عن ذكر الله وقراءة آياته ولابد أنه يعرف ذلك ويرسل لى السلام من أجله ٠

فعليهن جميعا أن يصدقن فى الحال ما قالت ، حتى « مريم » تهز رأسها صائحة من وسط الدار قبالتهن : « كلك خير وبركة يا حاجة » . فتموج الحاجة رأسها تجاه الباب صائحة فى سرور وإن ظهر فى صوتها الود المبالغ فيه :

ــ غصبن عنك يابت .. اياك بطمن فيكم .. لولايا كانت الدنيا اتفرجت عليكم ..

وتتأهب « مريم » لتفتح فمها بأى رد قد يخطر على بالها ، لكن « هانم » التى تكون على طرف المصطبة فى مواجهتها تغمز لها بشفتيها أن تصمت وتقصر الشر . وتربت بكفيها على صدرها بما يعنى : عشان خاطرى . فتغلق « مريم » فمها ، وتدك المشط العظم المربع فى شعرها الكثيف المتلبد وتشده مرات ومرات فى عنف ليتساقط القمل فى حجرها المفرود ، ثم تسارع بظفر ابهامها فتسحق القمل المتناثر على أسنان المشط فيطرقع فى تتابع سريع مدرب ، ثم تجمع ما فى حجرها وتدعه يتسلق المشط لتسحقه كذلك فى عنف شديد ..

ــ خدتى بالك بقى يابنتى ..

هكذا تستأنف « تعلبه » حكاياتها كأن شيئا لم يكن . فتقول هانم : « أيوه ياست الحاجة » . فتحكى لها عن رجال تجار مثل ابنها صادق يجوبون الأسواق ويتحملون الشقاء ، وكيف انتهزت زوجاتهم فرصة غيابهم فسرن على حل شعرهن فكانت فضائحهن مضرب الأمثال ، وكيف عوض الله الرجال الشقيانين نساء اطهارا وابكارا فى حين منيت السابقات بسوء العاقبة . تؤمن « هانم » على صدق كلام حماتها مبدية دهشتها من مثل هاتيك النساء نجسات الذيل ناقصات الدين . فهانم ، كما هو معروف ، هى الابنة الوحيدة ــ على ذكور كثار ــ لأحد الخياطين فى البلدة ، يفصل الثياب لعلية القوم ، ولما كان المثل الشعبى يقول : « أجرة

الخياط تحت مؤخرته » ، ومعناه أنه يجلس فوق ثياب الزبائن بعد حياكنها ليكويها ومن ثم لن تخرج من تحت مؤخرته الا بعد دفع أجرته ، فانه قد جمع ثروة كبيرة وصار بدوره من الأعيان ، وحمى نفسه بحج بيت الله حتى تزداد ثقة الناس فيه ، وهو قصير القامة نظيف الثياب على الدوام ، يرتدى فوق الجلباب قطنية من الشاهى اللامع ، ويسمح له بزيارة البيوت والاختلاط بالنساء لتفصيل ثياب العرائس ، ويقيس الأبدان بتحفظ شديد حتى لا تلامس أصابعه جسد المرأة متجنبا ما يمكن أن يبدو بذيئا من حركات القياس ، يبدأ كل شيء ببسم الله الرحمن الرحيم سابلا جفنيه على عينيه مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم قبل البسملة وبعدها ، ويحك موضع القياس فى جبينه ليلوثه بالعرق كعلامة يقص عندها ، وهو بارع فى خرط الثياب وحبكها وجعلها كالكعكة منضبطة فوق صاحبها · وقد أنجب سبعة رجال وفتاة واحدة هى « هانم » ، فعمل على تحفيظها القرآن وتعليمها الصلاة · ومنذ طفولتها حتى صباها وهو يحرص على اصطحابها معه عند زيارته لأى عروس فى بيتها لأخذ المقاس أو للتأكد من صحته لكى يدرأ عن نفسه الشبهات ويحرس نفسه بها خوفا من غواية الشيطان · وكانت فى صحبته يوم جاء ليفصل ثياب « زينب » زوجة « عمى عبد العزيز » حينما كانت عروسا ، فسلطت عليها « تعلبه » عيونها ، وتعقبتها بعد ذلك ، سألت عليها جميع الدور التى دخلتها مع أبيها فاطنب الجميع فى ذكر محاسنها واعتدال سلوكها وحسن أخلاقها : « محفضه قطه مغمضة » ولم تكتف بذلك ، فأرسلت من بنات العكايشه ومن نساء الثعالبه من يتجسس ويتسقط أخبارها الخفية ، فجاءت الاخباريات كلها تفيد بأن « هانم » لا ضريب لها بين البنات ، فأرسلت الحاجة وفدا من نساء الثعالبه بينهن احدى الماشطات كشفن بصنعة لطافه على جسد الفتاة ، عن طريق تسليط بنات فى مثل سنها يتعرين أمام بعضهن البعض ويرين بعضهن البعض بالاستحمام سوية حتى

ينكشف المستور من الجسد ٠٠ فجاء كل ذلك مبهجا للخاطر ٠ فذهبت « الحاجة تعلبه » بنفسها كزائرة تحمل بعض الهدايا لأبيها مفصل ثياب العائلة ، ثم طلبت البنت للجلوس بجوارها ، وصارت تتحسسها قطعة قطعة بحجة انها ترقيها من عين الحسـود ، فلما اطمأنت الى سلامة اللحم وحلاوته وطهارته شرعت تلمح الى المستقبل الهنيء الذى ينتظر البنية باذن الله ، ثم انصرفت ليجيء الدور على « عمى درويش » ليقوم بمهمته ٠٠

من ليس له كبير يشترى له كبيرا ، هكذا يقول المثل الشائع على ألسنة الناس فى بلدتنـا و « عمى درويش » ليس فقط كبيرنا بل هو كبير مشـاع ، يشتريه معظـم الناس ليكون كبيرا لهم ، فلا يخيب ظنهم أبدا ، ليس يشترونه بالنقود لا سمح الله ، انما يشترونه بالود والصداقة والثقة والاحترام والتوقير ٠ فالعريس الذى يذهب « عمى درويش » ليخطب له لن تتعثر خطوبته مطلقا ولن تكون ثمة مشكلة على الاطلاق ، ذلك أن « عمى درويش » لديه قدرة عظيمة على اقناع الأطراف كلهـا بأن معرفة الناس هى الكنز الحقيقى الذى لا يدانيه كنز ، والناس لبعضهم ، والرسول قال ، وسـيدنا عمر بن الخطاب فعل ، والامام الشافعى فسر ، وهكذا يتم على يديه تجنيب أى مشاكل مادية أو خلافات انسانية أو عداوات قديمة ٠٠ ان الناس فى صحبة « عمى درويش » يحسون بأنهـم كبراء حقا ، بأنهـم ذوو قامات مرتفعـة ٠ فان يطرق « عمى درويش » بابك لأى سبب من الأسباب فهذا شرف كبير ، فما بالك لو طلب الدخول ، وما فرحتك لو كان زائرك لوقت ، يخرج من خزين الدار كل مدخر ، تخرج الفناجين الصينى والأطبـاق والصوانى المحفوظةغ فى لفائف ، وتصيح الطيور الذبيحة فى وسط الدار معلنة عظيم فرحتها بكونها تذبح على شرفه ٠ وسواء كنت من عليـة القوم أم من الأنفـار الشغيله فانه يناديك بياسى فلان ، أو ياعم ، أو يامولانا ، أو يافضيلة الشيخ ٠ وصوته جهورى منطلق

عظيم الثقة ، والكلمات تتصاعد مهذبة مليئة بالخبرات والأحاسيس والمعانى لاتجد بينها لفظا واحدا نابيا وفصحى عالية المقام من آيات وأحاديث وأقوال صحابة ومريدين وأقطاب تصوف ، وأحيانا قصيده شعر لابراهيم الدسوقى أو موال أو رباعية لابن عروس · وان هى الا دقائق حتى تصيبك عدوى الثقة والاحترام فتحس أنك رجل وانك ذو قيمة عالية ، ويجيئك احساس مفاجىء بالغضب على من هزأوك ذات يوم أو استهانوا بشأنك ، تراك وقد نبذتهم وقررت الارتفاع عليهم ، ثم انك تجد نفسك فجأة على غير ما كنت تتصور نفسك . فحيث يكون قد وقر فى ذهنك انك ضعيف الشأن لاتصلح لمجالسة الكبار ، اذا بك تكتشف انك بخير ، وانك يمكن أن تكون ناضجا فى تصرفاتك وأقوالك ، وأول دليل تريد أن تقدمه لنفسك على ذلك هو النزول على رغبة « عمى درويش » والصدق معه فى الوعود وتنفيذ الاتفاقات مهما بدت صعبة مكلفة ، انك وقد اكتشفت رجولتك وعلو شأنك تراك مدفوعا الى تدعيم ذلك حتى لا تسقط صريعا من شرفة عينى « عمى درويش » التى يرفع بها الرجال ويخفضهم عند اللزوم دون كثير كلام ، حقا ان معاشرة الكبار كبر ومعاشرة الصغار صغر ··

سحب « عمى درويش » جلبابه الكشمير الكحلى الغامق ذا الخطوط الرفيعة المبيضة قليلا فلبسه فوق الصديرى الشاهى ، ثم لبس المركوب البنى بدون جورب ، وسحب العباءة الجوخ المغسولة بمياه زمزم ، طرحها على كتفيه ، ووضع طاقيته الصوف المستطيلة فوق رأسه ثم تعمم فوقها بشال سمنى اللون شديد النظافة قادم من الحجاز ، وشبك كتينة الساعة فى عروة الصديرى ووضع الساعة فى جنيبها الصغير تحت الأبط ، وسحب غضاه الشهيرة التى لا تفارقه ، وتقدم خارجا من قاعته ، فكأن موكب الدنيا قد أذن بالتحرك ، وما ان يقبل طيفه أو خياله نحو مصطبة وسط الدار حتى ينهض الجالسون واقفين ، فيشير اليهم فيتفضلوا بالسير

خلفه الى الخلاء حيث ينتظم خطواتهم ايقاع من المهابه ، وهو مؤنب تعود كل أهل البلدة ان رآه أحدهم في أى شارع استعد لرد التحية ودعا لهم أن يوفقهم الله في مشوارهم حتى لو لم يكن يعرف ما هي طبيعة المشوار ..

وهكذا انتقلت « هانم » الى دار العكايسه زوجة « لعمي صدقي». لتجلس معظم أيامها في انتظار عودته من السفر . فما تكاد تهنأ به ليلة أو ليلتين حتى يتأهب لسفر جديد ، فتودعه صـابرة داعية متمنية سلامة العودة .

كله كوم ، و « عزيزة » زوجة « عمي عبد البـاقي » الغنام كوم آخر . أحلى نسوان البلدة بلا منازع . أبدع خراط البنات في خرطها على قالب مشدود لا يتهدل ولا ينبعج مهما حملت وولدت . بيضاء حمراء خضراء العينين مستديرة الوجه كالقمر ، في صوتها لدغة تضـاعف جرس حـرف الراء . من حسن الحظ أن تـزوج « عمي عبد الباقي » والدار في عصر رخاء رغم ويلات الحرب العالمية الثانية ، حيث زمت الفدادين أقطانا وحبوبا بورك فيها . وعام ذاك افتتحت في البلدة مستشفى كان أهل البلدة بزعامة « عمي درويش» قد جمعوا تبرعات لبنائها فجاءت شيئا مفرحا حقا ، وتربعت على مدخل البلدة بسورها الأنيق الأبيض ووحداتها المتناثرة في رشاقة تتصل بينها طرق مبلطة مزدانة بالزروع على الجانبين ، وحديقة صغيرة تحف بها . وجاء لها موظفون من الأغـراب : من بينهم الباشتومرجي ، الذى أتى بزوجـه وأولاده وسـكن في دار مهجورة بشارع داير الناحية ، فعمرها وونسها . ولحس عقول أهل البلدة كلهم بزوجه وبناته الثلاث ، السنايير اللاتي كن يرتدين الفساتين السندرية المحزقة القصيرة في تحشـم قليل ، ويمشين في البلدة كأنهن يمشين في المدينة ، وقد انشغل رجـال البلدة شيوخا قبل الشباب بأمر البنات الثلاث ، وجعلوا من أنفسهم رقباء متطوعين ،

وباحثين وراء سلوكهن وسمعتهن ، ففوجئوا بأن البنات الثلاث رغم هذا المظهر على درجة كبيرة من حسن التربية والصفاء والبراءة وحلاوة اللسان واستقطاب الحب . فكان أن نشأت مباراة حامية الوطيس بين شباب البلدة في التقدم لخطوبتهن . ولكن « عمى عبد الباقى » لم ينم الليل شهورا طويلة بسبب « عزيزة » ، أقام الدار وأقعدها فلم تعيره « تعلبه » التفاتا فوقع في عرض « عمى درويش » الذى راح يعمل على اقنـاع الحاجة ، فطلبت مهـلة قصيرة ، فخـاف « عمى عبد الباقى » من ضياع الفرصة ، فطمأنه « عمى درويش » بأنه هو الذى سيتولى خطوبة البنات الثلاث لمن يتقدم وسوف يعلن أن « عزيزة » محجـوزة . ولم تكذب الحاجـة خبرا . فبكرت من فورها بالتحرى عن اسم بلدة الباشتومرجى الأصلية . وذات صباح ادعت وهى تنادى على « عمى طاهر » لتجهيز الركوبة انهـا ذاهبة لزيارة سيدى ابراهيم الدسـوقى شىء لله يا أبا العينين . ثم سـافرت الى بلدة الباشتومرجى . أما كيف تتعـرف على أسرة الباشتومرجى وأهله وتعـرف أسرارهم فان ذلك ميسـور تماما بالنسبة « للحاجة تعلبه » ، فلديها موهبتها ، ذلك السر الغريب الخطير الذى تتمتع به دون نساء البلدة ، اذ هى تمارس نوعا غريبا جدا من الطب والعلاج . لديها « طاسة الخضه » وهى طاسة من نحاس قديم وقطعة زلط من جوار النبى ، تمتلىء الطاسة بالماء حول قطعة الزلط وتبقى فى مكان عال فى العراء تسمع الاذانات الثلاثة : المغرب والعشاء والفجر ، وعلى من تعرض للخضه ، أو صدمة الخوف، أن يشرب هذا الماء على ريق النوم فى الصباح ليشفى باذن الله . وهى تعير هذه الطاسة لكل من يطلبها دون أن تتقاضى أجرا ، لكنها تأخذ شيئا ثمينا على سبيل الرهن يسترده صاحبـه عندما يرد الطاسة ..

لكن الموهبة الكبرى التى تتمتع بها « الحاجة تعلبه » انهـا

تداوى وجع الاذان ووجع العينين . وما بين صلاة العصر وصـــلاة العشاء تزخر غرفتها بالزائرين القادمين من أطراف البلدة ومن بلاد مجاورة ، كل يشتكى من أذنيه أو عينيه . فاذا كنت تحس بوجع فى أذنيك فانها تتناول رأسك بين راحتيها وتنيمه على وركها بحيث تكون فتحة الاذن الى أعلى ، وبجوارها زجاجة صغيرة بهـا محلول مركب من أصناف العطارة لا أحد يعرف ما هى على وجه التحديد . تفتح الزجاجة ، تملأ فمها برشفه ، ثم تضع شـــفتيها على أذنيك وتترك رشفة المحلول تنزل فى أذنيك ، ثم تعود فتشفطها الى فمها ، ثم تدفعها من جديد الى الأذن ، ثم تشفطها برفق . تمتصها ، وهكذا عدة مرات حتى تغسل الأذن تماما ، وفى النهاية تبصق المحلول فى قصرية وتريها لك فاذا بك تجد كثيرا من الدود والوسخ الرمادى الغريب يتلوى زاحفا وسط المحلول ، فتشملك قشعريره وتحس بشىء من الراحـة يسرى فى أذنيـك . ولقد أثار بعض المتشككين الخبثاء ــ منذ سنين طويلة ــ اشاعة هامســة تقول ان « الحاجة تعلبه » تأخذ الرشفة من زجاجتها بدودها ثم تبصقها فى الأذن ثم تشفطها لتوهم الزبون أن الدود كان فى أذنيه ، ولهذا حاول بعض الزبائن فى تحفظ وأدب رؤية المحلول داخل الزجاجة ، فما كان من « الحاجه تعلبه » الا أن ــ دلقت من الزجاجة مقدار رشفة فى فنجان صغير ثم عرضته لعين الزبون فظل يتمعن فيه طويلا فلا يجد ثمة دود أو أى شائبه ، فهز رأسه فى اقتناع تـام . فأرادت أن تقطع دابر الشك من نفسه فأشارت له على فمها ، ثم فتحت فمهـا عن آخره فبدا كسرداب أهتم مخيف ، ثم بصقت على الأرض عدة مرات لتقنعه أن فمها يخلو تماما من أى شىء سوى اللعاب ، ثم ملأت فمها بنفس رشفة الفنجان وسربتها الى أذن الزبون ومصمصت وبصقت فى قعر القصرية محلولا برغوة يتخلله دود صغير . من يومها لم يعد أحد يتشكك فيها ، ولم تكف هى عن فعل هذه الطقوس قبل علاج أى أحد حتى لو كان طفلا رضيعا ..

أما بالنسبة للعين فانها تنظر فيها وتفتحها بأصبعيها وقد تعطيك تكحيله من التوتياء أو الشمشم ان كان أمر الوجع بسيطا . وتستطيع أن تنظر في عين الشخص نظرة عابرة تقول له بعدها أن في عينيه دودا ، فما عليه الا أن يكف عن الانزعاج ويعطيها عينه ، فتقرب وجهها منه وتخرج لسانها الرفيع المدبب وتفتح جفن العين مسربة طرف لسانها تحت الجفن من أعلى ومن أسفل . ثم تبصق على الأرض دودتين أو ثلاث ، ويحس صاحب العين بصفاء مفاجئ في عينيه وعلى هذا فقد طبقت شهرتها الآفاق في العب كله من أقصاه الى أقصاه . ولما كانت مشهورة بأنها لا تتقاضى أجرا على هذا العمل الخيرى فان الزبائن قد أغرقوها بالهدايا ، وبات من المعهود أن يجيء الزبون حاملا شيئا ملفوفا لا يسترده عند انصرافه، ربما يكون قالب سكر أو باكو شاى أو رصة من قطع الصابون النابلسى المفتخر ، وربما قطعة قماش ثمينة ، وترتفع قيمة الهدية اذا كان الزبون قادما من بلد بعيد فوق ركوبه .

وكان « عمى طاهر » يمنى النفس بفسحة طيبة فى رحاب الدسوقى جاءته على الطبطاب كما قال له أعمامى يومها فى حسد . لكنه فوجىء بأن « الحاجة تعلبه » تطلب ولدا يعود بالركوبة من عند محطة البكاتوش . فلما ركبا القطار معا فوجىء بأنهما ذاهبان الى محافظة غير محافظتهم وكانت المحافظة فى ذلك الوقت من أواخر الأربعينات تسمى المديرية . ومن قطار الى قطار آخر نزلت فى احدى المحطات يتبعها « عمى طاهر » كالأهبل فى الزفة . ثم استنظفت حمارا لدى أحد المكاريين المنتظرين على المحطة ، فركبته متجهة الى بلدة الباشتومرجى ، و « عمى طاهر » يلهث خلفها مع المكارى . فلما دخلت البلدة استبقت المكارى معها الى ما تشساء من الوقت نظير ما يشاء من الأجر فقال بركه . ثم هدأت سير الحمار وأمرت المكارى أن يسحبه على مهل خطوة خطوة . وكانت ترتدى الملس الأسود ذى العواميد المنتفخة بكشكشة الخياطة ، وتلف رأسها

بطرحة سوداء من الحبر المفتخر . والمسبحه فى يديها ، وتتصاعد منها رائحة طيبه ورائحة السيادة والتعود على الامر والنهى . ثم انها بدأت تصيح بصوت رزين فيه بحة رجولية كبحة صوت « عمي درويش » بالضبط :

ـ اللي ودنه وعينه واجعاه .. نشفى بأمر الله .

ولا نفتأ تكرر النداء من خطوة إلى اخرى . فان هي الا بضعة أمتار حتى استضافها واحد من علية القوم لكى تنظر فى اذنه . فعالجتها له على مرأى من جمع حاشد منبهر لا ينى يصلي على النبى وآله . ودعتها سيدة لتنظر فى عينيها ، فعالجتها بنفس الطريقة . فانعقد لسان القوم من الدهشة ، وصار الجميع يتبارون فى استضافتها . الى أن بعث العمدة شيخ الخفراء فى طلبها ، وكانت فى مندرة رجل على قد حاله ، فنظرت الى شيخ الخفراء من فوق الى تحت نظرة غسلته بها وعريه ، وكانت حين تنفعل تتعثر فى النطق قليلا وتتأخر بعض الحروف فى حلقها فتبدو كأنها تسحبها بصعوبة لتكمل الكلمة ، ثم انها جمعت شجاعتها وقالت لشيخ الخفراء :

ـ قل لحضرة العمدة أنني لست شحاذة أطلب الرزق أو العون من أحد .. قل له ياحضرة العمدة ان الحاجة تعلبه تفيد الناس مما وهبها الله ، دون أجر الا من الله .. وقل له أيضا أن الحاجة تعلبه لا تذهب لمن يبعث فى طلبها .. انها لا تذهب الا لمن تطلبه .. فان كان حضرة العمدة يطلب علاجى فليتفضل بالحضور هنا .

وكاد شيخ الخفراء يطلق لسانه المتفلت على الدوام ، لكنه نظر فى هيكلها العام نظرة سريعة أدرك خلالها أنه أمام داهية قد يتعرض بسببها لما يكره ، فاستدار عائدا الى العمدة يبلغه ما سمع . فاندهش العمدة لكنه لبس هدومه ونزل اليها ، ثم لاطفها واعتذر لها بأن نساءه يطلبن تشريفها لرؤيتهن ، فتنازلت وذهبت معه . ثم

انها مكثت في ضيافة العمدة ثلاثة أيام بثلاث ليال كشفت خلالهـا على جميع افراد عائلته ، وكتمت كذلك عما في صدورهم جميعا ٠٠ وعـرفت عن أسرة الباشتومرجي ما يشفي غليلهـــا ، وتأكدت بما لا يدع مجالا للشك أنه من نسل طيب وان زوجتـه كذلك من بيت محترم ، كما تأكدت أن احدا من عائلته او عائلتهـا لم يدخل السجن أو يتهم في شرفه أو نزاهته او أمانتـــه ٠ ثم انهـا طلبت الرحيل ٠ فامر العمدة بتوصيلها حتى مدينة دسوق وخلفها ركائب تحمل الاخراج والأجولة والأقفاص المحملة بالهدايا من كل غريب ومثير ٠ وفي دسوق تركت الخفراء بجوار الامتعه ونزلت بصحبة « عمي طاهر » فتجولت بين محـــلات الصاغة فاشترت مشخلعه وكردانا وقرطا من الذهب وخلخالا كبيرا من الفضـــة ، واشترت حمصا وحلاوة من جوار الدسوقي ، وهريســـة للأولاد ، وبعض أصناف العطارة والتوتياء ، ثم عرجت على دار السنترال فتكلمت في تليفون عمدة البلدة طالبة أن يبلغوا الحاج درويش بأن يرســـل الأولاد لمقابلتها على المحطة بأكثر من ركوبه ٠ ثم دخلت البلدة بموكب حافل ، و « عمي درويش » يصفق كفا على كف ، واجتمعت نسوان الدار كلهن حولها مبهورات واعترفن بأن الدار مـن غيرها كانت ظلاما وبلا معنى ٠٠

في تلك الليلة ذهب « عمي درويش » الى دار الباشتومرجي حيث دوت الزغاريد طائرة كأسراب الحمـــام ٠ وكان فرح « عمي عبد الباقي » أحلى فرح شهدته دارنا ، اذ غنى فيه « السيد مرسال » أكبر مطرب في عزبة الطوال المشهـورة بالمغنيين ، ورقصت الغازية في زفته ٠ وكان جهاز « عمي عبد الباقي » الغنام أميز من جهاز كل أعمامي ، فقد تزوج ــ دونهم ــ من بندرية جميلة غير لعوب ، فجاء جهازها هو الآخر بندريا مثلها ، الدولاب العريض ذو الدرف الكثيرة والمرايا المتعددة ، التسريحة التي لم تعرفها واحدة من نساء أعمامي كلهن ، والشوفونيره ذات الأدراج بدلا من البوريه ، والسرير النحاس

ذى العساكر النحاسية والداير الحريرى ، وترابيزة يقـال لها السفرة مستديرة بمفرش وسـتة كراسى من الجلد ، وطاقم من الكراسى يقال له الصالون بنوا له وللسفرة حجرة خاصة فى الحلاء المواجه للدار . وبات لعمى « عبد الباقى » الغنام فضل ادخال نظام الكراسى المذهبة المنجدة الى دار العكايشـه لاول مرة بعد الكنب البلدى والكراسى الخيزران والمصاطب . الا آن هذا الصالون ظل مغلقا شهورا طويلة يتشاءم الجميع من منظره لأنه يذكرهم بكراسى وصيوانات المعازى . وكأنما كان تشاؤمهم ايذانا بوقوع ما حدسوا ، اذ مات واحد من أقارب العائلة ليس لدى اهله مكان للعزاء ، فأقيمت المعزى فى هذا الصالون ، فكانت شـيئا لائقـا وجميلا استحسنه القوم ، فخصصوا هذا الصـالون لمثل هذه المناسـبة فحسب ، ثم تحمس « عمى درويش » فوسعه فصـار كدوار العمدة بل أسـد اتساعا ، وأضاف اليه بعض الكنب البلدى والكراسى الخيزران فصار يتسع لمائتى فرد على الأقل .

ولم يكن أحد يتوقع أن تنجح هذه الزيجـة ، فهذه عروس بندرية فاتنة الجمال ، وهذا عريس غنام جوال . لكنهم نسوا أن « عمى عبد الباقى » يحمل كل صفات الغنام الأصيل بما فيهـا من خيال رقيق وشغل خشن . نسوا كذلك أنه صوفى عاشق للحفاظ على العهد قدر عشقه للعهد نفسه بكل ذرة فى كيانه ، محب جوال يجمع أغنيات البلاد والرعاة يعزف غناءه على السلامية أخت الناى ، وأنه صبور على العهد مجالد للنفس يحب شـغل السنة فيصنع الطواقى من خيوط الصوف المندوف الملون ، وكان معجبا بصنيع الله فى أن ينتقل هذا الصوف من فوق أجساد أغنامه ليتم ندفه وغزله فى مكان مجهول ثم يعود اليه من جديد ليصنع منـه هذه الطواقى الجميلة التى يحتجز أصدقاؤه أدوارهم لديه فى صنعها لهم ولمعارفهم وأقاربهم . وكانت « عزيزة » مربعة الجسـم منحوتة بدقة عجزت كل الفساتين مهما اتسعت أن تخفى تفاصـيل جسمها الواضحة

الصريحة الى حد الصدمه ، فاذا تكلمت سحرت حتى الصبيان ، وأسرتهم باصداء حرف الراء مجلجلا مصهللا في صوتها ، واذا جلست أمام الفرن انزرد وجهها وصار قرمزيا كقرص الشمس ساعه الشفق، وكانت ترتبك اذا تحدثت مع اى رجل حتى زوجها ، وتتعثر في الكلام ، فتجيء كلمات مكان كلمات ، وأحرف بدلا من أحرف ، وهى أول من يضحك على لبختها ونخبيلها ، فيضحك الأخرون مبسوطين من صفائها ومن حيائها وادبها • وجميع الرجال اعمامها ، اذا ما اضطرت للسلام عليهم يدا بيد تفعل مثلما أوصتها حماتها بأن تلف يدها في طرف طرحتها قبل أن تمدها للسلام ، مسدلة بقية الطرحة على وجهها وجميع النساء عماتها حتى الصغيرات من بنات العكايشة بوجه عام . فكانت الصبية تفرح وتنبسط حينما تناديها « عزيزة » ب : ياعمتي فلانه - على اعتبار أنها من عائلة زوجها • فكان أن حظيت بحب الجميع ، ووزعت عليها « الحاجة تعلبه » أمورا ميسورة تقتضى مثل نظافتها وهدوئها : عليها أن تقوم بروب اللبن واستخراج القشدة منه في حضور « الحاجة تعلبه » وأن تصنع الزبد وتسيحه لتجعله سمنا تمتلىء به البرنيات الفخار • وقد اشتركن جميعا في تعليمها دس الارز المعمر وعمل الفطير المشلتت والفطير الذرة والفطير الدماسي والعيش الغربال والعيش المرحرح والقرص الناعمة ، فكانت تضع حلاوتها في الفطير أو حتى في الملوخية القرديحى فيأكل الجميع أصابعهم وراءها •

كانت « عزيزة » رغم تواضع مركز أهلها ، وبكونها ولدت في المدن وارتحلت مع أبيها في أكثر من مدينة في أكثر من مديرية ، تضفى على الدار طابعا بهيجا وجديدا ، لعله مسحة من المدينة تضفى بدورها على الدار مزيدا من العراقة والأصالة ، فعلى قدر نشاط « عزيزة » في الدار كانت سرعان ما تستحم وترتدى ثوبا نظيفا وفوقه آخر مفتوحا بدرفتين تلمهما بحزام في الوسط من نفس القماش ، ويستقر كعباها فوق الشبشب المزوق كتفاحتين

ناضجتين ، ويدلا من المنديل أبو أوية تلف شعرها ورأســـها كله بشال من الحرير الأحمر القطيفة ، ثم نجلس لتستمع الى حكايات « الحاجة تعلبه » أو تخاريف « هانم » أو شكاية « مريم » من وجع المفاصل والصداع ، أو شقاوات « بهانه » وحديثها المكشـوف عن المواقعات الجنسية ، أو أمنيات « سكينة » حول الخلفة وهي لا تفتأ تبتسم أو تضحك أو تعلق تعليقـا يرضى السامعين كافة · ثم انها غيرت من طبائع نسوان الدار ، فصرن يقلدنها من طـرف خفى فى الاهتمام بالنظافة وحفظ اللسان · وكان أكبر تأثير جوهرى هو ما أحدثته فى نفس « عمتي بسيمة » ، اذ حفزتها حفزا على الاعتناء بنفسها والجلوس كثيرا أمام المرآة ، وصارت تستنفر احساسـها بأنوثتهـــا ، حتي غدت « عمتي بسيمة » أنثى لأول مرة ، فبدأت تمارس الخجل من الرجال الغرباء ، وتدارى وجهها حياء ، وترقق من صوتها وتحفظ لسانها عن الانزلاق الى بذىء الألفاظ والشتائم الجارحة ، وبدأ أكثر من عريس مغفل يهتم بها ويعرض خدماته لنا ومساعداته فى حقولنا بالعمل المجانى · كذلك غيرت « عزيزة » من ذوق الأكل فى دار العكايشة ، فأدخلت اليها الأكلات البندرية ، تلك التى تصنع من مركبات متعددة من قبيل المكرونة التى تسمى بالبشامل ، وصوانى الخضـــار باللحوم ، وكبــاب الحلة وأسياخ الكفتة مثل محلات البندر وطرقا جديدة لطبخ العدس والبطاطس والفول والخضروات ، وأصنافا متعددة من الحلوى بعضـها يدعى بأم على أو لقمة القاضى أو ما يسمى بالكيك وبعضها الآخر يدعى بالجلاش والجاتوه ، وآخر ما كنا نتصوره أن يكون هناك نوع من الحلوى يحمل اسم عمتي بسيمة ، ولم نكن نعرف من قبـــل غير المفروكة والبسيسة وسد الحنك والعصيدة والأرز باللبن والمهلبية ، حتى الكنافة كنا نصنعها فى الدار ونغمس حفنة من خيوطها فى العسل الأسود ونأكل ، فعلمتنا « عزيزة » أن صنع الكنـــافة له مرحلة أخرى اذ تضعها بعد ذلك فى صينية كأنها البطاطس وتحشو

جوفها بالزبد والزبيب والفول السوداني والعســـل النحل ..
وعرفت مأكولاتنا طعما حريفا مشبعــا بأنــواع العطارة من كزبزة وجوزة الطيب والحبهان وما الي ذلك من توابل عطرية ..

غير أن « عمي عبد العزيز » كان قد اعتراه القلق منذ دخلت « عزيزه » دارنا ، فصار يكثر من المكوث في الدار لأتفه الأسباب ، ويدخل أماكنها المتعددة دون أن يتنحنح ، وقد يدفع باب الكنيف دفعة واحــدة . ولمــا كانت حجــرة « عمي عبــد الباقي » مجاورة لحجرته فانه كان يقضي الليل ساهرا كأنه في انتظار مهرجان قادم . وكثيرا ما كان الخارج ليــلا الى الكنيف يفاجأ بــه يتمشى في مربع القاعات رائحــا غاديا كأنه يتلصص أو يتجسس ، فبعد أن يبصق المفاجأ في عبه يكتفي بسا الخير ، فيرد مغمغما كأنه يكتم غيظه وحنقه الشديدين .. وقد فشل أعمامي في تفسير سر انطواء « عمــي عبد العزيز » على نفسه والشرود الطويل . وكان هو يتسلل الى أمه في غرفتها فينام بجوارها لترقيه ، فما أن ملست على جسده بالبخور عدة مرات حتي عرفت ما به ، وليلتها جاء « عمي درويش » من غرفته وطرق باب « الحاجه تعلبه » ليصحيها تلحق بصــــلاة الفجر ككل يوم ، لكنه ككل يوم أيضا وجدها قد صحت وتوضأت وبدأت في قراءة الورد ، فلمــا استدار متجهــا الى البوابة نادته : « درويش » ، « نعم يا حاجه » « تعال عايزاك » فطرق الباب كأنه غريب يطرق باب سيدة غريبة وصاح : يا ساتر ثم دخل وجلس بجوارها على حافة السرير . فمالت عليه هامسة في اذنيه بلهجــة خطيرة : « أخوك رجع صبيا من جديد » هز رأسه في استفسار ، فهمزته في ذراعه مرة :

ـ نسى أمر بناته العرائس وأبنائه العرسان .. وبدأ يمرض بداء الحب .. ويخيل الى انه هاجر فراش زوجته منذ وقت طويل بلا سبب .. لقد نظرت في وجهه فعرفت وفي عينيها فتأكدت .

قال « عمي درويش » بعد برهة في نريقة خفية : « والعمل ٠٠ نراك تزوجينه من جـديد ؟ » رفعت رأسـها وزأرت فيـه بقـوة واستنكار :

ـ منذ متى يتزوج أولادى على زوجاتهم ٠٠ لم يعد ينقصنى الا أن أجىء لكل بغـل منكم بعدد من الجوارى يرضين مزاجـه ٠٠ الزواج عندى مرة واحدة ٠٠ أبوك لم يتزوج على ٠٠ وأبى لم يتزوج عاى أمى ٠٠ ولولا موضوع الخلفة ومشاكله لما زوجت أخاك عيسى بأكثر من واحدة ولسوف تكون هذه آخر زيجة له ٠٠ لقد نبهت عليه أن يعض على هذه الزوجـة بأسـنانه حتى لا يعيش بعد ذلك أرملا طول حياته ٠

قال « عمي درويش » فى حيرة :

ـ اذن فما الذى نفعله في عبد العزيز ؟

قالت « تعلبه » فى حسم :

ـ أعرف شغلت معه الأول في موضوع أهم ٠٠ راقبه قبل أن يسبب لنا فى كارثة وفضيحة على أخر الزمن ٠٠ بعدها لا نرفع رؤوسنا في البلد أبدا ٠٠

ثم مالت على أذنه وهمست طويلا ، فهز « عمى درويش » رأسه وقال : « يساويها ربنا » ٠ وكنت أنام مع « الحاجة تعلبه » فى غرفتها أنا وأمى ، فقدر لى أن أشاهد وأعرف الكثير مما يدور فى غرفتها ولا يعرفه الجميع ٠٠

ومرت أيام واذا بنا في عمق الليل نسمع تناطحا يهز الأركان ويهبد فى الأرض كأن جدرانا تقع ٠ فخرجنا كلنا نرفع أشرطة اللمبات نستطلع الأمر ، فاذا « بعمى درويش » كثور هـائج يصرخ فينـا : « كله يخش قاعته ويقفل عليه » ٠ ولم يتن الكلمة ، بل لم يكملها ، حتى أغلقت جميع الأبواب من الداخل ٠ غير اننا رحنا نصيخ السمع

فتسمع همهمة غاضبة وزئيرا يعقبه ضرب وصـــياح مكتوم · وفي الصباح علمنا من « بهانه » نقلا عن « مريم » أن « عمي درويش « تربص بعمي « عبد العزيز » بليل ، وفاجأه في الظلام واضعا أذنه على باب « عمي عبد الباقي » ينصنت ، فما كان من « عمي درويش » الا أنجذبه من خناقه بعنف وصار يدفعه الى الوراء زغدا وتلكيما ونلطيشا وتشليتا كأنه قد جن ، و « عمي عبد العزيز » من فرط خجله وشعوره بالعار يكتم صياحه ويبتعد متحاشيا الضرب قدر الامكان ، ولكن « عمي درويش » لم يدعه الا بعد أن صليا الفجر معا وتصالحا ، وتعهد « عمي عبد العزيز » بعدم العودة لهذا الأمر · على أن ثورة « عمي درويش » الحقيقية كانت أفظع في اليوم التالى وأشد هياجا وجنونا ، حين علم بطريقة ما اننا علمنا بالخبر ورددناه بين أنفسنا ، فنفى الخبر نفيا شديدا ، وصار يعنفنا كيف نفكـر هكذا ثم هاجت عصاه وماجت وتطوحت فوق أجسادنا جميعا ذات اليمين وذات الشمال ، حتى ارتفع صراخنا عاليا ، ودخل فأكمل على « مريم » حتى انطرحت أرضا وصرنا نفوقها بالماء والنوشادر ·· ثم خرج يصلي العشاء معلنا أنه سيكمل تأديبنا بعد الصلاة ·

وقد انكفأت فوق الخبر مواجير الزمن كلها · غير أن « عمي عبد العزيز » طافت بذهنه فكرة الانعزال وحده في معيشة ، لـم يصرح بها وان قالها عرضا · لحظتها انتفض « عمي درويش » كأنه لدغ ، ورفع عصاه ثم ضرب بها الأرض تجاهه في قوة وشراسة ، وهبطت « الحاجه تعلبه » عن سريرها مقبلة نحوهما ، فأمسكت « عمي عبد العزيز » من خناقه وهو الكهل المتصابى ، وهزته بعنف وهي التي تجاوزت من العمر حدا لا نستطيع حسابه بالسنوات ، ثم قالت له كأنه لا يزال ذلك الطفل الصغير الغرير :

ـ اسمع ياوله ·· من لا تعجبه العيشة ·· من لا يعجبه العيش مع الحاجة فاطمة تعلبة فليرحل هو ·· فليخـرج من الباب

بطوله ·· وحده ··· حتى بدون ثيابه ·· حتى بدون أولاده ··
فأنا الذى ربيت وأنـا الذى زوجت وأنـا الذى أكسو وأطعـم ··
والأولاد أولاد الدار قبل أن يكونوا أولاد أحد منكم ·· ولا أفرط
فى ظفر واحد منهم ·· ولا حتى فى ظفرك انت أيها الشايب العايب
·· لكن من أراد أن يفرط فى الدار ·· فخير للدار أن تفرط فيه ··
أنه يصبح كعود جف ولا بأس من رميه بعيدا عن الحزمة الخضراء ··
الدار هى دار العكايشـــه ·· ولقد تعبت فى الابقاء عليها مفتوحة
متكاملة ذات قوة وهيبة ·· ولست مستعدة للتخلى عنها على آخر
الزمن ·· ولست أطيق أن أسمع مجنونا مثلك يقول هذا الـــكلام
الخائب العبيط ·· ان قتلك أهون عندى من سماع هذا اللغو ··

وأحس « عمى عبد العزيز » بالاهانة فحاول التمرد والخلاص من يديها بشىء من الخشونة لم تعهدها من قبل ، فاختطفت العصا من « عمى درويش » وبقوة رفعتها كفارس مغوار تريد أن تشج بهـا رأسه ·· وكانت جادة عنيفة لدرجة أن « عمى عبد العزيز » تراجع الى الوراء مرتعدا ينتفض ، لكنها تمالكت نفسها واندفعت تلاحقه بالعصا ، فاعترضها « عمى درويش » صائحا :

ــ صلى على النبى يا حاجه بقى ·· سيبك منه هو يعنى الكلام عليه جمرك ؟

لكن « الحاجه فاطمه » لم تنم ليلتها ، فظلت طول ليلها تقطع قراءة الأوراد بالقرآن وتقطع القـرآن بالصـلاة ، وتختم الصـلاة باستنزال اللعنات على كل شيطان أو ابليس يحوم حول دارها من قريب أو بعيد ، ووقعت فى عرض السماء راجية أن تحرق لهـا صدور الأعادى والحساد من معلومين ومجهولين ومن فى بطنه غيظ أو فى صدره حقد أو فى قلبه مرض ·· وظلت شهورا طويلة لا تكلم « عمى عبد العزيز » ولا يكلمها ··

الى أن ثقل عليها المرض ذات يوم بصورة واضحة ، حتى هزل

جسمها كثيرا وأصبحت تجيئها مياه الوضوء لحد عندها وتحتاج لمن يسندها باستمرار ـ وهي مهمة تكفلت بها سميحه بنت الكاشف وعزيزه بنت الباشتومرجي ـ وبدأ الحزن والقلق يعتريان « عمي درويش » بصورة دائمة ، وبدأ يقلل من غيابه خارج الدار متوقعا لأي مكروه وكان على « عمي عبد العزيز » أن يدخل ليصالحها . فلما دخل عليها لم تعطه وجها . فانحنى وقبل رأسها ، ثم جبينها ، ثم يدها ، فدبت فيها الحيوية . ثم تماسكت ونزلت عن السرير وتربعت على المصطبة بينهم ، واندفعت تردد :

ـ لقد دخلت هذه الدار وهي مجرد جدران.. ولم يكن أبوكم يملك أكثر من ثلاثة افدنة هي كل نصيبه من تركة جدكم .. العكايشه طول عمرهم هبل .. كانوا لا يوافقون على زواج أبيكم مني .. وكنت وحيدة أبوي .. ومات أبي وأنا طفلة فكان على أن اقوم بالسهر على فدانين .. ولم أكن فلاحة .. فزرعتهما أشجارا وخضروات .. وقال جدكم لأبيكم كيف تتزوج بنت أرملة لا عائلة لها ؟ .. وقد غاظتني هذه الكلمة .. وكنت أنوي معاتبته بشـدة وقسوة .. لولا أن الله رحمه مني وافتكره قبل أن أدخل بأبيكم .. وقد سامحته .. فقد كان صادقا .. فمن يجيء بالعكايشة بجلالة قدرهم للثعالبة الغلابة ؟ . أنا في الأصل كنت أحب عائلتكم وأعرف أن منها ناسا كراما أصحاب علم وفضل وتقوى .. صحيح أن ذلك كان منذ أزمنة بعيدة ولكن الورد ان ذبل تبقى فيه رائحته .. وكان شرفا كبيرا لعائلتي المتواضعة أن تصاهر العكايشه هذا صحيح .. ولكن كان شرفا لأبيكم أن تزوج من فاطمه ثعلبه .. هذا هو الأمر بكل بساطة .. ولذا فانني وان أحببت جدكم لم أغفر له كلمته .. ويظهر أنه هو الآخر كان يخشاني ، ويخشى مني على داره .. فقد كان يزورني دائما في المنام .. وكنت أطمئنه أولا بأول على مستقبل ابنه ، وعلى شرف العائلة ولم يكن يبدو عليه أنه راض .. فأصبح يومي وأنا على غير انبساط .. وأنتم .. كنتم تلومونني وتنحلون

ويرى بينكم وبين أنفسكم .. وتتهمونني بادخار عرقكم في دولابي .. وانني لا أصرف عليكم الا بحساب شديد .. وربما كان هذا صحيحا .. ولكنكم الآن ، تملكون عشرين فدانا ، كلها من حسن تدبيري وشطارتي .. وفوق هذا تملكون ما هو أهم ، تملكون جماعتكم ، تملكون كنزا كبيرا هو كونكم جماعة يغلق عليكم باب واحد ويرعاكم قلب واحد مثلما الرب واحد .. وطالما أنتم هكذا تكفيكم اللقمة ولو كانت كسرة ، والهدمة ولو كانت واحدة .. غير انكم لا تفهمون هذا لأن هبل العكايشه متأصل فيكم ومن الصعب اقناعكم .. وخير من فيكم هو درويش ، لأنه ابني بحق ، لكأنه أنا مضاف اليه جدكم .. لقد ورث طيبة قلب العكايشه وورث الباقي مني .. أن جدكم ظل الى وقت طويل غير راض لكنه أخيرا خضع وابتسم .. وفي كل ليلة أقيم فيها فرح في هذه الدار حضرها ورأيته يشارك فيها مبتسما فرحا راضيا .. ولم لا يرضى وهو يرى داره قد عمرت بحق ؟ .

ثم شربت الشاي معنا واستأنفت النوم بعد أن شربت جرعة من دواء صنعته بنفسها . وتبادل الجميع نظرة ذات معنى ، وتهامسوا مصرحين بأن هذه هي علامة النهاية ، وأن « الحاجه تعلبه » سوف تتوكل على الله خلال أيام قليلة ، فهذا هو التفسير الوحيد لهذه الرقة المفاجئة ولهذه المكاشفه ، ان الموت تسبقه عادة حالة من حالات الصفاء ، هكذا قال عمي « الشيخ طلبه » وأمن على كلامه « عمي درويش » ..

تأكد هذا الاحساس يوما بعد يوم ، حيث كفت « الحاجه تعلبه » عن مناكفة النسوان ، وقللت من أوامرها للرجال ، ولم تعد تهتم بمن استيقظ ومن أهمل ، وطالت ساعات نومها طولا غير عادي . وكانوا يجلسون حولها بالساعات يقيسون نبضها وينتظرون الخبر اليقين ، وفي اللحظة التي يتصورون فيها أنها ربما تكون قد أسلمت الروح ، اذا بها ترفع جفنها وتحرك شفتيها واذا بها تصلي ، ثم

ترمى اليهم بنظرة خاطفه وتقول : « هى المغرب ادنت ولا لسه ؟ » فيتعجبون ، اذ يكون المغـرب على وشـك الأذان أو بالكاد انتهى الاذان ، أى انها ليست فقط صاحيـــة بل ومنتبهة الى الزمن بكل يقظة • وأحيـــانا كانت تفاجئهم بصيحتها المعهـــودة المفاجئـــة : « لا اله الا الله سيدنا محمد رسول الله » ••

على أن « عمى درويش » قال : « مابدهاش » وسافر الى دسوق وأتى بحكيم نطاس شهير فى المركز اسمه « البير فهمى » الذى دخل عليها بحقيبة جلدية صغيرة فتحها وظل يكشف عليها ساعة كاملة ويجـرى لها بعض الاسعافات ، وفى النهاية أغلق حقيبته دون أن يكتب روشتة دواء كالعادة • فنظر له « عمى درويش » مستفسرا ، فبسط الحكيم كفه ناحية رأسه قائلا : « مفيش داعى للغرامة •• حنكتب علاج بس مفيش نتيجة » قال « عمى درويش » وهو يغالب دموعه : « يعنى مفيش فايده » • قال الحكيم : « ربنا يريحهـــا أحسن •• خلاص •• المسألة مسألة وقت •• يعنى أيام معدوده » ثم سلم وانصرف يوصله « عمى طاهر » بالركوبة الى المحطة •

فى تلك الليلة نامت « الحاجة تعلبة » نوما عميقا استمر حتى مساء اليوم التالى ، حيث فتحت عينيها لبرهة طويلة تمتمت خلالها بعض تمتمة غامضة أغلب الظن أنها صلاة • وانزوى «عمى درويش» فى ركن بجوار البوابة يفكر وقد بدا عليه الهزل مرة واحدة ، حتى اننـا جميعا كبارا وصغارا فوجئنا به على هذه الحالة فانزعجنا ، اذ بدا أن ثيابه قد اتسعت عليه ، وأصبح بداخلها كعود الحطب ، متهدل الملامح شاحب الوجه ناشف الريق متشقق الشفتين • وكان الزوار قد بدأوا يتوافدون على دارنا بلا انقطاع فيجلسون ويقولون « لعمى درويش » : « مالك ياراجل موهوم كده ليه••• هى الدنيا انهدت ولا ايه •• الناس كلها بنموت واحنا كلنا مصيرنا الموت » فلا يرد ثم يودعهم ويستقبل غيرهم ولا يتكلم كثيرا ، وكل ساعة

أو أكثر يدخل على أمه فيقلبها ويحاول محادثتهـا ثم يعود أكثر شحوبا وقد فقد الكثير من هيبته وبدت عصـاه كبيرة عليه غير متناسقة معه ..

ثم انه ركب الحمار وسافر الى دسوق مرة أخرى وأتي بحكيم آخر أكبر من سابقة يتغاضى الشيء الفلاني في الكشف الخصوصي ناهيك عن السفر . ما ان رأى « الحاجة تعلبة » حتى هزها بأسف ولا مبالاة ثم انصرف مؤكدا أن الولية تلفظ الآن أنفاسها الأخيرة وأن علينا أن نتدبر الأمر من الآن ..

من فوره خرج « عمي درويش » الى دكان « الحاج علي القطان » فاشترى أثواب الكفن من أجود صنف وأغلاه . ثم أمر فجاء بالبناء والنقاش وذهبوا الى مقبرة العائلة فأعادوا بناءها من جديد على نحو أكثر جمالا وهيبة وأقرب الى أضرحة الأولياء الصالحين . نظر اليها « عمي درويش » من جميع الانجاهـات من قريب ومن بعيد حتى بدا عليه الرضاء التام . وتولى بنفسه احضار الماء وسقيا شجرة التوت الكبيرة والأعشاب المتناثرة وأحيا شجرة الصبار الجافة . ثم عاد الى الدار يخب في جلبابه ويجرر عصاه من فرط الارهاق والنكد ، فبعدساعات قليلة سوف تخلو دارهم ــ لأول مرة ــ من «الحاجة تعلبه » خلوا نهائيا . ثم ابتلع دموعه وواصل السير الى الدار . كان هناك بعض ضـيوف من الأغراب يشغلون المصـطبة الكبيرة . فسلم عليهم واتجه الى غرفة الحاجة وراح يقلبها ويحاول محادثتها دون جدوى . فخرج ، وكان ثمة امرأة عجوز قد جلست في الرحبة الجوانية من الدار وفردت القماش وراحت تخيط الكفن ، وكان اللون الأبيض قادما نحو عيني « عمي درويش » فيلوى وجهه في انقباض شديد . ثم انه خرج الى الخلاء ، فخرج وراءه كالعادة موكب من الرجـال ، فأعطى أوامره لمن حوله باحضـار الفئـوس وتنظيف المكان حول الدوار الكبير ، وتنظيف الدوار نفســه مـن الداخل ورشــه بالمياه . كذلك أمر بارسال مندوب الى « عباس الملا »

في دسوق ليحتجز ميكروفونا ولمبات ، واخر الى بلدة مجاورة للاتفاق مع اشهر مقرئ في العب كله . وثالث الى بلدة العكايشه يبلغ القوم مقدمات النبأ ..

فلما بدئ في تنفيذ كل ذلك أمامه عاد فدخل الدار فتحرك الموكب وراءه داخل . خلع « عمي درويش » حذاءه وتربع فوق المصطبة مستندا على المسانند الكبيرة الصلبة ، واضعا عصاه بجواره. ثم عاد فجلس متقرفصا وشرد ببصره لبرهة طويلة ، ثم أراح رأسه على كفه واندمج في تفكير عميق ، وطال استغراقه حتى سكت من حوله لا عطائه فرصة للنوم ساعة أو ساعتين يستعين بهما على ما قد ينتظره في المساء من مشاق . لكن النوم طال ، فاضطر الضيوف الى الانصراف ، واضطر « عمي عبد العزيز » لايقاظه حتى يسلم عليهم . هزه برفق قائلا : « ياحاج » . ولم يكمل كلمته اذ سقط رأس « عمي درويش » على صدره . فمال عليه « عمي عبد العزيز » وتفحصه آن السر الالهي قد صعد .

● المنخل الحرير

بعد انقطاع لا يدوم أكثر من جمعتين تعود البهجة من جديد ·· اذ ما يكاد الاسبوع الأول يمر حافلا بالأرغفة الطازجة والأقراص الناعمة والفطير المشلتت والعصيدة المصنوعة بالدقيق والعسـل ، حتى تبدأ من جديد سحب من الهم تسيطر على دارنا لا نعرف لها سببا ، لكن لون الأصبحة يتغير ويبدو كأن أبى وأمى غير منتبهين الينا · ثم تجيء ليلة يتعشى فيها الأب معنا على غير العادة فنلاحظ أن وجهه قد خلع عن نفسه كثيرا من الملاءات السوداء حتى صفت صفحة الوجه عند ملامحه الحقيقية · يسيطر الهدوء من جديد على أمى فتتربع معنا فوق الحصيرة حول الطبلية ، وقد صفا وجهها هى الأخرى وانسدلت على جانبيه مقاصيص الشعر الفائض بغزارة من تحت المنديل أبو أوية ·· فنعرف أن السحب الغليظة الداكنة التى لا نعرف سببها قد بدأت تنجلى ··

فى الصباح تبكر فنجدنى مبحلق العينين فى انتظارهـا · تذهب الى الحوض الأسمنتى الذى نستحم فيه فى ركن القاعة · تغسل وجهها بكوب ماء · تسحب شالها الأسود · تلف به رأسها . تتجه الى أبى فتصحيه برفق · يتقلب ثم يجلس · يدب يده فى بجيب

الصديرى ، يخرج الكيس يتناول منها حفنة من القروش الفضية والشلنات والبرايز الورقية ، يعدها فى كف أمى قرشا قرشا ونصف افرنك نصف افرنك وشلنا شلنا وبريزه بريزه تعبد هى عدها من جديد قائلة : الله واحد ٠٠ مالوش تانى ٠٠ العدد ثلاثة ٠ تصرها فى طرف المنديل أبو أوية وتعقد عليها جيدا ثم تعود فتتعصب به لتختفى العقدة بين طيات المنديل ٠٠

أتبعها فى قفزة واحدة الى الخلاء ٠ أظل أتبعها وأنا أعرف أنها ذاهبة الى مخزن الحاج داوود ٠ يشملنى الفرح حين أراها متجهة اليه ٠ يقابلها ابنه الكبير « طلب » الذى يغازل كل نساء البلدة بلا استثناء كحق سلمت له البلدة به لثقتهم فى أن أباه الحاج داوود قد رباه بشدة وأدبه فأحسن تأديبه ، وأن هذا الغزل مجرد غزل فارغ ٠ تقول له أمى وهى تتجاهل ما فى رد صباحه من ايماء الى الورد والفل والياسمين والقشطة الربانى ٠

ـ بكام القمح النهارده ياسى طلب ؟

يقول لها من خلال ابتسامته الأزلية الشابة :

ـ بعنا بتلاتين الكيلة ٠٠ انما عشانك بتسعة وعشرين ٠

تقول بتلقائية :

ـ هز ، ودك طبعا ٠

وهى كلمة ترد بها كل من تسمع السعر ، وتقصد أنها يحق لها أن تجلس بنفسها وتعبىء الكيلة وتهزها حتى يستقر القمح فيها وينتظم فتتسع مساحة الكيلة لقمح كثير ، ثم تدك وتكبس ، وتحط قمحا ، وتهز وتدك ٠ ورغم أن « طلب » سوف يبيع لها بهذه الطريقة اذ أن السعر الذى يطلبه يحسب حساب هذه العملية ، فانه يحتج احتجاجا مسرحيا قائلا :

ـ لا ·· قايم ·· بتلاتين قايم ·

أى أن الكيلة تمتلىء دفعة واحدة وكفى · لكنه يقصد من ذلك أن تظل السيدة المشتريه تقول له محتجة : « هزودك » وهو يردد خلفها : « قايم » ·· « هزودك » ·· « قايم » ·· فاذا ما انتبهت السيدة الى ما في الكلمة من غمز خبيث لطيف احمر وجهها خجلا ولكزته في كنفه بعسم فيتلقى اللكزة بحركة مسرحيه كأنما أصابه لهب لذيذ · وفى العادة يترك السيدة تبرك على الكيلة وتعبئها بالطريقة التى تشاء ·

على أن أمى لا يروق لها مزاحه وان جاملته بالسكات · وفى الواقع لا يروق لها أى مزاح وهذا ما يطمئن أبى ويضايقه فى نفس الوقت · تتجاهل غزل « طلب » وتتجه نحو جبل القمح فى نهاية الحجرة قائله :

ـ يا خويه انت باين عليك فايق ورايق ·

ثم تبرك على الكيلة وتظل تعبىء ، وتهز ، وتدل ، ونعبىء وتضيف قمحا ، حتى يعلو القمح فوق حافة الكيلة ، فتضع من كف يسراها حاجزا تسند به المرتفع الهرمى الزائد ثم تدلق فى قفتها الكبيرة · وهكذا تفعل أربع مرات ثم تختلس حفانا أو حفانين فى غفلة من « طلب » الذى يحلو له أن يضـيح فيها منبها وهو يعد غلوسها :

ـ شايفك بضهري ·

فترد عليه باحتجاج باسم :

ـ فاكرنا حراميه ·· طب ما دام قلت كده بقى أهه

ثم تغترف حفنتين آخرين ترمى بهما فى القفة ··

تعود الى الدار وقد تحولت الى جسد يتلعبط تحت القفة الثقيلة

في عياقة لا مثيل لها . فادهش كيف ينفض جسدها عن نفسه كل هذه البهجة وهي لا تشرب الا المر ليل نهار . تحط في وسط الدار بمساعدة عمتها « قطيفة » التي تدخل وراءها من تلقاء نفسها لهذا الغرض . تجيء فاردة ساقيها واضعة فوقها الصينية ، وتغرف من الطشت قدرا تضعه عليها وتروح بكفها تسحب حفنة حفنة تفردها على الصينية لتنتقي من بينها قطع الطين والحصى والدنيبة ، وهكذا الى أن ننتهي من نقاوة القمح كله حبة حبة . ويكون النهـار قد انتصف . فتنادي عمتها « قطيفة » لتساعدها في رفع القفة على رأسها . أكون قد سبقتها الى الطريق وقد بدأت انسى شبح الأيام الفائته تشملني زأططة وفرفشة فأروح أضرب الحصى بقدمي وأنرقص في مشيتي وربما غنيت . أترنح فوق شواطيء القنيان بشقاوة وهي من خلفي تصرخ كل حين في فزع صائحة بي أن أمشي مثل خلق الله . حتى نصل الى ترعة المشروع عند الموردة بجوار الكوبري الذي هو نفس الطريق يفصل بين جزئين من الترعة يتصلان بماسورة واسعة مهولة تحت الأرض . الموردة عبارة عن شاطيء مبني بقطع كبيرة من الحجر يتناسق في دوائر يتخلله سـلم حجري عريض هابط الى المياه ، كذلك الأمر بالنسبة للشاطيء المقابل .

يستقبلني مهرجان النساء بكرنفال بهيج من الألوان . أفخاذ مطوية وأرداف مكتنزة وأثداء مندلقة وشعور منسابة وأجساد لامعة ساطعة في ضوء الشمس تنتفض بالحيوية والنشاط فيبدو كأنه احتفال كبير . بعضهن يغسلن المواعين بهباب الفرن وحزمة القش . بعضهن يغسلن الثياب بالصابون ، بعضهن يغسلن القمح ..

تنضم أمي الى هذا الحفل الجميل .. تعافيهن بالعافية وتهبط الدرج الى مستوى المياه فتجلس هي الأخرى طاوية فخذيها مبرزة عجيزتها . تنتزع القفة الملآنة من قفة فارغة تتناول مقطفا صغيرا كان مطويا تحت ابطها . تملاه بالقمح وتغطسه في قلب الماء فتسود صفحة الماء بما كان في القمح من تراب ووسخ . تهز المقطف تحت

الماء ثم نرفعه يشر منه الماء المسود · تعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع ثم تدلق القمح المغسول فى القفة الفارغة بعد غسلها هى الأخرى · وهكذا الى أن تنتهي من غسل قمحها ثم تتقرفص ناظرة الى احدى جاراتها دون أن تنبس بحرف · فتترك الجارة ما فى يدها وتجيء لتساعد أمى فى حمل قفتها على رأسها ، لكنها قبل أن تستدير لتمضى تلقى حواليها نظرة فاحصة مستعدة للهلع فى البحث عنى · اكون قد انضممت الى الأولاد ، اذ خلعنا جلابيبنا وألقينا بأنفسنا فى قلب الترعة نطبش ونقذف بعضنا البعض برذاذ المياه ، ونخرج لنتمرغ على تراب الطريق فنكتسى اثوابا كثيفة من حصى داكن نتوجه بطرطور من الطين نلصقه فوق الرأس ونمشي هكذا ذهابا وجيئة نخيف المارة ثم نقذف بأنفسنا من جديد فى قلب الماء · يدهمنى صياحها الذى نزداد فيه ـ كلما صاحت ـ نبرة أحس انها عورة لا يجب أن يراها الأخرون أو تصافح آذانهم : « يا واد يالل تنشك فى لسانك ·· تعالى الا هى ما توعى تبات · الا هى تنزل ما تطلعش يا ابن بطنى ·· يلا قدامي فوت » · فبسرعة أمسح بقايا الماء عن وجهى وأسحب ثوبى وأجرى به عاريا خلفها · وبعد خطوات تكون الشمس قد جففت جسدى فارتدى ثوبى ·

نصل الى الدار · تصعد أمى الى السطح · تفرش الحصيرة وجوالين · تفرد فوقها القمح الطرى · تجلسنى أمامه ممسكا بعصا طويلة ، وتنزل لتكنس الدار وتعد وجبة العشاء على عجل · لابد أن تكون عينى فى وسط رأسى ترقب أى غراب مفترس أو حمام سابح أو عصفور باحث عن حبة رزق ، لأرفع العصا أذب أى هجوم على قمحنا · اذا سرحت قليلا فى لعبة أو فى فكرة التسلل الى سطح الجيران لسرقة كوز من الذرة أشترى به العسلية تذكرت قرصة قرصتها لى أمى ذات يوم نسيت فيه القمح فمر حمار ضال أكل منه حتى شبع ويومها ابتلعت أمى غصتها وقطعت من خدي قطعة ظلت تلهب دمى كلما تذكرتها ··

تنتهي الشمس من أداء مهمتها على خير وجه فتلف وجهها بالملاءة القرمزية وتنسحب الى ما وراء السطوح والأضرحة والحقول البعيدة وتظل تشاغب قمحنا باسمة حتى يدركها الليل فيفرد فوقها عباءته السوداء • وحينئذ تجمع أمي قمحها حبة حبة تعيده الى القفة وتنزل برفق وحذر هابطة السلم الخشبي الرفيع المسنود على حافة السطح ، وتمضي خارجة موصية عمتها قطيفة أن تجعل بالها من الدار وأن تنبيء عبد الشافي ـ أبي ـ بأنها عائدة بعد وقت ربما يمتد الى منتصف الليل ••

في بلدتنا ثلاث ماكينات للطحين ، لكن أمي تختار ماكينة العمدة مصطفى الجيار الكائنة على مقربة من ترعة السلمونية في المدخل الشرقي للبلدة ، تختارها ليس لأن صاحبها العمدة وانما لأن الأسطى عبد السلام الذي يديرها ويجلس أمام القادوس يمت اليها بصلة قربى ، اذ هي تفرض علينا أن نناديه : يا خال ، واذا خاطبته قالت : يا عبد السلام يا خويه ويقال أنه من عائلة أبيها المرحوم ، وأنها لذلك تجعل منه أخا لها وخالا لنا ، وأنه ليجاملها مجاملة علنية يعرفها الجميع ولكنهم جميعا يتغافلون من أجل خاطر عيونه فهو الوحيد الذي ولفت عليه الماكينة وباتت لا تدور الا بيديه ولا أحد غيره يعرف خلتها ••

تقطع أمي تذكرة بأربع كيلات توزن على الميزان ذى القاعدة الخشبية والرمانة المتحركة على قضيب مضلع محفورة فيه شرط وأرقام وعلامات • تدفع عن كل كيلة خمس مليمات ثم تأخذ التذكرة وتتجه بها مباشرة الى الأسطى عبد السلام أمام القادوس وتعطيها له ، فيغرزها في سلك معقوف بجواره مع سوابقها • فلا يتذمر أحد من الزبائن لأن أمي أخذت دوره • بكل ثقة وخجل تصعد أمي بالقفة على سلم خشبي ثابت يوصلها الى السطح حيث فتحة القادوس الواسعة التي تشبه نفيرا كبيرا • تنتظر حتى تغيب آخر حفنة قمح كانت في قعر القادوس ، ثم تسرع بدلق قفتها في فتحة القادوس •

على الفور يكون الأسطى عبد السلام قد تابعها بوجهه العريض الأسمر المكتنز الملامح المطبق الشفتين على بسمة صحراوية عصية على الانطلاق ، ومثل كل الوجوه في الماكينة اكتسى بوبرة من الدقيق الأبيض تسوى بين جميع الوجوه . يسرع ببرم دائرة حديدية صغيرة على يمينه يغلق بها تيار الدقيق المتدفق من فتحة أسفل القادوس . ولربما أحست صاحبة الدقيق أنه اختصر من حقها دفقة أو دفقتين أو ثلاث ، لكنها تكتفي بارسال نظرة ذات معنى الى الأسطى عبده ثم ترفع قفتها وتمضى ..

ترمي له أمي القفة الفارغة فيتلقفها ويضعها أسفل الفتحة السفلية ثم يدير العجلة فينهمر الدقيق انهمارا كثيفا حبيبنا . وتهبط أمي لتقف أمام القادوس تفرد الدقيق المنهمر فى القفة وتكبسه حتى تمتلىء القفة فتجىء بغيرها . وحينما تقل كثافة الانهمار ترفع ذراعيها وبكفيها الجميلتين تروح تضرب وتضرب فوق خشبة القادوس بكل عنفوان وقوة حتى يجود بآخر ما في جوفه من شعيرات الدقيق . هذا القادوس كم يتلقى من ضربات النساء طول النهار والليل فلا يكل ولا يمل ولا ينى يدفق فى قففهم ذلك الشريط الأبيض الساخن . ويعرف الأسطى عبد السلام أن صاحبة الطحين التالى قد أفرغت قمحها فى القادوس منذ برهة وأن كثافة الانهمار قد عدت من جديد لكنه يتغافل لبرهة غير وجيزة تتلكأ خلالها أمي فى الفرد والكبس وهى تنكس رأسها فى خجل ينبىء عن شدة الامتنان والشعور بالذنب ؛ ثم يغلق الأسطى عبده دفق الدقيق ويساعد أمي فى حمل القفة . وقبل أن تمضى تستدير باحثة عني بنظرات وجلة وقد اصطبغ وجهها هى الأخرى بقطيفة من الدقيق . أكون قد انتهيت من مهمتى الصعبة فى مغافلة خاله « ست البلد » وسرقة حفنتين من الترمس المملح اللذيذ حشوت بهما جيبى ورحت فى اطمئنان تام أشيع فى فمى الحبة تلو الأخرى بقشرها ..

أمضى خلفها ممسكا بجلبابها هذه المرة أحاول الانتظام فى ايقاع

جسدها المنتفض تحت قفتين ثقيلتين ، والليل مخشوشن بصفير الصراصير ونقيق الضفادع ونباح الكلاب ٠

تدلف أمي داخلة الدار باسم الله الرحمن الرحيم : تنادى من أول العتبة في هدوء قائلة : يا عبد الشافي ٠ فيخف أبى لاستقبالها حاملا عنها بعض حملها ليضعاه على المصطبة الكبيرة التى ننام عليها كلنا ٠ وهنا يحلو له أن يعود فيستغرق فى النوم ٠ تجىء أمى بالطشت وتضعه فوق المصطبة وتجلس أمامه ٠ تتنظر قليلا ٠ أزحف نحوها شيئا فشيئا علنى أعرف فيم شرودها ذاك ٠ أنظر فى عينيها فأجد فيهما أبحرا من الحزن الغامض العميق ٠ فينقبض قلبى ، يركبنى الغم ، أضع رأسى على فخذ أمى المتربعة محاولا الاستغراق فى النوم كأبى ٠ أشعر برعشته وسخونته فأعرف أنها لا تزال متعبة وأسمع دقات قلبها تطن فى أذنى ٠ أتوقع أن ترفع فخذها لتدفعنى عنه صائحة : « حل عنى بقى خلى عندك دم » ٠ لكنها لا تفعل ، بل تمرر يدها على ظهرى فاستنيم فى لذة فائقة تخدعنى حتى لأغيب عن الوعى لفترة طويلة يحلو لى أن أطيلها بقدر ٠ بعدها أفتح عينى فى شغف فأرى خيال أمى مجسدا على الحائط بجلستها ، بالفصل الحاسم بين اليتيها كأنها عارية من كافة الثياب ٠ يتدحرج رأسى فوق حجرها رائحا غاديا كأن فى جسد أمى قوة شيطانية تدفعنى بعيدا لترتد بى وهكذا فى عنف وقسوة شديدين ، فأعرف أن المنخل السلك لم يفرغ من مهمته بعد ، وأستشعر شيئا كالغضب العارم كالسخط يتصاعد من جسد أمى وأنا رائح غاد ما بين باب اليقظة وباب النوم ٠ فى قلب المنخل السلك ، ووسط الدقيق ، ملعقة وضعتها أمى لتكون ثقلا يحفز الدقيق على الزحف فى دوامة مع حركة المنخل ، لاتنى تضرب جدار المنخل مرة حادة وأخرى خافته : « تشك تشك تشك » دوامة الدفء المنبعثة من صدر أمى وما تحت الصدر تجعل صوت ضرب الملعقة فى جدار المنخل يخفت شيئا فشيئا ثم ما يلبث أن يختفى تماما ، ثم ما يلبث الكون كله أن يختفى لبرهة أشعر خلالها كأننى مقبل على

هدأة عظيمة بهيجة ممتعة وكأن الكون قد انتظم فى ايقاع جميل متلاحق السرعة : دم تك دم تك دم تك دم تك دم تك ·· أفتح عينى من حب ومن بهجة فتسقط على الحائط المدهون بضوء اللمبة نمره خمسة ·· صورة أمى لا تزال متربعة على الحائط لكن رأسى هذه المرة يؤدى فوق حجرها رقصة هادئة يجسدها الايقاع الجميل ، والمنخل نصف طارة سوداء معلقة فى الهواء رائحة غادية فى انضباط واحكام كأن ثمة مغناطيس خفى يتحكم فى ضبطه ، كل ما هنالك أن كفى أمى المتقابلتين تتبادلان لمس المنخل كلما ارتد اليها ، مجرد اللمس فحسب كأنهـا تعزف الموسيقى · الدقيق الأبيض العلامة ينسرب من المنخل مثل ضوء الكشـاف ، فأعرف أن طور المنخل السلك قد انتهى وأن المنخل الحرير قد بدأ يعيد نخل ما سبق أن نخله المنخل السلك ليفرز العلامة من السن · تنسرب الى أنفى وخياشمى أحلى رائحة فى الوجود مسكرة ، لا أعرف ان كانت رائحة الدقيق الساخن أم رائحة جسد أمى المشبع بالدفء والحرارة ؟ أم الرائحتين معا ؟ واذ يشغلنى التمييز بين الرائحتين أكون قد ذبت فى نوم عميق عميق عميق ، وصرت جزءا من موسيقى المنخل الحرير يرسم على الحائط فى الضوء العليل ظلالا من الألحان ·

• العتقى

كنا مضطرين دائما للذهاب الى العتقى . فأبى ـ ولا غرور ـ هو الوحيد من بين اخوته الذى تعلم القراءة والكتابة فألحقه مرشح الدائرة موظفا بمصلحة المساحة ، يقبض راتبا كل شهر يدفعه كله الى البقال الذى يجر لمتة السجائر والشاى والسكر له ولكل أعمامى، مقابل أن يأكل هو ونحن من زرع الفدادين الثلاثة التى تمتلكها أمه مبروكة الشيالة أرثا عن أبيها ابراهيم الشيال . لكن الأهم من كل ذلك أن أبى لابد أن يرتدى حذاء لامعا نظيفا ، وحيث أنه موظف وله فى البلدة اسم ورسم ومكانة فان زوجته هى الأخرى لابد أن يكون لهـا حذاء ترتديه عند الخروج على ندرته : شبشب أسود ذو كعب ، أحب رؤية أمى وهى ترتديه داخل الدار ، حيث يستقر كعباها المستديران كتفاحتين فوق كعب الشبشب وتخطر فى الدار رائحة غادية بالأشياء ، لطرقعاته تحت كعبيها صوت كصوت القبلة النشوانة فرحة تكرر نفسها كلما ابتعد الكعب عن الكعب لبرهة ثم عاد ، سمحت أمى لنفسها بارتدائه داخل الدار منذ أن اشترى لها أبى شبشبا جديدا ـ أسود أيضـا ـ فى العيد الصغير لكن

المناسبة لم تكن العيد انما كانت بسفرها لأول مرة فى حياتها بعد زواجها لزيارة أمهـــا فى المدينة المجاورة حيث تقيم لدى بعض أقاربها ٠٠

لأبى ثلاثة أحذية ، أحدها أبيض على بني ، وهو مخبأ دائما فى فى درج البورية تحت ثياب مهملة يحتفظ به أبي للطلعة ، للسفر ، لحضور المجالس التي تضم علية القوم ، اذ يلبس الجلباب الصوفى فوق الصديري الشاهي ، وفوقه يرتدي البالطو الجبردين الأصيل ثم يضع الطربوش علي رأسه جاعلا الزر مجنحا نحو اليمين ما أمكن ، ويمسك العصا الأبنوس أم عوجاية واذ يمشى تراه ينظر أول ما ينظر الى الحذاء في قدميه ، ثم يتجه الي مرآة البورية ثم مرآة التسريحة ليري الحذاء من جديد ، فيما هو يتمتم لنفسه كأنما قد سأله سائل ، يقول : « بلدنا دي أصلها عجب » « الواحد فيها أول ما يشوفك يبص في جزمتك علي طول » ناس عندهم عقدة الجزمه « من جزمتك يحكم عليك » ثم يداعب شاربه الخنفساء المستقر علي فمه الواسع الرقيق ؛ ويضيف « ناس فاضيه ! » ، ثم يخرج ، وحينئذ تبدأ مهمة العصا في طرد الحصي من أمامه حتي لا يتعرض لنعل الحذاء بسوء ٠ أما الحذائين الآخرين فكاناهما وشبشب أمى الذي ترتديه داخل الدار ، وجزمة أخي التلميذ ، وصندلي ، مصدر المهمة الملقاة علي عاتقه دوما وهي الذهاب الى العتقي بين يوم وآخر أو جمعه وأخري أو يوم سوق فالذي يليه ٠ أما شبشب جدتي « مبروكة الشيالة » فانه خرج من عهدتي منذ مدة طويلة حينما أفتي العتقي وهو يهز رأسه فى أسيف بالغ أن الشبشب لم يعد يصلح للاستعمال ، إذ لم يعد في جلده أو نعله مكان لخيط أو لغرز المخراز ٠ مع ذلك لم تفرط فيه جدتي التي يحلو لنا جميعا تجريدها من هذا اللقب والاكتفاء بمبروكة الشيالة أسوة بأهل البلدة كلهم ٠ فكانت اذا تهيأت للخروج طلبت الشبشب ، وحينئذ نظل جميعا نبحث لها عنه ، لنأتي بفردة من تحت الصندرة ، وأخرى من تحت بير السلم أو ربما من كوم التراب في الشارع المواجه لدارنا ٠

وشبشب « مبروكة الشيالة » قد أصبح من فرط الاستعمال والقدم كجيفة بلا ملامح ، مجرد جلدتين كثيبتين منكفئتين على بقايا نعل تصلب وتآكل وملأته القروح بالثقوب النافذة تسمح بالكاد لأن تدس مبروكة الشيالة أصابعها في الجلدتين وتبقى كل قدمها على الأرض ، وتزحف في مشيتها ببطء وتأن لتظل أصابعها متمكنة من الاحتفاظ بالجلدتين • وذلك بالطبع أمر مضن والحفاء أسهل منه وأفضل بكثير بل وأكثر مدعاة للاحترام ، ولكن كيف يتأتى لمبروكة الشيالة وهي أم لخمسة رجال كالفحول وست نساء متزوجات من ستة من أعيان البلدة كل وجيه منهم يناطح الآخر أن ترتدي الطرحة والملس ولا يكون في قدميها حذاء ؟ فان قيل لها : وهل هذا حذاء بذمتك يا شيالة ؟ ترد قائلة : « آهو صوره وخلاص •• احنا حنتعايق على آخر الزمن •• ما دام صوابع الرجل متغطيه خلاص » ، فيضحك من يتلقى هذا الرد لايمانه بأن مبروكة الشيالة تدلس على نفسها ، مبررة بخلها على نفسها بثمن شبشب تستتر به نفسها أمام أزواج بناتها الأعيان على الأقل ، لهذا فان أحدا من أهل بلدتنا لم يوجه اللوم الى أحد من أعمامي اذ يعرف كل الناس أن مبروكة الشيالة هي التي تمسك في يديها مصروف الدار توجهه بمعرفتها فتختزنه أو تدفنــه في الطين ليوم معلوم • وكانت مبروكة الشيالة تضطر كثيرا لاستخدام الشبشب أو القبقاب لأنها تتوضأ كثيرا • وكل قبقاب في دارنا كانت جلدته تنفصل عن الخشبة بعد أيام قليلة بسبب كثرة وضوء جدتي مبروكة الشيالة ، وكنا نتحرج من الذهاب الى العتقي ، ويكتفي الواحد منا كلما احتاج الى الوضوء أن يدق الجلدة بمسمار جديد حتى تمتلىء الخشبة بالمسامير ويقصر طول الجلدة فيرمي بالقبقاب تحت بير السلم بين أنداده •• وحينئذ لم تكن مبروكة الشيالة تتحرج من انتهاز فرصـــة جلوس أمي فتختلس شبشبها لتتوضأ بـه في محل الأدب ، فيكفهر وجـه أمي ويعلوه الغضب ، وتظل تمصمص بشفتيها وتلوي بوزها في قرف الى أن تعود مبروكة الشـــيالة تخب في الشبشب بعد أن اغرقته بالمياه

وبرطشته ونيلته بستين نيلة · تنتظر أمي حتى يتخلص شبشبها فنختطفه منفجرة فى مبروكة الشيالة مؤكدة لها أن تترك لها الشبشب فى حاله ، فان كشرت لهـا مبروكة الشيالة ـ ولابد أن تكشر ـ شخطت فيها أمي منبهة اياها الى أن هذه آخر مرة تنبه عليها فيها ، ولا تتورع أن تقول لها : يا مبروكة يا شيالة ، دون أن تقول لها : يا أمي ـ باعتبارها حماتها · هنا تنفجر مبروكة الشيالة فى أمي لاعنة أباها ـ أبو لحاف ـ وأمها ـ أم صفيحة ـ بألفاظ يقشعر لها البدن حتى ليتفرج علينا كل أهل الشارع بلا استثناء ، ويتدخلون بشدة للحيلولة بينها وبين أمي بأى شكل ، الا أنها تظل طول النهار تلعن فى أمي وأبي ـ ابن بطنها ـ الذى خاب ونصر عليها بنت أبى لحاف وأم صفيحة · ويقال فى محيط حارتنا أن سر هذه الألقاب هو أن جدى لأمي سرق لحافا ذات يوم ، وهي تهمة لم يؤكدهـا أحد سوى مبروكة الشيالة ، وأن جدتى لأمي كانت فى الأصل ملاية تجلب الماء للناس بالصفيحة لقاء أجر زهيد ، وهي أيضا تهمة غير مؤكدة لأن جدتى فيما هو واضح بنت عز ولها أقرب فى المدينة ··

كل هذا جعل أمي تصحو دائما لشبشبها ولا تمـكن العجوز منه ؛ الأمر الذى كان يتسبب فى العراك ، فلا ترد أمي ، فتضطر مبروكة الشيالة الى الوضوء حافية وتعيد مسح قدميها بجلبابها قبل الصلاة ، ثم تختم الصلاة بالدعاء على لأننى زعمت أن العتقى رفض تصليح شبشبها وتتهمنى وتتهمه بأننا أولاد كلب سل مل ، وأننا ـ العتقى وأنا ـ لن ننجو من عذاب جهنم بسبب ما تلاقيه من عنت فى الوضوء ··

ذهبنا ذات ليلة بربطة المعلم لزيارة عمتى الكبيرة « سعدية » المتزوجة فى غربى البلد من الحاج بكرى تاجر الحبوب ، الثرى الذى يلبس كل يـوم شيشبا جديدا يناسب طاقم التوب والصـديرى والطاقية ، فما بالك بزوجه وأولاده ؟ يشاع فى البلدة أن العتقى يذهب بنفسه الى الدار ليفصل لهم الأحذية على مقاساتهم · كانت

الزيارة تضم أبي وأمي وثلاثة من أعمامي وزوجاتهم · كنا وفدا كبيرا نتقدمه مبروكة الشيالة بشبشبها المزعوم الذي أصرت على تعليقه في أصابعها · ولم يكن أبي يقيم وزنا لذلك ربما ليقينه أن من يرى أمه مبروكة الشيالة فانه بالتأكيد لن ينظر في قدميها ، فالملبس الأسود المبقلل في مستطيل متكرمشة متعرجة بالخياطة ينساب زاحفا على الأرض مداريا قدميها ، ووجهها الذي تمر على لفة الطرحة بملامحه المتكرمشة في تناسق غريب ، والمتشققة كصفحة عجين خمران أو كتشقق البياض على جدار رطب ، حيث تطل من بين ثنيات الوجه المتجاورة عينان قويتان كعيني تمساح مفترس ، لكن لطف الوجه وطرافة الزمن المتراكم فوقه يقلل من وحشية العينين ·

كانت الحصر مفروشة على أرض دوار البيت وفي المندرة المواجهة سجاجيد · فتعين علينا أن نميل كلنا دفعة واحدة لنخلع أحذيتنا ونتركها على العتبة قبل الدخول ، هكذا فعلنا الا مبروكة الشيالة حركت ساقيها وهي واقفة ثم دلفت الى الداخل : غير اننا بالطبع لم ننتبه الى قطعة الجيفة المترهلة التي تركتها على العتبة تائهة بين الشباشب والبلغ والأحذية ، أما حذاء أبي الأبيض على بني فقد طواه أبي وحده على مقربة منه كما يفعل في المسجد · تعشينا وشربنا الشاي ثم القهوة ثم قزقزنا كيلة سوداني محمص ، وقزقزنا أيضا في سيرة كل أقاربنا غير الحاضرين متهمين اياهم بالمروق والعصيان وما شئت من تهم ، وضحكنا حتى دمعت عيوننا من مبروكة الشيالة وآرائها المتطرفة في معظم كبراء البلدة · واذا بكلب الدار وكان أمامنا منذ وقت يقوم بجهود بهلوانية نشيطة في مربع الأحذية المتناثرة أمام العتبة ، كأنه يؤدي رقصة شيطانية غاضبة · فانتبهنا اليه أكثر ، فاذا به يمسك بفردة من شبشب مبروكة الشيالة بين مخالبه يتشممه ويحاول النفاذ بأسنانه فيه فلا يستطيع فيفعل حركات غاضبة « ويهوهو » في يأس ثم يعيد الكرة من جديد · فقامت اليه عمتي سعدية وهي تتبختر وتهز كفلها ، طردته ثم أمسكت فردة الشبشب بأطراف أصابعها في

تأفف قائلة : « ايه القرف ده ٠٠ جايبة لنا منين القرف ده إلا هي بنيلك ٠٠ امشي بقى من هنا داهيه تقرفك » ، وألقت بالفردة الى بعيد في جوش الدار ، ثم اذا بهـا تنتبه الى الفردة الأخرى أو ما هو مفترض أنه فردة ، فبان عليها الإنبهاش ونظرت حواليها قائلة : « دا جايب فردتين كمان ٠٠ إلا هي تتنيل بنيله داحنا منضفينك على الغالي » ، ورمتها هي الأخرى في الحوش ٠ فانسحبت من لساني قائلا : « دا شبشب ٠٠ » ، لكنني تلقيت قرصة موجعة من جدتي مبروكة ونظرة قاسية من أبي فأمسكت عن القول ٠ فصاحت عمتي سعدية في كثير جدا من الحرج : « بتاع حد فيكم ؟ مش معقول » ثم استدركت في حرج باسم : « بتاعك الشبشب ده يا امه ؟ » واتبعت ذلك ببسمة غارقة بكل شيء ٠ لكن مبروكة الشيالة انفجرت فيها بكل كبرياء « فشر ٠٠ أنا برضه البس القرف ده ٠٠ داهيه تسم بدنك وانتي قليلة الحيا معندكيش ريحة الأدب ٠٠ اخيه » ، ولوت بوزهـا لمدة دقيقة ثم استطردت تحكي ما كانت تحكيه من أخبار أهل زمان ٠ وكنا نكتم ضحكاتنا طوال الجلسة ، فما ان خرجنا الى الشارع ، وابتعدنا عن دار عمتي سعدية حتى انفجرنا في الضحك وأبي يشخط فينا بجدية فنحول الضحك الى رعشات بدنية نزقة شملتنا جميعا حتى أبي هو الآخر وحتى مبروكة الشيالة نفسها ٠٠

وكنا نظن أننـا قد استرحنا الى الأبد من شبشب مبروكة الشيالة ، لكنني في صباح اليوم التالي فوجئت بها تناديني وتقرصني من أذني آمرة اياي في جدية وجهامة أن أخطف رجلي الى دار عمتي سعدية وأحضر لها الشبشب ، فلم أجد مفرا من الذهاب ، ولما سألت عمتي سعدية عن شبشب مبروكة الشيالة ابتسمت وأخـرجت من البورية شبشبا نصف قديم أمرتني أن أدسه في عبي وأعطيه لجدتي مبروكة ٠ فعدت به طائرا ووضعته بين يديها في حضرة أبي وبعض أعمامي قائلا لهم ما حدث ، فراحوا جميعا يتفرجون عليه ويتفحصونه بدقة كأنما يقيسون حجم الهدية بالميزان الحســاس أو كأنهم سيشترونه بأغلى الأثمان ٠ أفتى أبي بأنه محتاج الى لوزة صغيرة في

الجنب تدارى هذا التآكل ، وأفتت أمى بأنه محتاج نصف نعل ، وصرح عمى بأنه يكفيه مسمارين فى النعل ومسمارين فى الكعب ، ثم قالوا لها جميعا كأنهم يتنازلون عن حق كبير لهم : « زى بعضه بقى البسيه وخـــلاص ٠٠ مبروك ع الأرض » ٠ وقالت مبروكة الشيالة : « ألبسه ازاى بقى ما انتــوا شركتوه » ٠ وقال أبى : « معلهش تصليح بسيط ويبقى عال دا جامد قوى » ٠ وهكذا انضم شبشب مبروكة الشيالة من جديد الى صرة الأحذية التى يتعين على أن أذهب بها الى العتقى فى سوق البلد أو فى داره أو عند المسجد الجامع ان كنا يوم جمعة ٠

« عم « محمود عيد » كان هو العتقى الوحيد فى بلدتنا رغم أنه ليس له دكان ، فدكانه هو بيته ، حيث ندخل من العتبة فنراه يفترش وسط الدار ، جالسا بجسمه الضخم وكرشه الكبير فوق مقعد واطىء عليه شلتة صلبة مزيتة ، وبين ركبتيه سندان عبارة عن قضيب من الحديد معووج عوجة ممتدة الى الأمام مبططة ، يدخلها فى بوز الحذاء جاعلا النعل فوق ، وطاولة صغيرة محندقة قديمة متآكلة عليها أكوام من المسامير الدقيقة وعجينة لاصقة وشاكوش ومخرازين أحدهما سرح والآخر ملتو ، وبضــع كرات من الدوبارة ، وقطعة يشمع بها الفتلة بعد لضمها فى ابرتين ، اذ أنه يخرم الجلد والنعل بالمخراز ثم يدخل الابرتين متقابلتين فى نفس الخرم واحدة من الداخل والأخرى من الخارج ويشد الفتلة جيدا ، ثم يعود فيدق بالشاكوش فوق الخياطة أو فوق مسامير النعل ، وحوله كومة من قصاصات جلدية مختلفة الأشــكال والألوان والأحجام مخيطة فى بعضها كلما احتاج الى لوزة قصها من احدى القصاصات ، وكومة أخرى من الأحذية الكالحة المتفتقة التى لا يمكن للمرء أن يصدق بأنها سوف تدخل فى الأقدام من جديد لتمشى بها فوق الأرض ، والمؤكد أن عم محمود عيد سيحتاج منها الى قطع غيـــار يصلح بها أحذية أخـرى ٠٠

كنت أحب عم محمود عيد مثلما يحبه كل الناس ، وأجد متعة كبيرة فى الجلوس بجواره ريثما ينتهى من اصلاح حذاء أبى على الأقل ليذهب به الى شغله ولا بأس من ارجاء الباقى من الأحذية يومين أو ثلاثة كما يحب • أتفرج عليه كيف يعالج ثقبا أو فتقا فى جانب من وجه الحذاء بحيث يستطيع اخفاءه عن الأنظار ما أمكن • انه يؤجل تركيب لوزة لحين الوثوق من أن الخيطة المجردة للفتق سوف لن تفلح فى جمعه وتمتينه ، فرغم أن الفتوق دائما أوسع من قدرته على العلاج بدون لوزة ، فان صـــاحب الحذاء ما يكاد يرى اللوزة حتى يكفهر وتحمر عيناه ويبرطم : « عملت لوزة ليه ؟ آهى كده حتبان وحيبقى شكلها غلط » • يؤمن العتقى على كلامه مؤكدا أنها بالفعل مثل الدمل فى وجه الحذاء ولكن ما حيلته ؟ ولكن يرضى صاحب الحذاء يروح يضرب بالشاكوش فوق اللوزة حتى يبططها قدر الامكان ويجعل خيط الغرز يغوص فى لحم الجلد ويداريه بمزيد من الصبغة • وقد علمت من طـول جلستى بجواره ومشـــاهدة احتياجات الزبائن واحتجاجاتهم أن العيب لا يمـكن مداراته بدق شاكوش أو ثقل صبغة ، يظل العيب لوزة منتفخة فى الجنب كدمل قبيح أو غرزا تبدو خيوطها محفورة فى النفس • لذلك أصبحت أكره منظر اللوزات ومنظر الغرز البارزة فى أى شىء •

ثم اننى قللت من سخطى على مبروكة الشنيالة اذ وجدت فى جوار العتقى محمود عيد كثيرا من أمثالها رجالا ونساء كفيلين بتطليع دين العتقى من الطلب المستحيل ، وكنت أهز رأسى موافقا فى صمت كلما تزربن العتقى وسب وشتم فى الزبائن ذوى الرؤوس الناشفة : « الواحد منهم يتصـــور أن بامكانى اعادة الحذاء كما كان يوم اشتراه •• بهائم ترتدى أحذية فكيف لا تذوب •• يخوضون بها فى الوحل والغيطان ويمشون كخطو العفاريت •• أقدام لم تتعود على لبس الحذاء •• ان الحذاء لا يذوب من طول الزمن ولا من كثرة الاستعمال ولا من وعثاء الطريق بل تذوب من مس أقدامهم المفرطحة المتشققة التى جبلت على الحفـاء وعلى الحنين الى ملامسة الأرض ••

ما من أجد فيهم مهما كان مترفها الا ويضيق بزنقة الكعب في الحذاء فيطوى مسند الكعب ويجعل من الحذاء بلغة يسهل خلعها ويسهل على القدم التحرك داخلها .. يذوب الحذاء من منطقتين ، من موضع أصبع القدم الصغير حيث إنه ليس أصبعا كأصبع خلق الله بل قطعة صلب مدببة تنخر في جلد الحذاء حتى تفتقه فى مشوار أو مشوارين ، ومن البوز ، حيث يضرب الواحد منهم فى سيره خبط عشواء ، فهو ينقل الخطو كيفما اتفق وليرتطم بوز الحذاء فى صخرة أو نتوء أو درجة سلم أو حتى جدار يتفتق البوز بعد أن يذوب النعل من تحت الجلد ، ثم يتآكل الكعب غيظا وغضبا من سوء بخته تحت هذين الكعبين الصخريين فيذوب حسرة وألما .. ويجيء الهلف منهم كالشحط ليطلب منى أن أعيد له الحذاء جديدا كما كان .. هذه البلغة مثلا ماذا أفعل لها وقد تآكل ثلاثة أرباع نعلها .. يلزمها نعل كامل ، وثمن النعل الكامل يكاد يقترب من ثمن بلغة جديدة .. إذن فعلى أن أصنع له نعلا من الكاوتش الثقيل وفى هذه الحالة سوف أدقه بالمسامير لابد .. » :

يلوي صاحب البلغة شفتيه فى اشمئزاز ويقول فى فجيعة :

ـ معملتهاش خياطه ليه ؟

يعتدل محمود عيد نصف اعتدالة كأنه سينبئ بشيء سبق أن قاله عشرات المرات :

ـ الخيط ما يستناش فى الكاوتش يا آبا .

وحقيقة الأمر يا عم محمود انك تستسهل دق المسامير عن الخيط بالابرة . هكذا أسأله فى بساطة . فينظر لى نظرة ذات معنى مصحوبة بابتسامة من انكشف ، يقول : « أى والله يا ابنى يعنى انت بتقول فيها ؟ .. ما هو أزيد من القرشين تلاتة مش حيدفع .. ودى عشان أخيطها بالابرة والمخراز عايزه لها نص يوم .. أشتغل نص يوم بقرشين صاغ ؟ طب وده يبقى عدل منين ؟ » :

كل من تعارك مع محمود عيد العتقى أو رفع صوته عليه يعرف مثلما يعرف محمود عيد أيضا أنه عائد اليه لا محالة . ولهذا فهو يدق على المسامير كأنه يدق على كل تحد يمكن أن يواجهه :

ـ « صنف ابن العرب والمصري بالذات حمال آسية .. أو قل أنه عدم المؤاخذة تعود على الحمورية .. مع أنه ذكي وليس حمارا أبدا .. أنه يشبه الحمار في قدرته على احتمال الأحمال الثقيلة .. ولا يبالي .. يمشي في اليوم الواحد عشرة آلاف كيلو رائحا غاديا .. وكل ما هنالك أنه اذا ما جلس تأوه بعمق ، ثم يهون عليك أثر الآهة قائلا : أصل يا أخي الجزمة فيها مسمار تاعبني قوى .. وهو صادق .. ففي الجزمة لابد أكثر من مسمار ينغزه بسنه في راحة كف الرجل أو بين الأصابع أو في أي مكان .. يدخل الواحد منهم على لاهثا يتصبب العرق من جبينه ، يجلس على الأرض أو يقف مترنحا ويخلع الحذاء وهو يكاد يدمع : والنبى تدق لى على المسمار ده خبطتين .. حاضر .. ادخل يدى في الحذاء لأتحسس رؤوس المسامير .. تصطدم بأكثر من رأس بارز .. أدق فوقه حتى يختفى تماما .. ثم أعطى الحذاء لصاحبنا فيلبسه ويمشي ليفاجأ بأن أسنانا أخرى قد برزت من جديد وراحت تنغزه في قدميه .. ان المسامير لا تدق في الجسم الرخو أبدا .. انها لا تستقر الا في جسم صلب .. أعرف هذا وأختار الكاوتش الناشف الذي لا يفهمه الجهلاء هنا اذ هو كاوتش طائرة .. صحيح أنه سوف يتشقق بعد مشوارين أو ثلاثة ولكن ما باليد حيلة » .

على أن أهم شيء علقني بشخصية محمود عيد العتقى كان وعدا قطعه على نفسه ذات يوم حينما بكيت لأبى أمامه طالبا حذاء مثل أخي التلميذ ، فلم يهتم أبى لبكائي فانتحبت فضالحنى عم محمود عيد بأن قام وأخذ مقاس قدمى بالمازورة وكتبه فى ورقة ، وحلف برحمة أبيه أن يفصل لى حذاء أبيض على بنى مثل حذاء أبى بالضبط ، ولما نظرت فى عينيه مدققا ولم أجد فيهما كذبا صدقته ، وبت

أتحمس لمشوار العتقى كل بضعة أيام لكى أذكره بوعده وأقضى معه ساعات طويلة أتخيله فى كل لحظة منها وقد نهض من جلسته الأبدية ليحضر لى الحذاء من مكان ما داخل داره الواسعة ..

وذات يوم كنت أمر صدفة فى شارع داير الناحية فلفت نظرى دكان جديد مطل على الشارع يقول لك بالفم المليـان : أنا دكان فاحسدنى ، ذلك أن أصحاب الدكاكين فى بلدتنا مصابون بعقدة الدكان ، اذ أن معظم دكاكينهم كانت فى الأصل منادر أو غرف مطلة على الشارع وافتتح لها باب . أما هذا الدكان فهو دكان صريح ، ذلك كان دكان الأسطى خليل الذى عرفت أن مهنته تفصيل الأحذية الجديدة ، كانت حوائطه تمتلىء بقوالب أحذية من الخشب الصلب الناعم تتعلق متجاورة بمسامير . كنت أدهش من منظرها وأحاول معرفة دورها ، لذلك سعدت يوم تلكأت أثناء عودتى من المدرسة ورحت أنظر جيدا داخل الدكان ، فرأيت بعضا من هذه القوالب ملفوفة بجلد مشدود عليها بمسامير متجاورة كشعر القنفد ، ومتراصة على طاولة صغيرة كطاولة عم محمود عيد ، حافلة بنفس ما تحفل به ، خلفها يجلس الأسطى خليل بجسمه التخين المربع ووجهه الأحمر الغليظ الذى يبك منه الدم ويتساقط عليه العرق مدرارا على الدوام فيما هو يتنفس بصـعوبة وصدره يعلو ويهبط ، والمريلة المزيته الكالحة تتدلى من حول عنقه مغطية كرشه المستدير . كان أبهج شىء ضحكت له طويلا هو اكتشافى أن الأسطى خليل يجعل من كرشه مسندا متاحا ، حيث يضع فوقه القالب المشدود عليه الجلد ويروح يدق المســامير بالشاكوش فى طرقات شبه موسيقية : ط ط ط طم .. طم فاذا انتهى من الفردة رماها وتناول شقيقتها وهكذا . كان صامتا على الدوام ، حتى اذا ألقى عليه السلام أحد رفع وجهه فيتصاعد شخيره ، ويبربش بعينيه مغمغما بهمهمة غير مفهومة ثم يستأنف الدق من جديد .

كان الأسطى خليل العتقى حريا بأن يستهوينى أكثر من محمود

عيد ، فهو الذى يفصل الأحذية الجديدة وربما فصل لى حذاء بسعر زهيد يستطيع أبى دفعه • لكن الأسطى خليل كشف بعد أيام قليلة عن شخصية عجيبة • لم يكن فى الأصل من بلدتنا انما هو قدم من احدى المدن بعد أن ضاق رزقه فيها لكثرة الحذائين ، فجاء بلدتنا متعشما فى رزق وفير حيث لا حذاء غيره فيهـا ، ويقال أنه اختار بلدتنا لصلة نسب قديمة أتاحت له استئجار هذا الدكان • ولم يكن له زوجة انما كان له ولد شاب اسمه عبد الصمد ، لا يفارقه فى معظم الأوقات ، يشـارك أباه فى تركيب النعال ، ويوالى كنكة الشاى على وابور السبرتو ويتركها تغلى حتى يتبخر نصف الماء ثم يصب لنفسه ولأبيه كوبين من الصاج تتصاعد منهما رغوة وفقاقيع مخملية ، يشفط كل منهما باستمتاع كبير ، أما عبد الصمد فيشفع الشفط بشد نفس من الدخان • كان عبد الصمد رفيع الجسد مصفر الوجه مسبل العينين الا عندما يضطر الى التحديق فى الطريق ، وكان لطيفا ، تظنه مريض النفس من فرط اعتلال الجسد والوجه لكنك اذا جالسته كشفت عن ضحوك يرسل النكت الجديدة على الدوام ، ويقال أنه عائد من المدينة بمحصول وفير منها • وكل شبان البلد كانوا يصاحبونه ومع ذلك يتحرجون من مخالطته لسبب وحيد هو شربه للسجائر أمام أبيه وكانوا يعذرونه ملقين اللوم على تربية المدن التى هى فى أنظارهم دائمـا فاسقة فاجرة كافرة • الطريف أن الأسطى خليل هو الآخر كان يخشى على ابنه من مصاحبة أولاد البلد الذين هم فى نظرة لا أخلاق لهم فضلا عن أنهم جهلاء غليظو الألفاظ وقد يفسدونه أو على الأقل يعطلونه عن العمل ، والعمل فى نظرة يعنى الولاء للقعدة فى الدكان حتى ولو لم يكن ثمة من عمل فيه • يجن جنونه اذا نظر حوله فجأة فلم يجد عبد الصمد أو لو غاب قليلا فى مشوار أرسل اليه ، حينئذ يزيح نفسه عن الطاولة ويخرج الى الشارع ، فيقف أمام الباب قليلا يبربش بعينيه فى عمق الطريق ، ثم يتململ زاحفا شيئا فشيئا على مهل ، ويظل يدفع جسده القصير

الأكرش ؛ وينتفض وجهه الثليثك الملئ بالشعر ؛ ولأيني يصيح بيّن كل خطوة وأخرى في صوت مترسنع مشروخ : « يا عبد الصمد .. يا واد يا عبد الصمد » . فاذا لمحه جالسا مع أحد أو لاعبا مع كوكبة أتبع صيّاحه « يا عبد الصمد .. يا ابن ديك الكلب » ، ونضحك نحن ونروح نقلده باتقان فيضحك كافة المشاهدين . ويتضح أن عبد الصمد كان قد سمعه منذ أول صيحة وحلا له أن يتجاهله أو يدبر للهروب منه ، لكنه بصوت مشروخ مثل صوت أبيه وأعرض يصيح فيه بكل غيظ وحقد : « عايز ايه .. عايز مني ايه .. غور بقى من قدامي وأنا جاي وراك .. حاروح منك فين » . فيقف الرجل منتفضا من الغضب ويزداد وجهه احمرارا وعينيه تربشة واتساعا ، ينفتف قائلا بعصبية وكرامة مهيضة : « اخص عليك وعلى تربيتك .. اتفوه » ، ثم يستدير مستأنفا الرجوع في بطء وهو يمسح شفتيه من بقايا البصقة ، ويبقى عبد الصمد متكورا على نفسه لبرهة وجيزة ثم يلوى شفتيه في تعجب وحيرة ولا مبالاة ، ثم يلحق بأبيه فيصل الدكان قبله ..

ولسنا نعرف على وجه التحديد لماذا وقف حال الأسطى خليل وحل به الكساد ، لدرجة أنه كان يمضي النهار وشطرا كبيرا من الليل جالسا ينش الذبان عن وجهه بمنشة عتيقة متآكلة الأطراف . المثير للغرابة أن أهل بلدتنا يقدسون « التفصيل » تقديسا لا يطاوله الا احتقارهم لمبدأ « السوقي » واشمئزازهم من الكلمة نفسها ؛ الرجل منهم حين يلبس بلغة جديدة يجتهد أن يراها الآخرون تأهبا لاستماع السؤال التقليدي الذي لابد أن يسأله كل من يراهـا : « سوقي ؟ » هنا يلوى صاحبها رأسه في استنكار صائح كأنه يدفع عن نفسه تهمة مشينة : « لا .. تفصيل » ويمط حرف الياء الى ياءات عديدة تؤكد مدى صدقه واستنكاره لشغل السوقي الذي يباع في السوق جاهزا داخل علبة كرتونية يرى أهل بلدتنا المغرمون بالتفصيل أنها من قبيل النصب على الزبون والضحك عليه بالعلبة .

أذكر أن أهل البلدة حين فوجئوا ذات صباح بعيد بدكان الأسطى خليل مفتوحا للتفصيل الخاص توقعوا كسادا محققا يحل بعم محمود عيد . وكان الوضع يشي بذلك فعلا حينما لاحظوا أن دكان الأسطى خليل قد انشغل ببضع أعداد من الأحذية الجديدة كان أصحابها يذهبون اليه في مهرجان ، مرة لأخذ المقاس وأخرى للضبط وثالثة للاستلام ، وكانت الأحذية المرصوصة في الدكان تحت التشطيب معروفة لكل فرد في البلدة ، فهذه جزمة فلان وتلك بلغة علان وذاك شبشب فلانة . ولقد خرجت من الدكان دفعات كثيرة كان معظمها لأعيان من بلدتنا والبلدان المجاورة التي تعتبر يوم سوق بلدتنا يوم سوقهم ، فيزورون بلدتنا بالمحاصيل والدجاج والجبن ويخرجون منها بأثواب القماش ولفائف العجوة والبرتقال والهريسة وأم الفلافل الساخنة . وقد ألفنا أن تزدحم جميع دكاكين بلدتنا يوم السوق الا دكان الأسطى خليل ، لم يعد يزدحم مطلقا لا في يوم السوق ولا في غيره من أيام ، بل أصبح من المألوف أن يبدأ يوم السوق بارتفاع صوته المسرسع المشروخ مجلجلا رغم ذلك مغطيا على نداءات الباعة وصيحات الفصال ، يلعن الباعة الذين يصرون على فرش بضاعتهم أمام دكانه ليتجمع زبائنهم يسدون عليه باب الرحمة ، وكلما أفلح في اجلاء واحد فوجيء بغيره ، فيشرع في الزعيق من جديد بكل عصبية وانفعال وتوتر ، فيما يكون عم محمود عيد افترش مكانه المعهود في مدخل الســـــوق يتلقى وفود الصرم والبراطيش القادمة مع رواد السوق من الغرباء ، حيث يصلحها على الفور بصبر وحرفنة يساعده ابنه حنفي ، ويتلقى العطايا كل ثانية حتى يمتليء درج الطاولة امتلاء ينافس أدراج الباعة . بجزاره مباشرة يتربع صانع الأختام القادم من المركز ، أمامه طبلية مفروشة يرتص فوقها عدد من الأختام النحاسية الخام ، وفي حجرة دفتره الكبير المستطيل كدفتر التموين ، اذا جاءه من يطلب خاتما سجل اسمه في الدفتر ممهورا ببصمته ، ثم يروح يحفر له اسمه بمبرد على أحد الأختام ، ثم يختم به في الدفتر بجوار البصمة ثم يسلمه لصاحبه . كان

هو وعم محمود عيد صديقين حميمين اذ يجلسان أمام بعضهما هكذا طوال ثلاثين عاما أو يزيد ، وكانا بارعين فى التنكيت على بعضهما ويمسكان لبعضهما على الواحدة خاصــــة عند ازدحــام أحدهما بالزبائن • وكان صانع الأختام يتباهى على عم محمود عيد قائلا في تفاخر انه يصنع للناس شخصيتهم ، فالشخص دون الختم لا يساوى شيئا اذ أن خاتمه هو توقيعه هو مصيره • فيرد عليه عم محمود عيد قائلا ان الختم الحقيقى هو ذلك الذى يصنعه ، فنصف النعل هو البصمة الحقيقية للانسان اذ هو يستطيع أن يعرف كل انسان من خلال نعله فحسب ، يكفى أن يغمض عينيه ويتحسس النعل لينطق باسم صاحبه في الحال ، ولا يقطع عليهما حبل المفاكهة اللذيذة سوى هدير صوت الأسطى خليل الذى يصب على السوق كله جام غضبه ناضحا بالغل والحقد الشديدين ••

شاعر البلد لا يسليها هذا صحيح ، مثلما أن مغنيها لا يطربها • ولقد حدث ، اذ كانت عملية تفصيل الأحذية هذه فى نظر أهل بلدتنا أمرا محفوفا بالغموض اللذيذ ، فالواحد منهم يذهب الى المدينة ليعطى مقاسه للحذاء ولا يعود اليه الا بعد أيام ليتسلم حذاءه ، فهو اذن يرى الحذاء وهو حذاء بالفعل معد للبس مبــاشرة مدهون ولامع وجميل • أما عند الأسطى خليل فان الشخص كلما فات على الدكان حود ليستحث الأسطى على الانهاء ، فيرى الأحذية وهى فى مرحلة التفصيل فى حالة لا تسر ولا تقنع أحدا بجدية التفصيل ، فيخيل اليه أن الأسطى خليل « يطصلق » فى شغله ، ومهما أتقن الأسطى خليل وأعطى حذاء ممتازا فان صاحبه لابد أن يظل ينظر فيه بتشكك وعدم اقتناع ، لوقت طويل ، أما اذا تفتق الحذاء بسرعة ــ وكثيرا ما تفتق ــ فان صاحبه يعود الى الأسطى خليل ويظل يتعارك معه ساعات طويلة تنتهى بأن يرمى صاحب الحذاء حذاءه على الطاولة أمام الأسطى خليل قائلا : « الجزمة دى ما تلزمنيش » ، فما أن يستدير بظهره حتى يكون الأسطى خليل قد طوح بالحذاء على طول ذراعه فى قلب الشارع صائحا كالمواء المجسد : « ولا أنا •• هى دى

رجلين بتاع لبس جزم برضه ؟ .. دا جلد رجليك نفسه متفتق » .
يضطر صاحب الحذاء الى لم حذائه وارسال الشتائم المقذعة الى الأسطى خليل ، الذى لا يعيرها أذنا صاغية ويظل صاحب الحذاء يلعن طوال الطريق متأبطا حذاءه ، فكلما مر بقوم استفسروه عن الغضب ، فيتوقف ويحكى ، فيلوون شفاههم ويضحكون ، وهكذا حتى يصل الى دار محمـــود عيد فى حارة سد متفرعة من شارع الزغالوه ، حيث يرمى بالحذاء أمامه مستكملا شتائمه فى الرجل الضلالى الغشاش الذى لن يرد على جنة . يعرف محمود عيد المسألة ولهذا لا يعبأ بالأمر لأول وهلة ، يظل برهة طويلة مبديا عدم الاهتمام الى أن يفرغ مما في يده ببطء ، يتناول الحذاء المتفتق ويقلبه ظهرا لبطن ثم يلوى شفتيه فى اشمئزاز وطيبة مغمغما :

ـ « سبحانك يارب .. كل شىء جديد بيقدم ويبقى حلو .. الا اللى يقدم وهو لسه جديد .. أخاف منه موت .. اذا كنت انت لسه جديد جاينى أعمل بيك ايه .. انت لحقت تقدم ؟ .. الأكاده بقى انى ما أعرفش أصلح غير القديم بس .. يبقى سهل .. معروف أنه قديم والتصليح فيه شرعى ويبقى مقبول .. انما الجديد أصلحه ازاى ؟ ما أقدرش طبعا أرجعه جديد ، أصله لو كان جديد جديد حقيقى وأصيل مكانش يقدم وهو لسه جديد .. وعشان هو لسه جديد وأنا أصلح فيه حيطلع من تحت ايدى قديم رسمى ، مختوم بالختم .. وترجع تقول محمود عيد شوه منظر الجزمة » .

ثم ينحى الحذاء جانبا كأنه لم يقتنع بقبول الصفقة بعد . وهنا يقول صاحب الحذاء المعطوب :

ـ « يا عم اللى انت عايزه .. بس عايزهـــا تبقى نضيفه وحلوة » .

يشوح محمود عيد بأصبعه الغليظة الملطشة بالصبغة والقشف صائحا من خلال حشرجة فى صدره :

ـ « أهو شفت ٠٠ أديك انت قلت عايزها نضيفه ٠٠ أنا ما اقدرش أخبى العيب أبدا مهما كنت أسطى ٠٠ بالعكس ٠٠ دا يمكن يابين العيب أكثر » ٠

هنا يحس صاحب الحذاء بالاحباط وينطق وجهه بالأسى ، وربما دلدل شفتيه صامتا ، فانه لشيء ممض حقا أن يكتب على المرء لبس حذاء قديم دفع فيه ثمن الجديد وأكثر ٠٠ فرحة ما تمت ٠ لكنه بآخر ما فيه من نفس يائس : « أهو برضه همتك شويه انت مهما كان أسطى » ، ثم يمضى مسرعا خشية أن يفاجئه محمود عيد بشيء جديد يضايقه ٠٠

مع ذلك لم يغلق الأسطى خليل دكانه أبدا ٠ وكان الجميع من أهل البلدة يعجبون من استمراره حيا مع ابنه المدخن الشره رغم الكساد التام ٠ كثيرا ما سهر أقوام يتحدثون بشأنه كأنه من بقية أهلهم يحملون هموم معاشه بعد أن يشبعوه سخرية وتريقة طول الليل ، وفى النهاية يتفقون على ضرورة العطف عليه ٠ وبالفعل يمر أحدهم على دكانه ومعه حذاء يريد اصلاحه ، ما وأن يقدمه للأسطى خليل حتى ينظر اليه هذا فى اشمئزاز ويزيحه صائحا : « شيل القرف ده يا جدع انت اجرى بيه على الصرمتى بتاعك يلا » بعدها لم يفكر أحد فى العطف عليه ٠ وكان من سوء حظه أن شاعر الربابة الذى يتجول فى القرى والأسواق لف ذات يوم فى بلدتنا مغنيا على الرباب فى مجالس عدة أغنية أظنها من السيرة الهلالية على لسان الجازية ان لم تخنى الذاكرة ، تقول : « يا دكان الأسطى خليل ٠٠ يا دكان يا سيد الدكاكين ٠٠ يا دكان لو كان جيبى فيك ٠٠ يا دكان دانا لأهدك وأبنيك وأعمل ترابك دوا لعيونى ٠٠٠ الخ » ٠ منذ ذلك التاريخ أصبحت هذه الأغنية سلوتنا الوحيدة ٠ نتجمع فى كل لحظة أمام دكان الأســطى خليل ٠٠ يا دكان يا شيخ الدكاكين » وعبثا يحاول الأسطى خليل طردنا برش المياه أو العصا ، فيضطر الى اغلاق الدكان والسير الى خارج البلدة ، فنزفه بقسوة عجيبة :

« يا دكان الأسطى خليل يا دكان يا شيخ الدكاكين » ، وهو ماض أمامنا كامبراطور من الحجر لا يرتعش ولا يهتز ، الى أن يتوغل في الحقول فنعود الى البلدة متفرقين ..

على أنني حينما ألحقت بالمدرسة الالزامية في العام التالى بصندل العيد الفائت وحينما شرع أبي يفكر تفكيرا جديا في تفصيل حذاء لى ، بدأت أذب الأولاد عن معاكسة الأسطى خليل ، وأريه نفسى عند ذلك طمعا في اقامة جسور الود ، اذ سمعت أبي يقول : « والله حافصلها لك ان شاالله عند الأسطى خليل .. راجل بتعنا وعلى قدنا .. وأهو يستنفع » . لكن الأسطى خليل لم يكن يعبأ بدفاعي عنه بل كان يهشنى أنا الآخر في النهاية مما يجعلنى اعود الى الدار تحتبس في حلقي دموع متحجرة . وكنت كلما فكرت في الانتقام منه تذكرت وعد أبي ونهيت نفسى . الى أن جاء يوم فوجئنا فيه بناظر المدرسة يطلع علينا في طابور الصباح ذات يوم ويلقى علينا بيانا لم أفهم منه شيئا ولا صحبى كذلك ، اختتمه بالتنبيه علينا بأن يجيء كل منا في الغد ومعه قرش صاغ واحد . فلما عدنا وأبلغنا إهالينا بهذا الطلب الغريب فوجئنا بأن البلدة كلها تتكلم في مشروع جديد استحدثته حكومة الوفد اسمه مشروع الحفاء ، ومعناه أن الحكومة ستفصل أحذية لكل أبناء المدارس على نفقتها الخاصة في مقابل قرش صاغ واحد يدفعه كل تلميذ لزوم المساهمة في المصاريف ..

« طرمخ » أبي على مشروع القرش أياما طويلة تلقيت بسببها زجرا وتعنيفا من الناظر ، الذى كان يمر علينا كل يوم بجسده القصير الممتلىء وجبته وقفطانه وعمامته ، وعينيه الضيقتين القاسيتين فيتوقف لدى كل واحد منا يستفسر عن مجيء القرش ، ثم يقرصنى في أذنى كأنما في أصابعه كماشة تجعلنى أجار بالصراخ والعويل وهو يزأر في قائلا : « انتو ايه .. عايزين تتعلموا ببلاش .. كل حاجة ببلاش حتى الجزمة ؟ داهيه تسم بدنكم » . ويقول أبي حينما

أنقل له ذلك : « أنا عارف قرش ايه وبتاع ايه اللى الحكومة طالعة لنا فيه ده ، ما اذا كانت عايزه تعمل خير تعمله وخلاص ٠٠ ولا يعنى الحكومة أخذت على الأخد ؟ مفيش عندها غير قولة هات ؟ داهيه تسم بدنهم هم راخرين » ٠ فأصابنى هم وغم شديدين ، حتى كنت من فرط الشعور بالمهانة والذل أقضى الليل كله نائما دون حراك أستقبل الكوابيس المخيفة التى تشبه كلها وجه حضرة الناظر ٠ وقد سمعتنى أمى وأنا أهذى من خلل النوم فرتبت على ظهرى وبكت ، ومن عندها أفرجت عن عشر بيضات من بيض دجاجها الخاص باعتها لخالة «راضية» التى تمر كل يوم منادية : «ياللى حداها بى ٠٠ ى ٠٠ ض» ٠ وقد أصررت على دفع القرش لحضرة الناظر شخصيا فلما دخلت عليه مكتبه المنعزل جوار الباب نهرنى صائحا : « امشى عمى فى عينك ٠٠ روح ادفعه للمدرس بتاعك » ٠ فدفعته للمدرس وأمليته اسمى عدة مرات حتى زهق وصاح فى « خلاص عرفنا بقى » ٠

بعد أسابيع طويلة تلقينا الأمر بالوقوف صفا فى حوش المدرسة لأخذ المقاس ٠ فاهتزت أعطافنا وزاطت المدرسة فجأة زئيطا عظيما عجز المدرسون عن اخماده الا بالخيزرانة النشيطة اللاسعة ، فلما اصطففنا كنا نتحسس مواضع الوجع كأننا نتهرش ٠ فيفاجئنا اللسع من جديد ٠ فنقف متخشبين وقفة عسكرية ٠ أمامنا من أول الصف وقف رجلان وخلفهما هيئة التدريس برمتها ٠ صار الأفندى الغريب ينحنى على قدم كل منا ويقيسها بالمازورة ثم يصيح برقم يدونه الأفندى الآخر فى دفتر بعد أن يسأل واحدنا عن اسمه وسنه وسنته الدراسية ٠ أنفقنا فى هذه العملية بضعة أيام كان أهل البلدة خلالها يتسكعون حول المدرسة ويتسلقون أسوارها ليتفرجوا فى انبهار يشوبه عدم التصديق ، فهم لم يتعودوا تصديق أى كلام تقوله الحكومة عن أى مشروع ، وتبدو وجوههم لنا عبر حديد السور كأنهم يراجعون أنفسهم فى موقفهم من الحكومة ويعلنون الرغبة فى التصديق ولكن ٠٠ أما نشوف ٠

ظل ذلك الحدث لأسابيع طويلة موضع أحديث البلدة . وكان محمود عيد يقول في صدق : « كله خير .. الجزم الجديدة عمرها ما تقطع رزقى .. بالعكس .. كل ما يكتر الجديد يبقى القديم زمانه جاى .. من مصلحتى أن الناس كلها تلبس جزم .. عشان أفضل أنا وغيرى نصلح ونصلح » . وكانت الأسابيع تتصرم وجثة الأمل فى نفوسنا تزداد تيبسا وعفونة ، فلقد انقطع الخبر تماما ولم يعد أحد يتحدث عن مشروع الحفاء . وقرب انتهاء العام الدراسى نبه علينا أهالينا بضرورة تذكير المدرسة بالقرش .. فقيل لنا ان خطأ قد حدث فى أخذ المقاس ، ذلك أن المتعهد أخذ مقاسنا بالمازورة فى حين أن نمر الأحذية لها نظام آخر خاص . وقد انتهت أعوام الدراسة كلها ونسينا مشروع الحفاء ولكن أبى لم ينس القرش أبدا .

الا أن غيظى من فشل مشروع الحفاء لم يكن سببه ضياع القرش فحسب ، ولا حرمانى من الحذاء الجديد فقط ، بل لأنه أفسد على مشروع انتقامى من الأسطى خليل . ذلك أننى بعد أخذ المقاس الشهير مباشرة مررت من أمام دكانه ، وخلفى رهط من الأولاد ، جمعتهم بشق النفس ، ووقفت أمام دكانه متحديا ألعب حواجبى ولسانى وأترقص مغنيا والأولاد خلفى : « يا دكان الأسطى خليل .. يا دكان يا أوسخ الدكاكين » ، وكلما هب ملوحا بسكين الجلد ارتددت . حتى اذا ما جلس واطمأن رجعت اليه مصفقا مرددا : « يا دكان الأسطى خليل .. يا دكان يا فقر الدكاكين » وهو يجعر فى غضب حتى لتكاد عروق رقبته تنفجر « امشى يا ابن ديك الكلب .. داهيه تلعنك وتلعن أبو اللى مربينك » ، فاخرج لسانى صائحا : « اووو » ثم أجرى ، فيجرى ورائى حتى ينقطع حيله فيقف يسأل الناس عمّن يكون أبى ذلك الحمار الذى لا يحسن التربية ، والناس يطيبون خاطره قائلين : « زى ابنك برضه » ، فيبصق فى الهواء تجاههم ثم يستدير عائدا ، ليفاجأ بأن أتباعى الأشقياء قد بعثروا له العدة والكراكيب فى الشارع ، فيقف متوترا يصيح بأقصى عزمه :

« يا عبد الصمد ‥ يا ابن ديك الكلب » ، ثم يمسح عن وجهه شيئا أظنه بعض دموع ‥

فلما فشل مشروع الحفاء تجددت في جلسة المساء فوق سطح دارنا فكرة تفصيل حذاء لدى الأسطى خليل ، على أن تساهم أمي في تكاليفه بنتاج ثلاث دجاجات طوال المدة التي يستغرقها التفصيل ، وتدفع مبروكة الشيالة بقية التكاليف ٠ لكن مبروكة الشيالة اعترضت بأنها حين تستطيع أن تشتري لنفسها شبشبا جديدا فسوف تشتري لي هذا الحذاء أما أبي فقد كانت لديه ورقة اعتراض دامغة يجابهنا بها كلما ألحنا له الى الموضوع ، تلك هو القرش الذي دفعناه هدرا ، كان يردد فيما يلف سيجارة ويشعلها ، باسطا كفيه : « اذا كانت الحكومة ما قدرتش تفصل لك جزمة أبقى أنا اللي حاقدر ؟ » ولكن الصندل الذي استخدمه أيام الدراسة فقط واحتفظ به في درج البورية طوال الأجازة الصيفية قد بدأ يتفكك رغم جهود عم محمود عيد المخلصة ، نزع رقعة الأبزيم كلها واستبدلها بأخرى جديدة بأبزيم جديد ودهن القديم بلون الجديد حتى فرحني بحق ، وضاقت منطقة الأصابع ففك جلدتها ووضع لها وصلة على شكل جلية ، وذاب الكعب فاستبدله بقطعتين من الجلد السميك وتكرمش الحزام الذي يطوق أعلى الكعب وصار كالفتلة تحفر لنفسها مكانا غائرا ، فاستبدلها بغيرها جديدة ، وفي كل مرة يربت على كتفي ويهز رأسه في ابتسامة « مبسوط يا سيدي ؟ اوعى تزعل ؟ » ، فأحس كأنه يبدي استعداده لأن يظل يعتذر لي الى الأبد عن عدم تفصيله الحذاء كما وعد ‥ الى أن جاء يوم ارتسم على وجه عم محمود عيد نفس الأسف والآسى ، ولوى شفتيه كما فعل ازاء شبشب مبروكة الشيالة ، ولوح بيده علامة استحالة الاصلاح ، فارتعد بداخلي عامود من الانفعال الفاجع شملني من قدمي الى رأسي ، وجاهدت لمنع نفسي من البكاء ولكن محمود عيد رأى الدمع في عيني ، فمسح وجهه بكمه ومسح أنفه ثم هز رأسه في تفكير وقال :

« طيب أنا حاعمل على آخر صبرى ·· أنا أصلى ما انهضش على زعلك انت بالذات » ، ثم أمسك بالصندل الذى كان كالفرخة المذبوحة ، وصار يضم اليه قطعا قطعا قطعا حتى سلمنى فى النهـاية شيئا ثقيلا جدا ضائع الملامح لا هو بالصندل ولا بالحذاء ، ولما اطمأن الى امكانية السير فى سلام ربت على كتفى قائلا : « خلى مبروكة الشيالة تجيب لك واحد جديد بقى ·· قول لهـا كفايه كده حتحوشيهم لأمتى ؟ » ··

لكننى لم أقل هذا بالطبع لمبروكة الشيالة ، انما قلته لأمى وبقاية دمع متحجر يعوق انطلاق صوتى · ويومها نظفت أمى زجاجة المصباح جيدا كعادتها لدى قدوم كل مساء ، لكنها بدلا من أن تضعه على رفه المعهود وضعته على الطبلية أمامى ، واستكتبتينى خطابا الى أمها ــ جدتى نفيسه ــ فى المدينة التى تعيش فيها طرف الحاج كامل الطنطاوى تاجر الأكلمة والبطاطين ، بعد التحية والسلام والسؤال عن صحتكم الغالية أعرفك يا أمى العزيزة الغالية اننى بخير والحمد لله على الصحة والستر لا ينقصنا الا مشاهدة رؤياك الكريمة وأوصيك يا أمى والنبى يوصيك يا ساكنة المدينة أن تحضرى حـذاء هدية لرمزى حيث أنه الآن فى سنة ثالثة فى مدرسة البلد اسم النبى حارسه وصاينه والمثل بيقول أعز الولد ولد الولد وانت يا أمى تحبين رمزى وتفرحين لدخوله المدرسة فلابد من كل بد أن تحضرى له حذاء جديدا من سوق المدينة يتباهى به على الأولاد ويقول ستى نفيسه أحضرته لى من المدينة وختاما لك ألف ألف مليون سلام انت والناس الذين تقيمين معهم خصوصا الحاج كامل الطنطاوى والحاج عبد الفتـاح الطنطاوى وعبد الخالق افندى الطنطاوى وكل أولاد الطنطاوى كبيرا وصغيرا وكل من يسأل عنا نهديه ألف مليون سلام ومن عندنا يسـلم عليكم زوجى العزيز وكذا مبروكة الشـيالة وأولادها فردا فردا والسـلام عليـكم ورحمـة الله وبركاته ··· ملحوظة : « لابد يا أمى أن يكون مجىء الحذاء معك فى أول زيارة

فأنت لم تزورينا من مدة طويلة والسجين يرى فى السجن أهله وأنا لا أراك والسلام ختام وسلام خصوصى من كاتب هذا الخطاب ابن بنتك رمزى ونوصيك بالرد العاجل والسلام ..

لا ندرى كم استغرق الخطاب من زمن فى الوصول . لكنى منذ أودعته صندوق البريد ولمدة شهور طويلة ظللت أقضى الظهيرة كلها أمام دوار العمدة حيث يلتصق بجواره صندوق البريد الوحيد فى البلدة ، وحيث يجىء سيد أفندى الطواف بلباسه الذى يشبه لباس العسكرى السوارى والفرسان ، بقبعة وحمار عفى يمتطيه وتحته خرج ملىء بالخطابات ، يفتح الصندوق ويستخرج ما بداخله ويختمه ويضعه فى فوهة الخرج ، ومن الفوهة الأخرى يخرج حزمة من الخطابات ويروح ينادى أسماء أصحابها فى رهط من الواقفين فى انتظاره ، والجار يتسلم خطاب جاره أو قريبه ، وسيد أفندى الطواف يعرف أن هذا قريب ذاك معرفة جيدة فى كل البلاد التى تقع فى خط طوافه . وبين كل اسم واسم كنت أبرز رأسى مجنحا نحوه كأننى استدره خطابا باسمى ، حتى بات الرجل يحفظنى ويغمزنى بابتسامة خاصة تشى بأنه أيضـــا يتمنى ورود خطاب باسمى ..

-- الى أن صحوت من النوم ذات عصرية سعيدة على زئيط غير عادى فى مندرتنا واسم آل طنطاوى يتردد مصحوبا بصوت نسائى رقيق أكثر أنوثة من صوت أمى وان كان نفس النبرات فعرفت أنها جدتى وقد عادت ، فقفزت من وضع الاسترخاء التام الى وضع الوقوف فى قفزة بهلوانية ، ثم اندفعت أجرى عابرا الدهليز حيث الفرن ومحل الراحة الى المندرة حيث الكنب البلدى العريض غير المنجد والمفروش بحصائر ملونة . كانت جدتى نفسية متربعة على الكنبة ، ضئيلة الجسم لكنها مشعة بالأنوثة الشابة الطاغية حتى لقد تضاعف حجمها وبدت أكثر صبا من أمى التى تكورت بجوارها كقطعة بائسة تتلمس الدفء لتسكن هكذا. كأنها وجدت أخيرا وبعد طول عذاب

من سيحمل عنها همومها وما أكثرها • وكان أبى يجلس على الكنبة المواجهة وجواره رجل مهندم فى ثياب بلدية ثمينة ، أسمر الوجه مستطيله غليظ الشفتين بشارب كثيف ، يتكلم بصوت عريض يعكس مع غلظ شفتيه احساسا عظيما بالشبع • عرفت انه الحاج عبد الفتاح الطنطاوى أوسط أخوال جدتى نفسية جاء يوصلها وسوف يعود تنتظره فى الخلاء عربة حنطور بالايجار لتعود به الى المحطة • كان فى الأمر ثمة صياح العراك تتزعمه مبروكة الشيلة المتربعة وحدها فوق الكنبة الثالثة جوار الباب ، ويشارك فيه أعمامى الذين جاءوا للسلام ولم يجرؤا على الجلوس فى حضرة أبى ولو على سبيل الظهور المسرحى أمام الضيوف • ألقيت نفسى فى حضن جدتى نفسية التى تهيأت لاستقبالى باسمة بهجة مشرقة الوجه مرتفعة الحواجب الثقيلة كأنها عاشقة الأساطير تستقبل عشيقها الشاطر حسن • واستطاب رأسى ملامسة جسدها البض الصبى فسرت فى عروقى مشاعر غزيرة لم أعهدها فى حضن أمى • وكان صدرها الملموم والرائحة الذكية المتصاعدة من جوفها ويدها النظيفة اللامعة كل ذلك يجذبنى نحوها وأكاد أغيب فى داخلها • قلت لنفسى كيف لا يحدث هذا حين ألقى بنفسى فى صدر أمى ؟

هاهى ذى تسند رأسها فوق كتف أمها ، ها هى ذى هى الأخرى تطلب ما لم أجده أنا فى حضنها •

يقطع أبى حديث العراك الصاخب صائحا فيها وحدها : « ماتقومى يامرة • بسرعة حضرى العشا وأعملى شاى الأول » • تتململ أمى ويبدو عليها شعور بقهر دفين ويبدو عليها أيضا انها سوف تقوم بكل صدر رحب ، بل هى تقوم فعلا ويدب فيها نشاط يثير اشفاقى اذ أرى تناسق جسدها وقد تدهور وترهل وآب الى كتل لحمية تضيف الى الارهاق ثقلا ، كدت استغرق فى النوم كأننى لأول مرة ألتقى بأحضان أم بل كأننى أكتشف معنى الأم • وفيما بين النوم واليقظة كانت ضجة العراك تبلغنى مسببة لى نكهة

من السعادة وبلغني بكل وضوح أن مبروكة الشيالة قد حسمت الأمر وكتب لها النصر المؤزر ، فمن ذا الذى يستطيع أن يبقى على موقفه او على رأيه في مواجهة مبروكة الشيالة حتى ولو كان الحاج عبد الفتاح الطنطاوى نفسه ؟ • وبناء عليه تراجع ناس فى حلفانهم وقرر الطنطاوى أن يبقى مسافة تناول العشاء • ولأن مبروكة الشيالة تعودت على النصر التام ويلذ لهـا أن تمعن فيه فانها لم تكتف بتعطيل عودة القافلة لتناول العشاء بل شرعت تساوم على الإغراء بضرورة المبيت لولا أن نحنحات كثيرة ـ كأنها غير مقصودة ـ بلغتها من جهات متعددة فعالجت اندفاعها علاجا غاية في اللطف قائلة في أسى كأنها قهرت على فعل شيء أسيف : « بقى ما كنتوش تباتوا الليلة ؟ • » ثم أمسكت عن الحديث في هذا الأمر ، وشرعت تستحث جدتى ـ من طرف خفى ـ على الكشف عن محتويات الزيارة التي كانت قد سربت الى الداخل معبأة فى حقائب واخراج وقفف • على أن جدتي نفيسة وان كانت لا تقوى على مبروكة الشيالة في صلابة الرأى والمثابرة على تنفيذه فانها ـ جدتى نفيسة ـ أشد من مبروكة الشيالة دهاء ومكرا ،وهى لن تكشف لها مطلقا عن أى شيء جاءت به لابنتها ، لكنها فى نفس الوقت تريد أن تريح مبروكة الشيالة وتعزف لها على الأوتار التى تحبها أنغاما تحبها هى ، فربتت على رأسى فى حنان قائلة : « قوم ياحبيبى قيس الجزمة بتاعتك كده » وكأن مسا كهربائيا أرعدنى ، اذ انتفضت قائما أجرى نحو الداخل في حجرة نوم أبى وأمى حيث ننام نحن مع مبروكة الشيالة : :

وجدت أمى قد ذبحت أوزة وبطة صغير وأشعلت الكانون تحت حلة الماء استعدادا لتنظيفها ، وريثما تغلى المياه لم تصبر أمى فتسللت وفتحت الخرج لتخرج منه عديدا من اللفائف بالجرائد والدوبارة ، فتفك عنها اللفة فى لهفة ثم تصيح : حذاء لأبيك ، ثم تفك الأخرى ، حذاء لعمك لابد ، وهذا لعمك الآخر ، وهذا وذاك

وذلك .. انشا الله ما أشتهيكي ، وتفك لفة : وهذا لى .. انشا الله ما أشتهيكى .. وهذا الشكر بنى لمبروكة الشيالة .. وأما هذا فحذاؤك يا رمزى ، ولكنه يبدو كبيرا عليك . ثم بدا عليها غم لا يستطيع احتماله بشر ، لكنها قلبته بيدها فى قعر الخرج وبش وجهها قليلا ثم خرجت يدها بلفة صغيرة انبسطت لها ملامح أمى قائلة : « لابد أنه هذا ، ثم فكته بسرعة وارتعاشه وصاحت : إنه هو ..قس » ، وأمسكت قدمى بيد مرتعشة بالفرح ثم هيأت لى كتفها لأستند عليه ففعلت ، كان الحذاء عظيما غاية العظمة ، حذاء بنى لامع جدا وذو رقبة واستك فى جنبها الداخلى ، وساعدتنى أمى « بفشخ » حنك الرقبة حتى سربت قدمى بداخلها ثم شدت أعلى الرقبة فاستقرت قدمى فى الحذاء على أرض ناعمة مريحة دافئة ، ثم استقرت الأخرى ومضيت خطوتين رائحا غاديا يكاد الكعب الجلدى يرفعنى عن الأرض ويهدهدنى . وخيل الى أننى قد تغيرت تماما رصرت شخصا آخر يريد أن يخطو فى احترام ورزانة وعياقة وازددت احساسا بنفس وبسحر العياقة حين مزكت الجزمة تحت قدمى بذلك الصوت الموسيقى الذى كان يتباهى به أرباب الأحذية اذ يقول واحدهم فى تفاخر أن فى حذائه مزيكة ، ويوصون الحذاء بوضعها فى كعب الحذاء ليئز كلما داست الكعب فوقه . رغم الانتشاء العظيم الذى كنت فيه انشغلت بأمر الحذاء الآخر الكبير ، فاستدرت أفحصه لأرى ان كان يصلح لى بعد عام أو عامين ، لكن أمى انتزعته منى فى رفق وتعنيف معا فيما تصيح وقد تذكرت : « لا دا بتاع أخوك وجاى على اسمه ما تبقاش طماع » ، فسلمت بذلك على الفور وداخلنى شعور بالسعادة . ثم اننى خرجت الى المندرة تسبقنى موسيقى الحذاء الذى كنت أقشعر كلما تذكرت خطر الأرض الناتئة عليه وعلى كعبه فترتبك خطوتى وتتعثر . جلست الى جوار جدتى على الكنبة مدلدلا قدمى والحذاء ساطع فيها يكاد يكون أقيم شىء فى ، وأكثر لفتا للأنظار ، والجميع ينظرون لى باعجاب باسم ، ومبروكة الشيالة تمصمص بصوت مرح يعكس

شعورا بالحسد : « ابسط يا عم ·· مبروك ع الأرض » ، واذا بأمي تخرج بعد برهة تحتضمن كومة اللفائف المتعرية تسندها بذقنها والفرح يكاد يوقعها ، حتى اذا ما وصلت الى كنبة مبروكة الشيالة وضعت كومة الأحذية ورفعت أول ما رفعت المركوب الاسود المستطيل ذى البوز الرفيع ، وأقبلت به نحو مبروكة الشيالة : « دا عشانك يا أمه » ، ثم وضعته فى حجرها · انهدت أسوار الكبرياء على وجه مبروكة الشيالة دفعة واحدة فساحت مشاعر الطفولة على مشاعر الحيزبون وصارت وهى الشمطاء العملاقة مثل عابر سبيل تلقى هبة من يد محسن كريم ، تناولت المركوب مرددة من فم أهتم تعود على خشونة الألفظ واللعن بأقذع السباب : « ده عشـانى آنا ؟ ياأختى انشا الله ما أشتهيكى ·· طب وتاعبه نفسك كده ليه يا حبة عين أمك ياأختى ؟ والنبى طول عمرك حنينه وكريمه » ، وجدتى نفيسة تهز راسها الرقيق فى خجل بعد أن صـارت تتلقى سيل الشكر من كل ناحية ··

سافرت جدتى نفيسة بعد أيام قضتها فى دارها الخاصـــة الكائنة خلف دارنا حيث أبيت معها ، واستمعت وأنا ملق برأسى فوق صدرها الى حديثها عن الحياة فى المدينة وسهولتها وحلاوتها ونظافتها حتى قر فى صدرى أن أذهب الى هذه المدينة لابد · وكنا فى الأجازة الصيفية فصرت أستعجل قدوم العام الدراسى وأتوق شوقا للبس الحذاء · وكان الشوق يستبد بى فأرتديه وأخطر به شوارع البلدة فلا أرى مجلسا الا جلست فيه واضعا ساقا على ساق فى عياقة ورجولة مبكرة · وما جلست مرة الا وسألنى ألف سائل فى دهشة شديدة عن الحذاء ·· ومبروك ع الأرض ·· يا سلام على حلاوته ·· ومنين ·· وبكام · ومفيش منه ·· و ·· و ·· حتى أعود الى دارنا آكاد أحمله فوق رأسى من فرط التبجيل والفرح · وكنت أتعمد ابرازه للأسطى خليل فيشمأنط ، ولعم محمود عيد فيملس عليه قائلا فى اعجاب : « مفيش أحلى من كده » · وقد لف

صيته البلدة كلها فصار الزملاء أبناء الأعيان يزورونني فى الدار ويطلبون الفرجة على حذائى ذى الرقبة والأستك ، فألمعه بكمى قبل أن أعرضه عليهم ليتناقلوه واحدا وراء الآخر مقلبا فيه ظهرا لبطن في اعجاب . لقد كان حذاء تاريخيا فى حياتى ، اذ بفضله صرت رجلا فى مشيتى وتلميذا أنيقا يحسب له ألف حســاب ، بفضله صرت فى زمرة أبناء الأعيان لسنوات ضمنت خلالها ألا يشتمنى أحدهم قائلا : « يا حافى » . غير أن حلم السفر الى المدينة حيث تسكن جدتى نفيسة كان قد بدا يستحوذ على ويضع فرحة الحذاء فى المرتبة الثانية .

● أيام الخزنة

كل ما أذكره من طفولتي مشهد النوم ، حيث كنا ـ أبي وأمي وأختي بدرية وأخي بدر ، وأختي حسنية وأخي حسن ، وأختي فله وأخي فل ، وأخي جعفر وأنا ـ ننام فى الخزنة • وهى حجرة أشبه بالقبو أو الزنزانة ، قابعة في ركن قصى من أعماق دارنا الواسعة بشكل يوحي بالهبل أكثر مما يوحى بالرحابة • كانت في الأصل مخزنا ملحقا بدكان بقالة ، قيل أن جدى ـ الذى كان ملحقا بوظيفة كبيرة مجهولة لنا في السراى الخديوى ـ كان يمونه بالبضائع وبراميل الزيت ، وكان أبى يقف فيه ليديره بعد أن أحيل الى المعاش من وظيفته الحكومية التى كان يفخر دائما بأنها حكومية • ولكن الدكان راح يهزل ويهزل ، وشهدت رفوفه وهى تفرغ من كافة البضائع وتمتلىء بصناديق فارغة ملونة تستر عرى الرفوف فحسب، ثم ما لبث الدكان أن تحول الى مندرة يستقبل أبى صحابه فيها ليشربوا الشاى ويتحدثوا بمرارة عن اسلام الحاج محمد هتلر الذى اختفى من الوجود فجأة وتركهم جميعا غارقين فى الوحل •

الخزنة كانت هى المكان الوحيد فى دارنا الذى يصلح لايوائنا فى مواسم الصقيع القارص ، أما الصيف فحصيرته واسعة يمكن

افتراشها على السطح ولهذا فاننى لا أتذكر سوى الأعماق فى الخزنة وكل ما عداها تبدد فى الهواء الطلق · طولهـــا متران وعرضها متر ونصف ، مبنيه بالطوب النيء ، مليسة بالطين المخلوط بالتبن ، جدرانها سوداء بفعل الهباب والأنفاس والليل الدائم ، لهـا باب طويل أسود من الخشب الأصـيل المشغول ، بدرفتين ، يفتح على المندره ، وفى الحائط المجاور له باب آخـر صـــغير جدا ، بدرقة واحدة ، يفتح على السلم مباشرة ، خمنت أن يكون غرضــه ادخال البضائع الى الخزنة من باب الدار الخلفى تفاديا لمدخل الدكان النظيف وكنت دائما أقشعر من هذا الباب المغلق ربما من قبـــل مولدى ، ليس لأن الظلام يتربع كالوحش على عارضته السفلية ليل نهار وانما لأنى صحوت ذات ليلة على هياج فظيع وصريخ مسرسع ملتاع يقشعر منه البدن ، فلما فتحت عينى رأيت جمعـــا هائلا تبينت فيهم بعض أصدقاء أبى وجيراننا وبعض اخـوتى وأمى وأبى يتصايحون فى عنف وعصبية ، ويدلقون الماء فى خصــاص الباب ، وثمة من يضرب فى خصاص الباب بقضيب من حديد ، صرت أصرخ فى رعب ، لولا أن أختى بدرية أخذتنى فى حضنها وأفهمتنى أنهم كانوا يطاردون العرسة حتى تمكنوا من زنقها هكذا بين فكى الباب ·· فظللت مدى الحياة أقشعر من هذا الباب ·

ثمة رف خشبى صغير محندق ينبت على حائط الباب الصغير ، تتسلطن عليه لمبة الغاز نمره خمسة ، تبعث ضوءا عليلا يصـــنع الأشباح التى باتت تؤنسنا وتعاشرنا خلف المصباح يمتـد شريط طويل كثيف من الهباب القاتم السواد · فى الحائط المواجه لهذا الحائط دولاب غائص فى الحائط ، له باب خشبى بحاشية لابد أنها كانت جميلة ذات يوم بعيد جدا ·· كانت أمنيتى أن تطوله قامتى لأعبث بمحتوياته التى لاينى أبى يضعها فيه : كتب صفراء وروايات وسيرة أبى زيد وعنتره وألف ليلة وكتاب شمس المعارف الكبرى الذى كان يحلو لأبى أن يجرب ما فيه من مسائل السحر والأعمال

السحرية ، وعقود ومواثيق وقسائم وأوراق غامضة ، حتى محفظه نقوده الخاوية وساعته العتيقة يخلعهما من الصديرى قبل النوم ويضعهما فى الرف العلوى .. فلما طالت قامتى فتحة الدولاب صرت أقشعر من جوفه الذى يفح ظلاما ورائحة عفونة ورطوبه تختلط برائحة الورق ورائحة العثة ، وكنت ما أن أفتح درفته التى تزيق وتتلكأ حتى أسمع صوت مباراة فى الجرى والتقافز صادرة عن جوف الدولاب أعرف أنها لفرق من الفئران تسكن فى جوف الحائط حيث يوجد سرداب سحرى طويل ممتد فى الحائط قيل أن جدى أعده لتخزين البندقية غير المرخصة .

تحت الدولاب مصطبة رفيعة جدا بعرض الجدار ، عرضها لا يزيد عن نصف متر ، أعدت فى الأصل لتوضع فوقها براميل الزيت ذات الصنابير لكن يتسنى للمرء أن يتقرفص بالاناء ويفتح الصنبور على راحته . لكن حينما جف الزيت تماما بيعت البراميل كما بيعت الرفوف والبنوك والصنج والموازين ، اشتراها بائع سريح كان يسهر مع أبى كل ليلة يبحثان فى الكتب الصفراء عن حجر الفلاسفة الذى يقال أنه يحول المعادن الرخيصة كلها الى ذهب ، الى معدن ثمين . لا أذكر متى تم هذا ، كذلك لا أذكر متى بدأنا نبيت فى هذه الخزنة ، لكننى أذكر أن أبى كان ينام فوق هذه المصطبة . وكانت لدينا سجادة قديمة جدا هى كل ما تبقى من آثار العز الغابر ، متآكلة الأطراف مليئة بالخروق ، تقيحت ألوانها ، مع ذلك ظلت تحتفظ باحترام نسبها الى السراى الخديوى ، وان بدت لكل من زارنا ورآها ، مثلنا عزيز قوم ذل . يطويها أبى بالطول أربع طيات ثم يمددها فوق المصطبة ، فوقها وسادة حائلة اللون غارقة فى الزيت والعرق صلبة كأنها محشوة بالحجر ، يضع فوقها منديلا محلاويا ينافسها فى الهوان والقدم ، ينقل المصباح من رفه الى مسمار دق أسفل الدولاب الحائطى ، يظل يقرأ لاصقا عينيه بالصفحات لساعات طويلة ، ثم ينقل المصباح الى رفه ،

ونشعر بمروره ونحن نيام على الأرض أمام المصطبة متراصين فتقشعر أبداننا الغائبة عن الوعى خوفا من أن يتعثر فى جثثنا فيقع بالمصباح فوقنا فتكون الكارثة ، لكنه فى العادة لا يتعثر الا وهو عائد بعد أن يبرم ترس الشريط فيغلق الضوء العليل أجفانه ٠ تحت الرف مباشرة على الأرض طاجن فخارى كبير تتصاعد منه رائحة الصنان الحادة ، حيث كان معدا لبولنا ، وكنا نحفظ مكانه جيدا ، ويقوم الواحد منا من النوم مغلق الجفنين ، فيخطو خطوتين اثنتين ، ثم يطلق العنان لبولته التى تخر وتيقلل بصوت عال ، فى الصباح تقوم أختى بدرية برفع هذا الطاجن ودلقه فى الشارع ، لتكون أمى قد نصبت مكانه الكانون ، الذى هو عبارة عن بضع قوالب من الطوب الأحمر ترصهما فى صفين متقابلين تسند الحلة فوقهما وتدس حطب النار بينهما لتسخن المياه لكى يستحم أبى ، حيث نكون قد هاجرنا من الخزنة الى المندرة ليتمكن أبى من وضع الطشت اذ يقف وسطه ويرش جسده بالماء ثم تقوم أمى بدلق الماء المتخلف من حمومه فى حلة كبيرة وتدلقها فى الشارع ٠ غير أن أبى بات متنازلا عن هذا الحق ضمن الحقوق الكثيرة جدا التى كان يضطر الى التنازل عنها يوما بعد يوم ، فأصبح يرتدى الجلباب على اللحم ويطرقع بقبقابه حتى الجامع المتاخم لحارتنا حيث يستحم فى ميضأته ، وهو مشهد مالوف جدا فى كل مساجد قريتنا ٠ حين يعود من المسجد يكون كل اخوتى فيما عداى أنا وجعفر قد لحقوا بملم الأنفار حيث يشتغلون أنفارا موسميين فى شغل الوسية التى قيل الها كانت ذات يوم من بين المهام التى يشرف عليها جدى ٠٠ وتكون أمى قد جهزت له الفطور ، الذى يتكون عادة من رغيف من دقيق الذرة المخلوط بالسن ، وقطعة جبن قريش ، وطبقا من اللفت ، ياكلها أبى فى شهية هتماء تستغرق وقتا طويلا ، والوابور المشتعل بجواره يئن أنينا عذبا ، يمتزج برائحة الشاى النفاذة وهو يغلى فى «البكرج» ذى اليد السلكية ٠ تنتهز أمى لحظة ازاحته الطبق

من أمامه لتصب الشاى فى كوب من الزنك صغير ، تتصاعد من رغوته فقاقيع نرى فيها خيال الشمس المتسربة من بين حديد الشباك وخيال الصور الملونة المعلقة على حوائط المندرة ، بلذة فائقة يشفط أبى كل هذا فى شفطتين ليفرغ الى الجوزة يشرب كرسى الدخان المعسل ريثما تنتهى أمي من تجهيز شاى الدور الثانى ، حيث يغلى نفس التفل مرة أخرى ويحلى بقدر أكبر من السكر .

أتأمل أمي وهى تتنهد الى الداخل كاتمة فى صدرها شيئا تود قوله ، انها تتحين انفراجة الأسارير على وجه أبى لكي تبلغه أن موعد الطحين قد حان ، وأن الرغيف الذى أكله اليوم فى فطوره انتزع من كومة لقيمات جافة فى قلب « الصحارة » هى كل ما تبقى من الطحين السابق . أبى هو الآخر يعرف أنها تريد أن تبلغه هذا ، لكنه يتجاهل ، وكلما خيل اليه أن أساريره انفرجت قليلا عاد فكشرها وعقد على صفحة وجهه عشرات العقد والكلاكيع كأنه يقيم سدودا يمنعها بها من فتح هذا الموضوع أو أى مواضيع أخرى . مسكينة هى ، ماذا ستفعل حين أصرخ فيها بعد ساعات طالبا الغذاء وهى تسوف وتماطل ، ان الدقيق مطلوب الآن وفورا ، ولحظة التأجيل تمتد عادة الى مثل هذا الحد ، فالى أن نشترى كيلة الذرة وكيلة الشعير ونطحنهما فى الماكينة نقضى بضعة أيام نأكل خلالها الأرز الذى تشتريه أمى كوبة وراء أخرى كل يوم ، ملء كوب الماء أرزا بقرش وثلاث بيضات تحوشها أمى من الدجاج الذى تربيه وتسكنه معنا فى الخزنة فى قفص تغطيه بثوب وتضعه على عارضة باب الخزنة الصغير المطل على السلم . ومسكين هو ، ماذا سيفعل وكيلة الذرة بثلاثين قرشا وكيلة الشعير بعشرين ، ونحتاج لأربع من الذرة وثلاث من الشعير ، أى ما يقرب من جنيهين فى حين أن أجرة اخوتى فى الوسية جميعهم ثلاثين قرشا فى اليوم ، وقد قبضنا أجرتهم عن أيام طويلة قادمة منذ أيام طويلة ماضية ، ولايزال

امامنا خمسة عشر يوما حتى يصير من حقنا طلب مقـــدم آخر من المقاول على منصور الذى يورد الأنفار للوسية ، ولو لم يكن يقيـم احتراما لجدنا الذى كان صديقه لما أعطانا مقدما من الأســاس ٠ تظل المحاورة الصامتة تحتــــدم تحت الجلد بين وجهى أمي وأبي لبضعة أيام ، واخوتى يسرحون الى حقول الوســـية ببقايا أرغفة مكسرة يصرونها فى المنديل المحلاوى ليقرشوها عند الغذاء مع خيارة محدقة ، ولا أحد منهم ينبس بحرف لوقوفه على جلية الخبر ٠٠

لست أذكر متى بدأت أيام الضنك ولكنني أذكر أنها لاتزال قائمة ولا أزال أنام في الخزنة محشورة جثتي بين جثث اخوتى ٠ أتقلب على الأرض الصلبة بصعوبة ، لأجد أن الحصيرة قد انطبعت خطوطها الغائرة على ضـــلوعي ، لتضربني أختي حسنيـــة في فكي صائحة أنني كتمت نفسها ، وأجدني أرتعد من البرد رغـم كثافة الأنفاس ، أبحث عن البطانية المرقعة المزودة بملاحق من الخيش ، أجدها شيحا متموجا بين الأقدام كبركة من القطران ، لكي أستعيدها على أن أشدها من بين الأجساد الثقيلة ، ولابد أن يصحوا الجميع ، وهي لحظة أخشاها ويرتعد قلبى كلما تخيلت مجرد حدوثها مرة أخرى ٠٠ اذ حدث أن أخذت أسحب البطانية المزعومة وأشدها من أطرافها بكل قوتي حتى تقلب الجميع وتصايحوا فى الظلام وبرطموا وظلت ضوضاؤهم تنق لفترة طويلة وأنا أحـــاول شرح موقفى بلجاجة ، فمـــا أدرى الا وكف الشيطان تهبط على وجهى كسقف الحجرة كالقدر ، فأنتفض صارخا من قلب يتمزقه الفزع ، والكف الشيطانية الخشنة بأصابع من لهب تقبض على كتفي بعنف تلصقني فأصطك بدماغ أختي حسنية فتندفع هى الأخرى صارخة جاعرة ، والكف تنهال على صدغي ورأسي والظلام مطبق ، وصوت خيل الى أنه صوت أبى يزأر في بحقد دفين مجنون هادرا بألفاظ يخيل الى أنها : نام بقى نامت عليك حيطه ، وأنا أحاول كتمان أنفاسي ولكنها تتجمع لتتدلق مرة واحدة من حين الى حين كصيحات محبوســة

كصوت ريح قوية تعوى ألما وهي تدخل من خصاص الباب ، أختي بدرية تزحف عبر الأجساد من أخر الخزنة لتلحق بى ، تزيح جسد أختي فله ، فتحدث حركة تزحزح تشمل الصف كله ، لتستقر هي الى جوارى آخذة رأسى فى حضنها وتربت على ظهرى وأنا أنتفض ، وحركة انسلات من فوق المصطبة تحدث ، وقدم تتعثر فينا ، نعرف من لمسها أنها قدم أمي ، حيث تصل الى الرف وتشعل المصباح ، فنزيح الغطاء عن عيوننا خلسة ، كلنا دفعة واحـدة ، لنتمعن فى شكلها تحت الضوء ، فنراها منفوشة غير محكمة كأنها لمت جسدها على عجـــل وتركت بعض أجزائه حيث كانت تنام ــ وياللعجب ــ بجوار أبى على المصطبة التى لا تكاد تتسع لجسد واحد ..

بعد برهة يخبو الضوء من جديد وتختنق الأشباح على الحائط المواجه لعينى وقد جفت فوقهما الدموع وكونت طبقة صلبة . أنظر فى المصباح فأرى شريطة جمرة حمراء وسط ذبالة شاحبة كالمصاب برمد صديدى ، فأعرف أن زيت المصباح قد نفد من الأمس وأن كلاهما ــ أبى وأمى ــ قد رحب بتركه دون زيت وتجاهل الأمر فى مثل هذه الليلة بالذات ضمانا لأن لا يقوم أحدنا فى الليل ويجده مطفأ فيشعله ، وكنت أعرف أن ثمة ليالى يستحب فيها الظلام ولكنها مثل كل الظواهر والبواطن غامضـــة ، ثم اننى لم أكن قد تعلمت كلمة لماذا وقد بات من الواضح أننى وكل أخوتى وأبنـــاء جلدتى لم نتعلمها بعد ..

تلفظ الذباله آخر أنفاسها وأمى متربعة عند قدم أحد اخوتى من أول الصف ، يداها ممسكة بذيل ثوبه ، يمناها تسرح بين ضلوعه وفى ثنيات ثيابه الداخلية ، خارجة بالقمل من جسده ، لتضع القملة فى فمها وتضغط عليها بأسنانها فتطرقع . وكنـــا نعجب كيف أن الواحد منا حين يتوجع من قرص القمل والبراغيث فيصحو لهرش فى كل جسده ويحـاول اصطياد قملة أو برغوث

فلا يفلح ، فى حين أن أمى تمد يـدها فقط تحت الثوب لتعود فى الحال بقملة أو برغوث وكنا نعجب أكثر من قدرتها على طحن الحشرة تحت سنها ونفخ بقاياها ، وكنا نسألها كيف تفعل ذلك ؟ فترد فى بساطة : انها دماؤكم التى نشقى فى تكوينها داخل عروقكم فهل أتركها لهذه الحشرة تنعم بها ؟ وما دمت لم أفلح فى مقـاومة هذه الحشرة فلن أتركها تمص دم أولادى وسوف أنتزعه منهـا حشرة حشرة . وكان ذلك يزعجنى فى أول الأمر ولكننى مع ذلك كنت كلما صحوت وسمعت طقطقة الحشرات تحت سنتها تسرى أسراب النمل داخل عروقى وأظل أستشعر الدفء والراحة فى انتظـــار وصولها الى عبر الأجساد ، حيث أستكين لكفها وهى تسرح بين ضلوعى تخلصها من فرق القمل والبراغيث التى ترتع جيوشها فى ضلوعى .

فى تلك الليلة الليلاء ، وعلى ضوء تلك الذبالة المرمدة سقطت عينى على الحائط فوجدت بين الأشباح الشاحبة الساجية أول تغير انتبهت اليه فى حياتى وبدأت ألاحظه بشغل كبير ، ذلك أننى قبل هذه اللحظة كانت عينى بعد أن تستعرض الأشـــباح وتتيقن أن صوت الهدير والرعد والأنين المتمــاوج فى أنحاء الخزنة قادم فى الأصل من ركن على المصطبة لا من هذه الأشباح ، تستقر عينى على صورة منزوعة من مجلة وملصقة على الحائط منقسمة الى بروازين كبيرين فى كل منهما صورة لرجل طيب الوجه ذى شارب يرتدى البذلة والطربوش ووشاحا عليه بعض النجوم والدبابير الذهبية ، وكنت قد علمت قبلا أن هذه التى على اليمين هى لرجـــل يدعى سعد باشا زغلول الذى قال : مفيش فايده ، والأخرى لرجل يدعى النحاس باشا الذى ألغى المعاهدة ، وكنت أعرف أن أبى يضعهمـا هكذا فى مواجهته لتقع عينه عليهما وهو يضطجع على الوســـادة الجافة قبل أن يغلق جفنيه على النوم ، أما التغيير الذى حدث فهو وجود صورة ثالثة لرجل يقف رافع الرأس والصدر فى شموخ ،

يمسك بيده الكاب العسكرى ، وفي شـاربه وملامح وجهـــه قوة وتصميم وعناد ونبل ورهبة ، وبسمة حنون ان بددت رهبته لا تقوى على خدش مهابته • ظللت أتأمله طويلا فبدا لجدة الورقة بالقياس الى الصورة المجاورة القديمة الحائلة كأنه مربع انفتح فى الحائط وسمح بتسريب ضوء تمثل في هذه الصورة لحظتها رفعت حاجبى ، وخرج صبوتى من قرار مكين مرتعش الأوصال : « أمه •• أمه •• هو مين اللى متعلق على الحيطة » ، يبدو أن صوتى كان محملا بالرهبة حتى أن أمى التى كانت منهمكة فى سحق الحشرات واستعادة دماء أبنائها منها اسـتدارت خلفهـا مذعـورة وهي تقول بخـوف : « مين ياوله ؟ » ، فرفعت أصبعى الصغير نحو الصورة ، فشوحت ثم لكزتنى في جنبى قائلة : « أنـا عرفة ؟ • فانكسر جفنى فوق ذبالة الضوء المرمد ، وشردت في بحر الظلام منتظرا يدها التى حتما سأحس بها سارحة بين ضلوعى •

عرفت فيما بعد أن هذه الصورة الجديدة هى لرجل يدعى جمال عبد الناصر الذى طرد الملك والانجليز وأمم القنـــال وقال أنا المصرى العربى المحمدى ويلكم يا أعداء العرب • وكنت أعجب لماذا يعلقه أبى على جدار الخزنة بالذات رغم اتساع جدران المندرة ، لكننى سمعته مرة يقول فى جمع من صحابه شاربى الشاى الأسود أنه واثق من أن عبد الناصر سوف يرى هذه الخزنة ويفهم كنـــه ما يدور فيها من حياة ، فيقول أصحابه ضاحكين : « حتى ولو كان مجرد صورة ياقاسم أفندى ؟ » فيشفط الشاى صائحـا : « حتى ولو كان صورة فى مجلة » ، فيقول أحدهم متوغوشـــا : « ازاى يا أخى » فيقول أبى فى ثقة عجيبه : « أنا عارف •• عينسـه فى الصورة بتقول كده •• بتقول انه ممكن يشوف الخزنة » • لست موقنا مما اذا كان عبد الناصر قد رأى الخزنة أم شـــغلته أحداث الحياة عنها ، ولكن أبى ظل سنوات طويلة يؤكد أنه يراها ولكن المشوار بينه وبينها طويل وشاق فمعذرة ان كان قد تأخـــر فى

الطريق لسبب من الأسباب • وقد مات عبد الناصر قبل أن يشرفنا بالحضور لرؤية الخزنة ، وعلقت بجوار صورته صورة لرجل يدعى أنور السادات بدا لنا أنه جزء لا يتجزأ من محتويات الخزنة ، ولكن حينما سمعناه يشتمنا ويتوعدنا ويزأر فينا ويحرض علينا الباعة وأصحاب المال انكسر خاطر أبي وكف عن النظر الى حائط الصور بقية عمره ، على أنه ظل موقنا أن عبد الناصر سوف يحضر الى الخزنة ذات يوم ولكن بجلباب وطاقية مثلنا ••

لم أعد متأكدا مما اذا كنت لم أبرح الخزنة من يوم ولدت حتى اليوم أم أنها هي التي لم ولن تبرحني وتظل تتنقل معي في كل مكان وزمان • انما الذي أتأكد منه حقا هو أنني لازلت فيها وأن الزمن لايزال هو الزمن وأن ذبالة الضوء العليل المرمد لاتزال تخبو كلما خلدنا الى النعاس • كل ما مررت به في حياتي • ان كنت قد مررت حقا بشيء ـ يقبع في هذه الخزنة • أتذكر أنني كنت أخرج الى المندرة فأصطدم بظلام مماثل يمتد هذه المرة من الشارع ، حيث يجثم السحاب الكثيف على السماء ، وأرى المطر يرخ بشدة والسماء ترعد بعنف فأدرك ألا سبيل لرؤية الخلاء ، ذلك أن الشارع بحر من الطين السائل يرتفع الى ما فوق العتبات ويدخل علينا المندرة فنمنعه بالأواني والألواح الخشبية ، ويتعطل أبي عن السعي في أبواب الله التي هي بلا نهاية • أمي رغم كل شيء تحب أبي ؛ في غيبته تظل نهارها قلقة عليه ، آه لو أمطرت السماء قبل أن يعود الى الدار ، تظل تضرب صدرها في ولولة ، تذهب الى أقاربنا المجاورين تدعو لهم بالستر والصحة أن يلحقوا بالرجل قبل أن يغرقه المطر ، يتحجج أقاربنا بأن الحمارة في الحقل من صبيحة ربنا ، تظل هي واقفة في الخلاء مغروزة في الطين تولول في هلع وقلة حيله ، نتبعها أنا وأخي جعفر في الولولة وننمدج في البكاء بحرقة تضحك لها فيما بعد ونتندر ، وأمي ذاهلة عنا تذهب الى آخر الحارة وتتزحلق وتتساند على الحيطان • في العادة نراه في

النهاية مقبلا كشبح هائل الحجـــم محنى القامة يحبو على ثلاث ، تمتد عصاه العوجاية لتستقر في البقعة الصلبة ليخطو اليهـــا ، يبدو وسط سيل المطر المنهمر وفي قلب الطين المتراكم كأنه كتلة من السحاب أسقطها الرعد فى المطر · تسرع أمي اليه وتهم بتطويقه وحمله على صدرها ، لكنه يعاجلها برفع العصا في وجهها منذرا اياها بألا تفعل ، فترتد عنه لأن عادتها الصدع حين يأمر حتى ولو تدحدرت به الحال · تحضر له الطشت والابريق فيغتسل ، ثم يقفل راجعا الى الخزنة حيث نتواتر فى أثره داخلين · تحتفل أمي بعودته ســالما فتكشف عن مفاجأة تدخرها ، اذ تبدأ باشـــعال الكانون فجـأة ، فتشرئب الفرحة بأعماقنا ويشملنا فرح بهيج يتوتر خوفا من ان يتمخض الأمر عن تسخين مياه لقدمى أبى ، هى تعرف أننا نتوجس من هذا ، فتضللنا ، وتجيء بالحلة الكبيرة بقدر من الماء وتضعها على الكانون لوقت طويل ، حينئذ لا يجرؤ واحد منا حتى أبي على سؤالها ماذا ستفعل ، ليس خوفا منها بل خوفا من الصدمة حين تبدد الأمل بقولها : « حاسخن مياه » · نخدع أنفسنا طويلا بمحاولة نســيان الأمر من أساسه ، فى نوم أو لعب ، لنفاجأ بالطبلية وقد نصبت ، وسبت العيش وقد استقر جوارها ، وجو الخزنة يعبق برائحـة العدس العظيم كل العظمة ، والأطباق تتوالى ، وأمي بجوار الكانون تراقبنا وتنظر فى قعر الحلة بتوجس مرتهبة ، فان رأتنــا لانزال ننتظر امتلاء الطبق كشرت وزأرت ورمتنا بنظرة تأنيب قاسية منذرة ايانا بحق الغائبين الشقيانين فى الحقل فى بحر المطر فحينئذ يكنسى وجه أبي ببسمة تسليم ويبتعد عن الطبليــة زاعما اننا قد حشرناها ــ يقصد بطوننا ــ حتى لتوشك على الانفجار ! يكذب أخي جعفر بشكل يغيظنى حين يضرب بطنه بكفه صائحا : « وأنا حشرتها » وأنا أعرف أنه يكذب ، فأزغده قائلا : « يافشـــار ياميـاس » ·· فيرفصنى فى جنبى قائلا : « يامفجوع » فأزغده فى صدره قائلا : « ياكذاب » ، تضربنى أمى فوق رأسى بالمغرفة ، فأصرخ فى عنف

وأفش غلى فى البكاء ، فتعاجل أخى جعفر بضربة مثلها ، فأكف عن الصراخ ، ويشرع هو ، وتقول أمي مبررة فعلتها : « مولودين فوق روس بعض عشان كده نقرهم من نقر بعض » ، وتعلوا الضوضاء فينتفض أبى صائحا من غيظ ومن كمد : « الا هى ربنـــا ياخدكم كلكم ، أنا عارف هو بلانى بيكم ليه ؟ أنا كنت عملت فى دنيتى ايه بس ، ده كفر والله يامسلمين » ثم ينهض موسعا المصطبة من أمامه ضاربا الهواء بقدمه ·· ويقيم الصلاة ·

اذا أقام أبى الصلاة فعـــلى كل شيء فى الكون أن يكف عن التنفس والا لخبط أبى فى قراءة القرآن ، هو الذى يعيد غسل اليد والقدم عشرات المرات لمجرد الوسوسة ، ويعيد التعوذ مثنى وثلاث ورباع ليتأكد أنه قد تعوذ عن نية خالصة · نظل أنا وأخى جعفر نكتم بكاءنا ، تتحول الدموع الى برابير تنثال من أنفينا ، تتبارى فى الشن بصوت عال محاولين استرجاع الدموع المتسربة من خلال الأنف تشمل الخزنة رهبة يقشعر منها البدن ، يرتفع صوت أبى بترتيل القرآن منغما مجودا ، نروح نرقب أبى غير مصدقين أنه هو الذى يصدر هذه الأنغام الشديدة العذوبة ، التى يقف لها شـــعر الرأس ، وينعتق الخيال من أسر الخزنة الى صور جميلة ، فلو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ·· الله أكبر ·· سمع الله لمن حمده ·· ربنا ولك الحمـــد ·· فتردد الخزنة أصداء التكبير والحمد ككورس يهزنا ويزلزلنا ، نشرع فى نسيان آلام ضربة المغرفة ، نتذكر أننا كان يجب أن نكون سعداء الليلة فقد تعشينا عدسا نحاول تذكر طعمه ولما يمض على مضغه دقائق ، نتشكك فى أننا بالفعل قد أكلنا حساء العدس أو قد أكلنا من الأساس ··

لحظتئذ ننتبه الى أمنا ، لنجدهـــا قد تكورت جـــوار الكانون معطية وجهها للحائط مسندة مرفقها على ركبتها ، وخدها مستقر

على كفها ، وبيدها تمسك عودا صغيرا من القش تنكش به الأرض كأنها تستطلع الغيب الصلد ، لكننا نحس أن ظهرها يرتعش فى الشحوب ، فنميل لرؤية وجهها ، فيخيل الينا أن دماغها يتصاعد ليخترق سقف الخزنة ويتصل بالسماء المرعدة الممطرة فى الخارج ، ومطر الدمع المتساقط على خديها وفود اتصالها بالسماء ، تنفضها العبرات المكتومة فيهتز عقد الفل المشغول بالترتر فى تربيعة رأسها ، نشعر بخوف غامض رهيب ، نستعد لاستئناف البكاء من جديد ، غير أننا نتمهل قليلا ربما أعفانا الله منه بمعجزة ، تتحول عبرات أمى الى أهآهات متقطعة حادة نائحة مرعدة ، تختلط بصوت أبى يقرأ التحيات .. يستبد بنا الرعب ، يحلو لأخى جعفر أن يبادر باعلان مشاركته لأمه فى البكاء والمؤازرة الباكية طمعا فى شىء تعطيه له خلسة ، خشيت أن يسبقنى بالحظوة لدى أمى فابتدرته بالبكاء ، وكان هو حريفا فى البكاء ، لأنه كان أكثرنا جميعا تعرضا له ، اذ هو قد ولد فى عز انشغال أمى حتى عن نفسها ، حيث لا يوجد من يستقبله بأدنى قدر من الاهتمام ، فكان يترك فى العراء أو حتى فى جهنم حتى يتقلق من البكاء فينهد نائما ويحسن صنعا لو أنه لا يصحو ثانية على الاطلاق ، هو صاحب تجربة يعتد بها فى البكاء ، يستطيع رفع صوته بالبكاء دفعة واحدة فيبدو كأنه فى ذروة بدأت منذ وقت طويل ، لو أنه نجح فى حياته بالامساك بلحظة الذروة وحدها بكل هذه الدربة فى مسائل الحياة لأصبح رهيبا ، لعين هو نعم لكنه مسكين فهو لم يكن فى يوم من الأيام الا باكيا . وهكذا انفجر نائحا بصوت يثير الشؤم .. ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وقنا عذاب النار .. السلام عليكم ورحمة الله .. السلام عليكم ورحمة الله .. ما تبطلى المناحة دى يامره يحرق .. ويقولها ، ولا ندرى كيف لفظها وهو الذى يرفع عصاه العوجاية ضاربا بها مؤخرة كل من يلفظها أمامه . ثم أننا ننغلق تماما لبرهة فيشرع هو فى ختام الصلاة . تنتفض أمى فجأة ثم تندفع خارجة ، نرتعب ، نضرب فى أثرها ، يكون من الواضح أنها ستفعلها مثلما فعلتها ذات

ليلة كهذه ، اذ خرجت الى الخلاء ضائقة هالعة وما لبثت أن اختفت في جوف الظلام ، لتعود بعدها بيومين وصحبتها رجل من أبناء عمها من عزبة الطوال ، دخل وأنب أبي تأنيبا شديدا ، واستمع اليه أبي في صبر وهدوء خرافيين ، ثم لعن له آباءه وآباء الذين خلفوه ، لكن الرجل في النهاية ترك أمي مرهوبة الجانب لبضع سنوات ..

لكن أمي حين لحقنا بها توقفت عند باب الشارع نائحة : « رايحين ورايا فين ؟ عايزين مني ايه ؟ » ثم يغلبها اليأس فترتد في فراغ المندرة حائرة تضرب في الظلام ، تظل واقفة لبرهة ثم تفترش الأرض جالسة ، فنفعل مثلها . لكي يميتها أبي من الكيد قام في بساطة وأغلق باب الخزنة ، فاختفى مستطيل الضوء الشاحب الذي كان منطرحا من فتحة الباب ، فغرقنا في الظلام والغموض والحيرة واذا بأمي تصيح فينا وهي تقرصنا بقسوة في خدودنا وجنوبنا ، وتضربنا بعنف مرددة : « لو كنت أعدمكم ، لو كنت أصبح ما الاقيش حد منكم على وش الدنيا » ثم ترتد الى نفسها فتروح تلطم خديها وتمزق في وجهها ، وجعفر يصاحبها بالعواء المكتوم الملتاع المشئوم ، وأنا أروح وأجيء حائرا أبكي بعمق . ينقذنا الله بطرق على الباب ، نعرف فيه نفحة أخوتي عائدين في اللهب البارد بعد أن أهلكتهم حقول الوسية . أجري فأفتح لهم ، يتعالى صوت جعفر بالعواء في استقبال الوافدين . يدخل المناكيد كتلا من الطين لا يفلح النهر نفسه في تخليص الآدميين منها . وفي الحال انتفضت أمي مندفعة نحوهم يرسل صوتها موجا من الحنان الدافق : « قلب أمكم .. اقلعوا اقلعوا » . ينسون شقاءهم ، تقول أختي بدرية في صوت تلمح على أوتاره قطرات المطر : « مالك يامه .. كنتي بتعيطي ليه ؟ عامله في نفسك كده ليه ؟ » . تقول أمي : «قلبي واكلني عليكم من الصبح هو اللي أنا فيه ده شويه يا بدرية ؟» . تخف بدرية فتخلع عن نفسها شرائح الطين حتى صارت بعد برهة جسدا عاريا بديعا أجمل من الصور الملونة التي تنشرها المجلات

لكي نعلقها نحن على حوائطنا • وهكذا فعلت بكل أخوتها ، وانحنت فكومت بجوار الباب كومة هائلة من الطين والوحل المتماسك ، ثم أقبلت أمي من دهاليز الدار حاملة الطشت والأبريق لأختي ان تترك الطين وتغتسل وفي الصباح تقوم هي بفرز الطين من الثياب على رواقة •

ندخل جميعا الى الخزنة راغمين • تنفتح الصحارة من جانبها الخلفي وتخرج هلاهيل قديمة يرتديها أخوتي • تصر أمي على اشعال الكانون ثانية لتسخين العدس كي يدفيء جوف الولاد ، يبرطم أبي مغمغما في احتجاج على اثارة الدخنة من جديد ، فلا تعبأ به أمي ، هو أيضا لا يعبأ بما قال ، فينصرف الى ما هو فيه من قراءة في تفسير الجلالين والبيضاوي اللذين يفخر دائما بأنه ورثهما عن أبيه الورع •

كلنا رغم الصقيع والحضيض والشظف لعب الكتاب برؤسنا وأورثنا رغبة دفينة في فك طلاسمه ومعرفة أسراره • ذلك أن أبي في الفترة الأخيرة من حياته كان يتعيش من « فتح الكتـاب » ، يجيئه المريض أو المعتل يسأله أن يفتح له الكتاب عله يعرف علته • لو فتح له أبي الكتاب في المندرة لما صدقه المعتل ، فخير مكان اذن هو الخزنة ، ربما لأنها بدعة غذاها أبي في بداية الأمر ، أن يصطحب المعتل معه الى الخزنة ، ويجلسه أمامه على المصطبة ، ويفتح له كتاب شمس المعارف الكبرى أو كتاب ابن سيرين يظل يقرأ فيه برهة طويلة ثم يشرح للمعتل سر علته واضعا له العلاج الذي لا أظن أنه قد عالج أحدا من شيء ان لم يكن قد ضاعف من العلل • لكننا تعلمنا القراءة وذهبنا الى الكتاب في المواسم التي ينعدم فيها الشغل في الوسية : لم يكن أحد في العب كله يتصور في يوم من الأيام أن أربعا من أخوتي هم بدر وحسن وفل وجعفر يأخذون الشـــهادة الابتدائية من منازلهم بتفوق كبير ، ثم يقررون الاستمرار في التعليم

فاذا بهم يرنحلوا الى المدينة ويستغلون فيها شتى الأعمال للانفاق على التعليم ، حتى تخرجوا فى معهد المعلمين والمعهد الفنى ٠

أنا وحدى الذى لم أفلح فى شغل الحقل ولم أوت صبرا على احتقار المدرسين لى ومن هم على شاكلتى ، وذات يوم ضربنى المدرس بالسلوت فألقانى خارج الفصل محطما . فجن جنونى وأهلت عليه طوب الشارع كله حتى دمرت زجاج الفصل كله وأثرت فزعا هائلا لكن مؤخرتى ظلت توجعنى طول العمر خاصـــة كلما جلست الى كتاب ٠ لم أعد للمدرسة بعدها أبدا ، وصرت أشغل وقتى بمساعدة الناس فى أعمالهم لقاء هبة أو عطية ، وأقرأ لهم الخطابات وأكتبها ، ولما كبرت قليلا كان قد وقر فى ذهنى أننى لابد أن أرث ولع أبى بفتح الكتاب ، وانصرفت الى هذا الأمر معتزما أن أتقنه أكثر من أبى وأجنى من ورائه أرباحا طائلة ، لكننى ما ان شرعت أقرأ حتى تذكرت حلم أبى القديم باكتشاف سر حجر الفلاسفة الذى يستطيع تحويل المعدن الرخيص الى معدن ثمين ٠٠ وهكذا انفتحت على عالم القراءة فلم أعد أعرف لى دخلا من خرج ، وبت كضـــال فى بحور لا يعرف لها قرارا أو شطآنا ٠ أتكسب بطرق بهلوانية ولو بمساعدة البقال فى جمع حساباته أو فى توزيع التموين ٠

تزوج البنات واحدة وراء الأخرى فى قرى وعزب مجاورة ٠٠

بقيت وحدى أعول عجوزين متهالكين أقاسى معهما مرارة المرض والفاقة والأشباح فى الخزنة ٠ آه كم شهدت هذه الخزنة من أيام تركت لنفسها أشباحا خاصة مميزة عن بقية الأشباح ٠ ففى الخزنة نمت خطوبة اخوتى البنات ، وعقد قرانهن ومنها انطلقت الزغاريد رائقة حراقة سعيدة حقا ، وخرجت العروس مجلوة كالقمر ، وفوق هذه المصطبة الرفيعة احتفلنا بخطابات النجاح التى يرسلها اخوتى ٠ وفيها نعم فيها ٠٠ تلقينا العزاء فى ثلاث من اخوتى هم بدر وحسن وفل ٠٠ وثلاثتهم ماتوا فى حروب متوالية ٠

اطمأن قلبى حين رأيت أبى يعفو عنهم لحظة الوداع ، وهو الذى كان لا يكف عن لعنهم فى خطابات مطولة بسبب طول ابتعادهم عنا والانفصال تقريبا ، حتى ساعات الأجازة من الجيش كانوا يقضونها فى المدينة ــ على حد قوله ــ يبرطعون ويفنطزون · أما أمى فكانت تعذرهم دائما ، وتقول فى صدق وانفعال أن من يخرج من هذه الخزنة يكون مجنونا لو عاد اليها · الوحيد الذى رطب قلوبنا هو أخى جعفر ، حيث كان لا يغادرنا الا للاتيان بالدروس والعودة للسهر فى الخزنة حتى الصباح يذاكر ويحل المسائل وسط الرطوبة والصنان وعلى ضوء الذبالة المرمدة · أحببناه حبا شديدا لفرط حنوه علينا ، العجيب أن موهبته القديمة فى البكاء انقلبت فى سنوات الصبا والشباب الى موهبة فى الضحك لا تحدها حدود ، ولم تكن أمه فحسب هى التى تدعو له بطول العمر والنجاح بل كل من رآه أرسل فى أعقابه الدعوات ، حتى لقد اقتنعنا جميعا بأن دعوات الناس وحبهم له هى التى منحته التوفيق والتقدم ، لقد حصل على أعلى الشهادات ، تلك التى يسمونها بكالريوس ، وهى فيما يبدو شهادة عالية جدا جدا فى أمور التجارة ومسك الدفاتر وما أشبه ، وكان أبى فى الواقع يريده دكتورا ، ولكن جعفر الأستاذ كان يعشمه بأنه سوف يأخذ الدكتوراه بالفعل ولكن فى علم التجارة أيضا ، فيضحك أبى ويوصيه أن حصل على الدكتوراه أن يعالج التجارة فى بلادنا من أمراض الشره والاستسلاب والنهب ، فبدوره يضحك جعفر الأستاذ ويقول لأبيه أن هذه الأمراض فى الناس لا فى التجارة ، مع ذلك ظل أبى فى ولع شديد يناديه بالدكتور ، والناس ينساقون وراءه بنفس الولع ، حتى لقد اختفى اسم جعفر تماما وحل محله اسم الدكتور · على أن الدكتور حين توظف فى العاصمة بدأت زياراته لنا تقل ، ومدده يضمحل ، وقيل أنه الزواج قد شغله · ثم انفصل عنا تماما ، وقيل أنهم الأولاد · وبدأ وجه أمى يزداد ذبولا وقلب أبى يزداد جفافا ·

فى ليلة تمدد أبى فوق المصطبة واشتكى من صدره وضيق

تنفسه ، وراح يسأل عن الدكتور · وكنا قد أرسلنـا الى المدينة العاصمة عددا من البرقيات ردت كلها الينا تفيد عدم الاستدلال على العنوان ·· ولم نكن نبلغ أبى عن ذلك · ومع الفجر كف صدره عن الخرخشة نهائيا ، وصوتت أمي وولولت كشابة فى العشرين ، وبكيت أنا كما لم أبك من قبل ، ليس للفراق فحسب بل لوحدتي القاسية فى كل شيء ابتداء من تسبيل عينيه حتى فحت القبر ذلك أن أبناء عمومتي وخئولتى كانوا قد سافروا الى بلاد العرب بحثا عن الثراء ، وكنت قد رميت طوبة الجميع منذ أن مات الأعزاء منهم فى الحروب الثلاث المشئومة ·

أبدا لم نصبح وحدنا أمي وأنا ، رغم فراغ الخزنة · ذلك أن ليل الخزنة والذبالة المرمدة الشاحبة كانا يستحضران كل الغائبين جميعا من غاب منا ومن قد حضر ليست فقط موجودة بالذكريات بل هى محفورة في الخزنة كما انحفرت عيدان الحصيرة على جسده ان رائحته لا تزال فى الخزنة ولن تنمحى أبدا عنها مثلما أن رائحة الخزنة لن تفارق أنفه أبد الدهر حتى لو عاش فى بلاد واق الواق ، هذا ما أنا واثق منه على الأقل ، ومع ذلك لست أعرف هل لهذه الرائحة لم يعد أخي جعفر كل هذه السنين ؟ ربما كان استقرار رائحة الخزنة فى أنفه قد عيشه في احساس سرمدى بأنه لم يغادرها بعد ولهذا لم توحشه ولم يوحشه سكانها وهم بقايا لحمه ، وكنت أسمع من بضعة أيام رجلا يتحدث فى الراديو كان صوته يشبه الى حد كبير جدا صوت جعفر ، وكان يحكى عن اخوة له أسماؤهم تشبه أسماءنا ، وكانت عين أمى تشرئب نحو الراديو ووجههـا يرتعش وقلبي يتابعها بالخفقان وقد تيقنا معا أن المتحدث هو جعفر ، وقال من يشبه جعفر ان له ثلاثة اخوة استشهدوا فى الدفاع عن البلاد فى ثلاثة عقود من الزمن ، وانتفضت أمى واقفة صارخة « هوه ، هو ابني جعفر اللى بيتكلم فى البتاع دهوه » ، ضحكت كالعبيط ضحكة صاعقه لا أدرى ان كنت أقصد بها الفرح أم الاستنكار ، ولكنى كنت

الى التصديق أميل اذ ان المتحدث حدد أسماء أخوته الثلاثة الشهداء فاذا هم بدر وحسن وفل ·· فالمتحدث اذن هو جعفر بذات نفسه ، لكن المذيعة حين سألته عن ذكرياته في القرية وبدأ يجيب بدأنا نتوه معه ولا نتعرف عليه ، وبدا خيط الحديث يشرد منا . ثم اقتحمت الحديث أغنية راقصة كأنها تنغز في صدورنا بالابر ، وتربعت أمي وقالت بشكل حاسم : « مش هوه ·· ما دام الخزنة ما وردتش في كلامه يبقى مش هوه » ، وقلت : « نعم يا أمي هذا صحيح مائة في المائة » · كل ما كان هنالك من فرق لم يعرفه جعفر حتى الآن أن ذبالة الضوء لم تعد هذه المرة تصدر من مصباح الغاز نمره خمسة بل من مصباح كهربى صغير بعد أن دخلت الكهرباء قريتنا ، لكن الكهرباء لم تستطع محو ذبالة الضوء المرمدة من عيني التى يبدو أنها استقرت فيهما الى غير محو أبدا ، وثمة صورة جديدة علقت بجوار صورة الرئيس السادات كلما نظرت اليها تذكرت كيف مات صاحب الجلباب والطاقية والعصا في برجه الحصين ، وثمة راديو صغير صنعت له صندوقا خشبيا كبيرا ووضعته فوق رف الدولاب ، تفتحه أمي على محطة القرآن الكريم ليل نهار · وكنت أنظر في كتب أبى الصفراء فلا أجد ثمة فرق يذكر بين ما تنطقه سطورها وما ينطقه الراديو · وقد أنعش الراديو أمي لسنوات قليلة لكنها سرعان ما سئمته وأخلدت لنوم طويل متقطع تتخلله الأهات واللهاث والآلام المبرحة ، الى أن فاضت روحها الكريم وهي ترسل الدعوات لأخي الدكتور الذى لعله قد بات دكتورا بالفعل فأقول لها : وانا يا أم أتغفلينني ؟ فتبتسم ابتسامة واهنة وتقول : « لأنه في الغربة لا نعرف عنه شيئا » ··

دفنتها جوار أبنائها وزوجها ، وعدت الى الخزنة كفرع يابس تتخطفه الرياح ·

• فرعان من الصّبّار

١ ـ اللحن المميز

طلوع الصواني

الأمر يبدأ فى العادة بأن نكون خارجين من دورنا صـباحا أو عائدين من المدرسة ظهرا •• فنلاحظ عددا من الرجال يجلسون القرفصاء ، دائما في صفين ، ودائما متقابلين ، يبدو على وجوههم المنكسة حزن شفيف مخيف كغرباء ومهانين كالتلاميذ المذنبين تتدلى آذانهم وأكتافهم وأيديهم فى شعور بالخزى والخجل ••

لحظتها يحط علينا صمت وذهول مفاجئان يعتقلان وقع خطواتنا على الأرض حتى لا يخدش ذلك الصمت الرهيب الذى لا شك يخفى وراءه ما يخفى • اظهر خاطر يلم بنا حينئذ هو أن واحدا من أبناء هذه الحارة لابد قد مات لتوه ، خبر موت طازج لم يتجاوز بعد حدود أهل الحارة • سرعان مـا نتعرف فى وجـوه الجالسين على بعض

اهالينا أقاربنا معارفنا جيراننا · يشملنا قليل من الرعب فى العيون وكثير من فرح غامض مقبض لكنه مع ذلك لذيذ ! ربما لأن « عشوة » أجبارية دسمة ستفرض الليلة على كافة دورنا على اسم الميت تشتعل لها الكوانين ! وربما لأن مهرجانا سيقام اين منه مهرجان العيد الذى نلبس له الملابس الجديدة ونركب الاراجيح ونأكل الهريسة ! ..

على كل راكب يمر بالجلوس ان يترجـل ويخفف من وقـع قدميه ، قد يربط دابته فى حديدة شباك أو يتركها لصبى ، بعضهم نأخذه السهامة والحمية فيترك دابته فى الشـارع يندفع نحـوهم مهرولا كمن يلبى استغاثة ملهوف ، لسان حاله يقول الى الجحيم بدابتى وبكل شىء فكل شىء يهون فى سبيل أن « يأخذ خاطر » هؤلاء الجماعة ·

وعلى كل راجل يصادفهم فى طريقه أن يبدو عليه الانزعـاج الشديد ، يعدل فى الحال من خطوه ومن وجهته ايا كانت وجهته الأصلية يولى وجهه تجاه الجلوس قد تسربل بالعبوس بدا أنه على وشك الانفجار باكيا لولا بقية من رجـولة واتزان يحرص عليهمـا ـ فقط ـ حتى لا يبث الضعف فى هؤلاء الأهل المحزونين بظاهر هذا الجمع المتقرفص المنكس فى قهر ومذلة وملامح وجهه تنطق بصريح العبارة : قلبى معاك ياخوى ! قلبى معكم جميعا ··

يهب الجمع وقوفا فى استقباله · يسلم عليهم واحدا واحدا باليد قائلا : « البقية فى حياتك ! شد حيلك ! البركة فيك ! » · فيرد الآخر وهو يسحب يده برفق ويحاذيها لصدره فى تودد أسيان شجى : « حياتك الباقية ! الشدة على الله ! آدى حال الدنيا » ، وربما عجز احدهم عن الرد لانشغال شفتيه بحبس دموعه الطـاغية فيهمس بغمغمة أو يهز رأسه بضع هزات شاكرات ··

يجلس القادم الجديد بجوار آخر واحد سلم عليه ، نفس الجلسة

الخاشعة الذليلة المهيبة مع ذلك · يعزم على جيرانه بعلبة الدخان ، معظمهم يشكره بهز اليد نحو الصدر عدة مرات ، بعضهم يقبل شاكرا · فيما تشتعل السيجارة يكون الجار قد همس للقادم الجديد باسم الميت · هنا ينزعج الانزعاجة الحقيقية التي ربما زلزلته حقا بل ربما دمرته ، يضيج في استعبار وخشوع وأسى شديد كمواء قطة معذبة : « لا اله الا الله ! انا لله وانا اليه راجعون ! آدي حال الدنيا ! » ، ثم تبدأ نظراته الطافية على سطح الدمع سرحة فاحصة بين وجوه الجالسين تهفو لالتقاط عيني أحد اقارب الميت المباشرين ليختصه بنظرة بكلمة بقومة للذهاب اليه اذا لمح في عينيه حاجة تدعوه للذهاب ، فاذا التقط العين فانه يظل يلاحق صاحبها بالنظرات كانه يحرضه على ان يطلب منه طلبا أو يكلفه بمهمة ·· فمن ليس له عائلة في الحياة يغدو الجميع عائلته عند وفاته لابد ان يصيب قدره الوافي من المعزة ان يزف الى الدار الآخرة مكرما مغفورا له كل ما يكون قد أتاه في حقهم من اغلاط أو غباوات أو ثارات أو نذالات بل انه ليحظى بلقب « المغفور له فلان » ··

ان كان وراء القادم الجديد مشوار ملح فانه ينهض مسلما على الجميع مؤكدا بين كل سلام وآخر ان موعدنا ان شاء الله عند صلاة العصر · وان لم يكن وراءه أى شيء فانه يمكث محاولا أن يخلق لنفسه مهمة ناقصة يبادر بفعلها : هل فعلتم كذا ؟ هل قمتم بكيت ؟! ·· لكنه سيكتشف دائما أن كل شيء تمام التمام ، وان أولاد حلال غيره كانوا اسعد منه حظا في السبق الى الواجب ، الولد « عنتر » والولد « جنوم » والولد « زناته » ـ من فتية حارتنا ولا فخر ـ قد بلغهم الخبر لا أحد يدرى كيف ! فتوجهوا بالفئوس والكريكات والمقاطف ليفتحوا تربة الفسقية ويرمموا بناءها ويمطروا زرعها بوابل من الكيزان والبلاليص ·· وثمة من ذهب للاتيان بالنعش من عند الجامع الكبير في وسط البلد أو من جوار دار الشيخ « مرسي الخطيب » الذى يتطوع بتغسيل الميت وتكفينه وتلقينه

الشهادتين لا يتقاضى على ذلك أى أجر بل ربما اشترى الصابون والليفة والعطور من جيبه الخاص ولا يني رأسه المستدير ذو اللحية البيضاء القصيرة يهتز يرسل البسمات المعزيات والدعوات والصلاة على النبى محمد سيد المرسلين أجمعين يطلب الصلاة عليه لقاء كل كلمة يتفوه بها يرين صمت الهدوء منه على كل المجروحين يبادلونه الكلام فى وضوح واتزان ورصانة بالغة ·· حتى هو الآخر يكون قد وصل بالفعل منذ دقائق ولابد انه الآن يدلى بمشورته فى عدد الامتار المطلوبة للكفن وفى طلب مكان فسيح للغسل والتكفين ·· وحتى الشيخ « فرحات » الاعمى المنادى قد ذهب اليه من يطلب اليه المناداة بالخبر يعطيه الأجر مقدما دعوة بالستر وعدم الوقوع فى ضيقة ، مهرجان وحده من مهرجان الموت فى بلدتنا يحلو لنا أن نلف وراءه متفرجين وياحبذا لو ساحبين ! فبدون ارتفاع صوته مناديا بخبر الميت يصبح كأن الميت لم يمت يصبح الخبر فى حاجة لمراجعات كثيرة ربما أدت الى عراك أو أخذ على الخاطر ! الاهم من ذلك تكون الميتة قد نقصت ركنا هاما من اركانها حتى ولو كان الخبر قد شاع بشكل أو بآخر ·

ان كان الميت من عائلة مسموعة فان المرسال يكون قد سافر من فوره الى دسوق البندر ليتفق مع صاحب الفروشات ، فما نلبث ان نرى سيارة نقل كبيرة وربما أكثر تدخل البلدة ، وأى سيارة تدخل البلدة لابد أن نجرى خلفها نتشعبط فيها نهلل منتشين نلتف حولها لا نتركها الا بعد ان تغادر البلدة تماما ، بعض العيال الاشقياء يحلمون بشعبطة يغفل عنها السائق حتى يصل بهم البندر يرونه · سرعان ما تتوقف السيارة فى ساحة جرن أو براح شارع ، ينزل منها رجال يصرون مؤخراتهم فى سراويل ضيقة محزقة تحزمها سيور جلدية تزيد مؤخراتهم بروزا وانغلاقا يحفرون الأرض يدقون عواميد من خشب يطرحون حولها فوقها تحتها شرائح من نسيج ثمين سميك ملون من الباطن برسوم ونقوش وحروف كتابة ، خفاف كالقرود

يتقافزون فوق هامات العمدان يربطون الحبال يتنقلون بسلالم خشبية متحركة تحتهم بفعل أفخاذهم كالبهلوانات فى دقائق يكون السرادق قد صار بهو قصر مملوء بالكراسي المذهبة المنجدة بقطيفة خضراء ..

منتهى فرحتنا حين نبحث عن المكان الذى سيعلق فيه نفير الميكرفون . ينبهنا ولد الى انه قد علق بالفعل فوق دار مجاورة أو فوق هامة عامود متباعد . الفرحة الكبرى لحظة ان تتصاعد مع النفير خرخشة وصوت نفخ وصفير عال فصوت الولد الممسك بالميكروفون يصيح : « ألو ألو .. ه .. آ ا .. ا .. لوه . واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة آ .. لوه » . نصيح مهللين ضاحكين مقلدين : « آ .. لو .. ه .. واحد اتنين تلاته » . اصحاب الميت يهشوننا بغضب مزهو يشجعنا على الصخب والدوشة والاغراب يزعوننا فى قسوة فنقذفهم بحجارة ونجرى لنعود بعد برهة نقف مبهورين بالسرادق والميكرفون والنفير الذى يخيل الينا انه السر فى حلاوة حس المقرئين وان أى واحد منا لو تكلم فى هذا النفير فسيكون حلوا كالمقرىء كالخطباء الذين تدمدم اصواتهم فى رثاء الميت ووعظ أهله وذويه ..

أما ان كان الميت غلبانا من دار ضيقة من غير عائلة فان مندرة « محمد عبيد » تقف على ناصية الحارة ، ومثلها كثيرات لمحمدات عبيدات على معظم النواصى تنتظر الاشارة . مندرة « محمد عبيد » هى الواردة دائما فى حارتنا ،فلاح وفى نفس الوقت نجار سواقى معتبر له زبائن كثار قد حباه الله بنعمة أن يرث هذه المندرة الكبيرة العريضة المطلة فى مهابة على الشارع العمومى تقطع بأنه واسع العلاقات ، ضيوفه بالمئات يتقاضى أجره مقدارا معينا من المحاصيل طول السنة مقابل التزامه بنجدة سواقيهم فور تعرضها لأى عطل

مفاجىء وهو يشكر الله على نعمته فيفتح مندرته للصحبة السعيدة والجمع الحزين على السواء اضافة الى جلسات فض المنازعات وحفلات استقبال مرشحى الدائرة يتطوع بتقديم الشاى والقهوة والشربات لكل من يطأ عتبة مندرته كبيرا كان أو صغيرا ٠

سرعان ما يبدأ ابناؤه فى كنس المندرة ورشها بالماء المذاب فيه قدر من الفنيك ينفضون المساند والحشيات يلبسونها ثيابها الجديدة النظيفة التى تنزع عنها بعد ذلك لتدخر لوقت عوزة كهذه ، يفرشون الحصائر الملونة على المصاطب والأرض فى المنتصف يجيئون بكل ما فى الدار من كراسى خيزران وخشب يفتحون الشبابيك المطلة على الشارع وعلى أرضها صوانى القلل المشوقات القدود يفتحون باب الشارع على وسعه ايذانا بأن هذه المندرة قد صارت منذ اللحظة مكان العزاء فى فقيد اليوم ٠٠

تتلكأ امرأة قادمة من بعيد نحو الجلوس الذين انتقل جمعهم الى الجدار الملاصق للمندرة فصار أكثر وضوحا وتظاهرا ٠ تبدو المرأة كشجرة جميز داكنة تزحف على الأرض تحيط نفسها بشجرة ثانية من الغبار والتراب تترك على التراب قدمين عريضتين مفرطحتين كطاجن محروق غليظ الملامح والشفتين والخدين جهم لا يريد أن يقيم ودا بينه وبين أى شىء ، الشىء الوحيد الذى يبدو أنها يمكن أن تقيم معه أعمق الود هو خبر الموت ! يطل من أعلى طاجن وجهها عينان نهمتان تستلبان كل مرئى تجر خلفها عجيزة ضخمة كالزكيبة كالزنبيل منقسم الى نصفين على ظهر بغلة عفية واحد يطلع والآخر يهبط وما بين طلوع الالية وهبوط الاخرى يخيل اليك أن شيئا من الكرة الأرضية يتحرك نحو احداث زلزال مضمر منذ قرون طويلة ! ٠٠

انها جدتى « قطيفة » ، شيعت وراء هاتين الاليتين عمرا يتخطى

الثمانين حولا ومثلها خلفة أولاد واحفاد ويعلم الله كم من أعـــوام اخرى ستشيع خلف ظهرها الذى لم ينحن بعد كأن ثقل المؤخرة قد شده من الخلف على الدوام ٠ وجهها وصوتها وعيناها كل ذلك يقول ان في جراب عمرها أكثر مما فات ٠ لا تكف عن الرواح والمجيء طول النهار هنا وهناك تقضى مصالح ومأموريات ، اذ ان لها أربع بنـات متزوجات فى جميع انحاء البلدة تزورهن بانتظام لتلقى الرعب فى قلوب أزواجهن ولو على سبيل تذكيرهم أن البنية لها أهل اقوياء مع انها موقنة ان بناتها الأربع يحسدن على أزواجهن ، كما ان لها نصف فدان في حوض « البقمة » القريب جدا من البلدة تزوعه فجلا وجرجيرا وخيارا وطماطم وقثاء تحرسه بنفسها ليل نهار تبيع للشارد والوارد ابتداء من حزمة فجل مقابل كوز من الذرة أو بيضتين الى البيـع للبياعين ذوى الحمير والزنابيل وابناء الأسواق تعرف أصلهم وفصلهم تضربهم بالبلغة لو تطاولوا عليها ترسل الى أحد أعمامي لو شـاءت تسنريح فيجيء على الفور ويرسلها ٠٠

تخفف زحفها ترسل النظرات فى الأطفال في كل شيء تريد ان تعرف اسم الميت من أى دار هو ؟ من عساه يكون عمه أو خاله أو صهره ؟ تريد ان تعرف كل ذلك من النظر وحده ومن دون أن تضطر لسؤال أحد ٠ لسوف تعرف لا محالة ، فهى ملمة بأخبار كافة الناس فى بلدتنا تعرف من التى كانت تلد بالامس ولادة متعسرة ، وكم مرة جاءها الطلق ومتى ذهبت اليها الداية وتعرف من الذى نعارك فى الغيط بالامس وأصيب اصابة بالغة تعرف من الذى كان يتربص بمن ! ومن الذى كان ميئوسا من مرضه المزمن ! الأكثر من ذلك أنها تعرف من بين أبناء العائلات من هو ابن موت لشدة ذكائه ونقاء سريرته وشرفه ومن هو شقى فعمره باق !! ٠٠ ولابد تغير من وجهتها فور المامهـا بالخبر فتسرع الى الدار على عجل ترتدي الملس الأسود فوق ثوبها لترجع مسرعة الى دار الميت ، اذ انها هي التى لابد ان تقود فيلق النساء في طلعة « الصيحة » أيا كانت صلتها بالميت أو أهله ! ٠

يظهر « عمر خطاب » كالعادة دائمـــا ، مقبلا من ناحية دكان « طلبه القطان » يتأبط قماش الكفن الذى بادر بقطعه فور تسرب الخبر اليه من أجود حرير ودبلان بصرف النظر عن مستوى الميت واهله ! ... يبدو كأنما الغروب الأحمر مختنق فى جبهته وملامح وجهه المكلبظ الجميل يتدفق صحة وبراءة وطيبة قلب ، من تحت طاقيته الصوف المستطيلة الملونة تنسرب سوالف شعر طويلة تلتحم بذقن رفيعة بيضاء سمراء تلتف حول استدارة الوجه كأنما وجهه موضوع داخل برواز أثرى من الاصداف المشغولة باليد ! فى منتصف الذقن تماما بقعة كبقعة الحناء تبدو كزبيبة اخرى مقابلة لتلك الثابتة فى جبينه من طول ما ركع ! ضخم الجثة ممتلىء الكتفين طويل الرقبة ينساب على جسده جلباب من البوبلين الأبيض الشفاف الهفهـاف تبدو سيالته محشوة بالنقود المكمخة من خير الله الوفير اذ هو ابن ناس طيبين لهم أرض واسعة يزرعها شركاء يفلحونها وابقار يربونها مقابل النصف فى كل حصيد ! يفعل فى البلدة أشياء كثيرة تنفـع الناس يقرضهم فى السر بلا ورقة ولا شهود أما تبرعاته وعيدياته ولياليه التى يقيمها لأهل الله يذبح فيها العجول والابقار فكل الناس تعرفها ولذا فكل واحد فى بلدتنا مدين ل « عمر خطاب » بشكل أو بآخر وهو لذلك محترم مهاب مبجل ينتقل اليه العمدة نفسه ! ولأنه مفتوح على كل المصاريع فان الاخبار تتدفق عليه فى كل برهة من جميع الانحـاء وهو لا يكف عن بعث المراسـيل بالهبـات والتملية بالهدايا أما مناسبات الكوارث أو الموت فانه ينتقل بنفسه ويكون أول رجل تراه واقفا على رأسك والازمة لمـا تكد تطبق على خناقك بعد فمجرد ظهوره ايذان بانفكاك جميع الأزمات المادية وبظهور واحد من طرفه يشبع جوعى ويكتسى عرايا فما بالك بكساء الميت الذى أمر الله بستره ؟ . أطرف شىء عراكه الدائم مع أهل الميت حيث يختنق الغروب الأحمر فى جبينه وحول عينيه يشوح بانفعال بيديه السمينتين يعلو صوته الغليظ الشبعان كصوت صبى جعجاع لا يقنع

بحقيقة الغضب : « يمين بالله ما يتبعني مليم واحد ! ٠٠ يمين على يمينك لابد أن تأخذ حقك الذى دفعته في القماش ! ٠٠ خل عنك والله يا جدع ٠٠ الحق حق يا حاج عمر ! ٠٠ يا جماعة مفيش فرق انتو ايه ؟! ٠٠ يا عم احنا شايلينك للعوزه » ، يحلف يمينا مغلظا الا يقول كم دفع ! أهل الميت يقدرون ثمن الكفن بالبديهة يطوون المبلغ يقدمونه له عنوة فيطبق يديه ويتبرأ من لمس النقود كأنها رجس من عمل الشيطان سينقض وضوءه ! فما يكون منهم الا دس المبلغ فى جيبه وحينئذ ينقلب فى الحال وجهه الى كتلة غضب حقيقى فيوجه نظراته النارية الى من وضع النقود في جيبه ! أحيانا يضطر الى السكوت متسامحا ، أحيانا ينهض منفعلا فيمشي وراء ذلك الذى دس النقود جيبه فيمسكه من كتفه يجعر فيه بغضب مخيف هذه المرة : « خذ الفلوس من مطرح ماحطيتها » ٠٠ فيشعر الشخص أن من الخطورة عدم تنفيذ أمره فيستعيدها ! ومهما كان مركزه فى البلدة فانه فى النهاية يخشى ان يفقد صداقة « عمر خطاب » ففقدانها خسارة لا يصاب بها المرء فى بلدتنا الا من سوء البخت فحسب ! ٠٠

صوت الشيخ « فرحات » الاعمى المنادى يفتتح جولته من أمام حارتنا اذ هو من سكانها : « لا اله الا الله ! سيدنا محمد رسول الله توفى الى رحمة الله فلان الفلانى ٠٠ الدفنة بعد صلاة العصر ٠٠ الملك والدوام لله » يتوقف على رءوس الحوارى قبل ان يحود فيكرر النداء مرتين ، لا يشرع الطفل الذى يسحبه فى المشى الا اذا حرك هو عصاه الى الامام ٠ يبلغ النداء رجلا جالسا بين أولاده فاذا هو يشخط فى أولاده ان يصمتوا : « اسمعوا » ، ثم ينصت فى اهتمام وجدية يشاركونه الانصات ، قد يخرج ملهوفا هلعا يستأكد الخبر من الشيخ فرحات ٠ يصل صوت الشيخ فرحات ونواجه الى الحقول المتاخمة للبلدة فيحاول الناس الاصغاء اليه بكل اهتمام وربما أوقفوا الساقية حتى يخلو الافق من صوتها الغليظ فان سمعوا الخبر ولم يتبينوه تصدوا للقادمين من البلدة سائلين في ود : « مين اللى مات

في البلد يا فلان ؟ » فيقول هذا بكل تأثر : « فلان الفلاني تعيش أنت » ، فيصيح السائل في تأثر بالغ وقد ارعشته الصـــدمة : « لا اله الا الله ٠٠ انا لله وانا اليه راجعون ٠٠ آدي حال الدنيا » ، ثم يستدير وقد فتر حماسه للعمـــل ، وبدأ يستعد لمغـادرة حقله والعودة الى البلدة ، واللحاق بالطلعة ٠٠

على باب دار الميت يتجمع رهط من النساء المتشحات بالسواد ، أربعون خمسون ربما مائة امرأة يلبسون الأسود في اسود نميز فيهن بعض نساء يدهن وجوههن بالازرق النيلة وطين المصـارف نعـرف انهن من صلب الميت ، يتجمعن تنضم اليهن جموع قادمة واخرى خارجة من الدار يبدون كقطع من جبال الظلام تفككت فتاهت من الليل فضلت ففضحها النهار ٠ تتقارب رءوسهن يتهامسن يتفقن فيما بينهن على صيغة « الصيحة » يرددنها لبعضهن البعض حتى يحفظنها ٠ المصبوغات الوجه يمرقن من بين الزحـــام المســـود يقفن الى بعيد بجوار بعضهن تصطف بقيتهن خلفهن يصرن قطيعا مهولا من الفيلة سوف تدهم في طريقها الأخضر واليابس ، جدتي « قطيفة » ــ ومن غيرها ؟ ــ تقف في المقدمة ، ما تكاد تصفق بكف يمناها على كف يسراها حتى تندفع جميع الاكف من ورائها بالتصفيق فيما يزحف الموكب مدبدبا في الأرض دبة واحدة بعشرات الاقدام تتلوها تصفيقة حراقة بالاكف مع صلصلة صوات مساحته مائة حنجرة رنانة تنوح تجأر على ايقـــاع متفجع بنغم ملتـــاع يجلد المشـــاعر بعذاب فـادح :

يا ابو الحزام وحيكته قفله

دا انت المليح شايلاك للغفله

يا ابو الحزام وحيكته لوزه

دا انت المليح شايلاك للعوزه

والنغم النواح يشيل الدور ويحطها ! له في القلب هزهزة وفي المآقي دموع محتبسة وفي الحلوق غصص مكتومة · امرأة عابرة تفعل شيئا في الجرن يصادفها موكب « الصيحة » فاذا هي لا يخلصها ان يمر هكذا كأنه مار على عدو فتحييه أحسن تحية تطلق الصوات في استقباله أو في اعقابه صائحة بلوعة حقيقية : « يا خو ·· و ·· و ·· يه » · بعض الصبايا القادمات من الترعة حاملات البلاليص يتوقفن ليوسعن الطريق لـ « الصيحة » ، تأسن بحيرات الدم في وجوههن النضرة وتتجعد الملامح فجأة فاذا هن ينفجرن باكيات في حرقة صائحات : « النبي تصبر أهله وعياله يارب » ، وينخرطن في البكاء ثانية حتى لتتقافز الدموع من عيونهن طائرة · يمر موكب « الصيحة » على عجائز هتماوات قعيدات المصاطب الخارجية فتعتدل الواحدة منهن صائحة من فم خرب ـ على سبيل مجاملة الصيحة فحسب « ما كانش يومك يا حبة عيني ! يا اماره يا زينة الدنيا ! » · يتوقف الرجال في الطريق يتروون ينظرون الى « الصيحة » في استنكار وتأفف يستغفرون يقولون : « اعوذ بالله ! ده كفر بالله ! مين قال لهم يطلعوا بس ؟! النسوان دي مش لاقية اللي يحكمها ؟ » ، مع انهم جميعا رأوا زوجاتهم وهن يلبسن الاسود ويخرجن وعرفوا أنهن ذاهبات للمشاركة في « الصيحة » ، وربما عنف احدهم زوجته قبل خروجها ولبه عليها بعدم فضل العالي الجاهلية الأولى لكنه يكون واثقا ان كلامه لن يثنيها عن عزمها بل انها هي نفسها لا تستطيع ان تنثني عن الانضمام « للصيحة » و ·· يشملنا خوف مرعب يكاد الواحد منا لا يتعرف على وجه امه بين وجوه « الصيحة » من فرط ما تغيرت وجوههن كأنها لبست وجوها اخرى رمادية · بعضنا ينفجر باكيا · بعضنا يكتم خوفه ومع ذلك لا نملك الا ان نتابع مسيرة « الصيحة » حتى تكمل دورتها حول البلدة من شارع داير الناحية عائدة الى دار الميت ·

لفة او لفتان يلفهما الشيخ « فرحات » المنادي يتحدد بعدها

الأمر فى سوق اللحمة ، قد ينهض « عبد الودود » الجزار ويدخل الزريبة منضبضا لرقبة عجل أو بقرة عجوز وقد يشيع مشوحا بيده فى فروغ بال ، والمؤكد حينئذ ان اخاه الأصغر أو ابن عمه « حمامه » سوف ينسلت الى الشارع ليتسوق نعجة أو عنزة أو جديا صغيرا يذبحه على شرف الميت • المهم ان « سيبة » اللحم لابد ان تنتصب قائمة على ارجلها الثلاثة فى أرض السوق والذبيحة معلقة فيها ، فالناس جميعا لابد لهم من تطليع الصوانى ، وكل الصوانى لابد ان تكون حافلة باللحم أو بالظفر ـ سرعان ما يلتف حول الذبيحة الاعيان والملاك والحرفيون ممن لديهم النقود طوال أيام السنة ، أما أولئك الذين لا يرون النقود الا فى مواسم الحصاد فانهم يحملون هم الصينية أكثر من هم كسوة الأولاد فى العيد ، لكن الواحد منهم يكون واثقا ان زوجه لابد تدخر شيئا لمثل هذه العوزة الطارئة ••

يدخل أبى عائدا من المدرسة يتأفف يتأوه • نعرف انه متعب من الحصة السابعة بالذات التى بها يكون قد ظل طوال النهار واقفا فصار محتاجا لاسبرينة اسبيول يسكت بها صداع رأسه ، وليدى أمى تدعكان فى قدميه لا سيما النشر والضبح فيهما وواقع الأمر ـ كما نحدس فى صمت ـ أنه ينذرنا بعدم مشاهدته أو مشاحنته أو مفاتحته فى أمور تجلب الصداع كطلب النقود على وجه خاص • يخلع طربوشه يعلقه فى المشجب بجوار البالطو والبدلة الاحتياطى التى تخفيها فى بياضة كبياضة المسند صنعت خصيصا لها من ثوب قديم ، وبجوار الجلابية الكشمير والعصا اللتين سيخرج بهما للعزاء بعد قليل • يقول وهو يخلع فردة حذائه محاولا على غير العادة ان يكون لطيفا بعض الشىء مع أمى : « حنعمل إيه في الصينية؟! » • تقول وهى تساعده فى خلع الجورب وتكويره ودسه داخل الحذاء : « مافتش على السوق وانت جاى ؟ » ـ تقصد ان السوق لابد ان يكون فيه لحم طرأ مع خبر الميت • يقول والكذب واضح فى عينيه : « لا والله دا انا جيت من وسط البلد » ـ كان هذا هو السبب

الوحيد في كونه لم يشتر لحما للصينية . تقول أمي وهي تنادي اختي الصبية وفيما تعطيها حذاء أبي لتضعه تحت السرير : « وامسكي لي الديك أبو رقبان » . لحظتها يبدو السرور الشديد على رجه أبي ، سرعان ما ينتقل الينا ، يشمل دارنا فرح خفي نكاد لولا الحياء نعلنه فما أحلى ان تأتي السكين على رقبة دجاجة أو أوزة امام دارنا ، وان تنطلق الذبيحة تجرى من حلاوة الروح يتناثر رذاذ دمها من رقبتها المضرجة فنصرخ مهللين نبتعد خائفين صاخبين لنعود فنلاحق الذبيحة ! وان كانت اوزة فما احلى أن نأخذ رقبتها بعد فصلها وسلخها نصنع منها زمارة نكاكي بها في الحارة ! وما احلى ان يشتعل الكانون في دارنا ان تتصاعد مع دخانه رائحة المرق والتقلية ! صحيح اننا قد لاينوبنا من الطبخة سوى الاطراف والبواقي ولكن ما احلى الفتة بالارز والمرق والاحلى من كل ذلك ان لنا لصينية ستطلع بين الصواني ..

ينطلق أذان العصر فجأة : « الله أكبر » ، يصيح الرجال في الطريق بخشوع : « الله أعظم والعزة لله » ، تصيح النساء العجائز داخل الدور وهن يبلبطن في المياه على ذمة الوضوء هاتفات من قلب موجوع حزين حزنا ابديا : « الله أكبر .. الله أكبر على من طغى وتجبر ! » ، ثم يلتحقن جميعا بالصلاة ..

أثناء صلاة العصر يشمل البلدة سكون خرافي تتردد خلاله اصوات تخرج من المساجد هادرة : « ربنا ولك الحمد » . يتغير منظر الشوارع تمتلىء بسحب الدخان المتصاعد من جميع الدور يركض تائها في الفراغ يتلاحم يدفع بعضه بعضا هنا وهاهنا يقيم هو الآخر مظاهرته الفريدة بما يثيره في الانف من روائح الشبع والجوع معا . سحب الدخان تتكاثر تنذر وفوده المتعاظمة بانفجار بركان من الحزن طال حبسه داخل الصدور .

تنتهي صلاة العصر فيدفق باب المسجد الى الشارع وفودا من الرجال وراءها وفود . لو كنا في غير هذا اليوم لتفرقت الوفود هنا

وهناك في الحوارى الضيقة أما اليوم فمعروف لديهم جميعا ان وراءهم « طلعة » لابد ان تكون مشهودة يسير في مشهدها كل من علم بأمرها لا يمنعه الا أن يكون قد مات لتوه مثلا • يتخذون وجهتهم نحو دار الميت يحثون الخطى • « رمضان الجميل » و « على حرفوش » و « عبده الجرن » و « سالم حشمله » ـ هم دائما ـ يتسابقون في الهرولة يتفادون الاصطدام بالناس بخطوات سريعة يسبقون الوفود ، التى تؤثر في العادة الوقوف في زمام الشارع العمومى مستندة الى الحوائط أو مقعية على الأرض • « رمضان » و « على » و « عبده » و « سالم » أول من يسرع بالدخول على الميت في مرقده قبل الأخير والكل ينظر اليهم بابتسامة رضاء واعجاب ، انهم من خيار شباب بلدتنا من أكثرهم تضحية وايثارا عند الملمات والكوارث حتى ان نسوان بلدتنا جميعا ما أن ترى الواحدة منهن واحدا منهم يمشى في الطريق حتى تنبرى داعية « لهم » بالستر وطول العمر اذ هى تتصور ان ظهور الواحد منهم يعنى انه ذاهب للجدعنة في عمل ما في مكان ما ربما لاطفاء حريق أو انقاذ بهيمة أو فض خناقة ، وقد تعود الجميع الخلط بين اسمائهم فما أكثر ما يخاطب الناس رمضان على انه على ! وقد تعود الشبان ألا يعنوا بتصحيح اسمائهم ••

تبرز الجثة من داخل الدار على أيديهم ممددة متخشبة بعدما افلح الشيخ « مرسى الخطيب » في ربط الكفن باحكام حولها ، في أعقابها يندلع الصوات من أعماق الدار في هجمة همجية مرعدة تندلع معها غابة من الاذرع السوداء تشوح رائحة جائية تدهن الفضاء بلون الصراخ والفجيعة • تبدو جثة الميت طافية في بحر الصراخ تعترضها أمواجه • أخيرا يتمكن الولدان الأربعة من الخروج ووضع الجثة في النعش فوق لحاف مطوى أعد لها • بسرعة ودربة يتقدم أربعتهم فيحملون النعش بأيديهم لوضع اكتافهم تحت أطرافه • غابة النساء المتشحات تزحف خارجة من جوف الدار كحيتان يدفعها

بحر الصوات المتلاطم الأمواج ما بين نواح ونحيب وجأر وندب عظيم ، يتعلقن بالنعش لا يردن له رحيلا ، يتوه الرجال يفقدون السـيطرة عليهن لا تنفع معهن الشتائم المغلظة لا ولا الدفع بالأيدى : يا نسوان يا كفره حرام عليكم ! يا خاله فلانه ميصحش ! يا خاله علانه عيب ! اتقى الله يا ام فلان ! ‥ ولكن دون جدوى ! بل ربما استطاع الرجال بشق النفس حفظ توازن النعش ومنعه من الوقوع ‥

يضيق الرجال الواقفون فى الشارع العمومى بطول استعدادهم للمشى منذ ارتفـاع الصوات • يرتفع أكثر من صوت يقترح بأن يرسلوا للنساء الحاج « عبد البارى خلاف » ! • هو من كبار الأعيان فى البلدة ابن عم العمدة رأسا لكن الناس تحترم العمدة اكرامـا لخاطره فحسب مع أنك لو رأيته دون أن تعرفه فستظنه رجلا قليل الأدب سليط اللسان غليظ اللفظ خشن المنظر ! فلقد يبدو هـكذا بالفعل لكننا نعرفه أرق الناس واطيبهم قلبا ! مهزار كبير ! حـلال بارع للمشاكل أكبر مشكلة واعقد خناقة يحولها الى نكتة ومسخرة يضحك لها الجميع حتى تصفو القلوب وتنمحى آثار الخـلافات ! فاذا تغـابى عليه أحد أو رفض مزاحه فيالواقعته السـوداء تختفى فى الحال شخصية « عبد البارى خلاف » الضاحكة لتحل محلها شخصية ابن ليل عات شرير نظرته توقع الفارس من فوق فرسـه كلمته الغاضبة موزونة تشرخ دماغ المتلامضين الاغبياء شخطته مرعبة لمن زلف لسانه بكلمة غير مقصودة فيها جرح له تهديده للشخص المتطاول المنفلت نذير بسوء العاقبة وعيده أمر بتحقيق المصير ! يشاع فى بلدتنا أن له جنودا تعمل فى السر من بلدان بعيدة لكن بعض الخبثاء يصححون الاشاعة بأن هـؤلاء الجنـود المسحورين هم أبناء اخوته واخـواته وهم عـدد يحتاج حصره لدفتر حصر كبير أمـا الطيبـون فيصححون التصحيح بأن أولاد العائلة – بكل صراحة يا رجال – كلهم مكتملو التربية اذا وضعوا على الجرح يطيب لكنهم جميعـا يقولون هـذه الـكلمة بخوف حقيقى تملقـا لتلك القوة الخفية فى شخصية الحاج « عبد البارى » ‥

يظهر الحاج « عبد البارى خلاف » يسحب عصاه التى هى فرع شجرة حناء غير مهذب . يتقدم من حشد النساء الصاخب يمد عصاه يزغدهن بقسوة واحدة وراء الاخرى ، من تأخذ منهن زغدة تصرخ صرخة ألم حقيقية ترتد بعدها نحو الدار لا تجرؤ على فتح فمهـــا بكلمة . فلما لم يبق الا القليل منهن متشبثات بالنعش صار يوجــه اليهن كلمات جارحة للحياء فى صيغة مزاح حاد تقشعر له الابدان ترتفع بسببه النبابيت وبمـــا البنـــادق لـو تفوه به أحد غير الحاج « عبد البارى خلاف » الذى لا يتورع عن توجيـــه نفس المزاح لأمه وزوجه ولأى مخلوق يشاء ! والكل يدرك أنه لا يعنيه حقا بل ربما ضحكوا بصوت عال فيما الحديث الجارح موجه لذويهم : لستن جميعا ايها النسوان الا أصحاب كهن ومهيصة كذابة ! اكان الميت اخا لكن يا قحباوات يا قليلات الدين !؟ محروقات انتن على الميت الى هذا الحد ؟! نحن أيضا رجال ونستطيع نسد العيون الفارغة ! هيا يا امرأة أنت وهى قبل ان اغرز هذه العصا فى .. عيونكن !! . فاذا هن لم يرتدعن فانهن اذن يتمادين حبا فى سماع كلامه الجارح صار ينقر بعصاه على أصابع المتشبثات بالنعش حتى تتراخى أيديهن جميعا ، فيروح يطوح بالعصا بحذاء النعش حتى يصـنع مســاحة فاصلة سرعان ما يحتلها الرجال وسرعان ما يمضى الولدان بالنعش يلتحق بهم الناس اثنين اثنين ثلاثا خمسا خمسا . يستقيم مشهد « الطلعة » فى الشارع العمومى يتعاظم كلمـا اوغل فى المضى حيث تنتظر الجموع على النواصى وأمام المساجد ..

عند سفح ملاصق للمقـابر يتوقف النعش فتتوقف الجمـوع يتفكك نظـــام الموكب يسيح الجميع فى الجميع والمقابر من خلفهم عالية كجبل داكن رمادى مطل على مزرعة تشغى بالدود البشرى . أمام النعش يتوقف الشيخ « عبد المقصود أبو غلاب » حامل شهادة العالمية من الأزهر الشريف . يصطف الجميع خلفه فى عدة صفوف . يرفع يديه بحذاء أذنيه ينوى الصلاة صائحا : « الله أكبر » ، فترتفع

من خلفه غابة كثيفة من الايدى بحذاء الآذان هاتفة « الله أكبر »، هذه هى صلاة الجناز لا يركعون فيها ولا يسجدون كما يفعلون فى المساجد لكن الشيخ « عبد المقصود » لاينى بين كل حين وحين يرفع يديه بحذاء أذنيه هاتفا فى تكرار ورصانة وتأكيد : « الله أكبر » ، فيفعل الجميع مثله حتى يتلفت بعد وقت ليس بالقصير الى اليمين مرة والى اليسار أخرى مرددا : « السلام عليكم ·· السلام عليكم » ، فيحمل الأولاد النعش ثانية ويصعدون به تلة المقابر ونحن العيال فى المقدمة دائما · عند مقبرة مفتوحة الفوهة ليتوقفون حيث يكون الشيخ « مرسى الخطيب » قد سبقهم وصار فى قلب الحفرة التى يتكوم على حوافيها التراب ، يمد ذراعيه على طولهما تنساب الجثة نحوهما مائلة بدماغها نحو فوهة الفسقية التى يتصاعد من جوفها مجهول غامض كئيب ومخيف · تغيب الجثة بداخلها · هنا ترتفع الصيحة الأخيرة من بكاء ونحيب مروعين يبدأها الشبان ثم ما يلبث ان يشارك فيها العجائز والعيال تصير مناحة كبرى تصدح فيها الاصوات بالأهاهات المتقطعة والعبارات الغامضة المتآكلة فيما يكون « عنتر » و « جنوم » و « زناته » قد شمروا عن سواعدهم وبالفئوس راحوا يهيلون التراب فوق الحفرة لتسويتها بالأرض وسط المظاهرة النائحة، الى ان يظهر كل من « عمر خطاب » و « عبد البارى خلاف » فينهرا الجميع ويذكراهم بالله وبأنهم مسلمون موحدون بالله ·· فتبدأ جموعنا تتساقط وراء بعضها متهاوية من ارتفاع التلة فى الحديرة الى السفح المتصل بأرض البلدة ، حيث تمتلىء الشوارع والحوارى كلها بالرجال والنساء والعيال يمشون فى ذهول شارد أسيف ··

يتفرق البعض الى بعض شئونهم يتجه البعض الآخر من فوره الى مندرة العزاء ، حيث جىء بحصائر اضافية فرشت على أرض الشارع استغدادا للطلعة الثالثة والختامية ، طلعة الصوانى ، وحيث جىء ــ كالعادة ــ بفقيه يقرأ القرآن من بلدة أخرى مجاورة مع ان فى بلدتنا فقهاء اشهر منه فى البلدان الاخرى واحلى صوتا وأجمل

ترتيلا . يجلس الفقيه الغريب في الداخل ينعم بالاشربة الساخنة والحفاوة البالغة في حين راح فقيه البلدة ولعله « مصطفى ناصف » ـ الذى سيعمل مساعدا للفقيه الغريب ـ يقرأ بصوته الرنان الخلاب والحضور يخيم عليهم حزن متجهم بغبار المقابر يبدو عليهم السأم لا يكفون عن انتزاع الساعات من جيب الصديرى والنظر فيهـــا خلسة ربما لتذكير الفقيه بأن وراءهم ـ صلاة مغرب ربمـــا احتاجت لوضوء جديد ..

أذان المغرب ايذان بطلوع الصوانى ، حيث يبدأ الصبايا من ابناء الدور البعيدة عن مندرة المعزى في الخروج ، تظهر طلائعهن تنشر فى الجو رائحة الطعام الساخن بالسمن المقدوح والتقلية ثم ما تلبث الطلائع ان تتكاثر وتتكاثر تخرج الصبية من دارها حاملة الصينية العريضة فوق رأسها تنضم لها ابنة الجيران ، كل مجموعة صبايا من حى واحد أو حارة واحدة يتجمعن ليمضين معا ، تمتلىء الشوارع والحوارى بهن زرافات ووحدانا بوجـوه صابحة كالورود واجساد تتلعبط تحت الصوانى فى حيوية مبهجة تتقابل جماعات الصبايا على النواصى وعند تقاطعات الشوارع ينضم بعضهن الى بعض تتعاظم جموعهن كأننا فى يوم عيد للصوانى تختال فيه الصبايا تتجه أطيافهن نحو مندرة العزاء يتوقفن على مقربة فسرعان ما تنضم اليهن جماعات قادمات من أطراف البلد البعيدة ..

يتجمع الرجال فى مندرة العزاء تفيض بهم يحتلون مســاحة الشـــارع على امتداد طويل ورهط الصــبايا متجمع فى ناحيتين متقابلتين . « ابراهيم الصــالحى » صانع البرادع الدرويش فى الطريقة الشرنوبية ، و « طاهر الجرف » تاجر الحبوب والقطن الذى حج الى بيت الله سبع حجات ، و « عبد القادر السعيد » الذى كان خياطا ونبذ المهنة واشتغل تومرجيا فى الوحدة الصحية .. ثلاثتهم ـ كالعادة دائما ـ يظهرون واقفين فى الشارع والباقى جلوس ، هم دون غيرهم كانما باتفاق سرى ارتضى أهل البلدة ان يتعاملوا مع

صباياهم وحريمهم حيث قد اشتهروا بحلاوة اللسان وعدم صدور العيبة منهم فضلا عن صلاحهم وحسن أخلاقهم وطهارة ذيلهم ، يختص كل من ابراهيم وطاهر بجانب فى حين يقف عبد القادر فى المنتصف ، يذهب الواحد منهم الى حيث تقف الصبايا ، فما يكاد يقترب من الصبية حتى تهبط هى فى الأرض قليلا فيحمل عنها الصينية بين يديه يمضى بها فى حذر يسلمها لعبد القادر هامسا باسم صاحبها ، فيمضى بها الى حيث يجلس صاحبها فيضعها أمامه ومن بجواره . ليس كل من ها هنا جاءته صينية باسمه من داره لكن الجميع ها هنا لابد أن يأكلوا ولابد لأهل الميت أن يأكلوا معهم حتى الشبع على الأقل مجاملة للصوانى . يحط على البلدة كلها صمت ونيس تتخلله أصوات المضغ الجماعى ورشف الشوربة وبرطمة بعض الآكلين وهم يستحثون بعضهم البعض على مزيد من الأكل ..

تبدأ طلائع الشبعانين خارجة على امتداد الصوانى الى بقعة خلية حيث يوجد طست نحاس يرتفع من وسطه قلب هرمى مخرم بخروم دقيقة له رأس مستوية بحواف توضع فوقها صابونة ، وثمة شاب لعله « رمضان » أو « على » يقف أمام الطست ممسكا بالابريق النحاس المملوء بالماء ، يتقرفص الرجـل أمام الطست ممســكا بالصابونة يمررها بين يديه والماء يسيل عليها من بزبوز الأبريق .. ثمة طسوت وأباريق أخرى كثيرة هنا وهناك . فاذا فرغ الرجل من غسل يديه وفمه نهض ليجد فى انتظاره من يقدم له الفوطة ليجفف يديه بها . ثم تبدأ عملية رد الصوانى ، حيث يشرع كل من « طاهر الجرف » و « ابراهيم الصالحى » فى تزويد « عبد القادر السعيد » بها ، اذ يمسك بالصينية مناديا اسم صاحبها أو اسم ابنه الكبير أو اسم الصبية نفسها ان كان مقربا من أهلها وذا عشم ..

ننطلق نحن العيال فى أثر الصوانى عائدين الى دورنا مسرعين لعلنا نصيب شيئا مما تبقى على الصينية من لحوم نتناوله على عجل

ونحن نمنى النفس بليلة ولا كل الليالى ، تضـــاء فيها الشوارع بالكلوبات المبهرة الضوء يرتفع صوت الفقيه القارىء بكلمات حميمة دافئة نتبين فيها كل نفس ذائقة الموت ويا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الىٰ ربك راضية مرضية ·

٢ ـ الغنـــوة

.. تذكرت ان خبر وجود عزرائيل فى حارتنا قد بلغنا أصيل أمس ، حينما عوى كلبنا فوق السطح عواءه ذاك المقبض المطوط المرتعش بالخوف واليأس والمواجهة ..

اذ ذاك انقبض وجه أمى وصاحت فيه بغيظ حاد :

ـ امشى داهية تاخدك !

ثم أخذت تتطير قائلة : « يا ترى انت رايح لمين فى الحارة ؟ » . ارتعد بدنى كله لحظتها . قلت لها :

ـ « هو مين يا امه ؟! » ..

قالت كأنها غائبة عن الوعى :

ـ « سيدى عبد الرحمن ! » ..

قلت لها وقد رحت أنتفض :

ـ « سيدى عبد الرحمن من ؟! » ..

ـ « عزرائيـــل ، الذى يقبض الأرواح ويعود بهـــا للذى خلقها !! » .. صارت أسنانى تصطك ببعضها ، أحاول القول :

ـ « ا .. يـ .. ــه .. عرفك انه هنا فى الحارة ؟! » ..

قالت :

ـ « عواء هذا الكلب الملعون ! انه لا يعوى هكذا الا حين يرى

عزرائيل ! فالكلب هو الوحيد الذى يرى شخصية عزرائيل قابض الأرواح فيرتعد فيعوى هكذا !! » ··

ثم انتبهت أمى الى أنها تكلمنى ، فانزعجت فجأة وبدا أنها تضايقت منى ! فلكزتنى فى جنبى برفق صائحة :

« انت لمض ليه وتحب كتر الكلام ؟! » ··

ثم صرفتنى ·

فى حضن عزرائيل !

أدركت الآن ان علم أمى بخبر وجود عزرائيل فى سماء حارتنا منذ الأصيل هو الذى جعلهـا تقضى الليل ساهرة فى انتظار اعلان وصوله بين لحظة وأخرى من أى دار فى الحارة علم الله أى دار تكون ! وهى لابد قد رشحت فى ذهنها بعض ناس من جيراننا لاستضافة عزرائيل الليلة · وكان من الواضح أنها ترشح ناسا آخرين درءا لخاطر ان تكون دارنا والعياذ بالله ــ الشر بره وبعيد ــ هى المرشحة لهذه الضيافة المفروضة بأمر من الملأ الأعلى كما يردد أبى دائما · ثم ان أمى ككل الأمهات فى بلدتنا تحب أن تشارك فى حمل المصيبة عن أصحابها خيرا من أن تكون هى المعنية بها ··

ليلة أمس صحوت على صوت ملتاع شق جسد الليل الصامت ومزقه عدة مرات متتالية بدا فى كل منها أنه يلفظ النفس الأخير ، ثم كف تماما ليحل محله طنين الصمت مختلطا بنقيق الضـفادع وصفير الصراصير · ولم أكن أعرف ان كنت قد سمعت الصـوات حقا أم خيل لى ذلك بفعل الخوف من وجود عزرائيل فى سـماء حارتنا ، الذى نام بجوارى ؟ لحظتها كانت ثمة يد تتجول تحت ابطى وحول ضلوعى عرفت أنها يد أمى تفلينى من القمل والبراغيث التى تسكن أجساد كل الولاد فى بلدتنـا ويقول الولاد ان الملك نفسه فيه قمل مثلنا · وكانت أمى تتمتم بكلام غامض هامس ، فانتفضت جالسا ·

قالت أمى بخوف مفاجيء :

ـ « مالك يا ولد ؟ » ..

قلت :

ـ « عايز أشرب » ..

تناولت القلة من صينية القلل الموضوعة فوق كرسى عباسى مجاور لأجسادنا المنطرحة فوق أرض المقعد المبنى بالخشب البغدادلى فوق سطح دارنا لننام فيه صيفا . أسندت القلة بين يدى الى ان كرعت وأغرقت ثيابى . قالت وهى تعيد القلة لمكانها :

ـ « بتترعش كده ليه يا ولد ! باسم الله الرحمن الرحيم ! » ..

قلت :

ـ « أنا كنت سامع صوات قريب من ودانى » ..

قالت فى تأثر شديد :

ـ « دى ست الحسن باين عليها ماتت ! مسكينة ربنا ريحها من الغلب ! نام انت مالكش دعوه ! » ..

فتلاعب النوم بى وقتا طويلا قلبنى فيه على الجنبين ونشط جيوش البراغيث والأكلان فى جسمى رغم نشـاط يد أمى . تأكد لى أن هذه الهزهزة والنهنهة العنيفة هى بكاء أمى المكتوم ، فأصابنى قلق فوق قلق ، وقلت فجأة :

ـ « امه هى ست الحسن تقرب لنا ؟ » ..

مرة أخرى انزعجت أمى من صيحتى المفاجئة فلكزتنى قائلة :

« لا .. لكنها غلبانه ووحدانية ! العيا نحل وبرها ماخلاش فيها ! » ..

ثم أعلنت بكاءها ولكن بصـوت خفيض حتى لا يصحو أبى

وأخوتى قبل الأوان خاصة أن أبى المدرس وراءه حصة أولى • وعندما كان النوم يغلق على جفنى آخر أبوابه ويغيب بى فى جب الظلام اللانهائى كنت لا أزال أحس بيد أمى وهى تنسحب من تحت ثوبى ، وبأمى وهى تنهض واقفة وخطواتها تدب الأرض فى اتجاه الباب ، وبصوت الباب وهو يفتح ويغلق وراءها ، فأيقنت انها ذاهبة للتأكد من أن عزرائيل تجاوز دارها الى دار أخرى وان كانت لصـــقها مباشرة ! •

المعلم حزمبل

تذكرت هذا كله دفعة واحدة فيما أنا مقبل والعيال من المدرسة قرب الظهيرة ، اقترب من حارتنا منتشيا بأننى قد انعتقت من بقية اليوم الدراسى ، وبأننى فى غد سوف أظل نائما حتى شروق الشمس وسوف أنتشى بمهرجان صلاة الجمعة والغداء جماعة مع أبى وأخوتى نتحلق الطبلية حول مرق وثريد ومنابات من لحم الكرشة والفشة والصليبة أو السـمك الشر • ولم أكن أعرف ان اليوم يدخر لى مهرجانا آخر تعودت وصحبة العيال ان نفرح به أيما فرح ولكن دون أن نظهر ذلك لأهلنا أو لأى أحد من الكبار ••

التجمع الحزين المهيب ماثل أمام عينى تقشعر منه أطرافى كجيوش نمل تروح وتغدو داخل عروقى • انخطفت خطفة مفاجئة انتبهت الى ان جميع العيال المتجمعين من أولاد حارتنا • كأننى أفتح عينى لبرهة وجيزة أثناء الاستغراق فى حلم تبينت ان هذا المنظر يقوم فى نواحينا ، فى قلب الحارة الملتصقة بحارتنا ••

هى حارة تلتصق ظهور دورها بظهور دورنا التصاقا مباشرا نعيش مع أهلها ويعيشون معنا فى كل صغيرة وكبيرة ومع ذلك فاننا اذا أردنا دخول دورهم من أبوابها فلابد ان نمشى مسافة طويلة وتلف من آخر الشارع لنعود القهقرى من الشارع الجديد لنصل الى

الدار التى نريدها ، ويحلو لنا ولعيال الدور الملاصقة لنا من الخلف ان نتبادل الزيارات نعاكس بعضنا بعضا من خلل السطوح ، وبعض سطوح الدور متساوية ، فبقفزة ساتر طينى أو عبور فتحة سلم نصير في الدار الملاصقة • أخبار الحب والغرام بين هذين الشـــارعين المتباعدين تقربها السطوح ، وان باعدت بينها الجدران والأبواب ، وتنميها ، فان الأخبار الواردة عبر الأسطح لهى فى العادة أدق الأسرار وأكثرها اثارة وسحرا ودفعا للتصديق ! ••

الجمع كان على أول حارة نافذة الى الشارع الخلفى ، وكان مجهول العائلة رغم كثرة الجلوس ، ليس فيه تظاهرة عائلية توحى بمقدار الميت وجلال شأنه ••

تلكأت فى السير ومخلاة الكتب والكراريس مشنوطة فى كتفى وانى لأحبها وأحب ان يرانى بها عيال حارتنا الذين لا يذهبون الى المدرسة مثلى لأن آباءهم ليسوا مدرسين كأبى وليسوا يحبون وجع دماغ المدارس الا ان العيال ينظرون الآن الى مخلاتى بحسد اذ انها تقربنى درجة من مرتبة الرجال وتعطينى الحق فى اقتحام الجمع واجباره على الوقوف لى واستقبالى ، لكننى لم أكن لأجرؤ على ذلك أبدا • اننى فقط مغرم بالفرجة على ما يحدث ، ومغرم كذلك برؤية ناس تعودت ان أحبهم الحب كله ، يفعلون أشياء تعودت أن أحبها الحب كله ••

المعلم « حزمبل » أول من ألقاه على مدخل حارتنا ، الوحيد الذى يشذ عن هذا التجمع فيجلس وحده على عتبة داره ، التى تجعل لحارتنا شكلا لطيفا دون بقية الحوارى ، اذ هى خارجة عن جدران دور المدخل وبابها فى الصدارة مفتوح على الدوام فيبدو وكأنه مدخل حارتنا ، كثيرون من الأغراب القادمين لأحد فى حارتنا يستخفهم حماس المشى فيدخلون من هذا الباب وهم لا يظنون أنهم اقتحموا حرمة دار ، لا يوقفهم الا صياح المعلم « حزمبل » المستهجن الصارخ ، أو قد يدوسون على فراخ وبط وأطفال زاحفة ، ثم يواجههم باب

قاعة مفتوح على نيام ، فما يلبث الداخل حتى يرتد فى الحال وقد صار فى نصف هدومه من الخجل والتورط : استغفر الله ! استغفر الله ! عدم المؤاخذة يا جماعة ! ثم يخرج ليجد الشارع العمومى قد صار فى مواجهته تماما ، فيستدير فى ارتباك ، وغالبا ما يشير له « حزمبل » الى فتحة الحارة وهو يبتسم فى مرح ، فيمضى لينحرف خلف دار « حزمبل » قليلا ثم يكسر يسارا ثم يواجه بامتداد الحارة ، التى يسكنها رهط عظيم من الأقباط الذين اذا حلفوا بالمسيح الحى صدقتهم أمى واذا حلفت أمى بأشرف خليقه الله محمد صدقوها تماما وأمنوا على كلامها ..

معظم رجال الحارة يجلسون الآن مع الناس لاشعار أهل الميت أنهم جميعا تحت أمرهم فى أى طلبات أو خدمات ، لا نكاد نعرف المعلم « عزيز عبده » ؟ من الحاج « عرجاوى » ، ولا المقدس « جرجس غطاس » من الشيخ « عبد الباسط بقوش » ، كلهم نفس السحنة ونفس الجلباب ذى الأكمام الواسعة وكلهم فيهم عوجة لسان بلدتنا وميلها نحو النطق العربى الفصيح المنحرف عن الاعراب قليلا ..

أنما المعلم « حزمبل » الذى يبدو الآن جالسا معهم نظرا لامتداد الجلسة من أول الناصية حتى منتصف الحارة ، هو فى الواقع جالس وحده مندمج فى شغله . هو يشتغل فى البوص ، يستجلبه من على شوطىء القنوات والأحراش البعيدة ليمزق كل بوصة ـ وهى خضراء ـ الى شرائح رفيعة يجدل منها السلال والأسبتة . مدقق هو فى مسائل الحق وكلمة الحق ، حقك وحقى ، والصراحة ما أحسن منها ، للأعور يقول ـ فى عينيه ، انت ـ عدم المؤاخذة ـ أعور . الناس فى بلدتنا ـ لا أدرى لم ؟ ـ يطلقون على كل قبطى لقب المعلم ، « وحزمبل » فى الأصل مسلم ، ويسكن مثلنا فى قلب الأقباط مثلما هم يسكنون فى قلبنا الحيط فى الحيط والقلب فى القلب ، لكن أهل بلدتنا يطلقون على « حزمبل » لقب المعلم لأنه يتشبه بأقباط بلدتنا فى الأمانة وحسن الخلق وطيب العشرة

والحرص على الجيرة • ويقال ان « حزمبل » ليس اسمه الحقيقى ، وانما أطلق عليه أيضا لأنه كان يذكر الناس بشيخ متزمت يدعى الشيخ « حزمبل » كان يفتى بأن « نعيمة » بائعة افجل اذا نادت على فجلها بصوتها فى الشوارع فى رمضان فنداؤها يفطر الرجال !! •

سبع صنائع فى يد « حزمبل » لكنـــه شحاذ على الدوام ، لا يبدو عليه الخير أبدا ، فالقميص العبك واللباس أبو دكه لا يفارقان جسده صيفا أو شتاء • يقال انه يصرف دخله على الأفيون والحشيش والسجائر اللف • يتطوع بادارة طلمبة مسجد الجرانة حيث يمسك بمقبض طارة فى حجم طارة الساقية ، يديرها لتشفط الماء من آبار ارتوازية تحت الأرض ، عليه أن يملأ الصهاريج المبنية بالأسمنت المتدة بطول مترين وارتفاع متر ، وتنزل من أسفلها حنفيات متراصة على الجنبين ، فى نظير ان يخصص له أهل الحارة والحى جعلا عند الحصاد ، يطلق أولاده يجمعون له أخبار النوارج ، يعرف ان فلانا سيذرى قمحه غدا ، وان علانا لم يضم بعد ، المهم أنك عند التذرية تجده واقفا أمامك بكرشه الكبير الذى يشلح قميصه ، وعصاه التى كانت فرع ورد ، فوق رأسه طربوش مغربى هرمى الشكل أحمر ممتهن بزيت العرق والغبار ومنجعص مع ذلك فى خلفية الرأس الصلعاء جعصة بلطجى زلنطحى خفيف الظل ، لا يتكلم كثيرا ، لكنه اذا أسند عصاه فى الأرض وأراح ذقنه عليها ومد بوزه نحو المتكلمين بلت على وجهه أفصح العبارات وأحكم الحكم ، مع خبث شـــديد لوضوحه تضحك له كثيرا فتقره وتعترف بأحقيته فى أن يأخذ منك ما يريد ، خاصة وانك فى الأصل لا تعامله باعتباره أجيرا يطالب بأجره أو بائسا ينتظر حسنة ، والا أفسدت الحسنة من أساسها ، انما أنت تعطى هذه الحسنة للمسجد زكاة عن محصولك ولا بأس عندك من أن ينالها من يعـــرق فى استحضار ماء للوضـــوء ، ثم ان معظمهم يستحم فى المسجد لاسيما بعد ليلة السوق أو ليلة الخميس ، حيث يكثر الانتظار أمام « محلات الأدب » المغلقة على من بداخلها ، ويكثر النقر على الأبواب من الخارج استحثاثا لهم على الخروج قبل

فوات الصلاة ، والكل يعرف أن من بالداخل يستحم متطهرا من رجس الأمس الذىَ يرددون آسمه أمامنا فلا نعرف معناه ولا نعرف لماذا يقع هذا الرجس فى ليلة الجمعة وليلة السوق بالذات • الكل يعذر الكل ولكن لفظة « أحم » تظل تنطلق من الداخل بغلظة وسماجة مغيظة حقا • والكل على الميضأة يفاجأ ساعة الذروة ـ خاصة عند صلاة الجمعة ـ ان المياه ضعيفة جدا تنزل من الحنفيات كالخيوط الواهنة ، عندها تبدأ الأصوات فى لعن المعلم « حزمبل » ، وتضغط على لقب المعلم هنا كاشارة خفية خبيثة الى أنه باعتباره معلما فهو ضد الصلاة !! وهو يقصر في ملء الصهريج ! • يتذكر الجميع وقفته عند الحصاد كأى دائن ، وشغلة البوص هذه التي لابد ان يخير نفسه بين أن يتركها ويتفرغ للطلمبة أو يترك الطلمبة لخادم آخر متفرغ لها ، وعليه أن يفهم هذا من تلقاء نفسه ويشم ! ••

لكن الذين يختشون ـ مع الأسف ـ قد ماتوا • هكذا يفتى سيدنا الشيخ « جمعة » فقيه الكتاب ، الذى يتوضأ على حس الفرض الواحد عشرين مرة على الأقل بفعل الوسواس الخناس الذى لا يسمح له ان يوسوس فى صدره أثناء الوضوء فيظل يصده بالعياذ بالله عشرات المرات يعيد بدء الوضوء أثر كل عوذة ، الى أن يتأكد من اختفاء ابليس من ذهنه فيعتمد الوضوء الى النهاية ! • وابليس هذا هو أى فكر أو خواطر تطرأ على ذهنه وهو يتوضـــأ فيما عدا التفكير فى ذات الله والتيقن من الخشوع له لحظة الوضوء • نفس ما يوصينا بفعله عند الوضـوء وعند الصـلاة ، فى كتابه الكائن لصق دار « حزمبل » مباشرة ، اذ ان « حزمبل » يعتبر شقيقا للشيخ جمعة ولكن من أم أخرى وكانت دارهما فى الأصل دارا واحدة قبل أن يموت الأب ويتنـــازع الأخان على الدار فيستقل « حزمبل » بهذا الجزء منها ويفتح فيه هذا الباب الغريب ، واذا كان الشيخ « جمعة » يحلف عند انفعاله بطربة أبيه فان « حزمبل » يحلف عند انفعاله بحياة أمه « جل الخالق » رغم أنه ورث عن أبيه دارا ولم يستفد

من حياة أمه بشيء ٠٠ يوصينا الشيخ « جمعة » تلك الوصية فيما هو ممسك بالمقرعة ونحن جلوس على الأرض نرتعش في حيرة وذهول. اذ اننا لا نعرف بالضبط كيف يمكن للمرء منا أن يتمثل ذات الله فلا يفكر الا فيها لمدة تزيد عن ساعة زمنية هي عمر كل صلاة ، فما بالك بالخمس ! وما بالك بالذين يمسكون بالمسبحة ليل نهار يتمثلون ذات الله ويتفكرون في جبروته مع كل حبة تلمسها أناملهم قبل أن تسقط الى شقيقاتها في جب لا نهائي ! ٠٠

في العادة ينتهي الأمر بأن يتطوع واحد أو أكثر من شباب المصلين فيتعلق بطارة الطلمبة ساعة أو ساعتين ينوبه ثواب ٠ والمعلم « حزمبل » يعرف أن الأمر سينتهي على هذا النحو ، ولذا فهو يغيب عن الطلمبة مطمئن البال ، ولديه الرد جاهز على الدوام : ربنـــا يجعلنا خداما للواجب ٠ ذلك أن « حزمبل » مكلام ، اذا فتحته في الكلام لا يسكت الا أن أسكته بأي شـــكل ٠ لكنك في العادة لن تسكته ، الا انه سيفجأك ببعض المعلومات المبهرة ، أو ببعض الحكم المفيدة ، أو الأمثال الشعبية الرادعة ٠ لا تسل كيف وردت اليه هذه المعلومات وهذه الحكم ، فلقد انتهى القوم من بحث هذا من سنين طويلة ولم يتوصلوا لشيء محدد قط ، حتى عمره لا أحد يعرف له تحديدا صادقا ، ويقول الرجال الكبار انهم « طلعوا » على الحياة فوجدوه هكذا لم يتغير ولم يتبدل ! ٠٠

على قدر ما نـــراه هزأة لا حق له في الاحترام أو التوقير نراه في لحظة أخرى فيلسوفا حافيا أو ساحرا مغربيا ٠ ومهما هزأه الناس فانهم لا ينسون له فضل افحام الشيخ « جمعة » فقيه الكتاب حينما سأله عن معنى الحنفية ، في جمع من المتسامرين على مصطبة دكان « حمادة » تاجر الحبوب المواجه لحارتنا في الشارع العمومي ٠ يومها قال الشيخ « جمعة » محاولا السخرية من « حزمبل » الذي لا أحد يعرف انه شقيقه الا أبناء حارتنا ، ان الحنفية معناها الصنبور الذي ينزل منه الماء حينما ندير محبسه ٠ قال « حزمبل » متجاهلا

سخريته : فلماذا سمى الصنبور بالحنفية ؟ • فحار الشيخ « جمعة » جوابا ، وتلجلج ، فقال المعلم « حزمبل » ان الخواجات لما اخترعوا هذا الصنبور ــ وينطلق حرف الصاد مخففا بين الصاد والزال راسما في الذهن اسما قبيحا لشيء قبيح ينفجر له الجميع ضاحكين بعمق فيما يرمقونه بنظرات لاعنة ــ أردنا نحن يا أولاد العرب ان نستخدمه مثل الخواجات المتقدمين ، فأفتى علماء الدين ــ على كل مذهب ــ بأن هذا لا يجوز شرعا ، لأن سنة الوضوء أن تأخذ بيديك من بئر أو ماعون وتغتسل ، والنبى عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام لم يعرفوا الوضوء من الصنبور ، وكانت مشكلة كبيرة ارتطمت لها أدمغة الحنابلة بالشافعية بالمالكية وكلهم رفضوا جواز استخدام هذا الصنبور ! اما أتباع مذهب أبى حنيفة فانهم قد أفتوا بجواز استخدامه لأن الحل الوسط جاهز دائما فى أيديهم ، اذ قالوا فلنترك الماء ينزل من الصنبور فى ماعون ويغرف المتوضىء من هذا الماعون ، ولأنهم أغلبية فان استخدام الصنبور قد شاع وأطلق الناس عليه اسم الحنفية نسبة الى أتباع مذهب أبى حنيفة الذين أفتوا بجوازه ، ومن هنا بنى تحت كل صنبور حوض ••

يومها انسحر الجميع بهذه الحكاية وانفرجت أساريرهم من فرط الشعور بالامتنان والبهجة لهذه المعلومة التاريخية النيرة • لكن أحدا منهم لم يكن ليصدقها وان أعجبته ، لولا أن بعضهم على استحياء وتردد اعادها فى صلاة الجمعة على مسمع الشيخ « عبد المقصود أبو غلاب » حامل شهادة العالمية من الأزهر الشريف ، فاذا به يؤيدها بكل حذافيرها ويصف « حزمبل » بأنه ضرس عجوز لديه الكثير من المعرفة والمعلومات ! •

اخترقت المنظر متوجها الى دارنا الكائنة بعد حودة كبيرة ، المتميزة بكونها من طابقين ، واحد أرضى من الطوب النيىء والثانى من الخشب البغدادلى يسمى المقعد ••

لم أجد فى دارنا أحــدا ، فرميت المخلاة وخلعت الحــذاء

الكاوتشوك الأبيض والثوب النظيف ، ولبست الجلباب القديم ، فتحررت بذلك من قيود كثيرة · في الدهاليز الجوانية كشفت غطاء الصحارة الخشبية وأخذت منها رغيفا صرت أقضمه · فوق الفرن رفعت غطاء حلة فوجدت تحته بيضة مشوية وباذنجانة محدقة ، فعرفت أن ذلك هو غذائى تركته لى أمى قبل ذهابها الى دار الميت · أكلت حشرا لكى أخرج بسرعة حتى لا يفوتنى شيء مما قد يحدث ··

لما رفعت قلة الماء لأشرب تذكرت سيدى « عبد الرحمن عزرائيل» الذى كان فى حارتنا ، وفزعى ليلة أمس · ثم تذكرت أن « ست الحسن » هى التى ماتت ، فارتعدت هذه المرة وأحسست اننى يجب أن أبكى أو افعل شيئا يدل على اننى حزين بالفعل من أجلها ··

« ست الحسن » اذن هى التى ماتت اليوم !! ياله من خبر يستحق ان أنزعج منه · طاف بذهنى موكب من وجوه عيال حارتنا وقد بدا عليهم الحزن والبكاء رغم اننى رأيت بعضهم منذ برهة يجرى ويلعب ضاحكا صاخبا ! أتراهم لا يحبونها مثلى أم أنهم لم يعلموا بخبرها بعد ؟! · أما أنا الذى أعلم منذ الأمس فما بالى لم أبك ؟! ألأن أحدا لم يشجعنى ؟ ربما ·

الدار المضيفة

دار « ست الحسن » ملاصقة لدارنا من الخلف ، لهـا جزء كالسرداب يلتف حول دارنا لينتهى بباب يفتح فى حارتنا · نعتبرها من سكان حارتنا بموجب هذا الباب رغم انه لا يفتح أبدا ، وتعتبر نفسها من أهل الحارة الخلفية لأن الباب الكبير لدارها يفتح عليها وهى تستخدمه على الدوام · أستطيع أن أقف على سرير أمى ذى العمدان الحديد والعساكر النحاسية وأنظر من الشباك فأرى دارها بكل ما فيها من خلال فنائها غير المسقوف : القاعة التى تنام فيها هى وزوجها « عز الرجال خلاف » ذو العين الواحدة ، والخزنة التى

تضع فيها الكراكيب والمعاش وينام فيها ابنها « سعد المجلى » الذى أنجبته من زوج سابق يدعى « رجب المجلى » • وكان « رجب » هذا قصير القامة ربعة لا يحب الشغل ولا وجع الدماغ ، يقضى يومه متطفلا على مجالات المصاطب والقعدات التى ينصبها الناس لأنفسهم فيأكل أكلهم ويشرب شايهم سفلقة دون أن يشارك بأى شىء ، ولهذا أسموه « بالمجلى » يعنى — كما يقول أبى — المتطفل على المجالات بغير لزوم • أما اسمه الحقيقى ف « رجب ربيع » •

ويقول رجال حارتنا ان « ست الحسن » هى التى طلقت زوجها هذا طلقة بائنة يوم رمت يمينا بالطلاق من ذراعها الا يدخل بينها الليلة ، فلم يدخله بعد ذلك أبدا !! •

لكن عجائز حارتنا الهتماوات يقلن ان « رجب المجلى » طفش من « ست الحسن » لأنها لم تكن ترضى له فى الفراش ولهذا لم تنجب منه غير ابنه « سعد » ، وقد خرج أبوه يطلب الرزق لدى أهل له فى بلدة بعيدة ومن يومها لم يعد ، ولا أحد يعرف ان كان قد طلقها لدى مأذون شرعى أو بينه وبين نفسه لكنها تزوجت فى النهاية من « عز الرجال خلاف » الأعور على يد مأذون شرعى مثل كل خلق الله • وقد أكدت لى جدتى « معزورة » وهى تسبح بالمسبحة أن « ست الحسن » كانت تحب « عز الرجال خلاف » منذ صباهما لكن النصيب رماها على المجلى وبقى « عز الرجال » بلا زواج فلما رآها قد انفصلت عن زوجها تقدم لها ففرحت به وتزوجته بدون قبد ولا شرط •

فرعان من الصبار

ليس فى « ست الحسن » شىء من الست ولا من الحسن • هى مجرد جسد أعجف مصلوب تحت جلباب من الشيت الكحلى الغامق لا يبلى أبدا ولا تخلعه قط ، وقد بات من طول عشرتها يحمل شكلها ويصعب عليه أن يترك جسدها للعرى • وجهها استغفر الله

العظيم ، مأنذا يقشعر بدنى اذ أتذكره الآن رغم اننى لم يكن يحدث لى ذلك • وجه مفقع يبدو كالرغيف اليابس قرضه فأر ، ويبدو كأن ثمة من نقرشه بشعلة سيجارة فصنع فيه ثقوبا ضامرة كحبيبات الزبيب ، عند غضبها يصير كالكرة التى نصنعها من طربوش قديم محشو بالخرق نضربها بأقحف الجريد ونسميها لعبة « الحكسة » ••

ضحوك هى وودود وأليفة وغلبانه • هى الوحيدة بين نساء بلدتنا لا تغطى رأسها بشماش أو بأى شىء ، ولا تستحى من ذلك قط ، ولعلها لم تكن تحتسب نفسها من بين النساء أصلا • اذا استعدت للعراك تغلب شارعا بأكمله ، بالشتائم وحدها ، أقذر شتائم وأطرف زعيق • الكل يسمع منها شتيمته بأذنه فلا يأبه بها أو يرد عليها ، لأنه فى الحقيقة لم يفهم من زعيقها المتواصل أى شىء وانه كان قد ميز بعض الكلمات • أما ان تعاركت مع ابنها « سعد المجلى » سبت له قلة أصله وخسة أبيه ، حتى ليغلق الولد على نفسه خزنته ويتركها تعوى • وان تعاركت مع زوجها الحالى « عز الرجال خلاف » سبت له الأخضرين وعيرته قائلة : « يا أعور العين يا منجوس » • فيرد عليها قائلا بلسانه الألدغ : « اسم الله عليكى يا صفره يا أم عله » ، ثم يظل طول الليل يندم على الكلمة فلا يفيده الندم ولا يغيثه من صوتها وهياجها سوى ان يخرج بحرامه الصوفى العتيق لينـام فى مسجد الجرانة يوما أو يومين يعود بعدهما الى زوجه من جديد حاملا لها شيئا تطبخه ، وبذلك تنتهى المشكلة كأن لم تكن ، لكن « ست الحسن » تظل بعدها أياما تعدد للجيران ميزات « عز الرجال خلاف » وطيبة قلبه وتشرح لهم كراماته التى رأت منها الكثير باعتباره من أهل الله المجاهدين فى سبيله يظل طول الليل يقرأ « الورد » ويعيده ••

الا ان عودة « عز الرجال خلاف » لـ « ست الحسن » بعد كل مرة يهان فيها تظل موضع سؤال والحاح من جانب الرجال الملازمين على الدوام • يقول المعلم « حزمبل » انها تملك سقفا ينام تحته

ويدا تغسل هدومه وتطبخ له اللقمة . فتقول جدتي « معزوزة » حين يبلغها هذا الرأى على مصطبة دارنا فى أعماق الحارة :

« عز الرجال خلاف لا ينقصه السقف ولا غسل الهدوم ! » ..

وانها لصادقة ، ف « عز الرجال خلاف » لا يهمه أن ينام فى زاوية أو مسجد أو حتى فى الشارع تحت حائط ..

« عز الرجال خلاف » له أكثر من شغلة هو الآخر . انه فى الأصل فلاح اجرى ، لكنه منذ التحق بخدمة شيخه « مدحت الشرنوبى » وكان صبيا صغيرا ، ومنذ أخذ « العهد » على يديه وكان شابا يافعا ، أصبح خادما فى الطريقة الشرنوبية لا يبرح مكانها الذى يتحدد بوجود الشيخ اينما حل . الشيخ يحبه وكل رجال الطريقة يستسهلون طلب الأشياء منه ، ربما لحلاوة اسمه وسهولة كلمة هات كذا يا عز الرجال ، و « عز الرجال » يطلع ينزل يخدم بكل صدق واخلاص ومزاج اذ ان الخدمة أمر محبب اليه ، يمسك بالمقطف الحافل بأنصبة اللحم التى يوزعها النقيب على الذاكرين ليلة الحضرة ، يجهز مائدة الشيخ ، يوصل أولاده الصغار الى المدرسة ، يعود بهم آخر النهار ، يشترى طلبات الشيخ والمريدين من الدكاكين والأسواق . لأمانتهعينه الشيخ مسئولا عن الاعلام والشارات والسيوف الخشبية والطبول التى تخص الطريقة ، يتولى نقلها الى الموالد فى رحاب البدوى والدسوقى والحسين والقنائى وأبى العباس والقبارى وكافة الليالى التى يقيمها أهل الله لأهل الله ويدعون اليها الطريقة الشرنوبية لاحيائها بذكر الله ، وما أكثر محبى هذه الطريقة فى بلدتنا فضلا عن مريديها وخدامها ، يتولى توزيعها على الذاكرين ، يتولى نصب السرادق واستلام الشقة المؤجرة لنوم الشيخ واجتماعاته وسرحاته الذهنية ومجاهداته ..

شدة قرب « عز الرجال خلاف » من الشيخ أعطته حقوقا كثيرة

لا تمنح الا لمن هم على مرتبة مجالسته ومبادلته الحديث ، هؤلاء هم الذين يقودون مجالس الذكر ..

شـــاهدته بعيني ذات حضرة أقيمت في دار « المصيلحي » بحارتنا واستضيف فيها الشيخ ، حيث اصطف الذكرون للـذكر في صفين طويلين بعد ان شبعوا من الأكل . ومر « عز الرجال خلاف » حاملا الشاى للشيخ في الداخل فرآهم ينتظرون . فتأمل حواليه ، فوجد ثلاثة من نواب الشيخ يتعازمون على الامساك بالطبقة ـ طبقة الذكر يعني ـ هذا يقول لزميله من باب التبجيل والتوقير : تفضل يا فلان أمسك الطبقة ـ أى تفضل وأمسك بقيادة الذاكرين . فيقول هذا في توقير أكثر . لا والله ما يصح ! تفضل انت ! . وعاد « عز الرجال خلاف » من الداخل وذهب للاتيان بطلب آخر للشيخ ثم عاد فوجدهم لا يزالون يتعازمون والذاكرون واقفون ينتظرون . فما كان منه الا أن ترك ما في يده واخترق صف الواقفين بكل بساطة فصار يتوسط الفراغ بين الصفين المتقابلين ، ونقر بكف يمناه على كف يسراه في ايقاع هادىء ومتزن . صائحا في تنغيم رصين « الل .. ا .. ا .. ه » ، فاذا بالصفين ينحنى رجالهما في الحال الى الأمام ثم يعتدلون صائحين بنفس النغم الرصين : «الل .. ا ..». ثم انه أخذ يكرر الانحناءة والتصفيقة والترديد وهم يكررون خلفه ، كل مرة يعلو فيها النغم شيئا فشيئا وتضاف الى الأجساد حيوية أكثر . شيئا فشيئا انخرط الذاكرون في التطوع بأقصى سرعة تكاد أجسادهم تذوب في الهواء ، الوجوه المتطايرة تستقبل موجة الهواء بصيحة : « الله حى » ، وتســتدير بسرعة الموجـة مودعة اياها بصيحة : « الله حى » . والمنشد من ورائهم صوته يشبه الوقود المشتعل يسرى في الأجساد نقيا صافيا يحيلها الى لهب مشبوب الأوار ..

خرج الشيخ بنفسه لما وصله الخبر ، وقف على عتبة الخلوة العالية ينظر مبتسما في رضـاء سعيد ، وكان واضـحا ان هذه

« الطبقة » لا تريد أن تنتهي رغم مرور نصف ساعة ، فناس كثيرون أخذتهـم الجلالة وفقـدوا السيطرة على أجســادهم . وقد لاحظ « عز الرجال خلاف » ان الهزال قد بدأ يدب فى الصفين فصاح الصيحة المعهودة : « سبحان من لا يتغير » ولكن بنغمة تحمل معنى الختام ، تبدأ من علو ثم تأخذ فى الهبوط المتدرج مع هزات الأجساد عند التوقف التدريجى ، كأنما النغم يتلقى الأجساد على كفيه ويهبط بها حتى لا تصطدم بالأرض وتتكسر ..

توقف الذاكرون الا من أخذتهم الجلالة بدوا بين الصـفين المتوقفين كبقايا مراوح تلف وحدها لفاتها الأخيرة بعد أن انفصل عنها التيار الكهربى . حينئذ ابتسم « عز الرجال خلاف » وخرج من بين الصفين متجها نحو الخلوة مارا بالمشايخ الذين « لهف » منهم قيادة « الطبقة » عنوة واستقدارا ، وهى « عملة » لا يفعلها « الا الواثقون من أنفسهم » ، التفت لهم قائلا بكل بساطة :

ـ « واحد منكم يقوم بتهدئة هؤلاء وتلقيهم ! » ..

وأشار نحو من أخذتهم الجلالة ..

شيعوه ضاحكين متسامحين :

ـ « معلهش يا عز الرجال .. كسبت ثوابا على قفانا !! » ..

فحياهم مبتسما بوضع يده على صدره عدة مرات ثم اتجه الى الشيخ فعانقه وقبله وتخطى معه الخلوة تحت ابطه .

البحزة !

لو أراد « عز الرجال خلاف » أن يبيت كل ليلة فى مضيفة ، وان يأكل فى كل طقة ضانا وظفرا لتحقق له ما أراد . الا أنه ـ تقول جدتى « معزوزة » ـ لابد له فى النهاية من حضن امرأة ،

فليس يلم ضلوع الرجل ويجمع شتاته سوى حضن امرأة حتى ولو كانت هذه المرأة هى « ست الحسن » ، تقول ذلك وفى فمها الأهتم بسمة خفيفة ظلماء ، ثم تضيف بجرأة لا يسمح بها لغيرها ، ان « ست الحسن » نتاية ولا كل النتى ، وان ثريها الشيت الأزلى هذا كخفير رقيق قوى الشكيمة يحرس جوهرا مكنونا مصونا :

ـ « دى كانت زى القمر ! غيرش بس الجدرى هو اللى بوظ وشها من صغرها !! ..

يقول أبى حين يسمع هذا الكلام وهو جالس على الطرف البعيد من مصطبة مقابلة لصف الدار فى الشارع :

ـ « يا ستي بلاش الواحد يبص فى وشها ! » ..

من خلفه مباشرة تجلس أمى بارشة فى عتبة الدار ترى من بالخارج ولا يراها .. تندفع ضاحكة ضحكا عميقا بلا صوت حتى لتهتز هزا وينزرد وجهها كأن أبى قال نكتة بارعة ..

هى نكتة بالفعل ، فليس يوجد على وجه الأرض ـ أى بلدتنا ـ من يدنىء نفسه ويغازل « ست الحسن » أو يراودها عن نفسها ، كما يقول أبى بعد ذلك مباشرة ، والا كان مختلا أو مهفوفا . ولا يمكن أن يرى وجهها طفل صغير لأول مرة الا ويصرخ لائذا بصـــدر أمه . أما نحن أبناء الحارة فقد كنا نحبها حبا شديدا ، ولم تكن نتصور حارتنـا بدون « ست الحسن » ، ولم تكن نخاف منها قط ، بل لم يدر بخلدنا انها يمكن ان تخيف . كنا اذا تأخرنا عن الرجوع الى دورنا بعد العشاء فاهلنا يسألون عنا مباشرة فى دار « ست الحسن » قبل ان يسألوا فى أى مكان آخر ، اذ انها بارعة فى حكى الحواديت عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال ـ سميتها ـ وعن أمنا الغولة ـ ولا ندرى لماذا سميت بأمنا ـ وعن العنزة التى تركت أولادها فهاجمتهم ذئبة خبيثة تنكرت فى صوت

كم لها من حواديت ساحرة وقف لها شعر رءوسنا . وكم لها من لحظات ضاحكة لا ننساها . طالما أخذنا الضحك في دارها بلا سبب واضح ، أثناء تقليدها للناس ، للشيخ « عبد المقصود أبو غلاب » يتكلم باحترام ووقار شديدين يلوم النسوان اللائي يطلعن وراء الميت باللطم والصراخ يقرعهن بكلام لا يفهمنه فكأنه لم لم يفعل شيئا !! تقلد مشية الشيخ « فرحات الأعمى » المنادي ، ونداءاته المتعددة ، تقلد الشيخ « جمعة » اذ هو يتوضأ على الميضأة فيما هي مقبلة خلفه تختلس ملء بلاص من ماء الحنفيات ويكون لحظتها متقرفصا رافعا ثيابه عن مؤخرته الكبيرة التي كثيرا ما أخطأت هي وتصورتها بلاص الماء منكفئا ، لولا ان يد الشيخ « جمعة » تبطبط من تحت واليد الأخرى تقذف لها حفنات الماء من الطاجن تحت الحنفية وهو يقول : ثلاثة .. أربعة أو يدب مواصلا : خمسة .. ستة ! كل ذلك في مؤخرتك أيها الرجل الذي لو ضبطها تسرق ماء الوضوء لجرسها ؟! ..

اذ ترانا منفجرين في الضحك تنفجر هي الأخرى ضاحكة فيتلعبك وجهها يصير كالكرة التي نلعب بها لعبة الحكشة ..

... أبي كان يسميها « البحزة » ـ بباء مكسورة وحاء ساكنة وزال مفتوحة ـ ولا نعرف نحن ما معنى « البحزة » لكننا نردده دائما في استظراف وابتهاج ظنا منا أنه لابد حيوان خرافي ظريف له شكل كوجه « ست الحسن » . لم تكن هي تزعل من هذا الاسم قط ، بل كانت تبتسم في حياء تقول مشوحة بيدها في ود : « حاكم انت فايق ياخال جعفر » . انما لو سمعت أحدا غير أبي يناديها به لجيالوقعته السوداء . ف « ست الحسن » توقر أبي وتخشى بأسه ، ربما لأنه أفندي ، ربما لأنه من أعيان الحارة وكبار قومها الذين

باسمهم سميت الحارة ، وربما لأنه ـ على حد قولها ـ يحمل كتاب الله على صدره . نفس التوقير كانت تمنحه لبعض رجال آخرين مثل الشيخ « أبو غلاب » والمأذون وشيخ البلد .. وفيما عدا ذلك فالجميع عندها سواء ، نرد عليهم الطاق عشرا . أما لو شتمها أحد من أمثال أبي ثانيها لاتني نردد خلف شنائمه : « الله يسامحك ! الله يسامحك ! طب وماله ! انت برضه زي أبويا ! » .

خطأ عزرائيل !!

خرجت الى الشارع ملهوفا أكاد أندم على ما يكون قد فاتني من شيء حدث في غيبتي في الدار . لمحت « سعد المجلي » متقرفصا في آخر الصف القريب . فرأيتني أتقدم منه بنية أن أعزيه . ولو كان أحدا غيره ما جرؤت على هذا الفعل . الملعون لم يخف لاستقبالي ! بل أخذ يحول وجهه عني كلما اقتربت منه . عرفت انه يتلاشاني خوف ان يطردنا الرجال معا باعتبارها قد معيلت ـ حاذيت « سعد المجلي » ، قلت له هامسا : « البقية في حياتك يا سعد ! شد حيلك ! » ، وأحسست أن صوتي كان مرتعشا يشرق بالدمع ، فأدركت انني أقول هذه الكلمة لأول مرة في حياتي ! هذه أول مرة أقول فيها كلمة مما يقوله الرجال . لكن الولد الملعون خفض بصره وغمغم بشيء لم أتبينه . تذكرت بكاء أمي ليلة أمس فبكيت ، ثم مسحت دموعي وفررت من جواره هاربا وقد خيل الى ان «سعد المجلي» ليس حزينا على أمه كما ينبغي والا فما باله لا يقوم الآن ويملأ الدنيا بكاء وجعيرا أو يفعل أى شيء ؟! ألم يكن من الواجب أن ينهض لاستقبال المعزين ؟! ها هم القادمون الجدد لا يوجهون له أى كلام خصوصي فلابد أنه في نظرهم لا يزال ولدا صغيرا رغم ذقنه التي بدأت تنبت ..

مضيت نحو الشارع العمومي ، فاذا بي أرى شبحا مفرود

الذراعين كخيال المآتة ؟ تدفعه ريح عاتية ، تكاد تتصاعد من أطرافه نار خفية مشتعلة ، ترتفع الذراعان نحو السماء وصوت صراخ بينهما يتصاعد في احتجاج وجأر واستغاثة : « ياسا ٠٠ ا ٠٠ ا ٠٠ بعى » ، ينكفىء الشبح على الأرض ينهض عاويا مناديا : « ياجا ٠٠١٠٠ ٠٠ ملى » ـ اندفعنا جميعا نحو الشبح وقد عقدت المفاجأة لساننا لقد كان الشبح الصارخ هو « ست الحسن » بشحمها ولحمها ! وكانت تجأر بقوة شابة في العشرين ! تتجه نحو حارة العكايشه ، عرفنا أنها ذاهبة لابد الى دار حمانها « جل الخالق » التى تسكن فى قاعة صغيرة بها ، وعرفنا كذلك انها قادمة من مكان بعيد وأنها لابد قد أطلقت النذير هكذا عند كل دار من دور الذين لها بهم صلة أى صلة ، اذ تقف أمام كل دار لتطلق صيحتين أو ثلاثة حتى اذا تأكدت من أن أحدا من أهل الدار لمحها وتعرف عليها زحفت تجرى كلسان اللهب تخترق جدار الريح ٠٠

نظرنا فى وجوه بعضنا البعض بدهشة عظيمة ! اذ أضاء الخبر فى عيوننا : « عز الرجال خلاف » هو الذى مات اليوم اذن لا زوجته « ست الحسن » ؟! بدا ذلك شيئا طريفا ومحيرا !! صدمنا ، لكننا مع ذلك هتفنا صاخبين بين الفرح والزعل : « أما حكاية » ٠٠ وبدا علينا كأننا غير راضين عن هذا الخبر غير مرحبين به ! فقد كنا واثقين ان الذى مات هو « ست الحسن » ، التى كانت تموت بالفعل منذ شهور طويلة أعلن خلالها موتها أكثر من مرة ! ٠٠ فكيف اذن نهضت من فراش الموت ومن أين واتتها كل هذه القوة لتــؤدى واجبها هكذا على أكمل نحو حتى ليعلم بخبر موت زوجها كل مخلوق فى البلدة ؟! ٠٠

بدا كأن الله قد غير رأيه فى اللحظة الأخيرة ! أو لعل سيدى عبد الرحمن عزرائيــل قد أخطأ فى التعرف على الوجــه الذى يطلبه !! ٠٠

فى دقائق تضاعف الجمع وبدا كأن الميت شخصية كبيرة من

عليه القوم • فى العادة يستطيع المرء تمييز أهل الميت أو أقاربه بين المتجمعين ، أما اليوم فان كل واحد هنا يبدو كأنه من أهل « عز الرجال خلاف » ومن أقاربه المخلصين • كل واحد يبدى استعداده لفعل أى شيء ، عشرة أكفان جيء بها يحملها ناس من شرقى البلد وغربيهـا ، وعندما يفاجأ حامل الكفن الجديد بأن قد تم تكفين الميت وانتهى الأمر بعون الله يقول فى أريحية وهو يتخلص من القماش : « آهو زيادة الخير خيرين ! » • ان هى الا دقائق أخرى حتى وصل من عزبة الشرانية كفن فخيم من طرف الشيخ الشرنـوبى تحفه الركـائب العديدة بوفد كبير جدا من رجال الطريقة الكبار يتقدمه « عبد السلام الكويس » و « محمود الصالحي » و « جابر عسر » و « سليمان العبه » و « خليل البسيقى » ، تمهيدا لقدوم الشيخ نفسه بعد قليل ليمشى فى جنازة خادمه الوفى الذى تسـاوى معه فى القـدر بعلو المجاهدة ، وكان ركبهم عند دخوله البلدة يبدو كمؤخرة جيش غزا البلدة منذ وقت قليل ••

تلقاه القوم بكل ترحـاب • احتراما لكفن الشيخ لم يعترض أحد بكلمة ، بل ان الشيخ « مرسى » المغسل هز رأسه فى ترحاب قائلا : « وماله ! رزقه ياخده معاه ! » ، ثم تناول الكفن وفرده قصه وصله ببعضه فى لمح البصر بطريقة سحرية ثم لف به جثة الميت قائلا فى غبطة وحبور : « دهده يا عز الرجال دانت هتارى انك واعر ولا حدش يعرف » • فقال « عبد السلام الكويس » :

ـ « عز الرجال ؟! ليتنا جميعا مقامه ! » •

رد « محمود الصالحى » :

ـ « اما سمعت الشيخ بالأمس ؟! » •

هتف « خليل البسيقى » الذى يبدو فى الثلاثين من عمره سمح الوجه مطلق اللحية فى كثير من عياقة :

ـ « نعم ٠٠ نعم ٠٠ سمعتم ما قاله الشيخ ليلة أمس ! » ٠

قال « عبد السلام الكويس » :

ـ « فيما نحن جلوس بحضرة الشيخ ٠٠ سرح سرحة طويلة عاد بعدها مرتعدا : الله حي ! ٠ أخذتنا الرعدة ٠ قلنا : خيرا يا عم ؟٠ دمعت عيناه ! دميت قلوبنا ! صرخنا : خيرا يا عم ! ٠ قال بهمس خفيض : يظهر والله أعلم أن عز الرجال خلاف قد مات ، أو سيموت ٠ لابد ان أحدكم يذهب غدا ليراه ٠ في الحق صار الألم يتقلب في بطوننا فعز الرجال خلاف هو الخادم الخصوصي للشيخ كما تعلمون ، معزته من معزة الشيخ وهو متصل بالسيخ اتصال الشيخ بالذات العلية !! ويستطيع الوصول الى الشيخ في أية لحظة يشاء من على أي بعد يشاء !! ولطالما ناداه الشيخ عند الحنين لخدمته العاشقة فيلبي ! مرات عديدة يغيب عز الرجال خلاف عن حضرة الشيخ فاذا الشيخ يبتسم فجأة ويقول على غير انتظار : فينك يا عز الرجـــال غبت عني ؟! لحظتها ـ في الغالب دائما ـ يكون عز الرجال في الطريق الى حضرة شيخه ! قد يمر يوم وقد تمر ساعات وقد نراه داخلا في الحال فنهتاج بالفرح والغبطة نصيح الله أكبر الله أكبر ليتنا افتكرنا الجنة ! ٠٠ فيرد الشيخ مبتسما : عز الرجال خلاف هو الجنة ! ٠ تقول من ذهولنا : كيف يا عم ؟! ٠ يقول الشيخ بكل هدوء : حين ترغب في شخص بعينه يمنحك الراحة فتجده لحظة التمني فهذه هي الجنة بعينها » ٠٠

كفكف « عبد السلام » دمعا جرى من مقلتيه ، فتبعته كافة المقل وارتفعت الأيدي بالمناديل فوق الأعين ، وبدا ان « عبد السلام الكويس » قد صار عاجزا عن الكلام لفرط البكاء الصامت ٠ وكان « سليمان العبه » القصير القامة الذي يبدو كأنه ـ وحبتي عينيه الرماديتين ـ منحوت من الحجر الصوان ، قد بكى وحده حتى تعب ، فحاول ان يظهر أكثر تماسكا من غيره ، فاعتدل وقال :

ـ « عز علينا والله ما قاله الشيخ بالأمس ٠٠ لقد أدركنـــا

لحظتهـا ان عز الرجال خلاف قد مات بالفعل لأن رؤية الشـيخ لا تكذب ! انه يكون معنا وليس معنا فى نفس الوقت ! ربما اسبل جفينة دهرا طويلا يمضى كلمح البصر يرى فيها ما لا عين ترى ولا أذن تسمع ! • من فزعنا تجرأنا وكدنا نسأل الشيخ عما رآه فى خلوته بالضبط لولا أنه رفع ستار العينين عن نظرة تأنيب حانية وقال ليمنعنا من أى سؤال آخر : لا تسألونى كيف ؟ فكل ما عندى أننى أحسست الآن بأن حبل الانصال بينى وبينه قد انقطع اذ رأيتني بنفسى ذاهبا الى داره على قدمى أطرق بابه الذى كان موارَبا وكان هو ممددا فى فناء الدار يعالى شخيره من بئر نوم عميق وزوجه تصحبه فى صخب وتوتر وخجل مربك تقول له فى عتاب حاد قم يا رجل ولاق شيخك على عتبة دارك قم يا موكوس لا تكسفنا مع الشيخ لكنه لا يبالى فظلت به حتى أقامته قاعدا يرمش بعينيه فرآنى ورأيته عينا لعين ورمشا لرمش وانسانا لانسان فلما أدركته فى عينيه بسم فى اعياء شديد ولوح لى بيده أن وداعا ثم استوى نائما كما كان ! ٠٠ هذا ما قاله الشيخ لنا فتصوروا يا رجال الى أى حد كانت الصلة بين هذين الرجلين والى أى حد يرى شيخنا !! » ٠٠

دمدم الحضور بعبارات مرعوشة متهدجة :

ـ « لا اله الا الله ! » ٠٠

ـ « وكشفنا عنك فبصرك اليوم حديد ! » ٠٠

وضحك بعض الخبثاء فى السر على هذه الغلطة الشنيعة التى وقع فيها ذلك المتفاصح بالقرآن الكريم وهو لا يحفظه !

قال « جابر عسر » الطويل الذى يبدو فى هيافة بعض النخيل فيما هو يلف سيجارة يبللها بشفتيه :

ـ « نحن بدورنا حـين استمعنا لرؤية الشيخ قمنـا فجهزنا أنفسنا للمجىء الى هنا ٠٠ وقد لحق بنا الخبر ونحن على أهبـة الركوب ! » ٠

قالت بعض أصوات من أهل البلدة :

ـ « من الذى آتاكم بالخبر يا ترى فى هذا الوقت المبكر ؟! » ..

قال « محمود الصالحى » صانع البرادع ملوحا بيده البيضاء البضة بالمسبحة اليسر ، اليسر مشيرا بها نحو الدار التى خلف ظهورهم مباشرة :

ـ « ست الحسن ! زوجه ست الحسن هى التى أتتنا بالخبر! » .

ارتفعت صيحة متماوجة امتدت على طول الشارع بين صفى الجالسين متربعين على الأرض :

ـ يا .. ه .. ه .. ه .. ست الحسن ؟ الحقت توصل لكم ؟! » .

قال خادمهم « برهام » الضخم الجثة ذو الوجه الشبيه بالطاجن الفخارى الكبير ، وأسنانه الصفراء البارزة تبدو كنقوش فى صفحة وجهه المحروق ، وكان كالمتفاخر :

ـ « ست الحسن بدأت الصوات من عندنا ! .. كان شبحها يقترب نحونا منذ حودت من طريق الغيطان الى ساحة العزبة فما ان رأيناها حتى عرفناها من على بعد ! وما ان عرفناها حتى انفجرنا جميعا فى البكاء وخرجنا لاستقبالها ! لكنها توقفت على مقربة من باب المندرة ورفعت ذراعيها وسددت الى السماء خناجر صواتها التى راحت تصطدم بسقف السماء وترتد منغرزة فى قلوبنا ! .. لم نستطع بل لم نجرؤ على ايقافها عن الصوات حتى لا يتقلى الشيخ فى نيرانه ! .. على أنها استدارت عائدة يتبعثر خلفها الصوات فى جميع أنحاء العزبة .. ولو اننا تأخرنا قليلا لنستكمل وفد المعزين بدلا من مندوبين للسؤال فقط ، لولا ذلك للحقنا بست الحسن فى الطريق ! . طب ما رأيكم ان صواتها ظل قائما فى العزبة بعد

انصرافها ؟! لقد غادرنا العزبة وهو يشيعنا من جميع أنحائها ولابد انه الآن قد كبر وصار مناحة ! » ٠٠

كفكف هو الآخر دمعه وسط موجة من أصوات هادرة بلا اله الا الله ٠ وأحسست ان جدران البيوت وطبقات الهواء بل والسماء قد اقشعرت أبدانها ٠ وقبل ذلك ببرهة طويلة كنت ألمح على أطراف الصفين المتربعين بعضا من الشبان الهازلين الضاحكين على الدوام يتشبثون باحترام مصطنع وقد بدا على وجوههم سخرية معناها ان حرارة الجناز أقوى من مستوى الميت ! ٠

عز الرجال خلاف

٠٠ فى السنوات الأخيرة كانت عين « عز الرجال خلاف » قد بدأت تقطع حبال الاتصال بعيون الآخرين ان فى الطريق أو فى الحضرة أو فى المسجد أو فى أى مكان ٠ كان يبدو كأن عينه السليمة قد استقلت بنفسها واستكفت ، وكان من الصعب على من يراه أو يجالسه ان يلتقط عينه ٠ على غير العادة صار يكثر من المشى فى الطرقات بغير هدف واضح لنا ، فأينما ذهبت فقد تراه ولابد أن تقول له أو لنفسك : « أنا مش لسه سايبك فى المكان الفلانى ؟! » ، لن يعيرك التفاتا ٠ تعود كل انسان فى بلدتنا أن يرى « عز الرجال خلاف » فجأة فى مكان لا يخطر على البال ، فعليه حينئذ أن يعافيه بالعافية ويمضى دون انتظار لرد منه ، لأنه فى العادة لن يرد أبدا ، بل لعله لم يستمع أصلا ٠ كذلك تعود كل انسان ان يسمع طرقا على باب داره فى نصف الليل أو قرب الفجر فينزعج لأول وهلة خوف مجهول غامض ، ولحظتها يتشبث بالأمل قائلا لنفسه : لعله عز الرجال خلاف ٠ وفى معظم الأحيان لابد أن يكون هو بالفعل ! ولابد أن يستقبله صاحب الدار بترحاب شديد ومودة فائقة كأنما قد زاره بالفعل النبى كما يقول أهل بلدتنا دائما عند زيارة عزيز عليهم ، مهما كان الظرف غير مناسب لاستقبال الزوار ، ففى اعتقادهم

أن « عز الرجال خلاف » وأمثاله انما هم طائفة أهل الله الذين يجب على كل انسان مخلص أن يتقرب منهم ما وسعه ذلك .. فما بالك لو كانوا هم الذين يتقربون اليك ؟! ..

ربما قدم له صاحب الدار أكلا وشايا رغم يقينه أن الرجل لن يأكل ولن يشرب الا أنه واجبه المقدر لابد أن يأخذه . وقد يتركه صاحب الدار جالسا وحده فى المندرة أو الدهليز لوقت يغيب هو فيه داخل الدار أو خارجها يقضى بعض شـــأنه مع عياله ، وربما عاد فوجده لا يزال جالسا فى ركنه سابحا فى ملكوت الله مكلما نفسه فى همهمة هامسة عابسة وحركات ساخرة عابثة يضحك خلالها ضحكا عميقا جدا يهتز منه جسده الفارع الضخم وتختفى عينه تحت هدب مسبل فيبدو جميل الشكل حقا مهيبا حقا كأولاد الباشوات لولا الخرقة التى يتسربل بها والتى لم تنكشف من خلالها عورته قط . وربما عاد اليه صاحب الدار فيجد أنه قد فتح الباب وخرج وأعاد اغلاقه مثلما كان على نحو تام ، ماضيا فى حال سبيله ، ممسكا بيمناه عصاه التى هى فى الأصـل سيخ من حديد البنـــاء السميك لا أحد يعرف كيف ثناه من المقبض ودببه من الأسفل وجلخه فجعلها تبدو كعصا من معدن ثمين مجهول ! كذلك لا يعرف أحد ما حاجته لمثل هذه العصا على وجه التحديد . أما كتفه الأيسر فقد علقت به مخلاة من صوف الغنم كبيرة فكأن نعجة صغيرة بنية اللون مطبوعة تحت ابطه وفوق صدره منفوخة البطن قليلا ، فيها خنجر معقوف السن رهيب المنظر بقبضة مشغولة بالنقوش الأثرية الفرعونية لابد أنه عثر عليه أثناء فحت احدى المقابر ضمن الكثير مما كانوا يعثرون عليه فى مقابر بلدتنا القائمة على تل مرتفع جدا اذ هى فيما يقال أطلال بلدتنا القديمة التى دمرها الفرنسيون يوم هزيمتهم فيها وقتل حصان الجنرال مينو .. !

لم نكن نعرف ما حاجته لهذا الخنجر . لكن فى المخلاة أشياء

أخرى آكثر غرابة : قطعة زلط صغيرة ، زناد ، قطعة من حجر طق الليل ، شريط مبروم من القطن كشريط اللمبة اليد شارب من الجاز يضعه مربوطا بالحجر ، علبة دخان معدنية ثمينة يقال انها هدية من أحد أعمامه الكبار فى الطريقة ، مسبحة طويلة من اليسر قوامها تسع وتسعون حبة سـوداء لامعة منقوشـة ، مسبحة أخرى صغيرة من الكهرمان الأصيل قوامها ثلاث وثلاثون حبة كبيرة مستطيلة يقال ان الحبة منها بالشيء الفلاني ، والعجيب انه كان يستخدم هذه وتلك فى تسبيحاته ولكن بشكل نادر جدا اذ انه فى معظم الأحيان كان يستخدم أصابع يديه فى التسبيح ان لم يكن أمامه قطع من الطوب والدبش الصغير يرصها ويعيد رصها ليرصها من جديد وهكذا الى ما لا نهـاية وفمه لا يكف عن الهمهمة العابسة تتخللها انفراجات مفاجئة يبدو فيها كأنه يعبر حافة الجنون ! ..

ليس لأحد أن يجترىء على مخلاته أو يلمسهـا ، لكنه كثيرا ما يندمج وحده فى تفريغها بحثا عن شيء تائه فى قاعها يطلبه ، فاذا من بين محتوياتها تمر وعناب جاف ، ووريقات من المصحف الشريف لعلها آية الكرسى أو السبع آيات المنجيات ، ووريقات أخرى لعلها من حزب شيخه الذى أخذ العهد عليه ! وخرز مختلف ألوانه وأحجامه وأنواعه يقال انه حصى من رمال البطحاء والبصرة وصنعاء وحلب والقيروان وخراسان وطليطلة ! ولا أحد يعرف كيف آلت اليه هذه الحبيبات الدقيقة الجميلة الملونة ! أيكون قد جمعها بنفسه عبر رحلة قطعها على قدميه فى بلاد الاسلام أم تكون هى التى جاءت اليه من تلقاء نفسها ؟! ..

المؤكد لنا أنه مغرم بالفرجة عليها اذ يختلى بنفسه فى ركن قصى تحت شمس الطريق ويستخرجها ويظل يتأملها لفترات طويلة يعتدل خلالها فى جلسته عشرات المرات متربعا يميل الى الأمام تارة والى الخلف تارة أخرى وفى اتجاه شعاع الشمس تارات كثيرة ، حبة حبة يتأملها رافعا حاجبيه الكثيفين المهيبين ممعنا النظر فى

اهتمـام وتوتر وانفعـال مضـغوم قد ينتهى بضـحكة طويلة تنضح بالأسف والبهجة والمعيلة ، وقد يصعد الى ذروة ترنحه خلالها هزة البكاء العنيف الحاد فى عمق ضحكه وعمق صمته وعمق عزلته وعمق سره الغامض الجميل !!

القبــة

كل الناس خلال السنوات الأخيرة لم تكن تفهمه ولم يكن يعنى بها ·· وكان مع ذلك ــ وياللعجب ــ مستمرا في خدمة الشيخ يحج اليه في أوقات كثيرة جدا ، وزوار الحضرة من البلدة يرونه دائما هناك قبل وصولهم ويرونه فى خلوة الشيخ يقضى له الطلبــات كالعادة : هات كذا افعل كذا ! رح ! تعالى ! فيفعل كل ذلك فيما هو مستمر فى عزلته مع البسبسة والتمتمة التى تبدو من فرط استمرارها مجرد هذيان ! · بعضهم يقسم أنه رآه والشيخ وحدهما لا ثالث لهما الا الله يتحدث الشيخ و « عز الرجال » يستمع بشغف ويهز رأسه فى اقتناع منبهر ولحيته المدببة المسحوبة ممتدة بتخوم ذقنه على حائط الخلوة فى ظلال الكلوب تتلاصق بتخوم لحية شيخه تكاد تفوقها جمالا ومهابة وسحرا لولا ما يحيطها من خجل التواضع الجم ــ البعض الآخر أقســم انه رأى بعينيه الشيخ يستمع بنفس الشغف والانبهار ولحيته على الحائط تتهادى فى تواضع تحت لحية « عز الرجال » الذى يتكلم ويلوح بذراعيه ويديه ورأسه وكتفيه ولكن فى رصـانة وثقة ! ولكن لا أحد يعرف ماذا يقول أو يفهم ما يقول ! ··

الا أن الشيخ الشرنوبى يؤكد لمريديه أنه ليس ثمة مشكلة على الاطلاق وانه قد بات يفهم « عز الرجال » أكثر من ذى قبل بل هو الآن فى أحسن حالاته وأوضحها ، انما الصعوبة والمشكلة فيهـم هم ، فى عجزهم عن فهمه وتقاعسهم عن تفهمه ، اذ هو قد بات يتكلم لغة غير لغتهم ويسلك غير سلوكهم فيملأ لحظات زمنه بذكر

الله هنيهة هنيهة ! انه يبنى زمنه بنيانا شديد التماسك راسخ الأركان متلاحم البرهات بكثافة من ذكر صـــادق مكتنز بالحسنات وهو سلمه الصاعد فى قوة نحو الذات العلية !! ٠

التميمة

شيء آخر فوق شـخصيته المحبوبة الأليفة لكل الناس كان يزيدهم فيه حبا وتقديرا وحنوا ٠٠ ذلك أنه مسالم الى أقصى الحدود رغم أطواره الغريبـة هذه المستجدة عليه في أواخر عمره بعد طول تعقل وبحبحة ومرح ٠ لم يكن يؤذى أحدا على الاطلاق ، بل كان يمسك بالنملة الزاحفة على جسده ، وفى رفق يضعها على راحة يده ويتفرج عليها رافعا حاجبيه الكثيفين فيما لا نعرف ان كان غضبا أم انبساطا ، يوجه اليها طائفة من الفاظه المضغومة الغامضة ينهيها دائما بنفخة كنفخ دخان السيجارة ، يبحث حواليه عن عود رفيع من القش أو طرف ورقة يضعه على راحة يده صانعا للنملة قاربا تتسلقه ليضعه برفق الى جواره ويروح يلف سيجارة قد يستغرق لفها ساعة من الزمن ! ٠٠

عموم الناس في بلدتنا كان بين مصدق ومكذب له ، الكثيرون منهم يثقون فى صدق مجاهداته وفى جدواها ويشيعون عنه بعض الكرامات المستقاه من زملائه مريدى الشيخ الشرنوبى ، والقليلون يلوحون من طرف خفى بأنه قد دخل فى طور الدروشة فانجذب ـ أى جنّ ذلك الجنون الهادىء ٠ على أن مصدقيه يدافعون عنه قائلين انه فعلا قد انجذب ولكن انجذب لمن ؟ لله بالطبع ! للواحد القهار ٠ الا أن هؤلاء وأولئك الجميع يتفقون على أنه رجـل طيب القلب حقا ونقى السريرة حقا وانه بمشيه فى الهواء الطلق هكذا محررا من كل قيد انما لتنفيذ مشيئة الله فى شيء يريده سبحانه ٠ كان يعطلك عن جريمة تزمع القيام بها مانحا اياك فرصة مراجعة الشيطان الشاطر والانفلات منه ! أو يحول بينك وبين قدر غشوم ! أو يقودك

الى قدر محتوم ! أو يبشرك بيوم معلوم أو ينذرك بغضب محموم ! أو يوبخك ـ دونما سبب معلوم ـ بكلام مسموم !! ..

الشرانبه

شخصيا شاهدت بعيني احدى الكرامات المؤكدة ومن يومها صرت أرهبه وأجرى اذا قابلني في زقاق ضيق وأنا عائد من المدرسة وحدي ، اذ هو يستدير نحوى ناظرا فى الفراغ بضحك عميق وأحيانا بشتم ولعن وسخط ! . ذلك ان العين التي كنت أراها وأنا طفل أتردد على دار « ست الحسن » واداعبه فيداعبني وأشـــاكسه فيشاكسني وقد أصيح فيه : يا أعور العين ، فيضك صائحا : اخص عليك ، ويتصنع أنه يهم بضربى أو البحث عن عصا يلوشني بها لكن عينه السليمة سرعان ما كانت تحسم الأمر اذ تقع عيني عليها خلسة فأرى فيها الضحك على واراني ظاهرا فيها حتى وهو يتصنع الهجوم على والايقاع بى حتى وهو يضربني بتصنع انه يضربني ! .. ولكنني لم أعد أرى هذه العين قط كأنما قد استلبها سالب مجهول ولست أرى الآن سوى عين أخرى لم تعد تعرفنى على الاطلاق ولا هى تريد ان تعرفنى ! .. فكنت أجس بالذعر لمرآه ..

كان ذلك قبل أن تعتريه هذه الحالة ، وكنت أيامها فى السنة الأولى بالتعليم الالزامى ، حيث صار أولاد أعمامى الرجال والشبان يحلو لهم اصطحابى ـ لابسا السترة والطربوش ـ الى أماكن كثيرة فيها أفراح أو معاز أو خطبة عروس أو مجلس صلح بين عائلتين !!.

ثلاثة من أبناء عمومتى أتباع فى الطرقة الشرنوبية ذوو صفة ومكانة استثنائيــة اكراما لخاطر عمي « على الكويس » الكبير الذى كان من أخلص خلصاء الشيخ الشرنوبى الكبير والد شيخنا الحالى بل كان نائبه الوحيد فى مهام الأموز والمشاوير الفعالة ، وهو مدفون بجواره فى ضريح صغير محنــدق بقبة محندقة جميلة تشبه تدويرة

الرأس فى عائلتنا بعد ان يدركها الصلع فلا يبقى من شعرها سوى بعض شعرات جافة صلبة تقف نافرة فوق منتصف فروة الرأس لها ظل واضح كأنها السيخ الحديدى المتصاعد من مركز قبة الضريح ..

لابد لواحد على الأقل من ثلاثتهم أن يكون موجودا كل يوم فى حضرة الشيخ ان لم يكن ثلاثتهم فى معظم الأحيان فضلا عن عمى « عبد السلام الكويس » الذى صاروا يطلقون عليه لقب الصغير تمييزا له عن عمى الكبير « على » . بل كثيرا ما يكون أبى أيضا هناك رغم أنه مدرس كشكول كما يسمى نفسه وليس له فى مسائل المشيخة ، اذ يحلو له ولبعض صحابه فى ليلة عيد أو موسم أو احتفال بميلاد الشيخ أو عودته من سفر ، أن يفاجئوا الشيخ بزيارة ليلية غير متوقعة ، فاذا ما خرجت ركائبنا فانها تلتقى فى الطريق برهط آخر من ركائب العائلة مقبلة من عزبة الشرانبة ، فتتوقف الركائب من تلقاء نفسها بحكم تعرفها هى الأخرى على بعضها البعض وتراها تحمحم نحو بعضها وتتشمم بعضها تطلق نهيق الترحيب والتحية فى نزق نكير الصوت طريفه مع ذلك ، تتوقف الركائب ريثما يتم تبادل الأخبار والاستفهامات والسؤالات ثم لا تلبث الركائب حتى تلوى أعناقهـا فى لكاعة الأصدقاء والعلوق يودعون بعضهم بعضا فيمطون الوداع فى ثرثرة فارغة على اثرها يتعاكس صوتان من النهيق كل منهما فى اتجاه مضاد ..

القادمون من عزبة الشرانبة لا يقولون انهـم قادمون من عزبة كذا ، ولا حتى من العزبة ، انما يقولـون : نحن قادمون من عند الشيخ ، وكذلك الذاهبون . فان تقول انك ذاهب الى الشـيخ معناه بالضرورة أنك ذاهب الى العزبة المسماة باسم عائلته وهم صفوة من الطيبين الأخيار الشرفاء ، ذلك ان الشيخ أينما ذهب ينقل العزبة معه بكل حذافيرها فيما عدا الحريم الا حريمه هو . ثم ان العزبة ليست عزبة انما هى بلدة صغيرة حافلة بالسكان والأراضى الزراعية والمحاصيل الوفيرة الموزعة سلفا قبل مثولها فى الأجران !

على أصحاب نصيبها من عباد الله مجهولين ومعلومين • قطعـــان الماشية والثيران والخرفان المهيأة للذبح دائما ، تسدافر لحما شهيا الى أصحاب نصيبها المجهولين فى موالد كافة الأقطـاب فى أنحـاء عواصم البلاد • هذه القطعان لا يعرف الشيخ عنها شيئا ولا من أين جاءت ولا من هم أهل الله الذين دفعوا بها الى حظيرة الدار الكبيرة ، لكنه يثق انها دائما موجودة ودائما وفيرة وبغير انقطاع • والكل يأكل من اللحم ما تشتهيه نفسه ، ويد النقيب ــ موزع الأنصبة ــ فى النار ولو عدلت كما يتندرون بالمثل دائما ، الا نقيب طريقة الشيخ « عبد السلام الكويس » قصير القامة فان يده فى الجنة باذن الله ، وكل جسده الممتلىء ونظرته الحية الخجلى وفمه الشبعان الذى ينطق كلمة يا عم لكل من يستحقها فعلا ، انه علم على الذمة فى بلدتنا ، ثابت على مبدأ اختيار الشيخ له ورضاء الجميع عنه فى مهمة تفريق الأنصبة حيث يمشى خلفه « عز الرجال خلاف » أو غيره يحمل سفطا من الخوص كبيرا مملوءا بقطع اللحم الساخنة التى لا تزال حية ترتعش بالحيوية رغم خروجها لتوها من آتون الغليان ، يتوقف النقيب عند كل واحد ويكبش من السفط مقدار ما اتسعت له يده فى أول كبشة ، فان كانت ثلاث قطع فتمضى الكبشات الباقية على نفس المقدار ، وان أربعا فأربع ، ولا يعتبر مسئولا بعد ذلك عن نصيبك الخفى لأنه يكبش من السفط على بعد فلا فرصة للانتقاء أو التحيز ، لكنه سوف يأسى لك بالطبع اذا شاء نصيبك الخفى أن تكون القطع صغيرة أو معظمها عظم وشغت ، ولســوف تشعر أنت أنه يمكن أن يهديك أصابعه نفسها لتأكلها فتراك تعمل جاهدا على اخفاء نصيبك حتى لا يلحظه ، تكون أناجر الفتة ممتدة متلاحمة على الأرض بين صفوف المتربعين فى وداعة ، العباءة الجوخ مجاورة للخرقة وبقايا أجولة على الأجساد ، الطربوش مجاور للطاقية الديلان الغلبانة والطاقية الصوف المزركشة واللبدة والعمامة المقلوظة كلهم فى انتظار زحف النقيب نحوهم بالمنابات الشهية يأكلون باسم الله الرحمن الرحيم بنفس مفتوحة ونية صافية وروح ودود تضاعف أحجام المنابات فى نظر

متلقيها فيعزم بعضهم على بعض بالأحمر والسمين ويتنازل البعض الأهتم أو الشبعان المتخم فى بيته عن متابه لمن يحدس أنه فى احتياج ·· والشيخ على صدر المائدة يكفيه من الثريد بضع ملاعق ومن اللحم فتفوتة مسلوقة ·

الشيخ

بعدد شعر رأسى حضرت هذه الأكلة وحظيت رغم طفولتى بنصيب الرجال من اللحم ··

وفى تلك الليلة البعيدة كانت عائلتنا بربطة المعلم حاضرة فى حضرة الشيخ · كنا قد تعشينا وصلينا العشاء جماعة وتكوم الأتباع فى فناء الدار جماعات تتحلق ركيات النار فوقها براريد الشاى تغلى تخرط ثلاثة أدوار تهضم الطعام حتى تخف أجسادهم وتصبح صالحة للاندماج فى الذكر الذى سيرتفع أواره بعد قليل يدندشه صوت المنشد ومن خلفه الدفوف والصاجات والناى والأرغول والرباب والدربكة والسلامية وفريق من الكورس الرجالى يسند معه بترديد المذاهب واللزمات ··

أما أبى وأولاد عمومتى البالغين مرتبة عالية فى الطريقة ، وأنا ، فلقدر عائلتنا وارتفاع مستوى الطيبة والأخلاق الحميدة بين أبنائها لعدة أجيال ماضية فضلا عن الحالية فقد التحقنا بمجلس الشيخ فى خلوته نفسها وهى برحة مطلة على ساحة الفناء من بعيد بحيث يتسنى للشيخ رؤية حلقة الذكر من مربله والاتصال الروحى بالذاكرين لتقوية صدقهم واشعال روح الحماس فيهم ، فان يذكر الذاكرون وهم يحسون بعينى الشيخ متاخمة لصفوفهم غير ان يذكروا بمعزل عنه ! والفرق بين منظر ذكرهم وانبعاث روح الوجد فيهم تحت عين الشيخ ، وبين ذلك فى غيبته فروق شديدة لا يقدر على وصفها الا أبى فى ساعة تجل ! ··

تواترت طبقات الذكر طبقة وراء طبقة ، أمسكها فى كل مرة واحد من كبار المريدين ، وأرسل المنشد من الأنغام معظم التخين الذى يقولون دائما انه فى القعر ، وانهدت فحول هائجة ، ودبت الحيوية فى بغال كسولة لحقها الوجد على غير انتظار فصرخت من فرطه أثناء التطوح بالذكر هدرت كالملتاثة بالاستغفار بطلب الرحمة بمحاولة الهروب من المعاصى الماضية بمحاولة التوبة بالذوبان فى غفران الرحمن ..

طرب الشيخ وطربنا جميعا وتطوحنا فى جلستنا وأخذت بعضنا الجلالة فاذا هو يمعن فى التطوح تركبه نفس الحالة فيما هو جالس لا يزال والشيخ من حين لحين يرسل له بعض كلمات يهدىء بها روعه فاذا هو يستمد من صوتها رهبا لهبا حماسا انخراطا فى الهدير المستغيث الملتات كأنما تطييبة الشيخ أعطت حالته هذه صكا رسميا وشهادة بأن صاحبها قد بات على مستوى التوحيد والتوجيد . أما الشيخ فانه هنالك يبسم فى طيبة شديدة عن سن مفلوجة فيما هو يقول : هكذا يثبت أننا جميعا مذنبين واننا والحمد لله قد صرنا نشعر بتانيب الضمير ! فوالله انه لذكـر يطهر النفوس حقـا من الآثام ! بعدها تستطيع أن تلقى الناس والحياة على أرض جديدة نظيفة ! أكرمنا الله واياكم ! ..

ثم ان هدير الريح قد بدأ يخفت شـيئا فشيئا ويتضـح أن العواصف أطراف جلابيب استخفها جميل الطرب فذابت فى نشوة الهفهفة ، ثم أخذت تختفى عن أنظارنا شيئا فشيئا . وقبيل مجىء الفجر بدأنا نشعر بغطيطهم فى أركان الفناء المبتعدة .. وخلت ساحة الفناء أمام أنظارنا فرأينا الكانون فى آخر ركن بعيد فبها متصلا بجوف الدار من الخلف بدهليز ضيق محفوف بالتوتر دائما كأنمـا لتحذيرك من عبوره وانتهـاك سـتر الدار . كانت الحلة النحاسية الكبيرة التى تتسع لاشلاء ثور كبير بوفرة من المرق متربعة بجوار الكانون كالصهريج القصير القامة . وكان الطابخ قد أزاح

عنها غطاءها الهرمي موسعا فراغا كبيرا جدا بين حافة الحلة وحافة الغطاء وكانت بقـايا دخـان واهن لا تزال تتجمع في هذا الفراغ متعرجة مبعثرة في الضوء العليل النعسان من فرط ما بذل هو الآخر من جهد جهيد ، مما جعلنا نفطن الى ان الطابخ قد قام بغلي المرق من جديد حتى يظل اللحم البـاقي فيه سليما من العفن ، حيث قد أنبأنا النقيب أثناء انغمارنا في الأكل أننا على كثرتنا لم نأت على نصف الثور وأن أكثر من نصفه ـ غير هوائجه الأخرى ـ لا تزال بأعماق الحلة تدخر لنا فطورا وغداء لا مثيل لهما ٠ الطابخ كشف غطاء الحلة وانصرف معطيا للدخان فرصة الخروج كله من الحلة ، ولعله قد سكر رأسه بفعـل التقليـة الحريفـة التي يجيد صنعها فاستغرق في النوم ٠٠

وكنت قد نمت على صدري وصحوت عدة مرات وانكفأت على ركبة الشيخ نفسه لو أريد ٠ وقد كان يحلو لي بالطبع لولا أنني أخشى النوم وأتشبث بالصحو ما أمكن للفرجة على هذا الشيخ لعلني أعرف السر الذي يجعل من كل هؤلاء القوم أتباعا له وخداما يرفعونه فوق رءوسهم ! حتى ليؤلف شعرا يقول فيه كلاما شديد الجرأة والخطورة فيصدقونه في مزيد من الطرب وصيحات الاعجاب ! ٠٠ كأن يقول مثلا : « أنا مدحت الشرنوبي وسهمي نافذ ٠٠ عيسى وموسى يطلبان مكاني » !! ٠٠ ويشرح لك المريدون ان الشيخ يقصد بمعنى البيت انه محظوظ وسعيد الطالع بمجيئه في عصور سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وان سيدنا عيسى وسيدنا موسى يطلبان حظه هذا ٠٠ !!

لحظة انتباهي للحلة بجوار الكانون في الركن القصي انتبهت الى وجود « عز الرجال خلاف » أمامي مباشرة ، وكان من الواضح انه مستقر في جلسته هذه معنا منذ ما قبل بداية الليل دون ان أنتبه اليه كانت ذقنه اذ ذاك حديثة عهد بالانطلاق على حل شعرها ، كما كانت عينه السليمة في بداية اكتشافها فضيلة التلكؤ عند

الأشياء لفترات طويلة • ولحظتها كانت عينه مسبلة تماما وأصابعه العشرة فى حجرة تلامس حبـــات المسبحة الكهرمان العتيقة التى تطرقع قبلات حياتها لبعضها البعض كلما التقت حبة بأخرى ••

أيامها كانت علاقته بى وبكل الناس آخذة فى الانفصام •• فحولت بصرى عنه الى ساحة الفناء ••

فاذا بى أرى ظل شبح ممدود على الأرض يزحف مقبلا من أعماق الدهليز الضيق نحو ركن الكانون حيث تتربع الحلة الكبيرة ، سرعان ما ظهر صاحبه فاذا به الشيخ « اسماعيل » أصغر أبناء الشيخ وآخر العنقود ، فى مثل عمرى تقريبا ، أصغر منى بسنتين ، فهو معى فى مدرسة البلد فى السنة الأولى وأنا فى سنة تالته أول • وكان يرتدى جلبابا من الزفير المقلم بشرائط من اللون زاهية ، أحلى بكثير من جلبابى الذى أرتديه فى دارنا • وكان يبدو انه مستغرق فى النوم لا يزال وها هو ذا « يتدقلج » فى الأرض مترنحا كعنزة مكتنزة اللحم لطيفة المنظر شقراء على جبينها خصلة شعر منطرحة وحدها فى قطيعة نهائية عن بقية الشعر ••

تواترت من أنحاء الفناء أصوات تتلقفه وتناديه فى حنو واغراء • فيما هو مندفع فى هرولة هنـا وهناك كالخائف كالحائر كالفاقد الوعى • أخيرا ركز اتجاهه العشوائى نحو ركن الكانون من جديد فازداد اقترابا من الحلة والفنـــاء كله يصيح فى أعقابه : « خللى بالك يا شيخ سماعين ! رايح فين ياشيخ سماعين ! » • لكن الشيخ « اسماعيل » بدون أن يفتح عينيه أو أذنيه كان قد رفع ذيل جلبابه من الأمام كاشفا عن عضوه التناسلى ممسكا به بأطراف أصـابعه مطلقا لبولته العنان •• فى قلب الحلة تماما ، لدرجة أننا — فى مجلسنا البعيد — سمعنا صوت خرير الماء فى الماء عاليا ••

• جاسب يا شيخ اسماعيل ! حاسب يا شيخ اسماعيل ! ••

الا ان الشيخ اسماعيل قد فعلهـا وانتهى الأمر قبل ان ينهضوا جميعا للجرى تجاهه ، فالحق أنه عمل لم يكن منتظرا من الشيخ

الصغير على الاطلاق ، ولا يتعود على قضاء هذه الحاجة الا فى القصرية كطفل وفى الكنيف بعد ذلك · وها هو ذا يعود الى الدهليز الضيق من جديد فيختفى فيه كأن شيئا لم يكن ! ولعله قد استأنف نومه على الفراش ! ··

وقفوا جميعا فى الفنـــاء مبهوتين يتحلقون الحلة يصـخبون يصفقون كفا على كف فى أسف وكمد ، الطابخ فى نصف هدومه يكاد يشقها من الخجل ، كل واحد يلقى الذنب على الآخر ، ثم خفتت الأصـوات حتى لا تقلق الشيخ من غفوته ، لكننى تابعت التناحر والتلاطم بالأجساد فى انفعال مكبوت مغيظ ، وأحسست أن الخناق قد ضاق حول الطابخ فأخذ يلوح لهم بخروفين يذبحهما فى الحال فى تكتم شديد ويراهن على اننا سنفطر منهما ، وان هذين الخروفين على حسابه الخاص بشرط ألا يفتحوا الموضوع أمام الشيخ أو أمام أى أحد ··

أفتى « عبد السلام الكويس » النقيب أن بولة الطفل طاهرة على أى حال ، وانهم لوغلوا الشوربة ثانية لأمكن شربها بدون خطر !· وافقه « محمود الصالحى » صانع البرادع على هذا الرأى واقترح نزح قطع اللحم من الشوربة وغسلها بالماء جيدا ثم تحميرها فى السمن أو فى الزيت أو فى دهنها !! ··

وبدا كأنهم جميعا قد استراحوا لهذا الاقتراح ووافقوا عليه منعا لحدوث شوشرة قد تعكر مزاج الشيخ وتمغص باله من جهة الطعام ··

كل ذلك و « عز الرجال خلاف » مندمج فى ضحك عميق ، وقد اكتشفت لحظتئذ فقط ان ملامحه التى كنت أعرفها قد تغيرت وازدادت غنى وثقلا حتى لأظنه الآن فيلسوفا يستعلى على كل البشر الذين هم دونه · راحت ضحكاته تعلو فيما هم منهمكون فى محاولة استقضاء بعض مواعين اضافية ينقلون فيها اللحم ويعالجونه على

النحو الذى اتفقوا عليه ، حيث ارتفع صخبهم من جديد بشيء من الحدة والعصبية الموجبة بالتشاؤم ، ثم ان العصبية قد ارتفعت حدتها بين النقيب والطابخ وبعض مؤيديه فتدافعوا بالأيدى فى شيء من العنف ، وضرب « عبد السلام الكويس » رجلا باليد على صدغه ، وزغد الآخر ، وشوح للطابخ فى تهديد شرس لم أره عليه من قبل ، فى حين نشط آخرون للحيلولة دون تفاقم الأمر ، ونشط غيرهم للعمل ، فجىء ببعض أناجر الفتة وتم صفها بجوار الحلة لتترح قطع اللحم فيها !!

الا ان « عز الرجال خلاف » اقبل نحوهم وهو غارق فى ضحكه العميق يطوح عصاه تارة ويضرب بسنها الأرض تارة أخرى . بثقة يحسد عليها ، وجبروت لا يجرؤ عليه الشيخ نفسه ، بسط عصاه فنشرها بينهم يدفع بهـا هذا ويزغد بها ذاك ليوقفه . أمر لم يكن يتوقعه أحد على الاطلاق ، ولذا عقد الذهول ألسنتهم وسمرهم فى أماكنهم . ثم اذا به يعدل عصاه فوق الأرض يتكىء بيده عليها ويغرق فى ضحك غزير .. والجميع من سخف ما حدث يتبادلون النظر يستعدون بعضهم بعضا عليه ..

فى اللحظة التى تحفزت فيها بعض الأجساد لنطحه والهجوم الشرس عليه لتلقينه درسا فى الأدب ، رفع هو عصاه مرة أخرى صارخا بصوت لا ندرى من أين جاء بقوته تلك ورنينه الزاعـق هذا .

ـ « الله أكبر ! الله أكبر ! » ..

ثم استدار نحو خلوة الشيخ زاعقا بنفس الرنين الصادح :

ـ « عمى ! تعال ! حلفتك بكل الأولياء أن تحضرنا الآن ! حصل الآن شيء لابد أن تعاينه بنفسك يا عم ! .. وقلبى يحدثنى انها البشارة !! » ..

وبالفعل ظهر الشيخ مقبلا من أعماق الخلوة كالنسيم الخجل ووراءه صحبته ـ فلما صار على عتبة الخلوة ـ المرتفعة بضع درجات عن الأرض ـ لمع وجهه الوسيم الونيس فى ضوء الكلوب المعلق فى عارض الباب ، وكان يبتسم ابتسامة عريضة تدل على انه ينتظر بالفعل بشارة كبيرة فما عساها تكون ؟! ..

قال « عز الرجال » وهو يشير الى المريدين والأتباع :

ـ « أبناؤك هؤلاء يتعاركون ويتضاربون يا عم ! » .

ـ « ألهذا دعوتنى يا عز الرجال ؟! » .

ـ « عدم المؤاخذة يا عم ! .. قصدت ان أقول لك .. ا ..

أقول ما كنت تقوله لنا دائما .. القول تائه عن .. تائه عن بالى ولكن .. قصدت .. » .

ـ « كيف تريد قولا ويتوه عن بالك ؟! » ..

وحدثت موجة من السخرية طافت بوجوه الجميع ، وبدأت أصواتهم ترتفع بلغط غير مفهوم، ولولا وجود الشيخ لوجهوا الشتائم لعز الرجال ، لكن الشيخ وجه اليهم نظرة جانبية حارقة ، وقال بشىء من الغضب :

ـ « دعوا عز الرجال يتكلم .. لا تشوشروا عليه ! » .

قال « عبد السلام الكويس » :

ـ « ومنذ متى كان عز الرجال يتكلم ؟ لقد تسرع وناداك .. وليس يريد قول شىء بالمرة ! .. ألست تعرف عز الرجال يا عم ؟ » ..

فبدا على وجه « عز الرجال » انه قد تلبسته حالة غضب تنذر بانفجار خطير ، وانه يعانى لكتمان انفعاله ، سرعان ما ظهر انه يعانى من شىء آخر ، هو البحث عن القول الذى يريد ان يقوله للشيخ ،

وصار يهز يديه بجوار رأسه مبرطما فى محاولة للتذكر ، ثم رفع يده هاتفا كأنه وجدها :

ـ « نعم يا عم ! هؤلاء ضربوا على أبصارهم غشاوة !! » ٠

ـ « كيف ؟! » ٠

هكذا قال الشيخ بلهجة ممطوطة بنبرة ذات معنى ٠ فظهر على وجه « عز الرجال » أن الكلام قد بدأ يواتيه ، اذ رفع يده قائلا فى لهجة طفولية وبصوت تخين ملء بالبراءة والصفاء :

ـ « هؤلاء يا عم ! حدثت أمامهم الآية ! ٠٠ ونسوا وصيتك لنا !! » ٠٠

ثم صمت كأنه أفضى بكل ما لديه من قول ، مما دفع « عبد السلام الكويس » الى أن يشوح نحوه فى تقطيبة مهذبة احتراما للشيخ :

ـ « آية ماذا يا رجل ؟! ٠٠ يا رجل فضك من الموضوع ؟

لا تقلق بال الشيخ بدون داع ! » ٠٠

وهنا ظهرت فى عينيه غمزة خبيثة لكنها لطيفة ، يلوح بها للشيخ ولعز الرجال بأن عز الرجال اذا كان عقله مختلا والجميع يعرف ذلك فعلى الشيخ ألا يشغل باله به ، حينئذ كان « عز الرجال » ينظر بالفعل نظرة بلهاء صافية تدل على أنه فزع فزعة لم يكن لها أى لزوم وها هو ذا خجل منها ٠ لكن الشيخ لم يكن ليقتنع بهذا ، وسلط على عز الرجال نظرات حانية مشجعة مذكرة كأنها تريد أن تمسك بلسانه وتحركه بأوضح كلام ٠ ثم قال :

ـ « اعرف يا عز الرجال ان لديك قولا هاما تود أن تقوله لنا ٠٠ وانت لم تقله بعد ٠٠ فلا عليك ٠٠ يمكن أن تقوله لى بعد حين ٠٠ وان كانوا قد شوشروا عليك ولخبطوك وأطاروا الكلام من دماغك ٠٠ ففى سبحة الفجر المقبل يمكن أن تحكى لى ما رأيت ! » ٠

قال « عز الرجال » بلهجة طفل صادق يدافع عن صدقه ولكن الكلام لا يسعفه :

ــ « يا عم ! .. انت لابد قد فهمتني ! .. اخوتي هؤلاء .. ضربوا على أبصـــارهم غشاوة ! .. حدثت الآية أمام أعينهم ! فتركوها .. وراحوا يتعاركون ويتضاربون !! » .

صاح « عبد السلام » في تحفظ :

ــ « يا رجل .. اتق الله ! .. طب قل ماذا فعلنا بأنفسنا مما تزعم أنه عراك ! » ..

فركب صوت الشيخ على صوته :

ــ « بل قل لنا ما هي الآية ؟! » ..

فشوح « عبد السلام » نحو الشيخ في حركة رجاء :

ــ « يا عم ! لا تشغل بالك ! .. آية ماذا تلك التي يتـكلم عنها ؟! » .

رفع الشيخ ذراعه نحوه ليسكته بلطف :

ــ « حلمك يا عبد السلام .. ما دام جاء بذكر آية فلابد يكون قد رأى آية ! .. ان الآية أمر لا يكذبه الانسان ! يكفي تطقك لكلمة الآية ! . والآية قد يراها هو ولا تراها انت مع وجودكما معاً في نفس اللحظة في نفس المكان ! .. وهناك نفس تعجز عن رؤية الآية وهي ماثلة أمامها ! ونفس تكتشفها وهي مارة من بعيد ! .. ان الآية رؤية كما قلت لكم مرارا وتكرارا !! » ..

هنا فزع « عز الرجال خلاف » فزعة أخرى أعلى من السابقة ، وهتف بفرح صبياني :

ــ « بالضبط هكذا يا عم ! .. أقصد .. هذا هو الكلام الذي

كنت أحاول تذكره .. مع انه كان على لساني منذ برهة ! .. والآن تذكرت قلت لنا يا عم ذات يوم : ان الانسان اذا رأى فعلا شاذا .. أقصد غير طبيعي .. فانه ـ هذا الانسان يعني ـ لا يصح أنه يجعله يمر هكذا .. أقصد .. على ما أتذكر .. » .

صاح الشيخ باسما رافعا ذراعه نحو « عز الرجال » :

ـ « فهمت ! فهمت ! انت تقصد قولي : ان كل فعل شاذ ، وراءه ظرف شاذ ، وعلينا حين نبصر هذا الفعل الشاذ ، ان ننظر في هذا الظرف الشاذ ! لنعرف ما الذى أدى الى هذا الفعل الشاذ !

وعندما نفهم ، نكون قد اكتشفنا آية ! فالآية يعنى البينة ! أى نكون قد صرنا على بينة من أمرنا !! » ..

أثناء ذلك كان « عز الرجال » مستغرقا فى حالة طرب هائلة تنتعش ملامحه وتتراقص مع كل كلمة وعند نهاية كل جملة ، الى ان صاح كالذى شفى غليله :

ـ « الله يفتح عليك يا عم ! .. الله يفتح عليك ! ..

هذا هو سلاسل الذهب الذى تمنيت أن أقوله لكم منذ برهة ! ولكن أين أنا من سيدى وتاج رأسى صاحب الكلام ؟! » ..

فابتسم الشيخ وكاد يستغرق فى الضحك اغتباطا ، ثم ردد فى حب واضح :

ـ « الله يجازيك يا عز الرجال .. هأنت ذا تتذكر كلاما كهذا قلته من سنين .. ولم أكن أقله لك بل لنـاس يدركون مراميه .. كتر خيرك .. هذا يعتبر معجزة بالنسبة لك !! » ..

صاح « عز الرجال » وقد استخفه طرب الطفل حين يكسب تأييد الكبار ، وكان يكاد يؤتى حركات نزقه :

« المعجزة هى ما فعله ابنكم الشيخ اسماعيل !

أقطع ذراعى ان ما كانت معجزة ! » ..
ــ « جميل ! قل لنا الآية التى تبينتها ! » .

تهيأ « عز الرجال » للكلام ، بأن رفع يديه وبدأ أنه يفكر فى المدخل الصحيح للكلام ، حينئذ تقدم الطابخ نحو الشيخ فى محاولة لتسفيه « عز الرجال » وتسخيفه وانهاء الأمر ، اذ قال :

ــ « لا تشغل بالك يا عم ! كل ما فى الأمر انّ ابنكم الشيخ اسماعيل ــ أطال الله عمره ــ صحا من النوم دهشانا محظورا .. فــ .. جاء يتبول .. فجــاءت بولته فى قلب الحلة المليئة باللحم المطبوخ حيث كنت قد كشفت عنها غطاءها لخروج الدخان ! .. هذا كل ما فى الأمر وهو خارج عن ارادتنا ! » ..

حينئذ برقت فى عين « عز الرجال » نظرة تلمع بالأفكار ، فى حين أخذ الشيخ يهز رأسه ويزوم هزات ذات معنى تدل على أنه مندمج فى التفكير مرددا :

ــ « ما شاء الله ! ما شاء الله ! » .

صاح « عز الرجال » فى صبيانية لطيفة :

ــ « أقطع ذراعى أن ما كانت معجزة ! هذا أم لا بذمتــك يا عم ؟! » .

قال الشيخ فى نبرة متأملة مفكرة :

ــ « هذا بالفعل شىء شاذ ! فعل شاذ من ابنى الشيخ اسماعيل ! لم يفعله طول حياته ! تعود ان يقضى حاجته هذه فى مكانها الطبيعى ! حتى ولو كان نصف نائم ، حتى ولو كان نائما ، إنه يعرف طريقه جيدا ! » .

قال الطابخ ! » .

ـ « لعله كان يحلم يا عم ! ومنظره كان يدل على ذلك ! كان نائما ! ولم يرد علينا حين جرينا نحوه ! وحتى بعد ان نبهناه ظل يواصـــل التبول فى الحلة حتى أنهى بولته واندفع يجرى الى الداخل !! » .

قال الشيخ فى شيء من الحماسة :

ـ « أنت اذن تؤكد أن الفعل شاذ للغاية ! ولابد أن يكون وراءه ظرف شاذ ، خاص بنا ، أو بشيخنا الصغير ! ولما كان الفعل قد أصاب الطعام الذى كنا سنأكله ، اذن فالنذير موجه لنا نحن ! » ..

صار « عز الرجال » يشب وينتفض من كثرة الطرب ، وأخذ يصيح :

ـ « اقطع ذراعي ان ما كان الشيخ الصغير يقصد ان ينجينا من وقوع كارثة لعلها موتنا جميعا !! » .

هتف الشيخ فى غبطة :

ـ « هو ذاك بالفعل يا ولدى ! هو ذاك .. انظروا فى أمر هذا اللحم فلم تعد لنا به حاجة ! » ..

فانبرت أيد وجاءت بالكلوبات ، ساروا يتقدمهم « عز الرجال » نحو الحلة . رفع عنها غطاءها واقترب حامل الكلوب فانكشف سطح المرق فاذا هو فى لون الكريم اللامع المجزع يخفى زرقة كزرقة البحر ..

تناول « عز الرجال » المغرفة الكبيرة وخرم بها سطح المرق فتبنعث وتماوج ، وخرجت المغرفة بقطع من اللحم مزرقة . أسقطها « عز الرجال » فى الحلة ، ثم جاس بالمغرفة فى قلب المرق ، ثم ارتعشت يده فجأة ، فنزعها بخوف وهو يقول :

ـ أعوذ بالله .. فى الحلة فخذ كامل بدون تقطيع ؟! » .

قال الطابخ وقد اقشعر بدنه :

ــ « فخذ كامل ؟! غير صحيح ! » ٠

دفع « عز الرجال » المغرفة بقوة ، ثم بقوة ، فاذا هي تخرج حاملة جسدا يتمطى بغير نهاية ! تبينوا فيه ثعبانا في غلظة عرق الخشب وطوله ! ٠٠

رجحوا جميعا أنه ذلك الذى كان يسكن في سقف الجيران اللاصق لجدران الكانون مباشرة ، ولم يكن له مأوى سوى أحمال القش والحطب المتراكمة على السطح باستمرار ، ولقد أزيل منها اليوم طبقات كثيرة أشعلت تحت الحلة لانضاج الثور ٠ ولابد ان الثعبان ضاق بحرارة الجــو وبسقوط عشه فأغترب فلاذ بالفرار الى قلب الخطر ، حيث تخطى سقف الجيران ودخل في شق ظنه جحرا عميقا فاذا به مفتوح على الكانون فلم يستطع الرجوع من نفس الثقب الضيق فصــارع كثيرا حتى اختل توازنه فسقط في قلب الحلة فانسلق على مهل ! ٠٠

رجحوا كذلك انه وقع بعد تناولهم العشــاء مبــاشرة وأثناء اندماجهم في الذكر ٠٠

لكن « عز الرجال خلاف » شوح بعصاه فاستوقفهم عن الاستطراد في حديث الترجيحات ، ثم قال :

ــ « ما نحب كثرة الكلام ٠٠ الثعبان أكثر منا غراما بالموسيقى كما قال الشيخ ذات يوم ! والواضح ان موسيقى المنشد هي التى دحلبته وجاءت به الى مصيره ٠٠ وعلى فكرة ٠٠ يخيل الى اننا سنكون كهذا الثعبان التعيس يوم وقوفنا على الصراط المستقيم ٠٠ تسقطنا شرورنا في قلب الجحيم على نغم الموسيقى !! » ٠٠

حدجه الشيخ بسرور عظيم مرددا :

ــ « فعلا ! يضع سره فى أضعف خلقه ! » ..

وقال « عز الرجال » فى اغتباط طفل نجح فى الامتحان :

ــ « احلف بالله وبكل الأنبياء والأولياء ، اننى ما رأيت الثعبان وهو يسقط ! لكننى رأيت فعلة الشيخ الصغير فذكرت قول عمى الكبير فأردت ان أجربه لأول مرة فى حياتى ! » ..

أوما الشيخ برأسه فى اعجاب وتقدير وكثير من الغبطة ، ثم أردف قائلا :

ــ « أكرمك الله يا عز الرجال ! .. انت الآن أثبت نفسا طيبة وروحا عالية وشفافة ! .. ولسوف يغمرك الله بفيضه ! » .

ولاح « عز الرجال » كأنه أسعد مخلوق فى الدنيا . وراح الجميع يسلطون عليه نظراتهم الذاهلة التى يشوبها امتنان وتقدير ، فى حين سطعت على شفتى الشيخ ابتسامة ذكية رائقة ، ركنها فى جانب من فمه وقال :

ــ « ان العلم فى الكتب أى نعم ، ولكنه موجود أيضا فى الحياة والناس .. فى التجربة والموعظة .. وتستطيع كل نفس مجاهدة مجالدة شفافة ان تحصلها وانكم لبالغوها فى يوم ما .. فمن سار على الدرب وصل ! » ..

بدت الراحة على وجوههم ، ثم نكسوا رءوسهم فى خجل كما لو كانوا يشعرون انهم ليسوا أهلا لهذه المجاملة الأخيرة . وقال عز الرجال :

ــ « صحبتك هى أغلى شىء فى الدنيا يا عم ! .. ان الواحد يزداد نورا يوما بعد يوم فى مجلسك ! » ..

رمقه الشيخ بنظرة انبهار وافتتان . مد ذراعيه الى الأمام مفرودين فى دعوة للاحتضان . فتقدم « عز الرجال » نحوه كطفل

يركض الى أبيه متعثرا فى خجله وحيائه • صعد درجات السلم الطينى فصار فوق عتبة الخلوة ، رمى بنفسه فى حضن شيخه وانفجر فى بكاء حار ، والشيخ يربت على ظهره فى حنو شديد • أخيرا اعتدل « عز الرجال » فأحاطه الشيخ بذراعه ومضى به داخل الخلوة والصحاب خلفهم •

تتبعهم « عبد السلام الكويس » ورجاله بنظرات ذاهلة بلهاء فلما اختفوا داخل الخلوة صاح فى الطابخ :

ـ « ثلاث خرفان من عندى تدبحها للفطور وغداء الشيخ حلاوة نجاتنا اليوم ! » •

ثم استدار وعدل طوقه وأصلح وضع الطاقية على رأسه ومضى نحو الخلوة • ففوجىء ب « عز الرجال » يخرج من الخلوة ثم يقف فوق العتبة مشيرا بعصاه نحو الجميع ثم يصيح محذرا :

ـ « احذرا أن تلقوا بما فى الحلة الى ترعة أو قناة أو بئر ساقية أو حقل أو حتى شارع ! •• والا يكون قد دفعنا المصيبة عن أنفسنا والقينا بها فوق رءوس العباد » ••

فقال « عبد السلام الكويس » :

ـ « افحتوا بئرا بجوار المقابر وادلقوا فيه الحلة ثم اردموه »•

ومضى خلف « عز الرجال » يتمسح فيه ويحيط ظهره تبركا به •

الموجود !

كان ذلك الحادث تأكيدا لمشيخة اسماعيل الطفل ، ولكرامات « عز الرجال خلاف » وبعد نظره ، الأمر الذى لم أكن مقتنعا به من قبل رغم ان « عز الرجال » كانت له فى الأصل بعض نوادر ضاحكة

تدل على فطنته وحكمته ، أقربها خناقاته مع زوجته « ست الحسن » اذ يترك لها الدار وبعد أيام يعود كأن شيئا لم يكن فلا يجرى عتاب أو حساب • فيسأله الرجال العابثون من أمثال الولد « جنوم » الذى شاب شعره ولا يزال الجميع ينادونه بالولد لكثرة عبثه مع الرجال بملاعيب العيال : لكن ازاى يا راجل ترجع تنام فى حضنها تانى بعد الشتيمة دى كلها والتهزىء ده كله ؟! • يرد هو قائلا : كل ساعة ولها ملايكة ياسى جنوم • يعنى ايه يا عز الرجال ؟ يعنى الساعة السيئة اللى نفوت كفاياها وآهى فاتت ! ايه لزوم انى أخسر الساعة لحالها ؟! دى زى ذنب ارتكبناه واتعاقبنا فى ساعتها حنكرره تانى ؟! يا عم دى الدنيا غويطه والعمر قصـــير ! ده عمر البنى آدم كله مايكفيش العبادة لوحدها ! يادوبك كده !! ••

ثم اننى صرت بعد ذلك اذا رأيت ناسا يتحدثون عن «عز الرجال خلاف» بأنه مجنون هادىء فاننى أوافق ! وأضيف الى حكاياهم عنه نادرة من عندى تؤكد ما ذهبنا اليه ! • واذا رأيت ناسا يتحدثون عنه بأنه شيخ واصل وله كرامات فاننى أوافق ! وأحكى كذلك نادرة تشى بذلك ! • واذا رأيت ناسا يتحدثون عنه بأنه مجرد درويش مجذوب لا تعنيه مسالة الوصول أو الأصول اذ لا خبرة له ولا ادراك لمعنى المجاهدة والمواجيد ، فاننى أوافق ! وفى هذه الحالة لدى محصول وفير من النوادر والحكايا التى يتناقلها الناس عنه ! •• فشخصيته بهذه الصفة الأخيرة تعتبر مجالا واسعا لتأليف النوادر يختلقها الناس فى لحظات الفوقان والمرح ! ••

البلبلة

على ان شيئا غريبا حدث قبل موته اليوم بأشهر قليلة جعل البلدة كلهـــا فى بلبلة حقيقية مثلى وأكثر ! حتى لقد لاحظت أنه الشخص الواحد يقول بالآراء الثلاثة ربما فى مكان واحد فى لحظة

وإجلة كأنه يصدق الآراء الثلاثة بقدر ما يرفضها ! لذا ترى الناس كلهم فى مكان ما يقولون انه مجنون صرف ! وفى مكان آخر يقولون كلهم أنه واصل وذو كرامات وان الذى يفعله من هذيان وجنون هو الكرامات بعينها !

وفى مكان ثالث يقولون انه درويش مجذوب يسوق العبط على الهبالة !!

يقولون بكل ذلك بنفس الحماس والحكى بمزاج رائق !!

روحية والحطاب

• كان « عز الرجال خـلاف » متمطرقا فى شمس الظهيرة بجوار تندة دكان تاجر البطيخ والخضراوات « غازى أبو داوود » يكلم نفسه ينفخ بهرش ذقنه من خلال لحيته الطويلة ينقر الأرض بعصاه الحديد نقرات تشبه توقيعات ينظم بها نغما فى رأسه أو فى الكون يريد جذبه الى أذنه ..

لحظتئذ كان « محمود الشـامى » الأجير مقبـلا يتهادى نحو مصيبته ..

« محمود الشامى » كهل معدم ، لا يملك من حطام الدنيا غير سقف مبنى بالطين تملكه أمه فى حارة النجايمه ، وحمار هزيل فوق أنه عجوز ، يقطع المسافة من الدار الى الشارع العمومى فى صبحية ، والمسافة من الشارع الى الترعة القريبة فى ضحوية ، والمسافة من الترعة لأى حقل فى ضهرية ، ولا يبقى أمام « محمود الشامى » سوى عصرية ضيقة يحتطب فيها ، يجمع أى عيدان وأى حشائش نافعة تصادفه فى الطريق ، فيعود فى المغربية وظهر الحمار العجوز الهزيل يئن تحت حمل من أشياء مختلفة عجيبة : حطب ، بوص ،

أفرع شجر جافة ، عيدان ذرة عويجة خضراء ، عيدان تيل ٠٠ وفوق الحمل يركب هو ٠٠

حظ الحمار حسن ، اذ ان « محمود الشامى » يبدأ فى بيع هذه الحمولة من بداية دخوله بين المساكن الخارجية المتطرفة عن البلدة متطفلة على الطرقات والحدائق والمساحات الخضراء ، بل ان له لزبائن يعرفون ساعة أوبته ٠ « حسن » خفير الجنينة وزوجته « روحية » ينتظرانه على كوبرى ترعة السلمونية ٠ انهما جيران « محمود الشامى » الحائط فى الحائط ولأنهما يخفران هذه الجنينة فانهما لا يبيتان فى دارهما الا بين ليلة وأخرى خاصة فى الأيام التى تخلو فيهــا الأشجار المحاذية للطريق من ثمار تسرق ٠ يصنعان للطريق ونسا ، ينتظران ـ بكوخهما الواقف على هامش الطريق كأنه منتظر هو الآخر ـ يؤجلان تسوية شاى الدور الثانى الى أن يظهر شبح الحمار كظل متحرك لشجرة هرمة ٠ واذ يبلغ «محمود الشامى» كوخهما يجدها فرصة يستريح فيهــا الحمار ويشم هو نفســه ، ويجدانها فرصة لانتقاء ما قد يكون فى حصيلته من خضروات سرقها خلسة من الأراضى : شوية ملوخية ، قرنين بامية ، طماطمايتين ، خيارتين ٠ هو صحيح يسرقها لأمه العجوز ولنفسه لكن لا بأس من تنازله عن بعضها رضاء أو كرها ٠ ان ما معها سيظهر من تلقاء نفسه ، اذ ان « محمود الشامى » سيجلس ليشرب الشاى ؛ وسيفك الحمل ليبيع لهما كل ما فى حصيلته من أعواد جافة يستخدمانها كوقود للتدفئة والطبيخ والشاى ، وسواء كانت الأغصان الجافة كثيرة أو قليلة ـ ورغم انه سيشرب الشاى دورين ثقيلين ـ فان « روحية » زوجة « حسن » الجناينى حين تدب يدها الصغيرة فى سيالتها يصيح هو قائلا بصوته العجوز المشروخ الأهتم :

ـ « الواحد بأربعة يا روحية ! الواحد بأربعة ! اعملى حسابك ما تطلعيش غيره ! يعنى حتى لو فكه مش عايزهم ! » ٠٠

« الواحد بأربعة » قطعة نقود من الفضة فى حجم زرار الجلباب

مبططة على ستة أضلاع قيمتها قرشان إى أربعة تعريفة أى عشرين مليما ، جميلة الشكل حقا كما هى جميلة الملمس ، على وجهها صورة الملك فاروق وعلى وجهها الآخر كتابة كشهادة ميلاد لهذه القطعة فى المملكة المصرية ٠٠ وكان أولاد الذوات وأولاد الطالعين فيها من أهل بلدتنا ، والذين يلبسون جلابيب بياقة وصفرة وأساور وجيب على الصدر ، يسمون هذه القطعة « نص فرنك » ٠٠

« الواحد بأربعة » هو مطلب « محمود الشافى » لقاء هـذه الكومة من الأغصان والأعواد الجافة ، مبلغ كبير ، صحيح ان الكومة ـ كما يقول ـ لو بيعت فى المدينة لساوت عشرة قروش صاغ ٠٠ ولكن أين نحن من البندر ؟ ثم ان هذه الأغصان متوفرة ها هنا وأى واحد يستطيع أن يجمعها ، فلا فضل لـ « محمود الشامى » اذن سوى جمعها فهل يساوى ذلك « واحد بأربعة » بحاله ؟! ٠٠

هكذا تقول له « روحية » وهى تضع حبتى عينيها كل حبة فى ركن قصى ، محاصرة بهما رجولة « محمود الشامى » التى لا تزال رغم الكهولة بارزة واضحة قوية طاغية تزرى برجولة زوجها « حسن » الواهنة رغم انه دون الخمسين بكثير ! ٠٠ عارفه مقدما أن زوجهـا فى الأصل بلا نخوة تستثار ! ومتأكدة ان « محمود الشامى » فى الأصل ذائب فى هواها أسير لعينيها لكنه مع ذلك لن يتنازل بأى حال من الأحوال عن الواحد بأربعة ولن ينوبها سوى المناهدة ووجع الدماغ ! ٠ مع ذلك تمسك بطرف المنديل المعقود على بضع نقود فى حجم دمل كبير ثم تبقيه معقودا علامة على أنها لم تقبل السعر بعد وقد لا تقبل البيعة من أساسها ويضطر هو لاعادة ربط الحمل من جديد ، أخيرا تقول وقد عادت عينها الى المنديل كسيرة مهيضة :

ـ « واحد بأربعة بحاله ؟ دا يومية راجل طـول النهـار يا مفترى ! » ٠٠

يضغط آخر شفطة فى كوب الشـاى ويشـوح بيده السرحة قائلا : —

— « ما هو ده يوميتى أنا وجمازى ! » .

تغتاظ منه ، لا تجد شيئا تعاقبه به سوى ان تعطى له أربعة تعريفة فكه ، لكنها أمام تشويحه وتحت اصراره تزيح التعريفات والقروش بأصابعها متجاهلة قطع الواحـد بأربعة الجديدة ، وهى تجد أنها لا ترحب بالواحد بأربعة بين نقودها لأنه يغالطها ويخرب بيتها اذ أن شكله يشبه شـكل العشرين خردة تمـاما وهى قطعة مسدسة الشكل أيضا ومن الفضة كذلك ولكن قيمتها نصف تعريفة أى مليمين ونصف . و « روحية » كثيرا ما تبيع فواكه الحديقة خلسة للمارة وتتقاضى منهم عشرين خردة على انها واحد بأربعة ، وكثيرا ما يطلب أحدهم بقية قرش فتعطيه واحد بأربعة على انه عشرين خردة يخطر لها وهى تقلب فى حفنة القروش ان تعطى ل « محمود الشامى » عشرين خردة على أنها واحد بأربعة ، تكاد تفعل ذلك لكن « محمود الشامى » يضيح فيها محذرا : « لا لا لا .. واحدة تانية شبه دى » .. ينشرح وجهها لأنه نبهها باعتبارها بريئة لا غشاشة تعطيه الواحد بأربعة كأنها تزغده به فى كفه ! ..

بعدها يجد « الحاجة زهره » بائعة الفسيخ تنتظر أمام دكانها وأمامها صفيحة للفسيخ وأخرى للسردين فوقها لوح خشبى تعرض عليه البضاعة قبل لفها ، تشترى من محمود الشامى ما معـه من حشيش ونجيل اذ أن لديها حجرة كاملة ملآنة بالأرانب والبـط والدجاج ، تعطيه فى العادة قرشا وسردينة أو رأس فسيخة كبيرة .

وأما أعواد البوص فانه يحتفظ بها ليسويها وينظفها ثم يربطها الى بعضها بخيوط الدوبارة صانعا منها أنواعا من الحصـير تصلح كفرشة للنوم والجلوس يمكن غسلها بالماء كلما اتسخت ، وأنواعا

من الأبواب وحظائر الدجاج وأسقف الحجرات ، يفعل ذلك فى يوم الجمعة من كل أسبوع وهو اليوم الوحيد الذى يستريح فيه حماره ..

وأما أعواد الذرة الخضراء أو البرسيم فان زبونها مرابط فى الشارع العمومى ، انه « غازى أبو داوود » تاجر البطيخ والخضراوات ، اذ لديه خروف وعنزتان ولادتان يربطها كلها فى حوامل الشدة الخشبية البارزة فى الشارع عن باب الدكان ..

كان الناس يتأهبون لصلاة المغرب و « عز الرجال خلاف » ذاهل فى جلسته ، ناسيا ان الشمس التى كان يطلبها قد غربت تماما ، ولحظتها كان « محمود الشامى » قد فك الحمل عن الحمار وانحنى يفرز الأعواد الخضراء كى يتركها ل «غازى أبو داوود» ، الذى أخذها بالفعل ورصها فى حذاء « عز الرجال خلاف » وذهب لاحضار ثلاثة تعريفة من درج الحصالة فى حين انشغل « محمود الشامى » يلم بقايا حمله المتناثر على الأرض ، ولم يفطن الى أن حماره الجائع منذ سنين طويلة قد سال لعابه حين رأى الأعواد الخضراء التى كان يحملها قد صارت أمام عينيه مباشرة على مقربة من تناوله ، فتسلل نحوها آخذا فى طريقه « عز الرجال خلاف » دون احم أو دستور ، فجأة انتزع « عز الرجال » من بئر الغيبوبة الطويلة العميقة وفتح عينيه فوجد الحمار واقفا فى حجره بقدميه الأماميتين ورقبته الطويلة تعبر كتفه الى حيث وضعت الأعواد الخضراء فوق دكة خشبية ! ..

فى تلك اللحظة ـ لابد ـ جن جنون « عز الرجال » حقيقة ، فبسن عصاه الحديد ، وبكل قوته ، زغد الحمار فى بطنه ، فانتفض الحمار فوق « عز الرجال » يكاد يفطسه . بسرعة مدهشة انتزع « عز الرجال » نفسه من تحت الحمار فخرج بدون خرقته ووقف عاريا تماما وشرر الغضب يتطاير من وجهه وعينيه . وكانت العصا قد صارت فى متناوله ، فهوى بها فوق رأس الحمار بضربة جانبية شرخت الأذن وهشمت الفكين ، فلفظ الحمـــار آخر أنفاسه ، فيما

يترع « عز الرجال » خرقته ثم يرتديها بكل بساطة ، وسط صراخ « محمود الشامى » الذى راح يلطم خديه ويشق هدومه ويصيح فى لوعة :

ــ « عملت كده ليه يا شيخ زفت ؟! » ..

فهرش « عز الرجال » فى لحيته ونفخ :

« بده يرفس ! » ..

ونفخ مرة أخرى فى وجوه اللمة من حواليه ، فانفجروا جميعا ضاحكين رغم شدة أسفهم لخراب بيت « محمود الشامى » ووقف حاله . وكان « محمود الشامى » يهم كثيرا بالهجوم عليه والفتك به ، لكن عقلاء كثيرين من الجمهور كانوا يعترضونه من ناحية ، وعصا « عز الرجال » الحديد كانت تلوح بالويل من ناحية أخرى . فى النهاية جلس « محمود الشامى » على عتبة الدكان يبكى بحرقة . أما « عز الرجال » فانه مد عصاه ووسع بها مكانا بين اللمة ، ثم مضى الى حال سبيله كان شيئا لم يكن ! ..

يومها احتشدت سماء البلدة بالاخبار الغريبة والاشاعات العجيبة المريبة اذ الناس كلهم فى حمي البحث عن سبب يدعو « عز الرجال » لهذه الفعلة العنيفة لأول مرة فى حياته ..

قال الولد « جنوم » وهو جار ل « محمود » و « روحية » ان الحمار كان يستحق الذبح فعلا ، ثم مال على الآذان وهمس من بين شفتيه الغليظتين العابثتين على الدوام بغريب الاشاعات ، ملوحا بأنه كثيرا ما شاهد حمار الشامى يتسلل فى الليل الى زريبة « حسن » الجناينى متخطيا نصف جدار يحجز بين الدارين ، وانه شاهد « روحية » تحتضن الحمار وتغيب عن وعيها دقائق كثيرة ! ..

وقال « غازى أبو داوود » ان عز الرجال « نفذ مشيئة الله بأن يستريح هذا الحمار من غلبه الأزلى ! ..

وقال خفير الدرك وهو يكتم ضحكة خبيثة ونظرة جنونية ان حقيقة الأمر عنده هو ، اذ أنه في كثير من الليالى كان يرى «عز الرجال» كامشا فى كوخ « حسن » الجناينى لساعات طويلة ربما معظم الليل وانه ذات ليلة ضبط « عز الرجال » و « روحية » معا وحدهما : أى ان « عز الرجال » — فى حقيقة الأمر — يرى ان « محمود الشامى » غريمه فى حب « روحية » ، وقد تعمد ايذاءه على هذا الأساس ! ..

وقال ولد من هواة السهر بين الأشقياء ان « حسن » الجناينى هو الذى أوعز لـ « عز الرجال خلاف » ان يؤذى « محمود الشامى » لأن « حسن » الجناينى يعتقد ان « روحية » تخونه مع « محمود الشامى » ! غير أن « عز الرجال » جبن عن ايذائه فقتل حماره ! ..

ومع ذلك فان أهل البلدة بعد ان رددوا هذه الاشاعات طويلا عادوا فتنكروا لها ، وقالوا : عيب ! لا داعى للخوض فى أعـراض الناس ! ..

واليوم مات « عز الرجال » قبل ان يكتشف الناس الحـكمة الكونية البليغة التى دفعت « عز الرجال » لهذه الفعلة الغريبة ! .. وكان ميزان الرأى العام فى البلدة قد بدأ يميل تماما نحو اعتبار « عز الرجال » مجرد مجنون لا أزيد ولا أقل ! ..

مع ذلك فهاهم الآن كلهم قد تجمعوا أمام دار زوجته « ست الحسن » بمجرد علمهم بخبر وفاته ، حتى « محمود الشامى » هو الآخر قد حضر وجلس كسيف البال حزينا . وها هى ذى الجموع تهدر فى صيحة واحدة مليئة بالورع والتقوى : « لا اله الا الله .. .. » .

البوتقـة

مسحتهم بنظرة ، خيل لى انهم جميعـا قد انشدوا فى كتلة واحدة على صفين متقابلين بعديد من الرءوس المتساوية فى الحرارة

والانفعال والجدية والألم ! كأن نارا خفية سرت بينهم فصهرتهم جميعا في جسد واحد ، وكان يبدو عليهم كأنهم الآن فقط قد أدركوا حقيقة أمر « عز الرجال خلاف » ، وانهم لو رأوه الآن لجثوا عند قدميه يطلبون الصفح والمغفرة ، بل ان الشبان الضاحكين تبدو الآن عليهم جدية عميقة وهم يرددون : ما شاء الله ! ما شاء الله !٠٠

حي على العناق

كانت أجمل صلاة عصر شاهدناها ، اذ تحرك الجمع الغفير نحو مسجد الجرانة فملأه عن آخره وملآ الفراغ المجاور له ٠

وكان أول ميت في بلدتنا يخرج نعشه قبل وصول الناس من الصلاة ، حيث تكاتف الولدان الذين يطلبون صفح « عز الرجال » — ربما عن ذنوب لم يرتكبوها — فحملوا نعشه فأوقفوه على ناصية الشارع العمومي وقد غطوه بشال من الكشمير الثمين المزركش وربطوا أطرافه بالنعش ، الذي انتصب واقفا على أربع كالمحمل الجميل ٠٠

تحلقناه ونحن نتجنب النظر في عيون بعضنا البعض مداراة للبكاء النابت فيها ، وقد بدا لي انني وكل الولاد قد بدأنا نعرف « عز الرجال خلاف » لأول مرة في حياتنا ٠ الولد « شوشة » ابن خالي يلامسني هامسا : « طب والله وكتاب الله ياد يا مجيى أنا كنت باتغاظ من ست الحسن لما كانت تشتمه ! » ٠ فوجدتني أقول أنا الآخر : « والله العظيم وانا ٠٠ ولما كانت بتكرشه من دارها بابقى نفسي أفتح له المندره بتاعتنا يبات فيها ! » ٠ فقال الولد « شوشه » كأنه يستشهد بي أمام الله : « مش كده أنا كنت باحبه وعمري ما شتمته زي عيال حارتهم ؟! » وكنت أعرف أن الولد « شوشه » كثيرا ما شتم « عز الرجال » وجرى وراءه في الشارع يزفه بالمعاكسة ،

لكني قلت له : « وانا كمان يا خويه عمرى ما شتمته دانا حتى كنت باتعارك مع العيال اللى بتشتمه ! » ٠

ثم انتبهنا الى زحف جموع الخارجين من الصلاة وتهيأت أبداننا لتلقى الرعدة حين يهب صوات النساء فجأة فى صيحة جماعيـة رهيبة ٠ لكن هذه الصيحة تأخرت ، فانتبهت الى ان الميت ليس له نساء يصوتن عليه ، انتبهت كذلك الى ان الدار محتشدة منذ الصباح بعدد هائل من النساء ! ٠٠

سرى بين الجميع همس يتردد من شخص لآخر سرعان ما ارتفعت به الأصوات قائلة ان الشيخ زمانه الآن فى آخر الطريق وسيحزن ان لم يلحق بالمشـهد ويمشى فى موكب الدفن ، فمن أجل خاطر الشيخ ننتظر قليلا ٠٠

توجه « عبد السـلام الكويس » نحو النعش قائلا فى رجاء حار : ـ

ـ « لا تؤاخذنا يا عز الرجال ! لقد انتظرك الشيخ طويلا فى الأيام الأخيرة فلا بأس من ان تنتظره برهة ! سيأخذ على خاطره منك لو لم يلحق بك ويودعك الوداع الأخير ! » ٠٠

وظل « عبد السلام الكويس » واقفا بحذاء النعس ينخرط فى بكاء عنيف ولكن بصوت مكتوم ٠٠

جاء « خليل البسيقى » ووقف جواره يهدىء من روعه ٠ ثم تبعه « محمود الصالحى » ، و « جابر عسر » ، وفريق من أهل بلدتنا تحلقوا النعش وحجبوه على الأنظار وقد اندمجوا جميعا فى قراءة آيات من القرآن ٠

لحظات ودبت فى الجمع المتكاثف انتفاضة مفاجئة بعثت فيه كثافة جديدة وتوترا جديدا ٠ بدأ الهمس يقترب : الشيخ وصـل الشيخ وصل ! ٠ ثم انشقت كتلة الجمع الى شـقين ، ظهر بينهما

وهط من الرجال النظفاء يرتدون الجلابيب الصوف وفوق الأكتاف عباءات من الجوخ الاسود الثقيل وفوق الرءوس شبلان من الكشمير المزركش بالخيوط الملونة · وكنا قد رأيناهم وهم ينزلون عن ركائبهم عند دكان « غازى أبو داوود » فتكفل بها ناس كثيرون ساقوها الى الزرائب · وكان كل الأولاد وكبر من الرجال يحاولون رؤية الشيخ وتمييزه بين هؤلاء الرجال الذين يتصاعد المسك من ريحهم · ولما كنت أعرف الشيخ من قبل فانني دققت في وجوهم واحدا واحدا فلم أر الشيخ من بينهم · فلما استقبلهم « عبد السلام الكويس » و « خليل البسيقى » و « محمود الصالحى » و « جابر عسر » تبين أنهم وفد من الشاذلية والبرهامية ممن يعرفون « عز الرجال » حق المعرفة وأنهم كانوا مع الشيخ لحظة وصول النبأ فركبوا وسبقوه ··

ثم لم تمض دقائق معدودة حتى ظهرت ركائب أخرى ترج الأرض نحو دكان « غازى أبو داوود » ، ثم ما لبث الرجال الأخرون حتى ظهروا نحونا ، ميزت من بينهم الشيخ ، كان لا يزال كما رأيته منذ سنوات نفس الجسد الضئيل اللحم مع طول فارع ، ونفس الوجه الأبيض المستطيل الضارب الى الحمرة ضامر الوجنتين طويل اللحية ، يلف رأسه بشال من الحرير الأبيض الشفاف ، تطل من عينيه نظرة ودودة تستدعيك لتتعرف عليك تقول لك اتبعنى تكسب ، وانت بالفعل لابد ان تتبعها أينما سارت لأنها نظرة تكبرك وان كنت صغيرا توقرك ، وان كنت مهانا تمنحك الحب وأن كنت صادى النفس قاحلها !! ··

وهكذا فقد سار الجميع خلفه كبيرا وصغيرا وكادوا ينشغلون عن الميت بالفرجة عليه وعلى بساطة ملبسه وشدة أناقته والورع البادى عليه حتى ليجبرك على ان تدعو له بالستر والتوفيق · ولقد ظهرت النساء فجأة من دار « ست الحسن » ومن وراء الأبواب والشبابيك ومن فوق الأسطح ينظرن خلسة الى الشيخ !! ··

اندفع الشيخ نحو النعش فعانقه وانكفأ عليه وسط ذهول

الناس لمدة دقائق طويلة ارتفعت خلالها صيحات البكاء فجأة هنا وهناك . اخذت موجات تتصاعد وتتمدد حتى لاح كأن البلدة بكاملها تبكي كالأطفال مع ان الأطفال لحظتها لم يبك منهم أحد ، بل وقفوا مبهوتين يتفرجون على هذه المظاهرة النائحة نواحا متقطعا يشبه الضحك في ايقاعه وصوته لولا انهمار الدموع بغزارة كالمطر !! ..

لاح المأتم كأنه شيء جديد على البلدة . فلم تخرج صيحة النساء تدب بالأكف نادبة ، وفوق ذلك خرج النعش من معقله دون أن يتشبث به أحد دون ان يغمره الصوات ، حتى ان صرخة واحدة شرعت ترتفع داخل الدار لكن « ست الحسن » شكمتها فقطمتها حسب وصية « عز الرجال » ، فلما سألوها هل أوصاك حقا ؟ قالت لا ولكنه لم يكن يحب ذلك ! ..

أخيرا رفع الشيخ وجهه عن عناق النعش وقد تخضلت عيناه بالدموع الدامية ، ثم قال : توكلوا على الله .

الزغاريد !

رفع الشبان النعش ، في الحال رنت زغرودة مجلجلة راحت تنسلق النعش وترتفع على أكتاف الرجال . تبعتها في الحال زغاريد أخرى ، التفتنا ، تكاد الدهشة العظيمة توقف قلوبنا ، كانت صاحبة الزغرودة الافتتاحية هي « ست الحسن » التى وقفت على عتبة الدار شبحا هزيلا كعود حطب داخل ثوب واسع فضفاض ، يتحلقها رهط من النسوة تنثال الدموع الغزيرة على خدودهن ومع ذلك يجاوبنها في الزغاريد ! كلها زغاريد رائقة صافية تشخلل البهجة فيها ، الا زغرودة « ست الحسن » كانت من الحجم الكبير الضخم تبتلع كل الزغاريد الأخرى تستوعبها تعيد اطلاقها من جديد عبر حنجرة صوتها مجلجل يرعدنا يبهجنا حتى البكاء ! وكان واضحا ان هذه الحنجرة تزغرد بدلا من أن تصوت ! لقد نهاها المرحوم عن تشبيعه بالصوات فلتشيعه بالزغاريد ! فلتصوت مغنية !! ..

زغاريدها الطليقة الحارة صنعت سماء جديدة كمظلة واقية للنعش الأنيق المهيب ، الذى مضى تحت سقف الزغاريد يحفه موكب هائل جليل ! كأنما البر المصرى كله جاء يودع « عز الرجال خلاف » الى مثواه الأخير ! ·· ولاح كأنما الأرض هى التى تزحف بأربعاتهم وخمساتهم خمساتهم المتلاصقة ··

لحظتها تسلقت مع العيـــال ســور ضريح سيدى « مطرف بن عبد الله » القائم على ربوة وحده متاخمة لربوة المقابر · وقف كل منا فوق ضلع من أضلاع الباب العالية ·· فصار الموكب كله تحت أقدامنا مترامى الأطراف لا نهاية له ولا بداية ، رءوس رءوس ، رءوس رءوس رءوس كسلاحف تتناطح والنعش بارز على السطح كطائر محلق · ثم لاح لنا ان النعش قد انفصل عن الأكتاف وهاهو ذا يسبح وحده فى الجو · وكان الموكب قد صـار تحت الربوة مباشرة ، وبدأت أجنحته غير المنتظمة فى صـفوف تزحف نحونا متطفلة على موقعنا تريد مشاركتنا فيه · ثم ظهر أن فى الأمر شىء غير عادى جعلهم يتلهفون على هذه الوقفة مثلنا ··

ثم ان الروع قد أخذنا جميعا حين صارت الأرض كلها تهتز بصياح فاجع محموم : فى عرضك يا عز الرجال ! عشان خاطرنا يا عز الرجال ! ماتشحتفش قلبنا معاك ! اهىء اهىء اهىء ··

هنا وجدتنى أنا الآخر أبكى مع العيال دفعة واحدة · ذلك اننا رأينا بأعيننا النعش يتطاير فى الهواء رائحا غاديا وأذرع الرجال تشب ممسكة به فى قوة ، وأذرع أخرى تسنده من الجنبين ، فيميل هنا تارة وها هنا تارة أخرى ، ثم تتعوج مقدمته ذات الرأس الخشبية المرتدية الطربوش ، ووضح ان النعش يلوى عنقه يتمرد على وجهة القرافة يريد العودة الى البلدة !! ··

هبطنا الربوة جريا سريعا فصرنا فى قلب المشهد بجوار النعش ، ولحظتها كان « خليل البسيقى » يقول للشيخ من خـلال دموعه المنهرة :

ـ « أظن انه قد جاء دورك يا شيخ فقل له كلمة فانه لابد ان يسمع كلامك ! حدثه يا عم ! » ..

هز الشيخ رأسه وقال فى ثقة :

ـ « أعرف ان وراءه مشوارا قصيرا لابد أن يؤديه !

فدعوه يقوم بهذا الواجب ولا تبخسوا رجاءه !! » ..

قال من حوله :

ـ « اتعرفه يا شيخ ؟! » ..

قال الشيخ :

ـ « نعم .. عز الرجال يريد ان يزور أعمامه الأولياء فى اضرحتهم لقد حدثته عنهم طويلا فاحبهم وحفظ الكثير من أقوالهم وأفكارهم ونقل الكثير من مجاهداتهم وطموحاتهم : سيدى سليمان العجمى : سيدى على أبو دبوس ! سيدى هارون ! كان يجب ان يكون طريق الموكب مرسوما على هذه الخطة من الأساس بحيث نمر على كل هؤلاء فى طريقنا الى هنا ! لنقرأ الفاتحة ونصلى ركعتين ! فهل فى فى مقدورنا ان نفعل ذلك الآن ؟ » ..

قال « عبد السلام الكويس » :

ـ « هذه بهدلة للجثة » .

وقال « خليل البسيقى » :

ـ « وهناك أرقة ضيقة فلا ينفذ منها النعش » ..

وقال « جابر عسر » :

ـ « اذا كان المرحوم قد حدث الشيخ عن هذا الأمر فلابد من تنفيذ وصيته » ..

قال الشيخ :

ـ « قد حدثني ! وكان في حوار دائم معي ومعهـم ! وكان حوارهم معه يجهده ويجهدني حين يسألني تفسيرا أو تعقيبا ! كان يتحاور معهم من خلالي ! » ..

قال « محمود الصالحي » مشيرا الى النعش :

ـ « خلاص ! ننتظره نحن هنا ويذهب هو بصحبة الرجال فيزور أصدقاءه ويعود ! فربما كان يحب أن ينفرد بهم !! » ..
قال الشيخ مسبلا عينيه :

ـ « ربما ! ربما ! » ..

قال « عبد السلام الكويس » :

ـ « هيا اذن يا جدعان » .

الشـدى !

حمـل الرجال النعش ثانية ، ثماني رجال ، كل طـرف من أطراف النعش يتعلق به رجلان . مضوا به ، فأنسربت وراءهم عدة أسراب من هنا وهناك ، فتكون المشهد من جديد مزدحما حافلا رغم أن الجرن العريض الملاصق للمقابر كان يغص بجموع المنتظرين ! . ومرة أخرى بدأ النعش يرتفع ويهبط ويتمايل ويلوى عنقه كزورق صغير تتدافعه أمواج عاتية وترنحه رياح هوج . ومن جديد ارتفعت صيحات البكاء عالية زاعقة نواحة ..

توقفوا عن السير ، تدافعت الجموع تنضغط في بعضها البعض موسعة فراغا صغيرا لرجل أسود غليظ الكتفين يحمل سيدة عجوزا

نناهز السبعين من عمرها كورقة شجر يابسة · ذلك هو المعلم « حزمبل » وتلك هى « جل الخالق » أم « عز الرجال » · ها هو ذا حزمبل يوقف السيدة قائلا :

ـ « كلميه يا امه ! » · ·

حينئذ تذكرت ، وتذكر كل الواقفين ، ان « جل الخالق » أم « عز الرجال خلاف » هى أم المعلم « حزمبل » أيضا ، أى انه شقيق للنسيخ « جمعه » من الأب ، وشقيق لـ « عز الرجال » من الأم · ها هو ذا يوقف أمه بحذاء النعش ، فاذا هى تتشبث به وترتمى فوق النعش مطلقة من صدرها نفسا وأهنا لا يكاد يسمع ، فى صوت أرادت ان يكون صراخا فجاء فحيحا له بعض الطنين الأجوف · راحت تماس على النعش وتقبله وتمسح وجهها فيه ، ثم دبت يدها العجفاء فى فتحة صدرها وأخرجتها ممسكة بورم ضامر فى مقدمته حملة كحبة الزبيب مزرقة ، واتجهت بها نحو مقدمة النعش والرجال يغمضون أعينهم ويدأرون وجوههم فى الناحية الأخرى · قربت العجوز ثديها من رأس النعش حيث تستقر رأس ابنها ، وقالت فى فحيح غلبان منهزم :

ـ « بحق هذا الثدى الذى رضعته يا عز الرجال اهدأ نفسا وأمض مع الرجال الى دارك الباقية ! لقد اتعبت الرجال يا عز الرجال واتعبت نفسك كالعادة دائما ! طول عمرك صعب الا تنزل عما فى رأسك قط ! فأنزل اليوم من أجل خاطرى ولا تفضحنا فى البلاد يا عز الرجال يا ولدى ! هيا فالله معك ! أعرف انك مكسوف من رؤية وجه الله وتعتبر نفسك مقصرا فى حقه ! كنت تريد ان تقابله وفى يمينك كتاب ثمين ! ان كنت مرتاعا من وجه الله فصالح اعمالك فى صالحك ! » · ·

ثم استدارت الى الناس قائلة فيما يشبه الأمر :

ـ « أحملوه ! انا واثقة انه سوف يمضي معكم ! » ..

حملوه ومضوا ، وحمل « حزمبل » أمه العجوز على كتفيه ومضى بها خلف النعش . ومضى الركب خطوات لكن حاملى النعش سرعان ما فقدوا توازنهم وصاروا يتعثرون في اضطراب ، نطقوا جميعا في نفس واحد : الهمة يا جدعان ! . ثم تدافعوا كصبيان المراكبية يشدون حبل اللبان ، وقال أحدهم :

« النعش ثقيل أم نحن ضعاف البنية ؟! »

فقال آخر :

ـ « النعش لا يريد أن يتحرك » ..

وقال ثالث :

ـ « ها نحن قد وصلنا » .

ظهرت قبة سيدى « سليمان العجمى » ، فتزحزحوا بالنعش حتى حاذوا قبة الضريح وصاروا جميعا يقرءون الفاتحة ويرفعون أكفهم نحو السماء في ورع . ثم حملوا النعش ومضوا في تثاقل . خرموا من طريق الجفار الموحش الملىء بالهديم . بضع خطوات صاروا أمام ضريح سيدى « على أبو دبوس » ، توقفوا ، ذهبوا الى سيدى « هارون » ، وقد لاحظنا ان الموكب بدأ يسرع بل بدأنا نجرى جريا . وقال واحد من حملة النعش : « انت مجرينا كده ليه ؟! » ، فرد آخر وهو يلهث : « مخه ناشف الله يرحمه » ، فضحك البعض ، وشخط فيهم آخرون : توقفوا عند ضريح سيدى « هارون » ثم قرأوا الفاتحة . من سيدى « هارون » الى المقابر مسافة قصيرة ، لدرجة أن الجمع المصاحب للنعش التحم بالجمع المنتظر في الجرن وكان النعش مع ذلك يجرى طائرا في الهواء والأذرع متشبثة به . وصار حملة النعش يكتشفون ان آخرين قد حملوه نيابة عنهم أو تلقفوه من بعيد فينحنون ويخرجون من تحت الأجساد !! ..

لم أعرف كيف صرت مرة أخرى بجوار ضريح سيدى « مطرف ابن عبد الله » • فانتبهت الى ان الزحام الذى دفعنى دفعا وانا شيء ضائع بين الأقدام ، يريد ان يواصل دفعى أو الصاقى فى حائط الضريح ، ففعلت مثل بقية العيال وتسلقت مقبرة عالية وقفت عليها غير آبه باعتراضات البعض وصياح البعض الآخر من ان المقابر قد تهدمت فى هذا اليوم الغريب ••

نظرت الى بعيد فرأيت الجمع فى السفح قد التأم فى صفوف منتظمة لا نهاية لطولها أو عرضها ، والنعش أمامهم كشاهد الفيلة ، وهم جميعا مندمجون فى الصلاة ، وكلمة الله أكبر ترتفع متكورة منغومة مليئة بالشجن والورع المرعبين • ونظرت تحت قدمى فرأيت على مقربة منى حفرة عميقة أمام فسقية فقيرة الحال مبنية بالدبش الأحمر تتصاعد من جوفها رائحة زكية ، فعرفت انها المقبرة التى سيدفن فيها « عز الرجال خلاف » •

ان هى الا دقائق معدودة حتى كان طابور من الرجال قد راح يتسلق ربوة المقابر فبدوا كحيوان خرافى والنعش فى المقدمة كرأس الأخطبوط ! ••

لم أدر كيف وصـل هذا الرأس الى هذه الحفـرة • لكننى لا استطيع وصف لحظة دفنه • كانت كلحظة انفجار حريق هائل شب فى كل شيء فاذا كل شيء يشتعل باكيا صارخا جآرا يطلب الصفح والغفران من الله يطلب مكانة « عز الرجال » •

التوقـــع

عدنا الى البلدة لنجـد فى انتظارنا سرادق العـزاء ضـخما لا ندرى متى اقيم ، فندمنا شديد الندم لأننا لم نشهد اقامته • لكننا ما لبثنا حتى بدأنا نعانق ضوء الكلوبات الكثيرة التى انتشرت

في السرادق وأمامه ترسل الأضواء المبهرة الى آماد بعيدة • وكان مهرجـان الصوانى قد بدأ فعرفنا ان الجميع قد صلوا المغرب دون أن نشعر بهـم ، وصرنا نعاكس الصـبايا حاملات الصوانى وهن يداعبننا ويتمخطرن أمامنا فى عياقة ترد الروح حقا • ثم ما لبث الفقيه حتى بدأ يترنم فى الميكرفون بآيات القرآن الكريم والسرادق جموع متكاتفة تجلس فى احترام ووقار شديدين وكان معظمهم من الأغراب عن البلدة ، أما معظم أهل البلدة فقد جلسوا أمام السرادق يثرثرون بالحديث الهامس الدافيء الذى تقشعر منه أبداننـا • فمن قائل ان الشيخ « عز الرجال خلاف » كان فى الواقع يحرن على مقابر البلدة لا يريد الدفن فيها ! ومن مؤيد له قائلا ان «عز الرجال» كان يريد أن يدفن فى عزبة الشرانية بجوار أعمامه الكبار ! فأيدهما ثالث قائلا أنهم كان يجب ان يفعلوا ذلك ولكنهم فهموه متأخرا !! ••

وكنت فى شـدة الخوف والارتعاد أنظر الى العيـال فأجدهم يتطلعون الى هم الآخرين بخوف مما نسمع ، غير اننا فوجئنا بمن يقول فى لهجة حاسمة باترة :

ــ « على فكرة ! الشيخ عز الرجال لن يقبل البقاء فى هذه المقبرة لقد رضى بالدفن فيها مؤقتا تحت رجاء أمه ! أخذنا على قد عقولنا لكنه سوف ينتقل فى السر الى أعمامه في عزبة الشرانبة !! » ••

اندفعت اصـوات تقول متحشرجة بالرهبة : كيف ؟! كيف ينتقل ؟! قال « العرجاوى » الصياد الذى كان يتحدث :

ــ « سينتقل بمعرفته ! هذا سره ولن يمكث فى هذه المقبرة أكثر من ساعات قليلة !! » ••

أيده « حسن » الحصرى قائلا :

ــ « انه سينتقل حتما ! لن يبيت فى هذه المقبرة ليلته » ••

قال « العوجاوى » :

- « بالضبط ! · لن يطيق البقاء فيها حتى الصباح ! » ··

ليلتهـا اضطررنا أن نركن رءوسنا بجـوار السرادق ساعات طويلة ، حتى اذا ما رأى الولد منا شخصا من حارته خارجا من المعزى جرى فى أعقابه يحتمى فيه من الخوف · ما نلبث حتى نكتشف ان النساء كلهن جالسات أمام دورهن بحجة انهن ينتظرون أولادهن أو أزواجهن أو حمواتهن الغائبات فى المعزى ، لا حديث لهن سـوى طيبة قلب « عز الرجال » ، وكيف انه جاء بعـد غيبة عن زوجـة المريضة لـكى يبشرها بالشـفاء فاذا به قادم لانتظار عزرائيل فى فراشه ! وكيف انه قد نطق بعد عزوفه عن الحديث سنين طويلة قائلا لست ألحسنأنه حمل عنها ذنوبها وذنوب كل أهله ومعارفه وان الله لهذا سوف يشفيها ! وكيف ان « ست الحسن » قد دبت فيها الحياة فعلا أول ما لمسها متمددا بجوارها ليكون ذلك ايذانا بأن تنهض هى من رقدتها الطويلة ليرقد هو رقدة الأبد !! ··

دارنا هى الأخرى كانت ساهرة اذ حظيت حظيرتنا بأكبر نصيب من ركائب المعزين الغرباء الذين تتزايد وفودهم وكلما أوغل الليل فى سراديب الظلام كنسها من السواد ، وكانت آخر بقاياه قد تكومت فى عباءات حول أعناق الرجال ، الذين انتشروا فى جميع أنحـاء الشوارع والحارات والطرقات خارجين من صـلاة الفجر يلتقـون الرجال والأنفار والبهائم السارحين الى الحقول ، ولاح كأن البلدة كلها فى مهرجان عظيم من الدواب يركبها ناس مختلفو الأشـكال والألوان لا تعرف أن كانوا خارجين من البلدة أم داخلين اليها · وكان الضوء الفضى الربانى قد كشف ألوانها الحقيقية ومع ذلك بدت كل الكائنات كأنها تسبح فى ملاء من شذرات قطن مندوف ، وكانت « ست الحسن » واقفة على باب دارها تودع رهط النساء المعزيات تحكى لهن ولاطفالهن بقايا حدوتة شاهدتها فجرا حينمـا تركتهن مصرة على ان تصليه فوق السطح ! اذ تناهت الى سمعها دندشة

موسيقية يتخللها دوى زغاريد ! فنظرت فى السماء فرأت موكبا من عرائسَ الحور فى سفينة من الضوء الساطع تسبح فى السماء وعرائس الحور يرقصن على أنغام الدفوف والدربكة والمزامر والصاجات والنايات رقصا رائقا مثلما الموسيقى رائقة والكون كله رائق ! وراحت سفينةَ الضوء القادمة من جهة المقابر تطوف بسماء البلدة مثنى وثلاث ورباع ! فعرفت « ستالحسن » أن نبوءتها قد تحققت وان هذا الموكب يزف جثمان « عز الرجال » الى المكان الذى تمنى ان يدفن فيه بجوار أعمامه الكبار ! . وكان بدن الأرض يقشعر تحت أقدمنا حين هتفت « ست الحسن » فجأة فيما هى تشير بأصبعها نحو السماء : « ها هى ! ها هى ! آخذة طريقها الى عزبة الشرانبة ! » . طارت عيوننا تعانق سقف السماء منتفضة لاهثة عاشقة : كان قرص الشمس القرمزى يطل كوردة فاتنة من خلال أطراف الأوراق الخضراء وغير الشائكة ، وكانت سحابة من القطن المندوف مذهبة الرءوس والأطرف تعبر السماء متهادية نحو الأفق البعيد .

تمت ـ آخر فبراير سنة ١٩٨٦

● الخراز

ياما تحـرقنا لمجيء الخـراز ، وترقبنا نداءه بصيحته المدوية المغنية بنغم شجي وكلام مضغوم لا نفهـــم منــه ســوى كلمة : « أصلح وا ٠٠ اصد ٠٠ ١ ٠ ل ٠٠ ح » ٠ لكننا ان سمعناها عرفنا فى الحال أنه ذلك الرجل العجوز الطويل النحيل ذو اللحية الطويلة فى لون الحناء والكامل الاسنان رغم انحناء كاهلهتحت ستين من السنين قضاها جائلا فى طرقات جميع أنحاء بلاد البر متربة ومرصوفة حاملا ذلك الصـــندوق الخشـبى الثقيل المعلق فى كتفه بسير من الجلد السميك ، يسبقه نداؤه ، حيث يعدل هامته رافعـا كفه جوار أذنه وفمه ، مطلقا فى الفضاء صوته الجميل رغم خشونته وسذاجته يحفل بجلجلة مراجيح العيد وصهللة الســلاميات والنايات والدفوف فى الموالد ، لكن يا لحلاوة كل ذلك بل ويا للحزن الذى فيها ، حزن حلو حـلاوة ، من فوق الألم ومن فوق الزمن وغدره بل ومن فوق هضبة الكرة الأرضية يطلع صوته علينا فجأة كأنه أول صوت صاح على الأرض وسط الغابات وسفوح الجبال ، يجذب كل الناس فى بلدتنا رجالا ونساء كبارا وصغارا يحبون الفرجة عليه وهو سارح فى البلدة يغنى نداءه الحزين الضاحك الجاذب الـذى لا تبين منه سوى كلمة : أصد ٠٠ أ ٠٠ أ ٠٠ ح » ٠ اذ تغيب هذه الأحرف

الأخيرة فى أفق الحارة يقول « فرحات الخياط » معلقا فى اعجاب :

ـ « صوته هذا يا جماعة ليس صوته ! صدقونى يا رجال ! هذا صوت من آخر بلاد الدنيا جاء به الرجل معه ! لعله سارقه ! لو كان هذا الرجل عنده شىء من المفهومية لاشتغل مغنيا كبيرا فى الاسطوانات ! » .

ويعلق « أبو يوسف » الصياد الجالس فوق مصطبته المقابلة لمصطبة دكان الخياط .

ـ « لو قرأ القرآن لغطى على الشيخ محمد رفعت ! » .

الود ودهن ـ نساء بلدتنا ـ أن يكافئنه على جميلين : جميل صوته وجميل قدومه أخيرا بعد أن طالت غيبته شهورا طويلة قضاها جائلا فى قرى أخرى وعزب بعيدة فيها قصور سادة لديهم مرمات كبيرة تملأ العين يشتغل فيها جمعة بحالها ، يلحم خلالها أشـياء كثيرة لا تخطر على بال ، يستحق من أجلها الأكل والشرب والنوم على أحسن وضع ، وعند انصرافه يتقاضى عرقه . هكذا هو لا يكف عن الحكى طالما هو قاعد فى الشغل : فالأمر فى النهاية أن هناك من يفهم قيمته أفضل منا بكثير ويعطيه حقه ومستحقه ، المسألة ليست مسألة فلوس خل بالك ، انما هى مسألة تقدير ومفهومية من البنى آدم للبنى آدم ، أصحاب المفهومية يظهر عليهم فى الحال تقديرهم لصنعته ! وصنعته هذه عفية جبارة ليست تلين لـكل من أمسـك بالمخراز من صبيان الصنعة اللفافين ! هذا اهو السبب ـ خل بالكم ـ فى ندرة أهل هذه الصنعة ! .. هل يخرج من يد أحدكم ان يعيد الأمل فى شىء صار فى حكم المنتهى ؟ شىء ثمين مثلا وغال عليك وله عزة ، اذ هو يضعه منك ومن أيامك انك أخ شقيق للطبق الذى تأكل فيه ، وللكوب الذى تشرب منه ، وللزهرية التى تضع فيها ورودك ، أو لرقعة من رخام عليهـا معـول كبير ، لمرآة غالية .. انتم طبعا تعرفون ان كسر شىء من هذه الأشياء لا يمر على النفس سهلا ، لا ،

هناك من ينشرح قلبه ادا انشرح له شيء من هذه الأشياء بله ينكسر ، منبع الصدمة في القلب احساسك بأنك فقدت هذا الشيء العزيز عليك وما أكثر ما للعزة من أسباب ، صنعتي أذن يا أولادى هي مداواة جروح القلوب ، لا تستهزىء بى انت وهو ايها الشباب الصغار والا فدعني أجرب الأمر معك : هات ساعة جيبك هذه لأكسر لك زجاجتها ، أو دعها تنكسر وشف كيف يكون الزعل زعلك وانقباض نفسك ، ساعتها ستكون رؤيتي بالنسبة لك حلما ، واذ يوفقني الله في لحم الكسر ولئم الجرح ففي الحال يعتريك الفرح .

على نواصي الحوارى وفي أعماقها نترقب النسوان صوته ، وأضحات في اعتبارهن ان نسوان الدور التي على النواصي سوف يستقبلنه ويستوقفنه طويلا ، خاصة دور العائلات الكبيرة التي لديها اطقم كثيرة من الأطباق الصيني والفضيات ، وبالأخص من تكثر ضيوفهم ومعازيمهم بحكم اتساع علاقاتهم أو قوة أرومتهم ، كذلك من تكثر في دورهم الشياطين الصغار ـ أقصد الأطفال الأشقياء هؤلاء واولئك ـ ومعظم العائلات في الواقع ـ لابد ان يقدموا الطعام لضيوفهم في أطباق من الصيني الأصلي حيث تتوافد على المائدة بكافة الأحجام والأشكال بلونها السن فيلي الجميل المعتق والزهرى البهيج اللامع ، من دائرية مفرطحة الى دائرية مقعرة الى ما يشبه القارب كل طبق له طبق وحتى فنجان الشاى والقهوة له طبق يقعد فوقه وكذلك سلطانية الشوربة ، ناهيك عن أطقم الشربات بشفاشقها وأكوابها المستطيلة والمنبعجة والمضلعة بألوانها الوردية الزاهية ..

غير هذا في بلدتنا يعد عارا لا يحتمله سوى افقر الفقراء الذين يأكلون في طاسات أو جفنات من الفخار أو بالكثير أطباق من الصاج الملون والألمونيوم ان كانوا من فئة أهل الحرف الذين تحضر الفلوس بأيديهم معظم أيام السنة ..

أطقم الصينى والفضيات أمر بل هم ينتظر كل عروس فى بلدتنا . تحمله امها يوم مولدها ، فتروح تدخر له بأى شكل وبأى وسيلة نفقات جهاز أبنتها وشوارها وعلى رأسه طاقم الصينى والفضيات ، اذ أن ثمنه فى العادة مرتفع لأن العروس لا يصح مطلقا ان تدخل بدونه مهما كانت فقيرة ، ثم ان الغش فيه سهل ومنتشر ، وليس يقدر على كشف الأصلى من التقليد سوى امرأة من بيت ، من عائلة مستريحة منذ زمن طويل وبنت ناس طيبين خبرت الأطباق الصينى فى بيت أبيها وتعلمت كيف تعرفه بلمسة يد بل بنظرة عين ، وهو لا يباع الا فى دسوق البندر فى محلات مشهورة جدا فى كل القرى المجاورة يقصدها أكابر القوم عند تجهيز شوار عرسانهم ، اذ تباع الأطقم كاملة غير منقوصة طبق الزبد حتى الملاحة ومن ربيبة الشوكة سكينتها الصغيرة الى سكين الذبح والتقطيع والتخريط ، ومعروف ثمنها كورقة البوستة ، ولكن من ذا الذى يستطيع اقتحام هذه المحلات بكل جرأة ليقول : ارنى هذا وارنى ذاك وينتقى على كيفه الا القادرين على دفع كل شىء فى الحال فى جميع احتياجات العروس فى وقت واحد ! ..

لكن الأمر لا يترك هكذا دائما ، فدائما هناك من يتطوع بالبيع لغير القادرين بل يذهب لحد عندهم ، فغير القادر لن يقدر بالطبع على زيارة المحل اصلا ، وهو فى نفس الوقت ـ هكذا يرى البعض من عباد الله الأذكياء ذكاء تجاريا كادحا ـ يستطيع ان يحصل على هذه البضاعة نفسها ولكن بشكل منظم خاضع لامكانياته ، اذ ما المانع ان اجىء لك بهذه البضاعة الثمينة نفسها لحد عندك نظير عرق تدفعه لى ؟ احلف لك اليمين مشفوعا بقراءة الفاتحة معا اننى اشتريته بكذا ، ولكن بعد ان تكون قد وعدتنى باضافة مبلغ كذا نظير قيامى بشرائه بمالى الخاص والمجىء به اليك ، واذا كان الطاقم غالى الثمن فوق طاقتك فما المانع أن استقضيه لك جزءا جزءا قطعة فقطعة ؟ ان الجزء أمره سهل ، فى هذه المرة جئت لك بطبق الغرف

الكبير . في المرة القادمة يسهل ربنا واجيء لك بستة أطباق غرف متوسطة ، وعلى كل حال فطبق الغرف الكبير وحده يسـد نفعـا كبيرا ، لكن بمشيئة الله باذن واحد أحـد في يوم السوق المقبل ساجيء لك بست متوسطين وست صغار . على قد حملى يفرجهـا المولى ويكون معى ـ بالمرة ـ طاقم الملاعق والشوك ..

هكذا يقول البائع السريح لأم العروس المنتظرة من زبائنه الكثيرات البائع السريح يعرف أسرار البيوت والعائلات والقرابات أكثر مما يعرف الجيران عن جيرانهم رغم انه من الغرباء السوقية ـ أى الذين يتجولون فى الأسواق فى القرى والبلدان ويتوغلون فى أعماق الدور . البائع السريح المتودك يعرف اخبار الفتيات اللائى هن على وش جـواز ، والمخطوبات ، وسـمعتهن جميعـا . كثيرا ما يعمل ـ الى جوار مهنة بيع الصينى والخردوات الدقيقة فى شوار العروس ـ على القيام بدور الخاطبة ، وعن طريقه كم جاء خطاب من بلاد بعيدة لفتيات في بلدتنا . هكذا كان « محمد بتاع الغوايش » البائع السريح الذى يقال ان أصله فى البتانون منوفية ، وهو رغم تجواله المتواصـل فى تراب السـكك بركائبه تراه دائما نظيف الجلباب والوجه واللسـان واليد ، الا من لطشة نسوانية خبيثة يشفع لها وضوحها الساخر اذ يقدر الرجال أنها تنتهى عند هذا الحد ولا تتجاوزه الى محاولة العبث بأقدار نسائهم الذين يعلمون أنهن يتعاملن مع هذا الرجل فى غيبة منهم أحيانا ، كالحاوى لا تفرغ كل اخراجه العديدة من كل مبهج يخلب اللب ، من غوايش نايلون الى أقرع وحلقـان وخلاخيل ومشخلعات من الذهب الفالصـو المتقن ومناديل من حـرير للتعصيب وأخرى من حبر للتلفيع مع معدات شغل الترابيع أم أوية من ترتر وصـدف وصوف على هيئة فل ، ومن ازرار وتوكات وأحزمة وشرابات وسنتيانات وروائح وعطور تفضح وجوده على بعد حارات يحرص على زيارة بائن له فيها ، لكنه فى العادة يتمـركز عنـد أول بيت اسـتوقفه ، وفى العادة

يستغيبه المنتظرون فيذهبون اليه ، أما الراسيات من النسوان فانهن يرغمنه بصنعة لطافة على المجيء اليهن بكل فرشه كضيف على الشاي أو الغداء ان لزم ، حيث يأخذن راحتهن فى الفرجة والانتقاء ، والوصول الى أسعار في السر لها ولا شك ميزاتها عن أسعار العلن ، الغدوة فى العادة سرها باتع فى استخراج الخبيء من اخراجه وما عساه ـ لمكره ـ يكون ادخره لزبائن معينين لهم عليه حق العشم ، خاصة ان الخرج الذى يحمل أطقم الصينى والأكواب والفضيات يفرغ بعد جولة واحدة فيتركه عرضة للرائى حتى يعرف من نفسه فلا يسأله هذا الطلب بدون احراج وحلفان ، فى حين يكون قد اخفي بعض الأطباق الثمينة داخل أثواب الطرح والمناديل ، الا أن الفطير المشلتت الذى سيأخذه معه لأولاده بعد غدائه كفيل بنثر كافة ما فى الاخراج والعلب من محتويات ·

« محمد بتاع الغوايش » اروب رغم أنه لم يصل الى الخمسين من عمره بعد · انما هكذا ابن السوق دائما ، خاصة اذا كان متودكا · لا بأس عنده من اصطناع مدخر ليصطنع التفريط فيه امامك من أجل خاطر عيونك حتى تضع انت فى هذه العيون حصوة ملح تحدقها وتجعل لهم المعاملة سائغا ، وكسب الناس المهمين ـ فى نظره ـ أغلى من كل شيء ومن أى فلوس ، لكنه مع ذلك يلهف الفلوس بشهية للعد لا تنتهى ، تظل راحة كفه مفتوحة متأهبة لفر الفلوس اليها دائما ولا يضعها في جيبه الا بعد مناهدة شديدة يقتنع منها الا فائدة فى زيادة أخرى بعدها ··

من مدة سنين كان يزور بلدتنا كل شهر مرة ، ثم بات يزورها يوم السوق من كل اسبوع ، ثم أصبح يزورها كل بضعة أيام خارج يوم السوق · بكثرة زياراته سهل على الأمهات مهمة تجهيز الصبايا بأطقم الصينى والفضيات · وقد أمنت له النسوان فأمن له الرجال فبات يؤامن النسوان على فلوس كبيرة يدفعنها له على فترات الحصاد حصادا ان احب وفلوسا ان اراد ·

كل شيء فى سوار العروسة يمكن التهاون فى حفظه أو حمله الا طاقم الصيني بالذات فانه أكثر الأشياء تدللا فى الوجود . اننا لابد ان نلف كل قطعة وحدها ببطانة لينة تخينة من الورق أو القطن أو القش حين نرصه فوق بعضه ، ونرفعه بحرص ونضعه بثبات على المائدة أو تحت صنبور الغسيل ، والرجفة تأخذنا مقدما اذا تفلت من يدينا عفوا ..

العروس مذ تدخل على زوجها بشوارها يكون أول ما تبرزه لعين الزوار من الشوار هو طاقم الصيني والفضيات ، رغم أنه قد شبع من الفرجة عليه وهو في دار أبيها ، حيث عرضته أمها على نساء كثيرات من جيرانها وأقاربها المقربات واستطلعت رأيهن فيه وفي ثمنه بالضبط فلمسنه وقلبنه بين أيديهن عشرات المرات وتلقت الأطباق والفناجين وأطقم الشربات صلوات على النبى بعدد كل مليم دفع فيها . انما ، ما أمتع ان تقدم العروس لزوجها فطور البيض المقلى والجبنة القريش في أطباق من الصينى ، والشاى باللبن فى فناجين من الصينى بدلا من الكوب الزنك . يظل العروسان ينعمان بلمس الصينى والشعور بفخفخة العز حتى لو كان الطعام من الطبيخ القرديحى أو الباذنجان المقلى . فاذا ما أنجبا أولادا يتحركون على الأرض يحين موعد جمع الصينى وتخزينه فى دولاب الفضيات الثابت دائما فى قائمة شوار العروس حتى لو لم يكن موجودا من الأصل ، يظل هكذا فى دولابه منظرا جميلا لا يخرج الا فى مناسبة احتفال أو عزومة ضيف من خارج البلدة ، ويكتفى أهل الدار باستخدام الأطباق الصاج الملونة والأكواب الزنك والكيزان .

فى دولاب الفضيات دائما أكثر من طبق وأكثر من كوب مكسور أو مشروخ يحتفظ به قطعة قطعة فى انتظار مجىء الخراز .. بعض النساء الواعيات الفقيرات يتمادين فى تخزين الصينى والأمعان فى عدم استعماله حتى تكبر ابنتها فيكون جزءا من شوارها بدولابه

نفسه وربما بدولاب ملابسها هي أيضـا ، فليس من الغضاضة ان يكون بيت أب العيال بدون دولاب .ولكن من العار ان تدخل العروس على زوجها بدون دولاب للملابس يشغل مكانا كبيرا وعند انتقال الشوار من دار أبيها الى دار عريسها ينفك الى قطع كثيرة يحملها صبيان كثيرون فيطول بذلك الموكب الطريف الذى يحمل شوار كل عروس ، اذ يتكون من الجمال والبغال والحمير والصبيان والفتيات والنساء العجائز ، كل يحمل شيئا من جهاز الشوار ، أما رهط العجائز ففى مؤخرة الموكب يحملن الأسبتة المعبأ فيها أطقم الصينى والفضيات وما يسمى بعشاء العروس وهو كمية من الأرز والقمح والطيور المذبوحة والسمن والبقول تكفى لأن يعيش العروسان عاما كاملا بدون احتياج لأى شىء . على ان العرائس فى العادة أكثر تشاؤما من سيرة الخراز ، فهن لا يحببن أن يبدأن حياتهن الزوجية ببشرة الخراز قبل ان يفرحن بجدة الصينى على حالة ، لـكنهن ما يلبثن ـ صاغرات ـ أن يسألن عن مجىء الخراز .

ما أن يتسلل صوته قادما حتى يكن فى انتظاره بلهفة وفرح . تقدم له الواحدة منهن حفنة من الهشيم والشـطفات ، يبدو من المستحيل على أى مخلوق مهما عظم سحره أن يعيد هذا الهشيم الى سابق عهده طبقا أو فنجانا أو زهرية ورد أو مكحلة أو مصباحا من البللور الثمين . لكن الخراز ينظر فيه مبتسما فى تحد غامض ويقـول :

ـ « دهده ! دهده ! حتدفعى كام على كده ! دا الواحد يشترى طبق جديد أحسن وأرخص ! بدال وجع القلب ده ! »

تصبح فيه المرأة مشوحة فى ود :

ـ « منين يا حسرة ! قشر ! هو فيه منه دلوقت ! ده صـينى من الأصلى بتاع زمان يا عم الحاج ماعادش فيه منه ! » .

يقول لها قبل ان يجلس :

ــ « بس ده حيتكلف ! ده عاوز له نص يوم شغل وجايز ما ينفعش ! » .

تنزعج المرأة تخبط على صدرها :

ــ « لا والنبى ! اعمل معروف الحمه بأى شكل ! احسن ده عزيز على قــوى ! ده انت ماتعرفش فرحته كانت قـد ايه يوم ماجانى ! »

ثم تضيف كأنها تضحى من أجله :

ــ « حاديلك تعريفه بحاله ! »

هو اخبث منها بالطبع ، يقول :

ــ « حاخد واحد باربعه ! » .

ــ « حرام عليك ده الواحد باربعه فى حنك سبع »

ــ « هو فيه سبع أسبع منى ؟ »

ــ « ربنا يطرح فيك البركة »

ثم تضحك ..

ــ « تدفعى تلاتة تعريفة ؟ »

ــ « التعريفة واديلك تلات بيضات ورغيفين »

ــ « ماتخلى التعريفة قرش ساغ »

ــ « النبى هو اللى حيلتى »

ــ « ماشى ياستى »

ينزع السير الجلدى عن كتفه ، يضع الصندوق على الأرض يتقرفص أمامه بفتحة يستخرج عددا من المخارز كالأقلام ذات أسنان حادة رفيعة وتخينة ، يستخرج علبة شيء كالغراء ، ومطرقة خفيفة ولفة أسلاك رفيعة وعلبة كبسولات صغيرة ، وشيئا يشبه قوس الرباب له ما يشبه الوتر المشدود على القوس ، يجيء بيـد معدنية مستطيلة بداخلها قلب متحرك ، يجيء بالمخـراز الرفيع السـن يلبسه فى هذه اليد ، يلف الوتر حول هذه اليد ، يثبت سن المخراز على رقعة الطبق المكسوره ويبدأ فى تحريك القوس كمن يعزف على الرباب ويد المخراز تنبرم حـول نفسها بسرعة هائلة حتى تثقب الرقعة ، يجيء بزميلة لها ، يقيسها بها يتأكد ان هذه الشطفة ـ لا غيرها ـ هى الجزء المفصول عن هذا الجزء بدليل ان شفة الشطفة رست على المشطوفة منها وكملتها ، حينئذ يخرمها ، يدهن الشفتين بمادة لاصقة من العلبة ، يلصق الشفتين فى بعضهما برفق ، يمرر سلكا رفيعا من الثقب الى الثقب المجاور فيحزم اللحام تحزيما محكما يبدو السلك فيه كأنه حليـة مقصـودة لذاتها • هكذا يفعل ببقية الكسور حتى يستوى الطبق فى يديه بعد دقائق وقد استعاد وضعه الأول • ما ان تراه صاحبتـه حتى يدب الفرح فيهـا فيشمل كل كيانها ، انها لفرحة عظيمة تلك التى يحسها المرء حين يستعيد شيئا كان قد صرف الأمل فيه ، حتى ولوكان مجرد تجميع شمل طبق مكسـور •

وكنا حتى وقت قريب لا نلح فى طلب الخراز ، بفضل حرص أمى وعمتى « فرح » على الصينى ، عمتى بحـكم تقديرها لقيمة الصينى وأهمية وجـوده فى بيوت الناس الطيبين ، وأمى بحـكم تمرسها على التعامل مع الصينى الفاخـر منذ طفولتها فى السراية التى تربت فيها وكنت أكتفى بالفرجة عليه فحسب • أما اليوم ـ ومنذ وقت طويل مضى ـ صرنا أكثر الناس الحاحا في طلب الخراز ، وصارت أمى توصينى بأننى اذا قابلته فى أى مكان فى البلدة لابد

ان اجيء به الى دارنا • غير انني لم أكن اراه مطلقا وكنت ألاحظ أن الناس يسألون عنه بكثرة ، ولم نكن نعرف لماذا اختفى ، غير انني كنت أعرف أن مجيئه بالنسبة لنا قد صار أمرا ضروريا • فمجيئه سيحل كثيرا من المشكلات الناجمة في دارنا منذ أشهر طويلة مضت ، بين أبي وعمتي « فرح » من ناحية ، وبين عمتي « فرح » وأمي « سعادات » من ناحيه ثانية ، وبين أبي وأمي من ناحية جوانية ، وبين أبي ـ مسكين ـ وبين حماته جدتي « زنوبة عمراية » من ناحية برانية وما أدراك ما « زنوبة عمراية » ••

كل شيء في نظر أبي يهون ألا أن يقع في سوء تفاهم مع « زنوبة عمراية » ، تلك التي لا يرى منها ـ مع ذلك ـ ألا كل توقير وكل معزة كما يحلو لها ان تقول دائما : اذ هو زوج أبنتها الوحيدة الحيلة ، التي لم تعطها الدنيا سواها بعد تعب ودوخان • صحيح أن أبي معلم في مدرسة البلدةالالزامية ويلبس البدلة والطربوش كالبكوات سواء بسواء ومثلهم عنده شمسية تقيه حر الطريق من المدرسة للدار ، ولكن « زنوبة عمراية » ـ مع احترامها لطرطور أبي ـ أي طربوشه ـ لا تزال تعتقد أن أحدا في الدنيا لا يليق بابنتها وانما هي ـ « زنوبة عمراية » ـ زوجتها لأبي بفعل القسمة والنصيب فحسب • وأبي يعرف هذا تمام المعرفة ، وكلما سمعها تقوله في بساطة يبتسم ابتسامة بسوشة نغزو كل وجهه المفلطح الشاهق البياض ، يخفض رأسه مشيرا بأصبعه الى صدره قائلا :

ـ « فعلا يا حماتي ! حتى انا نفسي ! »

فينفتت في سمع الكون هدير ضحك سخن غني كصوت دقات جرس الكنيسة يتكسر متدافعا ذلك هو ضحكها بصوتها ذي النبرة النوبية المجلجلة المصلصلة ، في حين ينكمش وجهها الصغير الأسمر ككرة شراب مليئة بالرقع شبعت من الوقوع في الخرارة والقافز على أكوام الجلة والسباخ • لكنك اذا اقتربت منه تدحلمه

يا للدهشة نظيفا يلمع كأنمسا بخنم ربه لم تظلله غبارات بعد .
يضيع وجهها ذاك فى جسد ضامر لا يبدو منه سوى الطرحة الحبر السوداء فكأن « زنوبة عمراية » كلها خيال ، هى أيضا تظن ان لها وجها ينبغى أن تداريه عند الضحك من فرط الحياء فاذا هى قد بسطت عليه كفها المضمومة الأصبع قائلة بنفس الصوت الحاد المجلجل فى حياء :

ـ « يوه ! الله يجازيك ! يا راجل انا ما أقصدش ! هو انت لو ماكنتش مليت دماغي ودخلت قلبى كنت سلمتها لك ! دانا بس قصدى أقول لك يعنى عن معزتها عندى ! »

ينفشخ حنك أبى على آخره ، يهز رأسه فى توقير شديد :

ـ « مانا عارف يا حماتى ! عارف وحق كتاب الله ! لكننى صادق فى قولى أيضا وحق كتاب الله ! قصدى أن ابنتك سعادات تستاهل كل خير ! وهى فى عينى وقلبى على الدوام ! وأنت أيضا على رأسى ! » .

يتأكد لى ، ان أبى غير صادق فيما قال ، انه ، وأقربها ليلة أمس ، ظل يشتم أمى ويسبخها ويوبخها نصف ليلة كاملة ، وهى لا ترد عليه مطلقا ولا تأبه بشتائمه اذ هى فى الأصل ملبوخة فى العراك مع عمتى « فرح » وفى الزعيق وانتقاء ألفاظ المعيرة وعبارات المكايدة ، ردا على مدافع عمتى « فرح » التى حباها الله بخزين لا ينفد من ألفاظ حارقة تطس الوجه بالنار ولو على بعد قاعتين هما قاعتها وقاعة خزين المعاش وحوش الفرن ليقتحم على أمى باب غرفتها فى آخر الجزء الأنيق من الدار بجوار المندرتين المتقابلتين يفصل بينهما بهو كبير فيه كنب بلدى منجد وكراسى وترابيزة وسط برخامة بيضاوية الشكل وأرجل مقوسة مشغولة بالمخرطة وفيه أيضا دولاب الفضيات فى مواجهة الداخل من الباب مباشرة .

العراك والزعيق والردح يعلو حتى يغرق كرامة أبى ويدهورها. ينخط فى أمى أولا فى رصانة ووقار شديدين :

ــ « اخرسى يا مرة ! » ..

فيبدو أنها لم تسمع ، وتواصل الرد على عمتى « فرح » ، فيصيح أبى هذه المرة بغلظة وخشونة :

ــ « اخرسى يا مرة وخشى جوه ! »

فتفلت وجهها عن باب عمتى « فرح » وترشق أبى بنظرة سريعة متسائلة نكاد تقول : بتكلمنى ؟ .. حينئذ تكون « فرح » قد أرسلت عبر الحوش فالبهو كلمــة لم يسمعها أحد ولم يتبينها أحد سوى أمى ، التى تسـتدير فى الحال فى فتحة باب قاعتنــا صائحة برد مناسب ربما أصاب أبى رذاذ منه . ينفلت عياره تماما ، يأخذ فى الجعير والانتفاض كالثور الذبيح :

ــ « اخرسى يا مرة قلت لك ! اتلمى وخشى جوة ! يا مــرة يا بنت ديك الكلبْ ! أصــــلك ربابة مرة ! أتفــوه عليكى وعلى ربايتــك ! »

ثم يبدو عليه الحرج فجأة ، يكتشف ــ لابد ــ أنه قد صار هو وعمتى « فرح » يردحان لأمى « سعادات » الوحدانية الغلبانة فى هذه الدار . يتجه داخل القاعة مشمئزا مستنفرا ، ينظر هنا وهناك تحت السرير ذى العمدان الصفراء وفوق البوريه الكبير ذى المرآة حتى يعثر على الخيرزانة التى يؤدب بها العيال فى المدرسة ، ان لم يجدها فالبوصة أم عوجاية انفع .

تكون أمى المسكينة قد اندمجت فى العراك والردح بانفعال خارق مدمر كانفعال العبيد السود صارت تشوح وتتعزرن ، وتجرأت فخطت خارج عتبة القاعة موهمة عمتى « فرح » أنها لن تتورع عن

الهجوم عليها فى الخطـوة القادمة • هنا تفاجئها البوصـــة الثقيلة الـلاهبة منهالة على ردفيها البارزين الجميلين كقلتين من الفخــار الأحمر ، وعلى ظهرها وكتفيها • تراع أمى ، نطلق صـــواتها فى الدار ، وكلما صوتت يزداد غضب أبى من شدة شـــعوره بالحرج فيقول : خلها فضيحة بالمرة ، ويواصل التلطيش فى جسدها كيفما اتفق وهى تجرى مذعورة منه هنا وهناك فى أركان البهو والحوش وهو يلاحقها حتى يوفقها الله فى تلقف طرف العصا بيديها ؛ حينئذ تموت بيديها عليها وهو يجرجرها على الأرض بغيظ وحنق محاولا نزع العصا منها فلا يفلح بل يتعثر وتنفلت العصا من يديه فيرتد متشقلبا على ظهره ، فيصرخ وينهض متأوها ممسكا برأسه ووسطه متأوها يتجه نحوها مهرولا لكنهـــا تكون قد أسرعت بدخـــول قاعة المعاش وأغلقت الباب عليها من الداخل • حينئذ يرتد بكل عنف متجها نحو قاعة عمتى « فرح » التى تواجهه بذراعيها فى شىء من التحدى والاسترحام والاستغاثة :

ــ « حتضربنى عشانها ؟! حتيجى مع مراتك على ؟! »

لكنه يكون قد انقض فى كرشها وصار يضربها باليد واللكمية ويرفسها • هى ضربة واحـــدة جادة وموجعة يضربها بها فى مكان أمين من الخطر أما بقية الضربات فمجرد حركات قرعاء تتلقاها عمتى « فرح » بالصوات الحاد موهمة أمى ان أبى يمزقها تمزيقا ! ••

أمى تفقس هذه الفولة دائما وتحاسبه عليها نهاية الليل • وهو يعرف ان ذلك سيحدث دائما بكل حذافيره • لكنه بعد ان ينهى تمثيلية ضربه لعمتى « فرح » يمضى منتفضا فيفتح الباب ويخرج الى الخلاء •

حينئذ تجابهه الأشجار المزروعة فى الجنينة فى مواجهة الباب تماما ، وممتدة على مدى نصف فدان محاط بسور مبنى بالاسمنت

طوله قامتى رجل وملتحق بدارنا لا يفصل بينهما الا باب الشارع ، وتحت الأشجار فجل وجرجير وقثاء وباذنجان وورد • الباب المطل على الجنينة يقف بين أربع شبابيك تطل على الجنينة يقرب طولها من طوله ولونها من لونه حتى الزخرفة المشغولة كأنه أب يتوسط أربع أولاد نجباء ، شباكان يفتحان على البهو وشباكان يفتحان على المندرتين المتقابلتين ، وكل من المندرتين تطلان على شارع عمومى بشباكين من نفس الطراز ، ولبيتنا مدخلان متقابلان يفتح كل منهما على شارع عمومى يخترق احشاء عزبة منظمة الشوارع متقاطعتها مبنية كلهـا بالطوب الطينى المخلوط بالتبن فكأنها علب خصصت سقوفها لأحمال القش والحطب وكأنها كلها ملتحمة ببيتنا المبنى بالطوب الأحمر والمغفق بالأسمنت والتبن وبالطلاء الملون •

ثمة مصطبة هنا وأخرى هاهنا تحت كل من الشبابيك الأربع ومفروشة على الدوام بشرائح الحصير الملون فمن فوقها تندة من الخشب الأنيق المزركش بارزة من السقف تحتجز الشمس والمطر وتتصل بفروع الشجر فى عصارى الصيف ولياليه وأمسيات الربيع والخريف بنعيمها ، أعظم متع أبى بعد الصلاة والتسبيح ان يجئ بالمخدة والمساند ويضطجع على المصطبة يصحح الكراريس بامعان ودقة ومزاج ويكتب عليها الملحوظات بالقلم الأحمر ، بعدها يقرأ الجرنان القادم الينا لتوه بعد ثلاثة أيام من صدوره فى البندر اذ يسافر له « أبو العباس » كل يومين باتفاق مع قرائه فى البلـدة والمتعهد فى البندر • فى المساء يصلى جماعة فى جامع « ابن هارون » فى وسط البلد ـ ووفاء للمكان الذى تربى فيه وقضى جل عمره قبل ان يجئ الى هذه الدار فى ظاهر البلدة منها للغيطان مباشرة ـ ويرجع متبخترا بجسمه الثخين العريض المقشر ، والجلباب البوبلين الكريمى ذى الأقطنة الحريرية يهفهف حول ساقيه الراسختين المدكوكتين على كعبين أحمـرين فوق كعبى الشبشب البنى العالى الذى يبدو من البوز كحذاء لا ينقصه الا غطاء الكعب ، والذى يفصله أبى والأعيان

عند اسكافى محترم فى دسوق البندر • فوق الرأس من أبى طاقية من نفس قماش التوب : فى يمناه العصا البوص أم عوجاية ، وفى يسراه مسبحة من الكهرمان ، ووجه الصديرى الشاهى اللامع الناعم بأزراره الصدفية يشهد لنظافته انه يتغير كل بضع ساعات مع انه هو هو • لاينى يقطع التسبيح ليلقى السلام على رهط من الجلوس أو يرد على مار ابتدره ، فيقول له الجلوس : « تفضـــل يا عيسى أفندى » ويحلفون بالله أن يتفضل ويحنى رأسه باسما ممتنا يرد شاكرا : « كتر خيرك ! يتنه عامر » ، ويقول له المارون فى أريحية وتقدير : « يلزمش أى خدمة يا عيسى أفنــدى ؟ أأمر والله ! » • واحيانا يحسون بالحرج من ذكر اسمه فيقولون يا أفندى ، فيرفع يده بالشكر نحو رأسه ويعيدها مبسوطة نحو صدره عدة مرات فى حين يربت بالأخرى على ظهر من عرض الخدمة ••

العيال الذين يعلمهم فى المدرسة أن صادفوه وهم يلعبون فى الطريق يتأدبون فى الحال لدى رؤيته المفاجئة يتجمدون كأن سهم الله نزل عليهم يتصنعون انهم يشترون أشياء لأبائهم من الدكان يقف الواحد منهم على جانب من الطريق رافعا يده مبسوطة الى جوار اذنه بالسلام والتحية حتى يمر المعلم مبتسما له بهزه من رأسه • ذلك أن أبى « عيسى أفندى الحصرى » حنبلى فى شغله وحياته كما يصــفه الناس وفى أمور التربية والتعليم ليس عنـــده كلمة يا أم أرحمينى وقد طلع من تحت يديه الثقيلتين اجيال عدة من أهل البلدة بعضهم واصل التعليم فى دسوق البندر فمنهم كونوستبلات فى الداخلية وكتبة فى المحاكم والوسايا ومنهم أزهرية لهم شأن فى البلدة ، كلهم يضربون المثل بخيرزانته القصيرة اللأهبة ، وفصوص المجمر بين أصبيعيه حين يفرك بهما اذن التلميذ الغبى فركة لا ينسى بعدها ولا يتلجلج فى قول بل ينطق فى الحال ولو بالألهام ورزقه على الله وحينئذ على المعلم ان يتكفل بالتضخيخ • كلهم يحلفون بحياته فى الشرح وفى التفهيم لا يترك البجم حتى يضع فى رأسه

مخا يعى ويحفظ ويمشى على العجين لا يلخبطه . كلهم يعرف عن ثقة وعن يقين تامين ان « عيسى أفندى الحصرى » ـ أبى ـ لا تخرج من حنكه العيبة أبدا ، اذ هم عاشروه خمسين عاما أو نحوها فما عاب فى أحد قط ، وما تلفظ بقول ناب ، وما اغتاب أحدا فى غيبته ..

وقد كنت أظن أن هذا مجرد مدح فى أبى قد لا يستحقه بحكم غرام أهل بلدتنا بمدح الأفندية وأهل السلطة . الى ان دخلت المدرسة التى هو ناظرها . وكان مضى حين من الدهر انظر فيه الى أبى هذا نظرتى الى رجل غريب تماما ، اذ يتعين على ان أفعل مثلما يفعل الناس فى توقيره وتبجيله فأقول : « عيسى أفندى » . فلما التحقت بالمدرسة رأيت « عيسى أفندى » ـ حضرة الناظر ـ يقف فى وسط الطابور كصدغ من جدار تخين ، طربوشه القصير منكفىء الا الأمام انكفاءة يسيرة والزر من خلفه مصفوفة خيوطه السوداء كشريط أسود ملتصق به التصاقا . سترة البدلة طويلة تغطى مؤخرته الضخمة الردفين وزراها الأوسط مشبوك فى عروته حول ربطة عنق عتيقة قرمزية اللون مشجرة ومزينة عند العقدة بزيت العرق المتجلد الكالح ، لكن لاسة حريرية ملفوفة حول رقبته تداريها من تحت السترة ذات اللسانين العريضين المبطوشين على جانبى الصدر يظهر من تحت أيسرهما منديل حريرى ملون على هيئة أهرامات ثلاثة بارزة من فتحة جيب الصدر . أما البنطلون فقصير وشالح ، من تحته حذاء أبيض على بنى برباط عقدة وشنيطة ..

من حوله نشط المدرسون نشاطا هائلا ، « جابر أفندى » ينظم الطابور ، « قمر أفندى » يتفحص الوجوه بحثا عن العماص فى العيون والوسخ فى الثياب والأظافر الطويلة فى الأيدى الخشنة ، الخيرزانة مخفاة خلف ظهره فيما هو يمضى متنقلا من واحد لواحد ، يتحفز لابراز العصا ، ولابد أن تفاجىء ولدا يزغده فى كتفه صائحة : « انت يا ولد ! اطلع بره ! » ، ليخرج الولد منتفضا من الخوف الساحق يجعر مقدما ، اذ يتولى « راضى أفندى » لسوعة يديه

ومؤخرته وكتفيه بالخيرزانة غير آبه بصراخه مهما التاع وارتفع . بعد ذلك يمر حضرة الناظر « عيسى افندي الحصري » ليراجع بنفسه ، متوقفا عند بعض الولدان قائلا :

ـ « انت ابن مين يا ولد ؟ »

فيصيح الولد بأعلى صوته نجاة من الرعب كأنه في حصة المطالعة :

ـ « بسطويسي محمود عسر يا أفندي »

فاذا بحضرة الناظر يزغده بالعصا في جنبه مبرطما :

ـ « جاتك داهية تسم بدنك »

ثم يتجاوزه دون أن نعرف لماذا شتمه لكنني أعرف انه يداري بهذه الشتمة خوفه ان يكتشف الولد أن اباه « محمود عسر » عزيز على أبي معزة الروح فيعتمد الولد على ذلك ويسيء السلوك والمذاكرة ...

في مرة كان يقوم بهوايته المفضلة في المشي على أطراف قدميه حتى ليفاجأ به الفصل داخلا يترقب عمل المعلمين يعرف من منهم فاقد السيطرة على الفصل فيقويه ويعينه ، ومن يتهامل فيوبخه بكلام جاء عن الرسول والقرآن الحكيم قبل أن تجيء به لوائح وزارة التربية والتعليم وواجبات المعلم ..

مر على فصل غاب معلمه في أجازة عارضة وكان هذا الفصل فصلي . فانزلق الى أذنه ـ لسوء بختي ـ لفظة قبيحة جدا لم أكن أدري انني قلتها ولهذا نسيت تماما انني قلتها . مادريت الا وحضرة الناظر واقف أمام التخت كأنما لفظته السبورة في غمضة عين ، وكانت الحرقة بائنة في عينيه يطلع منها صهد يحرقنا جميعا ، نفس النظرة التي تحل بعينيه حين يقرر ضرب أمي أو عمتي « فرح »

بدون فرصة للتراجع في القرار . في هدوء شديد نقر على قمطر المعلم الغائب وقال من بين أنيابه :

ـ « مين اللى نطق بالكلمة الفلانية ؟ »

صــرنا جميعــا ننظر حوالينا متسائلين كأننا فوجئنا بهذه الكلمة النابية لأول مرة في حياتنا . صار العرق أنهرا تتصبب في أقدامنا وشبح الفلكة يلوح على مبعدة برهة وجيزة . صرخ فينا :

ـ « مين » ؟! »

انعدلنــا في الحال منكمشين لا نرد بل لا نقــوى على الرد لاحساسنا بمدى خطورة ان ترد هذه الكلمة على لسان شخص بله أن تجيء على لسان طفل في المدرسة . يبدو أن صوتنا الجماعي قد همس خافتا :

ـ « مانعرفش يا أفندى ! ماسمعناش ! » .

صار يشوح بذراعيه في تأكيد مذكرا ايانا :

ـ « الكلمة اللى انقالت من دقيقة فاتت !

أنا سامعها بودنى ! مين الولد قليل التربية اللى نطق بيها ؟! ».

فلم يرد أحد . فأشار نحوى في الصف الذى أجلس فيه وراح يزوم في توعد قائلا :

ـ « على كل حال أنا متأكد أنه جاى من هنا » .

ثم نركنا واتجه للباب صارخا :

ـ « يا مهدى ! هات الفلكه وتعالى ! » .

وارتد عائدا نحونا يقول :

ـ« كلكم حتنمدوا واحد واحد ! كل واحد تلاتين عصايه ! لكن لو كنتم عايزين تعفو نفسكم من الضرب قولوا لى مين نطق الكلمة دى فى الفصل الدراسى ! عشان أضربه لوحده ! » ٠

فبكى الأولاد مقدما ، لأن معظمهم لم يكن قد سمعنى فى الواقع ، وتهدلت أصواتهم الباكية المرتعبة فوق صـــدورهم حتى أنا بكيت مجاملة لهم فقط اذ ان شيئا ما فى مخيلتى كان يطمئننى بأن الذى سيضربنى هو فى النهاية أبى قبل أن يكون حضرة الناظر ٠ وهنا دخل « المهدى » ممسكا بالفلكة ، فارتفع الصراخ دفعة واحدة ، فنحاه حضرة الناظر جانبا ونظر فينا كأنه يوجه لنا الانذار الأخير :

ـ « على فكره ! الولد الشاطر صحيح ! اللى عنده ضمير ويخاف من عذاب ربنا يوم القيامة ! هو اللى يقدر دلوقت يعتق زمايله من الضرب ! واذا عمل كده مايبقاش فتان ! بالعكس ده يبقى شجاع لأنه بيفدى زملاءه ويرضى ضميره ! ولو كان شجاع بصحيح يقول أنا أخطأت وقلتها ! وحاخفف العقوبة عنه ! » ٠

وسكت ـ وهنا وقف الملعون « بسطويسى » من جوارى رافعا اصبعه صائحا :

ـ « أقول لك مين اللى قالها يا فندى ؟ » ٠

أومأ له صائحا :

ـ « تبقى ولد شاطر بصحيح ! » ٠

فوجئت بأصبع الملعون «بسطويسى» تميل بذراعه نحوى مشيرة الى ٠ انتفضت واقفا وقلبى يدق طبولا ، جعلت أصيح فى رعب باك » :

ـ « حرام عليك يا كداب ! والله ما قلت ! » ٠

صرخ حضرة الناظر فى :

ـ « اخرس انت ! » ٠

فانكتمت أنفاسي . قال ل « بسطويسي » :

ــ « اوعى تكدب يا ولد ! تحلف اليمين ؟ » .

صاح « بسطويسي » في جد وبراءة :

ــ « والله العظيم يا أفندى هو اللى قالها ! حتى بالامارة كان بيشتمنى بيها ! » .

حضرة الناظر رأى الصدق ماثلا فى عينى الولد « بسطويسى » عليهما اللعنة وفى صوته يخرسه الله . فأشار لى بطرف اصبعه ان اجىء . أخذت أتهارش أتلكأ أتحكك بالأدراج ناظرا فى عينيه أبحث فيهما عن الأب فلا أجد أية انسانية ، فسلمت أمرى لله وقدمى الى مشنقة الفلكة التى قرص حبلها على خنقة قدمى وارتفع به حاماها المتين فوق كتف « المهدى » ودماغى يتنطط فى الأرض من فرط اللوعة بل من فرط المحنة اذ أننى كنت يومها بدون سروال كمعظم العيال مما جعلنى فرجة وأى فرجة ، وفين يوجعك يا ابن حضرة النـاظر من خيرزانة الناظر نفسه . بعد الخيرزانة الثلاثين التى انتظرتها بلهفة فقدت الصواب فحملنى الفراش الى قمطرى ، وعند الفسحة عاقبته بالتسلل مزوغا الى الدار حيث رقدت فى فراشى يومين متتاليين لا أقوى فيها على الوقوف ، وأبى يتجنب النظر الى ويغمغم قائلا لأمى :

ــ « سيبيه يتربى عشان يعرف غلطته ! » .

ليس غريبا اذن أن يجعل الناس من أبى قاضيا ومحكمة لهم يعقدونها فى المنادر والدواوير بحضور العمدة وشيخ البلد ، اذ تعرض المشكلة على الحضور بمحضر من أطرافها كلهم ، أو المهمين منهم . وجود حضرة الناظر يفرض عليهم التزام الصدق والصراحة فى ذكر الوقائع ضمانا لوقوفه فى صفهم عن حق وحقيق ، ثقة منهم فى أنه لن يغش ضميره تحيزا لأحد كما هو متوقع من العمدة مثلا ، بل

سيقول للمحقوق انت محقوق حتى لو كان أباه ، سوف يحكم بأن فلان غلطان فى كذا وكيت وعلان غلط فى كذا وكيت وبناء عليه يستحق فلان كذا طرف علان ويستحق علان كذا لدى ترتان ..

كان على اذن أن أعترف بيني وبين نفسى أنا الآخر انه يستحق بالفعل هذه المكانة بين القوم لكن شيئا ما سرعان ما يجبرني ويقف فى حلقى كاللقمة المحشورة ، ذلك انه حين أتسلل للفرجة على مجلس كهذا يضم أبى ، وبالأخص حين يكون المجلس منعقدا في دارنا — الاحظ ان المتخاصمين قد احتدوا على بعضهم البعض في الأساس بسبب لفظ معين قاله أحدهم للآخر فانقلبت عائلته على أعقابها طالبة رد العيب ولوع بالردع . حينئذ ، وحينئذ بالضبط ، يحلو لى بكل لذة واستمتاع مراقبة رد أبى لمعرفة رأيه فى مثل هذا اللفظ بعينه ماذا سيكون ؟ .. يفجؤنى ارتياع أبي من هذا اللفظ ، اذ يقشعر بدنه ويلتوى وجهه في اشمئزاز غاضب صائحا كأنه أوذى في مشاعره : « أعوذ بالله ! أعوذ بالله ! » ، ثم لا يكتفى بذلك ، بل يصيح فى بحة من الانفعال المندهش :

— « ازاى يا راجل تقول له لفظ زى ده ؟! أنت مجنون ؟! ماتعرفش ان اللفظ ده معناه كيت وكيت ومضمونه ودلالته وكله كله عار فى عار ؟! ماتعرفش انها جريمة قذف تدخل بسببها السجن ؟! مالكش حق أبدا : انت غلطان والغلط راكبك فوقك وتحتك ! ثم انك يا أخى راجل متربى وابن ناس وأهلك فى منتهى الأدب والأخلاق الحميدة .. ازاى يصدر منك هذا العيب ؟! انت دلوقت ارتكبت جرم ، واثم ، جريمة القذف فى حق فلان ، وذنب عصيان الله لأنك عصيته فانهار ركن كبير من اسلامك ! لأن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ! » .

لا يعصمنى من الجنون حينئذ سوى انبهارى بكلمات أبى هذه وقد فعلت فعلها كالسحر فى جوانح الخصوم ، فاذا هم يخففون من حدة حوارهم ثم انهم يتحفظون فى الكلام ، ثم ترق عباراتهم شيئا

فشيئا ثم تخفت الاحتجاجات والاعتراضـــات وتنمحى فى ازقـــة التنازلات الجانبية الخفية لكن البشر سرعان ما يعلو جميع الوجوه ظالمين ومظلومين ، واذا بشفاه تقبل رءوسا وأذرعا تحاضن صدورا ، وأدوار من الشاى تنهمر بلا حساب ولابد أن يتناوله الجميع تناول الود والكيف الرائق ، وركية نار الشاى على مقربة منهم تبدو مضحكة أمام ركية نار الود فى صدور الحضور تذيب صدأ الحقد تزيل شبح الفرقة من القلوب • انهم جميعا من أهالينا الطيبين مهما عنفوا أو تطاحنوا يظهرون فى النهاية دائما وعلى وجوههم قناعة بأنهم جميعا محكوم عليهم بالتآخى ولا مفـر من التـواد • نفس الكلمات التى يقولها أبى دائما بعد ان تنتهى السهرة كتعقيب جانبى على ما حدث بعد ان حدث وانتهينا منه •

حتى انبهارى هذا نفسه سرعان ما يضمحل أمام ذلك الشىء الذى يحيرنى فى أبى ينفعل فيجرم الألفاظ والمفردات تجريما ، فهذه اللفظة فيها سجن بأشغال شاقة وهذه سجن حاف ! وهذا القول شرير وذاك احتيال • انبهر ثانية لهذه المكتشفات الجديدة بالنسبة لى وتلذنى غاية اللذة • الا ان انبهـــارى ــ مرة أخرى ــ سرعان ما يخبو أواره أمام تلك الصورة الانسانية التى يشخصها أبى للألفاظ والمفردات والأقوال ، راسما بيننا وبينها العلاقات كأنها ونحن اناس نتبادل المنفعة ، تبعا لذلك فهذا اللفظ يجب ان يتأدب وهذه المفردة لابد أن تنفى من عتبة اللسان وهذا القول لابد أن يحتشم وهذه العبارة بالذات •••• يجب أن تفهم أقدار الناس وكراماتهم وكبريائهم فلا تنطلق من اللسان أصلا اذ أنها عبارة كالكرة المطط ترتد الى قائلها فى الحال تصيبه كما أصابت الآخر ، ومن هنا ــ يقول متجليا ــ كان السر فى قوله عليه الصلاة والسلام : اياكم ان يسب أحدكم أحدا فيسب هذا أباه ويسب أمه ، وقد صدق المثل الشعبى هو الآخر حين قال : الولد العديم التربية يجىء لأهله باللعنة ••

أبدا لا تستطيع هذه الأفكار الجميلة البديعة التى يثيرها أبى

فى خيالى أن تشغلنى عن ذلك الأمر الذى لا ينفك يشغلنى. فالعجيب ليس ان يقول أبى كل هذه الدرر أو يفعل كل هذه الأفاعيل الخيرة الجبارة ويحظى بكل هذه المكانة ، لا لم يكن ذلك أقصد لم يعد عجيبا فى نظرى فقد سبق ان اقتنعت انه يستحق كل ذلك عن جدارة . انما العجيب العجيب حقا هو ان هذه الألفـــاظ التى يجرمها أبى ويرفضها ويطالب بنفيها من عتبات اللسان لا تعتبر شيئا بالقياس الى الألفاظ البذيئة ـ عدم المؤاخذة يا حضرة الناظر ـ التى يصبها أبى على أمى وعمتى « فرح » فى لحظة الغضب ولحظات غضبه فى العادة جارفة جارحة ..

أظن أن هذا ليس أعجب ما فى أبى . فالأكثر عجبا منه أن أبى يعود من صلاة العشاء وقد نسى كل شىء حدث قبل خروجه كأنه لم يحدث أصلا ، أو كأنه حدث لشخص آخر غيره ، كل هذه المهانات التى الحقها بأمى وبعمتى « فرح » وبنفسه ، وكل هذا العناء الذى خيل الى انه سيسقط على أثره ميتا ، يتلاشى بكل هذه البســاطة كأن صلاة العشاء قد مسحته كما يمسح هو السبورة بالسفنجة . فى العادة تلوى أمى بوزها طويلا ، ربما طول الليل لكنها ما أن تسمعه يفتح باب الجنينة ويدخل مقبلا نحو المصطبتين حتى تهبط عن السرير فتغسل وجهها فى حوض الحمام المبنى بالأسمنت فى ركن من القاعة ملاصق لجدار خارجى ، تنظر فى مرآة البوريه فترى أمامها غزالا أسمر اللون لا مثيل لجماله أو رشاقته فى البلدة كلها ، مكسم الجسم فى دقة فالخصر خصر والصــدر صدر والردف ردف وكل شىء فيها يقول ها أنذا على عينك يا تاجر ، هذه هى أوصاف « زنوبه عمرايه » ترددها عن أمى دائما حتى صرت وصرنا كلنا نقلدها فى ذكر تلك الأوصاف دون حرج . تعصب رأسها بتربيعة مشغولة بالفل والترتر على طريقة أولاد الناس الطيبين ، اذ هى ـ ولا فخر ـ تربت فى سراية من سرايات بلدتنا الكبيرة ، ولأنها ليست متزوجة من فلاح بل من معلم يلبس البدلة الأفرنجية فيحق لها هى الأخرى

أن ترتدي فساتين على الطريقة الأفرنجية وان تعقص شعرها تحت ايشارب حريري أو تتركه — عند روقان البال — مطروحا منسابا كالغدران على ظهرها وصدرها في غزارة متفحمة · ينمحي أثر الدمع عن صفحة وجهها الخمري النحاسي المتناسق الملامح حلو التقاطيع · تطمئن على زينة وجهها ونظافة ثوبها وعلى رائحة الصابون الفائحة من صدرها وشعرها على الدوام · تكون هي الأخرى قد صلت العشاء وهدأت نفسها واستكن الألم · تمضي في البهو على مهل تتبختر كالأوزة مطرقعة بشبشبها في كعبها لتغيظ عمتي « فرح » ولتعطي بطرقعات الشبشب على الأرض اشارة لأبي بأنها نهضت وها هي ذي قادمة حتى لا يضطر الى النداء بانفعال قد يجر عراكا جديدا يؤدي الى ختام أسوأ ·

هي تعرف ان أبي قد تربع على المصطبة مستريحا على المسند ينتظر طعام العشاء · تتجه نحو الكانون المنصوبة فوقه حلة الطبيخ الذي هو في الأغلب ظفر أو حمام مما تربيه عمتي « فرح » بغير حساب في حوش الدار الخلفي · تتذكر شيئا ، تترك الكانون وتتجه الى الشباك حيث يوضع « الكلوب » فوق أرضه · تتقرفص على الأرض ، بحرص شديد تعمر الكلوب بالجاز ، تعطيه نفسا بالمكبس ، تشعله ، تفتح درفتي الشباك تضعه ليملأ الدنيا وشيشا مبهجا يبطن صوت نقيق الضفادع وصفير الصراصير ويرمي ضوءه الساطع في أحشاء الجنينة يفرش فوق نجيلها ونباتها شبكات وملاءات من خيوط برتقالية ·· تعود أمي فتشعل النار في الكانون تحت الحلة تسخينا للطعام · تسرع فتخرج الطبلية تضعها على المصطبة ، تلحقها بالمعلقة والملاحة وطبق اللفت والسلاطة الخضراء منتجات جنينتنا · ترتكن على الشباك ، تعقد ذراعيها على صدرها تبقى شاردة في انتظار سخونة الطعام ··

أكاد أعرف أنها في شرودها هذا تفكر في أمرها ، ولابد انها تسترجع في دماغها قصة أبي معها وحبه لها وتضحيته من أجلها ·

الصور الكثيرة التى حكاها أبى لها عشرات المرات أمامى فى أذيال الليالى المكفهرة كى يصالحها بها ويثبت صدق احساسه من ناحيتها، صرت أحفظهـا كما أحفظ حيـاة أبى : انه الابن البكرى للأسطى « حسنين سليمه الحصرى » ، الذى كان الحصرى الوحيد فى البلدة لديه عدد من الصنايعية يوسع بهم شداته التى ملأ بها ساحة الدار القديمة ، مرصوصة خلف بعضها فى صفين ، كل شدة عبارة عن اطار من عروق الخشب معد بحيث يمكن التحكم فى عرضه وطوله حسب مساحة الحصير المطلوب ، بأن تفك الزوايا الحديدية القارضة عن الخشب لنتقارب العروق أو تتباعد ثم تربط الزوايا من جديد ، ويمتلىء هذا الاطار بصفوف من خيوط الدوبارة مشدودة فى الخشب بالطول ومنظومة بمسافات محسوبة بين الفتلة والفتلة ، والخيوط تتخلل مضربا خشبيا ثقيلا • يتقرفص الصنايعى فوق لوح خشبى مستو فوق الخيوط ، وبجواره حزم من نبات السمار الشبيهة بأعواد البردى وقد جرى شق الأعواد من قبل الى شرائح مبططة تلونت وترطبت بالماء • يتناول الصنايعى عود السمار ، فيمرره صعودا وهبوطا من بين خيوط الدوبارة المشدودة حتى ينتهى العود فيلوى طرفه على نفسه تحت الخيوط ، ثم يشد المضرب بضربة فوق العود تلصقه بأخوته فيبدو كما لو ان الأعواد قد خيطت فى بعضها البعض بالابرة ••

حصائر جدى « حسنين سليمه الحصرى » كان يضرب بها المثل فى العب كله فيجىء الزبائن من كل مكان ، حيث تمتلىء ساحة الدار بأعمدة من الحصائر مبرومة حول نفسها تنتظر قدوم أهلها بالبرايز الكثيرة • من حصيلتها علم أبى فى دسوق البندر حتى نال شهادة البكالوريا والتحق بمدرسة المعلمين وتخرج معلما فى سنة حاجة وأربعين ، حيث تم تعيينه فى عدة بلاد مجاورة الى أن توسط له نائب الدائرة الوفدية فنقله الى مدرسة البلدة لينفعه فى الدعاية الأنتخابية ••

جدى « حسنين سليمه الحصرى » كان قد اشترى نصف الفدان هذا وادخره للزمن • وكان قد أنجب فوق أبى ثلاث رجال وأربع بنات • أما عمى « عبد الرشيد » فقد ورث الصنعة بعد عجز أبيه ، ولكن الثورة حين قامت رخصت الحصائر وطلع الناس فى مطلوع جديد هو الأكلمة الرخيصة المصنوعة من بقايا الخرق والهلاهيل بعد برمها وغزلها وتلوينها ، تباع بالتقسيط المريح نظير بضعة قروش كل شــهر ، والناس كلهم أحبوا فرش الأكلمة وفضلوهـا على الحصائر ، فكلهم يريد أن يوهم نفسه أن فى داره سجاجيد كعلية القوم •• فما كان من عمى « عبد الرشيد » الا ان صفى الصنعة نهائيا واقتطع من الدار قاعة على الشارع فتح جدارها وحولها الى دكان بقالة وجد فى رواجه رزقا وفيرا مكنه من تسوية الورث مع أخوته والاستقلال بالدار ضاما أباه العجوز فى عصمته الى أن تحققت أمنيته ووفى كل ابن من أبنائه بوعده فسفره الى الحجاز مرة ، ومات عقب آخر حجة عن سبعين عاما • وأما عمى « سليمه » فانه قد لبس فى الجهادية وحين أنهى مدة الخدمة تطوع عسكريا فى البوليس وهو الآن عسكرى مرور فى دمياط قد استوطن وتزوج من هناك وبات يزورنا كل بضع سنوات مرة • وأما عمى « رجب » ـ المولود فى شهر رجب ـ فانه قد تمعشق فى التعليم ونبه فى المدرسة غير ان جدى خاف من الانفاق عليه حتى لا يهجره ويعيش مغتربا شأن كل من يكملون تعليمهم فى بلدتنا • لكن ذلك لم يمنع المقدور ، فقد ظهرت نباهة عمى « رجب » وجودة خطه عند الكتابة وكلامه عند الحديث فاشتغل كاتبا للأنفار فى وسية أفنديا بكفر الشيخ وسخا ، وبعد الثورة صار موظفا فى الاصلاح الزراعى • ولأنه متودك متفتح دائما فقد صير نفسه مسئولا عن جمعية زراعية كلامه فيها أنفذ من كلام المعاون الزراعى ، فكون ثروة كبيرة واستوطن بندر كفر الشيخ وبات أفنديا معتبرا يهز البلدة يوم يجىء لزيارتنا ، وتزوج من « بثينة » بنت « غزال » البقال فى بلدتنا والتى عملت مدرسة ابتدائية فى كفر الشيخ بنفوذه فى المديرية • هو الوحيد

بين أعمامى الذى نفع كما يقول عمى « عبد الرشيد » ، والوحيد الذى ظهر عليه حب الأبوين ودعائهما كما يقول عمى « عبد السلام » ، والوحيد الذى ضل سواء السبيل كما يقول أبى · لكنه رغم ذلك محترم من جميع الناس ، ومع ذلك هو الوحيد الذى لم « يعصلج » مع أبى عند تقسيم الميراث فتساهل معه حتى آلت ملكية نصف الفدان الى أبى ليبنى عليه هذه الدار الفخيمة التى يتشرفون بها جميعا رغم انه يستقل بها وحده ·

وأما عماتى فان عمتى « وهيبة » قد تزوجت من شيخ الغفر وعاشت فى سر هادىء فأنجبت صبيانا وبنات · وأما عمتى « فطومة » فقد تزوجت هى الأخرى من رجل يقرب لبعض أقارب لنا فى بندر طنطا يدعى « سيد طعيمة » ويعمل سائق قطار وهى الأخرى تعيش معه فى تبات ونبات · تبقى عمتى « روح » وليس فيها من الروح شيئا بل هى مكلبظة الوجه تشبه عمى « عبد الرشيد » فى تربية اللحم على الجسد ، قد عنست وفاتهـا قطار الزواج ، ولما كانت البائرة لبيت أبيهـا فقد الحقت بدار أخيها « عبد الرشيد » تأكل وتشرب وتساعد فى شغل الدار · بقيت عمتى « فرح » وليس فيها هى الأخرى من الفرح شىء بل انها نكدية تموت فى الحزن والغم ، وشكلها غير متناسق على الاطلاق لا يعرف ناظرها ان كانت رجلا أو امرأة حيث لا صدر لها ولا مؤخرة ولا شعر سوى وبرة خشنة تحت تعصيبة المنديل ، ولهذا فقد عنست هى الأخرى والحقت بدار أبى ، وتتميز عن عمتى « روح » بانها لا تزال تؤمل فى قدوم العريس داخلا مع أبى ذاته يوم قريب ·

أمى هى الأخرى كانت تحمل الأمل نفسه وتهتم بأمره أكثر من عمتى نفسها ··

عمتى « فرح » ــ ويا للعجب ــ هى التى سعت فى تزويج أبى من أمي قبل عشر سنوات مضت ، وكان أيامها على وشك الانتهاء

من هذه الدار الأبهة التى ستنقلنا الى طبقة الأعيان مرة واحدة لمجرد أننا نستطيع ان نعزم فيها مرشح الدائـرة بكل فخر ونفتح لمؤيده المندرتين الكبيرتين وتقدم لهم فناجين الشاى الصينى وأكواب الشربات لم تكن هذه أول زيجة لأبى ، فقد كان تزوج ابان تخرجه وتعيينه من ابنة خالته فعاشت معه سنوات طويلة لا تنجب فعرضها على حكماء بندر دسوق وكفر الشيخ فأكدوا له ان العيب منها ، فصعبت عليه ابنة خالته أن يطلقها أو يتزوج عليها فقال هذا نصيبى قد رضيت به والحمد لله ، وظل مخلصا لها حتى أصيبت بمرض الكوليرا فى العام الثامن والأربعين أثناء غيبته فى سفره للحجاز مع جدى ، وماتت فى ظرف يومين فحزن أبى عليها وقرر أن يبقى مخلصـا لذكراها الى الأبد ..

الا ان دارا كالتى ابتناها لا يمكن أن تكون بلا امرأة تنيرها وتزينها ، وهكذا ألحت عليه عمتى « فرح » واختارت له — لأجل النصيب — أمى « سعادات » بنت « زنوبه عمرايه » ..

بهذا تعيرها عمتى « فرح » دائما ، وتذكرهـا بكل صغيرة وكبيرة : لقد تردد أبى حين حدثته وقال انها بالفعل بنت جميلة رغم سمارها وكل رجال البلدة وفتيانهـا يتمنون الزواج منها لكنهم لا يفعلون أبـدا فلمـاذا لا يفعلون ؟ تقول لك عمتى انـه البخت والنصيب . يقول لها كأنه يذكرها بالسبب الحقيقى وراء امتناع الخطاب :

— « ازاى بس يا فرح ! واحد زى حالاتى له مركز اجتماعى مرموق يتجوز بنت واحدة أرملة مالهاش عيلة ؟! » .

تقول عمتى :

— « خذوهم فقراء يغنيكم الله » .

حين تسمع أمى هذه الحكاية من أبى تنبهه الى انه — لطيبته —

لم يكن يعرف السر فى ان عمتى « فرح » رشحت أمى بالذات لزواجه منها .. فقد كان لأمي أخ وحيد هو خالى المرحوم « عمر عمر » . وكان هو وأمى « سعادات » وجدتى « زنوبه عمرايه » يقيمون فى سرايه « مصطفى بك ناصيف » الذى يملك ألف فدان فى زمام بلدتنا « شبشير الحصة » ويملك قصرا وأولادا كبارا يعملون فى المدينة فى وظائف كبيرة ، وصغارا يتعلمون فى لندن وأمريكا . ورغم ان الثورة ألغت الألقاب فان الجميع ظل يناديه يا سعادة البيه . ورغم ان الثورة حددت الملكية بمائتى فدان فانه قد نجح فى توزيع الأفدنة على أولاده قام يأخذ منه الاصلاح الزراعى فدانا واحدا . وكان جدى لأمي «بخيت عمر » يعمل طول عمره تمليا فى قصر « ناصف بك » هو وزوجه وابنه وابنته ويقيمون فى حجرة مخصوصة فى حديقة القصر ، حيث يقوم جدي « بخيت عمر » برعاية الحديقـة وقضـاء المشاوير للبك ، وتقوم « زنوبة عمرايه » بخدمة الست فى شغل الدار ، وتقوم أمى « سعادات » برعاية شئون أبناء البيك الصغار ، أما خالى المرحوم « عمر » فيقوم بتوصيلهم للمحطة بالركوبة عند سفرهم كل يوم لمدرسة البندر التى تعلم بالانجليزى .

« مصطفى بك ناصف » رجل ابن أصل كما تحلف بحياته « زنوبة عمرايه » . جعلهم كأفراد من عائلته يكسوهم ثمين الكسوة يطعمهم شهى الطعام يغدقهم يدللهم يفرض على أهل البلدة احترامهم بمناسبة وبغير مناسبة . وقد هزر وضحك كثيرا مع عمتى « فرح » خالى المرحوم « عمر » كان خفيف الدم يهزر ويضحك مع كل واحد فى ماكينة الطحين أيام كانت مكلفة بطحين دارنا وهو مكلف بطحين « ناصف بك » . فظنته المسكينة واقعا فى هواها ، فرسمت على الزواج منه ، وتعمل على تقريب أبى من أمى حتى تقترب المسـافة بينها وبين خالى المرحوم « عمر » لعله يتزوجهـا . وكان من بين الأشياء التى أغرت بها أبى رؤيتها لأطقم الصينى والفضيات التى تحوشها ست هانم لأمى ، مع الفساتين المدخرة ، والعفش الفاخر

الذى ستتجهز به من دمياط ، والنقوط الكثيرة التى ستنهال عليه يوم الفرح ٠٠ الى آن امتثل أبى لالحاحها من أجل القسمة والنصيب فذهب يخطب أمى من « ناصف بيك » فوافق فى الحال ووافقت « زنوبة عمرايه » ودفع أبى مهرا قيمته عشرون جنيها ، ولم يمض أكثر من شهر واحد حتى كان كل شىء قد تم وانتقل الى دارنا الجديدة عفش ثمين قوامه سرير نحاسي وبوريه كبير بمرآة بلجيكية وترابيزة وسط من الرخام وكراسى منجدة مذهبة ودولاب فضيات ملء بأطقم الصينى الفاخر من أطباق وفناجين ٠٠ وبهذا بات أبى من أعيان البلدة رسميا يفاجىء ضيوفه الأكابر بأطقم الصينى المفتخر التى لا توجد الا فى قصور الأغنياء الكبار ٠ وباتت أمى هى وعمتى « فرح » مثل السمن على العسل ٠٠

لم تمض سوى شهور قليلة حتى فوجىء بأنها قد حملت فى ، فازداد حبه لها عمقا ومتانة ٠ ولم يكن ليدور بخلد عمتى « فرح » ولا أمى « سعادات » ولا « زنوبة عمرايه » ان خالى « عمر » يمكن أن ينخطف منهم فى غمضة عين ، اذ دفعته الشهامة للمساعدة فى اطفاء حريق فسقط فيه ميتا وشرب الجميع حسرته ٠ على أن ذلك لم يشف غليل عمتى « فرح » أبدا ولم يعزها فى مصابها الدفين ، فباتت تعارك ذباب وجهها ، وباتت تكره أمى لله فى لله خاصة بعد ان ولدتنى وتيقنت عمتى ان وريثا شرعيا جاء لأخيها سيمكن لأمه فى مملكة هذه الدار الفخيمة التى كانت عمتى تحتلها وحدها ذات يوم ٠ وبات الاشتباك بينهما قائما كل بضعة أيام بدون سبب ظاهرى كثرت المنغصات فى حياتنا بسبب استفزاز عمتى لأمى على الدوام ، وكان أبى يصلح بينهما دائما بشق النفس ، ولولا ان دراننا متطرفة خارج حدود البلدة ، ولولا انها مغلقة باحكام لكانت فضيحتنا مضرب الأمثال ٠

لهذا السبب صرنا فى حاجة مستمرة لمجىء الخراز بعد ان كنا نأنف من التعامل معه لوجود نسخة زائدة من كل طبق وفنجان ٠

ذلك ان عمتى « فرح » أصبحت كلما رفعت طبقا لتغسله أو لتضعه على الطبلية وقع منها وجاء الى ستين حتة ٠٠ فتتهمها أمى أنها فعلت ذلك بالعنية للتنكيل بها ٠٠ فترفع عمتى وجهها الى السماء مشوحة بذراعيها سائحة فى ولولة باكية :

ـ « حسبى الله ونعم الوكيل ! حسبى الله ونعم الوكيل ! » ٠

وتشتعل المناحة فى الحال ، فيرتفع صوت أبى ، ثم ترتفع عصاه ويتصادف بعدها بقليل ان تحمل أمى طبقا أو فنجانا ، فينفلت منها ، ويهوى الى الأرض هشيما ، فتتسمر أمى فى وقفتها ذاهلة مرتعبة من هذا الخراب المستعجل لتفاجأ بأن عمتى « فرح » تراقبها شامتة ممصمصة بشفتيها قائلة :

ـ « أصلك ظالمانى ! ربنا مايحبش الظلم » ! ٠

فتصرخ أمى فيها ، متهمة اياها بأنها قد نحستها ، وانها السبب فى اضطراب أعصابها ٠ يشتعل الصياح والردح ، تحسمه عصا أبى ، التى ربما أخطأت هى الأخرى وطيرت فى الهواء طبقا يتهشم قبل وقوعه ، فيفقد أبى صوابه وينزل فى الاثنتين ضربا حتى يفقد قوته فيخرج للصلاة ٠

والآن آبت كل ثروتنا الثمينة من أطقم الصينى والفضيات الى كومة هشيم وشطفات تنتظر مجىء الخراز قبل ان تهجم علينا الضيوف فجأة ونضطر لتقديم الطعام لهم فى أطباق من الصاج الملون ٠ صرنا نستدر صوت الخراز ونتشوق لسماعه مناديا بصوته الرفيع الحاد الشجى ٠٠

وصار أبى فى حيص بيص كما يقول ، فما به ان ركنا عظيما من أركان الأبهة قد انهار فى دارنا وشبح الأطباق الصاج يهددنا بمنظره الكئيب على الطبلية فى كل وجه فيقبض وجه أبى انقباضا شديدا ، يتجرع الطعام على مضض ومن حين الى حين يسأل : « هو

الخراز ده يطل يمر ولا أيه ؟! » ٠٠ وما به من تزايد النقار والزنار بين أمي وعمتي « فرح » بدون أسباب يمكن الامساك بها والتحقيق فيهـا ٠٠ وما به من حرج بسبب اضطراره للشتائم المقذعة التي يوجهها كل يوم لأمي ولعمتي ٠ لقد بات يشعر بالندم ، ويقضى وقتا طويلا فى الجنينة يبرطم ويستغفر الله من الشيطان الرجيم الذى ينتصر عليه كل يوم فيضعه فى صف المجرمين الشتامين ، وما الشيطان الحقيقى فى نظرة الا واحد من اثنين : أمى أو عمتى ٠٠ ولذا فان الله سينتقم له منهما عن قريب باذن الله ٠

كل ذلك لا يعد شيئا بالنسبة لخوفه من « زنوبه عمرايه » حين تتأكد من ان عمتى « فرح » هى التى كسرت معظم الصينى فى شوار ابنتها وبارادتها عامدة متعمدة ٠ آه لو علمت ٠ اسمع أبى فى الجنينة وحده يردد هذه العبارة على سبيل السخرية ، لكننى ألمح الخوف الحقيقى فى عينيه ونبرة صوته حين يردد قائلا لنفسه فى توجس حقيقى : « ما زمانها عرفت ! هى النسوان يتبل فى بقها فوله ! ربنا يستر ! ربنا يستر ! » ٠٠

أعرف فى الحال ان أبى يعرف ان الفضيحة الحقيقية ستكون يوم تقف له « زنوبة عمرايه » لتردح مطالبة اياه بتعويض ابنتها عن الصينى ، لقد دخلت ابنتها على أبى بطاقم من أطقم الباشوات ، طاقم عجبه ، يتحاكى به الناس حتى اليوم ، القطعة الواحدة منه بالشيء الفلانى ، وليس منه الآن فى بيوت حتى الأغنياء فى بلدتنا ، فهل تكلفوا ثمنه الغالى ٠ لكى تجيء عمتى المتفرعنة وتكسره ؟! الهى تتكسر رقبتها ٠٠

ستتردد « زنوبة عمرايه » على كل دار فى بلدتنا وتشتكى فيه من عمتى « فرح » ومن رخاوة أبى وتحيزه لها ضد أمى ٠ سيعرف كل الناس اننا لم يعد عندنا أطقم صينى نتباهى بها ، واننا عدنا الى أصلنا فقراء نأكل فى الصاج والفخار بعد ان ثبت اننا لا نصلح للتمدين بطبيعتنا ٠٠

أرى كل هـذه الهموم مجسدة على وجـه أبى ، أقول لنفسى برعب • ماذا لو علم بأن « زنوبه عمرايه » رددت هذا الكلام بالفعل أمامي في بيوت بعض جيراننا المقربين ؟! ولابد انها رددته فى بيوت أخرى ، ويعلم الله ماذا ستفعل حين تيأس من تحرك أبى لشراء طاقم جديد أو السفر للحم هذه الأطباق فى البندر ••

ما يتأكد منه أبى ان « زنوبه عمرايه » لن تخاف من طرطوره ، ولن تتورع عن الوقوف قصاده فى أى مكان ترد عليه الصاع صاعين وسوف تغلبه وتغلب عشرا من أمثاله فى لحظة واحدة ، انها تردح فى بعض الأحيان ل « مصطفى بك » نفسه لكنه يضحك ويسامحها لعلمه ان الجميع يعرفون فضلها عليه اذ كانت هى مربيته وهو طفل صغير وفي هذا الكفاية •

لكن كل ما كان يخافه أبى قد حدث • جهرت « زنوبه عمرايه » بشكاواها وفضائحها فصنع منها الناس نكتة يتندرون بها مع أبى فى المجالس وأبى يبادلهم السخرية مستنزلا اللعنـات على الخراز النذل الذى عانده واختفى • حتى الضيوف الأغراب الذين كانوا يزوروننا من حين الى حين بدءوا يستسيغون منظر طبق واحـد أو طبقين من الصينى على المائدة والباقى أطباق من الصاج الملون ••

وكما يقول أبى دائما : ليس للجروح الغائرة من مداو سوى مرور الأيام ، ان الزمن هو الخراز الحقيقى بالنسـبة للنفـوس المزورة ، انه على الأقل ينسينا الآلام بكثرة ما يعترينا من مشاغل ومشاكل ومنغصات جديدة تطغى على القديمة • وقد صدق • فمن كان يصدق ان عمتي « فرح » تتزوج ذات يوم ؟ لكنها تزوجت ، خطبها كهل جاء يعمل عسكريا سواريا فى نقطة الشرطة التى افتتحت حديثا بالبلدة وسكن بجوارنا فانبهر بشخصية أبى وسلوكه فتقدم للزواج من عمتى فكان له ما أراد ، وخلت دارنا من العراك والردح خلوا تاما ، وخفت صوت أبى تماما فلم يعد يجهر الا بالصـلوات

والتسابيح ، وبدأ ينشغل كثيرا بأمر الانجاب حيث ان أمي أمسكت عن الانجاب بعدى لسبب مجهول لم يهتم به اذ انه كان يتمنى منه ولدا واحدا يحفظ ذريته فلما جئت أنا حمد الله على ذلك ولم يطلب منه سوى أن يبقيني على قيد الحياة ويطرح في البركة . على أن أمي كانت قد نسيت هذا الأمر تماما .

ولقد كبرت أنا فصرت في طول أبي ، وذهبت الى دسوق البندر للتعليم المخصوص ، وأصبح أبي يفخر بأن أمشي جواره في شوارع البلدة خاصة عند الذهاب الى الصلاة . وكانت الثورة قد اغرقت البلاد بأشياء جديدة وبضائع جديدة على رأسها الأطباق التي تشبه الصيني تماما بدون أدنى فرق ظاهرى لكنها من الفخار الجيد الصنع فاشترينا منها طاقما ، مثلما اشترى كافة الناس منها لرخص ثمنها ولندرة الصيني الأصيل . ثم طرأت علينا أطباق جديدة أخرى من الميلامين لا تنكسر مطلقا ولا تذوب ، فاشترينا منها طاقما مثلما اشترى كافة الناس في بلدتنا ..

اختفت الأطباق الصيني من موائد كل الدور الا القليل منها . وأكثر من مرة حاولت أمي رمي نثارات الأطباق الصيني القديمة لاخلاء مكانها للأطقم الجديدة في دولاب الفضيات ، لكن أبي كان يمنعها من التفريط فيها ، بل كان يحلو له أن يراها الضيوف مكومة في ركن من الدولاب بارزة من خلال الزجاج ..

وذات يوم كنا عائدين ، أبي وأنا ، من صلاة الجمعة متوجهين الى دارنا ، حينما قابلنا ـ فجأة وعلى غير توقع ـ الحراز . كان يمشي هذه المرة في بطء شديد ، يرفع قامته بصعوبة ، يردد النداء بشكل واهن ..

لا أستطيع وصف السعادة التى حلت بأبى لحظتها كأنه طفل صغير رأى بائع حلوى غزل البنات بعد غيبة طويلة . فتمهل فى مشيته يهم أن يغير طريقه ويندفع اليه ، لكنه صاح هاتفا بصوت صبيانى غاية فى الطرافة : الله ! الخراز أهه ! ويعوج رقبته يتابع سير الخراز فى اهتمام ثم ما لبث أن اعتدل جوارى ماشيا فى حرج كأنه احس بأنه قد كبر على حلاوة زمان .

(تمــت)

(قايتباى ـ مارس ١٩٨٧)

العراق

١ ـ الغميرة

أينما توجهت فى أى مكان فى بلدتنا فأنت معرض للقاء بعمك « أبو سماعين » أعـرف أنك فى أعماقك تضن عليه باللقب · لكن لأنك من عقلاء البلدة فانك تخلعه عليه فى أريحية تدل على شهامتك وحسن تربيتك وكرم أصلك · ولأنك ايضا ابن ناس فأنت تنهض عن مقعدك طوعا ، وتقول له بكل ادب وتحفظ ـ خاصة ان كنت ابن مدارس ـ « تفضل ياعم ابو سماعين » ، وقد تاخذ بيده لتجلسه مكانك · صحيح أنك فى الأصل ربما كنت تزمع القيـام قبـل وصوله ، ولكن مجرد أن تقول له تفضل مكانى شىء يحمد لك فى انظار كبار السن وما اكثرهم فى بلدتنا ·· أنت ضامن أنهم بعد انصرافك سـيقولون على المـلأ : « شـوف أدب الواد ·· حتى ابو سماعين وقف له واحترمه ·· ياسلام على الأخلاق » ·

ولأنك ابن أصل فأنت على حياء كبير ، يحلو لك أن تظهره فى هذه اللحظة فحسب كأجلى ما يكون ، اذ لا تكاد تنهض متخليـا لـ « أبو سماعين ـ عن مكانك حتى يغزو الاحمرار وجهك الكريم ، ثم تبالغ أنت فى اخفاء عينك امعانا فى الحياء كأنك ترفض انتظار

شكر على واجب ، وحقيقة الأمر أنك تهرب من وجه « أبو سماعين » تجنبا للتورط فيما لا طاقة لك به · أنت عارف وأنا عارف أن الجميع يتعمد اظهار الحياء المفتعل حتى لا يتجاوز « أبو سماعين » حدود الذوق · لذكائك سوف تبادر بالانصراف فورا ، متجاهلا قدر الامكان وجه« أبو سماعين » · فأنت عارف وأنا عارف والجميع عارف أن « أبو سماعين » لا يكاد يحس بحركة كرم تتخذ معه حتى يبادر باستغلالها فى الحال على نحو غريب ، اذ يندفع فى صياح شجى كأنه يبتهل الى الله بأوراد وصلوات غامضة وهو فى الواقع يمتدحك ويثنى على أصلك الكريم الذى من المؤكد أنه لا يعرف شيئا عنه ، ويدعو لك الدعوات الحارة ، فيما تكون قد ارتسمت على وجهه حركة انتظار واجفة زاعقة مستغيثة مستميتة تكاد تقول لك : « ما تهرش بقى وتخلصنى ·· ايدك على الحسنة » ، فى حين تكون يمناه قد ظهرت من كم جلبابه وراحت تتحرك نحوك تنتفض انتفاضات متتالية تهم بالأخذ ·

انت عارف وأنا عارف أنه سوف لن يغفر لك هذه الكشفة أبدا ، فرغم أنه يتوقعها ويتلقاها باستمرار ، فانه ـ فى خفة وذكاء عجيبين ـ سرعان ما يدرك انك لن تعطيه · فيلم نفسه على الفور بسرعة بهلوانية رهيبة ، وسرعان ما يتذرع بمظهر الوجاهة فاذا هو يشيعك بالسلامة ولكن بود مبالغ فيه بنبرة كأنها تغرس فى ظهرك اللعنات ، ثم يستوى جالسا القرفصاء كالعادة ، دافنا ذقنه بين ركبتيه موحوحا ، يفرك يديه فى انتظار أى شىء · يشرد لبرهة طويلة تسبح فيها عيناه السوداوتان نحو لا شىء · فان علق أحداهم على تصرفك بقوله : « شايف المدارس بتعلم ازاى ؟ » ، يشوح هو فى وجه الجالسين قائلا باستخفاف : « ياعم ·· أخلاق ايه وبتاع ايه ·· خليها على الله »

يتبادل الجميع نظرة يكتمون بها ضحكاتهم التى تريد الانفجار ، اذ هم يعلمون مقدما ان « ابو شماعين » سوف يقول هذا • أما هو فلا يعبأ بنظرات أو ضحكات ، فهو يعرف أن الجميع قد باتوا يضنون عليه بالاحسان فيما عدا قلة من أهل الخير • كذلك يعرف أننا جميعا نعرف أنه يأخذ الاحسان ليشترى به الأفيون ويشرب الشاى بدون انقطاع • لكن الله يفتح عليه يوم السوق حيث تمتلىء بلدتنا بالأغراب الذين لا يعرفون عنه شيئا ، اذ أنه هو الذى يستقبلهم عند دخولهم أرض السوق والشروع فى فرش بضائعهم ، ليلقى فى ترحيبهم قصائد مدح واستبشار يتفاءلون بها وبه وان كرهوا منظره ، انهم فى الأصل يريدون أن يتفاءلوا بأى سبب كان ، ولذا فانه يختار لكل واحد ما يناسبه من العبارات التى تتفق مع قاموس المهنة أو البضاعة المعروضة للبيع ، فاليوم الفل بدأ على جناب الله ، ونهاركم أبيض بالصلاة على النبى وآله الكرام ، روح الهى ربنا يفتحها فى وشك دنيا وآخرة •• وقد يتصدى لك فى الطريق محييا مجرد تحية يستفز بها عطفك ، وقد يجلس بجوارك فجأة دون أن يتكلم ، ويظل جالسا دون حراك حتى تتنبه اليه فتعطيه المقسوم فينهض ويختفى ، ليظهر بعد حين فى مكان آخر ••

تراه يوم السوق منتعشا ، يمشى كنخلة طويلة محنية الهامة قليلا ، واليدان متدليتان بجواره بعد أن تخلص من المنح العينية ، من عجوة وبرتقال وارغفة وأشياء أخرى غريبة • يكون فى العادة قد باعها • ان له لزبائن معروفين يوردون له القروش أو الدخان اللف أو حتى السبارس ويورد لهم ما تضيق عنه جيوبه ، خاصة يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع ، أو أيام الوقفة والأعياد ، هذه مواسمه الكبرى ، حيث يطلع القرافة ويلف على زوار الموتى ، فيجلس أمام كل مقبرة فى مواجهة أهلها ويندمج فى بسبسة وغمغمة مضغومتين فيما يهز الرأس مع النغم • ويؤكد البعض أنه لا يقرأ

شيئا ، لكنه من حين لاخر يرفع عقيرته بعبارة قرآنية شديدة الوضوح توهمك أنه مستمر في قراءة صحيحة . يعود في الظهيرة محملا بأجولة ملآنة بالأرغفة والقرص والفطائر والتمر والخروب والذرة المشوى والبلح والجوافة وربما قطع لحم مسلوبة في أرز ، ناهيك عن جانب الكعك وحده وهو حصيلة تفوق ما تصنعه لنفسها اكبر عائلات البلدة .

٢ ـ الخمارة

في قبلي البلدة يقع « حي الخمارة » ، ذلك الحي المهيب الذي يقطنه ـ من أوله الى آخره وعلى امتداد مسافات وشوارع وحوار لا يستهان بها ـ عائلة العمدة « محمد عبد المنعم أبو سيف » ، الذين يختلط علينا الأمر في التمييز بين الولد منهم وعمه ، أو بين العم وصهره ، كلهم متشابهون الى حد التطابق التام : لذلك فانت ترى الكبير منهم صغيرا دائما ، كما ترى الصغير منهم كبيرا ، غير أن تتالي الرؤيتين بصورة دائمة لا تنقطع جعل أهل البلدة يصرون على رؤية الكبير منهم صغيرا مهما علا شأوه · والأمر لا يكلف أهل البلدة سوى اعتذار رقيق مستهبل يقوله الواحد منهم بعد أن يكون قد انتقم وصغر الكبير وهزأه : « عدم المؤاخذة ياحاج ·· افتكرتك فلان ابن اخيك ·· أو تصورتك ابنك » · وقد تعود « السوايفة » أن يبلعوها ولكن في استعلاء يكشف عن شعور عميق بالعدوان ·

فبينما كان الحي كله يسمى باسمهم ، لكن حليفهم أو صديقهم الخواجة « جلانتي ابناء عم وشركاه » ـ تجار القطن ـ افتتح في الحي خمارة وجدت ترحيبا وتشجيعا من الاقارب لهـذه العائلة

يقيمون فى البندر ويعملون سماسرة فى جلب الأقطان للخواجة · لهم مراكز كبيرة فى جهات متعددة ، يندر أن تمر دورة انتخابية للبرلمان دون أن يكون فيه نائب أو أكثر من عائلة « السوايفة » عن دوائر بعيدة يسيطرون عليها · كان لهم حشد لا ينفد من الافندية الشبان لا ينقطعون عن زيارة البلدة للسهر فيها والسفر الى البندر مساء بالكارتات تجـرها الخيـــول المطهمة أو بالأتومبيـــلات أو لا يسافرون مطلقا هم وراحتهم · يشربون الخمر فى الخمارة مع بعض علية القوم من أهل البلدة الذين يتمسحون فى عائلتهم بغية كسب أو جلب مغانم أو استدرار سلطان ، ومع تجـار خواجات ، ومسئولين كبار فى المدينة لبوا عزومة لقضاء امسية فى الريف ·

اجتذبت الخمارة عددا كبيرا من الشبان من أبناء الموسرين ملاك الأراضى والتجار ليس حبا فى سكر ، أو سعيا وراء الفشخرة الكذابة ، بل لمجرد تحدى شبان عائلة العمدة واشعارهم بأن فى البلدة من يباهيهم · وقد سلب الخواجة « جلانتى » ما سلب من أرض وأموال ثم اختفى تماما بعد أن تحزبت الأمور ، اذ قد فوجىء بأن فى البلدة مئات من الشبان الأزهريين المعممين ، والأفنـدية المتعلمين ، أخذوا يهاجمون الخواجة باستمرار كلما رأوه ، فأحس بأنه لا هو ولا السوايفة بقادرين على ضد هؤلاء الشبان عن معاكسته وتكبيـده الخسـائر كل يوم خاصـة أن هـؤلاء الشبان لا يفعلون شيئا يمكن أن يحاسبهم عليه حاكم ، لا يتعرضـون له بالضرب ولا بالشتم بل ينصحونه بكلام ، يقفون فى الطرقات المؤدية الى الخمارة لتعطيل الناس عن الذهاب اليها بصنعة لطافة ، بأساليب متعددة ، حسب حجم كل شخص يعطلونه ، ربما بالاقناع العقلى ، أو كلمتين رقيقتين ، أو البستفة المستترة أو السـخرية والتهزىء والتجريس ·· ياويل السكران عند عودته مساء يترنح ، لقد بات لا يحمل هم سكره بقدر ما يحمل هم الفضيحة التى سيمنى بها

أثناء عودته ‥ قد يفعلون به الأفاعيل حتى يحولونه الى مسخة يبقى بعدها « مثلة » على عار يجر أذياله لشهور طويلة ٠

يقولون ان الخواجة « جلانتى » قد حسبها ، فوجد أن حالة البلاد قد اعتراها تخلخل مفاجيء ٠ ففى البلدة شبان يقطعون عليه طريق المؤامرة القانونية لنزع ملكيات المدنيين له بشرب طويل الحساب وفى كل مكان يذهب اليه حتى فى القاهرة ظهر له من يعاكسه بشكل أو بآخر ‥ فجمع أمواله وترك الخمارة واختفى ٠ وكان مدينا لعمالها بأجور باهظة فأخذوا الخمارة « مخلص حق » شغلوها لحسابهم شهورا طويلة جمعوا فيها ـ بالكاد ـ أجورهم فى ذمة الخواجة ٠ ثم استيقظوا ذات صباح لينتحوها فوجدوها كومة هديم تسرى فى باطنه نار ٠ من يومها لم تقم للخمارة قائمة فى بلدتنا ٠

هكذا يقولون فى بلدتنا ـ هى حكاية أسمعها كل يوم بل كل ساعة فى دارنا كأنها من بين المعلومات التاريخية التى يريد أهلى تزويدى بها لسبب غامض بالنسبة لى ٠

رغم زوال الخمارة منذ سنين تسبق وعيى بقليل ، فان « السوايفة » لم يفلحوا بعد ذلك فى اعادة اسمهم للحى أبدا ٠ ظل الناس كلهم فى بلدتنا يطلقون على منازل هذه العائلة جميعا فى كل الخارطة التى تضمهم أسم الخمارة ‥ رايح فين يافلان ؟ ‥ رايح الخمارة ‥ جاى منين يافلان ؟ ‥ جاى من الخمارة ٠ تعرف أنه حى السوايفه ٠ من طريف ما يبسطنى فى أهل بلدتى أنهم رغم نبذهم للخمارة وسحقهم لها بكل احتقار لم يأنفوا بعد ذلك من ترديد العبارة التى كانت من قبل تقشعر منها الأبدان : رايح الخمارة رايح الخمارة ‥ جاى منين يافلان ؟ من الخمارة هذه العبارة التى كانت كفيلة باسقاط قائلها فى قاع الحياة الى الأبد ، أصبح الجميع يرددونها مفخمة مبروزة ، كأنهم يسجلون باستمرار ايقاع شيء جميل فعلوه جميعا وأقام بينهم مزيدا من جسور الود ٠

٣ ـ عزبة العبيد

على مرمى من الخمارة ، فى وسط وسعاية متاخمة للقصر العمده المكون من دورين ويمتد على مساحة ثلاثة أفدنة تقريبا ، وفيه بدروم تصك شبابيكه الأرض ، يستخدمه لمن يتم القبض عليهم من المجرمين ـ أى من أهالى البلدة ـ وبانتهاء سور القصر الكبير يبدأ الشارع العمومى أو شارع داير الناحية ، الذى يتكون من مجموعة قصور صغيرة وبيوت متناثرة وقطاعات متضافرة كلها لناس ينتهى اسمهم بلقب أبو سيف • فى وسط هذه الوسعاية ـ التى هى ملكللسوايفة وتستخدم كجرن لحصيدهم ـ توجد قناة رفيعة تنتهى فى الخلاء المتاخم للحقول ، على شاطئها تقوم « عزبة العبيد » ، مجموعة من البيوت الطينية الواطئة الغائصة فى منحدر من الأرض يسكنها رهط من السود كانوا يعملون خدما وأجراء من قديم فى هذه القصور ، ولسنا ندرى أبفعل انقلاب الزمن أو بفعل تمرد العبيد حدث ما حدث اذ حل البيض محل السود فى خدمة القصور ، فشكلهم رقيق ، وأبناء الفقراء منهم كثيرون • وقد بلغت الرفاهية فى بلدتنا بأهل قصورها حدا كبيرا ، فبلغ عدد الفقراء والمعوزين ـ فوق زيادة ـ الى حد رخصت فيه الخدمة ونشأ فى

بلدتنا من يسمونه «بالتملى» ، وهو أدنى من الأجير بدرجات كبيرة ، اذ أنه يتطوع لخدمتك ـ مؤديا جميع الخدمات ـ دون اتفاق على أجر أو انتظار لمقابل ، فقط له الشرف الكبير فى حمايتك • وكانت قصور أبناء السوايفة قد بدأت تستحسن الخدم البيض مثلهم ، حيث اللون الواحد للبشرة ستارا يخفى وراءه الكثير من الأسرار •

انعزل سكان « عزبة العبيد » فى عزبتهم ، وتسيدوا على أنفسهم ، وأصبحوا متخصصين فى بيع الفسيخ والطماطم والخضروات غير الطازجة • ومنهم ضاربو دفوف وعازفو أرغول ، ومنهم « نظيمة المهدية » المغنية الشهيرة ذات الصوت الجرسى الرنان ، التى لا هى سوداء تماما ولا بيضاء تماما ، لكن صوتها أبيض منطلقا حامى الحد ، يحز فى الاحساس كالسكين المسنون ، فيكاد المستمع يشعر بقشعريرة تنزف الدم فى داخله بلذة فائقة • تغنى فى الحقول وفى الأفراح تزف العرائس • وجهها مكشوف فى الغناء ، لا تخجل من أى لفظ قد يخدش حياء العروسين ، لوثوقها من أن هذا يوقظ مهجة العروسين • الكل فى البلدة يشتهيها بينه وبين نفسه ، ولا يحب المشاركة فى الحديث عنها درءا للتهمة التى قد لا يعلم بها أحد سواه • والكل يدعوها للغناء فى أتفه المناسبات ، ويشعر بسعادة غامرة اذا غنت فى بيت أحد من عائلته فما بالك لو غنت فى بيته هو ، يضمن أن صوتها المليء بالدلع والترددات سيصنع احتفالا كبيرا ، ولسوف يتسلل هو ومعظم الرجال الى غرف الحريم لرؤية وجهها ، طامعا ان يرى معانى الأغنيات الجنسية التى تغنيها وقد تجسدت على ملامح وجهها ، يخيل اليه انه سيرى تفاصيل ما يسمع • ورغم أن وجهها يظل يتطوح ويهتز وسط النبرات وهى ممسكة بالدربكة ، يتمايل جذعها ، فان الجميع ، حتى نحن الصبية ، نتخيل اننا قد رأينا كل شيء ، وأنها بغنائها شرحت لنا كل شيء •

الكل يشتهى « نظيمة » لكنها ـ فيما يقال ـ لا تشتهى سوى « أبو سماعين » المعفن . ولا احد يدرى كيف تحتمل هى عفونته ، لكن الجميع يؤكدون أن الأفيون « يعمل عمايله » فينسيها مظهره ومخبره ، وأنها ـ نظيمة ـ تحبه بعبله ، بل من أجل كونه هكذا . قيل أيضا أن « أبو سماعين » قد أدمن الأفيون ـ فوق ادمان ـ ليرضى شراهتها ويمتعها . وقد كانت هذه الأقاويل مجرد اشاعات فى أول الأمر ، لكن الخفراء الذين يمسكون الدرك أكدوها ، وجيران المغنية أيضا أكدوها ، وبعض الشباب الذين يسرحون بعقولنا فى الأجران كل مساء يؤكدون لنا باستمرار أن هذه الأغنيات التى تغنيها « نظيمة » الفتها خصيصا على « أبو سماعين » أى أن كل هذا الغناء خطبا لوده ، ففى كل أغانيها غربة ، وحبيب يعيش بعيدا عن أهله ، وقلب يتمزق على البعد ، وفيها أيضا فراق كثير كما فيها مواقعات جنسية والهة . يؤكد كل ذلك منظر « أبو سماعين » حين يستمع اليها تغنى ، تكون تلك اللحظة هى الوحيدة التى يمكن أن ينسى خلالها الأفيون الى حين .

فى « عزبة العبيد » يبيع « أبو سماعين » حصيلته من الشحاذة ، ثم ينطلق مجرجرا ساقيه فى سرعة ولهوجة ، يعدل التلفيعة حول رقبته ، وهى حائلة اللون مجهولة العمر لا تنفك عن رقبته صيفا أو شتاء . من المألوف أن تلتقى به احدى النساء المتعبات فى الطريق ، فتنظر اليه نظرة غيظ قائلة : « آه ياخايب ياناايب .. مش قلت لك هات وانا اشترى منك ؟ » . فيعلق السائرون قائلين فى لهجة ذات معنى انه مرغم على البيع فى « عزبة العبيد » لأن نساءها يعرفن كيف يحتلن عليه ويأكلن عقله

٤ ـ عزبة صباح

من « عزبة العبيـــد » ينطلق « أبو ســماعين » الى « عزبة صباح » الواقعة على ترعة خلاف شرقى البلدة ، بينها وبين شارع داير الناحية جرن كبير يملكه مناصفة عائلتان كبيرتان يتصاهران على الدوام ويتشابهان في كل شيء : عائلة القطان وعائلة صباح ، أما عميد العائلة الأولى فقد كان يشتغل بتجارة الأقطنة ويمتلك من ورائها أرضا وفلاحة وأولادا كثيرين نشطين ، وحين مات ذات عام بعيد كان قد اطمأن الى مستقبل كل أولاده ، اذ خلف أرضا عريضة يفلح فيها الفلاحون منهم ، ودكانا كبيرا لبيع الأقمشة والأقطنة يديره بعضهم ، على حسه وحس الأرض تعلم أبناؤهم الذين فى مثل سني في مدارس البندر بمصاريف ثقيلة ينوء بها كاهل اهلنا .
وأما عميد عائلة صباح فكان تاجرا شـاطرا ، وكان مثل جـــهره وفديا يرشح نفسه في الانتخابات ويتنازل للمرشـحين المكتسحين فيدينهم بجمـــائله ويصـــبح من رجالهم فى البلدة ، كان صـدمن مشروعات ، افتتح ماكينة للطحين فـوق هـــذه الأرض على ترعة خلاف ، وأقام حولها بضع دور صغيرة لمن يشتغل فيها من اسطوات وعمال ؛ ثم باع الماكينة لشيخ البلد الذى نقلها الى مكان آخر ،

فافتتح صباح مزرعة للدواجن ، أحاطها ببيوت جديدة كثيرة ، سرعان ما استوطنها تجار البيض · وقد فشلت المزرعة ، ومات صباح الكبير ، وزحف على أرضه ملاك جدد ، ومع ذلك بقيت هذه البقعة الملتحمة بشارع داير الناحية تسمى باسمه : «عزبة صباح» ، وظل يسكنها تجار البيض ، بل وسكنها رهط من المدرسين والبقالين وتجار الحبوب ·

واضعا احدى يديه فى سياله والأخرى طليقة ينطلق « أبو سماعين » مخترقا « عزبة صباح » ، يدخل ثالث زقاق من ازقتها الكبيرة المتشابكة المتشابهة ، يطرق باب بيت « السيد الشيال » · هو فى الأصل تاجر بيض ، ورث هذه المهنة أبا عن جد ، ويؤكد دائما أن أباه هو الذى أغرى « صباح » الكبير بفكرة المزرعة ولكنها فشلت لأن « صباح » ادارها بنفسه مجتنبا أهل الخبرة · يشترى « السيد الشيال » البيض من ولدان ورجال وسيدات يلفون البلدة صبح مساء يحملون سلة فى أذرعهم ويصيحون : « ياللى حداها بيض » ، فى يد كل منهم كيس طويل من القماش العبك ملآن بالقروش الفضية وانصاف الفرنكات والبرايز والشلنات ، الخمس بيضات بقرش تعريفه وأحيانا ست بيضات ان كان بيضا صغيرا · من حارة واحدة قد تمتلىء السلة ولا يفرغ الكيس · خبراء فى فحص البيض ، اذ يمسك أحدهم البيضة ويثبتها على قبضته المضمومة معرضا اياها لوهج الشمس ناظرا فيها ، فاذا الشمس تخترق سطح البيضة وتجعله كالستار الشفاف يتبين من خلاله صفار البيض واضحا جليا ، فيعرف ما اذا كان بالبيضة كتكوت أم مجرد صفار ، فاذا كان بها كتكوت فمعنى ذلك أن البيضة « مكسرة » أى أن ديكا اعتلى الدجاجة ولقحها قبل أن تبيض ، فحينئذ يأخذها المشترى ، أما أن كانت مجرد صفار فمعنى ذلك ان الدجاجة باضتها دون تلقيح ومعناه ايضا أن تصبح مرشحة

للأكل دون المزرعه ، ويمكن لصاحبتها ان تشترى بها خيطا أو شايا وسكرا من أى دكان ·

كل هؤلاء يبيعون حصيلتهم « للسيد الشـــيال » ولغيره من بقايا عائلته المتناثرين فى كل مكان ، حيث يرصها بحكمة فى قفصين مائلين مثبتين على حامل كالعصا يضعه فوق حماره المتين البنيان ويركب فوقها ، منطلقا الى مدينة دسوق ليبيع للمتعهدين الكبار ، الذين يبيعون بدورهم لمزارع الدجاج ·

« السيد الشــيال » خلقى ، أخلاقه فى أطراف مناخيره ، معرضة للانهيار فى كل لحظة لأى سبب ، حيث ينزل عن حمــاره ويروح يجعر بصـــوته المبحوح المشروخ ، يسب ديك التخين فى البلد ، وبأقذع الألفاظ وأقبحها يشـــتم من داس له على طــرف ، ثم لا يلبث فى الوقت المناســب ان يركب حماره وينخسه برفــق وحكمة حتى يصرع فى السير دون برطعة قد تكسر البيض ، قبل أن يتطور الشتم الى خناق بالأيدى · لكن الخناق بالأيدى لا يحــدث أبدا ، لأن أهل البلدة جميعا يعرفون أن داء الأفيون وراء عصبيته وانعدام أخلاقه ، فيسخرون من غضبه ولا يقيمون لشتائمه وزنا ، بل ربما استفزوه ليستزيدوه منها ، لا يحدث التشابك بالأيدى أبدا الا بينه وبين زوجته « بدر » فهى الوحيدة التى تعمل عقلها بعقله وتقف قصاده ، تبادله الشتم والضرب بالبونية والروسية وعصــا الأقفاص اذا لزم الأمر ، ويفرجان عليهما « عزبة صباح » كلها فى كل يوم ، تهدده بالطرد من الدار التى هى فى الأصل دارها ، لكن الخناق دائما ينتهى أن تأخذ « بدر » نفسها وتذهب غاضبة الى دار أبيها « ابراهيم الحلفاوى » فى « عزبة العلمين » على شاطىء بحر السبيل شمالى البلدة ، وبعد ساعتين على الأكثر يعود بهــا « الحلفاوى » ، حيث يتناول اصطباحة الأفيون والشاى فى العصرية مع صهره « السيد الشيال » ثم يترك ابنته وينصرف عائدا الى داره مصهللا · يوصله ·

(السيد الشـــيال) الى شـــارع دار الناحيـــة حيث يمشى متأنيا يتوكأ على عصاه ، يحوذ على أكثر من دكان ليشترى ورقة دخان أو يلهف كـوب شـاى على الواقف ، يبيع فى السر قطعـة حشيش لعزيز يعزه ، فى مثل هذه اللحظة يكون منصهللا جدا ، يتحول وجهه المعروق الأبيض الى ابتسامة كبيرة بغمازتين جميلتين وأسنان دقيقة مفلوجة تفصل بينها مسافات ، يكون دائم المصمصة بلسانه ، وشفتيه ، وفيما هو يلف سيجارة يروح يعتذر عما بدر منه فى الصباح من سب وشتم ، فوالله لم يكن يقصد ، والدنيـا كانت حر ، وحال الســـوق واقف ، ثم يحلف ايمانات مغلظة أن القطعة التى باعها لك هى من أجود صنف ، وبأقل سعر مع ذلك من أجل خاطر العيش والملح والعشرة ، يدلل على صدقه فى الحلفان قائلا : « عيب وأنا باشيل ميه وأمشى بهـا فى الطـريق ·· دانا رأسمالى كله ميه » ، ويقصد بذلك انه يحمل بيضا هو عبارة عن كمية من المـاء متكور فى القفص ، ولو كان لاسـمح الله كـذابا ، لا يراعى ضميره لتكسر رأسماله وسال فى الطريق ·

يصيح « السيد الشيال » من الداخل صيحة جهورية جهمـة كأنها مقدمة لعراك حاد : « مين اللى بيخبط فى الساعادى » ، وهى عبارة يقولها على الدوام لدى سماعه لأى طرق على الباب ، يقولها ليرهب الطارق · ويرد ، أبو ســـماعين » من الشـــارع قائلا : « سا الخير يا ابو السيد » وعلى الرغم من أنه يكون قـد عرفه من صوته ، فانه ينظر من خرم كبير وسط الباب ، وان يتـــأكد من أن « أبو سماعين » وحده ليس معه أى وجه غريب فانه يصيح فيه مع ذلك بنفس النبرة العدوانية المرورة : « عايز ايه ياابو سماعين ؟ » · فيسرب « أبو سماعين » ورقة القروش الخمسة من خصاص الباب ، حيث يلتقطها « السيد الشـيال » ، وبعد برهة طـويلة يصيح من الداخل : « إتكل على الله بقى ياجـدع » فعلى « أبو سـماعين » لحظتها ان ينظر تحت عقب الباب ، ليجد ورقة السلوفان الملفوفة

فى ورقة أخرى كبيرة قد اندفعت متسربة من تحت الباب الى أرض الشارع ، فيناولها « أبو سماعين » ويدسها فى سيالته أو فى فمه ، ويستدير عائدا ٠

يمر على أماكن القعدات المعروفة ، أول قعدة تقابله فى شارع داير الناحية هى دكان المعلم فرحات الترزى ، حيث يجلس رهط من كبار السن ينتظرون حلول صلاة الظهر أو العصر أو المغرب ، ويتحدثون فى السياسة والحرب العالمية الدائرة على أرض بلادنا دون ذنب لنا فيها ، وتعلوا أصواتهم الى حد العراك ٠ بمجرد رؤيتهم لـ « أبو سماعين » تصعد رائحة الشاى الى أنوفهم ، يدفع كل واحد قرش تعريفه ، يذهب ولد فيشترى من دكان « أحمد » ابن عمتى « خديجة » قرطاسا من الشاى فى حجم أصبع الموز ، وآخر من السكر فى حجم خساية ٠ « أبو سماعين » يسحب وابور الجاز من الشباك الواطىء ، يعطيه نفسا ويشعله ، يمصمص البراض والأكواب الزنك بالماء من القلة يضع البراض ذا اليد السلكية المستطيلة فوق النار ، حين يغلى الماء يلقمه الشاى ويتركه حتى يخرط ، يهز البراض برفق ، والشاى يغلى ثم يفور ويهبط ليغلى ويفور ثم يهبط ، ورائحته النفاذة تنعش الأنوف خاصة اذا كان شايا من ماركة البنت الفلاحة أو أبو قفلين ، أخيرا يضع حفنة من السكر فى براض آخر نظيف ، يصب فيه الشاى من البزبوز الذى يخر الشاى فى صوت رتيب أليف مسكر يختلط بدون الوابور برائحة الشاى برائحة الجاز المشتعل ثم يملأ البراض بالماء من جديد فوق نفس التفل ويضعه على النار ليخرط دورا ثانيا ، ويروح يصب الشاى من البراض النظيف فى كوب وراء آخر تعلو الرغوة البنفسجية وحيث توزع الأكواب على الجالسين فيشفطون بصوت عال يتلمظون فى استمتاع ، فى حين يملأ لنفسه كوبا ويروح يرشف منه على مهل حتى يلحقه بكوب الدور الثانى ثم الدور الثالث ، كوب الدور الثالث مقدس لدى الجميع ، فهو حلو

الختام ، شاى خفيف وسكر ثقيل بعد شاى ثقيل بسكر خفيف • وتكون اسارير « أبو سماعين » قد انفرجت فيما هو منكمش على نفسه القرفصاء اذا ضحك زم شفتيه ومطهما صائحا : « هوهو •• و •• ه » ثم يضيف بعد برهة فى نشوة : « فليحيا اللى زرعه » فيعرف الجميع انه يقصد نبات الأفيون • أما ان كانت الأفيونة متعدمة أو مغشوشة فان هم الدنيا كلها يتجمع فوق رأسه فيروح ينفخ من حين الى حين فى تنهد عميق يصيح خلاله : « الله يلعن أبو اللى زرعه •• كان راجل حمار ابن كلب » ، فيضحك الجميع •

بعدها ينطلق « أبو سماعين » الى قعدة أخرى ، ربما كانت دكان معلمى « سعد الله » الترزى ، أو محمود البقال ، أو مصطبة ورشة المعلم رشوان النجار ، أو رصيف دكان الحاج على تاجر الحبوب البخيل ، أو رصيف دكان القطان • غير أنه اذا اختفى ليوم أو بعض يوم تجده قابعا فى « عزبة العلمين » على شط بحر السبيل الآخذ فى الجفاف •

٥ ـ عزبة العلمين

اسـمها الأصلى « عزبة السبيل » وتقع فى المدخل الشرقى للبلدة • الكثيرون من أهل بلدتنا لا يعرفون شـيئا عن تاريخها ، والذى يعرفه القليلون عنها عرفوه من « أبو سماعين » الذى يبدو انه ملم بكل شيء فى الحياة ، والذى تعلم منه شبان البلدة اضعاف أضـعاف ما تعلموه فى المدارس والكليات ومـع ذلك لا يقرون له بفضل بل يضنون عليه حتى بلقب يا عم ••

« عزبة البسـبيل » هى أقـدم مكان فى قريتنا التى نمت من جديد بعد ان كانت قد اندثرت منذ عهد الفراعين • فقريتنا التى تقع فى قلب شمال الدلتا وتسمى « شباس » كانت ضمن مجموعة قرى فرعونية قديمة تسمى كلها بنفس الاسم : « شباس » لا يميـز بينها سوى صفات تتميز بها كل « شباس » عن الأخرى ، فهـذه « شباس الملح » لاشتهارها بالملاحة الكبيرة فى أرضها ، وهـذه « شباس السوق » لقربها من المدينة وقيـام السوق فيها باعتبارها أكبر القرى المجاورة لها ، وأما شباسنا فكان اسمها « شباس الخط » لوقوعها فى مفارق طرق توصل الى جهات عديدة ، غير انها كانت عبارة عن مجموعة تلال مهجورة وابنية قديمة متهدمة يقال انها كانت

معاصر للجعة من حقول الشعير العريضة المترامية حولها • الشيء الوحيد الذى لم يعرفه « أبو سماعين » هو معنى كلمة « شباس » لكنه اكد انه اسم فرعونى قديم ربما كان معناه الكفر أو المحلة أو ما الى ذلك •

« شباس الخط » كانت تختلف عن غيرها من القرى المجاورة بكثرة عدد المسيحيين فيها ، حيث كان هناك ــ منذ عهود بعيدة ــ جانب كبير من البلدة يضم عدة شوارع يسكنها عائلات مسيحية ، غير أنها كانت تتضمن فى قلب حواريها بيوتا لأفراد مســلمين ، وكانوا يغيثون بعضهم بعضا عند الملمات ، ويتبادلون المساعدات فى شغل الحقل • وقلما كانت تثور خلافات بين الطرفين ، وان نشب عراك حول رى أو تجاوز حدود أو اعتداء بقرة من هنا على زوع من هاهنا أو حتى بسبب الأطفال ، فان المعركة سرعــان ما يخبو أوارها قبــل أن يندلع ، وتصــفى بقاياها فى أى دكان أو على أى مصطبة ، ولابد أن تظل البلدة أياما بعدها تتحدث فى الخــلاف باعتباره نكسة شيطانية كاد غبارها يعكر صفو اللبن ، ولابد أن يكون « أبو ســماعين » حاضرا عند تصفية الخلاف ، ليمط بوزه ويدفع من بين شفتيه ضحكته الشهيرة قائلا : انه لا فرق بين مسلم ومسيحى فى هذه البلدة ، فيضيف أحد كبار السن قائلا : « طبعا طبعا وفى بلدتنا هذه بنوع خاص » ، حينئذ يشفط « أبو سماعين » شفطة الشاى ويضيف فى حسم : « وعند الله ذاته سبحانه وتعالى » ثم يبدو عليه أنه قد أحس بأن هذا القول لم يرض بعض الجالسين، فاذا هو يرسم على وجهه مسحة الواثق من كلامه ، وما أن ينفض مجلس الصلح حتى يصهلل « أبو سماعين » ويحكى عن بلدتنا فيقول كلاما غريبا نسمعه منه لأول مرة • نسأله نحن صبيان الدكان ورهط من الجالسين لماذا لم يقل هذا الكلام فى مجلس الصــلح ؟ فيشــوح قائلا : « انهم بهائم لن يفهموا من كلامى شيئا ، انهم لا يفتحون آذانهم الا لكل معمم حتى ولو كان جاهلا ، ولكل افندى حتى ولو

كان أميا » ·· ثم انه يندمج فى تحملة الحكاية بجدية كأنه يؤدى واجبا عزيزا عليــه ··

حين كانت بلدتنا هذه مجموعة تلال مهجورة وأخصاص يناها من لهم اراض فى زمامها ، كان الرومان يحتلون الديار المصرية ويضعون على كل بلدة حاكما منهم · وكانت الديار المصرية مسيحية وكذلك الرومان ، لكن الكنيســة المصرية كانت أم الكنـــائس على الاطـــلاق وصاحبة السيادة والكلمة العليـا ، وكل الكنـــائس فى أنحاء الأرض تابعة لها خاضعة لكلمتها · وكانت الكنيســة الرومانية تفهم الدين المسيحى على نحو مختلف ، ولست أذكـــر ان كان « أبو سماعين » قد قال لنا أسباب هذا الخلاف ونســيته أم انه لم يقله أصـــلا ، الا أننى أذكر جيـــدا قوله بأن الكنيسة الرومانية ركبت رأسها وقالت كيف تكون دولتى هى الســيدة المحتلة وأكون أنا خاضعة للكنيسة المصرية ؟ وهيأ لها وهم القوة أنهــا قادرة على اخضاع الكنيسة المصرية لرأيها ومشيئتها ووجهـــة نظرها · ولكن كيف لها أن تفعل والدماغ المصرية ناشفة خاصة فيما يتعلق بمسألة الكرامة والوطنية والعقيدة ، ان الوطن عنـــد المصريين هو العقيدة ان كنتم لا تعلمون ·· هكذا قال «أبو سماعين» مرارا وتكرارا وهــكذا كان فعـــل المصريين آنذاك ، حيث فشلت الكنيسة الرومانية فى اقناع علماء الكنيسة المصرية برأيها فلجأت الى القوة والارهاب ، وأطلقت قوات الاحتلال يدها فى البـــلاد ذبحا وتقتيلا ، وكان يخيل اليها ان قتل ثلاثة أو أربعة من كل بلــد سوف يلقى الرعب فى قلوب المصريين ، ويؤدى بهم الى الخضوع للروح الوثنية الرومانية ، وفاتهم أن هناك مثلا قديما يقـــول : « أن تحويل جبل عن موضعه أيسر من تحويل قبطى أو مصـــرى عن عقيدته » · وقد صدق المثل ، فكان المصرى يضع رأسه فى حبل المشنقة ورقبته على حد المقصلة ولا يفرط فى عقيدته ، لدرجة أن قوات الاحتلال الرومانى أعدمت من الرجال والنساء والشـــباب

ما سد عين الشمس بالجثث وصـــبغها بلون الدماء • « شباس السوق » وحدها أعدموا منها تسعة أعشار الرجال ، ومن يومها أصبح اسمها « شباس الشهداء » نسبة الى عدد شهدائها المهول •

نبهر جميعا حين يقول « أبو سماعين » هذه المعلومة ، بل تقشعر أبداننا الصغيرة وترتسم الدهشة على وجوه الجالسين ممن لا يعتبرهم « أبو سماعين » من البهائم نقول جميعا فى نفس واحد : « يا سلام •• بقى شباس الشهداء دى هى شباس الشهداء اللى جنبنا دى ؟ » يرد فى ضحكة انتصار : « ايوه اللى جنبنا •• الى بينا وبينها اربعة كيلو متر بس » • ويستمد من دهشتنا للاستماع حماسا جديدا ، فيستأنف الحكاية ••

المعلم « عبد الملاك حنا غطاس » كانت له اراض كثيرة فى زمام شباس الخط » ورثها عن أجداده • وكان مستنيرا ، وملما بحقيقة الأوضاع فى البلاد ، وكان مع ذلك فلاحا قراريا ، ولئيمـا جدا ، هرب من عصر الشهداء الى هنا ، واختار قطعة من اراضيه على بحر السبيل وزرعها كلها نخيلا بمساحة عشرة أفدنة ، وظل يرعاها وبحر السبيل يسقيها بغزارة ، حيث أقام على شاطئه ساقية كبيرة اسمها الكباس لكبر طارته عن طارة الســاقية واحتياجه لدايتين بدلا من واحدة ، وهو ايضا بشعبتين بدلا من واحدة • قبل ان تلمع نظرات الدهشة فى عيوننا يشير « أبو سماعين » بيده خلف ظهره قائلا : « ولا يزال هذا الكباس يسمع الى كلامنا الآن على شاطىء بحر السبيل ، ولا يزال يحمل نفس الاسم منذ ما يزيد على الألف وخمسمائة عام : كباس المعلم عبده ••

نفغر أفواهنا جميعا من الدهشة البالغة : معقولة ؟ كبـاس المعلم عبده ؟ عمره اكثر من الألف وخمسمائة عام ؟ كيف يا رجـل تسرح بعقولنا • تقول عيوننا لبعضها البعض إن صنهللة الأفندية ربما كانت هى السبب • تقول نظرة « أبو سماعين » المتشربة من

عينيه الضيقتين أنه قد فهم أن هذا الاحساس يساورنا • حينئذ يضحك في عمق ، يقول بلهجه جادة كلها ثقه : ما الغريب في ذلك؟ ان عمر بلدتنا من عمر اسمها ، يعني ان اسمها هذا عمره الاف السنين ، وقد ظهرت مبان عمرها آلاف السنين ولها اسم لاصق بها، بل ان هناك جثثا آدمية « عائشة » منذ الاف السنين ميتة وباقية كما هي كانها نائمة في سلام ، وهناك متحف يضم هذه الجثث ويستطيع كل انسان أن يدخله ويتفرج ، صحيح أنها جثث ملوك ولكنها باقية •• وعموما قاسم المعلم عبده ربما كان حديثا بعض الشيء ، على أن من يقرأ حجة الأرض وأوراقها لدى الورثة أو لدى ادارة المحفوظات فلابد أن يتضح له أن المعلم « عبد الملاك حنا غطاس » مات وانجب ولدا واحدا وبنتين ، سمى الولد « حنا عبد الملاك غطاس » ومات « حنا » بدوره مخلفا ولدا وحدا وبنتا واحدة ، اسمي ولده « عبد الملاك حنا غطاس » ومات « عبد الملاك » الثاني مخلفا ولدا واحدا اسمه « حنا » بدون اخوة اناث ، ومات « حنا » الثاني مخلفا ولدا اسمه « عبد الملاك » مات هو الآخر ، ومات من جاء بعده وبعد بعده ولكن اسم « عبد الملاك » لم يمت بل ظل يتكرر في السلسال حتى جاء الفتح الاسلامي لمصر ••

مصر المسيحية وقتــذاك ، ذات القلب المتسامح ، قد ضاق صدرها الرحيب بالرومان ولما قرئ القرآن الكريم على أهلها استشعروا فيه نفس السماحة والصراحة والقوة والصدق وشرف الغاية المربوط بشرف النفس وقدرتها على فعل الخير •• ثم ان الأمر كان مختلفا ، فالعرب أخوة للمصريين ومن نفس الجنس أما الرومان فأغراب من جنس آخر من دم آخر •• والعرب أصحاب رسالة دينية تتفق والرسالة التي يؤمنون بها منذ فجر التاريخ أما الرومان فغزاة أجلاف متغطرسون • وهكذا ما كادت وفود الاسلام والعرب تلتقي عبر الأسواق والموانيء بأهالي مصر حتى تم كل شيء في سلام وفتح المصريون احضانهم لرسالة الله من جديد للمرة

الثالثة على نحو أكثر شمولا وعمقا وأكثر اتصالا بالله ، لقد كان الدين عندهم من قبل دينا صارما أما الاسلام فلم يغفل وجه الدنيا · كل ما هنالك أن الجيوش الاسلامية بقيادة عمرو بن العاص كان عليها أن تقاتل جيوش المحتل الذى يدافع عن مكاسبه وغنائمه · فما أن تمكنت جيوش الاسلام من قهر مندوب هرقل – (تنفتح عيوننا ذهولا من سماعنا لهذا الأسطوري الغريب) – حتى بدأت شجرة الاسلام تمد جذورها فى أرض الكنانة ·

ثم بدأ « الارتباع » يقول لنا طبعا ما هو « الارتباع » هذا · ان القبائل العربية وغيرها من القبائل التى كان يتكون منها جيش الاسلام ، حين استقر مقامها فى الفسطاط العاصمة بدأت نظاما يسمى « نظام الارتباع » له صلة بالربيع ، ففى فصل الربيع من كل عام تبدأ القبائل العربية كلها فى القيام برحلاتها السنوية الى ريف مصر ، يجمعون منها الحبوب والمحاصيل ، يتسوقون السمن واللبن والجبن والطيور والخراف والأبقار والجمال ، مقابل نقود يدفعونها أو ربما بالصلاة على النبى ، وفى كل الأحوال فالصلاة على النبى كانت شفيعا تنهار امامه كل المعوقات وتتسهل كل الأمور · هى رحلة سنوية تبدأ مع بداية الربيع وتنتهى بانتهائه حيث تعود القبائل الى العاصمة محملة بالخير الوفير ، تعيش عليه بقية شهور العام ، وكان « عمرو بن العاص » حاكم مصر يوصى الناس بهذا النظام ويشجعهم عليه بكل قوة ، ويوصيهم بالاعتدال فى معاملة الأقباط من الفلاحين ولا يبخسونهم حقوقهم ·

بفضل نظام « الارتباع » ساح فى أرض الكنانة رجال ذوو فضل ومكرمة ، فقهاء وعلماء ووجهاء بل وصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم · ومن قبل كانت القرى المصرية تشهد رهطا من علماء المسيحية وفقهائها يركبون الحمير بمسوحهم ويتجولون فى القرى والكفور والدساكر يعظون الناس ويتحاورون معهم فى

الدين ، وكان الأهالى يلقونهم بكل احترام وتقدير ويردونهم محملين بالخيرات دون مقابل مادى · قرانا ـ اذن ـ كانت مهيأة لاستقبال ما يجيء من لدن عزيز حكيم مهما تنوعت الوساطات · انطلق الفقهاء والصحابة والأئمة يرتبعون فى القرى والكفور والدساكر ويحولون الارتباع من جمع خيرات الى نشر للرسالة السماوية والعلم بها · كل القرى كانت بالطبع مسيحية وكل القرى تستقبل كل الوفود بكل ود وترحاب وأريحية ، بل ان الود تعمق الى درجة لا تصدق الا فى مصر كنانة الله ، ذلك أن الله مكنون فى ضميرها ·· ذلك أن بطونا من القبائل العربية وأعلاما من أهلها حين رغبوا فى الاستيطان فى بعض القرى تم لهم ذلك فى سهولة بالغة ، حتى أن المسلمين الراغبين فى الاستيطان وجدوا من المسيحيين من يعاونهم على تثبيت دعائم الاستقرار بوسائل عديدة ، بل وجدوا من يعلمهم فنون الزرع والقلع والرى والحصاد ، ومن يعلمهم الصبر والحكمة فى التعامل مع النبات ومع المناخ ومع المطر ، ومع النيل على وجه الخصوص ·

منذ ذاك ، كان نخيل « المعلم عبده » قد استطال وتعرق وبات غابة عظيمة الاتساع والأهمية ، يجيء لها المقاولون من كل المدائن لشراء بلحها على أمه ، وموسم قطع بلحها يعتبر مهرجانا تحبه البلدة وتنتظره حيث يستفيد منه معظم الناس والأطفال ·· العجيب أن صاحبها كان اسمه المعلم عبده مثلما هو باق حتى اليوم ، فقد أطلعنى أحد أحفاد هذا المعلم العجيب على شجرة العائلة فوجدت فيها عشرات من المعلم عبده كانوا مشرفين كلهم على النخيل ، حتى ليخيل الى أن كل من يشرف على هذا النخيل يغير اسمه فى الحال الى المعلم عبده · المهم اننا لا نعرف الآن أيهم كان فى الترتيب زمنذاك هل هو المعلم عبده الثانى عشر ، أو الثالث عشر ، الله وحده يعلم ، ونحن أيضا نستطيع أن نعلم بحسبة بسيطة

فى عمر النخيل ، فالولد « حصاوى » العجوز المتخصص فى قطع البلح ورعاية النخيل يستطيع تحديد عمر النخلة من حراشيفها ومن جريدها بل ومن طعم بلحها ٠

على أن الذى يتأكد منه « أبو سماعين » هو أن « المعلم عبده » صاحب النخيل وقتذاك كان لديه ولدان أحدهما يدعى « عزيز » والآخر يدعى « وهيب » أما « عزيز » فقد كان على غرار أبيه فيه الكثير من جلافة جده الأكبر ولؤمه وميوله العملية ، لا يكف عن تخطيط المشاريع للاستفادة من بلح النخيل ، حتى ان بلح نخيله كان بفضله يصل الى روما والى الهند والسند مغلفا فى علب تحمل اسم عزيز وجده المعلم عبده ، وكان أيضا يتاجر فى الخنازير ويجنى من ورائها ربحا كبيرا ٠ أما « وهيب » فكان نشيطا ذكيا صافى النفس مجنونا بالفن ، يصنع من سعف النخيل أنواعا مختلفة من السلال الأنيقة بل ومحافظ للورق والنقود وشلت للجلوس وطواقى وعباءات كانت كلها تسافر هى الأخرى الى روما ومكة ويتلهف عليها الأغراب ٠ وكان كريما يجود بسباطة بلح كاملة لأم لا مال لديها تشترى به بلحا لأولادها وكان ينفق عن سعة، ويحبه كل الناس ٠

ما كاد نظام « الارتباع » يؤوب الى استقرار تام للمسلمين فى القرى حتى تحولت « شباس الخط » الى حركة دائبة دائمة ، انتقلت ملكية بعض حقولها الى ناس من الوافدين الجدد ، وأقيمت بعض الدور على الطراز العربى فى بقع متناثرة ، وكانت كل قبيلة تستقل لنفسها بخط أو قطعة أرض يبنون فوقها ، ظلت هى الأخرى حتى وقتنا هذا ، انظروا مثلا الى بلدة « قزمان » المجاورة لنا ، تجدون لهجتها فى الكلام غير لهجتنا ، فلهجتنا العامية على فصاحة فى النطق ولباقة ، محتفظة بايقاع اللهجة القرشية ، مما يدل على ان القبيلة التى استوطنت قريتنا كانت بطنا من قريش ، أما لهجة « قزمان » فمعوجة ولا نكاد نفهمها مع ان المسافة بيننا وبينهم

لاتــزيد على ثــلاثة كيلومترات ، مما يــدل على أن القبيلة التى استوطنتها كانت من الاعاجم الذين دخلوا فى الاسلام او لعلها من قبائل غير قرشيه ، وهذه ظاهرة معروفة فى كل أنحاء مصر ، كل قرية وكل كفر له لهجــة مختلفة فى نطق الكلام ، مع أن الحيــاة والعادات قد باتت واحدة ٠

كان ذلك فيما مضى يثير بهجة المصريين المسيحيين اى نعــم ، ويصنع حالة رواج بينهم ، الا أن المعلم عبـــده بدأ يحس بالقلق الشديد حين رأى ابنه « وهيب » يدمن العلاقة بالمسلمين ويصادقهم بعمق ، ويكثر من التردد على مجالس العلم ودروس الوعظ التى تقام صبح مساء فى المساجد والزوايا الصغيرة والمصلات التى بدأت تنتشر فى كل مكان وعلى شطآن الترع والطرقات ٠ أن هى الا شهور قليلة حتى فوجىء « المعلم عبـده » بأن ابنه « وهيب » قـد أســـلم وانتهى الأمر ، بل وقطـــع شوطا طويلا فى تعلم اللغة العـــربية الفصحى ليقرأ بها القرآن كما أنزل ٠ على أن انزعاج الأب لم يدم كثيرا فسرعان ما وجد نفسه مرغما على قبول الأمر الواقع ، وكان يزور ابنه « عزيز » يوم الأحد فينتظره حتى يعود من الكنيسة ، ويزور ابنه « وهيب » يوم الجمعة فينتظره حتى يجىء من المسجد ٠ ظل كذلك حتى هلك ، وكان « عزيز » صـــاحب مال كثير فانتحى بأولاده الكثار ركنا قصيا فى البلدة القديمة الجديدة ظل يكبر مع ازدياد ذريته حتى كاد يصـــبح بلدة داخــل البلدة ولم يكن لدى « وهيب » مال يذكر ، وأولاده قليلون ، فانتقل الى الشاطىء المقابل من بحر السبيل وابتنى لنفسه ولأولاده بيتا مكونا من عدة بيــوت داخلية صغيرة ، كان يستقبل فيه زواره من المسلمين والمشــايخ ويقيم حلقات الدرس والذكر طوال النهار ، ففى هذا المكان جلس رجال عظماء من الفقهاء والصحابة ، من بينهم سيدنا « عمير بن عبد الله بن عمر بن الخطاب » الذى افتتن بهذه المنطقة فاستوطنها بأهله وولــده وكانت تجىء له الوفود حتى عرفت البلدة باسـمه : « شباس عمير » ثم ان «وهيب» قد مات ودفنه المسلمون فى زفة كبيرة

مهيبة وضعوا له ضريحا بين الأولياء ، لكن أولاده تفرقوا عاما بعد عام ، فابتنوا لأنفسهم بيوتا فى أماكن بعيدة ، ومشوا فى حب الله يرتحلون ويجاهدون • الى أن جاء يوم منذ أعوام بعيدة جدا نشط فيه أحد الحجاج المسلمين وابتنى هذا السبيل العتيق فوق البقعة التى مات فيها « وهيب » ، مؤكدا ان « وهيب » قد زاره فى المنام وأبلغه بهذه الرغبة • بعدها بأعوام جاء رهط من الصيادين القادم بحر السبيل على هذه البقعة المباركة فاستوطنوها وابتنوا هذه العشش والأخصاص • وسميت « عزبة السبيل » •

« أبو سماعين » يحب « عزبة العلمين » أو عزبة السبيل ـ دون غيرها من بقاع بلدتنا ، لكونها على أحلى تحويدة من منعرجات بحر السبيل ، اذ تبدأ من ناصية المنعرج وتأخذ من الشاطىء بطنا صغيرا ينتهى بالسبيل ، الذى هو عبارة عن بناء من الأسمنت يشبه الضريح الصغير له أربع نوافذ تطل على الجهات الأربع فوق كل نافذة كوز من الصفيح ، السبيل ممتلىء على الدوام لحافة النافذة بالماء ولا أحد يدرى من الذى يملأه كلما فرغ ، ومياهه ليست من مياه بحر السبيل العكرة بل من مياه الترعة الجارية • كل آيب من الحقل أو ذاهب اليه يقف ليشرب ولو على سبيل جبران الخاطر • يوم السوق يكون منظره مثل كعبة صغيرة يتجمع حولها الحجاج من كل ناحية • فاذا جلس « أبو سماعين » تحت ظل صفصافة منزوية خلف السبيل استطاع أن يسرح بنفسه جيدا كيف يشاء دون أن يزعجه أحد ، وفى نفس الوقت يتلقى القروش والملاليم من المارة الذين يستوقفهم السبيل فيروى غلتهم ويرقق نفوسهم ، مع انه كان يختلس كوزا من كيزانه فيصنع له يدا من سلك ملفوف حوله ، يشعل تحته حطبا ويسوى زردة شاى •

وراء « عزبة العلمين » مباشرة يوجد دكان « المعلم سعد الله »

الترزى ، وهـــو الدكان الذى أتعلم فيه الخيـــاطة مع رهط من الصبيان • وكنت أرى « أبو سماعين » فى بعض الأحيان مقبلا من داخل « عزبة العلمين » نحو شارع داير الناحية • فلا يكاد يصــل الى رصيف الدكان حتى يرتمى جالسا : « تشرب شاى يا معــلم سعد الله ؟ » فمن خلف بنك التفصيل الخشبى يرد المعلم سـعد الله: « ولع » ، ويرمى لى بقرش تعريفة أى خمسة مليمات ، اشــترى به شايا وسكرا • أعود فأرى « أبو سماعين » قد ترك الوابور يهب على مزاجه ، أتولى عنه تسليكه وعدل شـــعلاته ، أغسل البراض والكوبين ، أوصيه أن يعمل حســـابى ولو فى شفطتين من الدور الثانى ، يزم شفتيه ويمطهما ضاحكا : « هو هو •• و •• ه » •• قصيرة مكتومة اذا كانت أعصابه سائبة • أداعيه ضاحكا : « الله يخرب بيت اللى زرعه » • ينظر لى غاضبا ، يعاقبنى فلا يعطينى شفطة شاى • غير أننى لم أكن أزعل منه أبدا • فلأمر ما ، لم أكن أدريه على وجه التحديد ، كنت أحس بقرب نحوه ، وألفه ، ربمــا لأننى فتحت عينى فرأيته أحد الزوار الأصلاء لدارنا دون أن يكــون له برواز معين نعرفه فيه ، فهو « أبو سماعين » وكفى • بعدها رأيته فى كل مكان بلا استثناء • وكنت أحب الاستماع اليه اذا تكلم ، مع أنه نادرا ما يتكلم ، لكنه اذا تكلم ، خرج صوته من تحت أنفه ، لا أخنف تماما ولا منطلق تماما ، لكن لهجته فى الكلام تختلف عن اللهجة التى نتكلم بها نحن كلنا ، أعنى أهل بلدتنا ، فليس فى لسانه تلك العوجة الفلاحية التى تخلخل ايقاع الحروف ، انما لهجته أقرب الى لهجة البندريين ، حيث الحروف السريعة الايقـاع واضحة بارزة ، وحرف الجيم ينقلب الى همزة ، والنطق فيه رقة ، وتتخلل كلامه ألفاظ فصيحة كالتى نسمعها فى القرآن • فكنت أعجب لذلك ، ويتحول العجب الى كثير من الاعجاب الغامض • وقد بات هذا الاعجاب كبيرا حين علمت من معلمى « سعد الله » أن « أبــو

سماعين » هو الذى أعطى عزبة السبيل اسم « عزبة العلمين » بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ٠

اذ أن « أبو سماعين » نظر فى هذه العزبة فوجد ان كل المعارك التى كانت تدور رحاها بالنيابيت والفئـــوس بين شرقى البلدة وغربها ، أو بين شمالها وجنوبها ، كانت تنتهى فى هذه العزبة ، فعندها يرتد المهاجمون ، وفيها يهرب المهزومون ويقول لك الواحد منهم مفاخرا : « رددناهم كالخرفان حتى عزبة السبيل » أو يقول لك آخر : « ولم ينقذنا منهم سوى وجود عزبة السبيل » : غير أن العزبة بحكم وقوع ظهرها فى حضن الجهة الشرقية للبلدة وجدت نفسها حليفة لها، فما ان يغير على أهل البلدة أهل جهة من الجهات الأخرى حتى يخرج من هذه العزبة عشرات من الولدان الحفــاة فى أسمال بالية ، ونساء مجفرات هائشات كالغولات ، ورجـــال أجسامهم تشبه المجاديف والكائنات البحـــرية ، يمسكون العصى والطوب وغطيان الحلل ، فلا يجد المغير مفرا من الارتداد ، ولابد أن يجد فى صفوفه كثيرا من المصابين ، ولابد أن تكون كل هــذه الاصابات من كائنات « عزبة العلمين » كما يسميهم « أبو سماعين » ٠٠ الا أن الكرة الكبرى الفاصلة ــ بتعبير أبو سماعين ــ قد منيت بها عائلة السوايفة ، أسرة العمدة ، وهى عائلة يتفشى فيها الجنون، فى كل جيل لهم اثنان أو أكثر فى مستشفى الخانكة ، مع ذلك كان العمدة « محمد عبد المنعم ابو سيف » يريد تسييد عائلته على أهــل البلدة فى كل مكان ومجال ٠ كان «أبو سماعين» يسمى هذا العمدة « هتلر بلدنا » ، فلما أشيع أن هتلر قد أسلم وسمى نفسه « الحــاج محمد هتلر » ضج (أبو سماعين » بالتصفيق والهتاف الســاخر : « هو هو هو ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ ه خلاص ٠٠ أصبحوا واحد ٠٠ زى بعض فى كل حاجة ٠٠ الدم يحن يا جدعان ٠٠ العمدة كان مثــل هتلر ٠٠ وهتلر أصبح مثل العمدة ٠٠ وقد طلع الحجاز هو الآخر ٠٠ مثل العمدة ٠٠ ولم يجد له اسما يختاره سوى اسم الحنيب

محمد .. الذى اختاره العمدة من قبل .. الحاج محمد هتلر . .
هو هو .. و .. و ... ه »

يوم ذاك حكى لى « ابو سماعين » شيئا لم أكن اعرفه عن أبى .. اذ حدث وأنا بعد وليد لا يعى ، كذا وكذا وكذا . يدهشنى من كثرة ما يعرفه عن أبى وأسرتنا مما حدث قبل ان أجيء انا الى الوجود . ويبدو أنه لصيق باسرتنا منذ سنين طويلة ، ولابد انه كان يشرب الشاى مع جدى الكبير « الكلاف بيك » فى مندرتنا العتيدة . كنت ألاحظ أنه يتحدث عن أبى وعائلتى بكثير من الاهتمام الحقيقى كأنه يتحدث عن العائلة المالكة ألمس الصدق فى نبراته ، فيداخلنى العجب من أنه هو بالذات يكن لعائلتى كل هذا الاحترام الذى يؤكد أنه لامسنا من الداخل وعرف عنا ما لم يعرفه أحـــد ، لدرجة أن سيرة أحد أسرتنا اذا جاءت فى قعدة هو موجود فيها فان المتحدثين اذا اختلفوا حول نقاط تغمض عليهم فانهم ينظرون حواليهم باحثين عنه قائلين : « مش كده برضه يابو سماعين ولا احنا غلطانين ؟ » فينبرى « أبو سماعين » مصححا الاسم أو الواقعة أو اليوم ، يضيف مزيدا من المعلومات المبهرة لى ، كأنه المؤرخ المتخصص فى عائلتنا دون غيرها من عائلات البلدة ..

حكى « أبو سماعين » قائلا ان أبى لم يكن له هم فى الدنيـا سوى محاولة القضـــاء على العمدة بأى شـــكل . فقد كان أبى « عبد الفتاح افنـــدى الكلاف » موظفا كبيرا فى هيئة فنـــارات الاسكندرية قبل أن يحال الى التقاعد فى بلدتنا حيث يقيم اخوته الذين يفلحون أرض أبيـــه ، الذى كان بدوره موظفا خطيـرا فى الخاصة الخديوية ، ولا يقـــولون لى ما هى الوظيفة على وجه التحديد ، ولكن اسم جدنا الكلاف كلما طرأ على بالى أيقنت أن جدى لم يكن سوى كلاف يعنى بطعام حيوانات افنديتا من خيـــل وابقار ، ومن ثم فاسم جدنا اسم على مسمى ، وحينما سألت « أبو

سماعين » فى هذه النقطة صـــاح ضاحكا كأنه يســـخر منى : « هو ·· هو ·· و ·· ه ودى شوية ؟ » وكان أبى وفديا كبيرا ، والعمدة « حرا دستوريا » كبيرا أيضا كما يدعى ولكنه فى الواقع لا مبدأ له ، انه سويفى وحسب ، انه عائلته التى بفضل ترائهـــا ونفوذها يبقى هو حارسا لمصالحهم جميعا فى بلدتنا · وكان أبى قد بلغ من العمر سبعين عاما ومع ذلك تبدو العصا مجرد زينـــة فى يديه لا أكثر ، يطوحها كيف يشاء ، ولا يمل من السفر الى مواقع الحكام الكبار ، وكتابة العرائض وجمع التوقيعات عليها ، وتكوين جمعية كبيرة تضم الجمعيات الثلاث التى كانت مناهضة للعمـــدة ولكنها تختلف فيما بينها حــــول أشياء فارغة زرعها فيهم أقطاب الأحزاب · كان يستقبل مرشح الدائرة الوفدى ، يفتح له مندرتنا الكبيرة ، يقدم للحشود شــــايا وشرابا على شرف الزائر الكبير ، يقف خطيبا مفوها ، يهتز من فصاحته حتى المرشح نفسه مهما كان بليغا ، يعلن ابى باسمه وباسم كافة البلدة مطلبا رئيسيا : اجــلاء العمدة عن منصبه وتحييد أهله عن أهل البلدة ·· كالعادة يقف المرشح ليعلق ، فيدارى ارتجافه الواضح بعبارات حماسية تحتمل اكثر من معنى ، فى كتمان يميل على ابى واقطاب الحشود هامسا بأن كل شىء سيكون على ما يرام ·· فى العادة أيضا يأخذ المرشح الدائرة ثم يختفى من البلدة نهائيا بعد النجاح مباشرة فلا يزورها مطلقا ، بل قد لا يزور بلدته نفسها · الى أن جاء ذات عام مرشح يدعى « البرقوقى » زار مندرتنا وكل المنادر الكبيرة فى البلد ، وقدم الناس بين يديه مطلبهم العتيد العسير : « اختيار عمدة جديد من عائلة اخرى متواضعة وليس بينها وبين البلدة مشاكل تاريخية » وقد وعد « البرقوقى » خيرا ، فلما نجح اختفى هو الآخر ، ثم كان لابد أن يجىء البلدة غصبا عنـــه مرة أخـــرى لكى يدعو لاعادة انتخابه دورة ثانية ، فكانت فرصـــة أمام « عبـــد الفتاح افندى الكلاف » ـ أبى ـ حيث اســتقبله فى منـــدرتنا ، والقى بين يديه

قصيدة شعر عصماء تغنت بها البلدة شهورا طويلة ثم باتت مجرد خبر مدعم ببيت واحد منها وربما شطرة واحدة ٠٠ الا أن ذاكرة « أبو سماعين » هى التى حفظتها كاملة ، بل حفظت لهجة أبى وهو يلقيهـا :

لله درك يا نحـاس من بطـل
لا زلت سيفا على الاعـداء مسنونا

ويـا آل برقـوق أخـذنا بأيديـكم
وانتـم لـم تأخـذوا بأيدينـا

فان كانت عمد القرى فى الميـادين
تقهركم ٠٠ فعنكموا خلوا الميـاديـنا

ولا لـوم على شـخص جـل أسرته
قـد شرفوا معقل الخنـكا مجـانينا

الـداء ميـراث انى أبشـركم
عما قريب تراه النـاس مجنـونا

ينتعش « أبو سماعين » فجأة وهو يصل الى هذه النقطـة من الحكاية ، تدب فيه حيوية شديدة رغم ضيق عينيه وسجنهما خلف شبكة من العماص الناشف ٠ يداخلنى اشفاق عجيب عليه ، أظن أن لو فى حوزتى نقودالا شتريت له قطعة الأفيون حتى يظـل هكذا منجليا على الدوام ٠ يداخلنى كذلك عجب ، أكاد أبكى كلمـا عجزت عن تفسيره ، ذلك هو الرعدة التى تنتابنى كلما سمعت اسم الأفيون كأننى على وشك ارتكاب عار أو الوقـوع فى الوحـل والوضاعة فهكذا ينظر كل أهل بلدتى لمدمنى الأفيون فى بلدتنا ، مع أننى بعينى رأسى هاتين أراهم جميعا يتسللون فى خفـاء أو تحت ستر من ليل فيطرقون باب « السيد الشـيال » أو ابن أخيه « عبد الرازق » بجوار « عزبة العبيد » ، أو « الهوارى » فى غربى

البلد · انهم جميعا يشترون الأفيـــون والحشيش وكلهم يشربون ويدخنون · كثيرا ما يغريني أحد الوجهاء بقرشين أو قطعة حلوى ليرسلني أشترى له شيئا ، أدس النقود في يد البائع قائلا : عــم فلان الفلاني يصبح عليك ويقول لك هات الأمانة ، فيعرف البـائع بالضبط مزاج زبونه ، ان أفيونا فأفيـــون أو حشيشا فحشيش ، خاصة أن حجـم نقـــود الأفيـــون أقل في العــــادة من المطلوب للحشيش ·

أبي نفسه كنت أضبطه في كثير من الأحيان يفتح ورقـة سلوفان صغيرة يخرج منها عدساية سوداء يدسها خلسه في فمه ويشفط الشاى متلمظا ·· فأعرف انه يتأهل نفسيا لاستقبال بائعى العسل « هادى » و « فرماوى » الصعيديين اللذين يلفان البـلدة دارا دارا ، يغريان الجميع بشراء بلاص عسل يدفعون ثمنه وقتمـا يشاءون ، وفي وقت معلوم يمران من جديد على أهل الدور للمطالبة بالدين · فكانت تحدث مناظر لا أنساها وصـــــور من الهروب والعراك ، ومن التذلل والتبجح لا نهاية لها ، ولم يكن أبي يستطيع أن يهزمهم في الكلام الا اذا استعان بهذه القطعة التافهة التي يكاد أمرها يصبح شغلى الشاغل في الحيـــاة ، ما أن يذيبها أبي في حلقه ويلاحقها بالشاى حتى يكون الصعيديان قد تجـــاوزا حارة الجرن واقتحما حارة العصاروة وصـــــارا على أبواب حارتنا ، وأصوات العراك والاحتجاج والمساومات قد بدأت تصلنا ، دقائق قليلة ويدخلان : السلام عليكم ··· ثم يجلسان على الكنبة ، ليعزم أبي عليهما بالشاى في اصرار شديد ، أنا وحدى الذى يعــــرف أنه قد أذاب لهما قطعة في الشاى دون أن يشعر أحد ، ثم انه بندمج في كلام حلو عن الرجولة والشهامة عند الصعايدة ، ويحكى عن أشياء خطيرة حدثت لنا في الأسبوع الماضي فأتعبتنا وأفلستنا ، وعن محصول باهظ الثمن اصابه التلف، مع انه لا شيء من ذلك قد حدث،

الا أن الصعيديين يهزان الرأس فى موافقة وتبجيل وينصرفان على أن يعودا بعد أسبوع ، ثم يسلمان علينا فى رفق وابتسام ٠

كثيرا ما يفاجأ أبى بوجودى لحظة دسه للقطعة فى فمه ، فينبه على قائلا فى حزم : « اوعى حد من دكان معلمك يعتــك تشترى له حاجة كده ولا كده أحسن أملص ودانك » ٠ فأقول لــه : « طيب » ثم أنه سرعان ما ينسى انه قال لى شيئا من ذلك ، اذ أفاجأ به ينادينى بحنو مفاجىء ، ويأخذنى على جنب كأنه غريب يرجونى فى خدمة ، ثم يدس فى يدى خمسة قروش ويقول لى : « تعــرف دكان الهوارى ؟ » فأقول على الفور « نعم ٠٠ الذى عند الورش فى غربى البلد » ٠ يقول : « عليك نور » ويصف لى كيف أدخل الدكان وأتجه مباشرة الى الرجل الواقف وراء البنك ذو الشعر الأبيض على الجانبين تحت الطاقية البيضاء النظيفة ، هو نصف بقال يجلس الناس عنده لشرب الشاى الذى يشترونه منه ويصنعونه بأنفسهم ، فاذا ما صرت حذاءه وراء البنك أعطيه القروش الملفوفة فى ورقة جرنان وأقول له : « أبويا فلان الفلانى يصبح عليك ويقــول لك هات الأمانة » يوصينى أبى أن أضبط قبضتى جيدا على الشىء الذ سيعطيه لى الرجل الواقف وراء البنك ، وأن أعود فى الحال دون تلكؤ هنا أو هناك ٠ أشــعر بغمزات أصـــابعه فوق كتفى تترجم الخــوف الحقيقى علو القلق من المهمة التى ســأقوم بها ، وكنت أكتم الضحك لشعورى أن أبى لا يعرف أننى قد صرت حريفــا فى شراء هذا الشىء ، بل أكاد أساوم البائع قائلا : « حط كمان حتة »، بل أكاد أقدم على اختبار النوع والاعتراض على رداءته ، وكنت أعرف تلقائيا أن قطعة الحشيش التى تنعجن فى يدى بفعل العرق وسخونة تطبيق اليد هى من نوع جيد ، وأن قطعة الأفيون التى تكاد تذوب فى الورقة هى أيضا من نوع جيد ٠ ولم يكن أبى يعرف أن المسئول عن تدريبى فى هذه الناحية هو « أبو سماعين » من

كثرة ما ذهبت أشترى له ، رغم أنه لم يكن ينزل لى عن قرش أو يرشونى بشفطة شاى من الدور الأول ، انما كنت أراه فى حال لا يسر لحظة أن يرزقه الله بمليم يكمل به ثمن القطعــة ، حيث أراه متكوما قرب رصيف الدكان فأنظر الى معلمى « سعد الله » ، فيهــز رأسه قائلا : « روح اشترى له » ، فأحيانا أقول له ! « بس ناقص تلاتة تعريفة » فيهرش معلمى فى قفاه ثم يرمى لى بنصف افرنك ـ واحد بأربعة ـ قائلا : « وهات بالتعريفة الباقى شاى وسكر » ٠

٦ ـ محرك السوق

ما من مرة يجيء فيها « أبو سماعين » الى دكان معلمى الا ويحكى عن قصيدة أبى ، أو عن موقف شجاع وقفه ناس ربما كانوا من بلدتنا أو من بلاد أخرى ، حتى أن الأولاد بفضله أصبحوا يحبون الشعر ويحبون القساوه بنفس الطريقة المفخمة التى يقول انه يقلد بها أبى ، وعدد كبير آخر من الأولاد كانت تدب فيهم الشجاعة فى محضر « أبو سماعين » يحاولون الظهور أمامه بمظهر الشجعان ، الرجال . المؤدبين ، طمعا ان يضمهم « أبو سماعين » ذات يوم الى قائمة من يحكى عنهم بكل هذا الحب ٠٠ وأصبح من المألوف ـ بفضله وحده ـ ان ترى أولادا من تلامذة المدارس يتجمعون فى حوداية أو على ناصية طريق تتدلى المخالى من أقفيتهم ، ويدخلون مع بعضهم البعض فى حوار شعرى يشبه القوافى التى كنا من هواتها فى ذلك الوقت حيث يقف واحد لواحد وكل منهما يسخر الآخر بكلمات نابية على القافية ، قافية الطبيخ مثلا أو الآلات الزراعية او أى شيء تكون له حصيلة من الألفاظ المستخدمة فيه يمكن قلبها

الى نكتة تنال من الطرف الآخر في شخصه أو أمه أو أبيه ، وثمة قافية أخرى كنا نلعب بها فى زمن الفســـح بين الحصص كانت نموذجا مطورا من قافية : « اشمعنى ، فبدلا من ان يقول الواحد لغريمه : أبوك ·· ليرد الغريم قائلا : اشمعنى ·· فيرد الواحد قائلا : حمـــار ·· مثلا مثلا اذا كنا فى قافيــة الحيوانات · تلك القافية التي كانت تعتمد على حصيلة الواحد من الألفاظ البذيئة المسجوعة في سجع موزون ، أو مصـــاغة فى صـــور غريبة ، من قبيل : « ابوك بيأكل حاف والفسيخة متعلقة فى شنبه » أو : « ابوك نزل بلاص المش ابتلعته دودة » أو : « أبوك نزل لمبة الجـــاز طلع يبدل على الشريط » · وكان بعضنا يبلغ فى ذلك حدا من البراعة وخفة الدم لا تبارى ، والويل لمن يتعرض للقافية وينهزم ، المــوت أرحم له بعد ذلك من المقلتة والهزء كل يوم ، يصبر ببساطة مطية للهازئين · فى مرة ادركنا جرس الحصص فجأة أثناء مساجلة لى مع احد الصبية وكنت من البارعين فى ذلك ، وكنت لحظتها متقدما على الصبى ، وقد توعدنى فى الفسحة المقبلة ، فلما بدأت الحصة كنت منشغلا بأمر واحد هو تدبير صور الهزء والســـخرية التى سأسلق بها غريمى بعد الحصة ، ولم يكن مفر من أن ادون ما يطرأ على خاطرى من مثل هاتيك الصور ، وفيما كان المدرس منهمكا فى الشرح ينبح صوته رائحا جائيا بين صــفوف التخت التى نجلس فوقهـــا مستمعين منتبهين ، كنت أنا منهمكا فى كتابة ما يعن لى خلسة ، أسرب يدى تحت الكتاب حيث توجد ورقة منفصلة ، وأخط بسرعة بعض الكلمات ·· فما أدرى الا والمدرس ــ عافاه الله ــ يطبق على عنقى من الخلف بأصـــابع مثل كـــلابات الحـــديد ، ثم يوقفنى ، ثم ينهال على صفعا ، ذلك انه كان قد راقبنى خلســة وتمهل خلفى مرسلا عينيه فيما أكتبه ، فلم يكفه أن ســـوانى من الضرب بل دفعنى خارج الصفوف عند السبورة وانهال على من جديد صفعا وتشليتا وســـبا فاحشـــا ، حتى لقد انزعج الناظر من

صراخى المتفجع فخف الينـا مسـتطلعا وخلفـه المدرس الأول ، والسحرتير والمهدى الفراش ، وقفوا جميعا ذاهلين والمدرس يقـول دون أن يسأله أحد « أنا حـقول لحم عمـل ايه الكلب ده ‥ اللى مش متربى ‥ خد » ، ودفع الورقة فى صدرى صائحا وهو ينتفض من الغيظ : « اقرأ لحضرة الناظر الكلام الفارغ اللى انت قاعد تكتبه وانا بانبح فى صوتى طول الحصه ‥ اقرأ » فأخذت ارتعش وامعن فى البكاء حتى يرق ويعفينى من القراءة ، لكنه ينهال على ضربا من جديد صائحا : « اقرأ يابن الكلب ‥ اقرأ » ، فلا أجد مفرا من ان اقرأ ، فأروح أقرأ من خلل البكاء المتصـايح ما كنت اكتبـه : « آه ‥ آه ‥ أ ‥ أ ‥ أبوك بياكل حاف والفسيخة متعلقة فى شنتيه ‥ اهىء ‥ اهىء » فيصفعنى : « اقرأ ياكلب » ، فأقرأ باكيا وأبكى قارئا : « اهىء · ابوك نزل بلاص المش ابتلعته دودة » · ورغم ان حضرة الناظر أبعـد وجهه واسـتغرق فى الضحك العنيف الصامت فانه أدار وجهه متجهما ثم قال : « اجرى ياولد هات ولى امرك » ولم احضر ولى امرى بالطبع ، وكذلك لم يسألنى احد بعد ذلك أين ولى أمرك ·

بفضل [أبو سماعين] وحده ـ دون أن ينتبه أحـد لذلك ـ اصبحنا نجد غراما فى اختلاق الشعر والكلام الموزون الرنـان ، ونجد كذلك غراما فى ترديده بصوت عال نحب اصواتنا وهى تردده· من حسن الحظ أن كان لدينا تراث هائل من الأغانى والمواويل التى نرددها أيا عن جد فى الحقول والأفراح ، فصرنا نستلهمها ونكتب على غرارها كلاما يعكس معناها الأصلى الى معنى هـزلى مثير للضحك · لكن الأولاد الأكبر منا واعنى بهم الشبان المرموقين فى البلدة من الموظفين فى الميرى أو التلاميذ الكبار الذين يتعلمون فى المدينة ـ كانوا افـرس منا ، اذ كانوا يأخـذون نفس الكلام الذى عكسنا معانيه ويضيفون اليه شـيئا يسيرا ربما لفظا أو حرفين ، ليتحول المعنى على الفور تحولا تاما وتصبح الأغنية كلها سخرية

من العمدة واهله ، أو تنديدا بمواقفهم الظالمة • وكانت الآذان فى عموم البلدة تجد لذة سـائغة فى الاسـتماع الى هـذه الترديدات وتطرب لها وتعود القوم ترديدها ضاحكين ، حتى أصبح كبار القوم أنفسهم يشـاركون فى عملية التأليف الشـعرى الفورى الغنـائى مواويل كانت أو أغنيات •• فتجاوزت الأغنيات حدود عائلة العمدة وصارت تلاحق كل ظاهرة تطرأ على البلدة ، واذا كانت من تحبل فى مكة يجىء باخبارها المجاورون كما يقول المثل فى بلدتنا فان هذه الأخبار أصبحت تجىء شـعرا موزونا متقنا محملا بالمعـانى والصور الغريبة •• لقد باتت الأغنية فى بلدتنا كأنها المؤرخ الذى يدون حتى الخلافات العائلية واخبار الولاد الساقطين الخائبين فى الدراسة • وقد أصبحت بلدتنا تتميز عن البلدان المجـاورة بكثرة أغانيها حيث لكل شىء يحدث فيها أغنيـة لابد ان تشتهر بسرعة الريح تحتضن جذوة ملتهبة • البلدان المجاورة تعرف عنا كل شىء من خلال الأغانى ، ومطرباتنا رائجات فى افراح هـذه البلدان ، وكلهم صور تتضح أو تبهت من « نظيمة المهدى » وكلهن ايضا أشبه بالعبيد لولا بياض قليل جدا يشوب بشرتهن ويحولهن الى ساحرات فاتنات تضفى عليهن الأغانى وهن يرددنها فيضـا من السـحر والجاذبية • البعض فى هذه البلدان يقول ان السـبب فى إشتهار بلدتنا بالأغانى هو وجود « نظيمة المهدية » ، فيها ، والبعض الآخر يقول ان السبب هو وجود « عزبة العبيد » نفسها • ولم يقل أحد ان السبب الحقيقى هو « أبو سماعين » حتى الأولاد الأشقياء فى بلدتنا ، الذين يسرحون بعقولنا فى الأجران ، والذين لا تخفى عنهم خافية ـ يشيرون الى ان الأغانى التى تغنيها « نظيمة المهدى » فى الأفراح الفتها بنفسها فى حب « أبو سماعين » ولم يقل أحـد ، أو ربما لم يخطر على بال احد ان « ابو سماعين » ربما كان هـو الذى يؤلفها لها أو يساعدها فى تأليفها بكثرة ما يحفظه من شعر الأقدمين والمحدثين فصحى وعاميـة يحفظها كأنه خزانة حافلة

يفتحها وقتما يشاء ليلقى عليك سـيلا من الكلام الحلو الموزون المليىء بالصور والمعانى ، وفى النهاية يقول لك ظافرا ان ذلك كان جزءا من بردية البوصيرى أو نونية المتبنى أو ميمية أبى العـلاء واذا تصادف وجـود أحـد من الأزهرية فى المجلس يحفظ هـذه الأشعار فان « أبو سماعين » لابد ان يصحح له كثيرا من الأخطاء ، ويبلغـه بكثير من المعلومات ، وربما القى عليه تشطيرا لهـذه القصيدة أو تلك شطرها فلان ابن فلان فى العصر الفلانى ·· ناهيك عما لديه من اشعار لا تنتهى عمن يسمى بابن عروس وعن جحا وأبى النواس ·

ما من مـرة يحكى فيها قصـيدة أبى ويجىء على نهايتها الا ويشوح بيده نحـو « عزبة العلمين » تشـويحة فيها كثير من الاحتقار لشأنهم ، ويقول انها ـ القصيدة ـ التى كانت ذات أثـر كبير فى معركة السوق الشهيرة التى قام بها هؤلاء الرعاع وكانت فاصلة غير انه وهو ينطق كلمة الرعاع نحس انه يقصـد العكس تماما بل نحس ان الكلمة رغم انها لفظ تحقير فانها تعكس حبـا عميقا ·

سوق البلدة يقام فى مكان قريب من قصر العمـدة · أرض السوق كانت ملكا للعمدة ، وقد اقام حولها سورا متينا من الحديد والأسلاك الشائكة ، وملأها بطائفة من الدكاكين الخشبية الصغيرة والتندات والتربيعـات ، بحيث يكون لتجـار الأقمشة جناحهم وللخضرجية ساحتهم وللفكهانية تعريشـاتهم وللسماكين حلقاتهم ولتجار الحبوب مخازنهم وللحمارين وتجـار المواشى مرابطهم · كان فى الحق سوقا بديعا ، لكنه كان مصـدر مخاطر لا تنتهىء ، فالعمدة يغالى فى تحصيل الايجارات مغالاة أعجزت الكثيرين من التجار الصغار ، حتى بات السوق قلعة لا يدخلها الا عدد محدود من التجار العتاة ، يبيعون لأهل البلدة بأسعار من نـار ، ويتدخل افراد من عائلة العمدة وما اكثرهم ، اذ يفرضون وصـايتهم على

البيع والشراء بصفاقة بندرية مفتعلة لا قبل لأحد باحتمالها ، أحيانا يقومون بها لمجرد خلق المشـــاكل ٠٠ ولم يكن لمشتر ان يلح فى المساومة أو يجهر بالاعتراض أو الاحتجاج ٠ ذلك أن معظم التجار كانوا أذكي ـ كالعادة دائما ـ من كل المشترين ، اذ بات لكل منهم حماية معروفة من عائلة العمدة يأخذ الحامى فى مقابلها كل مـا يشاء من بضائع ، فيضطر الباعة الى فرض زيادات جديدة كبيرة على سلعهم ، مع أن المفروض هو العكس فى يوم السوق بالذات ٠

حاول الباعة الصغار ان يجـدوا لأنفسهم مكانا قريبـا من السوق ولو على ضفاف الطريق العام المؤدى الى مقر السـوق ، لكن زبانية العمدة من خفـــراء ومدنيين تكفلوا باجلائهم وبعثرة بضائعهم ٠ وبات الأمر صعبا للغاية ٠ وبعد ان كانت العـائلات ترســل شبانا ، وحينئذ لا يكون ثمــة مفر من معركة يعلم الله نتائجها ٠

ذات يوم فيما جرابيع « عزبة العلمين » يرددون شــطرا من قصيدة أبى هو الشطر الذى اعجبتهم طرافة معنـاه : « قد شرفوا معتل الخنكا مجانينا » جاء حينئذ رهط من شبان البلدة أعضــــاء الجمعيات التعاونية ، وقالوا لأبناء « عزبة العلمين » :

ـ واد انت وهو ٠٠ السوق بكره ٠٠ وحننقله هنا جنبكم على على طول ٠٠

استحسن الأولاد الفكرة وقالوا كلهم : « اما حتة عملة ٠٠ طب والعمدة » قال الشبان : « مالكمش دعوه ٠٠ ابقوا خلوا بالكو من البياعين وخــلاص » ٠ وفى فجر اليـوم التالى كانت مجاميع الشبان قد وقفت بكل ادب على جميع مداخل البلدة ، ووقف آخرون عند مفارق الطرق ٠ كانت مهمة الواقفين عند المداخل ان يحولوا سير القادمين للسوق فيحولونهم الى مقره الجديد ، حيث اختاروا

له فضاء كبيرا على شاطىء بحر السبيل متاخما لعزبة العلمين ٠ وكان على الواقفين فى مفارق الطرق ان يرشدوا الباعة الى المقر الجديد حتى اذا ما ظهر قرص الشمس وسط بحيرة من دم الولادة المتعسرة لذلك اليوم كان بعض التجار الكبار قد تمردوا على الشبان واخذوا طريقهم المعتاد نحو السوق الاصلي ، فى حين سلم الباقون عن طيب خاطر ٠ وكانت الأرض الفضاء قد سقطت فوقها الشمس واريحت عنها اكوام السباخ ، وسرعان ما انتصبت فوقها خيام وتعريشات ، وانفتحت شمسيات وافترشت اجولة ومشمعات ، ونصبت موازين وسبيات لحم ٠ وما كاد ابناء العب الشرقى والجنوبى ينعمون بهذا التجمع الصاخب البهيج حتى عادت الدماء تصبغ وجه الشمس من جديد ، وصوات النساء يتردد صداه فى الأفق ، فما أسرع ما كفت الحركة تماما ، وما اسرع ما تكومت الأفرشة والبضائع واعتصم الباعة بالصمت والترقب ، لكن جرابيع « عزبة العلمين » فتحوا بيوتهم الطينية الواطئة لمن يريد الاختباء ، ثم خرجوا ، وكان لفيف من الشبان أعضاء الجمعيات التعاونية وغيرهم قد اندفعوا فى جرى يحملون العصى والنبابيت والكريكات، واذا بعائلة العمدة قد ساقت الخفراء أمامهم وجاءوا لاسترداد السوق عنوة واستقدارا ، فاشتبكوا مع الشبان الواقفين عند مفارق الطرق ، وتبادلوا الشتائم التى تطورت الى ضرب اعقبه صوات النساء ، ثم ان جعيرا خرافيا قد بدأ يقترب نحو أرض السوق الجديدة ، ثم ظهرت رؤوس الخفراء تلمع فوق لبدتها النحاسة الصفراء الحاملة رقما ، وأطراف البنادق تطل من وراء أكتافهم ، وخلفهم عدد مهول من شبان عائلة العمدة المسلحين بالعصى ، وكانوا يضربون كل من يعترضهم أو يلقاهم ٠ لكن صفوفهم المخترقة سرعان ما بدأت تتفتت على مشارف عزبة العلمين ، حيث كان نساؤها قد ملأن طسوتا من طين المصرف وصرن يرسلنه فى تكورات تصيب الوجوه وتعمى العيون ، فى حين تكفل فريق الصبيه بارسال قذائف

من الطوب والدبش لا تخيب واحدة ولا تهيف ضربة . ولما لم يكن لدى الخفراء أمر بضرب النار فانهم تسللوا خارج الصفوف ثم انسربوا عائدين لابلاغ العمدة . فى حين انفرد الشبان بابناء عائلة العمدة فأشبعوهم ضربا وطاردوهم حتى فروا مذعورين . وأصر الشبان على اقامة السوق فى مطرحه الجديد ، ووقفوا يحرسونه والدماء تسيل من وجوههم .

عند الظهيرة كان العسكر السوارى قد اقبلوا يتقدمهم مأمور المركز بنفسه . حيث اخترق زحام السوق بخيله وداس فوق البضائع ، وسأل فى كثير من العنجهية والسوقية عن السبب وراء تمردهم على السوق القديم . فقالوا عشرات المئات من الأسباب ، فأمرهم بالكف عن الثرثرة والنزوح الى مقر السوق الأصلى بالرضا والتسليم ، لكنه نظر الى السوق فوجد الحركة قائمة على قدم وساق ، وان نسبة كبيرة من المجاميع المتناثرة لم تسمع بوجوده فى السوق بعد ، فأيقن من استحالة تنفيذ ما يطلب ، فشد خيله وزأر فيها وقام بحركة استعراض عنيفة خرج بها من الطرف الآخر للسوق . وفى المساء جاء المخبرون والخفراء وقبضوا على بعض الرجال والشبان ولم يطلبوا أحدا من « عزبة العلمين » ، سافروا بهم المركز وبعدها بيومين عادوا ، وقيل ان قضية اقيمت لهم فى المحاكم ، وظلوا سنوات ، يتذكرون مواعيد الجلسة ويحرصون على حضورها وينفقون على المحامين وكتبتهم وكتبة المحاكم الى ان برىء الجميع ، وكل ذلك كان يهون فى انظارهم كلما تجولوا فى البلدة وشاهدوا السوق منتعشا فى المكان الذى حددوه . من يومها أطلق « أبو سماعين » على عزبة السبيل . عزبة العلمين .

٧ ـ المدرسة

بلغة فصيحة تشبه لغة ابى وهو يخطب الجمعة ولغة المدرسين عند حماسهم حكى لى « ابو سماعين » هذه التواريخ على فترات متعددة في أماكن كثيرة · ما كان يعجبنى فيه ويقربنى اليه أنه حين كان يحدثنى لا يضع فى اعتباره أننى طفل ، بل يحدثنى كأننى رجل يجالسه ، وكان يفعل نفس الشيء مع كل الصبيان الصغار ، يحدثهم باعتبارهم رجالا كبارا ، الأمر الذى جعل بعض الأولاد يحبونه أكثر من آبائهم غير أنهم لا يظهرون هذا الحب خوفا من آبائهم · فمع أنه لم يظهر منه ما يثير الشبهة الا أن بعض الناس كانوا يخافون من أن يقلده الأولاد فى أكل الأفيون وفى الصياعة · أما هو فلم يكن يعبأ بشيء من ذلك وان كان يعرف رأى الناس فيه على الحقيقة · لكن أحدا لم يستطع أن يؤثر على حبه للأطفال خاصة أبناء المدارس ·

تصادف كثيرا أن نلتقى به أثناء خروجنا من المدرسة ، فى العادة نتلكأ فى الساحة الواسعة أمام المدرسة لكى يتجمع أبناء كل حارة واحدة ليعودوا معا ، فاذا هو يندس فى وسطنا فجأة كأنه ظهر من جوف الأرض ، واذا هو يصيح فى أى ولد منا ،

او فينا كلنا : « ولد تعرف مصطفى كامل ياولد ؟ » ثم يضيف : « طبعا لازم تعرفه ·· يامن كتاب التاريخ يامن كتاب المطالعة » ومع ذلك يستطرد : « مصطفى كامل هذا هو الذى قال لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » ·· أصله كان يحارب الانجليز بمفرده ·· هؤلاء الانجليز الذين يحكموننا الآن ·· كان يحاربهم بمفرده · طبعا لابد أنهم قالوا لكم ذلك فى كتاب التـاريخ ·· طبعا لابد أن يكونوا قد قالوا لكم عن محمد فريد الذى كان يحارب الانجليز هو الآخر ·· ولكن ·· ولكن اسمع ياولد ·· قل ما تعرفه عن احمد عرابى ·· هيه ·· لا يعرف احد منكم شيئا عن احمد عرابى ؟ ·· لابد انكم جميعا فى سنة أولى ·· وفى السـنوات القادمة سوف يعرفونكم به ·· وسوف تعجبكم قصته ·· وعلى كل حال اذا لم يعطوه لكم فى المدرسة فتعالوا وأنا احدثكم عنه لما تشبعوا ·· ان قصته رائعة ·· يكفى أنه وقف أمام الخديو راكبا فرسه وقال له متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ·· وفرض على الخديو شروطه ·· تعرف ياولد انت وهو ؟ من لا يعرف عرابى لا يعرف شيئا عن أصله ·· انه زعيم الفلاحين ·· أمير الجيش ·· كان الجيش كله ملكا للخديو ·· انما عرابى قال لا ·· الجيش ملك للشعب يكون ، وأنا زعيمه زعيم الشعب ، ان الفلاحين هم مصر وأنا الفلاح مصر والجيش أيضا هو مصر فكيف لا يكـون الفلاح ضابطا ؟ هل ورد نص فى القرآن الكريم ـ وهو بيان الرحمن نفسه جل شأنه ـ ان الفـلاح المصرى يظل طول الأبد جنديا يحمـــل السلاح ويدافع عن مغتصبيه مصاصى دمائه ؟ هل كتب الله فى لوحه المحفوظ أن المصريين خلقوا عبيدا ويظلوا عبيدا الى يوم تقوم الساعة ؟ لا ياخديوى لقد ولدتنا امهاتنا احرارا ولن نستعبد بعد اليوم ·

واذ ينظر « أبو سماعين » فيجد أن الدائرة قد اتسعت وانضم

اليها طوائف من الناس رجالا ونساء وأطفالا حتى لقد صار منظر الدائرة نفسه مضحكا ، اذ يضم أولادا بملابس المدرسة ، خلفهم أولاد بثياب الحقول خشنين حفاه ، خلفهم رجال يحملون فئوسا ومقاطف على اكتافهم ويلفون رءوسهم بالطواقي والمناديل المحلاوى كانوا فى طريقهم الى مشاوير معينة ولكن السامر اجتذبهم فوقفوا يتفرجون بشغف كبير ، خلف هؤلاء واولئك رجال نظيفو المظهر من الأعيان استوقفهم المنظر فاستمروا يسمعون محاولين معــرفة ماذا يقول هذا الرجل المعتوه لأولادهم هؤلاء ؟ لكن الجميع يظل واقفا يصغى فى انتباه عجيب ، حتى المدرسين وقفوا أمام باب المدرسة مباشرة كأنما هم يقفون بطبيعة الأمر لا للفرجــة ، وحتى حضرة الناظر يطل هو الآخر برأسه من الشباك راسـما بعض علامات الاستنكار على وجهـــــه لكنه فى نفس الوقت معجب بـكلام « أبو سماعين » بدليل هذه الابتسامة الخفية المرتسمة خلف شـفتين مزمومتين ٠٠ اذ يرى « أبو سماعين » هذا التجمهر الكبير الذى صنعه دون أن يريد صنعه ، يزم شفتيه ويطلق ضحكته الشهيرة المبتهجة : « هوهو ٠٠هووو ٠٠٥ » ثم يشوح بيده فى وجوهنــا قائلا : « يعنى ما حدش جاوبنى على سؤال واحد ٠٠ معقول كلكم فى سنة أولى وما تعرفوش ؟ على النعمة من نعمة ربى يظهر عليكم ما تعرفوا ٠٠ ثم مشيرا الى شباك الناظر ـ دا يمكن الناظر بتاعكم دهه ميعرفش من عرابى ولا مصطفى كامل ـ تضج الدائرة كلهـــا بالضحك وتقشـعر ابداننــا من خوف غامض لذيذ ـ ولا حتى المدرسين بتوعـكم دول ٠٠ هم جايز يعرفوا الخــديوى بس ٠٠ الخديوى ومن على شاكلته ٠٠ دول مايعرفوش غير تواريخ الحكام بس ٠ أسألوهم كده وانتو فى الحصة ٠٠ حتلاقوهم يعرفوا الانجليز أكثر من الملك ، ويحبو انجلترا أكثر من الانجليز » ٠

تفلت الضحكات من أفواه المدرسين رغما عنهم ، يغطى

الناظر رغبته فى الضحك بالصياح : « يلا ياراجل انت امشى من هنا بقى ·· فض السامر اللى انت عامله ده وسيب العيال تروح أحسن والله أعمل لك محضر فى البوليس » ·

يصيح « أبو سماعين » ضاحكا في سخرية : (هوهو هو ·· وو ·· ه ··) طب على النعمة من نعمة ربى ياحضرة الناظر انت ممكن تعملها ·· فاجر وتعملها ·· واد انت وهو ·· تعرفوا واحد اسمه عبد الحكم الجراحى ؟ طب أدى واحدة اهه ·· أتحـداكم لو عرفتوها ·· طب اذا كنت من غير مؤاخذة راجل ياحضرة الناظر قوالى ـ مقلدا المدرسين ـ قل ما تعرفه عن عبد الحكم الجراحى] ·

يختفى وجه الناظر من الشباك صائحا : « انت يظهر ماتجيش الا بالقسوة » · فينسحب « أبو سماعين » قبل أن يخرج الفراشون لدفعه بعيدا · يختفى كأن الأرض ، انشقت وابتلعته ، مع أنه يثق أن حضرة الناظر يهوشه ، وأن الفراشين لن يكونوا أغبياء أبدا فى معاملته ·

اجرى وراءه حيثما اختفى حتى ادركه ، لا يهدأ بالى حتى أدركه فى دكان معلمى الذى أذهب اليه يوميا بعد خروجى من المدرسة مباشرة · أسأله عن الجراحى هذا وقد ظننت أنه أحد الأطباء مثلا ، أسأله عن كل ما يرد فى كلامه ولم أسمع به من قبل ، يصيح ضاحكا : « هوهو ·· و ···ه » ثم يحكى لى عن شاب طالب علم فى الجامعة فى القاهرة يحب مصر حبا يختلف عن حب الناس العادى لها ، فالبلد هى الشيء الذى يجب أن يحبه المرء أكثر من أى شيء آخر ، اذا كنت تحب أمك وأباك ثم البنت التى تكتب لها خطابات الغرام ، فان الرجل الحق هو الذى يحب البلد قبل كل هؤلاء ويكتب لها خطابات الغرام مثل مصطفى كامل ، ويجرى ويضرب بالمشوار متباحثا فى حقوقها مثل سعد زغلول : « سعه

زغلول هذا هو الذى قال مفيش فايده ٠٠ مفيش فايده من مين ؟ قول « أقول له ما فهمته من أهل البلدة : « مفيش فايدة من اننا نتحرر من الانجليز » يضرب جبهته بيده ضربة قوية جدا كأنما يفتت راسة ، يصيح فى الم حقيقى : « غلط ٠٠ غلط شفت الجهل بقى ٠٠ لى حق اضرب الناظر بتاعكم ده جزمتين ولا لأ ؟ » أخاف أن يسمعنا الناظر عبر مئات الشوارع والبيوت ، أصيح به : « مفيش داعى بس قوللى أيه قصد سعد زغلول » ٠ يقول بعد ضحكته المعهودة كاللازمة الموسيقية تتخلل مقاطع الغناء : « سعد زغلول لما قال مفيش فايدة كان يقصد ان مفيش فايدة من التفاوض مع الانجليز بالكلام ٠٠ ومعنى قولته هذه ان الفائدة تجىء بحمل السلاح ومطاردة الانجليز ـ ضحكة وتشويحه ـ ولكن ما ذنبكم ؟ ان للانجليز بيننا أبناء كبارا وأعين بحق ٠٠ يشوهون كلام الزعماء الشعبيين ، يقلبونه الى عكس معناه ٠٠ نحن بلد لم تدخل المدارس ٠٠ نصدق كل ما يقوله الأفندية والمعممون كأن كلامهم منزل ٠٠ انهم بجهلهم أيضا قد وقعوا فى الخية وصدقوا المعنى المزيف وأشاعوه بدورهم ٠٠ سعد زغلول ياعالم يابجم قال مفيش فايدة فى أن نوجع دماغنا بالكلام ونضيع وقت أجيالنا القادمة أى هبوا لنجعلها المعركة الفاصلة الناس كلهم اليوم أصبحوا كلما ضاقت بهم الحياة يقولون مفيش فايدة ـ أصبحوا يطبقونها على كل شىء فيالها من خسارة ٠٠ الناس تعتبر كلمة سعد زغلول منزلة ولهذا حول عملاء الانجليز معناها ، وهكذا صدقها الناس بعد تزييفها ٠ بحق الله كيف لا يعلمونكم هذا فى المدارس ؟ كيف لا يعلمونكم ان الانجليز وكل المستعمرين وأصحاب المصالح يبرعون فى تزييف أقوال الزعماء الشرفاء الوطنيين الخلص ؟ ويقلبون معناها الى العكس ويشيعون الوجه المعكوس ويشهرونه بين الناس ؟ ياللوكسة المهيبة ٠ هل ترانى ساعيش حتى أرى هذه البلدة يخرج منها ولد كالجراحى ؟ ان البلدة لا تكون عظيمة ولا يكون لها ذكر بين البلاد اذا لم يخرج

منها أولاد رجال كهذا الولد وغيره ممن ماتوا فى حب مصر ٠٠ هو الآخر مات فى حب بلاده ٠٠ قاد مظاهرة من الطلاب ضد الملك والانجليز وضد كل الأوضاع الخاطئة ٠٠ لكن عمـلاء الانجليز واللصوص الذين يسرقون البلاد تحت حمايتهم فتحوا الكوبرى أثناء مرور الطلاب عليه فتهاوت صفوفهم كلها وغابت فى أعماق اليم ، ابتلعها النيل غير مأسوف على شبابهم من ذوى القلوب المتحجرة ٠٠ لكننى واثق أن الولد ورفاقه كانوا سعداء وموج النيل يحضنهم الى الأعماق ، فهم قد ضحوا بأرواحهم فى حب مصر من أجل مصر ، ثم أن الذى أكل جثثهم هو النيل الحبيب وليس نهرا آخر ، ان جثثهم الحبيبة سوف تذيب نفسها حبا فى موج النيل ، حتى يشربه المصريون فيتذوقون فيه طعم النخـوة والشجاعة والفداء فوق طعم الألم والفقدان » ٠٠

يقشعر بدنى وبدن كل المستمعين من جميع الأعمار يداخلنى الغضب حين يشير بعض الفارغين الى رؤوسهم فى حركة خبيثـة تعنى أن الأفيونة قد صهللت وان الرجل تبعـا لذلك يقول خرفا ساخرا لا ينبغى تصديقه مع انك تلتمس فى بريق عيونهم تصديقا متينا كامنا فى الأعماق البعيدة لكنهم من فرط الانبهار يتشككون تشككا فلاحيا خبيثا لئيما ، هدفه الحصول على مزيد من اليقين حتى يثبت هذا الكلام فى رأسه ٠ ولكن هؤلاء وأولئك جميعا سرعان ما ينساقون وراء « أبو سماعين » اذا ما تحدث ٠

٨ ـ زاطة

بفضله ذات يوم فعلوا أشياء مبهرة ٠ كان العمدة [محمد عبد المنعم أبو سيف » قد قبض على بعض الشبان الأقوياء من عائلات ميسورة ابان معركة انتخابية تنزل فى ساحتها عائلة العمدة بكل ثقلها ، بغية اضعاف مواقف خصومهم بحرمانهم من شبان لهم اهميتهم فى الدعاية الانتخابيـة ٠ ولم يكن العمـدة يعدم تهمـة يلصقها بهم ، فهو خبير فى تلفيق التهم نظرا لاحتواء عائلته على اكثر من مائة محام فى جميع أنحـاء المدن المتـاخمة لبلدتنا ولهذا فهم جميعا خبراء فى لوى عنق القانون وتطويعه لخدمتهم فى كل الأحوال وعلى جميع الوجوه ، حتى ليسرقوا ويحاكموا المسروق ، ويقتلوا ويحاكموا القتيل وهم من الجبروت والكفر حتى ليحاكموا الله ذاته جل شأنه فى كثير من الانفـلاتات العصبية العنيفة ، وكل انفلاتاتهم عنيفة ، لا يتورع الواحد منهم ان يصرخ فى وجه السماء معنفا الله كيف يكتبا النجاح لابن الملاية هذا وابنة الغسالة هذه ٠٠ ووصف أبى لهم بالمجنون فى قصيدته الشهيرة لم يكن من قبيل الافتراء ، فان الشعور بالعظمة ينفخ اوداجهم حتى ليضيق بهم ذوو

قرياهم ويضجون من معـاملتهم فيعزلونهم فتؤدى بهم العزلة الى التطرف الخطير الذى قد لا ينجو منه احد فى البلدة ··

أحدهم كان يجلس فى « فراندة » البيت وحده ، أمامه صينية عليها عشرة أكواب وبراض كبير مملوء بالشاى · هو منجعص فوق الشلتة ووراءه المسند المريح · يصب الشاى بعظمـة بالغـة فى الأكواب العشرة ، يعتدل ، يمكث صامتا لبرهة طويلة ، ثم ينظر حواليه باستنكار حيث لا يوجد احد غيره فى المجلس · يشير بيده نحو الشاى قائلا فى شعور بالحرج والتعنيف : « ما ·· تتفضلوا الشاى ياسيادنا ·· انتو عايزين عزومة ولا أيه ؟ أما دى حاجة غريبة فعلا ·· يمكن تكونوا أغراب ولا اغراب ·· اشحال بقى لو ما كنتوش صحاب بيت ؟ » بشىء من التواضـع يرفع كوبا عن الصينية ويضعه أمام من افترض وجوده بجواره قائلا : « اتفضل » ثم يفعل هذا بالأكواب الباقية ، يوزعهـا كلهـا أمام أشـخاص وهميين · يمكث برهة أخرى صامتا محدقا فى اللاشىء ممسـكا بالمسبحة بين أصابع يمناه ، لا ليسـبح الله بل ليشـتم عليها كافة البشر أجمعين باعتبارهم أجلافا لا سعر لهم يبسـبس قليـلا مع ايقاعات حبات المسبحة ، يرفع الكوب ويرشف رشفه سريعة ثم يعيد الكوب الى مكانه ، ثم ينظر حواليه فى شعور فائق بالغضب ، يصيح : (لا بقى دانتوا مش عايزين عزومة ·· دانتوا قلالات الذوق والتربية وعايزين الطرد من هنا) · ينتفض واقفا بعصبية عنيفة : « يلا امش من هنا ياكلب يابن الكلب انت وهو ·· يلا » ويتبع صرخته الأخيرة بشلوت يطيح بالأكواب والصينية وما عليها فى الشارع · يظل يشوت الهواء بقدميه يمينا وشمالا لبرهة طويلة ، يصر على ملاحقة الضيوف الوهميين المطرودين حتى آخر الشارع ، فيخرج ممسكا ببقايا الأكواب والصينية وما عليها فى الشارع · فيخرج ممسكا ببقايا الأكواب ويهشمها ليقذف بها كل من تصـادف مروره فى الشـارع ·

الشارع هام وشديد الحيوية بالنسبة للبلـدة ، يقسـمها نصفين ، يمر منه ثلاثة أرباع تلاميذ المدرسة الكائنة فى نهايته ، ذلك أن المدرسة قد بنيت من يوم أنشئت فى قلب دورهم لدرجـة أن أبناءهم يتـابعون حركة طابور الصـباح فى حوش المدرسـة من بلكونات بيوتهم وشبابيكها المطلة على الحوش مباشرة ، ولا يهبطون الا فى آخر لحظة حتى لا يختلطوا بالغوغاء الحفاة منا ، ورغم تلاصق بيوتهم للفراغ القليل المحيط بسور المدرسة فانهم ينزلون بأكياس من النايلون فيها طعام.وفاكهة يأكلونها فى ساعة الفسح ، مع أن بعضهم يقضى الفسح فى منزله ٠ أما نحن بقية أبناء البلدة من أحياء الزغالوه والغفالوه والعصاروة والنجـارين والخطـاطبة والزعالكة ناهيك عن سـكان « عزبة صباح » و « عزبة العبيـد » و « عزبة العلمين » ٠ كلنا تعرضنا لمخاطر : هذا الشارع التى يسببها هـــذا الرجـــل ٠٠

شكله طويل ، وقور ، أبيض البشرة ، يبدو على وجهه الصلاح والشر معا يتجمعان فى لمعة عين واحدة تروح وتجىء تحت جفنيه ٠ يرتدى جلبابا نظيفا جدا وطربوشا فاقع الاحمرار ٠ يمسك بيده عصا من الأبنوس الأصيل عوجاية قبضتها منحوتة على شكل امرأة جميلة يقال انها ترمز للدنيا وانه تبعا لذلك يمسك الدنيا فى قبضته ليطوح بها كيف يشاء ٠ كان يطوح بعصاه فى الهواء تارة وفوق ظهورنا الطرية تارة أخرى ، وبيده الأخرى يقذف علينا كل ما تصل اليه يده من دبش أو زلط ، ولا يفتأ يصيح : « زاطه ٠٠ زاطه » ولم نكن نفهم ما معنى « زاطه » هذه ولكننا سمينا هذا الرجل « زاطه » فركبه الاسم طول حياته ٠

بقدر ما تشابه السوايفة فى الوجوه والأشكال والأطوال والطباع يتشابهون أيضا فى الأسماء ، والاسم الواحد يتكرر فى عائلتهم على مدى اجيال ، ويتكرر حتى فى الجيل الواحد ، بل انه ليتكرر حتى الاسم التلاثى ، لدرجة انك قد تعرف فى وقت واحد اكثر من عشرة أشخاص باسم ثلاثى واحد ، وكل شخصية لامعة من السوايفة فى المجتمع السياسى القاهرى أو فى اى مجال من المجالات تجد له أكثر من شبيه وبنفس الاسم الثلاثى فى هذه العائلة فى بلدتنا ، وقد تعود الناس فى بلدتنا على أن يستوضحوا من يتحدث عن أى فرد من هذه العائلة قائلين : الكبير ولا الصغير ؟ الفلاح ولا الموظف ؟ العمدة ولا المحامى .

« زاطه » مثلا كان اسمه هو الآخر « محمد عبد المنعم أبو سيف » نفس الاسم الثلاثى للعمدة وهو ابن ابن أحد اعمامه ولكنه مقارب فى السن . وسر تكرار العائلة للأسماء تقديسهم للرجال الناجحين منهم ، يريدونه علما على العائلة مدى الحياة ، ويعمدون الى تكراره حتى وان خابت الصورة الجديدة وهى كثيرا ما تخيب .

من كثرة عدد المجانين فى العائلة باتوا قادرين على تمييز العقل من الجنون فتراهم يستمعون - ويرضخون - لرأى كبارهم الذين ربما كانوا من المجانين ، ويجدون أنفسهم مطالبين بالدفاع عن هذه الأقوال وهذه الأفعال دفاعا شديدا ، ولطالما دافعوا عن جنونيات ارتكبها كبار منهم فى حق الناس ، وتعصبوا لأفعال طائشة خرقاء أتاها شبان منهم . وانت حين تتحدث مع أى واحد منهم فى اى أمر من الأمور الجادة لابد أن تجىء لحظة تشك فيها فى سلامة عقل محدثك ، لابد أن تجىء لحظة تحار فيها فى معرفة ما اذا كان العمدة هو الذى يحدثك مثلا أو هو « زاطه » ومثلما يخطىء الناس فى معرفة أشخاصهم على الحيققة فانهم كذلك

لا يعرفون العاقل منهم من المجنون كذلك لا يعرفون الجاد فى كلامهم من الهزلى ٠٠

لما قبض العمدة على الشبان الأقوياء كانت ردود الفعل عند عائلاتهم توشك أن تضيع فى روتين التصرفات التقليدية ، حيث اعتكفت كل عائلة فى منزلها تتقى حرج منظرها أمام الناس وتفكر فى التصرف الذى يجب عليها أن تتصرفه حيال العمدة القوى الذى لا يهزم أبدا وكيف يهزم ونصف الحكومة فى كل عهد من عائلته ؟ بعض العائلات الضعيفة نوعا كانت تفكر فى استعطاف العمدة وتوسيط بعض الناس لديه ٠ « أبو سماعين » هو أول من بلغه هذا النبأ من مصادره الخاصة ، وأول من استنكره شديد الاستنكار ولكن على طريقته الخاصة ٠٠

فجأة يراه القوم جالسا فى طرف مجلسهم ، واذا هو يعلق تعليقا سريعا كالسهم يكسح وجوه الجالسين : « أما صحيح المثل ما كدبش ٠٠ القط يحب خناقه ٠٠ فعلا ٠٠ حتروح بعيد ليه ؟ » العمدة بيقبض على ولادنا ظلمـا وعدوانا ٠٠ وكمان عاوزين نسترضيه ٠٠ ما شفتوش بعد كده جنية ؟ » ثم ينصرف وقد ظهر فى عينيه الضيقتين غضب رمادى عتيق ، لكنه غضب مشبع بالحكمة واللؤم والرضاء بمظهر المسكنة كدرع يحمى به جبروته الحقيقى الجاد ٠٠

يتوقف عند مجلس آخر ، ان لم يجد سلطنة الشاى منتصبة دعا لقيامها ، مجرد وجوده فى أى مكان دعوة لقيام زردة الشاى حتى لو كانت بقايا الزردة السابقة لا تزال فى حلوقهم ٠ وبينما هو يشفط الشاى فى لذة متباطئة يبدأ فيستفز المجلس ـ بطريق غير مباشر ـ بالكلام حول « الأولاد » المقبوض عليهم ٠ فى بلدتنا ـ شأن كل بلادنا ـ تنفتح صنابير الحديث ربما بمجرد اللمس فى

أى موضوع ، فيحكى كل واحد ما سمعه من كلام حول هذا الأمر ، أحيانا لا يكون لدى أحد من الجالسين شىء يقوله ، لكن (أبو سماعين) فى كل الأحوال لابد أن يدلى بتصريح خطير جدا فى هذا الأمر ، هكذا سيوحى للجالسين باصطناع ملامح الخطورة من همس متحفظ واداء مؤثر ، فى العادة يكون هذا التصريح محض خيال من تاليفه ، أو لعله اقتراح يراه مناسبا فى علاج هذا الموقف ، يؤلف حوله اشتاتا من الخيال الواقعى تقتنع بأنه قد سمع هذا الكلام من مصدر موثوق به • انت لابد أن تصدقه لأنك تعلم انه الوحيد الذى بامكانه أن يتواجد فى أى مكان وفى أى زمان دون مبرر بل دون لزوم على الاطلاق •

يقول لك تصريحا أو اقتراحا من تأليفه مؤداه أن عائلة الزعالكة مثلا قد اتصلت بابنها اللواء فى القاهرة وناشدته انقاذ كرامة العائلة من التدهور ، أو أن عائلة النجار قد ارسلت برقية شديدة اللهجة لوزير الداخلية تقول فيها كيت وكيت ، أو أن عائلة الجرن ـ وهى العائلة الوحيدة فى البلدة التى تبارى عائلة العمدة فى الجنون ـ لم تجد مفرا من التدبير لقتل العمدة نفسه وأن التدبير نظامه كذا وكذا • وحقيقة الأمر أنه حكى وأشاع ما يتمنى من صميم قلبه أن يحدث •

هذه الاشاعات كانت تصل بالطبع الى أهلها ، فيشعر كبار رجال هذه العائلات كأن تدليكا عظميا قد جرى لأعصابهم وهدهد مشاعرهم المتوترة ، اذ ها هى ذى الاشاعات فى البلدة تذيع بأنهم لم يسكتوا ولم يخضعوا وانهم يفعلون شيئا يتهدد العمدة من مجرد سماعه • لهذا فرغم أنهم يجاهرون جميعا بالاحتقار لـ « أبو سماعين » ومعاملته معاملة الأشياء الصماء فانهم فى أعماقهم يحبونه لحظتئذ ويشعرون بأنه خدمهم دون أن يدفعوا له أجرا ، انه على الأقل ـ بهذه الاشاعات ـ حفظ لهم ماء وجوههم • لكنهم

بعد ذلك مباشرة ــ وأبو سماعين واثق من هذا ــ لابد أن يفعلوا شيئا من هذا ، فبعد أن تهدأ أعصابهم هذه الهدأة السريعة سرعان ما يلتقطوا أنفاسهم ويفكرون فى مضمون الاشاعات التى تخصهم تفكيرا جديا ، وهكذا فان المقترحات التى ألفها « أبو سماعين » فى صيغة تصريحات جاءته من مصادر موثوقة تصبح بالفعل مقترحات جديرة بالمناقشة بل والتنفيذ على الفور ٠٠ اذ ما المانع فى أن نتصل فعلا بسيادة اللواء ؟ هكذا يقول الزعالكة ٠ ولماذا لا نرسل بالفعل برقية شديدة اللهجة الى وزير الداخلية نكتب فيها كيت وكيت ــ هكذا تقول عائلة النجار ٠ ولماذا لا نشكل مجموعة من الولدان تتصدى لزرع العمدة ومواشيه وابناء عائلته بأعمال جنونية ؟ هكذا تقول عائلة الجرن ٠

ما بين عشية وضحاها يأتى الصبح محملا بأنفاس خريفية تضمر الزوابع والعواصف ، يكثر الرواح والمجىء فى حوارى البلدة وشوارعها بسرعة كبيرة ، ترى فى الشوارع ناسا كثيرين ليس من عادتهم المشى فى الشوارع ، وركائب تنقل رجالا عجائز ، وفود تذهب لانتداب وفود ، تتلاقى الوفود بالوفود فى بيوت ليست بالقصور ولكن لمرآها مهابة وقدسية فى المندرة الكبيرة تتجمع زبدة العائلات الركينة فى البلدة ، تتبادل الرأى والمقترحات تدخل عليها تعديلات يشركون فيها العائلات الأخرى ليكون الأمر أمر بلدة كاملة فى مواجهة العمدة ٠ ومهما كان البيت مهابا أو ملغما بمقترحاته هذه التى انتحلوها فحسب ، بل تنظر حولك فتراه جالسا فى طرف المجلس ، وربما اكتشفت ــ أنت صاحب الدار وسيدها ــ أن خدمك قد تنازلوا لــ « أبو سماعين » عن سلطنة الشاى منذ وقت مبكر ٠٠ قد ينسى الحاضرون وجوده لساعات طويلة لكنهم يتذكرونه فى كثير من اللحظات فيرونه بينهم وقد تصل سمعهم ضحكته المعهودة فتنتزعهم من استغراقة عميقة فيضحكون بصوت عال ٠٠

ضحكته تجيء دائما فى اللحظة المناسبة · ها هو ذا شد المجلس بها وجذبهم اليه ، فاذا هو بعد برهة يترك سلطنة الشاى ويقترب منهم قليلا ثم يتقرفص أمامهم مشوحا بيده فى حركة تبنيه قائلا ان الحكاية وما فيها بسيطة ، وأن ربنا عرفوه بالعقل ، وانها تامت ولقيناها : « خذوا بالكم من كلامى ·· العمدة الآن ليس بعمدة · المفروض أنه مستقيل من منصبه منذ أن وافق على طلب ترشيحه للانتخاب عن دائرة بلدتنا · ومعنى ذلك ان قبضـه على الأولاد ليس قانونيا ·· انه ليس من حقـه ان يقبض على أحد او يمارس العمدية على أحد ·· الشئون كلها منوطة اليوم بشيخ البلد الشيخ فراج وهو من أعمدة العائلة وهو كما نعلم رجل طيب ليس له فى الطور ولا فى الطحين · والعمدة الآن رجـل عادى مثله مثلنا فكيف يأمر بالقبض على أولادنا ·· هذه واحدة ·· نجيء للتلغراف الذى تودون تشييعه لوزير الداخليـة ·· ها أنتـم تملون كاتبكم قائلين : السيد وزير الداخلية لقد فعل العمدة بنا كذا وكذا وكذا ·· والواقع ان الأمر لا يكون هكذا · ان هذا يكون ـ عدم المؤاخذة ـ تخريفا فى تخريف » ·

يضحك القوم المحترمين ضحكة اريحية ، فـ « أبو سماعين » فى النهاية صار منهم · صار ملمحا ثابتا لا يحق لأحد زعزعته او الاعتراض عليه ، لهم الحق فقط فى اهانته وقتما يشاءون ، ومصبالحته بقرش تعريفة أو اكلة دسمة أو ربما ربتـة على كتفه النحيل ، ثم أن أريحيتهم هذه ليست بدافع من كرمهم وحده بل بدافع من الخجل الخفى الذى احسه كل منهم على حدة لمجرد أن « أبو سماعين » قد نبههم الى هذا الأمر وحده وهو خطير · كيف لم ينتبهوا من قبل هذه اللحظة الى أن العمدة الآن لا يعتبر عمدة بل شخصا عاديا يمكن النيل منه أو على الأقل تحييـده ؟ تتمدد

الأريحية فى الالغـــاد الصــغيرة وعلى الوجوه الطيبــة ، تتناقل الابتسامة السمحة على وجوههم وهم يقولون فى تسليم أكيد وأن بدا فى لهجتهم استعلاء ساخر : « أمال ايه يقى العقـل ياأبو سماعين · ورينا » ·

يطلق « أبو سماعين » ضحكته المعهودة التى تجىء هذه المرة بمثابة الموسـيقى التصــويرية التى تسـجل عجزهم وترد عليهم سخريتهم · يقول لهم ان البرقية التى نرسلها حقا يجب أن تكون للنائب العام ، على أســاس أن ما حدث يعتبر جرما خارجا على القانون : « هذه واحدة ·· والثانية اننا لا نقول فى البرقية حضرة العمدة فعل كذا · لأن جملة حضرة العمدة فى حد ذاتها سوف يكون لها تأثير على النائب العام بشكل أو بآخر ربما حاول علاج الأمر بطريقة تمتد شهورا يتضاعف اثناءها عذاب الأولاد فى سجن البدروم · انما علينا أن نكتب فى البرقية اسم العمدة مجردا · فنقول ان محمد عبد المنعم أبو سيف قد فعل فينا كذا · ثم هناك واحدة ثالثة ، هى أننا لا نقول انه قبض على أولادنا لأن كلمة قبض سوف تثير دهشة النائب العام وتلفت نظره الى أشياء ليست فى مصلحتنا ·· انما علينا أن نقول انه قد اختطف ·· أخذين بالكم ؟ سيادة النائب العام ــ أفندم ·· اغثنا ياسيادة النائب ·· ان رجلا ظالما من بلدتنا يدعى محمد عبد المنعم ابو سيف قد اختطف أولادنا فلان وفلان وفلان ، واخفاهم بواسطة عصاباته فى مكان لا يعرفه احد · أغيثونا من فضلكم وطمئنونا على فلذات أكبادنا أدامكم الله ذخرا للعدالة فى البلاد ·· ونفيدكم ياسيادة النائب العام أن هذه العائلة مشهورة بالظلم طول عمرها وتعيث فى البلدة فسادا ، لا يردعها رادع ولا يوقفها حاجز ، واليكم توقيعات رؤساء عائلات البلدة عن بكرة أبيها » ·

تتمدد الراحة على الوجوه شيئا فشيئا ويبدو انها تتصارع

تحت الجلد مع نذر شريرة تغرى المغـامرة · وجوههم استهجنت الكثير مما قاله « أبو سماعين » تفصيليا بدافع الحوف الدفين من التطرف على الحاكم والهزء به الى هذا الحد ، وتناقشوا كثيرا فى بعض عباراته التى رأوا فيها كثيرا من الحدة وقلة الذوق والجراة المبالغ فيها ، لكنهم مع ذلك حين استمعوا لنص البرقية ووقعوا عليه بأختامهم وبصماتهم وشخبطاتهم لم ينتبهوا الى أن البرقية لم تخرج فى جوهرها عمـا قاله « أبو سـماعين » بل هى بنفس صياغته والفاظه ··

« أبو سماعين » ليس تائها عن تراخى القوم الأصيل فيهم · يدرك جيدا أن المثل الشعبى الشائع بينهم : « كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح » ليس مجرد قول براق جذاب انما هو حقيقة ، فهذه الأمثال ـ يقول دائما ـ لا تأتى من فراغ ، ان لها أصولا ثابتة فى سلوك البشر حتى لو انكروا ذلك ، لذا فانه لن يترك لهم فرصة للتراجع ، من غد سوف يقوم بالخدمة ها هم سادة المجلس قد جهزوا البرقية ولم يبق سوى أن يذهب الأولاد التملية فى الصباح بالركائب الى مصلحة البرق فى البندر ويسلمونها نص البرقية مع الرسوم المقررة · وها هو ذا ينبه القوم الى ان هؤلاء التملية قد تروح عليهم نومة ويضيع الوقت ويصبح هناك مجال للتراخى والتراجع ، ينبههم الى هذا لكى يقولوا له بطبيعة الحال : « من فضلك يا أبو سماعين ابقى خبط عليهم بعد صلاة الفجر صحيهم » ، فعلى الفور يصيح : طبعا ··

لا يقتضيه الأمر أكثر من سرحة فى «عزبة العبيد » يقضى فيها ساعتين أو ثلاثا وسرحة أخرى عند شاطىء ترعة خلاف خلف « عزبة صباح حيث يخلع ثيابه ويأخذ غطسا فى الترعة · مع صوت الآذان يظهر شبحه مقبلا من خلف ابراج الحمام وسط الأشـجار الكثيفة ياكل أشياء يستخرجها ربما من سيالته ربما كانت لقمة

طرية طرات عليه من « عزبة العبيد » وربما كانت ثمارا من سقط هذه الأشجار جمعها فى ذهابه وايابه · يخرم على الدار التى ينام فى حوشها التملية · يظل يطرق الباب حتى يضج كل من فيه · يضطر التملية الى الاستيقاظ · يلاحقهم كل بضع دقائق ، رائحا جائيا تحت الجدار ينده كل حين ندهة عالية · ينفتح الباب وتخرج الركائب ، يمتطيها التملية بالفعل · يروح هو يذكرهم بالورقة التى فيها نص البرقية ، وباسم الرجل الذى سيمرون عليه فى مكتب المحامى ليضمنهم لدى مصلحة البرق ببطاقته الشخصية ، يذكرهم أيضا بالنقود التى ستدفع رسوما ، يعيد على أسماعهم كثيرا من النصائح التى وجهت اليهم بالأمس ، كيف يقولون كذا حين يقال لهم كذا ويردون بكيت حين يسألونهم عن كذا · يشد من أزرهم ، ويوصيهم بتجميد قلوبهم اذا ما تصادف وقابلهم أحد من طرف العمدة ·· « لن يحدث شىء ولكن يعنى خلوا بالكم ·· لا يداخلنكم شىء من التردد ·· الشىء الوحيد الذى ستثبتون به رجولتكم حقا هو أن تجيئوا بايصال دفع النقود الذى يؤكد ارسالكم للبرقية هاتوا هذا الوصل ولو على جثثكم ·· سوف تكونون مهزأة البلدة طول حياتكم لو عدتم بدون هذه البرقية ·· تذكروا هذا فقط واتكلوا على الله وهو كارمكم باذنه فلستم تفعلون الا خيرا وجهادا فى سبيله » ··

تملية هم أى نعم ولكن حتى التملية من حقهم أن يستهجنوا نصيحة تأتى اليهم من « أبو سماعين » انهم تملية القوم ولهم ما ليس لأسافل القوم الذين هم فى الأصل منهم قبل أن يلحقوا أنفسهم بالخدمة متطوعين لأى من العائلات الميسورة ، ويصبحوا ينتمون الى أحد بعينه من علية القــوم يتمتعون بحمايته ويشملهم شىء من سيادته ، أما أمثال « أبو سماعين » هذا الصايع الضايع الأفيونجى فليس له أى كيان فكيف يحق له أن ينصحهم كأنه علية

القوم ؟ هو أيضا من جانبه يعــرف هذا جيــدا ، ويداعبهم قائلا فى سخرية : حمار الأمير أمير الحمير ·· وانه فى النهاية لواثق من انهم سيكونون رجالاً فى تنفيذ المهمة خوفا من لسانه وحده على الأقل ، فهو وحده الذى سيحيلهم الى مزأة مباحة لجميع الخلق ·

يطلع التملية رجالا بالفعل ويرسلون البرقية · يمر الوقت ولا حس ولا خبر · « أبو سماعين » يترصد القوم لكى يقولوا له فى تهكم كأنه الحكومة المسئولة : « يعنى محصلش حاجة » ، حيث يرد عليهم من فوره : « نعمل استعجال ·· احنا ورانا ايه ؟ ·· ورانا ايه غيرهم ؟ ·· مصــطفى كامل قال مايموتش حق وراه مطالب · وسعد زغلول قــال مفيش فايدة يعنى مفيش فايدة من المفاوضات السلمية ·· واحنا لازم نفهم كده ياسيادنا ·· اللى مينفعش بالكلام السلمى لابد ينفع بالقوة ·· احنا بقى نجيب القوة دى منين ؟ ·· نستلفها من الحكومة ·· اذا الحــــكومة استعبطت نستعبط أكثر منها · اذا طرمخت نروح لها فى كل مكان موجودة فيه ونقلق منامهم لحد ماتيجى وتشوف لنا حل ·· ما هو اللى ما حيلتوش قوة ·· لازم يستلف ·· ثم احنا ورانا ايه ؟ خسرانين ايه ؟ ·· دى الحكاية كلها ما تتكلفش ملاليم ·· نشــيع غيرها وغيرها وحكمك ياحاكم لازم يبان فى المحاكم » ·

وهكذا نشيع الى النائب العام برقية ثانية ورابعة وعاشرة · يبتدع « أبو سماعين » بدعة فى البرقيات لم يفهموا مغزاها فى أول الأمر الا بعد أن شرحه لهم مضطرا ، اذ انه أراد أن يحمل النيابة مسئولية التراخى ان هى تراخت أكثر من هذا ، فكان يوصى القوم بأن يكتبوا على كل برقية رقمها فى وسط السطر ، الثانية أو العاشرة أو ما شئت من أرقام تستجد ، فهو بهذا قد أعطى النيابة احساسا بالمسئولية وهو أيضا يصادر على اذناب العمــدة فى جميــع المصالح الحكومية محاولاتهم اخفاء البرقية عن النائب العام أو التقليل من

شأنها لديه ، اذ لابد أن برقية من كل هذه البرقيات ستقع حتما فى يديه ولو بالصدفة فيعرف من رقمها أن ثمة برقيات قبلها قد أرسلت ، وثمة برقيات بعدها سوف تجىء ، وأن الأمر تبعا لذلك خطير · وبالفعل ما كادت البرقية العاشرة تخرج من البلدة مسافرة الى العاصمة حتى فوجىء المنتظرون دائما على المدخل الرئيسى للبلدة بفوج من العسكر السوارى فوق الجياد وخلفهم سيارة تقل بعض الأفندية بدا من شكلهم المهيب انهم النيابة لا شك والمباحث ، أما هؤلاء فلا شك مأمور البندر ورجاله وقواته · من نظرة واحدة عرف « أبو سماعين » ان المأمور شخص مستجد فليس هو المأمور الذى يعرفونه فى البلد · هدأت عاصفة الغبار التى أثارها ركبهم ، فاقترب منهم « أبو سماعين » معرضا نفسه لأن يسألوه عن شىء · وقد كان ، هز العسكرى السوارى كرباجه المطوى فى يده صائحا : « انت ياجدع انت تعرف بيت المدعو محمد عبد المنعم أبو سيف ؟ » صاح « أبو سماعين » على الفور : « أيوه ياسعادة البيه ·· اتفضل معايه وأنا أوريه لسعادتك فلوح له العسكرى بالكرباج صائحا : « طب يلا انجر قدامى » فاندفع « أبو سماعين » يجرى أمام الركب كأنه يؤدى رقصة فيها الكثير من التشفى والابتهاج ، ولابد أنه كان مدخرا فى دماغه لحظتها نصف طن من الأفيون الخام حتى وصل الى هذه الدرجة من اعتدال المزاج ··

اخترق بهم الطريق دون أن يدرى ـ كما بات يقول حيث أن هذه الفكرة لم تكن قد خطرت على باله من قبل انما سطعت فى ذهنه فجأة ورأى نفسه ينفذها وقد فقد الحد الفاصل بين الجد والهزل ـ حتى وصل بهم الى بيت « زاطه » المجنون ، وأشار اليه قائلا لهم : « هذا هو بيته ياسعادة البيه ·· محمد عبد المنعم أبو سيف » ، ثم انزوى فى مكان خفى واختبأ فيه بحيث لا يراه أحد فى حين يرى هو كل شىء ، ثم أنه لف التلفيعة حول رأسه

مغيرا من شكله بعض الشيء ، ووقف فى مخبئه يرقب العسكر وهم يترجلون عن جيادهم ويتركونها فى حراسة الخفراء الذين خفوا اليهم من تلقاء أنفسهم بحكم أن دوار العمدة لا يبعد كثيرا عن بيت « زاطه » . هما خفيران لا أكثر وخلفهما بعض تملية عائلة العمدة ، قدما نفسيهما بالطريقة الرسمية . تلقيا أمرا بمناداة العمدة ، فقال الخفيران ان العمدة مسافر الى القاهرة من أجل شئون الانتخابات حيث يرشح نفسه . فتلقيا أمرا بانتداب شيخ البلد ، فقال الخفيران ، انه هو الآخر ــ وهو العم الأكبر للعمدة ــ قد سافر مع العمدة ليساعده في بعض الأمور العائلية . فأين اذن شيخ الخفراء : قالا انه هو الآخر يؤدى خدمة خاصة بالعمدة في المديرية ، أى أن الضيوف الأجلاء لم يجدوا فى استقبالهم من حكومة البلدة سوى خفيرين كحيانين هما « على الأزعر » القصير القزعة المتخصص فى تبليغ المتهمين أمر القبض عليهم بالرضا والتسليم ، و « عبده الجحشة » المتخصص فى سقى بهائم العمدة ..

تقدم أفندى مهيب نحو باب البيت يحرسه رهط من العسكر المدججين بالسلاح والكرابيج . طرق الباب بكل أدب . خرج له « زاطه » يبسمل ويحوقل أو هكذا يبدوا رافعا بيده ذيل جلبابه النظيف ، وعلى صفحة وجهه جهامة وعظمة لا حد لهما ، وفى خطوة لهوجة وغطرسة وأحيانا نزق . اقترب من الهيئة الحكومية الواقفة بالباب ، فتح باب السور الخارجى نصف فتحة وهو يقول في استنكار مشبع باللامبالاة ، غير مبال بمنظر العسكر والضباط ولا بلباس الأفندية الفاخر ، كأنه يكلم خدما فى معيته : « ايه .. فيه ايه ياولد انت وهو ؟ » .

انحطب فوق الجميع جبال من الفزع والذهول الجليدى ، ولا أحد من الخفيرين أو التملية يجرؤ على التنبيه بأن الرجل

مجنون لأن هذا أمر غير مطروح في العائلة وليس بينهم من يعترف به وويل لمن يشير الى هذا مجرد الاشارة بله ان يقول بصريح العبارة ان الرجل مجنون · تيبسوا جميعا لبرهة ، خيل اليهم خلالها ان ما حدث لم يحدث · لكن الأفندى المهيب ـ الذى يبدو أنه الرئيس فى هؤلاء ـ ما لبث أن استعاد حرارته فاعتدل فى وقفته وقد تلبسته غضبية شرسة راح خلالها ينظر الى العسكر يستعديهم على هذا المأفون الجبان · شخط فى « زاطة » : « .. أ منزل المدعو محمد عبد المنعم أبو سيف ؟ » عوج « زاطة » لسانه فى حلقه مسخفا من لهجة الرجل مرددا : « أيوه ياخويه ·· منزل محمد عبد المنعم ابو سيف ·· سيدك وتاج راسك » صرخ الرجل المهيب صرخة عالية حاول أن يستعين فيها بقوة الحكومة التى يمثلها : « عايزينه حالا] فاذا بـ « زاطه » يهشه بعصاه العوجاية كما يهش كلبا ضالا أو دجاجة شاردة ، قائلا : « طب وسع شوية ·· وسع خلى الهوا يدخل » صرخ الرجل المهيب صرخة أخرى كان يبدوا أنها آخر ما فى طوقه : « احترم نفسك ياحيوان » فما كان من « زاطه » الا أن رفع حاجبيه دهشة وقال : « حيوان ·· والله ما حيوان الا أبوك عشان معرفش يربيك · كلب ابن كلب سل مل » ·

صار الخفيران والناس يلطمون وجوههم ، وعبثا ضاعت محاولاتهم تبين القوم بدون تصريح أن الرجل مصاب فى قواه العقلية · ان هى الا دقائق حتى فوجىء « زاطه » بالصفع والركل ينهالان عليه من كل منفذ ، فاندفع فى جنون هائل يسب ويضرب بالعصا وبأى شىء ، حتى اضطروا الى استخدام الكرابيج ، فاندفع رهط من شبان عائلة أبو سيف يتبعهم صف كبير من التملية يهجمون على العسكر والأفندية كالجاموس يشبعونهم ضربا وتلطيشا فى محاولة لتخليص « زاطه » · فما كان من الرجل المهيب الا أن صرخ آمرا بضرب النار ، فانطلقت رصاصات فى

الهواء أرعبت البلدة ولكنها بعثرت صفوف المعتدين تحت فوهات البنادق ، تم تكبيل عدد كبير من التملية وشباب عائلة أبو سيف • ربطوهم جميعا فى بعضهم بعضا بالقيود والحبال ، كل مجموعة تربط فى ركاب حصان • سأل الرجل المهيب الخفيرين عن المكان الذى تختبىء فيه العصـــابة مجموعة الشبان ، فأنكر الخفيران معرفتهما بأى شيء : فلما سألهما عما اذا كان هذا الرجل المأفون هو المـدعو محمد عبد المنعم أبو سيف قالا نعم ، فهـل هو زعيم العصابة التى تخطف الشبان ؟ أنكرا الخفيران معرفتهما بأى شيء من هذا • أحس الرجل المهيب بغبار الكذب يصبغ لهجة الخفيرين ، خاصة أنه قد لاحظ أنهما انحازا لفريق المعتدين دون أن يشعرا فأمر باعتقالهما وربطهما أيضا فى ركاب الفرس ؟•

على أن الرجل المهيب ما كاد يخطو نحو السيارة مصطحبا رفاقه حتى كان « أبو سماعين » من مخبئه قد أرسل له طفلا لبيبا برىء الوجه نظيف المظهر ، تقدم من الرجل المهيب فى براءة وثقة وثبات ، قائلا ما لقنه اياه مرسله : « انا عارف المكان ياســعادة البيه ••اللى العصابة مخبية فيه الشبان » ، فمال عليه الرجل المهيب وربت على كتفه فى حنان وتشجيع قائلا : « براوه عليك •• اذا وريتهولى حاديلك حاجة حلوه بس كبيرة قوى » هز الطفل اللبيب رأسه قائلا بنفس البراءة والصدق : « لا ياسعادة البيه •• أنا مش عايز حاجة •• عيب •• هو أنا باشتغل بالأجرة ؟ دانا تلميذ ويمكن لما أكبر أطلع زى حضرتك ؟ » وهذا أيضا ما لقنه اياه « أبو سماعين » انشرح وجه الرجل المهيب ومال على الطفل فقبله واحتضنه وربت على كتفه بحب كبير ، وقال : « براوه عليك •• فعلا أما تكبر حتبقى زيى واحسن منى كمان •• انت دلوقتى راجل بصحيح •• يلا بينا ورينا المكان » •

أمسك الطفل بيد الرجل المهيب وسحبه ماضيا به نحو دوار

العمدة ورهط من العسكر خلفهما فى ذهول · حتى اذا ما وصل الطفل الى الدوار سحب الرجل المهيب دافعا الباب الصغير برفق · أشار الطفل نحو باب غائص فى الأرض بمسافة عميقة وقال :- « هنا ياسعادة البيه ·· زعيم العصابة ساجنهم فى البدرون ده » ·

وكان الأولاد المحبوسين قد نفذوا الوصية التى أبلغها لهم « أبو سنماعين » سرا من خلال شبابيك البدروم المطلة على الشارع العمومى ، عن طريق أطفال يتصنعون اللعب تحت الشباك بكورة شراب مثلا ويحدثون الشبان كأنهم يحدثون أنفسهم فى أمور اللعب ، وعن طريق مندوب كبير السن متنكر فى هيئة بائع سريح هده التعب فارتمى جالسا يلتقط أنفاسه تحت شباك البدروم ، ويهذى بكلمات توهمك بانه من الدراويش المجاذيب الذين يقولون أى كلام لكنه فى صيغة الأى كلام هذه يسرب كلاما بل كلاما خطيرا موجها الى الشبان المحبوسين فى البدروم فردا فردا ، يناديهم بانجذاب كأنه ينادى على أقطابه أعمامه فى الطريقة يطلب المدد ، ويبلغهم ان عليهم أن يظلوا يصرخون ليل نهار صرخة فى السماء وأخرى فى الأرض ، ففى السماء آذان صاغية وسوف تسمع هذه الصرخات ··

لم يكن صعبا على الرجل المهيب ان يعرف أنه دوار العمدة · ولكن كان صعبا عليه أن يرى أمامه بابا مغلقا على ناس يصرخون صرخة فى السماء وأخرى فى الأرض ، صرخات يتصاعد منها الألم الشديد تنبىء عن عذاب وحشى ·· لقد فوجىء الرجل المهيب أنه أمام ناس يحتضرون احتضارا ، وأن عليه أن يفعل أى شىء لانقاذهم أولا ، وليكن بعد ذلك ما يكون المجرم أو طبيعة الجريمة ·

تحير الرجل فيما يجب عليه أن يفعل ازاء هذا الباب الغائص فى الأرض المغلق بأقفال ودرافيل · وحينئذ نبحت طائفة من الكلاب الشرسة مربوطة بسلاسل فى تراسينه بيت العمدة ، تكاد

تفتت عمدان التراسينة الحديدية لتنقض على الجميع فكان منظرها مخيفاً جدا ، واطلت نسوان العمدة من خلف التراسيات الدائريه باستدارة الجدران فى كل اتجاه داخل الحوش الكبير : ام العمدة وزوجاته الثلاث ـ من نفس العائلة ـ وبناته الاربع العوانس وبنتان متزوجتان من عاطلين بالوراثة فى العائلة ومقيمتان عند أبيهما على الدوام لا تذهب احداهما الى بيت زوجها الا لكى تنام له فحسب واحيانا ترسل له ليجىء وينام معها فى بيت أبيها ويتغذى وينصرف ، كلهن سوقيات ، ذوات لسان زفر ، بندريات صرف ، غير محتشمات ، يتوهمن أن عدم الاحتشام والسوقية من قبيل المدنية ، يلبسن القمصان المسماة بالجابونيز عريانة الصدر والظهر والكتفين ، الشعور الكرتاء منطرحة على الكتفين دون خجل أو حياء ، يتبادلن التنكيت على هؤلاء الجراء المغشى عليهم والذين سيلاقون لا شك حتفهم : « هىء هىء ·· ياندامه ·· ياختى ·· آه ·· هـ ·· خوفتونا ·· هىء هىء ·· ربنا يشفى ·· شى الله ياعسكر وسوارى كمان ·· ومتشطرين على الراجل العيان ؟ ياحرام ·· على العموم كلها ساعات وكل منهم ياخذ جزاؤه ويعرف مركزه » ··

وهكذا راح الرجل المهيب ينقل البصر مذهولا فى ذلك الذى يرى ، صدور كبيرة أثداؤها على أفاريز الترسينات يتشدقن بأقبح الألفاظ ويمضغن اللبان ، فخيل للرجل ـ لابد ـ أنه أمام بيت سرى من بيوت البغاء · وكنت أنظر فى وجهه فأرى البصقة تتجمع فى فمه وتكاد تنطلق فى دائرة التراسينات المبتذلة ، وكنت لحظتها أقرب واحد اليه ، ذلك أننى كنت ذلك الطفل الذى أرسله « أبو سماعين » ليرشده الى مكان الحبس هذا ··

أرسل الرجل المهيب الى التراسينات نظرة تجمعت فيها كل قدرته على الاحتقار والاشمئزاز ، ثم حول البصقة الى نفخة

مشمئزة فى اتجاههم ، ثم صاح فيمن حوله من العسكر : « افتحوا الباب ده » حاول العسكر ولكن البب كان تخينا جدا غليظ الأقفال والدرافيل ، وصراخ الشبان خلفه يقتحم الآذان ويغطى على نباح الكلاب ورقاعة ضحكات النسوان · طرق الرجل المهيب فوق الباب صائحا : يافلان · فرد عليه من الداخل صوت مضغوم غير واضح · ونادى الرجل ثانية : فلان · فرد عليه صوت آخر لكنه غير واضح ايضا · فنادى الرجل كل أسماء الشبان المدونة لديه فى الشكوى فردوا عليه جميعا بأصواتهم ولكن دون نطق واضح ، ومع كل صوت كان يصيح رهط من المتجمهرين : « ابنى ياحبيبى ·· هو ده صوته » · هز الرجل المهيب رأسه بحركة ذات معنى وقال ان الشبان افواههم مكممة ، وأنهم يتكلمون من حلوقهم باصطناع ايقاعات صوتية تشبه ايقاع حروف الكلمات ، ثم نظر فيمن حوله من الأفندية فقال بعضهم أن المسألة بالفعل خطيرة بل اخطر مما كانوا يتصورون ·

خرج الرجل فتبعوه فى حركة استطلاع حول القصر من الخارج · توقف عند شباك مطل على الشارع غائص بدوره فى الأرض حتى منتصفه · وأشار الرجل فجىء ببضعة رجال أشداء من أهل البلدة ، تعلقوا بحديد الشباك وشدوه بقوة حتى نزعوه من اماكنه ووسعوا بين أعواد الحديد مسافة تتسع لمرور جسدين ، ثم ضربوا درفتى الشباك بالكريكات فانكسرت · بالأمر نزل عسكريان ومخبران لغبائهما الشديد لم يفكرا فى خلع المعطف المترهل فانتزعه الشباك من كل منهما · تصاعدت من شباك البدروم روائح الرطوبة والعفن وعرق الشبان وجوعهم وروثهم طوال عشرة أيام أو اكثر لا يتصل بهم احد من أهلهم ··

النساء المتبرجات خلف التراسينات خلعن كل البراقع وصرن يقذفن فى الشارع قللا واباريق من الفخار ممتلئة بالماء تهوى فى

الشارع مرتطمة بالأرض أو بالرؤوس وصفائح قمامة ، وطوبا وزلطاو قصارى زرع · اعتصم الجميع تحت سقف التراسينات ، وخرج العسكر يحملون سبعة شبان مثل الورد تحولوا الى خرق بالية ، مكممى الأفواه مربوطى الأيدى من الخلف ، مهزولين لا يستطيع أحد منهم الوقوف على قدميه ، يتألمون بصوت رهيب ·

أمر الرجل المهيب بفك القيود وفك الكمامات ، ثم أملى تقريره بدقة انبسط لها كل الواقفين · ثم أقتحم الدوار داخلا المكتب الخارجى الذى فيه السلاحليك وآلة التليفون ومكتب العمدة وسكرتيره وعامل التليفون · لم يكن فى المكتب لحظتها سوى عامل التليفون « محمود فتح الله» الذى هو فى نفس الوقت مندوب لوزارة الصحة فى بلدتنا ويملك فى داره دفاتر خاصة قيدت فيها مواليد البلدة منذ أجيال بعيدة ، نقلها من دفاتر الوزارة بصبر عجيب ، وبات مشهورا فى البلدة أكثر من العمدة نفسه ، بل أن العمدة ليقع فى رجائه احيانا طالبا خدمة · هو أيضا مختص باستخراج شهادات الميلا دلكل فرد فى البلد يريد شهادة ميلاد ، مقابل رسوم يستقضيها من طالب المستخرج وفوقها أتعابه الخاصة · لن يكلفه الأمر شيئا كثيرا ، سيلجأ الى دفتره المفتوح على الدوام ، حيث تجىء كل داية من دايات البلدة أو العزب المجاورة لها لكى تبلغه أنها أولدت اليوم طفلا لفلان أو طفلة لعلان ، بعدها بيومين يجىء والد المولود نفسه ليسجل اسم مولوده لدى « محمود فتح الله » حتى يتسنى له استخراج شهادة ميلاد عند اللزوم · من دفتره الخاص يأخذ كل البيانات المطلوبة وبعد أن يتجمع لديه بضع مأموريات تستحق السفر يذهب من فوره الى المديرية فيملأ استمارات رسمية ويختمها بخاتم المصلحة · هو كذلك المختص بأمور « القرعة » ومسائل التجنيد فى بلدتنا ، حيث يعرف تاريخ تجنيد كل شاب فى البلدة ويبلغه به وبموعد

« النظارة » وما الى ذلك ، قد درج الناس فى البلدة من كبيرهم لصغيرهم على أن يقصدوه فى التأكد من تاريخ مولدهم لقاء خمسة قروش مثلا ٠

« محمود فتح الله » عامل التليفون كان لبقا متكلما ، نظيف المظهر مثلث الوجه غليظ الشفتين كبير الأنف على جبينه زبيبة الصلاة كثمرة التوت ، والطاقية الصوف ذات اللون البنى تتراجع الى مؤخرة رأسه كاشفة عن جزيرة من الشعر الجميل ٠ رغم أنه لم يحصل على شهادات مدرسية وتعلم القراءة والكتابة فى مدرسة البلدة فانه يتحدث مع كبار القوم من السياسيين والمدرسين والموظفين والمشايخ باللغة العربية الفصحى وبعبارات مما يرد فى الصحف فى لهجته وصوته رنة طيبة لكنها محايدة تعطى لكل انسان حقه الواجب من الاحترام والتوقير ٠

قام باستقبال الرجل المهيب استقبالا حافلا بالانحناءات والاعتذارات اللبقة ٠ قدم له الة التليفون ٠ فتناولها الرجل المهيب وأدارها ، وطلب قوة من البندر وسيارة اسعاف وسيارة نقل ٠ ثم جلس يتحدث مع « محمود فتح الله ، الذى استأذن من سيادته برهة قصيرة غاب خلالها ثم عاد ، فجاءت فى أعقابه صبية تحمل صينية عليها أكواب الشاى قادمة من أقرب بيت صادفه « محمود فتح الله » عند خروجه ٠ جلس يستأنف الترحيب بالضيوف الأجلاء ، ويكرر الاعتذارات عن الغائبين ٠ عرف نفسه للضيوف تعريفا جيدا ، واستخدموه استخداما جيدا ٠ عرفوا منه كل شئ عن هؤلاء الشبان السبعة وتأكدوا من أن التهمة التى يزمع العمدة تلفيقها لهم بزعم أنهم هاربون من التجنيد تهمة باطلة اذ أنهم جميعا معفيون بدفع البدلية ، وهم جميعا من خيار الناس ومن أنضج الشبان عقلا وخلقا ، واهلهم ميسورون لا يستطيع أحد منهم أن يذم اخلاقهم ، ثم ينظر حواليه ليشهد الواقفين من أهل هؤلاء

الشبان على أنه خلص ضميره وقال كلمة الحق فى شـأنهم • وحقيقة الأمر أنه اضطر لقول الصدق نظـرا لوجود القوم حـولـه كانهم يحكسون حصاره ، وكانت فكرة تواجدهم داخل هذه الحجرة ولو على سبيل التطفل وتخانة الوجه من تدبير « ابو سماعين » الذى كان واقفا فى الخلاء على مبعـدة يبحث عن زرار ضـال ليشبكه فى عروة مناسبة ، ذلك أنه ليس فى موقع اجتماعى يمكنه من أن يأمر بفعل كذا أو يقترح كذا ، انما كان يغرى الأشخاص ـ من طرف خفى ـ بأن يفعلوا كذا ، يقول لك وانت واقف تنتظر خارج الحجرة : « أما لو الواحد يدخل ويسمع أيه اللى بيتقال جوه ؟ •• والله لو كنت قريب واحد من العيـال لدخلت بقلب جامد » ، فتجد نفسك ـ وأنت أحد أقارب الشبان ـ قد زحفت من تلقاء نفسك شيئا فشيئا حتى تدخل بقلب جامد • ويقول للجالسين يتشاورون : « أما لو فلان الفلانى يعمل كذا وكذا ؟ » فيستحسن القوم الفكرة ويتحمس لها فلان نفسه فيقوم بتعديلها قليلا وتنفيذها •

على أن « محمود فتح الله » حين أحس أنه قد خان سـيده، ووقف فى صف البلدة وأن ما قاله سوف يسجل فى أوراق رسمية يؤخذ عليه فيما بعد باللوم ، وأن أحدا من عائلة سيده ربما يكون قد سمعه ، حاول أن يعتدل فيمسك بالعصا من المنتصف ، أن يشطب على ما قاله بجرة قلم ، فأخذ يدافع عن تصرف العمدة ، اذ مال هامسا فى اذان الضيوف الأجلاء بأن هؤلاء الشبان ذوى أنوف متعالية ، متزعمة ، مشاكسة ، يحلو لهـا اثارة الشغب لله فى لله ، وقد وصلت للعمدة أخبار مؤكدة بانهم يثيرون الفتن فى البلدة ، ويحرضون على مقتله وعلى اثارة الفوضى : وبينى وبينكم يا أسيادى هم أولاد يستطيعون فعل ذلك وأكثر •• ولكن العمدة قلبه أبيض واضطر الى أن يهوشهم ، ان يرعبهم قليلا حتى ، يفيقوا لأنفسهم ولا يؤرقوا الأمن بعـد ذلك. فاحتجزهم على ذمة انهم هاربون من

الجندية الا أنه كان ينوى أن يتركهم بعد حين قصير ولكن بعد أن يتشربوا الدرس ولا يصبحوا من الأشقياء ..

بعد حوالى ساعتين من الكلام المسجل على ورق رسمى ، تخللها شاى آخر ثم قهوة ثم شاى مع أقراص .. تدفقت الصوانى الكبيرة على الدوار قادمة من جميع انحاء البلدة ، عليها كل ما لذ وطاب من الطيور المقلية واللحوم المشوية وأنواع الفطير وكافة الخيرات المتاحة . يدخل بها شبان نبلاء الوجه فى عشم كبير وشهامة تلقائية يصعب عليك صدها بل أنك لتراك تجنبها الكسوف ، يوسعون المكان ويضعون الصوانى أمام الضيوف . وجد الضيوف أمامهم طائفة من الصوانى الحافلة تدعوهم للأكل وكانو بالفعل قد جاعوا من طول الوقت والمجهود . وبدا على الوجوه رضا واسترخاء بعد طول عصبية وتوتر ، وبدا أنهم قد أعيدت اليهم كرامتهم المسلوبة المعتدى عليها ، وشعروا كأن أهل البلدة يمسحون عن صدورهم ما علق بها من قاذورات هذه العائلة . وفيما هم يتبادلون النظر فى حيرة وتورط دخل رهط من الرجال الكبار المحترمين فى وقار مهيب ، هم صور مكررة من آباء لهؤلاء الضيوف فى قرى أخرى ، فرض محضرهم على الضيوف أن يهبوا واقفين لاستقبالهم والسلام عليهم فى احترام .

كانوا أربعا يشكلون وفدا من الزعالكة والعقالوه والجرانه والنجار . ما أن سلموا على الضيوف حتى وقف عميد الزعالكة بما اشتهر به من لباقة وقدرة على الخطابة فى استقبال المرشحين والضيوف الكبار ، وباعتباره من عائلة فيها لواء فى البوليس ومحام وطبيب وتجار كبار وموظفون فى مصلحة المساحة ، فوق ما فيها من فلاحين ذوى أملاك طائلة ، فانه يتقن فن الأصول ولهجة القول ويفهم فى منازل الرجال والألقاب والأوصاف المناسبة لكل لقب . خطب على المائدة خطبة قصيرة لطيفة حلوة اللفظ فيها

كلمات للمتنبى وأبى النواس وشوقى وعلى بن أبى طالب والرسول عليه الصلاة والسلام · رحب فيها بالضيوف السـادة الأجـلاء نيابة عن كافه اهل البلدة ، منوها الى أن هذا الغداء ليس يقصد من ورائه أى شىء سـوى القيـام بالواجب وهو دينهم ، انه غـداء الشعب ، وشعب هذه البلدة الأبية العظيمة ليؤسفه بالغ الأسف ما ظهر اليوم من سلوك بعض أهلها ، وهم أهلنا فى نهاية الأمر ، صحيح أننا قد نكون على خلافات حول بعض الأمور ، ولكنهم فى النهاية من أهل البلدة ولهم علينا حق الاعتذار عما بدر من حريمهم فى غيبة رجالهم ، ومهما يكن من أمر فليمسحها الضيوف فى جبينهم ويبقى هناك شىء أخير هو أن الضيوف الأجلاء ان رفضوا هذه العزومة الشعبية فانهم بذلك يكسرون خاطر بلدة برمتهـا · ثم استوى جالسا أمام احدى الصوانى مشمرا ذراعيه ناظـرا حواليه قائلا للجميع : هيا باسم الله الرحمن الرحيم · فنزل الجميع وراءه فى الحال دون تردد ، وشرعوا فى الأكل كأنهم فى بيوتهم وقال الرجل المهيب وهو يمضغ اللقمات فى سأم : « مش كان لازم نطمئن الأول على صحة المصابين حتى يجينا نفس ناكل ؟ » فينظر له عميد الزعالكة وهو يفسخ الديك الرومى الى قطع يرمى بها هنا وهناك أمام ملاعق الضيوف ، ثم قال له : « إطمئن سـعادتك اهاليهم أسعفوهم ·· وتحت أمركم فى أى لحظة » ثم اندمج فى الأكل بشهية يعمد بها الى فتح شهيتهم ، وقد نجح فى ذلك بالفعـل حتى أن الصوانى كلها رجعت خاوية ، حيث أتى العسكر على ثلاثة أرباعها فى سرعة هائلة ··

فيما هم يغسلون أيديهم على الطشت والولد يصب عليهم من الأبريق النحاسى الكبير صلصلت اجراس عربة الاسعاف ، وخلفها سارينة عربة البوليس راعبة مجلجلة تهدد بالويل وعظائم الأمور · سرعان ما حملت عربة الاسعاف المصـابين واندفعت بهم عائدة

يتبعها الأفندية بقيادة الرجل المهيب ، خلفهم العسكر السوارى تجرجر خيولهم الناس المربوطين بالحبال بما فيهم « محمود فتح الله ـ الذى لم تشفع له لباقته ، وبينهم « زاطة » الذى انتابته حالة هستيرية موسيقية ، فصـار يتراقص وهو موثق صـائحا : « سلامات ياحكومة ·· ياحكومة سلامات ·· سلامات سلامات ·· عدوك انسلا مات ياحكومة سلامات » خلفهم عربة عليها قوة من الجنود المسلحين · فى أعقابهم انطلقت الركائب من كل اتجاه تحمل الوجهاء والكبراء يتبعونهم الى البندر ، يحملون نقودا لأطبـاء المستشفيات ، ورسائل لمحامين يقيمونهم على قضايا سوف تقام فى النيابات والمحاكم ، وتهيأت البلدة كلها لانفاقات باهظـة سوف تنفقها عن رضـاء ولذة ، وصدامات مع عائلة العمدة سـوف تتصادمها ـ أيضا عن رضا ولذة فائقين ·

تستمر الأوضاع شهورا طويلة على أعلى درجة من التوتر والقلق ، وصوت طلقات الرصاص يدوى فى الحقول فى انصاص الليالى ، واصوات الفجائع تتوالى مع الأصبحة عن قطن انتزعت أشجاره وقمح احترقت سنابله وأرض أغرقت وبهيمة فطست بفعل فاعل مجهول ·

٩ ـ عبود عبد الشافى

الضيوف الأجلاء لم ينسوا ما لحقهم من اهانات فاضحة ، ولم يفرطوا فى حقوقهم ولقد علمت من « أبو سماعين » أن الرجل المهيب وحاشيته قد خاض معـركة رهيبة مع أقطاب عائلة العمـدة الكثيرين فى القاهرة فى مناصب مختلفة ، وآخر ما وصلت اليـه نضالات الرجل ايقاف العمـدة عن العمل وحرمانه من الترشيح حتى تنتهى القضية التى رفعتها النيابة ضده وضد رهط من عائلته أمام المحاكم ويترافع فيها محامون من فصيلة عبد الفتـاح الطويل باشا أو ما أشـبه ٠

على أن أهل البلدة سرعان ما تكاثلت قضاياهم وتكاثفت ٠ ذلك أن «أبو سماعين» تجول فى البلدة عدة جولات شاف خلالها مزاجه وانبسط ، ثم أوصى لمعظم العائلات الرؤوس برفع أنواع من القضايا ضد العمدة وعائلتـه سـواء بالحق أو بالبـاطل ، وكان « أبو سماعين » يزم شفتيه ويطلق ضحكته الشهيرة سعيدا كلما سمع أن فلان من أهل البلدة رفع قضية ضد فلان أبو سـيف ، ويقول مطرقعا أصابعه فى بعضها كالملسوع من النار : « حلو ٠٠ كثرة القضايا ضد هذه العائلة كفيل باسقاط حقها فى العمدية » ٠٠

وقتذاك كان « عبود » بن عبد الشافى تاجر الحبوب الميسور قد حصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة وذبح أبوه ثلاثة عجول وزعت على جميع السابلة والمعوزين ، وأقيم فرح غنى فيه « سيد مرسال » أشهر مطرب فى الناحية · وكان « عبود » هذا شابا مؤدبا من يومه ، يدعوا له جميع الناس بالنجاح · كذلك كان صديقا لـ « أبو سماعين » يستعير منه الكتب الصفراء القديمة المطوية فى جيبه على الدوام ولا يدرى أحد من أى مكان يستحضرها وان كان يقال أنه يشتريها من مكتبات دسوق ، فى مقابل ذلك يعيره « عبود » كتبا حديثة للدكتور طه حسين وللعقاد والمنفلوطى ومصطفى صادق الرافعى والدكتور هيكل ، وروايات تاريخ الاسلام لجورجى زيدان ، وأحيانا كتبا فى القانون يطلبها « أبو سماعين » بالاسم ويتضح جهل « عبود » بها فيسأل عنها ويشتريها ويغامر باعارتها لـ « أبو سماعين » تستمر عنده جمعة أو جمعتين ··

كان ذلك أمرا مشهورا فى محيط حينا ، ويتساءل الناس بكثير من الدهشة كيف يتساهل « عبود » فى كتبه الى هذا الحد فيعيرها لرجل كهذا يكورها فى جيبه ويفعصها وربما تضيع منه فى أى مكان ينام فيه · أما أنا فقد كنت مبهورا بـ « عبود » وبكلمة الليسانس بالذات انبهارا شديدا جدا ، خاصة أن « أبو سماعين » كان دائما يدعو أن يرانى قد حصلت أنا الآخر على هذه الشهادة العالية · كنت أتكلم مع « عبود » كثيرا كلما جاء الى دكان معلمى « سعد الله » لكى نقيس عليه ثيابه الجديدة الكثيرة · لم يكن يضيق بثرثرتى بل كان يجاوبنى على كل شىء · سألته مرة ـ لأثبت له أننى عميق الفهم للأمور ـ نفس السؤال الذى يردده الكبار ، وأضفت تعبيرا عن فطنتى : « اليست هذه الكتب هى مكتبتك القانونية حين تصير محاميا ؟ » فابتسم ونظر لى نظرة اعجاب خاص وقال أن « أبو سماعين » يحافظ على الكتب أكثر

منه ، ويردها له فى الموعد الذى يحدده ، ثم أن الكتاب لا يضيع من « أبو سماعين » أبدا ، قد يضيع من أى شخص آخر أما « أبو سماعين » فلا أنه أحسن من يفهم قيمة الكتاب ويحنو عليه ، لو ضاع منه كتاب لحزن عليه أكثر من حزن أى منا على فقيد عزيز .

فى الحقيقة لقد انبهرت من قول « عبود » وسألته ــ وما كان ينبغى أن أسأل بالطبع ــ هل هو يعتبر صديقا لـ « أبو سماعين » فقال على الفور كأنه يستنكر سؤالى : « طبعا » ثم أضاف : « ده راجل بركة .. محدش فاهمه .. دا اللي يفهمه يستفيد منه أكبر فوايد » ..

بمجرد حصول « عبود » على الليسانس بدأ يكثر من السفر الى المديرية كل بضعة أيام ليمكث هنــاك أياما . وبدأ ــ طوال الأيام التى يتواجد فى البلد ــ يكثر من الجلوس مع « أبو سماعين » على المصاطب فى الطرقات ، على قاعدة ساقية ، تحت نخيل بحر السبيل ، ولقد طغت هذه الظاهرة على سطح الأحداث حتى نافست أحداث خلافات البلدة مع العمدة وعائلته المستبدة ..

العلاقات وصلت الى ذروة الجنون من جانب عائلة العمدة ، وذروة الحكمة من جانب بقية العائلات . وفى كل يوم هنالك جديد يتحدث فيه الناس ويشغلون أنفســهم به لكن ظاهرة الجلســات الانفرادية الطويلة بين « عبود » و « أبو ســماعين » احتجزت لنفسها وقتا من حديث الناس واهتمامهم ، حتى كبار القوم الذين من المفروض انهم منشغلون بأمورهم ، يدعكون لحاهم البيضاء فى اندهاش بالغ قائلين : (ياخوية أيه الحكاية .. ابو سماعين اليومين دول لازق للأستاذ عبود عاوز منه ايه .. دا الواحد كل مايروح فى حتة يلاقيهم مع بعض) على ان الاشاعة التى استقرت بعد ذلك بسرعة وصدقها الناس الى حد كبير هى أن الأستاذ « عبود »

يعمل الآن ــ بإيحاء من « أبو سماعين » على فتح أول مكتب محامى في بلدتنا يكون فرعا أو نواة لمكتب أساسي يفتحه فى البندر بجوار المحكمة ، وأنه ــ الأستاذ « عبود » ــ سوف يعين « أبو سماعين » كاتبا فى الرث ، ويرتدى البدلة والطربوش من جديد ٠

الا أننى بحكم ارتباطى بالشخصين سمعت طرفا كبيرا من الحديث بينهما ٠ ولقد تأكد لى أن « أبو سماعين » خلال تلك الجلسات الانفرادية بينه وبين « عبود » قد نجح فى أمور كثيرة ، اختار له مكتبا يتمرن فيه لأحد المحامين الكبار جدا فى المديرية ، اسمه « خالد البرادعى » أحد أقطاب الوفد اللامعين فى كل ترشيحاته ووفوده ولجانه ، كما أنه أحد أقطاب اللجان الاستشارية بوجه عام ، ويقع عليه اختيار الحكومات فى عهود كثيرة ليفصل فى أمر قانونى أو يترأس لجنة أو هيئة أو ما الى ذلك ٠ وصحيح أنه كان مشهورا فى العب كله لدرجة أن الناس عند العراك يهددون بعضهم بعضا بالقتل والمجىء بخالد البرادعى للحصول على البراءة ٠ الا أن « أبو سماعين » كان دون الجميع يعرف عن الأستاذ البرادعى كل المعلومات ، ويعرف ناسا على صلة نسب وثيقة به فى العزبة الفلانية المجاورة لبلدتنا ، تطوع بمرافقة « عبود » اليهم ذات يوم بالمركائب حتى توسطوا لعبود والحقوه بمكتب الأستاذ ٠ ذلك أن الالتحاق بمكتب الأستاذ حينذاك لم يكن سهلا ، فهناك اعتبارات كثيرة لابد أن تتوفر فيمن يوافق الأستاذ على من يعملون لديه أمام القضاء باسمه ، فهو يعتبر أن المحامى الذى يتمرن عنده لابد أن يكون صورة مصغرة منه شخصيا ، حتى اذا ما وقف أمام القضاة تحت علم اسمه كبر وصار كأنه هو ، وأى محكمة سوف تعامل مندوبه بنفس القدر من الاحترام والانصات ، فلابد والأمر كذلك أن يكون المحامى الشاب من أوائل الخرجين النجباء الأذكياء هذه قاعدة أولية ، ثم لابد أن يكون وفديا هو الآخر مثل صاحب المكتب ،

ويا حبذا لو كان من بين الزعامات الطلابية وله مواقف مسموعة خارج أسوار الجامعة • هكذا كان يفرض الأستاذ « خالد البرادعى » على من ينالون شرف الانتساب الى مكتبه • غير أن « عبود » حين التقى بالأستاذ « البرادعى » لأول مرة للمناقشة على سبيل التعرف ــ وهو الاسم المهذب للامتحان والاختبار ــ كانت شخصية « أبو سماعين » حاضرة بل ماثلة فى ذهنه طوال فترة اللقاء التى استمرت ما يقرب من ساعتين ، حيث عرف « عبود » من « أبو سماعين » كيف يتخاطب مع مثل هذا الرجل الداهية ، وكيف يقنعه انه شاب ذو مبدأ وذو موقف سياسى يتجانس مع موقف الأستاذ ، بل أنه ذو قضية ، وقضيته قضية بلدة بكاملها من أكبر بلدان العب كله وتعتبر الورقة الرابحة فى يد أى مرشح انتخابى وبدونها لا يفوز احد ، تستبد بها عائلة مجنونة تنتهك حرماتها وتذل كبرياءها •

استطاع « عبود » أن يملأ دماغ الأستاذ ويحصل على أعجابه • فما أن استقر الأستاذ « عبود عبد الشافى » بمكتب الأستاذ « البرادعى » حتى بدأت عراو جديدة يحكهيا « ابو سماعين » • انه لينافسنى فى شغل العراوى ولكن على طريقة الحياة ، سريعا ما يفتح عروة فى طرف موضوع ثم يحكيها جيدا كما أفعل أنا بالخيط والابرة ، ثم يحيك لها زرارا فى طرف آخر بعيد جدا ، وبأعجوبة أسطورية يلضم الزار فى العروة • واذا كنت أنا وزملائى نمل من عراوى صديرى واحد لكثرتها وكثرة أزرارها فان [أبو سماعين] يستطيع أن يظل يصنع العراوى فى أطراف الموضوعات والعلاقات بين الناس فيحكيها جيدا ويضع لها فى المقابل أزرار مهما طالت قامة الموضوع •

هكذا دخل زرار مربوط فى صدر المديرية اسمه « خالد البرادعى » ؛ فى عروة مفتوحة ومشغوله بالحياكة فى صدر مشكلة

بلدتنا اسمه « عبود عبد الشافى » المحامى تحت التمرين • فاذا بدم جديد يتدفق فى عروق القضية فيحييها ويهيج قروحها القديمة المتجددة على الدوام • وكانت الجلسات الانفرادية المتكررة التى حدثت وتحدث بين « عبود » و « أبو سماعين » هى فى الواقع جلسات بحث وتمحيص فى بنود عريضة دعوى يرفعها الأستاذ «عبود عبد الشافى » باسم البلدة كلها فى مكتب الأستاذ « خالد البرادعى » المحامى الكبير •• ومن غيرك يا برادعى يستطيع أن يغرز أسنانه فى لحم عائلة العمدة فيوجعها ؟ وحسبما توقع « أبو سماعين » لقد فرح الأستاذ « البرادعى » بهذه القضية فرحا كبيرا وقبل فيها أتفه الأتعاب ، فهى فرصة ينفس فيها عن حقده الدفين ضد خصومه فى السياسة الذين فوق ذلك أصبحوا خصومه فى الانسانية بما يرتكبونه من فاحش الأفعال •

لم يجد الأستاذ « عبود » صعوبة فى جمع توقيعات ، حيث تكفل « أبو سماعين » بصنع عراوى وحياكة أزرار بين كل العائلات المتناحرة حتى تلك التى كانت حليفة لعائلة العمدة بحكم مصالح متبادلة أو نتيجة ضعف أسرى • هو خبير بالناس والعلاقات والأشياء خبرة تمكنه من السيطرة على النفوس كما يهوى ، اذ هو بتعبيره يعرف كيف يهرش للناس مطرح ما تستحلى ، ففى نفس كل انسان منا منطقة نفسية معينة أو أكثر من منطقة يستلذ الهرش فيها كما البدن سواء بسواء ، وهو يعرف هذه المناطق النفسية ويقول ضاحكا انها ليست عبقرية ولكنها أمر يستطيع كل انسان أن يعرفه لو أراد • وكان لا يفتأ يردد « العلاقات بين أولاد آدم وبعضهم تشبه هذا الصديرى الذى فى يديك ، هى التى تسترنا وتستر عوراتنا ، هى الثوب الذى لابد أن نلمه حول جسدنا » وكنت أظن أن هذا الكلام من قبيل الحكم الأفيونية ولكننى شهدت بصدقه حين رأيت البلدة كلها — بفضل جهوده العظيمة والمنكورة

فى نفس الوقت توقع ببصماتها على أغرب توكيل شهدته مكاتب المحامين على اختلاف مستوياتهم ، بموجبه يصبح الأستاذ البرادعى وكيلا رسميا عن بلدة برمتها ضد عائلة واحدة · وهكذا اقام الأستاذ « البرادعى » دفاعه مطالبا بنزع العمدية عن هذه العائلة بعد أن نجح ـ بايحاء من أفكار أبو سماعين عبر الأستاذ عبود ـ فى تجريم العائلة ودمغها بالجنون المتوارث ·

شهور طويلة والقضية قائمة على قدم وساق كلفت البلدة الجلد والسقط ولكن العمدة خسر فى النهاية كل شىء وخرجت العمدية من عائلته الى الأبد · وكان يوم انتقال آلة التليفون من دوار السوايفة الى مبنى المدرسة ـ مقر العمدية المؤقتة التى أسندت مؤقتا لشكرى أفندى ناظر التفتيش ينوب عنه الشيخ عبد العزيز أبو غلاب امام المسجد ـ يوما من أيام بلدتنا لا تنساه ذاكرتنا أبدا ، دقت فيه طبول ورفرفت زغاريد بقدر يفوق جميع ما أطلق فى جميع أفراحنا طوال حياتها من زغاريد ، يومها أبيح لكل من هب ودب أن يسخر من لهجة العمدة وأن يقلدها كما كان يفعل الكبار فى جلساتهم الخاصة ، بأن يلوك الواحد منهم لسانه فى حلقه مصعدا أصوات الحروف ليخنقها تعبيرا عن الأنفة والغطرسة الشديدتين اللتين تتميز بهما هذه العائلة ·

١٠ ـ الحاج مصطفى الحداد

لو أن أحدا ـ كائنا من كانت مرتبته فى البلدة ـ قال فى مجلس من المجالس ـ ولو على سبيل المزاح العابر ـ أنه يرشح الحاج مصطفى الحداد « لعمدية البلدة ، لجر على نفسه ، ليس فقط كثيرا من السخرية والاستهجان ، بل ربما تعرض للضرب والاهانة اذا ما كان المجلس يضم أفرادا من عائلات كبيرة فى البلدة ، فبلدتنا تضم أعدادا من العائلات الضخمة التى يعمل لها الجميع ألف حساب فلا يدوسون لبعضهم البعض على طرف . وربما كان هذا هو الشىء الوحيد الذى أقام نوعا من التوازن فى أمن البلدة . فهناك أكثر من ثلاثين عائلة مرهوبة الجانب يقدر عدد أفرادها بالمئات وعدد فدادينها بالآلاف . بعض هذه العائلات تحتل بلدانا صغيرة وعزبا مجاورة تسمى باسمها . لكن الجميع مع بعضهم سمن على عسل ، حدود الأراضى متجاورة ، الخصوبة معدية هى الأخرى ، عدوى الاخضرار ذات نفس سمحة لا تفرق بين أرض هذا وأرض ذاك فكل الأراضى حقلها ميدانها ، هكذا النفوس أيضا بين أصحاب هذه الأراضى وبين أهل البلدة كلهم ، أفراد من هذه العائلات أو تلك يتطوعون بمساعدة الجيران فى جمع أو نقاوة أرز أو حصاد أو رى أو دفع مخاطر ، لكى يساعدهم الجيران

نفس المساعدة فى ظروف قادمة ، حقولنا حقولكم بهائمنا تحت أمر سواقيكم محاريثنا ونوارجنا بل وأولادنا فداء لكم ، النقوط فى الأفراح حضور حى للعائلات ، الشربات على شرف العريس فى استقبال موكبه عند المرور على كل بيت أمر لا يفوته أحد ، سيقان الرجال تنهب الأرض جريا فى انقاذ بهيمة فطسى ، يمنعونها من الوقوع ، فان وقعت يمنعونها من الضياع ، لابد أن يلحقوها بالسكين ، ولابد أن يشترى كل فرد قطعة من لحمها بسعر السوق ، حتى لو كانت غير صالحة للاكل فليأخذونها الى بيوتهم ويتصرفون فيها كيف يشاءون المهم أن ثمنها لابد وأن يتجمع فى يد صاحبها يزيل عنه هول الفاجعة ، الصوات الملتاع أن أطلقته امرأة هب الرجال من رقادهم فزعين وهرعوا ينقذون ، ان كان حريقا فلابد أن تخمده البلدة فى رقصة فرعونية منتظمة ، حيث تخرج جميع النساء بجميع الجرار ، تنتظم صفوف الرجال تلقائيا من أقرب مصدر للماء حتى قلب الحريق ، النسوة كالغزلان المائسات يسلمن الرجال جرارهن ويتلقفون غيرها ليسرعن بمثلها من الترعة أو القناة أو ميضاة المسجد ، حتى لتشغى البلدة كلها بالحركة من أولها الى آخرها والكل يعمل على اخماد الحريق حتى ولو كان فى بيت من عائلة معزولة كالسويقة ٠

هذه العائلات تكتسب عزوة وأصالة وقوة ، وترى لنفسها الحق فى العمدية أو على الأقل الترشيح لها ، بالاضافة الى ذلك هناك مجموعة أخرى قليلة من عائلات ليست كبيرة فى عدد أفرادها ولكنها كبيرة الحجم ، أفرادها قليلون أى نعم ، ولكن العائلة الواحدة ترى منها محاميا ومدرسا وطبيبا وصيدليا وضابطا فى الجيش أو كنوستيلا فى البوليس ، صحيح أن أعلامها هؤلاء يقيمون فى المدن أقامة تامة ولا يحضرون الا كل بضعة أعياد ، لكن حضورهم يظل أبدا يسحب على دورهم وعلى أهلهم فى البلدة هالة من الرهبة والاحترام ٠ لهم أبناء موظفون فى جهات حكومية

حساسة ، وأهلهم فى البلدة يتوسطون كل يوم لأهالى البلدة فى تخليص أوراق هامة وخدمات جوهرية • حقيقة الامر أن هذه المجموعة القليلة من العائلات ، التى تمثلت فى الزعالكة والعقالوه والنجار والبكاروة ، والتى تنحدر كلها فى الأساس من أصول زراعية وتجارية محضة آمنت بالعلم وأنتبهت الى جدواه الاجتماعية منذ وقت مبكر ، ويغلب على الظن أنهم من أحفاد الجيل العربى القديم الذى استوطن بلدتنا عن طريق نظام الارتباع الذى حدثنا عنه « أبو سماعين » ، ابان الفتح الاسلامى لمصر ، وقد انتهبوا الى ضرورة العلم والوظائف الحكومية متأثرين بالأقباط المصرين الذين عاشروهم قرونا طويلة ، وكانوا فيما مضى يغرمون بالتعليم الأزهرى الصرف ولكنهم تأقلموا مع الزمن فأدخلوا أبناءهم المدارس المدنية والمهنية ، مع ضرورة أن تحتفظ كل عائلة لنفسها بابن من أبنائها يدرس فى الأزهر الشريف ويصبح شيخا له جلاله تستمد منه العائلة حظوا كبيرا بين الناس • يغلب على الظن انهم عرب لأن معظمهم يحتفظ فى داره بشجرة العائلة وهذا تقليد عربى خالص كما أفهمنى « أبو سماعين » ••

هذه العائلات ـ فى حقيقة الأمر ـ هى التى باتت ذات القوة الفعلية الحقيقية فى البلدة • فكثرة الرجال وكثرة الأموال لا تنفع العائلات فى تعاملها مع الحكومة بل ينفعها رجالهم الذين حصلوا على قسط من العلم واصبحوا فى مواقع حساسة فى الجهاز الحكومى، أولئك الذين لم يفتهم « الميرى » فليسوا فى حاجة للتمرغ فى ترابه مثل الآخرين •• لقد باتت هذه هى القوة الحقيقية التى تستمد منها هذه العائلات المحدودة العدد والمال سلطانها وهيبتها فى البلدة • وكانوا بالفعل أليق بهذا السلطان وهذه الهدية • كنا نحكم بذلك من خلال أولادهم الذين اصبحنا نزاملهم فى المدرسة ، حيث كنا نلاحظ أن الأولاد الذين يثيرون خيالنا بنشاطات

رياضية وفنية متفوقة كانوا من أبنـاء الزعالكة والعقالوه والنجـار والبكاروة ، وكنا نحبهم لفرط أدبهم وحسن تربيتهم بالقياس الى الآخرين ممن هم فى مستوى ثرائهم وبغددتهم ، وكانوا فى انظارنا النموذج الأرقى لمن نسميهم بأولاد الناس ، فهم يتشابهون مع أبناء العائلات الأخرى الثرية فى نظافة المظهر باستمرار والثياب الثمينة الجـديدة وانتعـال الأحـذية التى فصلت خصيصا لهم ، والتزود بالمأكولات والفواكه فى أكياس من النايلون ، والحقائب الجلدية بدلا من المخالى ·· الا أن أبناء العائلات الذين لهم صلة بالعلم والوظائف الحكومية كانوا يمتازون ـ رغم سمار وجوههم ـ بالأدب والفصاحة واللبـاقة ، يأخـذون عشرة على عشرة فى دروس المحفوظـات والانشا ء، ويرأسون جمعيات الخطابة والتمثيل والكشافة ، والأهم من كل ذلك وغيره أنهم كانوا يعاملوننا باعتبارنا تلاميذ مثلهم فى مدرسة واحدة رغم حفائنا وسوء مظهرنا وزناخة رائحتنا ، وتخلو لهجاتهم وسلوكاتهم نحونا من نزعات التحقير والسخرية والاستعلاء والاستقواء التى كان يمارسها علينا كل من انتعل حذاء ··

هذه العائلات هى الأخرى كانت تطمح فى العمدية بل أنها سعت اليها مرات عديدة فى عهود مختلفة ، وكانت تعـرف مقدما أنها لن تحصل على نزع هذه اللقمة السـائغة من حنك السوايفة ولكنها تحب أن تسجل لنفسها فى تاريخها شرف المحاولة ··

فيما عدا هؤلاء وأولئك فعمـوم النـاس فى بلدتنا طيبـون ولا يطمحون فى شيء ولا يرشحون أنفسهم لأى شيء ··

عموم الناس فى بلدتنـا ـ مع كل هـذه العـائلات القوية الجبارة ـ رهط كبير جدا من الأنفار الشغيلة والتملية والعمال الزراعيين والحرفيين من خطاطين ونجارين وحـدادين وبرادعية وغربلية وعتقية وسمكرية بوابير جاز وبقالين ، فضلا عن صغار الفلاحين من ذوى نصف فدان فأكثر قليلا ··

« أبو سماعين » يعرف دخيلة هؤلاء من كل أهـل البلدة ٠ وقد لاحظ عموم النـاس أن « أبو ســـماعين » قـد بدأ يختفى من مجالسهم أياما طويلة ٠ لم يقلقوا بالطبع ، أنهم كانوا يرونه من حين الى حين مستغرقا في مجـالس العـائلات الكبيرة المرموقة ينسحب من واحد ليقبل على اخر ، موضوع العمدية مطروح فى كل مجلس ، « أبو سماعين » لا يفعل شيئا فى الظاهر وان كان هو « الدينامو » الذى يحركه وفوق ذلك يمسك بعجلة القيادة من طرف خفى ليوجهه فى وجهـات معينـة ٠ هـو فى كل مجـلس يشيع ـ همسا ـ أنه قد سمع من مصدر موثوق منه أن العمدية سوف ترسو على العائلة الفلانية بعد سعى جهيد من عميدها فلان ٠ لا يقابل المجلس هذه الاشاعة بالاستهجان ، اذ أن هذه العـائلة يمكن بالفعل أن تكون واردة ٠ لكن «أبو سماعين» ينتظر الطعون التى يتوقع تتابعها فى المجلس بطريق غير مباشر ، اذ يبدأ كل واحـد فى المجلس فيقول على سبيل المجاملة أنه لا يمانع فى أن يكون الحاج فلان أو الحاج علان هو العمدة ، بل يسره ذلك فى الواقع ، لكنه ـ فقط ـ يخشى من ٠٠٠ ويبدى بعض التحفظات التى يصفها بأنها بسيطة وهى فى الواقع مطاعن خطيرة فى الشخصية وفى العائلة بأسلوب متحفظ لبق ٠٠

لم تستغرق الجولات أكثر من أسابيع قليلة ، تأكد لـ « أبو سماعين » خلالها أن عمدة من أى من هذه العائلات المرموقة سوف يكون وبالا على البلدة ، سيكون على الأقل استمرارا للوضع الذى كان ، فصحيح أن عائلة فى سخف السوايفة وجلافتهم وغطرستهم وعجرفتهم لم ولن تتواجد مرة اخرى فى بلدتنا ٠٠ ولكنه متأكد الآن أن العمدية تفسد الناس ، فالانسان بغير قوة ، غيره بقوة ، ربما اختـلفت شخصـيته تمـام الاختـلاف ٠ هـكذا كان يردد « أبو سماعين » حين استأنف جولاته بين عموم الناس ومجالسهم

فى الشوارع وفى الدكاكين · كل عائلة من العائلات المرموقة التى طرح اسمها للترشيح للعمدية لم تنج من مطاعن خطيرة ، جمعها « أبو سماعين » فى دماغه من مجالس علية القوم ، ونشرها فى مجالس عموم الناس مطورة بشكل فنى بارع لم أعهد له مثيلا من قبل ولا من بعد ·

فـ «أبو سماعين » فى الواقع ليس يجروء على الطعن فى شخصية أو كفاءة أحد ، بله أن يكون هذا الأحد مرموقا من عائلة مرهوبة الجانب · فماذا يفعل ولديه مطاعن كثيرة يقتنع بخطورتها ويرى الا مفر من تنبيه الناس اليهـا ؟ · اذا به يلجأ الى طريقـة هو وحده الذى يبرع فيها ، حيث تصهلل الأفيونة فى رأسه فيعمـد الى تقليد واحد من عمداء هذه العـائلات ، وكل عمـداء العـائلات معروفون معرفة تامة لدى جميع أهـل البـلدة كبيرا وصـغيرا ، يتقمص « أبو سماعين شخصية واحد منهم فى حالة عمدية ، يتكلم ويتصرف باعتباره العمدة ، ولأنه موهوب فى تقليد الشخصيات ، خبير بالتقاط السمات النفسية والكلامية والخصائص العامة التى تميز الأفراد والأعلام ·· فانه حين يعيد ارسال الشخصية من خلال تقمصها فى لحظة عمدية تمثيلية كان يميت الجالسـين من الضحك ، حتى عائلات هؤلاء العمداء كانوا يضحكون أيضا · فى كل يوم ينبسط « أبو سماعين » ويقلد شخصا عميدا ، وفى كـل مجلس تستعاد هذه التقليدات بعد انصرافه طلبا لمزيد من الضحك ، فلما أخذ الضـحك غايتـه بقيت فى أذهان القوم تلك التجسـيدات الكاريكاتورية الخطيرة التى رسمها وجسدها « أبو سماعين » فى صيغة مزاح برىء · بقيت فى الأذهان وثيقة فنية تؤكد أن كل هذه الوجوه المطروحة للعمدية سوف تكون عذابا آخر لا يقل عن عذاب السوايفة وان اختلفت مظاهره ، وأن كل العالائت المرشحة للعمدية

لن يضمن أحد حيدتها الكاملة بحكم ماالديها من نوازع خفية سلطوية متطرفة كشف عنها « أبو سماعين » بصنعة لطافة ٠٠

ثم ان العائلات بدأت تدعوا لانتخابها صراحة ، فاذا بالنوازع الشريرة التى كانت خفية فيما مضى تتصادم فى الحال ، واذا بكل العائلات المرموقة تبدو وكأنها تزمع القضاء نهائيا على بعضها البعض ٠فبدلا من أن تقدم كل عائلة مبررات قوية تدعم ترشيحها ، انشغلت فى تجريح العائلة الأخرى وتسوىء سمعتها ، واستدعاء ـ أو ربما اختلاق ـ أحداث تاريخية قديمة تنقص من قدر العائلة المنافسة وتحرمها من حق الترشيح للعمدية ، حتى ضجت المديرية وضج الحكمدار بل ضجت العاصمة نفسها من هذا اللغط الشديد ، وكادت البلدة تفقد سمعتها ، وكادت عائلة السوايفة تصعد على سطح الماء العكر من جديد لتثبت قدرتها على شكم هؤلاء الرعاع !٠٠

فى قمة هذا اللغط استأنف « أبو سماعين »جولاته بين عموم الناس حاملا رسالة أخرى لا يدريها أحد ٠ أنا وحدى الذى لاحظ ما يهدف اليه « أبو سماعين » من هذه الحكايات والطرائف الجديدة التى بدأ يحكيها فى كل مجلس بطرائق مختلفة ، تدور كلها حول طيبة قلب « الحاج مصطفى الحداد » ٠ يحكى الكثير من نوادره التى يطرب لها الناس ويحبونها ٠٠

للحاج « مصطفى الحداد » نوادر كثيرة مشهورة بين أهل البلدة ولكن « أبو سماعين » يخترع من دماغه نوادر أخرى أكثر طرافة ، يخلعها على « الحاج مصطفى الحداد » ، اذا تأملها السامع ـ ولابد أن يتأملها لطرافتها ـ يتضح له من خلالها كيف أن « الحاج مصطفى الحداد » هذا رجل شهم شجاع ، وحقانى ، يحب العدل، يحب الناس وتحبه الناس، اذ هو رجل ضحوك يجمع بين

الوقار وخفة الظل ، بين الجد والأريحية • وهكذا بدا كأن النـاس قد تذكروا « الحاج مصطفى الحداد » فجأة ، اذ تـ فجأة أيضا ـ قد صار له كل ذلك الحضور القوى بين الناس فى كل مجالسهم ، وبدأ يتحول من رمز للضحك والسخرية الوقـورة الى شيء أكبر من هـذا بكثيـــر ••

ينحدر « الحاج مصطفى الحداد » من صلب أب تركى الجد وأم مصرية الجد فلاحة ، يدعى « سميح أفندى شوكت » ، كان يعمل سمسارا لجلب الأقطان من مزارعى بلدتنا لحساب التجار الكبار نظير عمولات كبيرة لقاء خبرته بأنواع الأقطان ومعرفته المباشرة بالمزارعين ، ورغم أنه لم يكن من بلدتنا فانه كان معروفا فيها وفيما حولها من بلدان كأنه أحد أبناء المنطقة • كان نصف فلاح ونصف أفندى ، نصف الفلاح الذى فيه يتعامل بخبرة جيدة مع الفلاحين، ونصف الأفندى الذى فيه يتعامل بخبرة جيدة مع التجار والمقاولين ، غير أن النصف فيه كان كلا متكاملا • لم يكن له ثمة من أقارب الا أخت متزوجة فى الاسكندرية وأخ يعمل فى استانبول • فى العقد الأخير من عمره تزوج من بلدتنا ، بنتا صغيرة من عائلة كانت ذات يوم ميسورة ثم انقرضت ، وبها أصبح واحد من بلدتنا ، فابتنى بيتا من الأسمنت المسلح نصفه قصر ونصفه دار فـلاحية ، أما نصف القصر فلاستقبال الضيوف ذو شرفات فخيمة عالية ، وأما بقيته الداخلية فحظيرة للمواشى وحجرات للحريم والطيور وخـزين الدار • وقد أنجب « سميح أفندى شوكت » من هـذه الزيجة بنتين توقفت زوجته عن الخلفة بعدهما سنوات طويلة • « بدر البدور » و « ستوتة » كانتا جميلتين فيهما دم تركى يونانى يجرى فى ملامح وجه مصرى لونه أقرب الى النحاس الأحمر • كانتا فضلا عن ذلك جذابتين ، لهذا كان لهما فضل كبير على « سميح أفندى شوكت »

ان بهما وحدهما توطدت أركانه فى البلدة نهائيا وصار من أعلامها المبرزين ، حيث تزوجت « بدر البدور » من شاب نرى أصبح فيما بعد عميد عائلة الزعالكة ، وتزوجت « ستوتة » من شـاب ثرى آخر أصبح فيما بعد عميد عائلة العقالوة ‥ فاتسعت تجارة « سميح أفندى شوكت » وضوعفت أملاكه فى البلدة ‥

لكن زوجته بعد واحد وعشرين عاما حملت من جديد فكان لذلك احتفال عظيم ، وأنجبت له « مصطفى » ٠ منذ لحظة ميلاده وخلال جميع الاحتفالات بأعياده الأولى كان أبوه وكل فرد من العائلتين المصاهرتين ، ليس فقط يتوقع بل يتأكد أن « مصطفى » سوف يكون ولدا نجيبا دون شك ، سيدخل مدرسة الحقوق لابد ، ويتخرج محاميا أو وكيل نيابة ، وقد يغدو سياسيا كبيرا باذن الله ، فما الذى يمكن أن يعطلـه عن ذلك ؟ أبوه أفندى ذكى ، والأموال موجودة للصرف عليه بدون حساب فى أى من فرنسا أو لندن أو ما أشبه من بلاد بره التى يذهب اليها اولاد الذوات يتعلمون ٠ على أن « مصطفى خيب ظن الجميع وخاصة أبيه ، فلم يحتفظ له بأى أمل طاف بخياله ، حتى اسمه لم يحتفظ به « مصـطفى » ، قضى حتى على طموح أبيه الطبيعى فى أن يردد الناس اسم « مصطفى سميح شوكت » مصحوبا بهالة النجار أو حتى بدون نجـاح ٠ أصبحوا لا يعرفون الا أسم « مصطفى النجار » ، وتراجع اسم « سميح شوكت » عن الألسنة تماما الا فى شهادات الميلاد والأوراق الرسمية الصامتة ‥

ذلك أن «مصطفى سميح شوكت» حقق فشلا عظيما فى الدراسة من أول سنة دراسية ٠ فلقد تعود على أن تجاب له جميـع طلباته قبل أن يطلبها ٠ فتح عينيه على التمييز الواضح كأنه الطفل الوحيد فى العالم ، عربة يد تنقله من السرير الى الرضعة ، السرير نفسه عربة متنقلة ، حجرة خاصة ، ملابس خاصة جىء بها من بلاد بره ،

عائلتان كبيرتان تتنافسان فى حبــه وتهنيئـه وتقــديم الهدايا له٠ تنقلب الدنيا بهم اذا ارتفعت درجة حرارته أو أصابه زكام ، يجىء أكثر من طبيب من المديرية نفسها ٠ حيل بينه وبين شوارع البلدة الا مخفورا بحرس ومحاطا بالعناية خوفا من غبار الطريق ٠ دخـل مدرسة البلدة سنة واحدة كانت « الكارتة » توصله كل يوم يجرها جوادان ، تنتظره لتعود به ، كثيرا ما يزوره الطبيب فى المدرسة ليفحصه بسرعة ٠ انتقل الى المدرسة الابتدائية فى المدينة ، الأسرة تنتقل معه ، أبوه وأمه يستأجران بيتا فى المدينة ثابتا ، لا بأس من شرائه ليكون مقرا للأسرة طوال سنوات تعليم الولد حتى الشهادة الابتدائية وحتى يلتحق بمدرسة الحقوق أو الطب أو المهندسخانة ٠٠

التوصيات والدروس الخصوصية المتوالية ، النقود والهدايا التى ينفقها أبوه على طاقم التدريس ، كل ذلك لم تنجح فى تنوير مخ « مصطفى » أو تأهيله لمواصلة التعليم بيسر وسهولة بعد أن كان قد تعود على أن يجيئه كل شىء جاهزا ، وعلى ألا يبذل جهدا على الاطلاق فى تحصيل أى شىء ، حتى مذاكرة الدروس وهى جهد فردى كانوا يأتونه بمن يذاكرها له من أولاد كبار ومدرسين ! ٠ وهكذا مكث « مصطفى سميح شــوكت » فى المدرســة الابتدائية سنوات مضاعفة ، اما ليقظة ضمير الامتحان واللجان واما لانعدامه تماما بغية تطويل وقت الاستفادة من وراء هذا التلميذ « اللقطة » ٠ فلما حصل على الشهادة الابتدائية بشق النفس كانت سنه قد تجاوزت القبول فى مدرسة أخرى ، وكان هو نفسه قد مل التعليم وطلب التوقف عند هذا الحد ٠ لكن أباه ــ ومن ورائه الأصهار ــ أصر على أن يكمل الدراسة بأى شكل ولو ليتعلم مهنة تكون فى يديه عند الشدة لاقدر الله ٠٠ فالحقوه بمدرسة الصنايع فى مدينة دمنهور ، فأسوأ شىء فى بلدتنا أن يعود الابن بعد سنوات الدراسة خائبا دون وظيفة فى « الميرى » ٠ ولم يكن فى الأرض وظيفة يمكن

أن يستفيد منها « مصطفى سميح شوكت » بالمرتب الذى يكفيه لانفاق اسبوع واحد ، كذلك لم يكن فى الأرض ثمة وظيفة يمكن أن تستفيد من « مصطفى سميح شوكت » ، فهو تقريبا ليس يصلح لأى شيء سوى أن يجلس فوق الكنبة المنجدة متربعا ليأمر وينهى فى رهط التملية ‥ مع أن شيئا ما فى وجهه وعينيه وسلوكه بوجه عام كان يتناقض مع مظهر الخشونة والأمر والنهى ! ‥

مع ذلك لعبت الوساطة دورا كبيرا فى توظيفه فور تخرجه من مدرسة الصنايع · هذه الوساطة لم تكن سوى أبى ، الذى كـان انذاك موظفا كبيرا فى مصلحة الفنارات بالاسكندرية أيام كانت عائلتنا ـ الكلافين ـ فى صدر العائلات المرموقة فى البلدة ، على حس جدى بطبيعة الحال ، وقبل أن تخطف المنية رجالها الكبار ـ واحدا وراء الآخر ، وكانت موشكة على الانقراض لولا أن أحيل أبى الى التقاعد فجاء الى البلدة ليصبح عميد العائلة ويغذيها بعدة شبان من نتاجه ونتاج أبناء اخوته ، ويعيد لها كيانها المرموق من جديد ولكن بدون عزوة أو قوة حقيقية ‥ كللت جهود ابى بالنجاح فى تعيين « مصطفى سميح شوكت » فى وظيفة براد فى الترسانة البحرية بالاســـكندرية · وظيفــة صـغيرة أى نعم ولكنهـــا فى الاسكندرية ، وفى الترسانة ، اسمان لهما فى بلدتنا شنة ورنة ، خاصة عند حضور « مصطفى أفندى » الى البلدة فى أجازة قصيرة ومعاودة السفر بالركائب يجرى خلفها التملية بأحمـال الحقائب والخزين · وتتويجا للوظيفة ، وليحفظ الأب لابنه شبابه ومستقبله فى الغربة قام بتزويجه من أحدى بنات البكاروة الشقراوات حيث انتقلت معه الى الاسكندرية فى زفة مهيبة ‥

غير أن « مصطفى سميح شوكت » الذى تعود على الأمر والنهى ما لبث أن ضاق بقيود الوظيفة وتحكم الرؤساء فيه فى حين أنهم ـ فى نظره ـ ربما كانوا أبناء غسالات فى المدينة لا يصلحن·

خدما له · حتى العيش فى الاسكندرية نفســـــها ــ وهى عروس البلاد ــ ضاق به « مصطفى » لما فى شخصيته من طبيعة فلاحية صرفة غرسها فيه أخواله ، ثم أنه لم يكن يطيق لبس البدلة أكثر من ساعات معدودة فما بالك والمطلوب أن يلبس ما يسمى بالعفريته الزرقاء · تجمع كل هذا الضيق لينطلق دفعة واحدة فى لحظــة مجنونة على شدة بساطتها : كان المهندس الكبير قد كلفه بخرط « جلبــة مســتديرة تســتخدم كتخشــينة لموضــع ما فى ماكينــة احــدى الســفن التى يتم بنــاؤها داخــل البحر ، على أن تكون نموذجا يتم عليه خرط الكثير منها · وقد خرطهــا « مصطفى » بالفعل ولكنها لم تجىء مضبوطة تماما ، فطلب منه المهندس الكثير أن يبردها قليلا فى مناطق معينة ويعود بها · فكان عليــه أن يهبــط الى الدور الأرضى حيث الورشــة ، عبــر سلالم حــديدية حلزونية مزيتة · وقد فعل ، ثم صــعد بها ثانيــة للمهندس الكبير قائلا : « كويس كده ؟ » · فقاسها المهندس الكبير فوجدها محتاجة لقليل من البرد الهين · فنزل الى الورشة فبردها جيدا ثم صعد ثالثه قائلا للمهندس الكبير : « كويس كده » ؟ فقاسها المهندس الكبير فوجدها مضبوطة تماما لكنها فى حاجة الى تنعيم ، فقال « لسه شوية تنعيم « فاذا بـ » « مصطفى » يطوح بالجلبة فى عرض البحر قائلا : « طب كويس كده ؟! » وحينئذ نظر اليه المهندس الكبير برضاء كبير قائلا : « جدا جدا ·· كده كويس قوى قوى » · ولم يكن « مصطفى » فى حاجة الى تقديم استقالة أو أمر بالفصل ·· فنزل من حجرة المهندس ليخلع العفريتة ويرمي بها خارجا من الترسانة الى غير رجعة ·

أقام فى البلدة شهورا لا يدرى ماذا يفعل · وكمحاولة لتغطية الفشل وستر الوجه أمام البلدة قرر « مصطفى » أن يفتح فى البلدة ورشة حدادة مجهزة بأحدث العدد والأدوات · لم يفكر طبعا فى

العمل الذى يمكن أن يغذى ورشة كهذه فى بلدة كبلدتنا ، لكن الحماس خيل له أن العمل سينهال على الورشة من تجهيز ساقية الى صنع منجل للحصاد · أمده أبوه بالمال اللازم واقيم للورشة بناء فى وسط البلدة تماما كأنها عنبر فى مستشفى ، وجىء بصبيان يتعلمون فيها ويخدمون ، خصص منهم ولد لجذب يد الكير عند النفخ لتوليع النار حيث يظل الولد يشد يد الكير ويتركها تصعد ثم يشدها حتى ينخلع ذراعه · وقرىء على عتبتها القرآن ، وعند المساء رقص وغنى وتبذل محترفون من « عزبة العبيد » · ثم أنها بقيت مفتوحة الأبواب يجلس « مصطفى أفندى » على بابها خلف مكتب أنيق ينتظر فيض الكريم · مر يوم ويومان ثم جاءه فى الصباح فلاح يمسك بقضيب من الحديد طويل ، قدمه لمصطفى أفندى قائلا : « عايزينك ترجم دى منجل ! » ، أى أن يحول هذا القضيب الى منجل للحصاد · هز « مصطفى أفندى » رأسه فى رضاء وامتثال لأمر الله قائلا فى أريحية : « استفتاحك ندى باذن الله ·· وماله ·· شغل الكور يا ولد » · ونشط الولد فى الحال ليثبت جدارته بالعمل فملأ الكير بالفحم وأشعله · وقدم الفلاح « واحد بأربعة » ـ أى نصف افرنك من الفضة الخالصة قوامها أربعة تعريفات بعشرين مليما ـ فنحاه « مصطفى أفندى جانبا » برفق كأنما أمر الأجر غير وارد فى شغله ، فتركها له الفلاح على سطح المكتب وانصرف ليعود بعد صلاة العصر ليأخذ المنجل · خلع « مصطفى » ثيابه استعدادا للعرق فى العمل ، ودفع بقضيب الحديد الى النار المتوهجة مثل جهنم ، وتركه وجلس يقرأ الجرنان لمدة ساعتين ، فقام وجذبه من طرفه الحر بالكلابات ، وضعه فوق السندان ، وجعل يدق بالمرزبة بغية أن يثنيه أولا على شكل نصف قطر الدائرة تنزلق منهم قطعة سرحة تمسكها اليد ، ثم بعد ذلك يبططه تماما ، وبالمبرد الكبير ـ وربما بمجموعة مبارد ـ يشق له أسنانا مدببة ··

علم ولدا كيف يمسك بطرف القضيب بالكلابات بقبضة حديدية ، وولدا آخر كيف يهوى بالمرزبة فوق القضيب ، وليس على « مصطفى أفندى » سوى أن يحدد للقضيب موضعه على السندان وللولد موقع الضربة فوقه ، وله أن يهوى بقبضة حديدية لو أراد فوق دماغ هذا الولد اذا لم يحكم هو الضرب جيدا ..

القضيب اللعين جامد لا يستجيب لطرق حتى تصبب الولد عرقا . أمر « مصطفى » فأدخله النار ثانية ، ورجع الى الجرنان مدة ساعة أو أكثر ، وأمر فأخرج الولد القضيب وقد صار عامودا من اللهب الأحمر الشفاف . هب ، راح الولد يطرق ، ثم يترك ، ويطرق والقضيب اللعين لا يزداد الا رسوخا واباء واستعصاء على الانثناء . بصبر مشكوك فيه أمر بادخال القضيب الى النار ثالثة ، وانصرف الى تناول الغداء وصلاة الظهر ، ثم عاد موقنا أن القضيب زمانه باش فى النار وذاب ، ألقى عليه نظرة داخل اللهب المصفوع بالريح يدفعه الكير بآخر ما فى طوق الصبى المسكين من نفس ، ولم يكن يظهر للقضيب وجود داخل دائرة اللهب ، فيما عدا طرفه الحر خارج النار ، وهو قطعة لا تزيد عن طول مسطرة ، حاول مصطفى أن يتبعها ليقف على امتدادها داخل اللهب فلم يفلح ، أمسك الطرف بالكلابات ورفعه قليلا فانهارت كومة اللهب تحت صعود عامود من اللهب كان كامنا فى الأعماق جزء لا يتجزأ منها ، ونظر الى جوال الفحم فوجده قد فرغ تماما فقال الحمد لله على هذا بارك الله فيما رزق ، ثم أمر فسحب الولد القضيب وقد فقد هويته تماما وتجنس بجنسية النار ، ثم أمر فبدأ الولد الدق بالمرزبة فوق القضيب ، بكل غيظ وحقد راح الولد يطرق ، مستنجدا بقوة الله وقوى الأولياء جميعا من الدسوقى الى سيدى « مطرف » راح يطرق ، و « مصطفى أفندى » يراقب القضيب والطارق فى تأمل عميق أسيف غاية الأسف ، يهز يده بجوار رأسه قائلا فى

تمخول : « من المؤكـد أن هـذا القضيب كان كـل هذا الوقت فى الجبه لا فى النار ! » ، ثم اذا به يوقف الولد عن الطرق ويبصق فوق القضيب بصقة جمع فيها كل احتقار وغضب وسخريه صائحا : « اتفو ·· ديك أمك ·· على الطلاق لو أننى لبسته فى مؤخرتى لانثنى ! » ، وشاط الهوا بحذائه ، وارتدى ثيـابه وانصرف الى المسجد يصلى العصر ، وتكاسل عن الذهاب الى الورشة فاتجه الى البيت موحيا أن وعكة ألمت به ، فدخلت زوجته وراءه الحجرة فظل يجامعها ثلاثة أيام متصلة بحجة أنه مريض تخرج زوجته خلالها لحظات تفعل شيئا لتعود · ثم أن الورشة قد فشلت بالطبع وأغلقت أبوابها أياما طويلة ثم بيعت معداتها لنفس التاجرالذى باعها لهم فى المدينـة ، لكن هذه النـادرة لم تمت أبـدا ، ظلت محفورة فى الأذهان بين كثير من نوادر « مصطفى سميح شوكت » الذى بات اسمه منذ ذلك التاريخ « مصطفى الحداد » · ثم مالبث الأب أن مات غيظا وكمدا ، وبقي « مصطفى الحداد » وحده قيما على هذا البيت وهذه الممتلـكات ، فراح ينميهـا عن طريق البيع والشراء والسمسرة ولكن فى بيع أشياء ثمينة كالجواهر والمشغولات الفضية والذهبية والتحف الثمينة جدا ·· وعاش كواحد من الأعيان ، يرتدى الجلباب النظيف ذى القماشـة الثمينة والطربوش الأحمر القانى ، ويمسك العصا الأبنوس ذات المقبض المشغول على هيئة فنية ثمينة مطعمة بالأصداف والفضة والذهب ، وعند السفر يرتدى البالطو الجبردين الفاخر فوق الجلباب الصوفى ، والعباءة الجوخ المعتبر على كتفه ··

طويلا كان مثل نخلة · وجهه قريب الشبه الى حد كبير جدا بالمفكر « توفيق الحكيم » الذى نرى صوره فى الجرنان والمجلة ، الشارب الكث المدبب يستقر فوق فمه الواسع الساذج · وجهـه مليء بالتجاعيد التى تبدو كأنها وفرة فى الجلد والملامح تقابلها

وفرة فى الدم · ضيق العينين فى نظراته نزق وطفولة وشرود وخفة ظل ، فى عمق عينيه نظرة ثابتة ، هى على التحديد نظرة طفل خبيث شقى ضبطك متلبسا بفعل المحظور ، تكاد اشعاعاتها تنطلق ممسكة بتلابيبك : « آه ياعفريت ·· وضبطك » · لذلك فان أحدا من الناس لا يستطيع التركيز فى عينيه كثيرا ، والا قاده ذلك الى الاعتراف بأشياء دفينة يتوهم أن « الحاج مصطفى » قد كشفها أو ربما يكون قد علم بها · وكانت هذه النظرة تؤتى بخير ثمارها فى جلسات « الحاج مصطفى » الخاصة بين خلصائه أثناء حديثهم ـ المفضل لديه دائمـا عن أى حديث آخر ـ فى أمور الجنس والمضاجعة ، سيما وأنهم يستخدمون الكثير من الوصفات التى تقوى الباه وتشد العصب ، الا هو بالطبع ، فسمعته الجنسية فوق كل الشبهات ، وطرفه ـ فيما يشاع ـ لا يقل عن نصف طوله المشدود على الدوام · معظمهم من المسنين الشيوخ وكل منهم يزعم أنه بالأمس قطع السمكة وذيلها وفعل ما لا يفعله ثور مطلوق فى حظيرة أبقار ·· فابتدره « الحاج مصطفى قائلا فى هدوء وبساطة ميطنتين بالجدية الرصينة : « عملت كم ؟ » ، فيقول الرجل وقد بدأ يتلجلج : « حوالى أربعا » ، فيركز « الحاج مصطفى الحداد » فيه عينيه ، فيرتبك الرجل أيما ارتباك ، وان هى الا دقـائق معدودة حتى يعترف بالحقيقة ، أما اذا اهتم « الحاج مصطفى الحداد » بالمحاورة فلسوف يتضح أن صاحبهم بات فى حال يرثى لها من العجز والفشل والضياع لكن من مميزات « الحاج مصطفى الحداد » أنه يكتفى بمعرفة حقيقة الأمر فحسب ، غير مبال الى الفضحة وتجريس القوم ··

بفضل نظراته الأزلية هذه عرف كثيرا من الأسرار دون أن يسعى لمعرفتها · الا أنه كالنهر تلقى فيه بالأشياء فيبتلعها لتسقط فى القاع الى الأبد · كثيرا ما تعارك بعض النـاس مع « الحاج

مصطفى الحداد » لسبب أو لآخر ، فكانت تركيبهم العصبية لأسباب تبدو تافهة غير مفهومة ! · « الحاج مصطفى » وجده هو الذى يكون ملما بشىء من أسبابها ، لهذا لا ينى يوحى لخصمه المتعارك ضاحكا فى صفاء وأبوة حانية بأنه لن يشى بأى شىء مما يعرفه ، هذا اذا كانت الأسرار التى يعرفها عن خصمه تافهة وبسيطة ومضحكة ، أما ان كانت كبيرة يترتب عليها قطع رءوس فانه لن يتذكرها على الاطلاق ، لكنه كان يضطر الى الصياح فى خصـــمه كلما أفرط الخصم فى اللجاجة ، قائلا فى حنو : « أنت يا جدع انت خايف منى كده ليه هو أنا باقطع رقابى ؟ » ، أو يلف على المجالس أو قعدات الأصدقاء ليقول بين لحظة وأخرى فى ألم حقيقى : « ياخواتى الواد فلان الفلانى ده حامل على حملة شديدة قوى ما اعرفش ليه ·· زى ما أكون قتلت له قتيل ! » ··

أشياء كثيرة جدا ظهرت فى شخصية « الحاج مصـــطفى الحداد » بعد موت أبيه لم يكن أحد يتوقعها على الاطلاق · منهـا مثلا أنه أصبح رجلا ملء هدومه ذا مهابة مخيفة لأول وهلة لولا نظرة عينيه · واذا كانت الأجيال الكبيـــرة تحكى لنا عن ماضيه باعتباره فاشلا فى الدراسة ، غليظ الذهن ، فان « الحاج مصطفى » الذى عرفناه فى طفولتنا فى الأربعينات كان يتناقض تماما مع ذلك · فلقد فتحنا أعيننا عليه رجلا حلو المعشر يتسابق كبـــار البلدة فى الحصول على وده وصداقته ، حتى أن أى مجلس من مجالس البلدة يعتبر ناقصا اذا غاب عنه « الحاج مصطفى الحداد » ، ولســوف يحس بذلك الجالسون من أول وهلة وعلى طول وقت الغياب ، حيث يبدو المجلس جهما فارغا من المحتوى المفيد ، يبدو كذلك مطفأ كأن الجالسين فيه ــ وهم علية القوم دون منازع ــ اناس عاديون بل أقل من عاديين مهما لبسوا فاخر الثياب وأمسكوا بثمين العصى وفاحت من ريحهم أطيب العطور · أما اذا كان « الحاج مصطفى » موجودا ،

فانه يضفى على القوم أبهة بمنظره الذى يقنعك أن الأبهة عنصر أصيل فى خلقه ، وأن وجهه وشعر رأسه وشاربه وكل شىء فيـــه تفصيل من تفاصيل الأبهة والباشوية • ورغم أنه يرتدى الجلبـاب البلدى مثلهم ولا يزيد عنهم فى أى شىء من ناحية اللبس والمظهر ، فان سلوكه يتميز عنهم جميعا بالرقة ، وحسن التربية ، والمدنيـة والتحضر ، ويقال أن الذى غرس فيه هذه المدنية وجعلها سلوكا اختلاطه بالأسر الارستقراطية الكبيرة التى كان أبوه يصطحبه اليهـا عند الزيارات الكثيـــرة ، فكان يقضى معهـــم معظم الاجـــازات الصيفية •

حيث يتواجد « الحاج مصطفى الحـــداد » في مجلس فان الضحكات ترتفع على الدوام ، لكنها ضـــحكات وقورة مبهجة يشوبها قليل من النزق الطفولى • فان بحثت فى سبب الضـــحك وجدته مفارقة اكتشفها « الحاج مصـــطفى » بعمق تأمله ونظرته الثاقبة • وحيث يتواجد أيضا فان المجلس لابد أن يتسع ليشـــغل حارة بأكملها أمام بيت الزعالكة أو ناصية كبيرة عند بيت العقالوة، أو حتى عنـــد دكان « مهيـا » فى قلب الخمـــارة حيث عائلـــة « أبو سيف » • نفسها كانت تستثنى « الحاج مصطفى الحداد » من خلافاتها مع البلدة • فهو وحده دون كبار القوم فى البلدة حين يمر من شوارع السوايفة فانه يلقى السلام على كل من هب ودب ، فيتلقى ردودا عظيمة مناسبة ، تنهال خلفه الدعوات بأن يتفضـل الشاى • حتى نسوان السوايفة اللاتى لا يتحشمن أبدا يتحشـمن حين يرونه تحشما زائفا ويصحن فى قليل من الأدب : « اتفضـل يا خال مصطفى » ، وهو لا ينى يردد أثناء سيره كالأهبل فى الزفة: « أهلا أهلا •• تشكر تشكر •• ربنا يخليـــك •• ربنا يكرمك •• الــخ » ••

يتسع المجلس ليس فقط حبا فى نكات « الحــــاج مصطفى »

وقفشاته بل طمعا فى أن يكون محض خير ـ مثلما هـو دائما ـ فى مشكلة لديهم ، يتعشمون فى التسلل بين ثنـايا الحديث الرحيب لاثارتها ، لكى يتحفهم « الحاج مصطفى » بكلمة تسهل كل عسـير من أمرهم ، أو تصلح بين متخاصمين ، ذلك أن أحدا لن يجرؤ على رفض طلب للحاج مصطفى أو كلمة يقولها • الحق أنه كثيرا ما يثبت كرامات جليلة فى مثل هذه الأمور ، بل انه كثيرا ما صـالح رجلا على امرأته ، أو ردها وهى طالق ، من المألوف أن يلتقطـه أحدهم أو احداهن من الشارع ، لابد من شرب الشاى ، مع الشاى تطرح عليه تفاصيل الأزمة الواقعة بين زوجين ، لا يتورع عن توبيخ الزوج وشتمه ان كان هو المخطىء ، واتهـامه بأنه خنزير أعمى العين ، كذلك لا يتورع عن الشخط فى الزوجة وهز العصا العوجاية فى وجههـا ان كانت هى المخطئـة ، قـد ينقر بطـرف العصا فوق رأسها برفق بغية تنبيهها الى خطورة ما سيقول ، ليس فى الأمر أخطر من دلع النسوان فى مثل هذه الأيام السـوداء حيث العالم كله فى حرب وكساد ، وحيث يقل عدد الرجال بعد مـوت معظمهم فى الحروب ، وغدا سوف تصبح كل خمس نساء بقـرش تعريفة ، ثم ينثنى فيلف سيجارة ، وكنوع من الاعتـذار للزوجة يروح يطرى جمالها للزوج ، وكيف أنها خسارة فى جتته ••

يسمح للحاج « مصطفى الحداد » بكل ذلك لثقتهم الشديدة فى طهارة ذيله • هم مع ذلك يثقون أيضا أن «الحاج مصطفى الحداد» يموت فى النسوان ، وهو لهذا متصابى دائما • فرغم بلوغه سن الستين منذ أعوام طويلة فانه متين البنيان رائق الوجه والبـال • مزواج ، وهذه فضيلة فيه يراها القوم ، اذ أنه لشدة ايمانه وخوفه من الله وحجه سبع مرات يخشى الزنا ولا يسعى اليه ، لذلك فانه سريعا ما يتزوج ممن تروق له ، فان تزوجها لا يفرط فيها أو فى حقوقها بأى درجة ، يظل يحبها ويخلص لها وينفق عليها ويزورها

بين ليلة وأخرى وربما بين ساعة وأخرى ، ومهما كانت الزوجة الجديدة مثيرة فانها لا تشغله عن القديمة ولا تأخذه منها أبدا ، فمن فات قديمه تاه . زوجته الأولى توفيت ، وكانت قد أنجبت له رجلا كبيرا وثلاث بنات ، تزوجوا جميعا وأنجبــوا .. ولم يكن يزعج « الحاج مصطفى » شيء فى الدنيا قدر انزعاجه من ظهور ابنـــه الكبير « محمد » فجأة ، ما أن يراه حتى يشعر بقليل من الانقباض، فابنه « محمد » كبير جدا ، صار جدا ، وبات منظـــره من الكبر والشقاء أكبر سنا من أبيه « الحاج مصطفى الحداد » ، وكان يعمل هو وأولاده فى مهنة النسيج بالأنوال اليدوية ، فأضافت هذه المهنة الى سنه الكبير انحناء كبيرا فى الظهــر حتى ليبدو كأنه بقتب ، شعره أبيض محروق ورأسه صلعاء من الوسط تبدو كرأس ميت لولا أن عينين تدوران فى محجريهما بسرعة فى وجهه الأصفر المستطيل المجهـــد ..

« الحاج مصطفى » لم يطق أن يهدده الانقباض والانزعاج كلما قابل ابنه فى الشارع ، حيث يتعين على الابن أن يحيى أباه قائلا : « ازيك يا آبا » ، ويسلم عليه ويقبل يديه ، فيتصادف أن يراه الناس فيندهشون أن هذا الرجل المشدود الحيل هو أب لذلك الكهل المتهالك . ورغم أنهم يعرفون ذلك من قديم الأزل فانهم يندهشـــون فى كل مرة يسمعون فيها « محمد مصطفى » ينـــادى أباه قائلا : « يا آبا » ، كأنهم يكتشفون هذه الحقيقة لأول مرة فما كان من « الحاج مصطفى » الا أن استدعى ابنه ذات يوم فى فراندة البيت وشخط فيه قائلا : « اسمع يا ولد يا ابن الكلب انت .. لو شفتنى فى أى حتة وقلت لى يا أبا حاهزأك واخرب بيتك .. فاهم ولا لأ ؟»، فهز « محمد » رأسه فى امتثال قائلا : « حاضر يا آبا » ، ومن يومها صار كلما التقى أباه فى الشارع صاح بصوت عال : « مساء الخير يا سى مصـــطفى » . وقد أضيفت هذه أيضا الى نوادر «الحاج مصطفى » ..

وعلى الرغم من أن فى داره ثلاث زوجات بعد التى توفيت فانه سافر ذات يوم الى الاسكندرية يزور أولاد احدى عمـــاته ، فاكتشف هناك عروسا غاية فى الجمال ، فتزوجها على الفور ، وجاء بها الى البلدة فى زفة كأى شاب صغير رغم أنها كانت فى سـن أحفاده • وقد أنجبت له زوجاته الثلاث عددا من الأولاد ذكـورا واناثا امتلأت بهم الدار والدار الأخرى التى ابتناها فى عمق الدار القديمة ، ثم جاءت السكندرية فأعطته خمسة أولاد جدد ، حتى بات لا يستطيع التمييز بين أولاده ، واذا لم يسعفه الولد بذكـر اسمه فانه قد ينساه • وكل أبناء زوجاته الثلاث كانوا يتعلمون فك الخط فحسب ، لينزلوا بعد ذلك الى الشغل وما أكثره لدى «الحاج مصطفى» ، فهناك ماكينة الطحين التى اقتناها فى المدخـل الشرقى للبلدة ، وهناك مزرعة للدواجن على مقربة من الماكينة ، وهنـــاك الأرض الزراعية الواسعة المحتاجة للفلاحة ، أما أبناؤه من الزوجة السكندرية فقد تعلموا جميعا فى المدارس الابتـــدائية وما زالوا يواصلون التعليم فى بعض المعاهد العليا ••

فجأة طغت شخصية « الحاج مصطفى الحداد » على سـطح الأحداث فى بلدتنا وأصبح لها حضور غير طبيعى • لقد نجح «أبو سماعين» فى جعل اسمه يتردد فى معظم المجالس دفعة واحدة • كل ينشغل بمجموعة من نوادر « الحاج مصطفى » الضـــاحكة ، أو الساعية الى ايجاد موقف عادل ••

فوق هذه الأرض بدأ « أبو سماعين » يسعى بين الناس باشاعة مؤداها أن « الحاج مصطفى الحداد » قد رشح للعمدية ، فبـدأت بعض العائلات تدس فى حقه بعض الدسائس خوفا من أنه لو أمسك العمدية فسوف لن يعرف أباه اذا ما أخطأ أبوه ، فى حين أن هذه العائلات تريد شرابة خرج تســتخدمها متى شاءت فى حمـاية مصالحها الخاصة ، وأنتم تعرفون ـ هكذا يقول « أبو سماعين » ـ

أن « الحاج مصطفى » موته وسمه أن يستخدمه أحد أو أن يوالس على أحد ·· فاذا بهذه الاشاعة المختلقة من أساسها تقابل بحماس شديد من جانب عامة أهل البلدة وهم نسبة كبيرة جدا ··

وفى يوم ذهب « أبو سماعين » مبسوطا فوق العادة ، والتقى بالحاج « مصطفى الحداد » فى منزله على انفراد ، وجره فى الحديث حتى تساءل « الحاج مصطفى » عن هذه الاشاعة التى يتناقلها الناس· فقال له «أبو سماعين» ان ألسنة الناس اقلام الحق، وأن سر هذه الاشاعة أن شعب البلدة يرشحه للعمدية بطريق غير مباشر نظرا لحبهم له واقتناعهم بشخصيته والتأكد من أنه سيكون أعدل عمدة عرفته البلدة طول حياتها ·· تمعن «الحاج مصطفى الحداد» فى هذا الكلام ولمعت فى عينيه الأحلام ، ولمع كذلك الشعور بالمسئولية ، ثم قال فى تواضع جم أنه شخصيا لم يسع الى هذا المنصب ولم يفكر فيه طول حياته ، وأنه لن يكون سعيدا اذا عينوه عمدة لهذه البلدة الخربانة المغضوب عليها من الله ، ولكن اذا جاءته العمدية فانه لن يملك الا احترامها واكرام وفادتها · هتف « أبو سماعين » من أعماقه : « حلو ·· وهذا هو بيت القصيد » ، ثم لم يزد ··

من غد بدأت جولات « أبو سماعين » مصحوبة هذه المرة ببضع عرائض مبرومة فى سيالته ، ما أن يجلس حتى يخرجها ، ويقرأها على الجالسين ، فاذا هى التماس من أهالى البلدة مقدم لوزير الداخلية وللحكمدار بأن ينزل على رغبتهم ويعين « الحاج مصطفى سميح شوكت » الشهير بـ « مصطفى الحداد » عمدة للبلدة ، حيث أنهم ـ الأهالى ـ قد نظروا فى أمر كل المرشحين فلم يجدوا سواه صالحا للعمدية ، وهو من اختيارهم الصميم ، أدامكم الله ذخرا للعدالة ونصيرا للفقراء والمظلومين · وبعد أن يقرأها يبدأ فى حاشية مالدها أن البلدة بهذا الالتماس تقطع الطريق

على من يدبرون فى الخفاء لاختيار واحد من العائلات المتعجرفة المتغطـــرسة ٠

فى اقل من أسبوع واحد كان « أبو ســماعين » قد جمع كل توقيعات عامه اهل البلدة ولم يبق سوى العائلات الكبيرة ، الذين حين جلس عمداؤها مع « الحاج مصــطفى » فى مجلسهم الخاص أحسوا بشعوره من الحرج لخلو الالتماس من توقيعاتهم ٠ وهؤلاء كان « أبو سماعين » قد ادخر لهم مفاجأة مذهلة ، اذ أنه كان قد لف على عائلة السوايفة وعرض عليهم الالتماس ، وكانوا بدورهم يمسكون قلوبهم بأيديهم خوفا من اختيار عمدة من احدى العائلات الكبيرة يذيعهم سوء العذاب وألوان العسف ، فلما وجدوا « الحاج مصطفى الحداد » مرشحا من قبل البلدة اندهشــوا فى أول الامر لعــدم توقعهم ذلك ، لكنهم وقعــوا بامضــاءاتهم وبصماتهم على الالتمــاس فى ترحيب شـــديد ثــم فى حمــــاس كبير ٠٠ وهكذا لـ « أبو سماعين » أن يقول لهم فى أحد المجالس وهو يلوح بورقة الالتماس : « حتى السوايفة وافقوا » ، ولم يكمل بقيــة العبــارة ، فما كان من عميد الزعالكة ـ وهو صهر للحاج مصطفى الا أن أخذه الحماس المفاجىء متناسيا طموحه الشخصى فى العمدية فقــال : « ازاى الكلام ده يعنى احنا اللى مش موافقين ؟ دا حتى يبقى عيب ٠٠ هات ياولد » ، ثم وقع بامضائه فى أسفله ، وتبعه عميد عائلة العقــالوة ، ثم عائلة النجــار ٠٠ وهكذا أصــبح الالتماس تعبيرا حقيقيا عن رغبــة البلدة كلها دون استثناء ٠ ذهب وفد من أهــل البلدة يضم ناســا محترمين ذوى حيثية فقدموا هــذا الالتماس يدا بيد ٠٠

أسندت العمدية ـ بالاجماع ـ الى الحاج « مصطفى سميح شوكت » الشهير بـــ « مصطفى الحداد » ٠٠ فكان يوم صدور هذا القرار يوم عيد حقيقى لاتنساه ذاكرة بلدتنا أبدا ٠٠

يومها قدر لنا نحن أطفال البلدة - لأول مرة فى حياتنا - أن نرى عمدتنا القديم « محمد عبد المنعم أبو سـيف » وهو يمشى فى الشارع مثل خلق الله ، منتقلا من قصره الى دار الحاج « مصطفى الحداد » لكى يقدم التهنئة نيابة عن السوايفة • كان ضخم الجثة كعملاق من الصلصال المسود عند الجبهة ، غليظ الوجة والملامح • جبهته عريضـة ، مليئـة بالتجاعيد ونـذر الشر ، فى عينيه أنفـة وكبرياء وعلى شفتيه اشمئزاز يجعلهما فى حالة التـواء مستمر على قرف وتقزز • أكرش بصورة مخيفة كانسان الغابة • يرتدى قميصا أفرنجيا وبنطلونا واسعا بحمالات على الكتفين • رأسـه صغير مدبب كرأس الهدهد لكن شعرها أكرت •• يمسك الطربوش قائما فى يده • يتحرك ببطء شديد ، خلفه رهط من التملية والأنفار وأبناء عمومته • لاينظر الى أحد من المارة ، لايلقى السلام على أحد من الجالسين ، بل يبالى بفعل أى شىء •• محنى القامة بفعل الشيخوخة • يرفع اليته وهو ماض ليضرط بصوت عال فى الطريق العام فى وجه أى مخلوق مهما كانت رتبته ! •

وكنا نمشى خلفه ونقلده صائحين بلهجة خنفاء متغطرسة : « ياولـد ياغفير •• ياغفير يابن الكلب •• اتفـوه عليك وعلى أبوك » • فيفرقنا التملية بالخيزرانة ، ونتجمع من جـديد ، حتى وصل الى بيت « الحاج مصطفى الحـداد » ، فظللنا واقفـين فى انتظاره يتزايد عددنا ، الى أن خرج بعد ساعة أو أكثر يعلم الله ماذا دار بينهما خلالها •• فمضينا وراءه من جديد نشيعه بالتقليد الساخر لايوقفنا شتم ولا يردعنا ضرب • فلما شارفنا حى الخمـارة دب الذعر فى أوصالنا فارتدينا الى الخلف مسرعين نجرى خلف بعضنا صائحين مهددين : « ياغفير ياكلب » •

١١ ـ العروة الوثقى

يعم البلدة هدوء منقطع النظير · فترت الخلافات بين أهل البلدة وعائلة السوايفة ثم أخذت تتلاشى · يعود « أبو سماعين » للانشغال بالأفيونة بعد أن يكون قد نسى أمرها طوال انشغاله اللهم الا أن تجيء له من باب الله دون أن يسعى لشرائها · فحيث لا يكون مطلوبا منه مقلبا يدبره أو اشاعة يرددها مستهدفا من ورائها شيئا أو أمرا يسعى اليه تراه يجلس متثائبا في ملل ، ويزحف العماص على عينيه ، ثم يزحف الاكتئاب على صـدره ووجهـه ، فترتعش أغصابه ويبدأ الهرش فى جسده ، وتبدأ عذابات التسول الصريح تنتابه ، ومشكلة الذهاب الى « السيد الشيال » تؤرقنى من جديد · حتى لقد أصبحت أعتقد أن التسول من أجل هذه الأفيونة المقيتة ـ وهو ملمح أصيل فى مظهر أبو سماعين » ـ هو مع ذلك شيء بخيل عليه يمقته مقتا شديدا ، لذلك فهو سريعا ما ينسى أنه تسول منك ، اذ لا يكاد ينبسط حتى يجالسك مجالسة النـد للنـد ، وقد يبادلك الشتم بعين قوية ، فان اضطررت لتذكيره بأنك أحسنت اليه فانه ربما تحول الى حيوان شرس يشبعك تمزيقا وهلهلة · كذلك أصبحت أعتقد أن « أبو سماعين » لا يلجأ الى أكل الأفيونة الا لكى ينظر بهدوء شديد فى أمور جد خطيرة تعنينا كلنا ولكننا لا نرى

منها شيئا فى حين يرى هو منهـا أشـياء ، فكونه يرى أكثـر مما نرى ويفهـم أكثر مما نفهم ويعـرف من الأمـور أكثر مما نعرف ويدبر احسن مما ندبر هذه كلها حقائق لاشك فيهـا ، لكن الذين يعترفون بهذه الحقيقة فى بلدتنا قليلون جدا ربما كان معلمى « سعد الله » على رأسهم ، يليهم أبى وان كان لا يظهر للمرجل ذلك أبدا ، ربما أيضا عمتى الكلافة هى الأخرى على الرغم مما بينهما من عدم استلطاف يكاد يخفى عداوة غامضة غير مفهومة ! وقد لاحظت أنها كثيرا ما تنتهز فرصة وجوده فى دارنا لتطرح موضوعا معينا بهدف أن نعرف رأى « أبو سماعين » فيه ، وبعد أن يفيدها ترسل له لعنة أو لعنتين ! ..

فى وسط هذا الهدوء بدا على معظم أهل البلدة أنهم فرحـون بالعمدة الجديد وباستقرار الأحوال ، الا هو ، سرعان ما زايله الفرح واختفى من مجالس السادة وبدأ يكثر من الجلوس فى دكان معلمى . أقدم له عدة الشاى قائلا له : « ايه رأيك فى العمدة الجديد .. مش الحالة بقيت كويسة دلوقت ؟ » . يشوح بيده مركزا النظر فى عينى هامسا كأنه يدلى بتصريح خطير ، قائلا ان هذا الهدوء الذى شمل البلدة هدوء كاذب ، وأن العمدة القديم كان مستبدا قويا أما العمدة الجديد فقد خيب ظنه واتضح أنه لا يستطيع أن « يمشى كلامه » على العائلات الكبيرة ـ أى لا يملك فرض العدل عليهم ، مما جعلهم يستبدون اسـتبدادا واضـحا .. فاقول له : « ولكن أين هو الأستبداد الذى تقول انه واضح ؟ » فيضحك قائلا أننى لا أستطيع أن أراه ، وأن الكثيرين أيضا لا يستطيعون . ثم أنه يسألنى فجأة : « أمال فين معلمك ؟ » ، فأشير له برأسى نحو كوة مفتوحة فى الحائط على دار معلمى ، فيعرف أن المعلم فى الدار ، فيمتد ذقنه المستطيل الذى يشبه حافظة النقود النسائية ، مغالبا ابتسامة سجينة بين شفتيه ، يشوح فى استخفاف وسخرية

عميقتين : « لسه بيعمل تجاربه الكيماوية على ملح الطعام »؟ •
ذلك ان المعلم « سعد الله » مشغول طول عمره بأمر خطير يسيطر عليه الا وهو اختراع نوع من السماد الكيماوى للأرض ينافس به انتاج شركة « ثابت اخوان » وغيرها من شركات السماد التى أصبحت تصيب الأرض بالعقم بدلا من مساعدتها على الاخصاب ! ••

تصيبنى الدهشة من سخرية « أبو سماعين » من جهود معلمى « سعد الله » ، مع أنه هو الوحيد فى بلدتنا الذى يشجع معلمى على المضى فى هذه الفكرة ، بل هو الوحيد الذى يذهب الى ابعد من ذلك فيخاطب معلمى على أنه مخترع كبير • واذ يرى الدهشة فى عينى يبادرنى بالمزاح • مزاحه معى لا يتجاوز كلمة واحدة ينطقها من بين شفتيه المزمومتين وفى عينيه ما لا أدرى ان كان خبثا أو ذكاء ، تهكما أو استرضاء ، يقول : « ايه أحبار العراوى معاك ؟! » ، ثم يتبعها بضحكته المعهودة التى تجىء هذه المرة مجرد ايقاع صوتى بلا روح ضاحكة حقا : « هو هو هو •• و •• و •• ه » ، فأعرف أنه يصر على استصغار شأنى فى الدكان ، حيث كانت لذلك قصة بدأت يوم جىء بى الى دكان المعلم « سعد الله » وسلمنى أبى له يدا بيد ، اذ نطق المعلم « سعد الله » أول ما نطق : « بتعرف تعمل عراوى ؟ » ، فقلت بسرعة كأننى أدفع عن نفسى تهمة مخجلة : « لا •• باركب زراير بس » ، وكان « أبو سماعين » جالسا وقتها فاندفع يضحك ، وحدجنى المعلم « سعد الله » بنظرات استنكار ثم قال : « ازاى بقى •• أمال كنت بتعمل ايه عند المعلم فرحات •• أقعد اشتغل العراوى دى » ، وأزاح أمامى ثوبا ، فصحت كأننى على وشك البكاء : « والله العظيم ما أعرف أعملها » ، فقرصنى المعلم « سعد الله » من أذنى بقسوة ، فوجدت مبررا للبكاء، فاندفع يصالحنى قائلا أن شغل العراوى فيه فن كبير يجب أن أتعلمه قبل أى شىء فى هذه الصنعة ، فليس يكتمل الثوب بدون

أزرار ، ولابد للأزرار من عراو تدخل فيها ، وعليك أن تشتغل العروة هكذا ٠٠ ثم حدد بالقلم الكوبيا نقطا فى طرف الصديرى متباعدة قليلا ، وبطرف المقص شق فيه ما يوازى عقلة أصبع عند كل علامة ، وبحث فى الدرج عن كستبان صغير يليق بأصبعى فلما وضعه فى بنصرى شعرت بنشوة بالغة ، اذ أحسست بأننى قد صرت صنايعيا بحق يلبس الكستبان ، ثم أنه جاء لى بابرة صغيرة جدا تختلف عن ابرة السراجة التى تقطع غرزا واسعة ، لضمها لى وعقد طرف الخيط بسرعة سحرتنى ، ثم بدأ يخيط أول غرزة فى العروة ليرينى كيف أن غرزة العروة تختلف عن غرزة السراجة وغرزة الأقطنة ، فحين يبرز سن الابرة من مكان الغرزة لأشد الخيط الا بعد أن أمرر الابرة فى الدائرة التى بين الخيط والابرة ، وحين أشد الخيط لابد أن تكون شدة قوية وبرفق فى نفس الوقت ، وأن تتجاور الغرز وتتلاحم حتى لتبدو فى النهاية كأنها خيوط متجاورة منسوجة بالماكينة تحتمل دخول وخروج الزرار فى العروة مدى حياة الثوب ٠

أشهد أننى صرت بعدها أسطى فى شغل العراوى ، وصار معلمى يزعم أن الماكينة ليست بأفضل منى فى اتقان العروة ٠ وفى البداية كان « أبو سماعين » يشجعنى على احتمال شغل العراوى ، الذى كثيرا ما أضيق به من فرط الغرز وكثرتها ، وكان يقول لى : « يا جدع ما تبقاش هلف ٠٠ لازم تفهم أنك بتعمل أهم حاجة فى الثوب ٠٠ دا معلمك ده أصله حمار لمؤاخذة ٠٠ كان الأصول هو اللى يعملها بنفسه ٠٠ لأنها فى وش التوب وعايزة غرزة صنعة مش أى كلام ، وكنت أشعر كأنه يتحدانى ، فأجتهد ، ثم أعرض عليه عراوى ، فيضحك ساخرا ويقول أنها كالدمامل فى وجه الثوب ، ثم يقترح على معلمى أن يبططها بالمكواه كعلاج وحيد ٠ العجيب أنه لم يكن يعبأ بوجود العراوى فى ثوبه ، فقد كان يرتدى ما يشبه الصديرى تحت الجلابيه ، وكان طرفا الصديرى يبرزان من

خلال فتحة الثوب مزورين كل طرف في ناحية بعيدة . وأحيانا يختفى الطرفان تماما ، حتى اذا ما أراد وضع شيء في جيب الصديرى الذى هو تحت الابط مباشرة دب ذراعه من آخرها فى عبه مدة طويلة يبحث عن الجيب · وكنت أظن أن « أبو سماعين » المهتم بمنظر العراوى لا يمكن أن يكون مهملا فى شبك زراير الصديرى فى عراويه ، وعزوت الأمر الى أن الأزرار قد تساقطت اذ أنه ليس ثمة صديرى بدون عراو ، والأزرار فى العادة هى التى تتساقط حين تذوب الخيوط التى تربطها بالثوب · لكننى نظرت من خلال فتحة ثوب « أبو سماعين » فيما هو متقرفص فلمحت طرفى الصديرى المنفصلين : طرف العراوى تحت أبطه الأيسر ، وطرف الأزرار تحت ابطه الأيمن ، كخرقتين لا لزوم لهما على الاطلاق ، ورأيت الأزرار كاملة غير منقوصة · وكان لابد أن أسأل « أبو سماعين » ولو على سبيل المداعبة : لماذا لا يقفل الصديرى طالما أن الأزرار كلها موجودة وفى مقابلها العراوى ؟ · فشوح فى فروغ بال ، فصممت على مشاغبته بالسؤال ، فشوح ثانية بقليل من الانفعال الضاحك : « الصديرى بتاعى ده أصله ما بيتزررش ! » · قلت : « لازم العراوى دايبة هات أضيقها لك » · فقال باسما أن أى أزرار تبيت فى عراويها لابد أن يلتقى الطرفان حول البدن ·· « لكن صديرى عجيب مثل الزمن ·· فطرفاه لا يلتقيان حول شيء أبدا وهكذا صديرى هذا ·· لم يعد قادرا على الالتفاف حول بدنى ·· كان أصيلا ذات يوم ·· اشتريته أيام العز والرخاء بسبعة قروش من أشهر محل فى مدينة دسوق ·· لكن هذا الزمن اللعين ، لا يقبل أن ينافسه شيء أو أحد فى القدم ، بل لا يطيق ، فيحكم على كل شيء أن يقل بأصله ، هكذا حكم على كل ثوب ارتديته ، تحدى البدلة والصديرى الأفرنجى والقميص الأفرنجى والكرافته ، فأحالها على جسدى الى مزق لا يمكن التأليف

بينهما فى صيغة وفاق أبدا أى أن جسدي كان لابد أن يتعرى ، فأدخلته عند التعرى فى جلباب كهذا وصديرى كهذا ٠٠ لكن هذا الصديرى بقي مدة طويلة يمتنع عن تنفيذ حكم الزمن عليه بالرمى فوق كيمان عزبة العلمين ، تهرأ فى البداية من الظهور فرقعته فتهرأت الرقعة فرقعتها فتهرأت أخت لها بجوارها فلممتها ، وهكذا أصبحت ألم الظهر بالمخيط والابرة كلما تيسر لى خيط وابرة ، الى أن ضاق الظهر وحدث الفراق بين الطرفين الى الأبد ، حتى بات من المستحيل أن يلتقى زرار فى عروته ، هذا الصديرى لم يعد سوى هذا الوجه فقط ، المنقسم الى طرفين متباعدين ، وجه من الحرير الشاهى القديم الأصل وها هو ذا لم يتغير لونه أبدا ولم يبهت ٠٠ والأمر يمكن أن يعالج بتجديد الظهر كله حتى تلتقى الأزرار بالعراوى ٠ ولكننى لست أريد أن أقرف أحدا بثوبى الخلق ، اذ لست أطيق أن أتصور خياطا يشمئز من وساخة ثوبى وهو يضطر الى الشغل فيه ! » ٠٠

ولم تفتنى نبرة الحزن الأسيف التى بدت فى صوت [أبو سماعين » ٠ كان يضع فوق أذنه سيجارة مكن جاءته من باب الله ، فقطمها نصفين أعاد نصفا الى أذنه وفك الثانى فى ورقة بافرة ولفها ، ثم أشعلها وسحب منها أنفاسا عميقة ابتلعها ، ثم سرح سرحة طويلة شاردة ، ثم أردف قائلا كأنه يبكى بحرقة مع انه لا يبكى : « الدنيا ثوب قديم نعيد نسجه من جديد ولكنه صائر حتما الى مزق ! » ٠ وأحسست أن دمعة تلمع كقطعة الماس من بعيد جدا فى بقعة مختفية من نن عينه لا نرى منها سوى الاشعاع ، لكن الدمعة كان لها صوت في أنفه حين استطرد : « نفس البنى ادم تذوب هى الأخرى كالثوب ٠٠ ولكن لا تفلح فيها البرقع » ٠ ثم شرد شرودا عميقا وبان عليه أسف شديد ، لعله هم وكدر ٠ ثم اذا

به ينهض فجأة مثلما يحضر فجأة · يلقى بنظرة الى الطريق ، ثم يمضى ··

يختفى أياما طويلة لا يظهر حتى فى عزية العلمين ، يربط الناس بين اختفائه واختفاء « المهدية » من عزبة العبيد ؛ لا يرفض العقلاء هذه الاشاعة لكنهم يضيفون فى تحفظ أنها تحيى أفراحا فى بلاد مجاورة ·· ثم تحبك النكتة فاذا هم يضيفون فى غير تحفظ : « وهو يحييها لكى تحيى الفرح جيدا » ، ثم يضحكون ثم أنهم سرعان ما ينسون ، الا معلمي « سعد الله » فانه لاينسى ، ويكتب على الشقاء فى البحث له عن «أبو سماعين » فى كل الحوارى والمساجد ، تتسلط فكرة البحث على معلمى حتى ليفاجئنى بعد يومين قائلا : ألا يحتمل أن يكون أبو سماعين فى المكان الفلانى ؟ فعلى الفور أقول له : « جايز ·· نشوف » ، ثم أنهض وأذهب الى هناك ، فان لم أجده أعمل بنصيحة معلمى فأسال الناس هناك عن آخر مرة رأوه فيها ، وأن أتسقط أخباره من كل من اقابلهم ! ·

١٢ ـ المعلم سعد الله الترزى

اذ يكون معلمى « سعد الله » متربعـا خلف بنـك التفصـيل الخشبى فوق حشية من أثواب القماش ، فانك ترى أمامك رجـلا ينبىء عن قوام سمهرى مربوب ، حيث يرتفع جذعه الرشيق الى صدر رياضى متين ، بكتفين عريضين جامدين ، ورقبة مسـتطيلة محتشدة بالعروق الصلبة ، ووجه عالى الجبهة ، مفوه الفم ، تنفرج شفتاه المكتنزتان عن ابتسامة مضيئة مهذبة على الدوام : يوقر كل انسان ويخاطبه فى حيـاء ورقة مبطنـة بالرجولة التى لا سبيل الى الشك فيها · يهز ذراعيه الطويلتين أثناء الكلام ، محركا كفيه بأصابعهما المستطيلة فى ايماءات تأكيد تبعث على الثقة المطلقة · لا ينزل عن كلمة قالها لو كلفته رقبته · كريم الى أقصى الحدود · يرى الجوع فى عيون السـابلة والغرباء ويشـم رائحته من بعيد ، فيناديهم من الطريق ، ويزغر للأولاد من خلل الكوة طالبا أكلا ، فتجىء الصينية النحاس عليها أرغفة وقطع من جبن قريش ولفت وطبيخ وربما قطعة لحم أو جناح أوزة ، ولا ينى يردد أن اللقمة الحلال هى التى يكثر حولها الآكلون · ليس لديه مانع من أن يظل الوابور مشتعلا على الدوام يخرط الشاى له ولكل الجالسين دون أن يدفعوا شيئا · عن طيب خاطر يرسـلنى كل برهتين لاشترى شايا وسكرا بخمسة مليمات ، ونصف ربع أوقية

دخان لف بعشرة مليمات • سيجارته في رفع عـود الكبريت لكنه يعطيك علبته الصفيح الأنيقة لتلف لك واحدة كيفما تشاء • يشعل السيجارة ويضعها فوق المكواة التى صار اشعال القوالح لها من اختصاصي فى الدكان ••

المعلم « سعد الله » هو الوحيد في بلدتنا الذى يفصل الأثواب بابخس الأثمـان وربمـا بدون مقـال : خللى علينـا خـالص • بل كثيرا مايرد بعض القروش لأصحابها بعد دفعها • يوم السوق يحفل دكانه بالغرباء • تنهال على البقشيشات • يمتلىء درج البنك بالبرايز وأنصاف وأرباع الجنيهات • يمسـك بالدفتر المتهرىء عشرات المرات ليخط فيه بخطه العاجز أرقاما ورموزا وخطوطا ، مهمة ما لبثت أن أخذتها عنه ، حيث نظل فى نهاية المساء نجمع ونطرح ونضرب فى متاهات رقمية خرقاء على الورق تارة وبالبلدى تارة أخرى فلا نعرف أين تسربت النقود ، لكن معلمي فى النهاية يطمئن الى أنه هو الذى جمع وهو الذى بعثر ، اطمئنانه الأكبر هو أن أحدا لم يعد يريد منه شيئا أو يطلب منى دينا ، يحمد الرب ، يدعو بالغفران لكل خلقه • ينهض ليخطف رجله الى الدار يقضى حاجة ألمت به ••

فاذا ما نهض فانك لابد أن تفاجأ بل قد يصيبـك الدوار من المفاجأة رغم أنك رأيته قبل ذلك عشرات المرات ، فلسوف تكتشف فى كل مرة أن هذا الكيان الجميل ذا القوام الفارع هو نصف جسد فقط ، أما نصفه الأسفل فعبارة عن شبه ساقين منحازتين لبعضهما مثل أطراف ثوب منشور على حبل الغسيل • واذا به يسحب من الركن عكازا فى طول قوامه ، يثتبه فى الأرض وينتصـب واقفـا مستقيما فيبدوا كفرع عملاق تفرع حول عكاز • ولأنه غير ملق بالا الى هـذا الأمر أبدا ، فانه دائمـا يجلس فى الدكان بملابسـه الداخلية ، الفانلة القطنية ذات الكم الطويل الحابك على المعصم ،

فوقها الصديرى الشاهى ، والسروال من الدبلان المزهر فوق الركبتين ، اللتين تبدوان ككرتين صغيرتين مغروزتين فى سيخين من لحم بشرى ، ينتهيان بقدمين طويلتين مزورتين عن بعضهما · يقال أن حريقا شب فى دكانه القديم منذ سنوات بعيدة فأضافت الى عجزه الطبيعى تشوها وتسلخات غائرة ، تقبلها بصدر رحب على أساس أن المؤمن مصاب دائما وهذا كله فى النهاية من فضل الرب فمثلما نتقبل خيراته علينا أن نتقبل قضاءه فينا ··

على أن المعلم « سعد الله » اذا ما لبس الثوب صار عملاقا بحق وحقيق · يختفى العكاز على طوله وغلظه فى أعطافه الحانية ورقته الشديدة وكرم أخلاقه وحلاوة كلامه ، ولست أظن أن سيدنا المسيح عيسى بن مريم كان بأفضل حديثا وحسن معاملة · اذ سار دفع العكاز بكلتا يديه الى الأمام فيدق الأرض بشدة ، ثم ينقل كعبه اليمنى ، فيطحن بها الأرض فى تدويرة سريعة خاطفة ، على اثرها تكون كعبه اليسرى قد لحقت بها ، وتكون يداه قد دفعت العكاز الى الأمام دفعة تالية · وهكذا فى دربة هائلة يستطيع أن يمشى مع أى رجل صحيح البدن لمسافات طويلة ، بل ربما هو الأسبق وتضطر أنت الى الصياح به فى كل حين : « على مهلك يامعلم سعد الله » ، فيهدىء من سيره · فاذا ما أراد الاستراحة قليلا توقف مستندا على العكاز حتى يريح العامود الفقرى قليلا ثم يستأنف السير ··

له أخ يدعى « شنودة » يعمل سكرتيرا لمدرسة ثانوية بالمديرية · نسمع عنه منذ سنوات طويلة ولم نره مطلقا ، لكنه يعيش بيننا على الدوام كأى فرد منا · يناط بى قراءة خطاباته مثنى وثلاث ورباع ، واعادة استذكارها للتأكد من كذا وكتابة الردود عليها · كتابة خطاب لـ « شنودة » احتفال كبير جدا ، يون له الوابور تحت الشاى ونحرق على شرفه اوقية دخان كاملة ، كلما

ظننا أن الخطاب قد انتهى خطرت لنا ملحوظة ثانية وثالثة ورابعة ، ربما سلام فلان الفلانى وأهل منزله ، وفلان الذى يقيم فى بلدة مجاورة وتربطهم به صلة ، صحته هو الآخر على ما يرام ، وكل من عندنا كبيرا وصغيرا يهدونكم ألف مليون سلام ، وأنا ياأخى لو كنت طيرا لطرت اليك ولكن ماذا يفعل مقصوص الجناح ؟ أنا مشتاق اليك اشتياق الزرع للماء والرضيع للبن الأم والانسان للهواء ، وعلى فكرة ، كاميليا بنت خالك في بلدة الكنيسة ، منذ شهر تقريبا حيث أنها تلد ، فصل من أجلها ينتعها الرب بالسلامة ، ونحن بخير ولا ينقصنا الا مشاهدة رؤياكم الكريمة والسلام ختام من طرف أخيك المخلص لك دائما المعلم سعد الله حنا عبد الملك ..

البوسطجى صديقنا . يمر على الدكان كل يوم فى طريقه الى صندوق البريد المثبت فى جدار دوار العمدة القريب من حينــا ، وأثناء عودته ليستقل طريق بحر السبيل الى بلدة مجاورة . مساء الخير يامعلم سعد الله ، هكذا وهو راكب على حماره أمام الدكان ببذلته الصفراء التى تشبه بذلة العسكر الســوارى ، وقبعتــه الكبيرة ، وخرجه الأنيق الحافل بالخطابات . دائما جواب لك يامعلم سعد الله ، ودائما فلان الفلانى من البلدة الفلانية بيسلم عليك ، وفلان من البلدة الفلانية يقول لك كذا وكيت . الجميل أن يدركنا البوسطجى لحظة نضج الشــاى حتى نحييــه بكوب على الواقف ، يجرعها على عجل ريثما ننتهى من كتابة عنوان على المظروف الذى سيأخذه الآن .. ذلك أننا نؤجل اغلاق الخطاب الى آخر لحظة فلربما يعن لنا كلام جديد نضيفه اليه كأنه آخر خطاب سنرسله في حياتنا ، وكم احتملنا البوسطجى في صــبر واقفــا بحماره عند الرصيف . وهو مصر على عدم النزول . كان يخيل

لى انه يعرف « شنودة » شخصيا ويعرف كل أصحاب الخطابات التى يحملها معرفة شخصية حميمة كمعرفته لمعلمى « سعد الله » ..

رغم أن « شنودة » لم يزر بلدتنا ابدا فان معلمى « سعد الله » لا يكف عن الذهاب لزيارته فى مدينة المديرية وهى شديدة البعد عنا مهما قربتها القطارات . اذ يغلق معلمى دكانه يوم أحد ، ويكترى حمارا يوصله الى المحطة ، ليمكث عند « شنودة » يوما أو يومين ، يأخذ له بعض الهدايا من خيرات الريف ، مجموعة قفف وصناديق كرتونية يعجز الصحيح البدن عن السفر بها ، أما هو فيركب بها الحمار ثم القطار ثم قطار آخر ثم عربة حنطور حتى يصل فى مدخل الليل المنير الى بيت « شنودة » . ويعود بعد الزيارة بكيسين من الفاكهة يشتريهما من محطة دسوق ..

لست أذكر متى نشأت فكرة أن يخترع المعلم « سعد الله » سمادا كيماويا ، ولكننى حينما ضربنى المعلم « فرحات » الترزى وانتقلت الى دكان المعلم سعد الله بدأت أنشغل بما يفعله أكثر من انشغالى بأمر الشغل ، حيث أذهب الى داره صباح كل يوم لأوقظه وآخذ مفتاح الدكان لأكنسه وأرشه بالماء ريثما ينتهى معلمى من فطوره ويجىء ، فما أكاد أدخل من باب الشارع وأعبر الدهليز الى القاعة الجوانية حتى أراه فى ضوئها الصباحى الكابى ، وقد افترش الحصير فوق الأرض بين سرير أجرد بعمدان ، ودولاب حائل متآكل متفصص من بعضه ، الصينية النحاس بجواره عليها بقايا طعام حافل . تزاح الصينية ناحيتى فور دخولى لأفطر مهما حلفت أنى أفطرت فى بيتنا . يكون الوابور مشتعلا وزوجته السمينة جالسة أمام الوابور تصنع له الشاى وتدفع الدجاج والبط الى الخلاء وتعنى بالولد الزاحف بجوارها كل ذلك فى آن . كوب شاى الدور الأول موضوع أمام معلمى ، تجاوره بضعة أكواب أخرى من الزجاج مستطيلة تمتلى بمواد سائلة وأخرى مسحوقة ،

وكوز فيه ماء يغلى ، يخلط شيئا من هذا على شيء من ذاك ، يقلب بقضيب رفيع من الحديد ، يضع السائل المقلب فوق صندوق بجوار الحائط يسقط فوقه قرطاس من الشمس آت من كوة فى السقف مفتوحة ، ثمة مسحوق آخر مفرود على سطح اناء ومنشور تحت قرطاس الشمس · أقول لزوجة معلمى على استحياء : « هو معلمى بيعمل أيه ؟ » · تبتسم الغمازتان فى خديها ويبتسم كل وجهها الطيب المستدير كالبطيخة ، تقول بلهجة مشوقة : « أنا عارفة ياخويا اسأله » · فأنظر الى معلمى فاذا بأصابعه الطويلة السمحة تقبض على عظمة كتفى وتغمزها فى ود عميق : « بعدين حابقى أقول لك » ، فاذا بى أنبسط من هذا القول الودود ، ثم أقوم لأفتح الدكان ··

غير أننى سريعا ما عرفت حقيقة الأمر ، فسرعان ما نيط بى كتابة خطابات الى مدراء فى هيئات صناعية كبرى ، ووكلاء فى القاهرة ، ورؤساء شركات ، بل ووزراء أيضا ، بكلام عجيب يمليه معلمى [سعد الله » ، يسأل عن أخبار العينة الفلانية التى ارسلها بتاريخ كذا بموجب طرد بريدى بعلم الوصول رقم كذا ، ينبيء عن تجربة جديدة أجراها فكان من نتائجها كذا وكيت ، يقول المحرر فى جريدة المصرى أنه اكتشف أن السماد الفلانى الذى توريده الشركة الفلانية فيه نسبة كبيرة من كذا وكذا مما يفسد تربة الأرض ويجعلها مرتعا للدودة والحشرات ، نعم فاعلموا يا حضرات المسئولين الكبار الكرام ان لم يكونوا تعلمون أن الأرض هى الأخرى تتعفن وتدود بعد موتها كالجسد البشرى سواء بسواء ، وبعدها لا يمكن احياؤها ثانية مهما فعلنا ، وأن العلاج الناجع يا سيدى أدامك الله هو اضافة المادة الفلانية وتخفيف المادة العلانية » ··

ثمة ردود كثيرة كانت تجيء ، وكان على أن اقرأها لكننى

لم أكن افهم منها شـيئا على الاطـلاق ، ولا هو أيضـا · فكان يستوضحنى الأمر سطرا سطرا وعبارة عبارة وكلمـة كلمة ، وقد يشير الى كلمة فى صدر الصفحة بالمطبعـة قائلا : « أمال أيه دول ؟ » فأقول له أنها اسم الهيئة أو الوزارة أو مكتب صاحب الخطاب · فيرسل عينية الصغيرتين الصافيتين الى بعيد وقد شاب ابتسامته قليل من الأسقف يحمر له وجهـه وتتعوج بعض ملامحه ، ثم يشوح قائلا : « ولع الوابور » ، فأشعل الوابور وأضع البراض فوقه حتى يغلى المـاء ، فيقول هو بعـد برهة طويلـة : « فين الشاى ؟ » ، فأقول له : « ما احنا لسه ماشتريناش » ، فيـدفع لى بقرش تعريفة أشترى به · وقد يشرب الشاى بأدواره الثلاثة ومع ذلك يسأل بعد برهة : « أمال فين الشاى ؟ ! »فأقول له : « ما أحنا شربناه » فيقول وهو يدفع لى بقرش آخر : « طب اجرى هات لنا غيره » ، وكثيرا ماكنت أضبطه فى المساء مختليا بنفسه فى القاعة الجوانية فاردا هذه الخطابات أمامه على السرير يمعن فيها النظر بدقة كأنه معها فى حوار عميق ، يحاول اختراق سطورها وكلماتها الغامضة التى لم نسمع بها من قبل · كذلك كثيرا ما كنت أراه فجأة ساحبا عكازه ، بقفزتين اثنتين يصير فى الشارع ، يجرى خلف « قاسم افندى » المدرس الالزامى ، أو « حمادة نصار » كاتب التفتيش الحاصل على الشهادة الابتدائية ، يدعـوه ـ بعـد اذنه ، ولو تكرم ـ خمسة ، ثم يقتاده الى الدار كأنمـا الأمر جلل ، يفتـح الباب صائحا فى جموع الدجاج والبط والأوز ، يدخل القـاعة مرددا : « اتفضل ياحمادة بيه » ، يرتب له طرف السرير على عجل ، يجلس الرجل ، يفتح المعلم سعد الله دولابا غائصا فى الحائط ، يسحب لفة خطابات مبرومة حول بعضها ومحـكومة بأسـتيك ، يفردها ، ويطلب قراءة الألفاظ المكتوبة بالانجليزية وتفسير معناها بالبلدى ، لكن أحدا لا يفلح فى ذلك لأنها أسماء مصطلحات كيماوية كما يقولون له لا يفقهون فيها شيئا ، الا أنه يروح يقدم اقتراحات بالمعنى ، أيكون كذا ؟ أيكون كيت ؟ احتمال أن يكون المقصود كذا

مادامت قد وردت الكلمة الفلانية ، والقارىء لا يملك الا أن يردد خلفه : « جايز ·· يجوز ·· جايز ·· يجوز » ، الى أن يخرج وهو يسخر ابتسامته الساخرة ، لكنه في العادة لا يطلقها أبدا ، بل يودع معلمى « سعد الله » بنظرة تقدير عميق وان شابها قليل من الاستهجان ··

متسامح معلمى الى أقصى درجة · حدث أن طلبته احدى الهيئات لمقابلة مديرها المسئول وتقديم مالديه من عينات والتخاطب بشأنها · كنا فى شهر رمضان وموسم الخياطة على اشـده ، وليس فى الدكان سوى صنايعى واحد يعتمد عليه فى شغل الماكينة وتركيب الأقطنة ، أساعده أنا فيتركيب الزراير وشغل العراوى، ومعى «حنا» ابن زوجة معلمى من رجل آخر · كان أصغر منى بقليل وكان سمينا مرغددا ، بارد الطبع يخلو من الحماس والخشونة ، وكان معلمى يعامله بمعزة أكثر من أولاده ، ولا يهينه فى الشغل ، ويصر على ادخاله المدارس والصرف عليه ، فالولد يتيم ، وهو أمانة ، بل هو أكبر مسئولياته فى هذه الحياة · ولكن يبدو أن المعلم « سعد الله » حينما قرر السفر الى القاهرة لمقـابلة ذلك المسـئول رغم ضـيق الوقت وزنقة الموسم ، أوصى ابن زوجته أن يجعل باله من الدكان وألا يغادره · فجاء الولد « حنا » ليسهر معنا ، وكنا نسهر حتى الصباح ونفتح عند الضحى · كبس النوم على الولد فنـام · بعد مدفع الامساك أمرنى الصـنايعى أن أنصرف لكى أجيء مبكرا فأفتح الدكان · على امتداد ضوء الكلوب فى أرض الشارع لحقت بأبى فى مسجد العصاروة قبل خروجه من صلاة الفجر ··

فى الضحى عندما ذهبت لأفتح الدكان فوجئت بصوات فى دار المعلم ، واذ بالولد « حنا » قد ذهب الى المستشفى ، والصنايعى الى دوار العمدة ، واذا بالخبر يقول أن الصنايعى القذر اعتدى على الولد فى الليل أثناء نومه ، بوحشية ، فأسال دمه ، وصرخ

الولد فجاءت أمه تجرى وذهبت من فورها الى العمدة · فى المساء جاء المعلم « سعد الله » فالتقاه الخبر عند أول الطريق فاربد وجهه واكتسى شحوبا وأسفا عميقين · ما أن وصل الى الدار حتى جلس على رصيف الدكان وانخرط فى بكاء عميق حاد ، يهم بشق ثوبه فى كل شهقة · الناس من حوله يطيبون خاطره ، لكنه نهض ، وانطلق جريا الى المستشفى حيث اطمأن على الولد وبكى عنده كثيرا ، ثم أصر على أن يأخذ بثأره تفتيتا لرأس هذا المعتدى بهذا المكاز ··

اندفع يجرى بكل غضب الى دوار العمدة ، يصيح : « هو فين وريهولى بس عاوز أشوفه » ، والناس والخفراء يعدونه برفق · فى الصباح الباكر حرص على أن يكون أمام الدوار قبل ترحيل الصنايعى الى البندر · العكاز فى يديه يهتز ويتوعد · فما أن خرج الصنايعى من حبس الدوار والخفراء يكتفونه حتى قفز المعلم « سعد الله » نحوه كالأسد ، ثم وقف أمامه يرتعش فى غضب عظيم ، وأخيرا صاح بكل رقة : « بقى كده ! ·· كده ياحنفي ! ·· إخص عليك وعلى تربيتك ·· اتفوه » · ثم بان على وجهه الأسف فى الحال ، داراه بقوله فى نبرة لا تقل أسفا : « يلا روح اتلقى وعدك ·· ربنا ينتقم منك » · وفى صبيحة اليوم التالى فوجىء به الصنايعى فى مركز الشرطة والعسكر يهمون بوضع الحديد فى فى يديه لترحيله الى النيابة فى المديرية · انفجر المعلم « سعد الله » باكيا ، ودخل للمأمور فتنازل عن المحضر ··

بعدها نسى المعلم « سعد الله » أمر السماد لبضع سنوات ، وغاب الصنايعى فى محلات كثيرة فى بلدان أخرى هربا من الفضيحة ، وانتقل الولد « حنا » الى بلد بعيد يتعلم فى مدرسته الداخلية · ثم سرعان ما هجر « الصنايعى » مهنة الخياطة وفكر فى فتح دكان للبقالة فتوسط له « أبو سماعين » لدى معلمى

ـ ويالعجب ـ الذي باعه جزءا من قطعة أرض يملكها بجوار دكانه مباشرة ، أقام « حنفي » فوقها دكانا لبيع الأقمشة والأقطنة والأزرار وخيوط الحياكة بجميع أنواعها .. ثم أن معلمي سرعان ما رجع الى هوايته القديمة : اجراء التجارب الكيماوية ، وارسال العينات الى كثير من الجهات والهيئات والوزارات ..

تسعون في المائة من هذه التجارب وهذه العينات وهذه الخطابات كان « أبو سماعين » حاضرا فيها ـ كان يشعل حماس معلمي قائلا اذا استمع منه الى عبارة جديدة : « قلت هذه في الخطاب أم لا ؟ » ، فيقول معلمي : « مش فاكر » ، وينظر الى يستذكرني ، فيقول « أبو سماعين » : « لازم تقولها » ... فنجيء بورقة جديدة ، ليمليها ، « أبو سماعين » صيغة أكثر شمولا وأكثر مدعاة للاحترام ، حافلة بلا سيما وبيد أن وما الى ذلك من عبارات ينبسط لها معلمي وينشرح صدره ..

قلت لـ « أبو سماعين » بعد تشويحته الساخرة تلك ! يظهر أن المعلم سعد الله اكتشف عينة جديدة » ، فاذا به يطلق ضحكته المزمومة : « هوهوهو .. و .. ه » ويضيف : « الله يكون في عونه ويساعده » . قلت له : « مش جايز يجيب نتيجة ؟ » . قال : « جايز قوي قوي .. ليه لا ؟ .. بس المشكلة ان اختراعه لا بد يركب عليه ناس ثانيين من أهل المهنة .. بتوع المصطلحات .. اللي فاهمين كل حاجة فيها .. اللي يقدروا يعبروا عن فكرتهم بلغة المهنة .. هي دي عادة الدنيا .. مخلوقات تأكل مخلوقات .. وحتى الكائن الانساني الأرقى يأكل الأقل منه رقيا ، يستوعبه ويتشرب كل محتوياته المفيدة ليظهر بها هو ، فيبدوا كأنه الأصل في المخلوقات في حين انه قائم بها ! » . لا أفهم كلامه جيدا ، أعود فأسأله بشيء من الخبث والحذر : « لكن حمادة أفندي نصار كاتب التفتيش قال لنا مرة انه قرأ أحد الخطابات الواردة لمعلمي فوجد

أنهم يقولون عن تجاربه أنها ملح طعام لا أزيد ولا أقل ! » . فابتسم « أبو سماعين » وبدا على وجهه أنه هو الآخر قد قرأ هذا التصريح الخطير ، لكنه قال في لهجة واثقة : « لنفرض أنهم قالوا له ذلك .. إن كلامهم ليس قرآنا منزلا .. يجوز أنهم لم يفحصوا العينة جيدا ويريدون التخلص منه . وربما وجدوا فيها شيئا مهما ولكن طريقته في التعبير عن هذا الشيء أغرتهم به ، كالذي يجد جوهرة ثمينة في يد رجل حافي متخلف عقليا ، انه سوف يحاول الضحك عليه واقناعه انها شيء بلا قيمة ليأخذها ويعرضها هو بالشكل اللائق بها .. هل يستطيع أحد منا أن يحكي قصة أبو زيد الهلالي أو عنترة مثلما يحكيها شاعر الربابة ؟ لا طبعا .. هكذا الدنيا .. يصنعها الأبرياء المخلصون ، ويستمتع بها التافهون المنافقون المغرضون ، والفهلويون والمحتالون ! .. وعلى كل حال فالمثل يقول من سار علا الدرب وصل .. فمن يدرى ؟ .. لعل وعسى ! ..

لحظتها طب علينا معلمي ، فخشى « أبو سماعين » أن يكون قد سمعنا ، فظل مرتبكا لفترة ، ثم ما لبث أن راح يدعو لمعلمي بالتوفيق والفتوحات الربانية ، ثم اكتسى وجهه بكآبة مفاجئة غاب خلالها شاردا ، ثم تحامل واقفا واضعا يده اليسرى في سيالته واليمنى طليقة ، ثم اندفع الى الطريق متعجلا كأنما يسعى وراء مشوار خطير .

١٣ ـ أبناء الواجهة

كل الناس فى بلدتنا يعرفون بعضهم البعض ربما الى سابع جد ، يعرفون أيضا شجرة العلاقات ، فهذا فلان ابن فلان ، خاله فلان ، وابن عمته فلان وصهره فلان ·· الا « أبو سماعين » لا نعرف له عما أو خالا أو أى صلة على الاطلاق · وقد تعود الناس الا يسألوه عن أى شىء من هذا القبيل ، انه « أبو سماعين » وكفى ، وهو مع ذلك معروف لكل الناس مألوف لكل الناس بل ومشهور أكثر من عمدة البلدة نفسه ، ثم أنه هو الوحيد المسموح له بتجول كل البيوت بلا سبب واضح ، حيث يرتمى جالسا بجوار أهلها منكمشا على نفسه فى انتظار حسنة أو كوب شاى أو ربما كلمة ترحيب طيبة ·

لا أحد يراه يأكل أبدا · كذلك لا يعرف أحد أين يبيت ، لكننا نراه احيانا يغسل ثيابه فى أى ترعة ، أو يستحم فى ميضاءة المسجد القريب من ديارنا ··

كثيرا ما كنت أراه يجلس فى مندرتنا بين أبى ورهط من عائلتنا · لم يكن وحده أليفا بل كان أسمه أيضا أليفا ، لكنها تلك الألفة التى تقوم بيننا وبين الأشياء ، فهو أليف كصورة جدى

« الكلاف بيك » المعلقة على حائط مندرتنا فى مواجهة الداخل من بابها ، وسط برواز مذهب ، قريب الشبه جدا من أحمد عرابى زعيم الفلاحين ، نفس الذقن السكسوكة والبيبيون الأسود البارز فى فتحة ياقة القميص الأفرنجي ، والطربوش القصير ، تطل من عينيه نظرة أراها فى جميع أبناء عمومتى ..

مندرتنا هذه العتيدة شهدت كثيرا من الأمجاد ، ففيها جلس الكثيرون من علية القوم فى أزمنة متبددة ، فيها جلس أفندينا نفسه أثناء زياراته المتعددة لجدى فى فترات الاستراحة التى كان يقضيها جدى فى بلدتنا ريثما تعود الأسرة الخديوية من مصيفها فى أوربا ، حيث يتحرر جدى من رسمياته وينطلق كأحد البكوات الكبار يقضى وقتا فى الاسكندرية ووقتا فى بلدتنا ..

كان لجدى عشرة أبناء ، سبعة رجال وثلاث نساء ، وكانت الأسرة الخديوية قد انعمت عليه باقطاعية سبعمائة فدان ونصف بور يقوم هو باصلاحها وامتلاكها ، وقد فعل ، ومن عرقه وشقائه أكمل المئات السبع الى عشر ، منتفعا بخبرة وسواعد أصهار له فى بلدة مجاورة لبلدتنا ، حيث توافدوا على الأفدنة فاصلحوها وتولوا زراعتها وتوريد ريعها الى جدى ، ثم علموا أعمامى الفلاحة فلم يدخل منهم المدارس سوى ثلاثة فقط هم «عم سعد » و « عمى سعيد » وأبى . أما « عم سعد فقد تخرج فى الأزهر الشريف وأصبح شيخا كبيرا فى الأزهر لا يزور بلدتنا الا فى الأعياد . وأما « عمى سعيد » فقد تخرج هو الأخر فى الأزهر ولكنه كان حلو الصوت مهتما بالموسيقى فاشتغل صيتيا ومقرئا للقرآن الكريم ، ولست أدرى هل لحلاوة صوته أم بحكم صلة جدى بأفندينا اشتغل « عمى سعيد » صيتيا ومقرئا خاصا بسراى افندينا يحيى لياليه الدينية الدائمة فى الأشهر الحرم . وأما أبى فقد تخرج فى مدرسة المهندسخانة وعمل موظفا بهيئة القنارات . وكان أبى وأخوه

« سعد » و « سعيد » من مشاهير الناس في العب كله لنشاطهم السياسي المسموع وخدماتهم التي يؤدونها لكل من جاءهم يحمل بطاقة توصية من أحد في البلدة ٠ لكن شهرة أبي - رغم أنه أصغر اخوانه قد تفوقت ، لأنه كان من أقطاب الوفد وكان دائم الاحتكاك بالسلطات البريطانية ودائم الزيارة لمعتقلهم ٠

أما « عمي محمود » و « عمي فارس » و « عمي عطية » و « عمي عبد الخالق » فقد كانوا يفلحون الأرض في البلدة ٠ كانوا يشغلون هذين البيتين الكبيرين المهيبين ، بيت بالطوب الأحمر يضم عشرين قاعة وزريبة ومنخا للجمل ومخزنا للتبن وآخر للحبوب ودهليزا كبيرا في ركن رطيب منه ثلاثة أزيار للماء على قاعدة من الأسمنت ، وملحق به من الخلف تعريشة للفرن تسمى الدويرة ، والفرن يشتعل يوميا للخبيز الكبير أو لخبيز لقمة طرية كالرقاق والفطير والقرص أو لدس الأرز وهو غذاء يومي ٠ يمتد جدار هذا البيت - وفي منتصفه البوابة - الى الداخل ، حيث ينكسر يمينا بجدار الزاوية مكونا حارة سد ٠ ابتداء من نهاية حائط الزريبة يمتد الى الخارج جدار البيت الثاني ، حيث تنتصفه هو الآخر بوابة كبيرة ضخمة لا تقل عن التي تواجهها مهابة وأصالة ، هذا البيت مبني بالطوب النيىء في دوره الأول ، ودوره الثاني مصنوع من الخشب البغدادلي المغفق بالطين ثم الجير الملون ؛ وهو متصل بالبيت المجاور من فوق بواسطة تراسنية خشبية تعبر الحارة بين البيتين ذات سور حديدي مشغول بالمخرطة ٠ وكان واضحا ان هذا البيت ذا الدورين كان مخصصا كاستراحة خاصة لأبنائهم المقيمين في العاصمة ومن يجيء معهم من ضيوف حيث كان الدور الثاني المصنوع من البغدادلي مكونا من ثلاث حجرات كبيرة تتلقف الرياح والشمس من جميع الجهات وكانت مليئة كلها بالاسرة النحاسية والبوريهات والكراسي العباسي والسجاجيد الثمينة وأشياء

كثيرة عاصرت آخر معارك النزاع حولها بين أبى وأبناء عمومتى ، وأما الدور الأول فقد كان عبارة عن مندرة كبيرة جدا وملحق بها دهاليز يغلق عليه باب متين حيث توجد به دورة المياه والسلم الصاعد للدور الثانى ..

« عمي محمود » كان عميد عائلة الكلافين حتى فى حياة جدى ، وكان عملاقا فتيا كثير الانجاب بلغ أولاده سبع وأربعين ذكرا وأنثى من أربع نساء فى عصمته وخمس مطلقات لكن كل أولاده يعيشون معه فى حوزته . وكان زعيما لأولاد الليل والفتوات والأشقياء ، لا يشاركهم الاجرام ولكنه يشكمهم ويقهرهم ويستخدمهم عند اللزوم لمصلحة عامة ، دائم الانتقاد لفسولة رجولتهم ويعتبرهم عيالا على الرجولة ، أى شىء يضيع فى المنطقة يجىء اليه المصاب ويشكو جليل مصابه ، فيستفهم منه عن بعض الأوصاف وبعض المعلومات ، ثم يهز رأسه فى هدوء قائلا : « خلاص انحلت » ، ثم يميل على احد التملية ـ وما كان أكثرهم فى ديارنا آنذاك ـ هامسا بشىء ، فيذهب التملى ليغيب ساعة أو أكثر مسافة ما يتناول الضيف الغداء والشاى ، ويعود ساحبا خلفه احد الأولاد الأشقياء قائلا : « اهه » ، فيشير له « عمى محمود » بطرف العصا على الأرض أن يجلس ، فيجلس متقرفصا على مبعدة خوفا من استطالة العصا ، يزغده عمى بالعصا فى صدره زغدة خفيفة لكن الولد ينعدل تلقاءها متربعا وقد جحظت عيناه فى استكناه المجهول . يفتل « عمى محمود » شاربه بحركة ذات معنى مركزا النظر فى الولد صائحا : « فين ياولد كذا وكذا وكذا .. اللى سرقتوه اول امبارح من الحتة الفلانية .. بأمارة كذا وكذا » ، فيفتح الولد فمه ليتكلم ، فيضرب « عمى محمود » الأرض بطرف عصاه صائحا : « الحاجة دى تيجى دلوقت .. بلا قوم خمس دقائق بالعدد » ، فينتفض الولد

مستردا روحه قائلا : « حاضر ياعم محمود » ، وينطلق ليعود بكل شيء بعد حين قصير ··

هكذا كان « عمى محمود » كما وصفه لى « أبو سماعين » · أما بقية أعمامى الفلاحين فلم تكن لهم مثل هذه الشخصية ولكنهم كانوا ذوى احترام كبير هم اهل له · وكانت العائلة بفضله مرهوبة الجانب ، اذ يشاع عن « عمى محمود » آنه كان لاعبا بالنبوت لايباريه أى فارس فى الأرض ، لدرجة أنه كان يضرب النبوت فى الأرض فيزرعه زرع بصل ، ثم يقف فوق طرف النبوت بقدم واحدة ويبرم جسمه حول نفسه وربما يؤدى طبقة ذكر دون أن يقع · غير أن الكارثة الكبرى التى منيت بها عائلتنا مبكرا هى موت عمى « محمود » الذى جمحت به الفرسة ذات يوم فاندفعت تجرى عمياء بين الحقول ليختطفه من فوقها فرع جميز عتيق يلقى به على الأرض ممزق الجبهة ، وكان مشهد دفنه عظيما اذ حضره أفندينا واستمر سرادق العزاء أسبوعا كاملا فى استقبال المعزين من كافة البلدان ·

على أن لواء الفروسية فى العائلة انتقل فى الحال الى عمتى « نجية الكلافة » التى كانت هى الوحيدة فى اخواتها موازية فى قوة الشخصية لأخيها « محمود » · وكانت متكلمة وصاحبة واجب تقيم على مذبحة عشرات المئات من العلاقات المتينة القوية ، وكانت أيضا صاحبة سطوة حتى لقد شغلت فراغا تركه « عمى محمـود » وتواجدت فى كل مجلس كان يتطلبه ، وظل اسم الكلافين يعبر معها البحور والكفور والحقول لأداء واجب العزاء أو الفـرح فى بلاد بعيدة ، وظلت هى تلعب دورها بكفاءة عالية الى أن مات جدى « الكلاف بيك » فتحولت هى الى حيوان شرس يعض جميع اخوتها دون رحمة ، وراحت تدخل كل يوم فى قضية أمام المحاكم مع واحد من أخوتها حول مواريث تدعى ملكيتها بناء على توصيات زائفة تزعم أن أباها أعطاها لهـا قبيـل موته ، ولم تتوقف قضـية من

قضاياها الا بموت خصمها ـ أخوها فى نفس الوقت ـ حتى اختها الصغرى التى كانت تكفلها أرادت أن تستولى على نصيبها فماتت هى الأخرة بفعل الحسرة ٠

حينذاك كان أبى قد أحيل الى المعاش وجاء يحضر تقسيم التركة ويحصل على نصيبه منها ٠ فى مجلس التقسيم الذى يضم علية القوم فى البلدة قيل لأبى : « تختار نصيبك من الأرض فى أنهو حوض ياعبد الفتاح أفندى ؟ » ٠ وكان أبى اسكندرانيا مرفها لا يفهم شيئا فى الأرض او شئون الفلاحة ، ويبدوا أنه قد ردد الكلمة التى يسمعهم جميعا يرددونها فى الاسكندرية عند تقسيمهم للأراضى : « على واجهة ! » ، باعتبار أن الأرض هناك تقسم للمبانى فتصبح الواجهة مهمة ، اذ قال أبى هو الآخر بعد أن وضع ساقا عل ساق منجعصا : « أنا مش حتنازل عن أن الأرض بتاعتى تكون على واجهة ! » ٠ فذهل القوم وتبادلوا نظرة حرجة تمنعهم من الضحك الساخر ، لسان حالها يقول : ما بال هذا العبيط يصر على هذا الطلب الغريب ! ان الأرض التى على واجهة لا تصلح للزراعة مطلقا ، يجور عليها الطريق ويرملها ثم أنها تصبح طريقا سهلا يخرم منه العابرون ٠ تطوع أحدهم لتنبيهه على سبيل ابراء الذمة : « حتبنيها ياعبده أفندى ولا ايه ؟» ٠ قال أبى مستمرا فى الغشومية : « أنا حر بقى » ٠ ونشطت عمتى « نجية » ووبخت هذا الرجل فى خبث شديد قائلة له أن يترك أبى يختار ما يشاء دون مراجعة ، لتكون فى الظاهر قى انتصرت لرغبة أبى ودافعت عنه ، وفى الباطن تغريه بالاستمرار فى غشوميته حتى يأخذ الجانب البائر من الأرض على الطريق لتتسع أمامها الفرصة فى اختيار نصيبها ضمن الأرض الخصبة ، فالمعركة التى كانت تخشى قيامها كانت ستدور حول هذه القطعة المالحة المجدبة من الأرض ومن ذا

الذى سيقبل أن تكون من نصيبه ولكن ها هو ذا أبى يحل المشكلة بجهالة فائقة فأهلا به وسهلا ..

وهكذا كان من نصيبنا البوار أنا واخوتى طول حياتنا . طاردتنا النكتة فى شوارع البلدة والتصقت بطفولتنا ، حيث أطلق أهل البلدة علينا جميعا لقب « أبناء الواجهة » وكانت النكتة تزداد التصاقا بنا يوما بعد يوم فتزداد عمقا وسخرية ، اذ أن أبى صرف عليها كل ما كان فى حيلته محاولا اصلاحها ولكنها أبدا لم تؤت بأى ثمرة . وفى لحظة حزن وضيق تسلل اليه « الحاج مصطفى الحداد » وأقنعه بضرورة التخلص منها ، ثم اشتراها ببضع مئات من الجنيهات وتركها للزمن يرفع سعرها حين يمتد اليها العمران .. فاستباحها كل أهل البلدة وأقاموا فوقها ألعابهم ومسامرتهم الليلية . ورغم أن ملكيتها انتقلت رسميا الى « الحاج مصطفى الحداد » الا أنها ظلت تحمل اسم لعنتنا ، ظل الناس يسموننا أولاد الواجهة ويسمونها أرض الواجهة ، ويقولون لبعضهم البعض : سنلعب الكرة اليوم فى أرض الواجهة ، أو سنتقابل غدا عند أرض الواجهة ..

وكانت عملية تقسيم التركة قد اقتضت أن يستقل أبى بالبيت ذى الدورين . فكان يستقبل المرشحين والضيوف فى المندرة ، ويقضى القيلولة فى المقعد فى الدور الثانى حيث حجرة النوم المطلة على البحرى ، وفى العصارى يجلس لصق الشباك البحرى المطل على حارة جانبية تستقلها عائلة صغيرة عميدها شيخ خفراء البلدة سابقا ، ويروح يتصفح الجرائد والمجلات والكتب ، ويطل من الشباك ليرى جانبا من مزارع البلدة وجانبا من مقابرها العالية . كان فى تلك الأثناء وحيدا ، حيث أن زوجته « الحاجة فاطمة » التى يسمونها بالاسكندرانية قد قد تمردت على نمط الحياة فى البلدة ، ولم تعد تطيق العيش فيها مع أبى أو مع أى أحد ، وقد

ضاعف من شعورها بالغربة أنها كانت عقيما لا تنجب ، ولم تكن هى الأولى فى حياة ابى بل كانت هى الثالثة ، حيث اكتشف ابى أن أولاده من الزيجة الأولى يموتون باستمرار فتأزم العيش بينهما فطلقها ، وبعد عام تزوج الثانية ليكتشف أنها تسقط باستمرار فى شهرها الرابع أو الخامس ، لا يكتمل لها حمل أبدا ولم ينجح الأطباء فى معرفة السبب الحقيقى الا أنه قد يكون ضعفا أو خللا فى تكوين الرحم ، فتأزم العيش بينهما وطلقها وبعد عامين تزوج « الحاجة فاطمة » الاسكندرانية ليكشف انها غير مؤهلة للانجـــبا اصلا ! ، فاحتمل قدره ووجد فيها زوجة صالحة تؤدى فروض الصلاة بانتظام ، فلم يشأ أن يطلقها خاصة أن العمر لم يعـد فيـه متسع لذلك ، وراض نفسه على الا يكون له ولد رغم شدة حبه للأولاد ..

على أن « الحاجة فاطمة » الاسكندرانية بدأت تستريب من قعدة ابى بجوار هذا الشباك ذى النسيم العليل ! وصارت تستفسر منه سر ذلك وهو حائر لا يدرى بماذا يجيبها سوى أنه شباك يطـل على الخلاء الجميل ويحمل الهواء النقى وأنه لا يغسل أعصـابه جيدا الا فى هذه اللحظات التى يجلسها بجوار هذا الشباك . يكاد أبى يجن لأنها تطلب اسبابا أخرى لا يعلم عنها شيء . ولم يدور بخلده ما يدور بخلدها ، منذ نظرت من الشباك ذات يوم فرأت فتاة شقراء غاية فى الجمال تبارك الخلاق فيما خلق ، عمرها لا يزيد عن اثنى عشر عاما لكن جسدها ناضج فائر وتبدو كامرأة الثلاثين ، كأنها جارية شركسية هربت من حريم السلطان وضلت الطريق فى هذه الحارة التى تستمد سمعتها من وجود بيتنا على ناصيتها ، فما أن رأتها ولاحظت جلوس أبى بجوار الشباك دائما حتى سـقطت من طولها ، واستفسرت عن البنية فعرفت أنها أبنة المرحوم شيخ الخفراء المقيمة اسرته فى أخر هذه الحارة السد .

وأنها تعيش معظم أيامها فى المدينة مع أمها وأخوالها منذ وفاة أبيها وهى طفلة صغيرة • ورغم أن « الحاجة فاطمة » الاسكندرانية عرفت ان هذه الفتاة بريئة تماما « متربية على الغالى » فانها لم تحتمل •• وأيقنت أن أبى يعمد الى الجلوس بجـوار الشـبـاك من أجلها •• فصارت تنتابها حالات جنونية عنيفة ، تقوم فى الليل تصرخ وتشد شعرها وتمزق ووجهها صائحة فى أبى : « طلقنى •• روحنى لأهلى » • عبثا يحاول أبى تهدئتها ، اذ يتزايد جنونها ، وتروح تلوك سيرة الناس ، وتلطخ سمعة الأبرياء • عندها لم يحتمل أبى ، فصفعها ، فلعنته ، فبصق فى وجهها ، وفى الصباح أبرق الى أهلها فجاءوا ليأخذونها . ولم يكن يعنيهم من كل ما حدث شيء سوى أن أبى بصق فى وجهها ، اذ كانت كل ثورة أخيها منصبة على هذه النقطة فلايني يصيح : تتف فى وشها ازاى هى قطة ؟! » . ولكنهم فى النهاية حملوها بمفروشاتها وجهازها وورقة طلاقهـا وانصرفوا ، ليعيـد أبى فرش البيت ممـا كان مختزنا لديه من مفروشات العائلة العتيقة ، وعاش وحده مدة عام أو اكثر وقد أدمن هذه الجلسة فى العصارى بجوار هذا الشباك ، ولكن قد أضيف اليه هم جديد لا يستطيع منع نفسـه من حمله ، ذلك هو متابعة الطريق فى انتظار مرور هذه الشقراء الفاتنة ، التى باتت شغله الشاغل • صحيح أنها فى الثانية عشر من عمرها وهو قد تجاوز الستين ، لكنها ناضجة وهو لا يزال فتيا متين البنيان ••

لم يطق صبرا ، فأرسل عمتى الى أم الشقراء الفاتنة ، وكانت لا تقل عن ابنتها صبا وجمالا ، وكان شبان كثار من عائلات كبيرة فى البلدة يدورون عليهـا هى لا على ابنتهـا ، وكان ذلك يرضى غرورها ويريح نفسها ولكنها كانت تتحرج من ابنتها ؟! • اذ كيف تتزوج هى من شاب صغير فى حين أن ابنتها عروس فى انتظار عريس مثله ؟! • فلمـا بدأت عمتى تكلمهـا فرحت غاية الفرح

متصورة ان الكلام عليها هى ، أى أن أبى يريد أن يخطبها هى ، فهذا هو الشيء المنطقى الوحيد فى كل ما عرض عليها ، لكنها حين استوضحت الأمر وعرفت ان المقصود بالمخطبة ابنتها لا هى ، ابتلعت غصتها لبرهة قصيرة ثم مالبثت ان شعرت بأنه قد آن الأوان لكى ينزاح الجبل الرهيب عن صدرها ، وسرعان ما وافقت ، ورضيت عن طيب خاطر أن تزف ابنتها الى « عبد الفتاح أفندى الكلاف » سليل الحسب والنسب ... لتكون هذه الفتاة العزيزة الشقية ـ بعد سنوات قليلة ـ أما لى ولاحد عشر اخا واختا انجبتهم لأبى وهو يعبر بحر السبعينات من عمره الى شاطىء التسعين ..

حين تفتحت عيناى على الحياة كان كل شيء فى عائلتنا قد غبر ، وبات كل تاريخنا مجرد صور معلقة على حوائط متهالكة ، ومجرد أشياء بالية ، بضع ملاعق وشوك وسكاكين من طراز ملوكى ، سجادة تآكلت دائرة الوسط فيها كلها ، وأخرى متآكلة من الأطراف نفرشها للضيوف على الكنبة ، بوريه من خشب الأرو ، سرير نحاسى حائل ، زراير فضية لقمصان أبى ودبابيس لرباط العنق مرمية فى درج صغير بين صواميل ومسامير وبرايات اقلام واسنان ريش ..

ان أنس لا أنسى ماكينة الغناء ، تلك التى لم يكن يديرها أبى أبدا ، فوق مائدة ترابيزة مستديرة ذات أرجل مخروطية ورخامية ثقيلة ترقد الماكينة مربعة الشكل فى حجم صندوق النذور ، يجثم فوقها نفير كبير احمر اللون مشغول بالحفر من الداخل على شكل زهرة اللوتس ، لها ذراع أنيق يرفعه أبى أيام كان يديرها ـ ليضع فى طرفه ابرة صغيرة جدا يأخذها من علبة نحاسية مزخرفة فى حجم علبة الكبريت كنت أبكى بكاء مرا حين ينتزعونها منى بالقوة ، بجوار الماكينة صندوقان كبيران من الابلكاش ممتلئان بعشرات

الأسطوانات التى تنبعث منها رائحة حميمة ، الأسطوانة فى حجم المطرحة ، سوداء ، فى مركزها الدائرى دائرة صغيرة ملونة عليها كتابة وصورة ، أما الكتابة فهى اسم الأغنية واسم المطرب واسم شركة الأسطوانات وأما الصورة فهى صورة المطرب ، كل أسطوانة لها غلاف مربع من الورق المقوى تدخل فيه ، ينزع أبى الاسطوانة من غلافها ويضعها فوق سطح الماكينة وفى جانبها يد يديرها أبى طويلا حتى تمتلىء علبة الزمبرك ، ثم يتنـاول الذراع ويضع سن الأبرة على طرف الأسطوانة التى تأخذ فى الدوران لتنبعث من النفير أصـوات غاية فى العذوبة ، موسيقى كأنها أصوات بشر ، وأصوات بشر كأنها موسيقى ، والكون كله يسبح لحظتها فى بهجة حبيبة أود لو تستمر الى مالا نهاية ··

غير أنها كانت مجرد لحظة عابرة لم تتكرر مطلقا ، ظلت محفورة فى نفسى سنين طويلة · أمى نفسها لم تكن تجـرؤ عـلى طلب ادارة الماكينة · فاذا افترضنا أنه ـ كما كانت تقول لنا حين نلح فى طلب ادارتها منـــه ـ لا يديرها الا فى لحظـــة صفاء لكان فى وسعنا أن نتأكد أنه ليس ثمة صفاء فى حياته على الاطـلاق · ولهذا فقد بت أتحين الفرصة لرؤية أبى منبسطا ذات لحظة كى أتسلل الى جنبه فى هدوء وحذر قائلا له : « آبا ··· آبا ··· دور لنا المكنة شوية » ، وأكون مستعدا للانفجار فى البكاء اذا ما بدرت منه بادرة زجر · وكثيرا ما بكيت ولويت بوزى وغضبت عن الطعام دون جدوى ، حتى تيقنت أن غضبتى لا تصيب أحدا سـواى ، وعزوفى عن الطعام حرمان مؤكد لا حق لى فى المطالبة به فور انتهاء موعده بدقيقة واحدة ··

حين صدىء سلاح البكاء أغمدته فى صدرى · غير أن ملامح وجهى تحولت فجأة ولم تعد ملامح طفل أبدا ، حيث كنت أمر صدفة أمام مرآة البوريه الكبيرة فيلتقطنى فيها وجه مكلبظ مدهون

بطبقة من البرابير والدموع الجافة بما تراكم فوقها من غبار ، أتوقف عنده ، يهولني ذلك البؤس الشديد الذي يطالعني به ذلك الوجه في المرآة ، تسقط مني دفقات من انفاس أمي حين تتنهد من حين الى حين وبعمق كأنها ترسل روحها وتعود فتلتقطها كالكرة ، حتى لقد بت أتخيلها ترسلها ذات مرة فلا تفـلح في استردادها فأرتعد ويصيبني هم على هم ، اذ هي الوحيـدة التي تعطف على وتتوجع من منظرى .. أتكون هي التي علمتني التنهيد بعمق مثلما علمني أبي التكشير ؟ يرن في أذني صوت أمي مشوحة بيدها في وجهي كالعادة صائحة في قرف واشفاق : « ياساتر يارب .. تكشيرة أبوه بعينها .. ياشيخ فكها حبة .. فكوها فكيتوا عقل ضهرى أنت وأبوك » . ويقول الوجه الذي في المرآة أنها صادقة ، مع ذلك يلتوى بوزه أكثر فاكثر بشكل يغيظ حقا ، تربد ملامحه كأن ظل الكون كله ملقى عليها ، يقول صوت أمي : « أنت راخر مش قادر تكسى العيال ؟! .. داخل عليك العيد ومش عارف تحسبها ! .. ياحرام .. ميعاد الطحين قرب ومعاكش فلوس ! ـ تصفق بيدها مشوحة في غل مكبوت ـ الهي ربنا ينتقم منكم ـ ثم مستدركة ـ الهي ربنا ينتقم من الظالم ـ ويرتعش صوتها كمليون قطة تموء دفعة واحدة مواء يقطع نياط القلوب ـ حسبي الله ونعم الوكيل حسبي الله ونعمى الوكيل » . احس بزغدتها في جنبي قاسية حادة الوجه الذي في المرآة مثل بكرة من الصوف دوائر دوائر ، رمادية متداخلة منبجعة توشك أن تنفرط ، كل الأشياء منقسمة ، خيوط الدمع المنسابة على الوجه الذي في المرآة تكوى خـدى ، فانفجـر باكيا ، فيتفطر وجهه باكيا معى ، من يومها احببته رغم ما كان يثيره في نفسي من كآبة خرساء أشعر معها بهم ثقيـل ..

كل من يراني من الأهل أو الجيران أو زوار دارنا وما اكثرهم كان يتوقف عند منظرى ويتصعب ويمصمص بشفتيه ، بعضـــهم

يفعل ذلك فى نغمة تعطينى الاحساس بالشفقة أو التأسى أو الحزن من أجلى ، وبعضهم فى احســاس بالتشــاؤم والكآبة ، وهؤلاء يشــوحون فى وجهى بقرف قائلين : « أعوذ بالله » ، فيرد آخر معلقا : « شايل طاجن سته » ، ثم يضحكون · تتطوع أمى قائلة أن السبب فى جعل وجهى هكذا مثل قعر الطاسة هو أن أبى لايدير ماكينة الغناء ، ثم تنظر فى وجهى وتبتسم ، فأعرف أنها تخلق بذلك مناسبة لأن يتطوع بعض الجالســين فيرجوا أبى أن يدير الماكينة ولو لخمس دقائق حتى تنفك عقد وجه الولد · ومن أسف أنهم لم يكونوا يفعلون ، لأنهم بدورهم كانوا قد باتوا موقنين أن أبى قد خلع ماكينة الغناء من حياته الى الأبد ، بعد أن كانت تسليته الوحيدة طول الليل والنهار ، وكان يبدوا حزينا أشد الحزن وهو يستمع اليها ، ويعلق أهل دارنا همسا قائلين أن هذه الماكينة هى جذر الحزن فى حياة أبى ، فهى تذكره بأيام عز غابرة بات يحب لو ينساها ، وكان ينساها بالفعـل ، اللهم الا فى بعض حالات صـفو نادرة يحلو له أن يستخدم الماكينة فى مقالب ضـاحكة ، وسجل الذكريات فى مجالس بلدتنا يحفل بالكثير منهـا ، خاصـة تلك المتعلقة بالشيخ عصران الذى كان يحتكر الخطبــة فى المسـجد مستخدما قواه العضلية وعزوة عائلته مع أنه ممل جهول يقرأ من كتب صفراء خطبا عمرها مئات السنين ، واحس أبى باشمئناط الناس جميعا منه وضيقهم بخطبه السقيمة فأراد الهزء به ، فأوهمه انه ــ أبى ــ يستطيع أن يسجل له اسـطوانة على هذه الماكينــة بصوته على شرط أن تكون خطبة عصماء ، فمكث الشيخ « عصران » اسبوعا يعالج هذه الخطبة ويدبرها من مصادر قديمة ، ثم جاء لأبى فى الموعد المحدد بيننا ، وكانت الشلة التى يجلس معها أبى موجودة بكامل هيئتها ، وقد اضيف اليهم عدد كبير من علية القوم ممن علموا بأمر هذه العجيبة التى ستحدث اليوم فى مندرتنا · من بين الأسطوانات التى كانت عندنا أسطوانة مسجل عليها فاصل

من الضحك الحشاشي مجرد ضحك ، ناس اندمجوا في ضحك ماجن تعلو موجاته لتهبط من جديد ثم تعلو ، يتخللها شخر وغنج من الضاحكين غير مقصود · ثبت أبى هذه الاسطوانة عند بداية شخرة من هذه ، ثم سلط النفير فى مواجهة « الشيخ عصران » موحيا له أن يتكلم فيه ، وأدار أبى يد الزمبرك فملأه وفعل بعض اجراءات وهمية وأشار للجالسين بالصمت ، ثم صوب فمه الى النفير وقال سيداتى وسادتى نقدم لكم هذه الخطبة للعالم العلامة والحبر الفهامة العبد الفقير الى ربه تعالى الشيخ عصران ، ثم أشار للشيخ عصران ، الذى سمى باسم الله وصلى على النبى وآله الكرام أما بعد ·· وراح يلت ويعجن ساعة بأكملها ينشال فيها وينحط من الانفعال والعرق والحماس ، نثر يتخلله شعر وأحاديث وآيات ·· والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ثم صفق الجميع ، وقالوا ــ وكان بعضهم يعرف حقيقة الفولة ــ : « عايزين نسمع بقى الأسطوانة ياعبد الفتاح أفندى » · فقال أبى : « حاضر » ، ثم أدار الأسطوانة فجأة فاذا بصوت الشخرة يندفع من النفير مجسدا تتلوه ضحكات نشوانة ماجنة ، واذا بالقوم كلهم ينخرطون فى ضحك مجنون ··

أسود يوم كان يوم أن خرجت هذه الماكينة من دارنا بكل ملحقاتها ، اذ كان مرض الصفراء والطحال قد حل بى أنا وشقيقى التالى لى مباشرة ، وتطلب الأمر عرضنا على أكثر من حكيم خصوصى فى البندر ، الذى ماأسرع ما يكتب الروشتة ، وروشتات الحكيم فى بلادنا شىء مقدس · رشحت أمى بعض الحلل النحاس والطشت الكبير لكن أبى لم يجد مفرا من التفريط فى ماكينة الغناء ، هكذا اقنعه « الحاج مصطفى الحداد » مرة أخرى فى سهرة له فى دارنا امتدت كالعادة حتى منتصف الليل فى ضحك وفرفشة وتدخين

وشرب شاى ولعب طاولة ، ثم دفع لأبى أربعين جنيها وبعث فى الصباح من حملها ونحن نشيعها بصوات وولولة كما نشيع نعشا يضم رفات عزيز • وظلت هذه الحادثة تصيبنى بغصة ولوعة كلما تذكرتها أو سمعت صوتها ، لم يكن حزنى على فن أو ما أشبه انما كان حزنى لأننى وأخوتى لن نجد بعد اليوم شيئا نتباهى به على الأولاد • لكن ذكراها لم تمت حقا الا بعد آن فوجئنا بظهور ذلك الشىء المسمى بالراديو ينتشر بسرعة فى أكثر من بيت ثم فى أكثر من دكان •

مخطىء أنا حين ظننت أيام ذاك أن سبب حزنى من البداية كان مجرد عدم استجابة ابى لطلبى فى ادارة الماكينة • فالواقع أنه كانت هناك عشرات الأسباب التى تجعل منى حزينا بالفطرة ، يكفى أن أنظر فى وجه أبى ، الذى رأيته ضاحكا قط ، ويكفى أن أنظر فى عينى أمى لأجد الحزن فيهما يسافر مسافات بعيدة الغور مجرد رؤية عينيها يدفعنى الى الشعور بالرغبة فى البكاء حزنا عليها • أراها لا تزال فتاة صغيرة ، وأرى أبى طويلا كالنخلة فيه خشونة ومرونة • شعر جسده تجاوز مرحلة الشيب الى مرحلة الاحتراق والتفحم ومع ذلك يبدو قويا جبارا وان كان مسنا • هى رفيعة الخصر ممشوقة القوام ناهدة ، كمهرة اليفة وديعة ، حمراء الوجه ينساب شعرها الذهبى الغزير فى ضفيرتين سخيتين مبدورتين تنتصفان عند الحاجبين ، كتعريشتين حول عشين بارزين ، تنطلق منهما عينان تحومان على وجه العجوز تغمرانه بالحنان والدفء ثم تعودان الى العشين ، صوتها الغليظ الدافى يعكس عراقة أنثوية كأنها بنت أمنا حواء مباشرة ، بقدر ما يعكس نبرة الشهامة فى أصوات الرجال الأصلاء • وكنت كثيرا ما أسأل نفسى : ما كنه ذلك القدر الذى يحكم على فتاة صغيرة كهذه جميلة مثلها أن تتزوج كهلا كهذا فى عمر جدها الثالث وتنجب منه زرية

عيال يعجز عن اطعامهم على نحو ما يطعم الأولاد فى أقل العائلات فقرا ..

الى أن حدث ذات صباح مبكر أن قمت مندفعا نحو الكنيف أفرغ بولتى ، فاذا بى ارى أمى واقفة فى قلب الطشت عريانة تماما كما ولدتها أمها ، يتصبب شعرها مع خيوط الماء والصابون على جسدها ، واذا بأبى مرتديا الفانلة والسروال مشمرا ذراعيه ممسكا بالليفة الصابونة يدعك جسدها برفق ويصب بالكوز ماء ساخنا يأخذه من الدست النحاسى الكبير ، فبدت هى طفلة صغيرة جدا رغم ضخامة حجمها وبدا هو عملاقا يغسل جسد ابنته ، ولم يفزع من ظهورى وان كانت هى قد انكمشت على نفسها قليلا فى قليل من الحياء والحرج ، لكننى ارتددت مذعورا أرتعش بمشاعر غامضة ..

فى المساء نتقلب على المرتبة المفروشة فوق حصيرة على الأرض فلا نعرف متى صعدت هى الى السرير ذى الناموسية البرتقالية اللون المقفلة على صمت كاذب وان بدا عميقا ، وضوء القمر المتسلل من الشباك المواجه للناموسية يرسم على الناموسية شبكة غليظة من ظلال أعواد حديد الشباك ، تمتد مربعاتها لتشطر وجوهنا وأقفيتنا فأظل لبرهة طويلة استشعر الصمت وأحاول الغوص فيها ولكن أنفاسا دافئة أحس أنها تكاد تتكلم بين مربعات الظلال ، صوت كلام يوشك أن يؤوب الى صمت ، وصوت صمت يوشك أن يؤوب الى كلام . غير أن مربعات الظلال لا تلبث أن تنتفض كأنها ترقص على موسيقى خفية ، ينساب ارتعاشها فى أوصالى شيئا فشيئا كارتعاشة فخذ أمى تحت رأسى عندما كانت تفعل ذلك لتجلب الى النعاس ، وبالفعل يستغرقنى النعاس ..

وفى الصباح لا نعرف متى استيقظت ولكننا نشم رائحة الحياة فى لحظة نكون فيها بين النوم واليقظة ، ورائحة اللبن المغلى

الذى يجود به علينــا أبناء عمومتى كل يوم ، ورائحة وابور الجاز المشتعل ، ورائحة عرق أبى الذى رماه فى طشت الاستحمام فى الحجرة المجاورة ، وقطع الجبن القريش التى ستوزع علينا كل واحد قطعة فوق رغيف عريض كالمطرحة · هى واقفة له بالفوطة والصابونة حتى ينتهى من الفطور ، تناوله الصابونة ، تنحنى كانحناءة ضوء الشمس الذى كان مارا من أمام الشباك فتعرف على لونه فى الناموسية البرتقالية فاتحد معها فى تماذج بديع · تمتزج عينى باللبن المخلوط بالشاى والكوب محاط بساقى المتربعتين رغم خوفى وتوقعى من تكرار النحس بأن أنتبه فجأة فأرى الكوب مندلقا لسبب من الأسباب يتضح دائما اننى مصدره · الابريق النحاسى سمهرى القوام يشبه قوام أمى تماما ينحنى هو الآخر فى يديها ليصب خيط الماء فوق يدى أبى وهو يقلب الصابونة الكبيرة الزرقاء المربعة بينهما ، فيلمح فص الياقوت الأحمر فى الخـــاتم الفضى فى بنصره ، يتمضمض يبصق فى الطشت يتمخط · تعتدل أمى ، تهتز شرخة الشمس البرتقالية ثم تستقيم فى وضعها من جديد · أبى يتناول الفوطة ويجفف بها فمه ويديه · يكون الشاى بغير لبن قد أعد ، يحلو له أن يتركه حتى يرتدى ثيابه · تفتح أمى درج البوريه المستطيل ذى المقابض النحاسية الصـدئة ، تخرج « القطنية الشاهى » · يخلع أبى ثوب النوم فاذا هو يبدو كخيال مآتة عملاق ذى ساقين رفيعتين تغطيهما وبرة من شعر كنيف محترق يتصاعد الى مافوق ركبتيه وتغوص تحت سروال كبير بحجر مترهل وتكة ذات شراريب ، الصديرى فوق الفانلة أم كم ، تتدلى من ابطه كتينة الساعة فى جيبها الصـغير وأخرى تمتد نحو الابط الآخر علقت فيها محفظة جلدية كبيرة ذات جيوب لا حصر لها كلها فارغة الا من بعض أوراق خاصة فيما عدا جيبها الكبير يحوى قروشا قديمة لا تصلح للصرف ولكنها مثل الراقوبة يزعم بموجبها حالفـا

للآخرين أن النقود لم تفرغ من جيبه قط · هذه المحفظة كثيرا جدا ما يحتدم النقاش بينه وبين أمى حول طلب تطلبه فاذا هو ينتزع المحفظة من عروتها ويقذف بها فى وجه أمى صائحا بعنف وعصبية : « خدى المحفظة أهى يا مره خليها تنفعك ! » ·· لحظة ذاك يتدخل الأسف ليعوج ابتسامة أمى على ركن فمها كأن الشفتين تزيدان الرجوع فى الكلام والعودة لحالة الصفاء ، لولا أنها تذق فى فراغ المحفظة والا ما فرط فيها هكذا ، بل أنه ـ تقول فى تحفظ وأدب ـ لم يفعل هكذا الا لكون المحفظة فارغة ، ثم انها تكتم رغبتها فى البكاء وتزعم أنها لم تتأثر ، تهز كتفيها وتقول فى لا مبالاة كاذبة : « أنا مالى أنت حر ·· ان كان على أنا أقدر أعيش طول العمر من غير أكل ·· أكلت فى بيت أبويا كفايتى لحد ما أموت ·· الدور والباقى على العيال دول » ··

فيبدو على أبى انه قد ندم على عصبيته ، مع ذلك لا يريد النزول عن كبريائه حتى فى لحظة كهذه ، ارفع عينى عن كوب الشاى واغرزهما فى عينيه فأحس كم هو حائر مهان ، هو الذى استأنف حياته من اول وجديد بعد أن انتهت رسميا وفعل ما لم يفعله شاب فى العشرين مكافح مناضل ، يبدو الآن كتلميذ صغير غارق فى الخجل حتى أذنيه ، يزداد عصبية وجعيرا بغير داع ، يتراجع عن ثورته فى التو ، ويرقق من لهجته فجأة : « ياستى ربنا يسهل ما تحملينآش الهم أكثر ما احنا] ، لكنه يشعر أنه لم يتقن الاعتذار ، فيشعر بالبواخ ، فيرفع صوته ثانية فجأة أيضا : « أحسن والله أسيب لك الدنيا وأطفش » ، فتشهق النظرة فى عينى أمى كطائر أفزعته طلقة رصاصة طائشة ، تظل النظرة الوجلة تنتفض على مدخل العينين لبرهة طويلة منفوشة الريش مرهقة ، وفى العادة تظل هكذا طول النهار ··

تحاول اعتقال نظرتها وهى تناوله الجلباب الصوف ذى

الأقطنة الحريرية ليرتديه فوق القطنية ، فينقلب فى الحال الى عملاق بحق وحقيق ، ثم يجلس على الكنبة محاولا نسيان عصبيته بقراءة سورة اذا وقعت الواقعة ليس لها من دون الله كاشفة ، ولا نعرف لماذا هذه الآية بالذات يحلو له ترديدها صباح كل يوم قبل الخروج · تقعى أمى امام الكنبة ، فتكبر الاستدارة أسفل قناة ظهرها ، تمد يدها فتسحب الحذاء الأبيض على بنى من تحت الكنبة ، حيث يستخرج أبى من فردتيها فردتى الشراب يلبسه فى قدمين تلوت أصابعهما فوق بعضهما · أمى تمسح الحذاء بذيل ثوبها حتى يلمع ، تتناول قدميه وتضعها فى القردة وتعقد رباطها عقدة وشنيطة ، ثم تفعل بالأخرى ، ونحس كأنها تكاد تحتضن قدم أبى وترقيها من الحسد · واذ يقف ليعدل طوقه أمام مرآة البوريه تكون هى قد سحبت الطربوش الذى يفضله ، من بين عمودين من الطرابيش معلقين فى مشجب بجوار السرير ، يأخذه أبى فيسوى زره الأسود ويمسحه بكم ثوبه ثم يضعه فوق رأسه بعناية جاعلا الزر فى الخلف تماما ، فتستطيل قامة أبى وتعلو · تسحب أمى البالطو وتنفضه بفرشاه هتماء ثم تفرده خلف ظهر أبى ليمد ذراعيه الى الخلف ويدخلهما فى الكمين ويردهما ويتهندم ، ويعلق عوجاية الشمسية فى يسراه ، وبيمناه يمسك العصا الأبنوس ذات القبضة المشغولة من سن الفيل على هيئة أسد يمد رقبته الملفوفة بالشعر يقال أن منها اثنين فقط واحدة لدى الخديوى والأخرى هى هذه · يستدير ليشرب كوب الشاى فى شفطتين ، يجلس ليلف سيجارة رفيعة يشعلها ثم ينهض ، ماشيا ، تخطو أمى وراءه فنخطو فى أثرهما لنهبط السلم الخشبى الكبير ذى الدرج والدرابزين المشغول بالمخرطة · نعبر الدهاليز ليفتح أبى الباب ويخرج ، تقول له أمى : « ربنا معاك ·· مع السلامة » · فى الغالب لا يرد · فى الغالب أيضا تغلق الباب وراءه بهدوء ثم ترتد لنرى الدموع تنحدر على

خديها بغزارة لا يوقفها مسحها بكمها ، ترفع ذيل ثوبها وتتمخط فيه · تظل طول النهار تحاول تهدئة نظرتها التى تأبى الا الشرود الطويل عن العشين الجميلين · لكنها كثيرا ما تستعيد رونقها ، اذ أن أبى سريعا ما يعود ذات مساء وفي عينيه وملامح وجهه رضاء جم ينبىء عن انتفاخ المحفظة بأوراق مالية وفيرة ، ذلك أن أبى يعمل فى عمل هامشى متصل بمصلحة المساحة لكنه يدر عليه دخلا مجزيا بعض الشيء وان كان مشقيا ، حيث تخصص فى تخليص مستندات وأوراق ومسائل ومصالح قانونية خاصة بالناس لدى مصلحة المساحة ، فكان خير وسيط بينهم وبين المصلحة ، بخبرته يعرف الاجراءات وأماكن المستندات ودورات الأوراق بين المكاتب وصيغ الطلبات التى ينبغى أن تقدم للمصلحة ، فينوب عن الناس فى فعل ذلك كله مقابل أجر يضيفه على الرسوم الرسمية المطلوبة ، وقد اقتضاه ذلك أن يسافر كل يوم الى المدينة حيث يمشى على قدميه ستة كيلو مترات فى الصباح الباكر ليصل الى محطة القطار فيركبه سبع محطات حيث مبنى مصلحة المساحة فى البندر ، ويرجع بعد انصراف الموظفين لينزل فى نفس المحطة ويعود ماشيا نفس المسافة ليكون فى البلدة قبل صلاة العصر ، ويقولون فى بلدتنا أن هذا المشوار اليومى الساخن هو الذى يطيل عمر أبى ويعطيه الصحة ··

ثم أننى وأخوتى ما كدنا ندب بأقدامنا على الأرض حتى اتجه كل منا نحو صنعة يتعلمها حتى لو أراد الذهاب الى المدرسة ، أذهب الى المدرسة لا بأس مادام هذا على الأقل اجباريا ، فان استطعت بعد ذلك أن تنفق على نفسك بنفسك لكى تواصل التعليم فأهلا وسهلا وتكون اذن رجلا · هكذا كان أبى يقول لنا على الدوام ، ثم يؤكد أن الصنعة فى النهاية هى الأهم مهما تعلمت وصرت أفنديا : صنعة فى اليد أمان من الفقر هكذا قال الأولون ·

١٤ ــ عمتي الكلافة

لي عمتان كبيرتان باقيتان على قيد الحياة : عمتي « نجية الكلاف » وعمتي « خديجة الكلاف » • وكل منهما ليست مجرد عمة ، فكل عمة هي أكثر من هذا بكثير ••

ياما ضمت القعدة في مندرتنا كل أبناء عمتي « نجية الكلاف » وكل أبناء عمتي « خديجة الكلاف » ، فضلا عن أبناء عمومتي وما أكثرهم • لعمتي « خديجة الكلاف » أربعة أبناء كبار هم : « أحمد الجرف » و « شعبان الجرف » و « فايق أفندي الجرف » و « ستات الجرف » • يفرح أبي كلما جاءوا لزيارتنا والجلوس معه قليلا • أما أبناء عمتي « نجية الكلاف » فانهم قبيلة : ابنها « عبد العظيم الفقي » ، و « شلباية عبد العظيم » ، وابنتها ــ أخت عبد العظيم ــ « هانم الفقي » ، وابنتها الأخرى « تحفه الفقي » • كانوا أيضا يجيئون لزيارتنا ولكن على طريقة عجيبة ، فأحدهم يجيء في الأول ، ثم يجيء بعـــده من يستعجله ، ثم يجيء من يستعجل الاثنين ، وهكذا الى أن يحضروا كلهم • وحينئذ تضيق دارنا وتصير في لغط لا نعرف ان كان احتفالا أم معركة ، خاصة أن لــ « تحفه الفقي » ابنة عمتي « نجية الكلاف » أربعة أبناء كبـار مخنشرين هم « مغاوري » و « مرشدي » و « نفيسه » و « نعيمة » ،

وكانوا أيضا يحضرون لتصديع رأس أبى بشكاواهم التى لا تنتهى من عمتى « نجية » ··

دار عمتى « نجية الكلاف » متاخمة لدارنا من الجانب الأيمن ، حيث يمكن أن نقفز السطح من دارنا الى دار عمتى الملاصـــقة لنصير بعد قفزة أخرى فى بيت عمتى « نجية » التى من فرط شهرتها فى البلدة استغنى الجميع عن اسم « نجية » واكتفوا بـ « الكلافة » ، فاذا قالوا : الكلافة ، فليسوا يقصدون عائلتنا بل يقصدون على وجه التحديد عمتى « نجية الكلافة » ··

مع ذلك فان الود الأكبر كان قائما بيننا وبين عمتى « خديجة » رغم أن دارها تبعد بضع حارات ، لكننا نختصرها ونعبر حائط الدار الخلفى القريب منا نوعا · عمتى « خديجة » وأبناؤها أسرع ناس يتواجدون فى دارنا · اذا استمعوا صياح أبى فى الدار أو فى الشارع قفزوا الجدار وحضروا لمعرفة السبب ، فان كانت مشادة بينه وبين أحد فانهم يأخذون له حقه على نحو طيب · ونادرا ما كان أبى يتدخل فى عراك بسببهم ، فهم على درجة كبيرة من الطيبة والأدب ، اذ ورثوا رقة عمتى « خديجـة » وحســن أخلاقها ، فقد كانت هى الصغرى ، وقدر لها أن تعيش مع جدى فى مدينة الاسكندرية صيفا والقاهرة خريفـا والأقصر شـتاء · بيضاء هى شاهقة ، سمينة ، لها اكثر من لغد تحت ذقنها ، تمشى كالمحمل ، تتكلم بلهجة الأسياد وان تواضـعت ، تخـلط كلامهـا بألفاظ فصيحة وآيات واحـــاديث ، بأمثلة شـعبية لا حصر لهـا ، حكاياتها لا تنفد ، تكلم الرجـال كأنها الأخشن ، والنساء كأنها الأشـــد أنوثة ··

أما عمتى « نجية الكلافة » فقد كان فيهـا سـمار أبى · صوتها يشبه صوته الخالق الناطق ، نفس البحة ، نفس الانفلات لدى أى انفعال ، حيث تندمج فى زعيق خطابى هائل ، بكلمـات كبيرة ، حتى ليخيل لمن يستمعها أن الأمر جد خطير ، فى حين أنه

ربما كان تافها · يأتينا صوتها من أمام دارها قافزا سطح دار عمي واصلاً الينا في المندرة ، فيفك أبي تربيعة سناقيه ويبحث بقدميه عن الشبشب تحت الكنبة في لهفة مذعورة ، يرتدي ثوبه ويسحب عصاه مندفعا · نندفع نحن خلفه الى أن يلف هو من الشارع العمومي ليصل الى دارها في الحارة السد الملتوية نكون نحن قد قفزنا السطح وصرنا فوق سطح دارنا نستطلع الخبر ، فما تكاد تشعر بنا حتى تنخرط في الصياح بحماس أكثر ، حتى يلحق بها أبي ويسألها من فوره : « فيه أيه يا كلافة ؟ » · فتجيبه في خطبة عويصة · ينبرى هو الآخر مزعقا زعيقا فيه توعد وتهديد بالويل · يلتم الناس ، يعودون به الى المندرة ، ثم ينتبه الجميع في المندرة الى وجود « أبو سماعين » ، فيصيحون به كأنما لنسيان الأمر : « ولع الوابور يا أبو سماعين » ، فيشعل الوابور على الفور وتبدأ زردة الشاي ، ثم لا تلبث عمتي الكلافة أن تجيء متحاملة على عكازها لترضية أبي · أما عمتي « خديجة » فتكون أول الواصلين ··

ما أندر ما تزورنا عمتي « الكلافة » ، لكن وجودها قائم بيننا على الدوام وبشكل شديد الحدة · اذ هي تجلس على الدوام فوق مصطبة أمام دارها الواقعة على ناصية الحارة السد ، بجوارها المسجد ، باب الميضأة ملاصق للمصطبة ، لا تكف عن الصياح بصوتها المبحوح القريب من صوت الرجال · هي قصيرة القامة ، ضئيلة الجسم نسبيا ، هي وأبي في سمرتهما وملامحهما أكثر شبها من أي أحد في عائلتنا بصورة جدي الكبير المعلقة على حائط المندرة تنفضه أمي كل يوم بخرقة نظيفة هو وزجاج المصباح البللوري المتدلي من السقف بجنزير ورمانة تشدها أمي فيهبط المصباح فتغسل زجاجته الأنيقة الكبيرة وتعمر المصباح بالجاز ، تدفع الرمانة فيصعد المصباح في ايقاع صوتي جميل ··

يعلم أبى أن صـــياح « الكلافة » لا يعنى بالضرورة عراكا يستدعى نهوضه لاغاثتها ٠ هو الوحيد الذى يستطيع تميز نبرة العراك من صوتها ومن نوع الكلمات التى تقولها ٠ احيانا تنبهــه أمي قائلة : « يابن عمتى الكلافة بتتخانق » ، ينصت أبى لصوتها الذى راح يزأر على ناصية الحارة وحده ، فيعد انصاتة سريعــة يقول أبى انها تزعق للعنزة التى أكلت قمحها المنشور ، او لولد نجس وضوءها بماء قذر ،٠او للجيران الذين استلفوا المحراث فلم يردوه ، أو لابنها الذى نرفزها بكلمة ٠ صوتها أعلى صوت فى منطقـة دارنا ، يغطى علي صـــوت المؤذن بل على صـــوت خطيب الجمعة ، يشوش علي المصلين يلخبط غزلهم ، يلعنونها فى سرهم ، لا يمنعهم من الجهر باللعنات الا اكتشافهم فجأة أن أبى هو الذى يقف على منبر الجمعة خطيبا ٠ ابى نفسه يحس بالحرج وينزعج ، غير انه كان أشد جنونا منها ، لم يكن يتورع عن قطع الخطبـة والخروج اليها ساحبا سيف المنبر ، يعبر فناء الميضـــأة ليصير أمامها ، يقترب منها صائحا بها : « اختشى بقى يا كلافة ٠٠ مش عارفين نصلى ٠٠ انتى ايه ٠٠ معندكيش اسلام ؟ » ، حينئذ ترفع « الكلافة » عكازها متأهبة للقتال ، غير انها قبل أن تشرع فى لعن اباء الأبعد الانجاس تصنع من يدها تندة فـــوق عينيها ناظرة فيه فتكتشف انه اخوها ، مع ذلك لايكون لديها مانع من الاستمرار فى صياحها ، لكنها تراها فرصة لاظهار طيب أصلها ، وأنها من عائلة ذات تقاليد مقدســة ، فاذا هى تســـتدرك قائلة : « حاضر ياخويه ٠٠ حاضر » ، ثم يصعب عليها أن فمها سيغلق ، فتروح تستانف قراءة ما كانت تقرأه من أوراد وصلوات لا يعــرف أحد كيف تبداها أو كيف تنهيها ، يصعب علي ابى كذلك أن يتركهـا محرجة بعد شخطته ، فى نفس الوقت يحب ان يظهر سيطرته على اخته ولو كانت اكبر منه سنا ، فاذا هو يميل عليها هامسا ببعض كلمات يسترضيها بها ، ثم يعود الى المسجد ليستانف خطبة الجمعة

من أول وجديد · يظل صوت « الكلافة » صامتا حتى قيام الصلاة ، وفى عز ركوع المصلين يتسلل شيئا فشيئا ثم لا يلبث أن يعلو مشوشا على السور والفواتح والتحيات · حينئذ يكون ختام الصلاة معركة حامية بين أبى وعمتى « الكلافة » ، حيث يقف هذه المرة على ملأ من المصلين يوبخها توبيخا شديدا، ويستنزل عليها اللعنات ، يطالبها بالكف عن أن تكون قاسية مع الناس ، ينذرها بانها ستظل تكره فيها الخلق الى أن تلقى بنفسها فى جهنم الحمراء حيث تتلقى جزاء طبعها الفظ ··

ثم أنه يتركها ويمشى ، لتنقطع الصلة بينها وبيننا اياما تقصر أو تطول · لكن ابى لا يكاد يسمع صوتها من بعيد حتى يتمعن برهة كأنه يفكر باذنيه ، فيأخذنا الانتباه معه ويغد برهة يفيدنا قائلا : « فيه طفل حذف طوبة على بطتها » ·· وفى لحظة معينة نراه ينتفض ويجرى اليها فنجرى وراءه لاغاثتها ··

على قدر ما كانت تفرحنى زيارتى لدار عمتى « خديجة » كنت أشعر بشىء كالمهانة كلما زرت دار عمتى « الكلافة » ··

فى دار عمتى « خديجة » كنت أرى وسط الدار نظيفاً · هذه قاعة ابنها « شعبان » · وهذه قاعة ابنها « أحمد » أما ابنهـا « فايق » فهو وكيل محام فى دسوق ، لكنه اذا جاء البلد كان أكثر أبهة من المحامى نفسه ، وأكثر منه لباقة ، يدخن بشراهة ، يرمى السيجارة بعد انتصافها مباشرة ، نتفرج عليه كلنا بانبهار شديد ، يحاجج المشايخ والسياسيين وكل من هو غير وفدى ليثبت له بطلان آرائه وخطئها · أما ابنها « شعبان » فجندى فى الجهادية ، ومهنته فى الأصل صيد السمك ، عشقها فتعلمها فكسب منها ، خاطب لأخت خطيبة اخيـه « احمد » ، قاعته مغلقة على ما يجوشه فيها من عفش للزواج ، عمتى « خديجة » تفتحها للضيوف لتفرجهم على ما فيها ،

احيانا لتفرجني أنا وحدى قائلة : « وادى ياسيدى كذا وكذا » ، ثم تفاجئني بشيء من الصوف الجميل اسمه « الشرز » ، تلبسني اياه وتثنى أكمامه الطويلة فيحتويني الدفء والشكل الجميل ، تقول : « ابن عمتك استغنى عنه بعد أن ضاق عليه فخذه لك يدفئك »٠ قاعة ابن عمتي « أحمد » مفتوحة على الدوام مع أن فيها بضاعته ، اذ هو بائع سريح ، يبيع الأطباق الصيني والأكواب والصواني النحاس والترابيع وعقود الفل والترتر والأستك والغوايش والمناديل والكيزان الصاج وفوق ذلك بعض أصناف البقالة يشتريها من البندر ويعبئها فى خرج وقفصين يضعهما على حمار يسافر الأسواق فى القرى المجاورة ، حتى بعد أن افتتح دكانا ظل يسرح فى الأسواق تاركا زوجه تبيع فى الدكان وهى عروس لاتزال ٠ وكنت أجد فى نفسى الجرأة على فتح الصناديق مهما كانت محرزة ؛ وأن آخذ منها ما أشاء ٠ لم تكن هى تنتظر حتى يلفت الشيء نظرى ، بل كثيرا ما تجيء لى بحلوى من أماكن خفية ، وبقايا طعام حلو ، تقول لى وهى تربت على ظهرى : « كل ياخوية » ، فأجدنى آكل فى شهية ٠ وتقول لى : « أجيب لك تانى ؟ » ،فأقول : « الحمد لله » ، ولا تأمن أن تتركنى أعود وحدى من الطريق الطويل ، بل تصعد السلم وتسقطنى فى الشارع برفق من فوق الجدار الخلفى ، لأنطلق عدوا الى بيتنا مباشرة ٠

أما دار عمتي « الكلافة » فان جسمى يقشعر كلما دخلتها ٠ المرات القليلة التى دخلتها فيها كانت لأسباب ، فمرة مع أمى ، وأخرى مع أبى ، وثالثة لأعطى عمتى « الكلافة » طبقا من الكسكسى عليه فخدة بطة مما طبخناه يوم موسم ، وهى عادة يصر أبى عليها ، لكل أخت من أختيه نصيب فى مطايب موسمية حتى ولو كانت مليونيرة وهو شحاذ ، حتى ولو كان طبقا من الكسكسى وفخذ بطة ٠

كثيرا ما كنت العب مع العيال فى حارتها · يقودنا اللعب الى الوقوف بجوارها على المصطبة · تدفعنا عنها بالشتم لنا وللذين خلفونا · أتخلف عن العيال ، أريها نفسى ، تنظر فى طويلا فلا يبدو عليها أنها تعرفنى ، يداخلنى اليقين أنها لا تعرفنى الا وهى موجودة فى دارنا ، أما عند دارها فان حدث ودخلت دارها وجدتها قذرة غاية القذارة ، الدهليز متصل بالزريبة ولا فرق بينهما فى شىء ، ورائحة الروث تختلط برائحة اللبن والقشدة ، فى السقف فتحة كبيرة لا يتساقط منها ضوء قدر ما يتساقط من حطب وجلة ، على الحائط يتساند نحو الفتحة سلم من الخشب غير متماسك بعض درجاته مشبوكة من ناحية واحدة ··

ذات يوم كان ابن عمتى « شعبان » يساعدهم فى تطليع الزريبة · مهمته أن ينحت روث البهائم المتراكم على الأرض ، يملأ منه غلقانا ، تحملها « شلباية » و « حميدة » ، و « نفيسة » الى الخلاء فى كوم كبير ، حيث يجىء « مغاورى » و « مرشدى » و « على » ابناء خالهما فيحملون هذا الروث فى الأغبطة على ظهور الحمير الى الحقل لتسميد الأرض به · عند الغداء كنت معهم متعلقا بذيل « شعبان » ابن عمتى ، ورحت اتفرج عليهم حيث امتدت الطبلية والتف حولها مجموعة هائلة من الأيدى والأذرع المتطاولة المتداخلة تكاد تتناطح ، لا تعرف يد من هذه ولا ذراع من هذا ، وطبق المحشى من الكرنب يرفع ليمتلىء من جديد عشرات المرات ، و « عبد العظيم » ابن عمتى « الكلافة » يبدو كالمذعور يريد ضمان ثلاث محشيات على الأقل من الطبق كله ، فيخالسهم ويطبق كفه على ثلاث محشيات يبرز منها واحدة فقط بين أصابعه ، ثم يدس كل ذلك فى فمه دفعة واحدة فيزلطة زلطا ثم يوحوح ويدمع من سخونة الأكل وحموه ، لفرط ارتباكه وقعت احدى اختلاساته فى حجرى ، فمال لياخذها ، فنظر فى عينى لأول مرة فوجدنى أبحلق

فيه مذهولا ، فلم يقل لى : « كل » ، بل قال لى وهو يفشخ حنكه مبتسما عن أسنان صفراء غليظة : « لمؤاخذة يا ابنى أصل العيال حيسرعونى » ·

فى ذلك اليوم تقريبا عرفت ـ لأول مرة ـ ان هذا ليس شقيق ذاك ، وأنهم ليسوا جميعا أبناء عمتى « الكلافة » · فـ « على » و « حميدة » و « شلباية » هم فقط اخوة اذ هم أبناء « عبد العظيم الفقى » ابن عمتى « الكلافة » · أما « مغاورى » و « مرشدى » و « نفيسة » و « نعيمة » فهم أيضا اخوة اذ هم أبناء « تحفة الفقى » ابنة عمتى « الكلافة » أيضا ، و « تحفة » هذه قد ماتت منذ زمن بعيد ، وزوجها أب أبنائها الأربعة قد مات هو الآخر منذ زمن بعيد ، وأن عمتى « الكلافة » أخذتهم وربتهم فصاروا يخدمون فى أرضها كأبناء للدار ، وأصبح خالهم « عبد العظيم الفقى » خالا وأبا وسيدا للدار بعد موت أبيه · عرفت أيضا أن لعمتى « الكلافة » ابنة كبرى اسمها « هانم الفقى » متزوجة من ابن عم لها نصف شيخ ونصف فلاح يدعى الشيخ « عبد المعبود الفقى » ولها منه رجال متزوجون وعرائس كالورد ، وحينما عرفت هذا تذكرت أننى كثيرا ما كنت أراها تستوقف أبى فى الشارع فتسلم عليه وتحب على يديه قائلة : « ازيك ياخال » ، وكان أبى يربت على ظهرها قائلا : « ازيك انتى يا هانم وازى العيال » ، ثم ينصرف كل منهم الى حاله كان شيئا لم يكن ! ·

« مغاورى » ضخم الجثة كالباب ·· يشتغل كحمار ، لكنه اذا حرن على الشغل يلا السلامة · يدخل المسجد لا ليصلى بل لينام فيه حتى تتكسر ضلوع الأرض ، ثم يذهب خاله « عبد العظيم » ليأتى به ، يشترى له دخانا ويعطيه بعض قروش ، يضع امامه سفط العيش فيأتى على كل ما فيه مع طاجن لبن رائب · لا أحد يستكثر عليه ذلك فانه يقوم بشغل الدار كله تقريبا ، مع ذلك لا يرى

القرش الا اذا حرن ، أما اذا اشتكى لأبى من سته الكلافة وقرعها أبى بكلمتين فانها تنهال على « مغاورى » شتما وتوبيخا يستمر أسبوعا على الأقل ، لأنها كلما رأته تذكره بأنها لوربت كلبا لطمر فيه وعف عن شكواها ، فى حين لا يكف « مغاورى » عن الضحك ، ضحكته تشبه ضحكة « أبو سماعين تماما ، اذ أنه بارع فى تقليدها ، يزم شفتيه عند الضحك حتى لكأنها شفتا « أبو سماعين » وكأنه نفس الفم : « هو هو ··و ··و ··و ··ه » · تغتاظ عمتى « الكلافة » وتصرخ فيه : « بطل بقى الضحكة المهببة دى ·· داهية تسم بدنك ·· ما أنت تلاقيك زيه ·· طالع زيه ·· نفسك تعيش صايع وضايع » ، فيعيد الضحكة من جديد أكثر عمقا : هو هو ··و ··و ··ه » · ولو كان أبى حاضرا وضحكها أمامه فان أبى يسلقه بنظرة وبكلمة واحدة: « تأدب ياولد » ، فيسكت فى الحال ، فأحس أنا أن أبى هو الآخر يكره الضحكة المليئة باللامبالاة والسماجة وقلة الذوق ، لهذا فانه لا يكتفى بزجره بل يصيح فيه بعد برهة : « يلا غور من قدامى جاك بلا » ، فيقوم « مغاورى » بالفعل الى ركن بعيد ، فلا يلبث أبى أن يصيح كأنه يريد أن يصالحه : « ولع الوابور على الشاى » ·

مسموح لـ « مغاورى » بالتجول فى دارنا ، فهو فيها على الدوام ، يساعدنا ، يذهب بالطحين الى الماكينة ويعود به مطحونا ، يقضى لأبى الطلبات والمشاوير البعيدة ورغم أن أمى تكاد تكون أصغر منه سنا فانه يناديها قائلا : « يا مرات خال » ، ولا يرفع عينه فى وجهها أبدا ، ليس فى فمه سوى كلمة واحدة : « حاضر » · يتجسس دائما على ملابس أبى الصوفية التى يلاحظ أن أبى يهجرها قليلا ، لديه تاريخ دقيق لكل جلباب ، متى جاء وكيف والاحتفال بشرائه ومن الذى فصله والاحتفال باستلامه وفى كم مناسبة وكم حفل وكم سفرية لبسه فيها أبى ، ومن اى مكان أكلته العتة وفى

اى موضع نقرته نار السيجارة وما اذا كان الترزى قد قلب لأبى الثوب على الوجه الداخلى عند تجديده أم اكتفى بتغيير الأقطنة فحسب ، يذكر امى دائما بالجلباب الفلانى والجلباب الفلانى اين ذهب • تكون أمى محتفظة بالجلباب ، لكنها تظل تتناسى ناظرة الى أبى نظرة ذات معنى حتى يقول لها قولته المعتادة : « اذا كانت تنفعه اديها له » ، فتعطيها أمى له ، وحين يرى أبى الجلباب على جسد « مغاورى » بعدها فانه يثور ويقول لأمى : « مين قال لك تديها له ؟ •• دى لسة فيها لبسة ياولية ! » • لكنه يعود فيقول : « زى بعضه بقى •• نصيبه » • لايزعل « مغاورى » من أبى ، ولا من اى احد ، بل عمرى ما رأيته زعلانا قط ، انما هــو على الدوام يزم شفتيه ويضحك ضحكة « أبو سماعين » الشهيرة ••

يتصادف ان يدخل « أبو سماعين » فى تلك اللحظة • يتضايق ابي لأول وهلة ، يقول لمغاورى فى شىء كالمود : « افتكرنا القط جه نط » • فلا يعلق « أبو سماعين » بغير ضحكته الشهيرة يطلقها فيما هو متجه الى ركنه المعتاد فى مندرتنا على الكنبة المقابلة للكنبة التى يجلس فوقها أبى ، حيث يتقرفص • اما أبى فلا يلبث أن يداخله قليل من الابتهاج يحاول اخفاءه مع أنه فى عينيه ، وأنا وحدى احسه ، لأننى أعــرف أن « أبو سماعين » ربما يسرب الى أبى عدساية افيون صــغيرة من تحت ترابيزة الوســط حيث يتلقفها أبى ويدسها فى فمه خلسة • حيث يوجد « أبو سماعين » لا احد غيره يتولى سلطنة الشاى ، يقدم الكوب لأبى قائلا : « الشاى ياعبد الفتاح بيه » ، ولمغاورى قائلا : « الشاى ياسى مغاورى » • يرد أبى محرجا من لفظ البكوية الذى لم يعد فى الواقع يستحقه اليوم : « طب حطه قدامى » • ويرد مغاورى : « طب ياسيدى من يد ما نعدمها • ثم يتصادف ايضا أن تدخل عمتى « خديجة » تجــر نفسها لاهثة : « سا الخير ياخوية » ، وتجلس على طرف الكنبة

جوار الباب · يقول أبى : مسا النور ياخديجة » ، ثم يمد ساقيه على ترابيزة الوسط واحدة فى اتجاه عمتى « خديجة » والأخرى فى اتجاه « مغاورى » ، حيث يتناول كل منهما ساقا ويروح يدعك فيها مركزا الدعك بين المفاصل ، وأبى يتلذذ من دعك عمتى « خديجة » ، فيداها رخصتان وأصابعها طويلة مشبعة بالدف تضخ حنانا ، تلك كانت ميزة فى عمتى « خديجة » بوجه عام ، اذ ما تكاد تلمس أحداً أو يلمسها أحد حتى يحس برغبة دافقة فى أن يرتمى فى حضنها ، ذلك الحضن العريض الذى يخيل الى أنه يسع العالم كله · أما أصابع « مغاورى » فانها كعشرة من المسامير الحدادى ، تخربش ساق أبى تجعله يصرخ كل حين بفزع : « ياجدع متبقاش حيوان » · و « مغاورى » يشد وجهه الغليظ كالدربكة ويزم شفتيه الغليظتين ضاحكا ضحكة « أبو سماعين » « الشهيرة » هو هو هو ·· و ·· ه » وعمتى « خديجة » تحدجه من تحت الى تحت بنظرة استنكار مشوبة بالأسف وغيظ مشوب بالحنية ، تنهيها قائلة : « جاك سد بالك » ثم تعدل وجهها الملغد ذى الملامح الطفولية ، فتنجاب عن صفحتيه سحب الدماء · يسرح أبى قليلا ، يسرح الجميع تبعا لذلك ، يعم صمت أنيس أبرهة يتخللها صوت الوابور يون والماء يغلى مزغردا فى البراض ، واذا بالضحكة الشهيرة تقطع علينا الصمت الجميل فجأة ، خنفاء ذلك الخنف اللطيف المتفرد ، الذى يعطى الضحك شخصيتها الحقيقية فتضحك لذا فى الحال اذ هى صادرة هذه المرة من « أبو سماعين » نفسه أطلقها معبرا عن ابتهاجه المفاجىء بمنظر الشاى وهو يفرز رائحته وشمخته ثم وهو يخر من بزبوز البراض فى الكوب الصاج مجدثا نغما جميلا ورغوة يصفها « ابو سماعين » بأنها مخملية ، وسنة الأفيون تحت لسانه تكون قد غذت لعابه بجفاف يستلذه ، ويطلب له الشاى والتدخين بشراهة · وحيث تنتهى الضحكة لتتواصل من جديد فى نفس طويل غير ممل يصيح فجأة وبدون

سابق تمهيد : « يسقط مصطفى الحداد » ، ثم ينكمش على نفسه دافنا رقبته فى كتفيه علامة الخوف من ضربة قد يوجهها اليه العمدة وهو بعيد . نضحك كلنا لهذه الجرأة المفاجئة ، يستطرد « أبو سماعين » مغنيا على غير العادة مقلدا استغاثة الفجر : « نجار غطف حداد .. دقة وعمله شاكوش » . فنضحك فى نزق عال ، ويبدو على أبى انه قد أعجب بهذا الرأى . يشفط « أبو سماعين » الشاى متلذذا ويميل برأسه ناحية أبى ليسأله نفس السؤال ربما للمرة المائة ، فى كل مرة يسأل بنفس البراءة كأنه يسأل لأول مرة : « لكن الحاج مصطفى الحداد العمدة كان عايزك ليه يا عبد الفتاح بيه يوم ما بعت لك الفجر ! ؟ » . الأعجب ان أبى هو الآخر يرد عليه كأنه يرد لأول مرة ، بنفس الحماس ، فيحكى كيف أنه لبس ثيابه وصلى الفجر ثم مضى الى دار الحاج مصطفى الحداد يستطلع الخبر ، فالحاج مصطفى الحداد من اصدقائه القدامى وحين يطلبه فى لحظة كهذه فمعنى ذلك أنه تعرض لأمر جلل وعليه فليذهب اليه من فوره ، فما أن دخل أبى عليه فى حجرة الجلوس حتى وجد رهطا من علية القوم عرف أنهم جاءوا متخاصمين ، وجيء بالقهوة لأبى ثم بادره الحاج مصطفى الحداد قائلا : ياعبد الفتاح أفندى ياكلاف .. ما رأيك فى كذا وكذا ؟ ثم روى له موضوع الخصومة القائمة بين هؤلاء الجالسين دون أن يصرح باسمائهم ، وأفلح فى روايتها فاذا هى شيء لا يستحق الخصومة أو لا يستحقها الى هذا الحد ، قال أبى هذا بكثير من الأسف والاشمئزاز ، ثم أردف قائلا : ولكن لماذا طلبتنى أنا فى هذه اللحظة الحرجة من الليل ؟ فقال الحاج مصطفى الحداد : لكى تعطى ردا اسكندرانيا .. ان خصومتهم فى نظرى تستحق واحدة اسكندرانية ، وقد بحثت فيمن يصلح لهذه المهمة فلم اجد من هو أجدر منك يسحبها من الأنف باعتبارك اسكندرانيا أصيلا ، وحينئذ نظر أبى اليه مذهولا لبرهة طويلة يتأمل خلالها وجه العمدة فى

إستنكار ، ولم يجد مفرا من أن يسحبها بالفعل مجلجلة من أنفه ، لكنه سحبها على العمدة بأن قال فى نهايتها : [حنبخلل عليك بشخرة ؟ دا أنت مقامك عندنا شخر للصبح » ، ثم ظل فى بيت العمدة حتى الصباح يضحك ويلعب الطاولة ، ثم ان هذه باتت عادة عند العمدة ، فكلما كان جالسا مع أبى وجاء من يعرض عليه خصومة تافهة ينظر الى أبى قائلا بلهجة ذات معنى : « ايه رأيك يا عبد الفتاح أفندى في الشكوي دي ؟ » ، فيشير أبي ـ مجرد الاشارة الى أنفه ، فيستدير العمدة ناظرا للمتخاصمين : « سامعين ؟» ، وبهذه الطريقة ينفض الموضوع ! ..

اذ ينتهي أبى من هذه الحكاية الضاحكة يعاجله « أبو سماعين » قائلا : « لكن بالمناسابة أيه رأيك فى الحاج مصطفى الحداد كعمدة ياعبد الفتاح بيه ؟ » ، فيخالسنا أبى النظر معتقلا ابتسامة خبيثة طفولية ، ثم يشير الى أنفه . فيبدو على « أبو سماعين » الانبساط الشديد ، ويصيح : « مش كده برضه » .. هو فعلا لازم ينشخرله ! » ويطرق الأرض بكوب الشاى في تصميم كأنه قد قرر أن يقلب للحاج مصطفى الحداد ظهر المجن ..

تناديني أمى من وراء باب الدهليز . أذهب اليها . تشير طالبة أذنى . أراها قريبة الشبه جدا من عمتى « خديجة » فى كل شىء ، حتى فى شكلها ولكن بدون لغد ، انما رقبتها الطويلة مبرومة مثل كوز العسل مطوقة بدوائر فوق بعضها حتى مشارف ذقنها المسحوب ممتدا الى الأمام ، وجهها أحمر فيه بعض نمش كحبات العدس ، شعرها أشقر مثل شعر عمتى « خديجة » لكنه بلمعته الرصيلة . ارتمى فى حضنها ، تهمس فى أذنى قائلة لى اذهب لعم « أبو سماعين » وأهمس فى أذنه قائلا : « أمى تقول لك إخلع هذا الجلباب لكى تخيط لك رقعة فيه عند الكتف » . فأحس بسعادة غامرة وأقول لها : « طيب » ، وأعود الى المندرة جريا ، فلا أكاد أصل

حتى أصيح بصوت عال بما قالته أمي ، فيضحك لجميع ، وتصيح أمي من الدهاليز مكسوفة ، في صوتها بحة آسرة : « داهية تكسفك واد » ·· ويبدو على « أبو سماعين » انه لم يسمع شيئا · اما أبي فينظر له نظرة جانبية فيها دهشة مصطنعة كانه لم ير الجلباب من قبل · تخفض عمتي « خديجة » وجهها وتعود سحب الدماء فتهب على صفحتيه من جديد ثم تبقى محتبسة · يشوح « مغاورى » قائلا : « هي الجلابية فيها حاجة تتخيط ؟ داحنا يمكن ما نعرفش نقلعها له ! دى لازقة في جتته ! نسلخها بقى ! أحسن طريقة نبل الحتة المقطوعة صمغ ونلزقها على كتفه ! بس الخيط أرخص من الصمغ ! خلاص بقى نخيطها له في كتفة والسلام ! » ثم يندفع ضاحكا ضحكة « أبو سماعين » الشهيرة ، يبالغ في مطها وتعميق صوتها في الحنجرة دلالةعلى شدة الانبساط ، يصير منظره مضحكا الا أننا مع ذلك لا نضحك حتى لا نشجعه ، يعبر « أبو سماعين » عن تسخيفنا فيطلق ضحكته ساخرا من « مغاورى » ومنا معا ، يتبارى الاثنان في اطلاق نفس الضحكة ونحن نضطر الى الضحك منهما معا ، لكن العجيب أن ضحكة « مغاورى » تهزم ضحكة « أبو سماعين » وتبتلعها ··

مرة أخرى تناديني أمي فأجرى اليها · تعطيني جلبابا نظيفا مطبقا وفيه رائحة الدولاب · ما أن أراه حتى أتذكر أياما كثيرة تساقطت من فوق كتف أبي عبر هذا الثوب ، وقد نجحت أمي في غسيل آثار الأيام عنه وها هو ذا لايزال عليه القيمة ومازال في طوقه متسع لجسد آخر · تعود فتأخذه مني وتقلب فيه بدقة تبحث عن فك تخيطه أو رقعة تداريها ، أتأملها : أتكون عمتي [خديجة » قد طبعتها بطابعها أم أن أبي قد وضع فيها دماء عمتي الحبيبة ! هم يقولون أن عمتي « خديجة » هي التي استقبلت أمي أيام كانت عروسا صغيرة ، وتكلفت بتعليمها فنون الطبخ والغسل والتنظيف والاستعداد للرجل ، والرجل هو أبي وليس له اسم آخر في حديث

يدور بينهما ، علمتها طبائعه وخصاله ، وتولت عنه عقابها على ما قد يقع منها من اخطاء دون أن تعطى « الرجل » علما بشيء ، لأن عدم افشاء السر يعطى لعمتى فرصة تضخيم شخصية أبى وتضخيم عقابه فيما لو علم • مهما يكن من أمر فان أمى نسخة طبق الأصل من عمتى « خديجة » ••

أحمل جلباب أبى القديم الى « أبو سماعين » المتكور فى ركنه ، أعطيه له • ينظر لى نظرة امتنان خفية ، يقول متصنعا عدم الاهتمام : «طب حطها جنبى » • أترك الثوب بجواره وأرتد مكسوفا • كالثعلب الماكر • ينهى « مغاورى » دعك ساق أبى وينهض ، يتسلل نحو الجلباب ، ينقض عليه فجأة ، يفرده ويقلب فيه بامعان ، تطل من عينيه نظرة شيطانية ، يردد : « دا مايجيش على قده ! •• دا واسع عليك يا أبو سماعين •• ما يستحملكش !» • وماندرى الا وقد ارتدى الثوب وراح يلف حول نفسه فاذا الجلباب متسق عليه تماما وله زهوة • تصيبنى فجيعة ، أقلب البصر بينهم كأننى استنجد بهم لانقاذ الجلباب • وجه أبى يقول أنه موافق على على ما حدث وان كان يتقلص محاولا الايهام بأنه مستاء لذلك • وجه عمتى « خديجة » غارق فى سحب الدماء يرسل نظرة تحتية تحتج بشدة ، تتصعب ممصمصة بشفتيها : « جاك سد بالك » • وجه « مغاورى » جامد كجلد الدربكة فى عينيه نذالة داكنة اللون تقول أن ما انسدل على جسده يستحيل خلعه • ها هو يروح ويجىء مستعرضا طول الثوب ووسعه كأنه فى دكان الترزى لحظة استلام ثوب جديد • وجه « أبو سماعين » ينظر الى الثوب وفى عينيه نظرة أحار فى تفسيرها ، أرى فيها حزنا شديد الأسف على ثوب كهذا يضيع منه هكذا ، أرى كذلك فرحا شديدا باتساق الثوب على جسد « مغاورى » ، لحظة اخال أن الدموع ستطفر من عينيه يصيح هو مطلقا ضحكته الشهيرة : « هو هو هو ••و ••هـ » ، ثم يضيف :

« آخر تمام عليك وحق جاه النبى » · يتبجح « مغاورى » قائلا : « يجد يا أبو سماعين ؟ » · فيقول فى صدق حقيقى : « مبروك عليك ياولد » · لا يتكلم أبى · تجيء أمى من الدهليز منفوشة كدجاجة كانت تبيض ، تطل من عينيها نظرة فزعة مهزارة معا ، تصيح : « طب اقلع اقلع ·· هو انت ايه ؟ طربة ماتردش ميت ؟ ·· ماانت لسه واخد واحد من كام يوم ·· خلى فى قلبك رحمة » · يصيح « أبو سماعين » فيما لا نعرف ان كان يمزح أو هو جاد : « لا والله ماهو قالع ·· وحق جلال الله مايقلع ··خلاص ·· طلع الثوب من نصيبه وانا لا رضى أن يخلعه بعد ما لبسه وجاء على قده » · يصيح « مغاورى » بضحكته · يرد عليه « أبو سماعين » بنفس الضحكة · يتجه « مغاورى » نحو الباب قائلا : « أما أجربه كده » ثم يختفى ، فنعرف أننا لن نراه الا بعد بضعة أيام ··

بعد خروجه مباشرة يقول « أبو سماعين » معلقا : « الواد الطور ده مش ناوى يتجوز بقى ؟! » ، فلا يرد عليه أحد ، اذ أنه يومىء الى موضوع سبق الكلام فيه كثيرا بدون أي نتيجة فلم يعد أحد يفتحه بعد ذلك ، بل أن الكلام فيه بات شائكا وغير مستحب ! · ذلك أن عمتى « الكلافة » منذ سنوات طويلة تزمع تزويجه من « شلباية » بنت خاله « عبد العظيم الفقى » ، ولقد شاخ هو ، وتعنست هى ، وتضخم جسدها فأصبحت كالغولة لكنها مثيرة ، كل الناس يميلون الى المزاح معها واستدرار شتائمها ، كلهم يموتون فى كلمة من لسانها أو نظرة من عينيها الا « مغاورى » فانه لم يعد يحس بها مطلقا ويبدوا أنه لا يحس بغيرها · البنت « شلباية » أنثى بمعنى الكلمة ، ورجل بمعنى الكلمة أيضا ! أنثى تعرف متي تعتصم بحياء الأنثى ، ومتى تخلع البرقع وتأخذ حقها بالدراع كشهامة الرجال ، منذ خطبتها جدتها « الكلافة » لابن عمتها « مغاورى » وهى تعتبر نفسها عروسا مع ايقاف التنفيذ لأجل غير مسمى ، ومن طول الأجل

لم يعد يهمها الزواج فى كثير أو قليل ، كانت تعرف أن لا مفر من زواجها منه ، فأين تروح من جدتها ؟! وكانت تعرف ألا طريق لها نحو الرجال مهما تحزبت بها الأمور ، فأين تروح من أبى وهى التى ان قابلته صدفة فى حارة انزوت فى أى باب ودارت نفسها حتى يختفى · كانت تحمل شبها كبيرا من أبى ومن جدتها ، وكانت هى الأخرى تفخر بين الناس بأنها من أسرة تصادق أفندينا · كانت لا تكره « مغاورى » وفى نفس الوقت لا تحبه ، فأصبحت كما يقول أبى فى امسيات المندرة تتلذذ بالتأجيل لعل فيه الخلاص بالنسبة لها · وتقول عمتى « خديجة » أن البنت ياقلب أمها باتت لا تطيق منظر هذا الولد ، وأن كثرة تأجيل الزواج قست قلبها وأنستها أنها امرأة من الأصل ، والولد لا نخوة فيه ولا حرارة ، لا يفكر فى شراء أى شىء أو جلب نقود من أى عمل آخر ، لا يتلحلح ، ينتظر أن تقوم جدته المسكينة بتجهيز كل شىء وهو يركب على الجاهز ، البنت أجدع منه ، تستطيع التجهيز لنفسها بنفسها ، لكن هذا لا يرضيها ، فليس « مغاورى » هو الذى تقدم من أجله هذه التضحية ، « شلباية » تريد رجلا يعتمد عليه فى زنقة الأيام · وأعرف من كلام نسوان حارتنا مع أمى حين يجتمعن فى الدويرة للخبيز فى فرننا ، أن « شلباية » نسيت أمر الزواج منذ تزوجت التجارة وذاقت حلاوتها فوجدتها أحلى من مليون رجل كمغاورى ، فهى ما شاء الله شاطرة ، تتاجر فى الحبوب والمعيز والدجاج والطرح والمناديل تتاجر حتى فى النقود اذ تقرض الناس نقودا على ذمة محصول بكمبيالات تصرفها مضاعفة عند الحصاد محصولا تختزنه وتبيعه بعد ذلك بثمن أغلى ، أصبحت ذات رأس مال كبير ، « الكلافة » تعرف ذلك وتشجعها وتقترض منها أحيانا ومرغمة ترد لها القرض كما الآخرين تماما ، « مغاورى » هو الآخر كثيرا ما يقترض منها ثمن ورقة دخان وقد تعود الا يرده وتعودت الا تسأله كأنها تلهيه عنها بأى ثمن ··

أجارنا الله من « مرشدى » شقيق « مغاورى » ، ملعون ،

استحنت عليه بالله هكذا تقول أمى عنه دائما · يبدوا طيبا غلبانا لكنه فى الواقع لئيم جدا · يبدوا أيضا عبيطا وهو مخزن خبث · طويل كالناف وقدمه طويلة فكأنه المحراث وقد صلبت قامته · رفيع لكنه صلب · يتراهن على حمل الناف والمحراث معا بأسنانه من الأرض والنهوض بهما واقفا · مدمن مراهنات ، يتراهن على أى شىء وبأى شىء وليس فى فمه سوى كلمة : تراهنى ؟ ·· يشرب صندوقا كاملا من ذلك الذى يسمونه بالكازوزة ، يشرب كليو شاى مطبوخا فى برميل ، يأكل فدانا من البطيخ والشمام، يأكل ـ أحيانا ـ الغائط الناشف ، شريطة أن يكون ناشفا والا فضت المراهنة ! أشهر مراهناته تلك التى على مص مخزن من القصب ، وبالفعل مصه كله فى ثلاث ليال ونهار لم يكن يكف خلالها عن المص الا ريثما يذهب للكنيف ويفرغ بولته ويعود ، ويقال أنهم كانوا ينتهزون فرصة غيابه للحظات فيغذون المخزن بلبشتين أو ثلاث من القصب ··

دماغه صغيرة ووجهه يشبه القلقاسة المتغضنة · مندهش على الدوام تتكرمش جبهته فى خطوط متصاعدة تحت طاقيته الصوف المزينة من الحواف الحائلة اللون · نظراته سطحية لكنهـا عميقة القلق · على العكس من أخيه « مغاورى » لا يحب قعدة الدكاكين لشرب الشاى ، وان جلس فلسبب ، لا يدفع اشتراكا فى سلطنة الشاى لكن اذا عزمت عليه بكوب من شاى الدور الثالث فانه يشربه فى الحال ويرد الكوب كأن شيئا لم يكن دون كلمة شكر بل ربما اعترض على مساخة الشـاى · خنيس كمـا تقول عنـه عمتى « خديجة » · شيلته واطية كما يصفه أبى ، اذ يرفع حاجبيه من تحت جبين متخن بالانحناء ، فتصعد من عينيه نظرة بلهاء ومغيظة فيبدو كأنه لايعجبه منظرك · كثيرا مايرى أبى مقبلا نحو مكان يجلس هو فيه ، فينتفض الجالسون كلهم ويبين عليهم الترحيب الا هو ، يتململ كالقنفذ ناظرا الى أبى كأنه لا يعرفه ، مع أنه ربما يكون قد طعـم

من يد أبى منذ برهة سابقة ، يشخط فيه مغيظا : « اتعدل ياحيوان » ، فيعتدل على الفور ضاحكا ، قد يصفعه أبى أو يزغده فى جنبه بسن العصا أو ربما ينهال عليه ضربا بها ، فلا يتوجع أبدا ، كل ما يفعله يصيح بما يشبه بكاء الصبية الشائخين : « معلهش والنبى ياخال » • فى معظم الأحيان كان أبى يتجاهله فيسلم على كل الموجودين ما عداه ••

فى مرات كثيرة يقابلنى فى شارع بعيد وتبقى عينى فى عينه فلا يبدو عليه أنه يعرفنى • وفى مرات كثيرة كان العيال فى حارة الجرانة يزنقوننى وينهالون على ضربا وتشليتا وتمزيق ثياب ، جزاء شتمة شتمتها لأحدهم أو طوبة قذفته بها فى حارتنا ذات يوم يكون « مرشدى » بالصدفة مارا أو جالسا ، فاذا به يقف ويتفرج علينا ، ويرانى مهانا ، وأضطر الى الصياح به : « حوشنى يامرشدى » ، لكنه ببرود ينصرف • أذهب فأشكوه لأبى ، فيضربنى من غيظه ••

« مرشدى » هو المسئول عن الرى فى دار عمتى « الكلافة » ، وعن نقل السباخ ، فلا تجروء بهيمة على المراوغة ، ولا يجرؤ ترس ساقية على العطل • كل البهائم تخشاه وترتعش من قسوة قلبه فى لوى أعناقها ونخسها وضربها بفرع شائك • كذلك كل السواقى تعمل حسابا ـ وهى الجماد ـ لقدرته فى ارغامها على الدوران ولو بثلاث أسنان فقط من ترس الساقية • ذو شهرة كبيرة فى هذه الناحية ، يستدعيه الناس لشد خزام جمل متكبر صلف ، لكسر أنفه بغلة جامحة يدمى ظهرها ، لشد بهيمة سقطت فى بئر ، ويعتقد الجميع أنه حين يركب الحمار سارحا أو عائدا فان الحمار يتراقص بفهلوة لاقناعه بأنه غير متضرر من جسده حتى يكف أذاه عنه ••

مغرم هو بالخوض فى المصارف لا لتطهيرها بل لتعكيرها ،

يسد عليها بعقالات من الطين يضعها بصـبر عجيب فيصـنع بذلك أحواضا من الماء العكر ليتسنى له أن يمسك كبريات الأسماك يدا بيد، وقد حظى بشهرة فائقة فى البلدة ، حتى أنه باع ذات يوم سمكة فى حجم صبى ، لكنه فى العادة كان يشوى على شاطىء المصرف أطايب ما اصطادت يداه ثم يقزقزه ويعود بالباقى فيبيعه فى أماكن معلومة بأسعار يحددها هو فلا ينزل عنها مليما ٠

ذهب مرة يستقبل عمتى « الكلافة » ـ جدته ـ عند محطـة القطار التى تبعد عن بلدتنا خمسة كيلومترات ٠ أدركه المطر فى الطريق وظل يهطل فوقه حتى أغرقه ٠٠ وكانت عمتى « الكلافة » قد وصلت الى المحطة بالفعل منذ ساعات وأرسلت مع أحد الراكبين تطلب ادراكها بالركوبة حيث أنها متأخرة ـ أى قد ألم بها مرض مفاجىء ـ على المحطة ٠ لهذا كان الحمار يدرك توتر « مرشدى » فاندفع يمشى مسرعا فوق الزلق دون أدنى نهيق أو تلـكؤ ٠ قرب المحطة فوجىء « مرشدى » بشبح منحن فوق عكاز يركض فى الوحل مقبل تحت مظلة المطر المنهمر ، فلما حاذاها بالركوبة عرفها ، فشخط فيها بغضب : « بقى كده ياولية ! ٠٠ تخضينى وتجيبينى على ملا وشى فى المطرة ٠٠ والآخر تطلعى مش عيانة ! ٠٠ طب والله مانى موصلك ! » ، ثم لوى رقبة الحمار واستدار عائدا وهى تصيح بأعلى صوت من اللعنات ٠ فى منتصف الطريق ـ يحكى هو ـ صعبت عليه فعاد اليها بالركوبة وأركبها وراءه ، ومضى كلاهما يصيح طوال الطريق مغطيا على صوت المطر ، هو يسب ديك المطر والدنيا وجميع الذين تسافر اليهم جدته ، وهى تستنزل اللعنات عليه وعلى اليوم الذى لمته فيه وربته وسمنته ! ٠٠

كل بضـعة شهور يذاع خبر زواجه ، من أرملـة فى عزبة العلمين ، أوثيب فى عزبة العبيد ، أو بنت سيئة السمعة من عزبة صباح ، وليس من اشاعة تشير الى فتاة فى وسط البلد ، فى كل

اشاعة تذهب عمتى « الكلافة » الى أحد الأماكن متوكئة على طفل وعكاز، تقيم سرادقا من الصياح والعراك ، تلعن آباء وتقذف شرف امهات ، وتنتهك أسرار عائلات تدعى أنها عائلات وهى ليست سوى لمامة تريد خطف أولاد الناس · يلف « مرشدى » على معظم الدكاكين والمصاطب ، يقول فى كل مجلس ـ بشىء من الاحتجاج المنطوى على فخر وغبطة ـ أن الولية تفرج عليه خلق الله وتجر له المشاكل مع الناس ، والله يجازى ولاد الحرام اللى بيوزوها ويملوا دماغها ! ··

لطالما الحت عليه عمته « الكلافة » بأنها ستزوجه من « حميدة » بنت خاله « عبد العظيم الفقى » ، متناسية مأساة شقيقتها « شلباية » مع شقيقه « مغاورى » لكنه يقول ساخرا ان مسألة أن يتزوج هو من بنت خاله هذه خرافة مثل خرافة أخيه « مغاورى » ، بل أن مسألة أن يتزوج أصلا فى حياة جدته أمر يشك فيه · يهز يده حول أذنه صائحا بحاجبين مرتفعين من الدهشة : « الوليه دى فاكرانى اهبل بريالة ؟ » ، ثم يشوح فى وجهها : « يا ولية فضك من السيرة دى بقى حرام عليكى » ، وهى تبسبس قائلة : « أصلك منتاش وش نعمة » · يتصادف أن يكون « أبو سماعين » خارجا من المسجد لحظتها ، فيتوقف لدى الزعيق ـ شأن أى واحد فى بلدتنا ـ لكنه يصيح ساخرا : « حتقوم حرب ولا دى مجرد مفاوضات ! » · يقول « مرشدى » كأنه يستبعده : « مفاوضات يا ابو سماعين ·· مفاوضات » · يرد « أبو سماعين » وقد وجد فرصة للمزاح : « لعل بنودها وتوصياتها ·· » تقاطعه عمتى « الكلافة » بجفاء غريب : « اطلع انت منها ياابو سماعين محدش انتدبك » · يطلق « أبو سماعين » ضحكته الشهيرة ثم يمضى ، ويمضى خلفه « مرشدى » الى حيث لا يعرف أحد ، لكنهما لابد أن ينفصلا بعد خطوة أو خطوتين ··

·· الوحيدة التى تزوجت من أبناء « تحفة » بنت عمتى «الكلافة» هى « نفيسة » ، التى كانت منكسرة وغلبانة ، وكانت أنثى لا ضريب

لها في العائلة الا أنها عوراء · يغازلها كل الناس علنا ، ربما كانت الوحيدة بين أبنـاء بلدتنا يرى الناس كأن من حقهـم مغازلتها على المكشوف دون حرج كأنها مباحة للجميع ، لكن الشيء الذى يثق منه الجميع أن أحدا لن يحصل منها على أى شيء رغم مايبدو عليها من سهولة وسيولة ، فأى غزل فيها مهمـا كان كلامه مكشـوفا فانه لا يخدش حياءها ، لا يجعلها تهتز أو ترتبك · أما اذا تجرأ أحـد وكشف عن نية سيئة فانها ـ دون حرج كذلك ـ تفرج عليه طوب الأرض ، وتجعل من لا يشترى يتفرج وتكون فرصة لأن يسترضيها الجميع على حساب الفاعل ··

تسرح في حقول الوسية أحيانا مع الأنفار بسبعة قروش فى اليوم ، تنقى اللطع ، تنقى الأرز ، تجمع القطن · فى غير مواسم الشغل تساعد بعض الأسر القريبة فى غسيل قمح أو نقل طحين أو ربما تطليع زريبة ، تملأ ادوار المـاء من الطلمبـة البعيدة فى العصـارى حيث ينتظرها جموع المعجبين · على أن الجميع قد اصيبو بالاحباط يوم خطبها أبى لواحد من أبناء عمومتى كان ابن ليل طالع في القـدر جديد فاستطاع أن يجرب شطارته على أبنـاء البلدة ففى ظرف شهور قليلة منع الألسن من التعرض لخطيبته باى غزل ، بل منع الناس من النظر اليها فى غير تحفظ ، خوفا من تهوره وجنونه الشرس · فلما دخل عليها حبسها فى الدار وعاملها بكل شدة ، وباتت تحبه حبا صار حديث العائلة كلما التقت فى مناسبة ·

اخـتها « خبيبة » لم يسعدها الحظ · بدأت تشبيخ كابنة خالها « شلباية » · لم تكن جميلة لكنها لم تكن دميمة · اكتسبت من ابنـة خالها شطارتها وجرأتها · من صغرها نشنت على ابن خالها « على » ، عرفت بالغريزة او بالايحاء من جدتها ان مصيرها سيكون له شاءت هى أم ابت ، فراحت تعد نفسها لأن تحبه · كانت خفيفة الدم على غير عادة دار « الكلافة » بوجه عـام · فى الخامسـة

والعشرين من عمرها · ذات غمازتين طويلتين غائرتين فى الخدين · خمرية اللون غليظة الملامح نوعا ، لكنها مقبولة بل وشهية · تعصب رأسها بتربيعة مشغولة بالفل والترتر تقصعها للخلف ليظهر شرخة من شعرها الأسود المسبسب على جنبها حتى حاجبها الأيسر ، ودوائر الفل والترتر فى لقاء مستمر مع حركة رمشيها السوداوين وتطلعات عينها الواسعتين · لا تتكلم كثيرا ، تجيد الكلام بعينيها المفحمتين ، لكنها اذا تكلمت أسرت القلوب ببحة دفء فى صوتها ··

غير أن « على » ابن خالها يشبه أخاها « مغاورى » فى كل شىء ، لكنه يمتاز عنه بخفة دم قليلة ، اذ هو لا يتمكن من ضم شفتيه على أسنانة الكبيرة فتظل أسنانه عارية أبدا تطفح بالابتسام الخبيث الماكر على الدوام بسبب وبدون سبب · يكفيه من الوجد نظرة يلقيها على ابنة عمته وهى تخطر فى دارهم ليل نهار ، أو جلبابة تغسله له بعناية خاصة ، ذلك أن أمه قد ماتت هى الأخرى منذ زمن حيث لم يرها ولا يتذكرها · فى غير مواسم الشغل ترى « على » دائم الصرمحة يعاكس الكلاب اذا تقاربت ويفرقها بالطوب اذا تلاحمت يفزع أفراخ الحمام ويطيرها من أعشاشها ، يصطاد اليمام والعصافير بنبلة ترديها قتيلة · مع ذلك فالبنت « نعيمة » تتغزل فيه وفى شلفيه وأسنانه ، ترد عنه اذا هاجمه أحد فى غيبته ، ربما تدخل فى عراك مع جدتها اذا أمعنت فى شتيمته · يتوقع لها الناس أن زيجتها ان تمت فسوف يكون ذلك نتيجة لشطارة « نعيمة » وسعيها الدائم ··

الكل يحسدها مقدما ، ذلك أن « على » هو الذى سيرث الأرض بعد موت جدته وأبيه ، ولسوف يصبح كل شىء فى الدار ملكا للبنت « نعيمة » ، بل أن أمى نفسها ترشحها لخلافة الدار بعد « الكلافة » ويحلو لـ « أبو سماعين » أن يداعبها فى الطريق كلما

صادفها قائلا : « مرحب بالكلافة الصغيرة » · فتقول له ببرود ساخر وهى تتجنبه : « حاسب حاسب ·· جه دورك ياأبو سماعين انت راخر ·· النبى تسيبنى فى حالى » · يشيعها بضحكته الشهيرة ، ثم يمضى مخترقا الزقاق الى الشـــارع العمومى بخطوات هادئة واضعا يسراه في سيالته واليمنى طليقة لكنها مرتخية بجواره ، يتلفت حواليه يمينا ويسارا كلما وجد ناسا يجلسون فى الشارع أو على مصطبة دكان ، لا يقول سلام عليكم أبدا ، بل يعتبر أن مجرد نظرة يلقيها هى السلام ، وسواء عنى الجالسون بالرد أم تجاهلوه فانه يظل ماضيا فى الطريق اذا لم تعجبه القعدة أو لم يجد فيها متسعا له ·

١٥ ـ العروة غير الوثقى

ليس وحده الذى كان يستريح لقعدة دكان معلمى « سعد الله » الترزى ، بل يفضلها ناس كثيرون من الذين هم على قد حالهم ، وهم الأغلبية بالطبع فى بلدتنا ، وثمة من الكبراء والمطربشين والمعممين يفصلون ثيابهم ويزورونه من حين لآخر ويتواضعون بالجلوس معنا ربما لساعة أو أكثر حتى انتهى من شغل عراويهم وتركيب أزرارهم ، وهؤلاء معظمهم من الأقباط الذين يختلط عليك الأمر فيما اذا كانوا أقباطا أم مسلمين اذ هم يحملون نفس الأسماء ويسلكون نفس السلوك ويأكلون نفس الأكل وتغلق عليهم فى النهاية حارة واحدة بل ربما دار واحدة ، وقد لا يكتشف الانسان أنهم أقباط الا صدفة ، وقد ينسى الواحد منا ذلك فلا يعود يتذكره الا فى لحظة صدفة أخرى ، لعل من أغربها أن الواحد منا اذا تأكدت له أمانة واحد أمانة مطلقة وسلوك منه عفيف متسامح فانه يبدأ يتساءل هل فلان هذا مسلم أم قبطى ؟! • هذا بالاضافة الى أقباط من البلدان المجاورة الذين يحبون التفصيل عند معلمى « سعد الله » ، وهؤلاء حينما يلتقون بمعلمى فانهم يسيلون حبا وتتدفق بينهم ذكريات لا تنفد ، وكان حضورهم يعتبر مهرجانا تنشط له الدار فى توضيب غداء ويشغى الدكان بحركة جميلة مفرحة

كحركة العيد والمواسم وأحظى فيه ببقشيشات سخية وغداء شهى لذيذ قد لا يتوفر فى دارنا الا يوم سوق أو يوم موسم • نجم هذا المهرجان وكل المهرجانات لابد أن يكون « أبو سماعين » ، عالم برمته يتقرفص جالسا يرسل الضحكات ويستقبل الهبات وينشر وعيا اذا استمعت اليه أصابتك منه فوائد كبيرة وان أعطيته الطرشاء فأنت من الخاسرين ولن يزيدك الطرش الا غلظة صدغ وقفا • اكتشف أن هؤلاء وأولئك من زبائن معلمى الأغراب على علاقة طيبة عميقة بـ « أبو سماعين » ، هم الوحيدون فى هذه الدنيا الذين يقدرون « أبو سماعين » تقديرا هائلا كأنه راهب أو امام ، وينتظرون قولته الأخيرة فى كل أمر يطرحونه : « ولا ايه رأيك يابو سماعين ؟ » ، فيفتى ربما بكلمة واحدة لكنها منتهى العدل وان قست على أحد الأطراف فلا يملك هذا الطرف الا قبولها خاصة اذا كان منذ برهة قد أحسن الى « أبو سماعين » بقرش أو بزردة شاى •

تنفض كل المواكب ذات لحظة الا « أبو سماعين » موكب بذاته لا ينفض أبدا • ربما لهذا ينشغل الناس به كموكب من الأفاعيل والأقوال تلهيهم عن البحث فى أصله وفصله ؟ من أين جاء والى اى عائلة ؟ ينتمى ؟ هل سبق له الزواج هل أنجب هل كان له مثل كل الناس أبا وأما وان كان فماذا كانت ظروفهما وماذا كانت شغلة أبيه وفى أى بلدة نشأ ؟ أم ترى تعامله بلدتنا باعتباره شيئا طبيعيا كشجرة تنبت بلا مقدمات هنا أو هاهنا كبزوغ الميساه فى قطعة أرض دون أن يستجلبها أحد كوفود أسراب الطيور ككلهم جميعا قبل أن تستقر جدودهم جذورهم هاهنا • هذا وذاك صحيح تماما ، فأبو سماعين مثل كل الظواهر الطبيعية له فوائد جمة على الجميع ومع ذلك هو مسخة للجميع ولهذا يبيت لغزا محيرا بالنسبة لى أحمل همه وأنشغل به • أشعر أن معلمى « سعد الله » الترزى ربما

يكون هو الذى أصابنى بعدوى الانشغال به أكثر من اللازوم ، غير أن هذا الشعور سرعان ما يتلاشى وتظل رغبتى مشتعلة فى معرفة الكثير عن هذا الرجل الذى أصابنى منه فضل عظيم ، اذ ـ بفضله ـ اصبحت ولدا لبيبا كما يصفنى الكبار ، نعم فلقد نقلت عنه هذه الصفة لا عن أبى وان كان خطيبا مفوها ينظم الأشعار ، ومنه ـ لا من أبى ـ تعلمت الكلام المنمق ونطق أسماء المشهورين بتفخيم ، وكيف أقول « يادكتر » و « ياباشمهندس » وياصاحب المعالى ، وعرفت أسماء كتب لم أرها عند أبى ، وأسماء رجال من عائلتنا لم أسمع بهم فى محيط عائلتنا من قبل · ويكفى أن تاريخ أبى عرفته منه بل هو الوحيد الذى كشف لى عن أبى ولولاه لظل أبى مجرد آدمى يسكن معنا فى بيت واحد ، كذلك عرفت الكثير من المعلومات عن البلاد والبنادر وطبائع الناس ، كنت من غفلتى انساق مع المهرجين الفارغين الذين يشوشرون على « أبو سماعين » فى لحظات التجلى النادرة مرددين صيحتهم الخبيثة المعهودة : « آخر تمام ·· شغالة حلو قوى » ـ يقصدون الأفيونة طبعا ومن ثم فكل ما يقوله تخاريف مخدر · غير أننى كلما تقدمت سنة فى المدرسة التى أخرج منها الى دكان معلمى كل يوم قرأت فى كتبها اشياء كثيرة جدا سبق أن قالها لى « أبو سماعين » وسمعت من مدرسيها معلومات سبق أن حكاها أبو سماعين ، فكنت أزداد له تقديرا وأعود اليه بمزيد من الانتباه ، ادفع البقشيش الذى أحصل عليه كله لأشترى له قطعة افيون حتى يتسلطن ويحكى لى بصفاء ذهن ما يصفو له ذهنى إنا الآخر ، كانما الأفيونة التى جرع مرارها جنيت انا ثمارها اليانعة ! ·

كنت ازداد له حبا ، وفى أعماق لحظة صفا أتذكر فجأة سؤالى الأبدى الذى تعودت أن انساه فى حضورة ، الحق انه تعود ان ينسينيه ، حتى صرت لا إذكر ان كنت سألته أم لا مع

أننى أتذكر أنه قد رد على سؤالى ذات يوم بكلام غامض ٠ الى أن جاءت لحظة صفاء تمكنت فيها من ضبط عينيه فالقيت فى صفائها سؤالى : « هل كنت متزوجا من قبل ؟ » ـ أملا أن يحكى لى شيئا أى شىء عن ماضيه الذى يسبق رؤيتى له فى مندرتنا ذات يوم موغل فى القدم ـ حينذاك نظر فى عينى فلم يجد طفولة كالعهد به بل وجد حصارا رجوليا ، فلمعت فى عينيه نظرة تفح بالفجيعة جعلتنى أحس بالندم على سؤالى ، لكن هذه الفجيعة فى عينيه سرعان ما تحولت الى لمعة سخرية مالبث أن غطاها بضحكته الشهيرة : « هو هو هو ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ ه » ثم أضاف متخلصا منى : « طبعا تزوجت ٠٠ الست رجلا ؟ » بمزيد من الارتباك شرحت له قصدى : أين زوجه مثلا وأولاده ؟ ٠٠

أطلق ضحكته هذه المرة عالية ، حتى خلت أنها انفتحت لأول مرة وتخلصت من الخنقة اللصيقة بها ، ثم أخذ يوصلها من جديد كلما انتهت ، ثم قال فى جدية شديدة : « لقد ماتت زوجتى ٠٠ ثم مات أولادى ٠٠ نعم ماتوا ٠٠ ماتو جميعا وهم رجال وصبايا ٠٠ صدمنى الزمن فى كل شىء ٠٠ حتى لتختلط على الأمور ٠٠ أحيـانا يخيل الى انهم على قيـد الحياة وأننى أراهم كل يوم رؤية العين وأعيش معهم ليل نهار ٠٠ ثم أفيق وأصحوا على الواقع ٠٠ على الحقيقة ٠٠ حقيقة أنه لم يعد لى زوج ولا ولد ولا أى شىء ٠٠ قطعت الحياة أسبابها بى لكنى لم أقطع أسبابى بها ! ؟ ٠ كان هذا الكلام أعمق مما أريد ، وكنت على وشك الاستطراد فى الأسئلة الفرعيـة لولا أننى أفقت على أصداء صوته ترتعش فى الأفق الملاصق لمعزبة العـلمين برنين الحزن والأسى العميقتين ، وثمة قطرات من الدمع تنهمر دفعة واحـدة من عينى أبو سـماعين لتمحوها يده ويعود الجفاف الى عينيه كأن شيئا لم يكن فكانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأيت فيها « أبو سماعين » يبكى ٠ يومها ظللت أشعر بالاستياء

من نفسي طول النهار كأنني ارتكبت جرما أدى الى بكاء رجل يقـود لواء الضحك والسخرية فى بلدتنا ويصنع النكتة الحارقة ! ٠٠

وقد لاحظ معلمى « سعد الله » الترزى اضطرابى النفسى بعد انصراف « أبو سماعين » فسألنى ماذا بى ؟ فقلت له ـ طامعا ان يطلب الصفح لى منه ـ ما قد حدث بينى وبين « أبو سـماعين » بالحرف الواحد ٠ فابتسم معلمى لأول وهله ابتسامة ذات معنى غامض ، ثم أنه ركز فى وجهى عينين تطل منها عواصف الدهشـة العظيمة ، لخصها فى قوله : « بقى انت ! ٠٠ ما تعرفش اذا كان أبو سماعين قد تزوج أم لا ؟! وبدأ كأنه يحاكمنى ٠ فقلت مسرعا : « كنت أريد أن أعرف لا أكثر ولا أقل » فعظمت الدهشة فى عينيه وصاح من عجب : « ليه هو انت ماتعرفش ؟ ! » ٠ قلت بصدق : « والله ماأعرف » ٠ خبط منصة التفصيل بالمهندازة الخشبية التى يقيس بها الأثواب ، ثم قال لنفسه : « لا اله الا الله ٠٠جايز ٠٠ ماعدش فيـه حجـة مدهشة ! » ٠ فما كان من اللغز الا ان زاد غموضا ، فقلت لمعلمى : « وهل هذا شىء يتعين على أن أعرفه ؟ ٠٠ اقصد ما الغريب فى أنى لا أعرفه ؟ ٠ قال معلمى متحاشيا النظر الى : « انت بالذات يجب عليك أن تعرف كل شىء عن أبو سماعين !»٠ ثم صمت معلمى وراح يلف سيجارة بدت لى عملية لفهـا كأنهـا استمرار فى الموضوع ٠ وكنت أنقل البصر بينه وبين مواطىء سن الابرة حتى لا تتشوه عروة وتشوه وجه الثوب ، ولاحظت ــ رغم اضطرابى ــ أن غرزتى منضبطة ودقيقة فأنهيت تقفيل العروة من طرفيها وقلت لمعلمى فيما أعيد عقد الفتلة من جديد : « لكننى أشعر بأنى قد أذنبت فى حق أبو سماعين والا ما بكى وحكى هكذا ٠٠ اننى لا أستطيع أن أصف لك صوته الذى لايزال يهدر فى داخلى بعمق ويرجنى رجا » ٠

قال معلمى « سعد الله الترزى » وهو يبتسم فى أسف : « أنت

يا ولد تستاهل قطع رقبتك ‥ لكن ‥ لا عليك ‥ هيجت احزانه الدفينة الله يجازيك يابعيد ‥ لكن ‥ لا عليك ‥ هو طبعا لا يتصور أنك لا تعرف أصله فظنك تسخر منه أو تؤلمه ‥ لكن لا عليك ‥ ! ‥ لعله شعر بعدم أهميته لدى أسرتك مع أنه صديق حميم لأبيك ويجلس فى مندرتكم كل يوم ‥ لكن لا عليك ‥ هو طبعا من المؤكد يعرف أنك برىء لا تقصد شيئا » ٠ ثم شد نفسا عميقا من السيجارة كتمه فى حلقه وسربه من أنفه فى خطين واهنين كأنه يسرب أسرار صدئت من كثرة دفنها تحت ركام الأعماق ! ٠

١٦ ـ فتاة الموال

حكى معلمى « سعد الله » الترزى هذه الحكاية لما رآنى مغرما بالحكايات :

ـ فى يوم من ذات الأيام ·· ولا يحلى الكلام الا بذكر النبى سيد الأنام ·· كانت هناك أسرة صغيرة مكونة من ثلاثة افراد ، تعيش فى قرية مثل قريتنا تتبع أيضا مديرية الغربية مثلنا ·· هذه الأسرة ياولد ، كانت عبارة عن رجل خواص ، يصنع من خوص النخيل قففا وغلقانا وسلالا اسبته ·· وزوجته غجرية ، تصيدها من قبائل الغجر التى كانت تضرب خيامها كل حين من الزمن حول القرية ، كما يحدث عندنا أيضا ·· كانت جميـــلة يا ولد ، والنـــاس كانوا يحسدونه عليها ياولد ، يقولون فى أنفسهم ولبعضهم البعض لحظة التجلى : كيف حدث هذا ؟ من الذى جمع الشامى على المغربى ؟ ·· كان يشاع عنه يا ولد انه فى الأصل غجرى مثلها يفهم لغاها ويعرف كيف يضحك عليها ·· أما الحقيقـة ياولد فهى أن هذه الغجرية الحلوة كانت قد تعبت من الرحيل واحبت أن تستقر ، فما صدقت أن وجدت امامها الخواص يطلب يدها حتى وافقت فى الحـال وعاشت تحت سقف دار له صغيرة بلا سـقف فى حقيقـة الأمر

محصورة بين دارين كبيرتين لاثنين من أعيان البلد المحترمين كل منهما تفتح على شارع بعيد ويستطيع أهل الدارين أن يروا من الشبابيك والسطوح كل شيء فى داره حتى التعريشة الصغيرة المظللة التى ينام الرجل تحتها مع زوجته ، وكل أهل البلدة كانوا يتمنون أن يكونوا مطرح سكان هذين الدارين ليتمكنوا من رؤية الغجرية الحلوة عارية ذات لحظة فى حين أن سكان هذين الدارين لا يفعلوا ذلك أبدا لأنهم لن يروا سوى البؤس والغلب والعذاب مجسدا ...

الغجرية الحلوة أنجبت للخواص ولدا ، سماه ابراهيم على اسم أبيه ، وتوقفت عن الانجاب تماما حتى ضاق الخواص بها وبالولد.. كان الخواص أفيونجيا قراريا ياولد ، يتكور فى ركن التعريشة كسحلية صفراء يجدل الخوص ويخيطه بفتائل يصنعها من ليف النخيل .. يظل طول النهار يسب للولية ديك الذين خلفوها والبلد التى رمتها عليه ، وتسب له سنسفيل جدوده الذين ربما لا يكون لهم وجود من الأساس .. يثب عليها كالقرموط يبرك فوقها ويروح يضرب دماغها فى الأرض وتروح هى تخربشه ، يزأر فيها وتصوت ، الى أن يهدهما التعب فينفصلان ليعود هو الى جدل الخوص وتعود هى الى تزغيط البط والأوز وكنس الفناء ، وليس بغريب أن تراهما بعدها مباشرة يتغذيان معا من مشنة واحدة ، وتشعل ركية النار وتصنع له الشاى ، وحين يتكيف يمازحها قائلا ان المرأة التى تكف عن الولادة يصبح الذكر أفضل منها ، وتمازحه قائلة انه فى الأصل من بذرة فارغة ، وأنها تشك أن له أبا ، وأنه لابد قد جاء الى الوجود صدفة وأن ابنه جاء هو الآخر كذلك ، هنا قد يدلق على وجهها كوب الشاى الساخن فتجرى الى بعيد صارخة ، فينفلت عياره ويروح يلطش للولد تلطيشاقاسيا ، قائلا انه وجه فقر اغلق باب الخلفة وراءه لقد سمم رحم امه هذا الملعون : قم يا ابن الكلب

من أمامى والا قتلتك لقد تمنيت ان يكون لك أخ واحد على الأقل ولكن مؤخرتك نحس فى نحس رفضت أن يجىء وراءها أحد فعش كأبيك وحيدا طول عمرك ولتأخذك الشياطين أنت وأمك ٠٠

لكل شىء نهاية يا ولد ٠ طلع الصبح ذات يوم فلم يجد الخواص زوجته ٠٠ الطريف يا ولد أنها لمت كل شىء ينفعها حتى البط والأوز عبأته فى قفصين وتوكلت على الله ٠٠ قالوا أن ولدا « بدويا » من حملة السلاح ابن ليل يلفها ودبر لاختلاسها بليل من الخواص الذى لا يستاهلها ٠٠ لكننى أقول لك يا ولد أن طبع الغجرية نفسه هو الذى يلفها ، هو الذى تغلب فسحبها الى الرحيل من جديد بعد أن صدمه الاستقرار ولم يجد فيه حلاوة تذكر ٠٠ وبقى الولد يعانى من ذل أبيه ليل نهار ، يجدل له الخوص ويفتل الفتائل ويقضى الطلبات ويسرح بالسلاسل ولا شكر ولا حنية ، دئما يعيره الخواص بهرب أمه الغجرية التى لا أصل لها ، الى أن فقد الولد صبره فبات يرد على أبيه الكلمة بمثلها ، ويغلبه فى الرد ، فيحاول ضربه فيزوغ منه ويجرى فيتوعده فلا يعود ٠٠ فأين يذهب هذا الولد ياولد ؟ ٠٠

شف ياولد ٠٠ الدنيا تأخذ وتعطى ٠٠ الولد ابراهيم وجد من يعطف عليه وفى الدار المجاورة لهم مباشرة ، دار الحاج سالم الفرنوانى ، فقد كان ابراهيم يحب صابر ابن الحاج سالم الذى يكبره ببضعة أعوام تناهز العشرة ٠٠ صابر هذا ولد طيب ومجتهد مثلك ياولد ، ربنا يعطيك مثله ، كان يذهب الى المدرسة ويخرج منها الى الكتاب كل يوم ليحفظ ويمكث بقية النهار ينقل أرباع القرآن من المصحف الى لوح خشبى مدهون بالزنك ومزخرف ، بقلم من البسط يغمسه فى دواة بها حبر أسود مصنوع من هباب الفرن حيث تقوم عملية النسخ بمساعدته على الحفظ ٠٠ هذه العملية بهرت الولد ابراهيم مثلما انبهر من صابر الذى يحن عليه

ويصاحبه ، فراح يعبر عن سروره بخدمات يؤديها اليه . يصنع له الحبر بكميات وفيرة ، يبرى له أقلام البسط حتى صار خبيرا بسن القلم المفلوق بالطول من منتصفه ، بجميع انواعه الخطية ، فسن للرقعة وآخر للنسخ وثالث للثلث ورابع للكوفى وخامس للتساج ، بصبر اكتسبه من الجلد على جدل الخوص ·· قل ان الولد تعلم الخط لتجريب الأسنان على اللوح ، ثم اذا هو يتعلم نطق الحروف وتجميعها فى كلمات ، ثم بات صاحبه يمليه ليكتب فى كراريس الواجبات ، أو يملى هو ليكتب صاحبه ، أو يمسك بالكتاب ليستظهر صاحبه ما يكون قد حفظه ··

قل أن الولد ابراهيم صاد شيئا مهما بالنسبة لصاحبه ، بات مثل روحه التى لايستطيع الاستغناء عنها ، فبه أصبح صابر صاحب عقلين لا عقلا واحدا ، وجهدين لا جهدا واحدا، ويتقدم فى الامتحان عاما بعد عام بتفوق ·· أهل الواد ناس مبسوطين كما قلت لك ، بعثوا بابنهم يطلب العلم العالى ذى القاهرة فى الأزهر ومدرسة الحقوق ·· راس صابر والف سيف أن يأخذ ابراهيم معه ·· وهكذا انتقل ابراهيم الى القاهرة مع صاحبه يسكنان فى حجرة واحدة ، حيث ينهض ابراهيم بكل الأعباء من كنس وغسل وتنظيف وطبخ عدس وشراء فول وطعمية فضلا عن ذلك يساعده فى المذاكره ، فكان هو الذى يذاكر حقا ، وكان دائما هو المستعد الأول للامتحان ، وكان متودكا ، اكثر جرأة من صاحبه وأوسع حيلة وأشد صلابة ·· بهرته أم الدنيا فأحب مقاهيها ومحلاتها فصار يجلس عليها ويتكلم مع الناس فى السياسة وفى كل شيء ، ويعود فيجهز الغداء لصاحبه فيحدثه عما قرأ ورأى فى شوارع القاهرة ، ويحدثه صاحبه هو الآخر عما قرأ ورأى فى دار العلم ويحدثه ايضا عن بعض الاشتباكات السياسية بين الطلاب ··

رح يازمن تعالى يازمن تخرج صابر فى مدرسة الحقوق بتفوق فاشتغل وكيلا للنيابة ثم قاضيا ثم محاميا كبيرا جدا ياولد ٠٠ وكلما ارتقى درجة ارتقى ابراهيم درجات ٠٠ فبعد أن كان هو الخادم الذى يفعل كل شىء أخذ يسعى حتى أقنع سيده بالزواج وسعى حتى فى اختيار العروس واختبار سمعتها ، ثم انتقى للعروس خادمة فقيرة صغيرة ، ثم سعى حتى انتزع من أهل سيده مبلغا عظيما اشترى به دارا جميلة تحوطها حديقة ويسمونها الفيلا ، أشرف على ترميمها وزخرفتها حتى غدت عروسا ٠٠ عند افتتاحها خصص الدور الأول منها للمكتب والمكتبة ، والدور الثانى لاستقبال الأهل والضيوف ، والدور الثالث لنومه ومعاشه ٠ أما ابراهيم فقد استقل بالشقة التى كانا يسكنانها من قبل ٠٠

أفنديا أصبح ابراهيم عقبال أملتك ٠٠ وكان هو الماكينة التى تقوم بتشغيل مخ الأستاذ وتجهز له الكتب والمجلدات التى سيأخذ منها المقولات والقوانين والأخبار والأحداث ٠٠ ثم أن دائرة معارفه قد اتسعت ، فالأستاذ صاحبه القديم ـ مضياف بفلاحيته ، سياسى بطبعه أبا عن جد ، محرض ، ذو صوت خطير مؤثر ، وبلاغة فى القول تفتت الصخر من كثرة ما يعبىء فيها من مشاعر ، لى زبائن من بلدته يقولون أنه حين كان يزور البلدة ويخطب الجمعة فى مسجدها ينخرط القوم فى البكاء والنواح ولا يتركونه يختم بسهولة ٠٠ داره فى القاهرة مثل داره فى البلدة لا ينقطع عنها الزوار ليل نهار ، من أصدقائه وزملائه وتلاميذه ومريديه ، الحديث قائم كأنها مكلمة ، والمعارف تتدفق على الموائد فى الشعر والفن والأدب واللغة والنحو والصرف والانجليز وأحمد عرابى وصحبه وسعد زغلول ورفاقه ٠٠ لا تدهش ياولد اذا قلت لك أن الأستاذ صابر الفرنوانى ـ الذى بات أحد المرموقين فى القاهرة كلها ـ كان يؤمها سعد زغلول ورفاقه باعتبارهم بلديات وأصدقاء ٠٠ الأمر

ببساطة ياولد أن الأستاذ صابر بيك الفرنوانى كان يشتغل بالسياسة ، كان فى تدبير مستمر هو ورفاقه ضد البريطان والملك الذى يحميه البريطان وضد ناس لا حصر لهم ممن ينتفعون من الملك والبريطان معا ومن خراب مصر كلها بعضهم أجانب مستحكمين فى البلاد وبعضهم مصريين مخالب قطط فى الوزارات والقصر وكل الحكومات ٠٠٠ وكان كل يوم فى سين وجيم ووجع دماغ لذيذ على قلبه ، وكثيرا ما كان البوليس السياسى الأجنبى يهاجمه ويفتش بيته لسبب من الأسباب بحثا عن منشورات أو فدائيين أو أسلحة أو أى بلاء أزرق ٠٠

فتك فى الكلام ياولد ٠٠ فأقول لك ان الأستاذ قرأ يوما فى أحد الجرانين مقالة لكاتب مشهور فأغضبه ، ولست أذكر لماذا أغضبه ، فقال له ابراهيم أفندى لماذا لا ترد عليه يا أستاذ فى نفس جرنانه مثلما يفعل الكتبة والنقدة والساسة ؟ فقال الأستاذ والله فكرة يا ابراهيم أفندى ، ثم أخذ يملى عليه ردا ناريا ، ثم ان ابراهيم أفندى وضعها فى مظروف عليه اسم الأستاذ واتجه الى عنوان الصحيفة ، فطلب رئيس تحريرها وسلمه المقالة باعتباره مندوبا عن الأستاذ ٠٠: من يومها لم يتوقف ابراهيم أفندى عن زيارة هذه الصحيفة كل بضعة أيام بل أصبح يزورها كل يوم بل أصبح له مكتب صغير فيها ، اذ أن الأستاذ الفرنوانى قد أصبح من كتاب هذه الصحيفة الدائمين بمرتب كبير فعين ابراهيم أفندى سكرتيرا خاصا له يرافقه على الدوام ويحمل أسراره ٠

للأستاذ زبائن فى كل البلاد خاصة بلاد مديريتنا ، اذ أن لمكتبه فروعا فى كل مراكز مديريتنا يديرها محامون شبان والأستاذ لا يحضر الا فى القضايا الكبيرة فاذا حضر اهتزت المديرية كلها ، ولابد أن يكون فى صحبته « ابراهيم أفندى » فضلا عن وكلائه ومساعديه الذين لا حصر لهم ، فابراهيم أفيونته ،

أحسن من يذكره بالمواعيد وأحسن من يقف وراءه فى المحكمة بالأوراق والمذكرات والمستندات يقدم له كل ورقة فى حينها كأنما هو يشارك ذهن الأستاذ فى المرافعة ..

من بين زبائن الأستاذ واحدة استعنت عليها بالله ، شيطانة من شياطين الزمن ياولد .. من عائلة كبيرة فى العب كله يعرفها الأستاذ حق المعرفة نظرا لشهرتها كعلم على نار عائلتها .. أبوها كان مقربا من أصحاب البلاد .. وكان رجلا طيبا مصليا حاجا ومزكيا ، ولأبنائه شسنة ورنة .. وكل أبنائه كذلك ياولد .. الا هى .. حتى ليتساءل الناس لمن يطلع هذا الطبع الجاف الأسود ؟ .. قصيرة هى ياولد ، قميئة ـ (تلمع فى عينى معلمى نظرات وجلة فيها ومضات من الحرج والخجل تعود أن يلمع كلما تحدث عن أحد بألفاظ غير مناسبة) ـ تموت فى النقار والمشاكسة وخلق المشاكل ، دائمة الاهانة للناس بغير سبب ، تعاملهم كأنهم خدم فى معيتها فى حين أن شكلها أبدا لا يسر ، قد تراها فى ثياب رثة وحذاء مبرطش لكن حديثها ولهجتها تنسيك شكلها ، وطريقتها فى الكلام تدلك على أنها من علية القوم ، وأنك أمام داهية شريرة لا قبل لأحد بمقاومتها .. مع ذلك يحترمها الناس فوق خوف ، يحترمونها لكونها من عائلة مسموعة وفى نفس الوقت يخشون بطشها المؤكد اذا ما استنفرها انسان ربما لأتفه سبب ! ..

لقوة شخصيتها جاء حين من الدهر أصبحت هى رأس العائلة دون منازع أو شريكا رغم وجود رجال أقوياء من أشقائها لكنهم كانوا يحسون بقوتها فلا يعارضونها فى شىء ، خاصة ان صلابتها واستمساكها برأيها كان يعود بالنفع على الجميع ، فبفضلها ياولد لم تتنازل العائلة عن شىء بل انها كانت عند اللزوم تمسك النبوت مسكة الفتوات الأصائل وتلقى به خطبة فى ساحة المعركة تبين فيها الى أى حد هى قادرة على رد أى عدوان وحدها .

بل كانت أثناء الخطبة تستعرض مهاراتهـا فى اللعب بالنبوت واللعب بالكلمات وتوجيه الشتائم المنتقاة ، ولديهـا شـتائم لكل مسـتوى من مسـتويات البشر ، ولكل عائلـة قاموس خاص من الشتائم يليق بها ، اذ لكل عائلة مطاعن ومخاز تجيد هى صياغتها الساخرة فى كلمات كبيرة متقنة الصنع راعبة راهبة لاهبة ، أى والله ياولد ، ولذا فكل العـائلات تتقى شرها ، وأتخن شـنب فى بلدتها لابد أن ينحنى لها ويلقى عليها السلام كأنه يلقيه على عائلة بكاملها هى عائلتها ، ويحدثها ــ لو حدثها ــ فى تحفظ وندية ، ترعشه أن تطاول عليها فيتأدب فى الحال ويجر ناعم ..

على قدر اتسـاع علاقاتهم هـذه يا ولد ، كانت مشـاكلها وقضاياها ، كانت زبونا ثابتا فى مكتب الأستاذ واسمها مكتوب على عشرات الملفات .. هب يازمن مات أبوها .. هب يازمن تحولت كل قضاياها الي ناس من أقاربها حول مواريث وعقارات وأنصبة ومشاكل جوار .. كان لها ابنة جميلة تعجل خراط البنات فى خرطها وتسويتها عروسا لاضريب لها فى أى مكان ، سمراء مثلها لكن ملامح وجهها تقول بأنها أميرة من الأميرات ، رقتها تقول أنها من بنات الحور السمراوات .. كانت تصـطحبها كثيرا فى زياراتها المتعددة لمكتب الأستاذ فى عاصمة المديرية ، وكانت تقوم بزيارات لمنزل الأستاذ فى القاهرة حاملة الخيرات والهدايا تضمن بها صداقة زوجة الأستاذ .. هب وقع ابراهيم فى غرام البنية ووقعت البنية فى غرامه ..

يادار ما دخلك شر .. هكذا قالت الولية لنفسها ، فأى عريس يمكن أن تنتظره لابنتها خيرا من ابراهيم أفندى بجلالة قدره ؟ .. كان يبدو أكثر أبهة من الأستاذ ، واكثر اهتماما بشياكته وأناقته ، وأربطة العنق الثمينة الزاهية والقمصان الحريرية المزركشة التى

يتلقاها الأستاذ كهدايا من زبائنه وأصدقائه يحولها كلها لابراهيم أفندى الذى لا يستنكف من لبسها ، والترزى الذى يفصل للأستاذ حلله الصوف المعتبر هو نفسه الذى يفصل لابراهيم افندى ولكن على نسق الموضات الحديثة الشائعة بين الشبان من خلال الأجانب والكتالوجات لدى اولاد الذوات ، واذا كان الأستاذ يلبس طربوشا على رأسه فان ابا خليل يلبس قبعة أنيقة كالأجانب ، وله أيضا عصاته الأبنوس التى لا يحملها فى حضرة الأستاذ ·· كل ذلك كان يجعل كثيرا من الزبائن القرويين الذين جاءوا منجذبين بسمعة الاستاذ يرون ابراهيم افندى يتصورون لأول وهلة أنه الأستاذ ، فاذا ماظهر الأستاذ نفسه بجسده الضخم وطربوشه القصير تتهدل ملابسه الأنيقة على بدنه تهدلا يوحى بالارستقراطية ممسكا بالمنشة تحت ابطه يعتدل الجميع ثم يهبون واقفين فاغرى الأفواه لسان حالهم يقول : أيوه كده هو ده الأستاذ الحقيقى ·· مع ذلك لا يفقدون احترامهم لابراهيم أفندى بل أن الاهتمام كله كان منصبا عليه ، والكل يتودد اليه ويعامله باحترام شديد وتملق ، وهو يسلك فيهم مسلك الزعماء قل ، الرؤساء قل ، النجوم جائز ، فكل ذلك كان لائقا عليه جدا ياولد ··

الولية شافت هذه الأملة قالت ياما هنا ياما هناك ·· لكن شيئا ما فى طبعها ياولد قال لها أن تلعب بهذه الورقة قدر ما تستطيع ، خاصة أن ابراهيم أفندى حصل لها على تنازل من الأستاذ عن نصف اتعابه فى كل قضاياها المقبلة ·· وصارت كل يوم والثانى فى زيارة لمصر حتى تتعرف على ابراهيم أفندى جيدا عن قرب وتعرف حدوده المادية وقيمة ما يمكن أن يدفعه من مهر وما الى ذلك ، رغم ذلك كان ابراهيم أفندى كل يوم والثانى فى البلد حتى يشبع من البنية ويتعرف على شخصيتها من قريب · والبنية فى كل يوم تزداد تعلقا بابراهيم أفندى وحبا له حتى كادت

تجن به وبحلاوته وبدخلته الدار عليهم أمام البلد · كان حبهما واضحا ومحسوسا للناس كلها ·· مناسف ياولد ·· اقصد كان الناس كانهم يحبون هذا الحب ويتمنون لو اكتمل فكانوا يشاركون في اشعاله اذ يمتدحون البنية عند ابراهيم ويمتدحون ابراهيم عند البنية ·· ثم ان الأغنيات بدأت تدور فى الافراح حول حبهما الوليد بقوة جبارة ، وبعد أن كانت أغنيات افراحنا تتحدث عن جلباب الحبيب وطاقيته وكيف أنه يدخل فى المساء عاوجا الطاقية واللاسة الحرير ، أصبحت الأغنيات تتحدث عن البدلة : قلمين قلمين يابدلته ، اشارة الى بدلة ابراهيم افندى المقلمة ، وتتحدث عن الساعة التى فى معصمه ، بل تتحدث عن بيت يشبه القصر : « لما ويالما ويالمية ·· حمام بحنفية بدورة ميه » ·· وكشأن بلادنا فى كل قصص الحب العلنى بدأت المواويل تنتظر بلهفة أن تكتمل هذه القصة لكى تنطلق فى سوامر الرجال وعلى شطان المصارف ووسط الحقول تؤنس وحشة الليالى السود ، وسواء اكتملت القصة أم لم تكتمل فان المواويل تقوم باستكمالها على النحو الذى يرضيها ياولد ·· والذى يرضيها دائما ياولد هو ميلها الى صف الحبيب والمحب على السواء ، الى صف الحب على طول الخط ، لأنهم كلهم يحبون ياولد ، ويقع عليهم نفس العدوان . يحبون وتقف فى وجوههم عشرات العراقيل التى تبدأ وتنتهى كلها فى من أنت ومن أى عائلة وكم من أملاك تملك ، مواويلنا مثلنا حزينة ياولد ، مجروحة ، تستنزف دم الشعود بالعدوان تسجل غدر الزمان تندد بالقساة الواقفين فى وجه الحب حجر عثرة بين القلوب المتآلفة ··

كانت المواويل على أهبة الانطلاق ياولد ، لتجعل من قصة الحب هذه عالما محققا معترفا به ·· ولست أدرى ياولد سر ما حدث ·· ترى هل كانت هذه الولية العجيبة تتصرف من تلقاء

نفسها فى طريق ان يكتمل الموال ، أم ان الموال هو الذى أرسل اليها وفود الأغنيات القصيرة الملحاحة لكي يدفعها من طرف خفى الى ان تتصرف فى صالحه على النحو الذى يهوى ؟! .. اذا لم تكن تفهم من قولى هذا شيئا ياولد فانت لست غبيا انما أنا نفسى لست افهم منه شيئا !! وقد نستفتى فى ذلك أبو سماعين فهو الوحيد الذى يستطيع ان يوضح لنا هذا الأمر ، ويقينى أنه سيقول ما يقوله لى دائما من ان الموال هو الفرخ الذى تنشق عنه بيضة كامنة فى صدورنا فينطلق مزفرفا بأجنحة قوية ترمح به الى بعيد بعيد ليعود الحنين به الينا أو بنا اليه فحينما يرفرف على مداخل صدورنا من فوق أبراجها العالية يبدو لنا وكأنه طير جديد غريب وافد علينا لأول مرة ليمكث فى ضيافتنا طويلا ..

هل ترانى قد خرفت ياولد ؟ .. ربما .. ولكن الوليـة مقصوفة الرقبة طول عمرها من بين الأسلحة التى يستخدمها القدر فى هجماته على الآمنين من عباد الله ، انها بعيدة النظر أكثر من صقر ، حادة الذكاء أكثر من طائر الوقواق الذى يختار عشا على مزاجه رحاضنة على مزاجه فينتظرها حتى تغادر العش ليدخل فيرمى بيضها فى الهواء ويبيض بدلا منه بنفس العدد ونفس الحجم ونفس اللون كل ذلك فى وقت قصير ثم يمضى لحال سبيله لتجىء الحاضنة الأصلية الغشيمة فتنام على بيض غيرها وتدفئة حتى يفرخ ليغادرها الى الأبد جنسا مختلفا عن جنسها !! - (وبهذه المناسبة لقد سمعت عن هذا الطائر من عمك « أبو سماعين ») - قاسية أكثر من شيطان ، استطاعت أن تدخل فى زوارق الأسـتاذ وعب زوجته فتعرف كل شىء عن دخيلة الأستاذ ودخيلة ابراهيم افندى ، عرفت كل أسرار الرجل ، وفهمت سر هؤلاء الشبان الذين يجتمع بهم فوق سطح الفيـلا لوقت طويل كل حين ، وفهمت أن الصناديق الكبيرة التى تدخل وتخرج من سلم الخدم لابد أن تكون

اسلحة توزع على هؤلاء الأولاد ليطلقونها سرا ليس فقط على الجنود البريطان بل على كل جنود البريطان حتى لو كانوا أبناء عرب .. وكانت تفرض نفسها على بعض جلسات الأستاذ بدهاء ولباقة لانظير لهما بين كافة الساسة والسلك الدبلوماسى ، كلامهما وسلوكها يجمع بين قوة أبناء البلد وحرصهم على قيم الشهامة والجدعة وافتدائها بالموت ، وبين زلاقة لسان المثقفين المتعلمين وما يحفل به كلامهم من عبارات فصيحة ، هى بجلستها فوق الكرسى المسمى بالفوتيه الفاخر تبدو كومة من السباخ الأسود لا تعرف لها رأسا من ذنب ، ولكن حذار ان كنت تراها لأول مرة . فان هى الا هنيهة قصيرة حتى ترى لها حضورا يكاد يلغى حضور كل الحضور برطانتهم وثقافتهم ولفهم ودورانهم .. قصر الكلام يا ولد انها فهمت وتأكدت أن الأستاذ ليس يعمل فى صالح أهلها ، فهمت ذلك على طريقتها وتأكد لديها احساس لا يقبل التشكيك فيه أن هذا الأستاذ وصحبه وشبانه أولاد كلب سل مل ، رعاع ، ومعنى كل مناقشاتهم هذه وتحركاتهم هذه شىء واحد لخصته لنفسها : انهم ليسوا يحبون طبقتها لأنهم ليسوا من علية القوم مثلها ، لقد كان المفروض أن يكونوا خدما واجراء عند أمثالها ، ولو أن الزمن يسير سيره الطبيعى لظلت فى مرتبة الأميرة وظلوا هم فى مرتبة الخدم ، صحيح أن أباها كان مجرد موظف فى الخاصة الملكية ولكن أليس المثل يقول : حمار الأمير أمير الحمير ؟ أيا كان مركز أبوها فانه مركز فى الدائرة وهذا يدل على انه شخص مميز بميزة الهية ! أليس الله يعطى المواهب من يشاء ويعطى كل انسان على قدر ما يستحق ؟ أليس من شئونه وحده جل جلاله أن يكون هذا السلطان سلطانا وهذا الأمير اميرا وهذا الخفير خفيرا وهذا الأجير أجيرا ؟ أليس الله يقول قوله المقدس وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات ؟! فما بال هؤلاء الرعاع أبناء الرعاع يلجأون لمثل هذه

الأفاعيل ضد أسيادهم ، هل جزاء أسيادهم الباشوات والبكوات والسلطان أن أكرموهم وجعلوهم أفندية محترمين ؟ ! ...

هكذا فكرت الولية .. لكنها فكرت من ناحية أخرى فى شىء آخر يا ولد ، حيث تذكرت أن الوجاهة والأبهة آخذة فى الانسحاب عنها وعن عائلتها شيئا فشيئا ، وأن السبب فى ذلك هو ظهور ناس جدد من أمثال هؤلاء الفلاحين الأجراء الذين تسميهم الأسرة الخديوية بالأوباش والذين مع ذلك قد باتوا يمتلكون الاقطاعيات وينافسون أهلها وطبقتها فى مظاهر الحياة ثم تكون المصيبة الكبرى أنهم يريدون اقصاء السلطان عن كرسيه الممنوح له بحق الهى فيا للعجب ! لقد اختاره الله للسلطنة ولم يختر هو السلطنة ! فما بال هؤلاء يزعمون أنهم متعلمون حافظون لكتاب الله وهم فى الحقيقة يسعون نحو الكفر ومحاولة تعديل ارادته سبحانه ! ..

قل أن الولية الملعونة كرهت الأستاذ من أعماق قلبها ، لكنها ذكية لم تصرح بذلك بل راحت تبالغ فى اظهار الود له ، بل صارت تغمز له فى الحديث معه غمزات خبيثة يفهم منها أنها موافقة تمام الموافقة على ما يفعل ، وأنها تبارك هذه التحركات ، وربنا يوفقكم يا أستاذ ويبلغكم مناكم ويبعد عنكم أولاد الحرام .. والواقع ياولد أن صوتا آخر فى نفسها صاح بها أن تمسك العصا من المنتصف ، أن ترتبط أسبابها بهؤلاء الجدد الذين قد يكون لهم فى مستقبل الأيام شأن ربما لم يبلغه أهلها ، مع ذلك كان فى أعماقها احساس يقول لها أن أبناء الفلاحين هؤلاء لا يجب أن يملكوا القوة والا تجبروا وأذلوا ابنتها ، لكن احساسها بقوة البريطان كان يعطيها كثيرا من الاطمئنان ، فطالما أن البريطان باقون يؤنسون وحشة البيت السلطانى فانهم لن يسمحوا بذهاب القوة الى مثل هؤلاء ! ان وجود البريطان هو الضمان الحقيقى الكافى لأن تظل ابنتها

تضع ساقا على ساق .وتصيح فى أهل زوجها بانها من محاسيب افندينا ٠٠ تأكد يا ولد أن مقصوفة الرقبة هذه كانت تعتقد ان نار البريطان ولا جنة أمثال هؤلاء الأستاذ ورفاقه ، فهم على الاقل بريطان تجرى فى عروقهم دماء السـيادة والعراقه إما هؤلاء ففلاحون تجرى فى عروقهم دماء الذل والعبودية وليس لعبد ذليل أن يمتلك القوة والسلطان والا فقل على الدنيا السلام ٠٠ اقول لك هذا ياولد وكلى ثقة ! ٠٠

بقى على مقصوفة الرقبة أن تتيقن من ابراهيم أفندى نفسه باعتباره صاحب الرمة ، ماذا يملك وكم رصيده فى البنوك وابن من هو ٠٠ ولم يكن ذلك بعسير عليها يا ولد ٠٠ فسرعان ما عرفت أصل ابراهيم أفندى وفصله ، أمه الغجرية الضالة ، وأبوه الخواص الذى مصه الأفيون فمات ودفن فى مقابر الصدقة ، التحاقه بخدمة الأستاذ منذ الطفولة ، هو اذن لا أصل له ومن العار أن تتزوج ابنتها هى من نسل تافه مثله ، ثم أن هذه الأبهة وهذه الأهمية كلها مثل شيكات بدون رصيد ، ليس وراءها مركز حقيقى موثوق به ، ان طلع أو نزل خادم حقير حتى وان لبس ثياب السـادة ، سيادته هذه مثل سيادة سـيده مجرد مظهر وسـلوك مسـتعارين لا يسندهما عصب سيادى حقيقى ، ان السيادة ليست هى أن يكون لديك خدم وحشم وأن تأمر فيهم وتنهى ، السيادة هى أن تكون سيدا بطبعك فيك سيادة موروثة عن أجدادك الأقدمين ـ هكذا هى ترى والعياذ بالله ٠

وهكذا اضافت هذا الى ذلك فوجدت أنها الخاسرة لا محالة ، واستكثرت على نفسها أن تهب ابنتها فلذة كبدها لرجل بارز فى الظاهر ضائع فى حقيقة أمره وينتمى الى ناس يناصبون أهلها العداء لله فى لله ! ماذا يكون وجهها أمام النـاس ؟ سـتكون فضيحتها بجلاجل ، ان معارفها وأصدقائها كثيرون ولكنهم كلهم

من طائفة الأستاذ وصحبه أما أعداؤها فقليلون لكنهم من طبقتها هى وعداؤهم جارف ولسوف يكون هذا الزواج مطعنا لها فى مقتل ، هو الله لن يكون ·· وأغلقت كل أبواب الكلام فى موضوع الزواج نهائيا ·· سدت فى وجه ابراهيم افندى كل السبل : لأ يعنى لأ ، انك يمكن أن تطول القمر أما ابنتى فانها أبعد من القمر ، هى من طريق وأنت من طريق ، يا ستى يهديك يرضيك لا فائدة ·· جاءها الأستاذ بنفسه مع لفيف من رفاقه فاكرمت وفادتهم على أكمل نحو ثم رفضت الحديث فى موضوع الزواج رفضا قاطعا ·· وحينما طرح عليها الأستاذ مواضيع من قبيل شراء كذا باسم العروس وكتابة كذا رصيدا لها فى البنك ، قالت لو أعطوها كرسى السلطان فان زواج ابنتها من الخواص لن يكون ، هذا أمرها قد أصدرته ولا راد له حتى لو توفاها الله بعد برهة ! ··

الصدمة كانت قوية جدا ياولد ، كانت مدمرة ·· (ولمع الغضب فى عينى معلمى وراح يبحث عن علبة الدخان ليلف سيجارة يهدىء خلالها غضبه وتوتره) ـ مدمرة لمن ؟ ·· للقلبين العاشقين بالطبع ياولد ، قلب البنية وقلب الجدع ، بل قلب البنية على وجه الخصوص ·· هددت المسكينة بحرق نفسها وفعلت مايلين قلب الحجر لكن قلب أمها لا يلين ·· ومن هنا انطلقت شرارة الموال ياولد ، فبدأت طلائع الموال تتردد بصوت عال يرنحها الأرغول وتؤيدها السلامية ويعززها الدف ·· سافرت طلائع الموال الى مصر القاهرة وأبلغت ابراهيم أفندى تفاصيل ما يجرى للبنية العاشقة المسكينة التى باتت تتقلى فى النار وحدها ·· فجاء ابراهيم أفندى ليكمل نهاية الموال ، جاء سرا وفى عز الفجر ، بعد أن كانت رسله قد سبقته قبل ذلك بأيام فدبرت وأحكمت ، وعند الفجر كان الليل المنسحب قد ترك رداءه الأسود على ثلاثة أشباح تمشى على هيئة ثلاث نسوة يحملن البلاليص على زعم جلب المياه من

الترعة ، لكنهن توغلن فى السير الى مسافة بعيدة حيث كان ابراهيم أفندى فى انتظارهن بالأوتوموبيل ·· ولم يكن سوى الفتاة وشابين من رجاله متنكرين ·

فى عصر اليوم التالى ، وبينما كانت دار مقصوفة الرقبة يخيم عليها سواد مفزع رهيب تمتد ظلاله الى الحوارى المجاورة كلها ، ويشيع فى الجو توترا وبذور مأساة دامية ، وكان الموال قد اكتمل تماما وبدأت مقاطعه تتلوى مثل القطار بين الحقول وترفرف على الصدور مثل الطائر العائد من رحلة الاياب كالمدلر يتسلل بين شقوق الأفئدة المتوترة الشرقانة معززا هذه المرة بكل الآلات الموسيقية يرن فى كل الحناجر ويطرب كل الساهرين ويشجى كل المجاريح ، ويعلنهم بكل أناقة وشعور بالانتصار أن ابراهيم أفندى قد أخذ حبة قلبه وأن الطائر الشريد قد ولف على عشه ناجيا من الريح والرصاص متخطيا الجسور والبحور ··

هدر الموال جنونا خطيرا فى قلب الولية الملعونة فزادها جنونا ، اندفعت تجرى يمينا وشمالا ، تقوم لتنكفىء ، وتنهض لتتعثر ، تقيم النيابة وتشد المراكز والبوليس كله ، ترسل الرجال والوفود للمفاوضات بالرضاء والتسليم تارة وبالتهديد المريع تارة أخرى ، لكن دون جدوى ، لقد نفذ السهم ، فالبنية ليست قاصر والجدع بلغ سن الرشد والزواج صحيح على يد مأذون شرعى بموافقة الطرفين وبحضور الشهود ولا ينقصه من مراسيم الزواج أى شىء حتى المهر وقائمة العفش مشرفان ، حتى الفرح أقيم على أكمل وجه ·· فعادت الولية مكسورة الجناح خائبة لا نصير لها فى الوجود ·· فتوارت عن الأنظار ، وكفت عن السفر ، ولمت لسانها الا فى حالات الضرورة العاتية ، ولجأت الى الصلاة تستعدى السماء على اعدائها ، وكانت جرثومة الانتقام تأكل فى صدرها على مهل ، فاذا هى تنخرط فى لعن ابنتها والتبرؤ منها

متوقعة لها الضلال والخسران جزاء ما ارتكبته فى حق العائلة من تشويه لسمعتها ومرمغة لشخصيتها هى فى التراب ، سوف يصيبها الله بنكبة لا تنجو منها الى الأبد بنت بطنى ! سوف تأكل الكلاب لحمها باذن الله ! أهذا من طبعنا ؟ أيتضح أن فى عرقنا بذرة فاجرة ونحن لا ندرى ؟ أيحق لى بعد اليوم أن أمسك النيسوت واصرخ باعلى صوتى قائلة أنا الفلانية جئت آنازلكم ؟ أيحق لى الآن أن انطق حتى باسمى ؟ أن أخرج حتى من دارى ؟ ليت الأمر أمرى وحدى اذن لهان ! لكن خبرونى كيف أدارى وجهى أمام أشباح تزورنى ليل نهار تكاد ترفع على رأسى الأحذية وهى التى لم تكن تجرؤ على رفع عينيها فى وجهى من قبل ؟! أو دلونى كيف أهرب من هذه الأشباح التى أمقتها وفى نفس الوقت تفرض على ضيافتها ولا أستطيع طردها من بيتى ! انكم بالطبع لن تخبرونى ولن تدلونى ليس لأنكم لاتريدون بل لأنكم لا تستطيعون وليس فى طوقكم هذا الذى أطلب أنا أيضا لن أفعل لهذه الضالة أو لخطيفها شيئا ليس لأنى لا أريد بل لأنى كذلك لا أستطيع ! انما الذى سيفعل بهما معا هو الله لا أحد غيره استعنت به على كل ظالم جبار ! حسبى الله ونعم الوكيل ! ..

فكان الناس يخرجون من عندها باكين ممزقى القلوب رغم أن بعضهم كان ذاهبا اليها بقصد التشفى ، ثم سرعان ما يميلون الى كره البنية والسخط عليها فى المجالس وفى دورهم ، والحقيقة رغم ترديدهم للموال واعجابهم الشديد به وببطلته فانهم قد تنبهوا على حقيقة أن هذا الفعل الذى فعلته هذه البنية الآثمة لا يجب أن يحظى بالتشجيع .. وكانوا اذا أقيم فرح فى البلدة يظل الساهرون فيه منحرفى المزاج الى أن يبدأ المغنى فى غناء هذا الموال ، وتراهم يبعثون اليه النقوط بغزارة حتى يتشجع فيغنيه ، وحين يغنيه تعترى

الكون كله حالة انصات عميق يتفجر من حين لآخر فى هيـاج عاصف ٠٠

والأيام تمر والولية تزداد هزالا ويزداد وجهها كآبة وصدءا ، الى أن استيقظت البلدة ذات يوم ياولد ، لتتلقى فى الضحى خبر بعودة الأبنة ٠ هذا الخبر هز البلدة كلها هزا ياولد ، حتى أن الواحد منهم كان يسمعه وهو نائم لا يزال فينتفض منطلقا الى الطريق ، ويسمعه الشبان فى الحقول فيلهثون عائدين بالحمير ، وتجرى النساء والأطفال فى الشوارع ، حتى صارت شوارع البلدة كيوم عيد تشفى بالخلق المتجه كله نحو بيت الولية للفرجة على ابنتها بطلة الموال العائدة أخيرا بعدما ارتكبته من ذلك الفعل الخطير الذى لم تعد واحدة من صبايا البلدة تعرف أن كان فعلا يستحق قطع الرقبة أم يستحق كل هذا المهرجـان الفرح ٠ نعم ياولد ، كانت نظرة الفرح تطل من عيون الجميع وهم يتدافعون بفضول عجيب وتطفل أعجب لرؤية وجه البنية والتحقيق من الحـال التى وصلت اليها ، هل هى فى عز وفخفخة ؟ أم فى ذل وبهدلة ؟ هل أنصفها الزمان أم انتقم منها القدر ؟ هل هى آثمة أم مجيدة ؟ ٠٠ حتى الرجال العجائز كانوا يبررون فضولهم الزائد قائـلين أنهم يرغبون ـ فقط ـ فى اصلاح ذات البين بين الأم وابنتها العائدة ٠٠

ظلت الحـركة يومها تدب فى الطـرقات بانفعال وحمـاس كبيرين لسـاعات طويلة ما بين وفود رائحـة وأفراد غادية ، ولا حديث لهم فى الطرقات سوى أوصاف شكل البنية وما ترتديه من ثياب وحلى كأنها البرنسيسة وأنها حقا لبرنسيسة أميرة كست الحسن والجمال وتستحق بالفعل أن يجرى وراءها الموال ٠٠ قرب صلاة العصر خفت الحركة بعض الشىء وانهـد العجائز فوق المصاطب فى الشوارع وأمام الدكاكين وتجمعت النسـوة أمام الدور واتروت أسراب البط والأوز والدجـاج مغتربة فى فرغات

الشوارع بين الجدران ولابد انها كانت هى الأخرى تتحدث فى نفس الموضوع لكن كانت تبدو عليها مسحة مأساوية كأنما تتوقع حدوث شيء جلل ٠٠ وكل حتى الكلاب الصامتة حتى شواشي أعواد الحطب وقش الأرز المتدلية من الأسقف حتى الجدران الطينية حتى الأبواب المنكفئة كان الكل يتحدث ، عن دخلة البنت على أمها فجاة ، عن الحقائب الكبيرة المليئة بالثياب والهدايا ، عن ارتماء البنت فى حضن أمها والانفجار فى البكاء طالبة الصفح والغفران مقبلة الأيادى والخدود والرأس والأقدام ، عن الأم التى لقيت كل ذلك كأنها لوح من الثلج ، لم تذرف دمعة لم تستجيب لبكاء البنية لم تمكنها حتى من الاحتضان رفضت حتى أن تنطق اسمها بل أن تفتح فمها رفضت أن تلامس يدها أو يد زوجها فجلست البنية فوق الكبنة العتيقة كسنيورة كسيرة القلب تعيسة مكلومة الى جوارها يجلس زوجها ابراهيم أفندى واضعا رجلا على رجل مكشر الوجه يتجاهل كل شيء حوله الا التدخين بشراهة وذب الذباب بالمنشة ذات المقبض العاج ومن حين الى حين يمد علبة سجائره الفضية للرجال الملثمين حولهما قائلا فى انحناءة ولهجة بندرية رقيقة : سيجارة ؟ فيأخذ منها الجميع حتى الذين لا يدخنون ٠٠ وحينما أوشك النهار على الانصراف دون أن تلين الأم أو حتى تعطيها وجها ، تقدم بعض رجال من عائلتها واستنهضوا الأبنة وزوجها لاستضافتهما فى دورهم ٠٠ أما ابراهيم أفندى فقد رحب فى الحال على مضض وأما هى فقد رفضت أن تغادر مجلس أمها ٠٠ بات ابراهيم أفندى ليلته وأكل لقمة بسيطة ، أما هى فبقيت طول الليل تستميل قلب أمها دون جدوى ٠٠ فما كاد الصباح التالى يقبل حتى كانت جفونها قد تقرحت من فرط البكاء والسهر ٠٠ عند الضحى ارتدى ابراهيم أفندى ثيابه وذهب الى دار حماته يصحبه وفد من مضيفيه فأمر زوجته بارتداء ثيابها ففعلت ، وبدأ فودع الأقربين مسلما عليهم وهكذا فعلت هى مع النساء فقبلت الجميع

وقبلها الجميع فيما عدا أمها ٠٠ ثم مضى ابراهيم افندى وهى فى اثره تسحب باحدى يديها ولدا ويحمل ابراهيم على صدره بنا صغيرة ، فعرف الجميع انها قد انجبت مرتين ومع ذلك فها هى ذى فتاة صغيرة غريره بريئة ٠٠ وكان من المفروض ان الركائب تنتظرهما على اول الحارة الملتحمه بالشارع العمومى لكن الموكب كان يكبر حولهما شيئا فشيئا وينضم اليه عشرات الكبار الصغار مسلمين مودعين مواصلين المشى معهما ، كان منظرا عجيبا ياولد ، بلدة بحالها تمشي مودعة زوجين محبين ، وصل موكبهم البطىء المتنامى بعد أكثر من ساعتين الى خارج البلدة حيث يبدأ الطريق الزراعى الموصل الى محطه القطار ، وهنا ثار الرجال الاقربون وطالبوا رجوع القوم ليركب الزوجان ويتكلا على الله ، وعلق الجميع على هذا الطلب بالتأييد ، لكنهم مع ذلك لا ينصرفون بل يظلون فى توديع مستمر وكل واحد يطلب من الآخرين الاستذواق والانصراف ولا احد يستذوق ، حتى بكت البنية بحرقة وكادت تجن من الفرحة والحزن معا ، كان الفرح بكل هذا الحب وهذه المودة يبلغ بها سماوات السعادة والبهجة ولكن الحزن من طعنة امها يمرغ نفسيتها فى التراب ، وصاح فيهم ابراهيم أفندى بكثير من الغضب والحرج أن كفى هذا القدر من الحب والوداع ، ثم سحب ركوبته رفع عليها زوجته وترك فى حجرها الطفلة ، ثم سحب ركوبة أخرى اعتلاها وفى حضنه الأبن ، وطوح ساقيه يستحث الحمار ويضرب الحمار الآخر ٠٠ جاهد الحماران للخلاص من دائرة جموع المودعين الكثيفة وسط صياح وصراخ وبكاء لا أحد يدرى مصدره ٠٠ وكانت الشمس المسافرة الى المغيب قد سقطت فى قلب الجدار المواجه من خيمة السماء الرمادية ، كالمتربصة ، يمضى نحوها حماران أشبهان يحملان شبحين مصبوغين من قرص المغيب بحمرة الرمال كأنهما يدخلان دائرة اللهب ، يجرى خلفهما ولدان ، ويمتد وراءهما شريط من الرجال والنساء والصبيان

المتناثرين كأنها كلمات ومقاطع الموال الذى راح ينساب فى السماء قادما من كل مكان ٠

بعد بضع سنوات ياولد ٠٠ تكرر نفس المنظر ٠٠ وكان يوم عيد الفطر ، حيث فوجئت البلدة بثلاث ركائب يجرى خلفها المكاريون تحمل أحد البكوات وزوجته وأربع أبناء وتتخذ طريقها الى بيت صاحبتنا صاحبة القلب الصخرى ٠٠ وما كاد الرجل يصل حتى كان هناك من يستقبله بصرف النظر عن حماته ، التى ظلت على موقفها لكنها تكلمت هذه المرة ، اندفعت تصبب كل ما تجمع فى صدرها من لعنات مدخرة لمثل هذه اللحظة ، كان الزعيق كله لابراهيم أفندى أما ابنتها لم تعترف بوجودها أصلا ، اتهمته بأنه يعاود الكرة ويجىء ليتحداها من جديد ، ان مجرد ظهوره أمامها بعد ما حدث يعتبر تحديا لها ، وأنها لن تقبل منه ذلك ، ألم يكفه ما فعل ؟ أيظن أنها تنسى ؟ أيتوهم أنه قد نفد بفعلته وانتهى الأمر ؟! هو اذن فاجر لكنه فاجر مغفل ! ولسوف يتلقى وعده ان عاجلا أو آجلا مهما طال الزمن ان لم يكن منها فمن الله ٠٠ وابراهيم يتلقى كل ذلك بسماحة وطول صبر ينفث غله فى السجائر ويرد بالابتسام المشمئز على صهره واخوته الذين لا يكفون عن الاعتذار له واعلان عجزهم عن اسكاتها ٠٠ لكن ابراهيم أفندى كان حصيفا هذه المرة ، اذ أنه احتفظ بالركائب كنوع من الكرم المظهرى حتى يتغدى المكاريون وحميرهم ، فما أن انتهوا من الغداء حتى هب ابراهيم أفندى قائلا فى حسم لا يقبل المماحكة : يلا بينا ٠٠ فنهضت زوجته وجمعت أولادها وأشياءها ٠٠ وكان موكب العودة فى هذه المرة صغيرا ، اذ كان قرب صلاة العشاء ، والمكاريون الشطار ينخسون الحمير فتنطلق بهم مبرطعة على الطريق الزراعى ٠٠

العجيب ياولد ·· لا اله الا الله ·· العجيب أن الله قد انتقم للولية بالفعـــل ·· ويقولون أنها سلطت قـوة من البريطـــان ! ومن رجال السراى ! ومن كل زبانية الأرض ! ·· المهم أن البلدة استقبلت ذات يوم خبرا يقول أن الفرنوانى بيك قـد اغتيل أمام باب محكمة النقض العليا وهو داخل · وقيل وهـو خارج ، ثم قيل ان ابراهيم أفندى كان معه لحظة انطلاق الرصاص عليه وانه مات هو الآخر ·· وقيل ثانية أن الفرنوانى بيك مات فى حادث قطار وأن ابراهيم أفندى لم يكن معه ·· فى صباح اليوم التالى بعثنا فى شراء الجرنال من البندر ·· فاذا بالحكاية منشـورة على عـدة صفحات ، واذا بصور الفرنوانى بيك وابراهيم أفندى منشـورة بالحجم الكبير بين صور للملك ورجال السراى والحكومة والوزراء والبريطان من أمثال رئيس البوليس السرى ورؤساء آخرين كثيرين ·· فماذا كانت الحكاية ؟ ·· الحكاية ياولد ــ كما يقول الجرنال ــ أن هناك رجلا انجليزيا كبيرا يدعى السيردار أو ما شاكل ذلك ، اغتاله شاب مصرى ، وأن هذا الشاب كان من بين الشبان الذين يترددون على الفرنوانى بيك باستمرار ، ويقال أنه من أقربهم اليه ، فاندفع البريطان يقبضون على الناس من مختلف المهن والملل ، طلبة على موظفين على سياسيين كبار ، يضربون ويقتلون من يعترضهم او يقاومهم ، فلما دخلوا دار الفرنوانى بيك لتفتيشها والقبض عليه للتحقيق معه لم يجدوه بالمنزل انما وجدوا من اشتبك معهم وتبادل اطلاق الرصاص ، فكانت معركة استمرت نصف سـاعة والجنـود يبحثون عن مصدر الطلقات ويتسلقون الجدران والمواسير والدور المجاورة ، فاذا بمجموعة من الشـبان الطلبة كانوا يقيمون فى غرف السطح وكان معهم أوراق خطيرة واسلحة يخافون عليها فارادوا شغل البريطان حتى يتخلصوا منها ، وقد سقط بعضـهم قتيـلا

والبعض الاخر جريحا اثناء هروبهم ، وفي هـذه اللحظـة كان الفرنوانى بيك يحاول الصعود الى سطح داره بأمر من البريطان المحاصرين لكى يأمر شبانه بالكف عن اطلاق الرصاص ، فما ان اقتربت خطـوته على السـلم حتى عاجلته رصاصات أردته قتيلا يتدحرج على الدرج ، قيل أنها من رصاص البريطان ، وقيل أنها من رصاص شبانه ، لكن الطبيب الشرعى يؤكد أنها من رصاص البريطان ، ورد المدعى العام البريطانى بأن شبان الفرنوانى بيك ضربوا برصاص سرقوه من معسكرات البريطان فلا عجب أن تكون الرصاصة بريطانية واليـد التى أطلقت الزناد مصرية كالعـادة دائما ٠٠ أى أن الفرنوانى بيك مات فطيسا والسلام ، ثم انهم قبضوا على شابين أحدهما مصاب والآخر سليم فى حين مات ثلاثة وهرب آخرون ، وقد اختـلفوا فى عدد من هرب ، قدروهم بأربعة ، وقيل بل ثلاثة ، وقيـل ربما أقل ، لكنهم كانوا متأكدين من هارب واحد معروف لديهم هو ابراهيم أفندى الخواص ، الذى قالوا انه حمل الأوراق السرية التى تدين استاذه وجماعته وحمل معه بعض الأسلحة حيث قد مكن له الشـبان طريق الفرار بأن ألبسوه ملابس جندى بريطانى كاملـة وأعطوه بندقيـة كبنـادق الانجليز واختلط هو بهم قليلا حتى تمكن من الخلاء فانطلق الى حيث لا يعرف أحد ٠٠ ثم أن الجرانين صارت كل يوم تنشر صورته بخبر مكافأة لمن يقبض عليه أو يرشد عنه ، وكل يوم تقول الجرانين أشياء جديدة عنه وعن الحادث ٠٠ ثم أن حكما بالاعدام قد صدر ضده ٠٠

هذه حـال الدنيـا ياولد ٠٠ بعثر مـكتب الفرنوانى بيـك وصـودرت أوراقـه ونقوده وارتحـل أولاده الى بلـدته فقراء مساكين ٠٠ وشردت البنية زوجة ابراهيم أفنـدى شهورا طـويلة سوداء تعيش على هبات يبعثها لها فى السر بعض الناس الذين

لا تعرفهم لكنهم يعرفونها ·· وذات يوم تجمع وفد من أهل البنية فذهبوا الى القاهرة وجاءوا ببطلة الموال كسيرة القلب والخاطر تجر خلفها أبناء ولا تملك من حطام الدنيا سوى بعض حلى كانت تتزين بها ·· شفت حكمة الرب ياولد ·· حكم على هذه البنية التعيسة أن تدفع ثمن حبها فادحا ، أن تعيش رغم أنفها مع أم لها ترفضها وتمقتها ولا تريد أن تقيم معها أى ود ، ولم يكفها ماهى فيه بل كانت عيون الشرطة والمخبرين مسلطة عليها ليل نهار ، وفى كل بضع ليال تهاجم الشرطة دار أمها وتفتشها وتبهدل الجميع بحثا عن الزوج الهارب ، حينئذ لم تكن أمها مقصوفة الرقبة تتركها فى حالها ، بل كانت كلما داهمتهم الشرطة وانصرفت تنظر اليها فى تأنيب ولوم قائلة : هذا ما أخـذناه منك ! فضيحة فى الأول وفى الآخر ! ·· والبنت لا تجد ملاذا غير البكاء والنحيب ··

ظلت المسكينة تنتظر عودة زوجها صبح مسـاء ، والأسـابيع تجر الشهور ، والشهور تجر السنين ، ولا حس ولا خبر ، حتى يئست من عودته تمـاما ، وأيقن الجميـع أنه قد مات فى ظـروف غامضة ·· وكان عود الفتـاة يجف ، والوردة تذبـل ، وتزداد اصفرارا ولا تجد من يشفق عليها ، الى أن أراحها الله بالموت الجميل ، فبكل هدوء أغلقت عينيها على الألم الدفين ذات فجـر فلم تفتحهما بعدها الى الأبد ، ومضت الى القبر تاركة خلفها أربعة أطفال ، ولدين وبنتين ، ليس لهم من عائل أو نصير سوى الرب ، ولابد أنه سبحانه قد رقق لهم قلب الولية فلم تعد ترعبهم أو تنهرهم ، تركتهم يعيشون فى الدار مع أبناء خالهم ·· وكانت رقة المدنية قد زايلتهم تماما ذابت هدومهم الأنيقـــة فلبســوا خرقا وأســمالا من مخلفات أبناء خالهم ، وغلظت أقفيتهم ونشفت أعوادهم واغبرت وجوههم وتشققت أقدامهم ·· أى والله ياولد كان الله فى عونهم ، لقد عاشوا مثلا لليتـم الحقيقى ·· لكنهم سرعان ما كبروا وعرفوا

ان امهم قد ماتت وان اباهم قد مات هو الآخر ، ولم يعد أحد منهم يذكر شكل أبيه أو شكل أمه ٠٠ ثم أنهم صاروا رجالا وصبيانا يشتغلون فى دار خالهم وأرضه ولا يأكلون سوى الفتات ٠٠

رح يازمن تعال يازمن ٠٠ فوجئت البلدة بظهور رجل ممصوص البدن يرتدى جلبابا وحذاء قديمين ، لم يعرفوا اصله ولا فصله ، لكن بعض الناس عرفوا أنه ابراهيم أفندى الخواص الهارب من البريطان ، وأنه قد تلطم طوال هذه السنين فى بلاد الله بين خلق الله حيث اشتغل شيالا على المحطات وجرسونا فى المقاهى وفراشا فى لوكاندة للنوم ثم سرح بعربة بطاطة ثم أمضه الشوق والحنين فجاء يبحث عن زوجته وأولاده ، ففوجىء بالحقيقة المرة ، فاصابته غصص من الالام لا يحتملها بشر ، ركبه السأم والقرف واليأس لظهوره بعد فوات الأوان ، فظل يؤجل الكشف عن نفسه لأولاده حتى لا يصدمهم بما آل اليه حاله مع علمه بأنهم قد عرفوا حقيقته بالفعل ولكنهم يستمرئون لذة عدم التصريح بها لعشرات الأسباب النفسية الغامضة ٠٠ ثم أنه فقد الرغبة نهائيا فى الكشف عن نفسه لاحساسه أنه مكشوف من حاله وليقينه أن الكشف عن حقيقة نفسه لا يخدم شيئا ٠٠ ثم أن الذين عرفوه آثروا عدم تقليب المواجع خاصة أن الأولاد قد نسوا أمر ابيهم تماما ووطنوا النفس على عدم وجوده ، والواقع أن الجميع قد خشى افتضاح امره فكتموا الخبر ٠٠ واكتفى ابراهيم افندى بأن يعيش قريبا من اولاده يراهم من بعيد لبعيد ويجتمع بهم فى بيت واحد فى كثير من الأوقات ، صحيح انه لا يملك لهم نفعا ولا ضرا ، وأنهم كذلك لا يملكون له نفعا ولا ضرا ، ولكن هكذا الدنيا ياولد وهكذا الانسان ، يحب ان يبقى بجوار ابنائه وأن يبقوا بجواره حتى ولو كان احدهم غير نافع للآخر ! ٠٠ حتى ولو كان يعرف أن أولاده قد باتوا لا يعترفون الا بموته ! ٠

١٧ ـ فاتحة شيخ البلد

أقامت مدرستنا حفلا بمناسبة عيد جلوس الملك ، دعيت فيه شخصيات كبيرة من المنطقة التعليميـة ومن المديرية ، وكنا قد مكثنا شهورا نتدرب خلالها على تمثيلية سنمثلها أمام الحضور ، وقصائد شعرية سنلقيها بصيغة حوارية يتحدث فيها الفلاح والملاح والطبيب والقائد ، وفى يوم الحفل حضر جميع آبائنا فملأوا الحوش العريض جلوسا فى أدب جم وانبهار حقيقى ، وصفقوا جيدا حتى اهتزت سماء القرية فى كركرة بهيجة مهيبة ينقلهـا الميكروفون ، فتزغرد أمهاتنا على أسطح الدور ، فأمهاتنا يتدفعن مزغردات كلما طرأ على الأثير صخب بهيج ..

على خشبة تشبه خشبة المسرح صنعها محل الفراشـة ، تعاقب كل من الناظر ووكيـــل المدرسة ومدرسها الأول ، مرحبين بالضيوف الأجلاء فى خطب عصماء فيها شـعر وقرآن وحديث شريف . كل واحد منهم حرص حرصا شديدا على تعيين أسماء الضيوف وعلى رأسهم المفتش « خـلف » الذى هو مفتش التعـليم الالزامى فى المنطقة كلها ، والذى أرهبتنا زيارات عديدة له فى سنوات الدراسة السابقة . كان أبيض الوجـه أسـمره فى نفس الوقت ، ذو شارب أبيض مزموم على الشفتين فى حزم وقوة ،

مفلوق الشعر من الجانب الأيمن بشعر مصفف ناعم أبيض على أسود . وكان هو الذى رتب لقيام هذه الحفلة مثلما رتب فى مدارس المنطقة كلها على مدى أيام متباعدة بحيث يحضرها جميعا ، وهو الذى أمر المدرسين أمامنا بأن يجمعوا من كل « ولد » قرشا ، ليكون كل ولد منا قد عبر عن شعوره نحو مولانا المفدى ، فكل ولد منكم ياشطار لابد أن يظهر حبه لجلالة الملك فاروق ، أن أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب سوف يغنون لجلالته وأنتم أيضا ياشطار يجب أن تفرحوا بعيد جلوس مليككم المفدى ..

ليلتها طالت الخطب وردح الميكروفون حتى دفق على الأسطح أطنانا من النواح الغريب المنفعل لا تدرى ان كان تعبيرا عن فرح أم أنه ماتم أم أنه مزاح فى مزاح .. وأيـدى الحضـــور لا تـكف عن التصفيق . ولقد تقبل الحاج « مصطفى الحداد » كل ذلك بقبول حسن ، الا شيئا واحد رفض أن يتقبله بحال ، ذلك هو تكرار اسم المفتش « خلف » . فأيها السادة .. ضيوفنا الأجلاء .. سيادة المفتش خلف .. ونخص بالذكر المفتش خلف .. وبفضل السيد المفتش خلف .. المفتش خلف .. المفتش خلف .. المفتش خلف .. سلامات ياسى خلف ..

هكذا علق الحاج « مصطفى الحداد » وهو فى كرسيه البارز عن الصف قليلا فى مواجهة الخشبة المنصـة مباشرة .. وعلى جانبيه عدد مهول من عمداء الزعالكة والبكاروة والنجار والسوايفة والجرانة . يلبسون الجلاليب الكشمير السوداء المخططة وفوقها العباءات الجوخ ، ورهط من أفندية لابسى البذلات مكشرين ملغدين منكسى الوجوه فى وقار وجـدية خطيرين ، الطرابيش فـوق كـثافة الرؤوس كغابة من شواهد المقابر تكتنفها ظلمة عجز ضوء الكلوبات الشاحب العليل عن دفعها ..

رنت كلمة الحاج « مصطفى الحداد » وسط الصخب فسمعها كل جيرانه · اكتفى رهط الافندية الضيوف ـ الذين من بينهم المفتش خلف نفسه ـ بأن رفعوا وجوههم كلهم دفعة واحدة فى اتجاه الحاج « مصطفى الحداد » ولكن بلا أى انفعال كأنهم يبدون الاستعداد التام لعدم تصديق آذانهم · أما رهط العمداء فقد قصرت رقابهم بأن انضغطت فى الأكتاف بفعل زم الضحك وكتمانه بقوة عضبية هائلة · ولم يكن قد بدا الحاج « مصطفى الحداد » أنه قال شيئا ، فرحب رهط الأفندية بتكذيب آذانهم ثم عادوا الى تنكيس وجوههم من جديد بنفس الجدية والوقار والاستماع بعمق شديد ·· الى أن جاءت اللحظة الخطرة ، حيث كان اسم « الحاج » « مصطفى الحداد » مدرجا فى برنامج الحفل باعتباره العمدة ليلقى كلمة البلد يرحب فيها بالضيوف ويهنى جلالة الملك المفدى ، وكان « السيد جابر » مدرس الحساب هو المنوط بالتقديم يمسك بورقة مطوية ويروح ويغدو على الخشبة فى جدية واهتمام كأنه صاحب الحفل ، ومع أنه منوط باذاعة اسم المتحدث القادم فقط الا انه ينتهز الفرصة ويتلاعب هو الآخر بالحديث والانفعال ، ويشكر ـ أيضا ـ المفتش « خلف » · فما ان بدأ « السيد جابر » بتقديم حضرة العمدة الشيخ الأستاذ مصطفى افندى الحداد حتى نهض الأخير متقدما نحو الخشبة فى هدوء وهرولة على ايقاع العصا الأبنوس ، وشعره الأشيب كالأسلاك يتصاعد متكورا · فكأن طربوشه القصير الداكن مغروس فى طاجن من اللبن · ثم انه صعد فى وقار مهيب الى الخشبة وتقدم نحو العمق غير عابىء بهيئة المدرسة الجالسة فى العمق لصق الجدار المصنوع من خيمة السرادق ، ثم توقف تجاههم لبرهة ، خبط العصا فى الأرض الخشبية خبطة افزعت الميكروفون فبصقها فوق ادمغتنا فانحطت أبصارنا جميعا فوقه ملجمين ، ثم التفت قليلا مشيرا بالعصا نحو السيد افندى جابر قائلا :

حد منكم ياحضرات السادة الأفاضل يقدر يقول الأفندى ده منفعل قوى كده ليه ؟ أما والله دى حاجة تتكتب فى الجرايد .. دى ملاحظه بريئة على كل حال .. ثم تقدم نحو الميكروفون بحركة مسرحية رصينة فى اتجاه المشاهدين ، تنحنح ، خرج صوته الهادىء المصطباوى :

السلام عليكم .. انتو بصراحة شرفتونا وانستونا .. ودى من ليالى العمر بحق وحقيق .. الواحد يقول ايه ؟ .. آه .. ربنا يديم علينا جلالة الملك ونحتفل بعيد جلوسه الألف .. عشان نشوف الوجوه الحلوة دى مشرفانا على طول .. أهلا وسهلا بيكم .. دى شباس عمير كلها نورت .. كل مخلوق فيها بيرحب بيكم وبيغنى بعيد جلوس الملك المفدى .. واحنا بهذه المناسبة وفى ظل حكومتنا الرشيدة سوف ننشىء فى هذه البلدة مزرعة كبرى للدواجن تغذى الناس بالكتاكيت والفراخ .. ونطلق عليها اسم : مزرعة الفاروق تيمنا باسم المليك المفدى .. دى حتى المزرعة اقمناها بالفعل بس حنوسعها شوية .. بالمجهود الذاتية . كل ابناء البلد حيساهموا فيها ماهى دى الجدعنة طبعا .. واحنا على فكرة بلد جدعنة قوى قوى .. حضراتكم طبعا .. ما انتو عارفين .. حضرات السادة المدرسين ربنا يخليهم ويطول فى عمرهم بيعلموا الأولاد حاجات كثير من تاريخ بلدنا .. أمال .. هى قرية صحيح لكن اسمها ورد فى التاريخ .. لها تاريخ .. صدت الحملة الفرنسية .. وما هذا البرج ببعيد .. نعم ياحضرات .. هذا البرج الذى يقف خلفكم هو آخر بقايا فيلق من الأبراج كان يستر بلدتنا هذه يوم هاجمتها الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال مينو .. مش كده ولا ايه ياقنديل افندى ؟ .. وبالأمارة البلد قتلت حصانه .. حصان مينو نفسه ، بلدنا دى قتلته ياحضرات .. وصاحبه اتدارى .. سحب هلاهيله واتكل على الله .. بس قبل ما يمشى راح مولع

فى أبراج الحمام ·· بقى الحمام المولع يطير من حلاوة الروح ويقع فى السطوح ، تروح مشعللة ·· بلدتنا دى بقى ·· انتو نورتوها ·· وبالنيابة عنها باقول انها مستعدة تضحى بأرواحهـا فداء لجلالة الملك ·· نورتونا كلكم ·· حضرات الأساتذة الأفاضل الأستاذ المفتش خلف ·· والسيد الأستاذ المفتش خلف ·· وحضرات جناب المفتش خلف ·· وسعادة البيه الفاضل المفتش خلف ··

دوى التصفيق لبرهة ثم سرعان ما انقلب الى قهقهات عالية مرحة ، فى حين أخذ عمداء العائلات يضحكون فى حرج محاولين تبسيط الأمر فى نظر الضيوف وتطييب خاطرهم · انتظر الحاج « مصطفى الحداد » حتى كف هذا اللغط، ثم واصل :

عدم المؤاخذة يا أسيادى ·· أنا لا أقصـــد شـيئا بالنسـبة لحضرة جناب المفتش الأستاذ خلف ·· انما أريد القول بأننى طوال هذا الزئيط لم أسمع سوى المفتش خلف ·· المفتش خلف ، كأن الله أوصى قائلا وكيلى فى الأرض هو المفتش خلف ·· عدم المؤاخذة يا أستاذ خلف ·· لقد خشيت أن يتصور الناس هذا ·· فما معنى خلف أيها السادة من أهل بلدتى ؟ انه شخص مثلنا اسمه خلف · هذا هو الأمر باختصار ·· وفى النهاية أنت شرفتنا يا أستاذ خلف ·· أى والله العظيم اقولها بصدق ·· أنتم أهل الخير والبركة فى هذه البلاد ، يا من تربون الأجيال ·· أهلا بيكم والسلام عليكم ورحمة الله ·

ثم انثنى ماضيا ليهبط عن الخشبة وسط عواصف التصفيق والضحكات حتى لم يعد أحد يعرف أن كانت تقديرا أم سخرية · فى الحال تقدم حضرة الناظر فأوقف هذا اللغط فى صيحة داوية : « أيها السادة ·· » · وفوجىء بأن صوته قد اختفى تماما من الأفق ، فتنحنح لبرهة ثم خيل اليه أن هدوءا خرافيا شمل المكان

فجأة ، فأخذ يصيح : ايها السادة ، فلا يسمعه أحد · حينئذ تقدم عامل الميكروفون الذى استأجرته المدرسة مع الفراشة من « عباس الملا » فى دسوق ، فراح ينقر على العصا المعدنية المثبت فى أعلاها الميكروفون ، فلا يسمع لنقره رنين ، فأخذ ينفخ فى مسام الميكروفون قائلا : آلوه · ألوألوألو آ ·· لو ·· ه ، فلا يصل صوته أبعد من أنفه · ترك الميكروفون وانطلق يجرى نحو ماكينة صغيرة كانت لا تزال تتكتك بصوت عال فى ركن من حوش المدرسة بجوار دورة المياه ، اندهش ان الكهرباء لم تنقطع فما السبب اذن ؟ ثم انطلق يجرى خارج الفناء ومعه ناس كثيرون يستطلعون الأمر · خيم على المفتش « خلف » وصحبه غم ونكد ، فى حين تململ العمداء شاعرين بالحرج · بعد قليل دخل عامل الميكروفون يجرى يصيح بشىء من الفزع والخوف :

ـ الهورن مش موجود ياحضرة الناظر !

والهورن هو ذلك النفير الكبير الذى يضخم الصوت ويرسله فى موجات عالية ، وكان مربوطا بالحبال فى نهاية عرق من الخشب مثبت فوق برج حمام مهجور على مقربة من المدرسة صاح الناظر بعد أن استوعب الخبر :

ـ مش موجود يعنى ايه ؟ اتسرق يعنى ولا ايه ؟ !

ثم نظر فى اتجاه العمدة مصطفى الحداد نظرة ذات معنى · وكنت أنا قريبا منه فى هذه اللحظة مع مجموعة من تلاميذ سنة رابعة أول ، نستعد لدخلتنا حيث سنؤدى مشهدا تمثيليا نلقى فيه القصائد الشعرية التى تنادى بمجد الفاروق ، ورأيت على وجه الناظر ما يشبه التشفى والغيظ الممزوج بالفرح الشرير لما حدث ··

هب العمدة « مصطفى الحداد » واقفا وصاح فى طلب شيخ البلد ، الذى كان جالسا على مقربة منه فى صف خلفى ، والذى

نهض على الفور صائحا فى طلب شيخ الخفراء • وكان شيخ الخفراء مشغولا بضرب الناس الذين كانوا يتسلقون سور المدرسة للفرجة واثارة اللغط ، فناداه أكثر من صوت ليكلم شيخ البلد ، فترك مهمته لوكيل شيخ الخفراء وجاء مهرولا • قال له شيخ البلد فى غيظ :

ـ شوف ياجدع الهورن بتاع الميكروفون بيقولوا انسرق •• نهاركم أسود من شعر رأسكم لو ماجاش فى خمس دقايق •

اندفع شيخ الخفراء مهرولا • هرول وراءه كثير من الخفراء والرجال والأولاد • وبعد قليل خرج وراءهم شيخ البلد • غابوا طويلا وصياحهم يرتفع شيئا فشيئا • ثم خرج العمدة ليرى ومن ورائه عمداء العائلات واحد وراء الآخر • ثم صعد المفتش « خلف » الى الخشبة ، ورغم علمه أن الميكروفون لم يعد ينطلق فانه مع ذلك عدل الميكروفون فى مواجهة فمه وراح يصب فيه الكلام • قال أنه يشكر رجال المدرسة ، ويشكرنا ، ويشكر أهل البلدة الكرام على حسن استقبالهم وكرمهم واثبات حبهم للمليك المفدى ، وكل عام ونحن جميعا بخير ومليكنا المفدى فى خير حال ، والسلام عليكم ورحمة الله • ثم نزل ، فاذا بصحبه قد نهضوا واقفين ، فأشار لهم ثم تقدم خارجا ، فأسرع حضرة الناظر خلفهم ومن خلفه بقية المدرسين • وهكذا فوجئنا بأنفسنا واقفين وحدنا ، وبعد برهة فوجئنا بصبيان « عباس الملا » يفكون أعمدة الخشب ويرفعون قماش المشمع وينزلون الكلوبات ، فاضطررنا الى الانسحاب • وفى طريق عودتنا رأينا تجمعا كبيرا عند دوار العمدة « مصطفى الحداد » يتصاعد منه صياح ولغط وسباب وكلام كبير لا نفهمه •• وكانت كسفتنا بعدم ظهورنا على المسرح قد صدت نفوسنا عن متابعة الصياح ، فانسللنا الى دورنا فى خيبة أمل •

ظلت البلدة مشغولة بهذا الحادث أياما طويلة ، والمخبرون السريون يجوبون البلدة ليل نهار ويندسون بين الجماعات لكى يعرفوا من الذى سرق الهورن وتسبب فى افساد احتفال المدرسة بعيد جلوس الملك ؟ من الذى سولت له نفسه أن يفعل هذا الفعل الجرىء الخطير ؟ انه ليس تحديا للمدرسة ، ولا للعمدة ، بل ولا للبلدة كلها ، انما هو تحد للملك نفسه .. هكذا كان يقول « أبو سماعين » بشىء من الانفعال المصطنع مظهرا تعاطفه الزائف مع موقف العمدة ، يودى وشه فين ؟ انه حادث يدل على أن العمدة ضعيف الشخصية لا قيمة له فى البلد ..

أفراد قليلون فقط ، ربما معلمى سعد الله وأبى وبعض الناس الفقراء من عزبة العلمين ، هم الذين يعرفون أن هذا الحادث الخطير كان من تدبير « ابو سماعين » ، حيث اقتاد ثلاثة أولاد من عزبة العلمين ورسم لهم كيف يتسللون الى موقع « الهورن » ويفكونه بهدوء اثناء انشغال الجميع بالفرجة ، وكيف يتسلمه واحد يقف الى بعيد راكبا حمارا رهوانا حيث يلف الهورن فى ثوب قديم ويضعه فى مقطف لينطلق به حيث يواريه فى بلدة بعيدة جدا ، وحيث يسلمه هناك لمن يدفنه فى حفرة الى الأبد ..

المفتش « خلف » بالطبع لم يسكت ، ولابد أنه كتب تقريرا ضد العمدة بعد ذلك الاستقبال الحافل بالتريقة . ذلك أن العمدة قد بات يستقبل كل يوم ضيوفا من الأفنـدية المهمين مخفورين بالعسكر السوارى ، واصبح يسافر كل بضعة أيام الى المركز والمديرية ، وكان « أبو سماعين » وحده يعرف سر ما يدور ويهمس لنا أن العمدة فى تحقيق مستمر وأن الأمر سوف يتطور الى أبعد من ذلك ، جاء أمر بايقاف العمدة عن العمل ، وباسناد مهامه ــ مؤقتا ــ الى شيخ البلد .

شيخ بلدتنا ما اجمله ، الشيخ أحمد أفندى الصواف ، أسمر الوجه ضخم الرأس مدببة ملغد من الأمام ، وأما من الخلف فيبدو بلا رقبة . لا هو بالطويل ولا بالقصير لكنه ضخم الجثة مثل فيل ذكى الماح . إذا مشى لابسا الطربوش يرسل من تحته نظرات مستطلعة وجلة لكنها طيبة مع أنها تفترض الخيانة والغدر فى كل خطوة . وإذا جلس لابسا الكلبوش بدلا من الطربوش بدا منظره كشجرة الجوافة المقلمة تقليما جيدا فى حديقة داره ذات الفراندات ، التى تعج بأشجار الفاكهة من كل نوع ، والتى يذوق حلاوتها كل رجال البندر والمسئولين فى الداخلية . أملاكه ـ فيما يقول أولاده بمسكنة مفتعلة ـ قليلة لا تتجاوز خمسمائة فدان وحظيرة ماشية وثلاثة دكاكين للبقالة فى مدينة البندر . كان يرانا نتسلق أشجار حديقته فيكتفى بالفرجة علينا من بعيد فيما هو متربع فوق المصطبة أمام دكان « سرور » الذى يحوى صنوفا غريبة من العلب الصفيح والكرتون ليس بها أى شىء على الاطلاق ولا أحد يعرف ماذا يبيع ، الا أنه يفترش المصطبة المواجهة لزريبة أحمد أفندى ، شيخ البلد ،حيث ، تجىء المساند الوثيرة ويتراص الرجال يشربون شايا وقهوة يصنعها لهم « سرور » . وكان « أحمد أفندى الصواف » لما يتركنا نتسلق أشجار حديقته المحاذية للطريق يغرينا بمزيد من التوغل داخلها لنقطف ثمار الجوافة والكمثرى والمانجو والعنب ، لكنه فى الواقع كان يتركنا لقدرنا ، حيث يلتقطنا من الداخل أحد التملية فيشبعنا ضربا وتلطيشا وتشليتا ، أما ان تمت عمليتنا بنجاح فاننا نتسلل منسربين فى الطريق نتحسس انتفاخات جيوبنا وعبنا ، فاذا حاذينا المصطبة التى يجلس فوقها « أحمد أفندى » شيخ البلد فاننا نتباعد قدر الامكان عن مجلسه منكسى الرؤوس نتوقع من خوف أن ينقض علينا ويعلقنا فى المشنقة كما يهدد الناس دائما حين يتعاركون مع أولاده ، غير أنه كان يكتفى بأن يجعر فينا بصوته الجهورى كمائة ثور تخور فى حلقه دفعة

واحدة : « عارفك يابن الكلب انت وهو ·· حاخرب بيت ابوكم بس اما اشوفهم » · وفي العادة لا يفعل شيئا من ذلك ··

كان جده فيما يقولون صوافا يتاجر فى صوف الأغنام الذى يجمعه من القرى بواسطة صبيان شطار ثم يبيعه للمغازل · لكننا نفتح أعيننا على « أحمد افندى » باعتباره من أعيان البلدة منذ أزمان بعيدة · له شوكة حادة ، فزوجه من عائلة تملك بلدة بكاملها فى نواحينا ، كلهم محامون وقضاة وضباط شرطة وأعضاء مجلس شيوخ ونواب ، يصنعون مهرجانا رهيبا فى بلدتنا حين يزورون صهرهم · أما هو ـ أحمد افندى الصواف ـ فله هو الآخر أولاد يتعلمون فى البندر تعليما عاليا فى الكليات ، وأولاد آخرون فلاحون ، وقد تزوج ثلاث مرات فوق زوجه الأصلية لكنها كانت تطردهن فى النهاية خاسرات وتضم أولادهن الى أولادها يرعون فى الدار والحقول ··

اشيع فى البلدة أن « أحمد افندى الصواف » شيخ البلد سوف يتزوج بنتا فى عمر احفاده احتفالا بالعمدية التى آلت اليه ولو كانت مؤقته ، لا بأس فالزيجة هى الأخرى ستكون مؤقتة ، هكذا يعلق « أبو سماعين » فى دكاننا ضاحكا ضحكته الشهيرة · وقد كنا نظنها مجرد اشاعة لولا أن الواقع صدقها بحفل قراءة فاتحة شيخ البلد على « صفاء » بنت « زاطة » شقيق « محمد عبد المنعم أبو سيف » عمدتنا الأسبق · كيف ؟ انها طفلة تلعب الاستغماية معنا وان كانت جميلة وكيف رضى السوايفة ؟ الأدهى من هذا كيف يمكن لشيخ البلد أن يصاهر السوايفة ؟ هذه سابقة خطيرة فى تاريخ بلدتنا لا يمكن أن تمر هكذا ··

ايام طويلة وهذا الموضوع هو اللبانة الوحيدة فى الأفواه حول طبالى العشاء وركية نار الشاى وفى كل مكان

و « أبو سماعين » تملؤه الزأطظة ، اذ يجد في كل خطوة احتفالا سريا صغيرا على مصطبة في الشارع في عمق الليل • ينتقل من حقل الى حقل تداخله البهجة العظيمة أن يمتليء الليل بهذا الانس المفاجيء ، حتى أن الحوارى المظلمة بكثافة كانت هي الاخرى تمتليء بالأنفاس والأشباح المتمددة حول ركية النار تزفر ، ولابد أن يمسيهم « أبو سماعين » بالخير ، ولابد أن يقولوا له بأريحية غير طبيعية :تفضل ، ولابد أن يتفضل ويشرب من الشاى ، ويلقى عليهم تعليقا استمع اليه فى قعدة سابقة منذ لحظات بعد أن يطوره ويحبكه ، ولا ينسى وهو منصرف أن يأخذ منهم — دون أن يشعروا — تعليقا جديدا من تعليقاتهم يستقر فى نفسه ليطور به التعليق السابق أو يتذكر على هديه تعليقا أفرس وانقح ، وكل التعليقات تسخر من هذا النسب الجديد المفاجيء وتحذر منه فى نفس الوقت : للصواف أن يتزوج كيف يشاء ، ولكن أن يتزوج من عائلة السوايفة بالذات فهذا شيء خطير وغير عادى وله دلالته ، فى الأمر « انه » بل « أنات » و « أنات » لقد تصاحب القط والكلب والفار فهذه اذن من علامات الساعة • المدهش أن هذا الزواج ليس لعبة ، فالسوايفة ليسوا بالهفية حتى يطلق « أحمد أفندى » ابنتهم بعد زمن يقصر أو يطول والا تكون الطامة الكبرى باصطدام عائلتين رهيبتين • انه اذن زواج أبدى مصلحى أو على حساب البلدة بالطبع ولكن ، لم الاصطدام ياعم ؟ — هكذا يعلق أبو سماعين فى ابتسامة أسيفة — أن العائلتين باسم الله ما شاء الله سمن على عسل ، عائلة السوايفة وعائلة الدوايدة أصهار أحمد أفندى ورجال العائلتين أصدقاء فى البندر يتبادلون المصالح والزيارات وأحمد أفندى يعرف هذا من زمن فلا خوف اذن من صدام ••

صدق نبوءة « أبو سماعين » ، اذ تفاجأ البلدة بعد بضعة أيام بخبر ينقض عليها كالرعد المتوحش كالبرق العاصف : لقد

رجعت العمدية من جديد للعمدة الأسبق « محمد عبد المنعم أبو سيف » كيف ، بحق الله ؟ هذا ما حدث ..

انقلبت البلدة سائرة فى الشوارع والحوارى تشد فى شعرها تلطم الخدود تبكى . انتشر النواح والزعيق والعصبية فى كل أنحاء البلدة بلا استثناء . كثر العراك بدون أسباب . طلقت نساء . فطست بهائم . اقتلعت زروع . عم البلدة نكد وغم شديدين . الوحيد الذى كان يبدو مبسوطا لا يكف عن الضحك والابتهاج هو « أبو سماعين » بل اننى لم أره فرحا طول حياته كما كان فى هذه اللحظات ، كأنه فرح اليأس اذ اندفع يضحك ويسخر ويهزأ بكل شىء وسط كل هذا الصخب اليائس المنكود . وكان الناس جميعهم يشخطون فيه فى لحظات الحرج والغضب صائحين : « كفاية بقى ياأبو سماعين شايفها مضحكة ؟ كل وقت وله أدان يا أخى » . فيضحك أبو سماعين قائلا : « والله انتو مخكم صغير .. أنا قلبى حاسس أن المسألة قربت .. هى مادام لخبطت كده تبقى خلاص بالسلامة » . فيفتح الجميع أفواههم غير فاهمين شيئا من كلامه ، لكنه يستطرد : « وحياة النبى قربت خلاص » . ويقول معلمى سعد الله : « لكن ازاى الراجل ده يرجع تانى بعد البلد كلها ما كتبت فى حقه وبصمت على كده ؟ » . يصغى الجميع فى انتباه ، فيرد أبو سماعين فى لهجة مزاح : « أصل الوزارة اتغيرت » . قالوا جميعا : « ازاى دا الوزارة لسه متغيرة ديك النهار » . قال أبو سماعين ضاحكا : « واتغيرت تانى .. ورجعت اتغيرت بقى لها ساعتين .. وربك العالم ايه اللى حايحصل تانى .. الدنيا أصلها ملخبطة حبتين » . ويخبط الشبان الأرض بأرجلهم قائلين فى حقد دفين : واحنا كمان مش حنسكت . ثم ينصرفون وهم ينفخون من الغيظ ..

١٨ ـ يوم الوسعاية
المحاذية للمدرسة

كان ضوء الصباح يبدو كأنه يحاول انتزاع نفسه بصعوبة شديدة من جراب الليل وكان يخرج محملا بالصدأ • قرص الشمس الأحمر يقترب وراء صفحة السحاب الداكنة فيبدو مرهقـا في رحلة عذاب مضنية تجاهد السنته الحمراء في اختراق السحب الرمادية • وكنت ممسكا بمخلاتي التي هي في الأصل رجل سروال قديم من سراويل ابي والتي حشوتها بالكتب والكراريس وأقلام البسط والكوبيا كما بقعتها ببقع الحبر الكثيف • كنت احاول فتح عيني وأنتفض من لسعة البرد ، انحناء رقبتي بالأمس في الدكان على شغل العراوى وتخزيق عيني بغرزتها الدقيقة الدءوبة المثابرة جعلني اتمنى لو استغرق في النوم الى الأبد • غير أن ثقل المخلاة في يدي ذكرني بما فيها ، فما لبثت أن شعرت بزهو عظيم نشطت له ساقي فرحت اخب في خطو عسكري ذاهبا الى المدرسة ••

فما أن زايلت حارتنا وخودت في شارع داير الناحية حتى تسمرت في وقفتي مع رهط من رفاقي ومن الفلاحين • كان ثمة شبح يقبل من بعيد تكاد رأسه تلتصق بقرص الشمس البني

المحتجب خلف السحب . بدا كان هذه السحب كلها ظلال له . كانت مقدمة الشبح تتمطى الى الأمام فى كبرياء مهيب وهى تنشد الى الخلف لتمتد أكثر فى حركة ايقاعية ، فاذا هو جمل كبير وسنامه فى ارتفاع جبل أسود كالقطران اللامع . فاذا ما اقترب قليلا بدا متقمطا متلفف الساقين بثياب العسكر تلمع فى صدرها وأكمامها أزرار صفراء ، يلف حول رأسه بعمامة فى عرض الغربال متلففة حول نفسها بشال أبيض لكنها مسودة بلون السحب ، يمسك في يده اليمنى كرباجا أسود مطويا ، طرفه حاد كذيل الثعبان ، ما كاد يمعن فى الاقتراب حتى ظهر خلفه شبح آخر ، ثم ثالث فرابع فخامس ..

حدثت رجة عنيفة . توقف الفلاحون عن ركوب حميرهم أمام دورهم . انفتحت الأبواب نصف فتحة . بزغت الأجساد فوق السطوح . دمدم فى الصدور صوت غاضب تناقلته الأنفاس المتثائبة فى رعب : الهجانة وصلت . صرخ تلاميذ كثيرون وارتدوا مذعورين وقد تبعثرت مخاليهم وتناثرت كراريسها وكتبها . عدت بظهرى الى مدخل حارتنا ، وقفت بداخله مستعدا للجرى والترقب . اذا بى أسمع صوت انشراخ الهواء ، يليه صوت طرقعة فازعة تلاه صوت صرخة ، تبعها جعير رجل .. ارتعدت مفاصلى ، رغم ذلك مددت رقبتى فى شارع داير الناحية ، رأيت « حفناوى » الفلاح العجوز يضع يديه على اليتيه ويهرول صارخا كالكلب نحو داره تاركا بقرته وحماره . ثم اذا بالكرابيج تندفع شارخة الهواء آخذة فى طريقها كل من يضعه سوء الحظ فيه . وما أدرى الا وطلقة رصاص تلحس رقبتى وجانبا من وجهى باللهب المارق ، اندفعت أصرخ وأتلوى من الألم ، انشال وانحط . خرجت كل النساء تصوتن وتلطمن الخدود فى مناحة صباحية تليق بوجه الشمس المريد الذى ما لبث أن اختفا تماما ، ثم ما لبثت الشوارع بدورها أن خلت تماما من المارة لدقائق طويلة ..

يومها أصر أبى أن أذهب الى المدرسة مهما كان الأمر ، وقد تورم موضع اللسع واحمر وصار كتلة من الألم • ارتدى أبى ثيابه وأمسكنى من يدى ومضى بى الى المدرسة ومضيت ابكى كلما شاهدنى أحد • عرضنى أبى على الناظر وعلى المدرسين قائلا كلمات كثيرة غامضة مدمدمة والرذاذ كان يتطاير من بين شفتيه وهم يهدئونه ويشيرون بأصابعهم نحو أفواههم اشارة أن يصمت عن هذا الكلام الخطير ويدع الأمور تمضى على خير ••

دخلنا الفصول ، فوجدنا أن ثلث التلاميذ لم يحضر • أخذ المدرسون يوصوننا أن نمشى جنب الحيط ، وليس لنا دعوة بأى شيء ، ومنخافش أبدا ، فلن يأكلنا أحد ، بل لن يأكل أحد أحدا ، وكلها يومين ويعدوا على خير ••

قرب موعد خروجنا من المدرسة كانت المظاهرة عظيمة ، امتلأت الوسعاية المحاذية للمدرسة بخلق كثيرين ترش عليهم الملح فلا ينزل الأرض ، رجال ونساء وشبان جاءوا يأخذون أولادهم • كان منظرهم مخيفا ، يتزايدون ركضا من الشوارع والحوارى ويتكاثف لغطهم ويرتفع فيزلزل علينا جدران المدرسة • أخذ اللغط يزداد ارتفاعا بشكل غير طبيعى ثم انقلب الى ضياح وجعير يتخلله أصوات نساء • اندفع المدرسون نحو الشبابيك ، اندفعنا كلنا فى أثرهم نشرئب برءوسنا لنرى من خلال حديد الشباك آباءنا وأمهاتنا وأشقاءنا واقعين تحت لهب السياط • ثم حدث الهياج الأكبر ، حيث اندفع الفراشون فأغلقوا أبواب المدرسة بالجنازير الحديد والأقفال ، وظهرت لنا الجمال تخترق الجموع والكرابيج تتهاوى فى الهواء راسمة أصواتا من الصراخ والفزع ونثيثا من الدماء الساخنة ، واذا هى الذبحة ••

شاهدنا النبابيت ترتفع فى الهواء راقصة رقصتها المجنونة ،

والخناجر والبلط والفئوس والكريكات تخترق أجساد الجمال وأفخاذ الهجانة ورؤوسهم • وشاهدنا من يتهاوى كالجدار المنهار ورهط من النساء يعاجلنه بضرب الشباشب وقوالب الطوب • شاهدنا الجمال تفزع وتبرطع فوق الأجساد المنكفئة • شاهدنا رصاص البنادق ينطلق من أسطح مجهولة محكما النيشان على رؤوس الهجانة • شاهدنا عمائمهم الكبيرة البيضاء تنفرط مبقعة بالدم الأحمر • شاهدنا خيولا تقبل بالعسكر السوارى ترمح بأقصى سرعتها فى الشارع رائحة غادية لتفض الجموع وتفرقها • شاهدنا ـ في الوسعاية المحاذية للمدرسة ـ أكواما أكواما من الجثث البشرية بعضها هامدا وبعضها يئن ويتوجع ، بينها جمال باركة وأخرى منطرحة • شاهدنا أوتومبيلات تقبل من بعيد ينزل منها أعداد كبيرة من الضباط والكنوستبلات ولابسى الطرابيش والأصفر فى أصفر • شاهدناهم ينحنون على الجثث واحدة فواحدة • يقلبونها وينصرفون ، أو يدخلون معها فى حوار ويكتبون • شاهدنا أكثر من عربة اسعاف تقبل مصلصلة بأجراسها لتتوقف وينزل منها لابسو الأصفر فى أصفر فيحملون على محفاتها جثثا هامدة وأخرى تتوجع • وشاهدنا العسكر السوارى يظهرون من جديد فى الساحة يجرون خلف جيادهم اعدادا هائلة من الرجال والشبان والنساء مربوطين فى بعضهم البعض بالحبال والعسكر ممسكون بمقودهم ، وكانت الخيول تجرهم فى منظر أضحكنا لبرهة ثم أفزعنا • وشاهدنا النهار وهو ينتهى دون أن يظهر للشمس أثر • وشاهدنا الجنازير وهى تنزاح عن أبواب المدرسة ويسمح لنا بالخروج فى نظام • ورغم صرخات المدرسين التى أمرتنا بالانصراف فورا ظللنا واقفين مدة طويلة يشلنا الخوف والترقب نستعيد كل ما حدث وشاهدناه من جديد ، فى نفس هذه الوسعاية المحاذية للمدرسة •

١٩ ـ يوم القيامة

أبدا لم تكن مجرد ساعات ينقضي على اثرها ليل يعقبه نهار . فرغم انصراف العسكر ومجيء أفواج أخرى من الأشـباح الفخارية تجوب شوارع البلدة بين لحظـة وأخرى ، يعقبهـا شيخ البلـد مصحوبا بالشيخ فرحات الأعمى المنادى ينادى على أهالى البلدة طالبا منهم الهدوء التام وانعدام الشغب والا فمن يشاغب الحكومة فهو الجانى على نفسه وقد أعذر من أنذر . ورغم أن كل الناس رجعوا الى دورهم وانغلقت عليهم الأبواب فانهم لم يستطيعوا حصر خسائرهم الا بعد وقت طويل كدهر امتد الى مساء اليوم التالى . الرجال فى بيوتهم كانوا فى حالة من الذهول وغياب الوعى والعصبية والجنون لم يروا معها شيئا مما حولهم ، الكل يهذى بكلمات مرتعبة . الكل ينادى على أولاده وذويه فيردون عليهم ومع ذلك يعاودون النداء من جديد . الرعب يولد رعبا والصراخ صراخا . تردد الشبابيك والأبواب المطلة على شارع داير الناحية طرقات رنانة حاسمة غليظة ، تارة بيد الكرباج الصلبة وأخرى بدبشك البندقية وثالثة ببوز القدم ، تعقبها صـيحة آمرة غريبـة اللهجة صفيقة جبارة : « بس ياولد انت وهو بطل هوشه .. دى آخر مرة والى مش ناوى يجيبها البر ذنبه على جنبه » .

لم ينم احد تلك الليلة ، حتى الذى هده التعب ونام لم ينـم فى حقيقة الامر ، بل ظل يواصل الهذيان والصراخ المفاجىء . فى الصباح بدا الذي نام اكثر ارهاقا وتعبا ومهانة ممن لم ينم . لكن الجميع وى مقترب الضحى خرجوا الى الشوارع كالغزلان الشاردة لا تدرى الى أين تذهب أو ماذا هى فاعلة . انما كانت الحوارى تدلق في الشوارع أفواجا من البشر يمشــون فى ذهول متنمر ، مترهلى الثياب شاردي النظـرات تفح العصبية من أجسادهم . كلما التقت جماعة فى الطريق بشبح فخــارى يحدو جمله فى كبرياء متعجرف مثير للضحك فانهم يتبعثرون فجاة كسرب من العصافير داهمته قذيفة غادرة . يطرقع الكرباج في الهواء المتاخم للوجــوه والمؤخرات طرقعات فنية يقصد بهــا بث الرعب ولو بنسـبة من الاصابات الفادحة . فاذا ما تهادى الجمل مزدهيا الى الأمام التأم شمل الجماعة فى الحال وصار ظهرهم فى مواجهــة ظهر الشبح ولكنهم سرعان ما يديرون الرؤوس دفعة واحدة يتابعون الشبح بنظرة غامضة مقهورة ، بعد برهة يسـتديرون غارقين فى ذهولهم من جديد ، قد تطول البرهة بأعناقهم الملتوية ناظرة الى الشبح الغارب فاذا بالكرباج يخرم جماعتهم فى لسعة واحدة ترتج لها الأرض من صراخهم وشتائمهم التى لا تفهمها الأشـباح الفخارية ، واذا بالشبح الآخر المقبل يدوس فوقهم أثناء مروره كان لم يفعل شيئا . ذلك أن الأشباح الفخارية لا تمشى فرادى ، انها فقط ، تخدعنا بانهم فرادى ، لكن الشبح لا يكاد يشرف على نهاية الحارة أو حوداية الشارع حتى يكون الاخر قد لحق به ليحمى ظهـره من أى عدوان متوقع . لهــذا لم يكن أحــد من أهــل البلدة يطمئن للمشى بمفرده لأبعد من أمتار قليلة ، بالكاد الى أن تلوح له جماعة تمشى فاذا هو يلتحم بها ترعشه رعدة لذيذة وخوف بهيج كانه مقبل على مغامرة خطيرة ولذا فانه بالتحامه بهم يستفز الجماعة ويحرضها على فعل شيء رهيب ..

من ساعة الى أخرى بدأ الرجال غير هيابين من الكرابيج ، بل صاروا يجدون لذة فى اختراق حصار الكرابيج .. ربما لأنهم كانوا قد بدأوا يفيقون من الذهول ، وأول علامات الفوقان هى أنهم ادركوا الى أين ينبغى أن يكون اتجاههم . وهكذا تجمعت القوافل الضالة أمام بوابة دوار العمدة الجديد القديم « محمد عبد المنعم أبو سيف » . وصولهم الى المكان الصحيح أوعز اليهم بالطلب الصريح : « أين رجالنا أبناؤنا أولادنا نساؤنا الذين اخذتموهم بالأمس وما مصيرهم وأين جثث من ماتوا منهم ؟ ..

وهكذا افترشت الجموع أرض شارع الخمارة بل حى الخمارة كله بجميع حواريه ومنعطفاته ، وبدأ الشارع العريض على امتداد لا يحده البصر مفروشا بالمتربعين والمتقرفصين والواقفين ، عائلات بأكملها كانت تبحث عن بعضها البعض وتتعرف على بعضها البعض مخترقة زحام الكتل مدهوسة فى الجلوس تطلق صياحا وجعيرا فاجعا . وكنت تلمح « أبو سماعين » بجسده الممصوص ورقبته المحنية يخترق الجموع فى دربة ليتوقف كل حين مسلما على مجموعة أو مهزرا معها رغم الغم أو ملقيا بنكتة او نصيحة أو حكمة أو عزاء . وكان من المستحيل على قوافل الجمال أن تقترب ، فمنظر الجموع كان مخيفا مخيفا مخيفا ، حتى لقد كانت الجمال تجىء مبرطعة لتدوس فى الأطراف البعيدة أطفالا ضالين أو رجالا عجزة لكنها سرعان ما ترتد خائفة مطلقة صياحا فيه نفس الفجيعة ثم تندفع الى الخلاء بركابها فى جنون شرس ، فينبت لها فى الخلاءات العريضة صبيان خبثاء لا أهل لهم يفعلون حركات تخيف الجمال أو يضعون فى طريقها معوقات ، أو يقذفون راكبيها بالطوب والنبال ويشردون جريا فى الحقول البعيدة لا يعرفها ولا يعرفهم أحد ..

العجيب الطريف معا أن اناسا فى وسط هذا الضجيج لم ينسوا موعد « العصر » ، فسرعان ما وقف رجال على امتداد الجموع

على مساحة طولها لا يقل عن عشرة افدنة ، فأذنوا لصلاة العصر ، فكانت التكبيرة تخرج من صوت أول الواقفين ليتلقفها صوت الرجل الواقف على مبعدة قليلة فيلقيها للذى يليه فالذى يليه ، فكانت التكبيرة الواحدة تظل تتردد عشرات المرات وفى الأفق البعيد مئات المرات حتى لكأن الكون كله يؤذن ويبتهل ، فكان منظرا فى غاية الامتاع ، ابتهج له كافة القوم ، ومن لم تكن فى جبينه علامة الصلاة قام وصلى ، بل أن معلمى « سعد الله » هو الآخر ، القبطى الذى اقتاده العكاز الى مكان فى قلب الجموع ، قام أيضا وصلى مع المصلين فلم يستنكف ذلك ناس كثيرون من ملته ، ومن لم ينضم منهم اليه نظر الى فعله باعجاب وتشجيع وأريحية ، وطفا على وجوههم فرح طفولى فابتسموا وهم يقولون له بعد انهاء الصلاة : حرما يا حاج سعد الله ، فرد عليهم بنفس البسمة الطفولية وبلهجة شيخ ورع : جمعا ان شاء الله ..

الى أن اقترب « أبو سماعين » من البقعة التى نتقرفص فيها أنا ومعلمى وأولاده ، كنت قد يئست من العثور على أحد من اخواتى أو أبى ، رأيت فقط بعض وجوه من الحوارى القريبة من حارتنا ، سألتهم وسألونى عن ذوى وعن ذويهم ، أجبت وأجابونى بكل صدق واهتمام ومؤاساة ، ولم أكن قادرا على اختراق الكتل فى كل هذه المساحة . وكانت جلستنا فى مواجهة دوار العمدة مباشرة ، لأننا حين تجمعنا فى الضحى امام دكان معلمى المغلق ومشينا سويا كان « أبو سماعين » معنا ، وهو الذى تميز عن الجميع بمشيته شديدة الهدوء وفروغ البال وعدم اعطاء أى اهتمام للاشباح الدخارية ، وهو الذى أوعز لمعلمى « سعد الله » أن يكون الاتجاه الى دوار العمدة لتسقط الأخبار ، وكانت جموع من الناس تألفه وتألفنا فتمشى وراءنا ، فلما توقفنا عند دوار العمدة توقفوا وكلما خرجت علينا جماعات من الحوارى الجانبية ورأونا واقفين

وقفوا معنــا يســتطلعون الأمر ، وهكذا تزايدت كثـافة الجموع واحلوت الوقفة وبدت كأنها حصــن الأمان الوحيد ، وبدا كأنهم يشعرون أن الانفضاض يعنى الاستفراد بهم يعنى هلاكهم فردا فردا ، كل الجماعات الصغيرة المقبلة ترى الجموع فتحس كأنها قد أنقذت ، قد وصلت الى شاطىء الأمان فتتوقف في الحــال منضغطة في بعضها ، ثم سرعان ما يبدو كأن الخطر شيئا صغيرا تافها وها هم يتكلمون بصوت عال ويقولون ما يشاءون بكل حرية دون أن يحتك بهم حكومي نجس · وكان « أبو سماعين » يظهر ويختفى من حين لآخر ، وكلما ظهر تزايدت الجموع وارتفع صوتها أكثر وقيل كلام أهم وطرأت جرأة جــديدة ··

صارت الأخبار والتعليقات تنتشر بين كتل الجمــوع فى سرعة البرق · جاءت من أول شارع الخمارة أخبار تقول أن العمدة محبوس فى الدوار من صبيحة ربنا وأنه تلفن للداخلية لتجىء بعسكرها تنقذه وأسرته · وجاءت من آخــر شارع الخمارة أخبــار تقول أن العقلاء الساهرين قد ســافروا الى وزير الداخلية نفســه يستنجدون به لانقاذنا من هذه المهانة ، فضلا عن برقيات يرسلونها فور وصولهم المدينــة صائحين فيهــا : مظلوم بالباب يا سيدى ينتظر الاذن بالدخــول · لم ينس « أبو ســماعين » وهو يقترب منا أن يحيينى ، وأن يلقى نكتة يشهر بها اسلام المعلم « سعد الله » ، الرجل الذى رعى خاطر الجموع فاتجه معهم الى الله ، ثم انسلت واختفى ··

انهيت أعجب صلاة وبدأت صلاة جديدة عبارة عن هتافات وترديدات تشبه التراتيل والأوراد يستنزلون بها اللعنة على الظالمين الغادرين · رأينا ــ نحن القريبين من الدوار ــ جوادين مقبلين من غربى شارع الخمارة من الطريق الزراعى الموصــل الى محطة القطار ، سرعان ما تبينا أنها « كارته » العمدة مقبلة من محطة

القطار التى تبعد عن بلدتنا مسافة ستة كيلو مترات وتسمى باسم البلدة اللصيقة بها ، ولابد أن « الكارته » أخذت تقترب الى أن حاذت الجموع ولم تجد طريقا تدخل منه الى الدوار ، فتوقفت برغمها ، ولم يكن ممكنا لمن فى « الكارتة » أن يمشى عـلى الأرض فضلا عن أن يدخل بيتا من بيوت السوايفة · تراجعت « الكارته » متقهقرة ، ثم عادت فتقــدمت منحرفة ، وتراجعت مرة أخرى ، ثم تقدمت منحرفة أكثر ، لتدخل فى حارة جانبية تعودت أن تقف فيها ، لكنها لم تستطع الدخــول اذ أن الحارة هى الأخرى ـ التى تشــبه حجرة مستطيلة لا ينقصها غير السقف ـ كانت هى الأخرى مليئة بنوع من الجالسين ، هو ذلك النوع الذى لابد أن ينشأ فى الحال لدى أى تجمــع على أرض مصر ، ناس تتزوى فى ركن كهذا لتشغل الوابور وتضع شايا تبيعه للجمــوع ··

توقفت « الكارته » تماما فى عرض الشارع ، ثم أزيح سقفها المطاطى ، وبرز العمدة « محمد عبد المنعم أبو سيف » واقفا وعلى يمينه رجل فتى من أهله وعلى يساره آخر كل منهما ممسك بعصا عوجاية منكفئة · تقدم أبو سيف خطوة واحدة بجسده القصير القمىء ووجهه المحروق فى لون وجه الخنزير ، فصار واقفا على سلم « الكارته » موجها للناس رافعا ذراعه علامة السلام صائحا بلهجته المعووجة من فرط الأنفة والغطرسة المتأصلة لكنها هذه المرة منداة بقليل من الود :

ـ يا أهل البلد ·· أهالى بلدتى الكرام ··

فصاح الرجل الفتى على أثره مرددا نفس الكلام صانعا من كفيــه ما يشبه النفير أمام فمــه :

ـ الرجل يقول لكم يا أهل بلدتى الكرام ··

فوقف الذين كانوا يتبادلون أذان العصر وصاروا يفعلون

مثلما حدث في الأذان ، اذ يتلقف كل منهم الجملة ويعيد ترديدها ليتلقاها الذى يليه فالذى يليه حتى يستمع هذا الجمع الغفير ··

صاح العمدة « أبو سيف » :

ـ يا أهل بلدتى الكرام ·· انتو متجمعين قدام بيتى ليه ؟ أنا مالى ؟

تلفت الجميع نحو بعضهم البعض وقالوا لبعضهم البعض كلاما كثيرا ساخرا ، ثم صاح فيه أكثر من واحد :

ـ لأنك العمدة ياحضرة العمدة ·· وانت اللى جبت الهجانة وعملت فينا ده كله فصاح وهو يبتسم فى سخرية مريرة :

ـ أنا لا عمدة ولا حاجة ·· مين قال لكم انى بقيت عمدة ؟

ثم ضحك فى مرارة وتهكم شديدين · حط الذهول على الجميع لبرهة طويلة ، قالت أصوات منهم بعدها : « ازاى الكلام ده بقى ؟ » · فصاح أبو سيف وجوقة الأصوات تردد خلفه :

ـ دى اشاعة ·· وأنا كمان مش عايز العمدية دى ·· لو عرضوها عليه حارفضها ·· متأسف · مش عايز أبقى عمدة ·· حد شريكى ؟ أنا حر ·· وعلى فكرة عشان نبقى واضحين ·· العمدية اتعرضت عليه بالفعل ·· بس أنا رفضتها ·· عمدية ايه وبتاع أيه ؟ أنا ماعدتش فايق للكلام ده بعد السن دى ·· وعلى سكرة برضه عشان نبقى واضحين كمان ·· أنا ضد اللى حاصل فى البلد ده ·· لأن اللى حصل حصلنى أنا وعيلتى ·· فيه ناس من ولاد خواتى مضروبين زيكم بالضبط ·· ولو كنت أنا العمدة صحيح ماكانش فيه حاجة من دى حصلت ·· آه وراس أبويا ·· فياولاد الناس ربنا يبارك لكم فى العمدة اللى تختاروه ·· أنا أول واحد بكون مبسوط لكم دانتو أهلى ·· وعلى العموم ربنا يجازى

اللى كان السبب ٠٠ استهدوا بالله بقى كده ووسعوا لى طريق أدخل بيتى دانا راجل كبير وصاحب مرض ٠

ثم استعد للهبوط ٠ وأسرع من البرق كانت التعليقات قد وردت من هنا وهناك تفيد بأنه قد قبل العمدية بالفعل ولكن لابد أنه قد أزيح عنها اليوم ٠ ثم راجعه أكثر من صوت :

ـ أمال مين اللى جاب لنا الهجانة وبهدلنا ؟

قال فى أسف :

ـ العمدية كانت فى ايدمين ؟ ٠٠

قالت الأصوات :

ـ فى ايد شيخ البلد ٠

قال باسطا كفيه :

ـ اذن أسالوا شيخ البلد ٠٠ اتجاهكم الحقيقى دلوقت شيخ البلد ٠٠ هو الوحيد اللى عارف كل حاجة عايزين تعرفوها ٠٠ ولازم تعرفوا ان حكاية الجوازة اللى مالية بلد دى ٠٠ ان مش راضى عنها ٠٠ لسة ما وافقتش ومش حاوافق ٠٠ هذا للعلم عشان تفهموا ٠٠ وأصارحكم ٠٠ لو سمعتوا بعد كده أنى بقيت عمدة ٠٠ أو كان لى دخل فى اللى حصل ٠٠ ابقوا تعالوا كسروا البيت ده ٠٠

وأشار الى بيته ٠ ولم يكد ينهى كلامه حتى كانت جموع الدهماء قد بدأت تخف عن شرقى شارع الخمارة ٠ وفى نفس الوقت كانت أخبار تزحف قادمة من ناحيتها تفيد بأن وفدا من أهل البلدة العقلاء رجع الآن من البندر ، وأنهم عرفوا أن الذين تم القبض عليهم كلهم كانوا من غير المشتركين فى المعركة بالفعل وانما كانوا مجرد متفرجين هلعين ، وأن الذين ماتوا من أهل البلدة لم

يكونوا هم الذين قاتلوا بل لم يكن لهم أبناء فى المدرسة وان سوء حظهم هو الذى أوقعهم فى ساحة القتال ..

كنا آخر المنصرفين من أمام بوابة « أبو سيف » ، فشاهدناه وهو يتنفس بعمق ويتسلل الى بيته مخفوراً برهط من شبان عائلته ، وقد لاحظنا انهم بالفعل قد حصلوا على نصيبهم من كرابيج الهجانة التى كانت آثارها لا تزال واضحة للعيان ، ولهذا كانوا مفرغين من أى عدوان تجاه أهل البلدة ، لم يحاولوا الاشتباك مع أحد ، بل كانوا يواسون الناس ويتوددون اليهم . ولاحظنا كذلك أن اتجاه الجموع كلها قد أخذ سمته نحو الجهة الشرقية لشارع الخمارة ، فأخذنا نفس السمت تلقائيا ، ومضينا نثرثر ونستعجب من هذه الفزورة الغامضة ، حتى وصلنا الى جهة حينا ، فاذا بالجموع متكاثفة وعواصف الدخان والضجيج والصراخ تملأ الجـو . كانت الجموع قد انهالت على دار شيخ البـلد أحمد أفنـدى الصـواف قذفا بالطوب والحجارة ينزعونها من جدران سور حديقته التى انتهكت تماما وانتزعت فروعها وثمارها . أقتحمت الجموع الدار . ديست السجاجيد بالأقدام الملوثة بالطين . تهشمت زجاج الشـبابيك والأوانى . بقرت بطون الأبقار والبهائم . اشتعلت النار فى سقف الزريبة وامتدت الى خشب الدار ثم اندلعت ألسنتها حتى أتت عليها والجميع يتباعدون ويتفرجون الى أن همدت وأحالت القصر الى كومة فحم ذى رائحة مقرفة . غير أن احد لم يعثر على أحد من ذرية شيخ البلد ، الذين تسربوا كلهم هاربين الى بلدة أصهارهم الداوايده ..

انصرف الجميع الى دورهم بعد ان اطفأوا آخر ذبالة يمكن أن تستأنف الاشتعال وهم نيام ، وقد همدوا جميعا هذه الليلة

واختفت أصواتهم · وكان « أبو سماعين » ينتقل من دار الى دار في السر ليبلغ أن النيابة جاءت وعاينت ، وأنها تحيرت في نسبة الفعل الى فاعل بعينه ولكنها في الغد سوف تقبض على مجمــوعة من الأبرياء ، وهذا ــ في نظره ــ ليس منه أى خوف ، انما الخوف المؤكد هو الخوف من عودة أصهار شيخ البلد للعراك مع البــلد ، هذا أمر يجب أن تستعد له البــلد ··

في صباح اليوم التالى خرج الجميع الى أعمالهم محاولين تجنب الاحتكاك بأى أحد ، وكلٌ واحدٌ يبدو كأنه في حاله وغلبان وليس له دعوة بأى شيء · مع ذلك كان القلق يعترى النساء في الدور ويصيبهن بالعصبية ·

٢٠ ـ البحث

كنا ذاهبين لنصطاد السمك بالسنانير من مصرف نمرة خمسة · وكان علينا أن نمر فى الطريق بدار شيخ البلد ودار الحاج مصطفى الحداد · كنا مجموعة زملاء تتكون منهم أول دفعة من أبناء البلد تحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة البلد بعد تحويل الالزامى الى ابتدائى لمدة ست سنوات · وكانت هذه الأحداث قد شغلتنا عن المذاكرة فكنا نستعيض عنها بالكلام فى المقررات ونحن جلوس للصيد ، وكنا نستعد لدخول الامتحان الذى سيعقد لنا بعد أسابيع قليلة فى احدى مدارس البندر ، وأرقام الجلوس كسرت الحواجز بيننا وبين أبناء العائلات الغنية الذين كانوا يسافرون للحصول على الابتدائية بمصاريف باهظة ، فاضطروا الى مصادقتنا والمشى معنا والنزول الى المذاكرة معنا فالمقررات باتت واحدة هنا أو فى المدينة باستثناءات طفيفة هى اللغة الأجنبية فقط ، الميزة الوحيدة التى كانوا يتيهون بها علينا خفية نلحظها فنشمئز من حظنا ، لكن حلما واحدا قد بات يجمعنا على أحاديث كثيرة شديدة الحلاوة والجاذبية ، ذلك هو الحلم بالتعليم العالى ، والانضمام الى الطلبة الذين نسمع عنهم بحق وحقيق ، أولئك الذين يتظاهرون ويعتصمون ويكافحون الاستعمار

والمتسلطين ،.وكان الحلم يستغرقنا فيرعش ابداننا عند الكلام كأننا بالفعل قد صرنا رجالا لهم كلمة فى البلاد وفى الأمور الخطيرة ، بل كثيرا ما كنا نندمج فى هتافات متنوعة دون أن ندرى بمنتهى الحماس فان افقنا ضحكنا حتى الثمالة ..

اثناء مرورنا على بيت شيخ البلد الصواف لم يقابلنا أى واحد من الهجانة ، فاندهشنا من همودهم المفاجىء .. كنا نتلكأ فى السير ، خطوة تشدنا للهرب مما قد يحدث وأخرى تكبلنا لرؤية ما قد يحدث . جاءت وقفتنا الطويلة تحت شباك دوار الحاج « مصطفى الحداد » ، وكان احد ثلاثة فى بلدتنا يملكون جهاز راديو مثل صندوق كبير ويسمونه الفيليبس ويعمل ببطارية ثقيلة يملأونها من ماكينة الطحين كل بضعة أيام . وكان ما أوقفنا فى هذه الأثناء تحت الشباك هو صوت الراديو الذى كان يذيع الموسيقى والأغنيات مجرد الاستماع اليه متعة فائقة . كان الراديو موضوعا فى أرضية الشباك من الداخل وصوته عاليا . وفجأة شد آذاننا صوت يلقى بيانا بلهجة حماسية فيها بعض التوتر والعصبية والتهدج ، يقول البيان أشياء شديدة الغرابة استمعنا اليها جيدا وبامعان فبدت كأنها الأساطير ، وبعد أن انتهى البيان كنا قد فهمنا وتأكدنا أن الدنيا قد إنقلبت فى القاهرة رأسا على عقب ، فقد تنازل الملك فاروق عن العرش لابنه احمد فؤاد ،وان جيش البلاد قام بثورة ، وان هذه الثورة مباركة ، لم ترق قطرة دم واحدة ، لسوف تلتزم بتحقيق ستة أحلام شاهقة يسمونها المبادىء الستة .. ثم اكتشفنا أن هذه الأخبار انبعث منذ أيام ولم نعرفها الا اللحظة لعدم وجود راديو بجوارنا .

بعد أن تجادلنا كثيرا تحت الشباك واستعرضنا مهارتنا فى اللغة العربية الفصحى وفى الوعى السياسى والرجولة المبكرة نظرنا الى بعضنا واكتشفنا فجأة أن هذه الحال التى نحن عليها لا تليق

يعظمة ذلك الذى حدث وسمعناه الآن ، انه لحدث جلل ، بل هذا هو الحدث الجلل الذى نقرأ تعبيره فى دروس البلاغة · ثم اذا بنا نلقى السنانير على طول دراعنا ، ثم نندفـع نحـو البلدة صـانعين من أنفسنا ـ وكنا حوالى سبعة شبان ـ ما يشبه الكتلة المتلاحمة ، وقد شملنا احساس واحد حلو المذاق خيل لنا أننا قد انتقلنا بالفعل الى مرحلة التعليم العالى ، الى داخل الحلم مباشرة ، الى المجتمع الطلابى بسيرته الخلابة وأخباره السـاحرة ، ومضـينا هاتفين والحماس يرجنا رجا من الانفعال : تحيا الثورة ·· تحيا الثورة ·· نحن فداء الثورة ·· نحن فداء الثورة · وما كدنا نجتاز شارع داير الناحية حتى كان منظرنا البهيج قد اجتذب مجـاميع كثيرة من الزملاء والأطفال والرجال بل والصبايا المتفرجات بانبهار أشعل حماسنا الى ذروة الأوار · وكان موكب الهتاف المتعاظم يلتقى من حين لآخر بجمل يحمل شبحا فخاريا فيتعمد مواجهته واكتساح الجمل من طريقه مما يضطر الشبح الفخارى الى سحب الجمل والانزواء بعيدا ··

لف الموكب شارع الناحية أكثر من عشر مرات · وأثنـاء عودتنا فى الليل لاحظنا أن الأشباح الفخارية قد اختفت تماما من شوارع البلدة ، وأكدت الأخبار انها قد رأتهم يخرجون من البلدة الى طريق السفر ··

وكان القمر في تمامه لحظة أن دخلت حارتنـا مرهقا من الأعياء مبحوح الصوت من الهتافات · دفعت باب مندرتنا برفق · كانت مضاءة بالمصباح البترولى المتدلى من السقف · وكان أبى يجلس على الكنبة العريضـة بثيـابه الداخـلية ، فالفـانلة أم كم والسروال أبو دكة والصديرى الذى تتدلى من ابطه سلسـلتان احداهما للساعة والأخرى للمحفظـة · وكان « أبو سـماعين » متقرفصا بجواره يصنع الشاى ، وفى مواجهتهمـا على الكنبـة

المقابلة ثلاثة من أصدقاء أبى عشاق الحديث فى السياسة هم « صباح أبو صباح » و « الحاج قطان » و « الحاج زيدان » الأفصى ، الذى ما رأيت له نظيرا قط فى فهم أمور السياسة والأدب وكل شىء كان طه حسين من عائلته · وكانوا جميعا مصهللين سعداء كأنهم ارتدوا الى طفولتهم من جديد · فلما رأونى داخلا وصوتى مبحوح قالوا جميعاً فى حسد : « أهلا برجل الغد » فجلست قائلا لهم : « مبروك » · فقالوا « مبروك ياعم عليك وعلى صحابك ·· جات لكم يا عم على الطبطاب انت واللى زيك ·· ياما انت كريم يا رب » ·

ليلتها ظللنا ساهرين والبلدة كلها ساهرة ، وخرجت أثناء الليل العميق اكثر من خمس مرات لشراء شاى وسكر ودخان فأجد الدكاكين فاتحة ومنتعشة وبها ناس يشربون الشاى ويتكلمون فى السياسة عن الملك الذى ذهب وعن العهد الذى بدأ والأيام التى هى دول والمستحيل الذى لم يعد له وجود ، وقد طرأ على جميع الناس فى خلال هذه الساعات القليلة منذ اعلان الخبر شىء جديد كل الجدة وخطير كل الخطورة هؤلاء الناس ليسوا هم قبل ذلك بساعات ، على وجوههم وفى أعطافهم وفى خطوهم ولباسهم وكلامهم وضحكهم وعبوسهم طعم جديد ، طعم الاحساس القوى بأنهم أخيرا قد استردوا بلدتهم ، وأنهم أهلها بالفعل وأصحاب الحق فيها ··

قبل أذان الفجر بقليل كان الضيوف كلهم قد انصرفوا ما عدا « أبو سماعين » الذى بقى يواصل التدخين وشرب الشاى مع أبى ، وفى تلك الليلة اتضح له أنه يبارىء أبى فى ثقافته ومعرفته ويتكلم معه فى التاريخ كلاما ساحرا ، يذكر أحداثا تاريخية درسناها فى المدارس باعتباره طرفا فيها ، ويتجرأ فيقول أن سعد زغلول باشا قال له ذات يوم كذا وكذا ·· وأن النحاس باشا وعده ذات يوم بكذا وكذا ·· ويذكر وقائع قام بها وكان معه فلان باشا

وفلان بك من أعيان التاريخ ·· ما أدار رأسي وكاد يسحقها من عظيم الدهشة أن أبي كان يؤمن على كلامه بل ويذكر شواهد نسيها أبو سماعين تؤكد صدق مزاعمه ·· ·· وكنت أجن في فهم هذه الشخصية الكبيسة المجيرة ··

لكن ومضات بارقة لمعت في ذهني ، رأيت على ضوئها شخصية «ابراهيم الخواص » الذى حكى لي معلمي قصته : فاحسست بأن بلادنا يمكن أن تكون محتوية على أعجب من هاتين الشخصيتين الفريدتين وقلت لنفسي أن الظروف التى تخلق شخصية كابراهيم الخواص هي نفسها يمكن أن تخلق شخصية كأبو سماعين ··

·· ما كاد أبي يتململ متثائبا حتى تناهى الى سمعنا صوت ملتاع قادم من خلف منزلنا · فزعنا · وسمعنا صوت هبوط أقدام على سلم دارنا الخشبي ذى الدرج المثبت بدرابزين داخل الدهليز كان صوت الهبوط مسموما متلاحقا · انفرج باب الدهليز المطل على المندرة وبرز وجه أمي قائلة في رهبة : « أبو فكرى ·· دا يظهر عمتي الكلافة ماتت » ·· انتفض « أبو سماعين » صائحا من الفزع كأن خيانة قد ارتكبت في حقه شخصيا ·· « ماتت » ·· وبرق في عينيه مالم أعرف ان كان خيبة أمل أو حزن أو سخرية ··· في حين اعتدل أبي في جلسته كأنه لا يقوى على الوقوف ·· قائلا : « ايش عرفك يامره ؟ » · فقالت أمي : « أنا بصيت لقيت الصوات جاى من دارها قريبت على السطوح سمعت عرفت ان هي اللى ماتت » · نهض أبي واقفا على الكنبة ·· سحب جلبابه الصوفى المعلق على مسمار في الحائط ·· فارتداه ، وسحب عصاه المعلقة هي الأخرى في مسمار ، ثم سحب الطربوش من عامود طرابيش مثبت كذلك في مسمار طويل ، فارتداه ، ومضى قائلا : « يلا بينا يا أبو سماعين ،

اطلع نام ياولد » · وكانت هذه أول مرة أرى أبى يصطحب « أبو سماعين » فى أمر من الأمور كرفيق ينادده ··

خرج كلاهما وصعدت أنا الى الطابق الثانى لكى أنام ؛ غير أننى بالطبع لم أنم ، ظللت بقية الليل ، على خلفية العويل والنواح والصوات ، أفكر فى عمتى الكلافة ، شخصيتها ماثلة أمام عينى ، بكل غموضها ، بشخصيتها المعقدة ، وطبعها الحاد ، ولسانها الزفر · أستعرض تاريخها ، يلتبس على الأمر فى أشياء كثيرة أظنها من عمتى الكلافة ويتضح لى بعد برهة أنها من تلك الشخصية التى حكاها لى معلمى سعد الله تلك التى كانت حماة ذلك المناضل الشعبى الشريد · إختلطت الشخصيتان ببعضهما فأيقنت أن عمتى الكلافة ليست متفردة وأن من رأى بلوة غيره هانت عليه بلواه فطلبت لها الرحمة وقرأت على روحها الفاتحة ثم غفوت قليلا غفوة عميقة ، رأيت خلالها « أبو سماعين » عريسا يجلس بجوار عروسه فى مندرتنا فوق منصة عالية وحولهما جمع من المحتفلين ، وثمة موسيقى عالية متداخلة ، وعمتى الكلافة هى التى تمسك بالدف وتدق عليه فى نقرة جنائزية مخيفة ، ثمة من يتطوحون كالمذبوحين من الألم ، الدموع تنثال على خدى العروس فتفسد زينتها ، أبو سماعين فى ثياب العرس غير ملق بالا الى أى شىء سوى الفرح ··

تيقظت على شعور بالكآبة يخنق صدرى · لبست ثيابى ونزلت · كانت مندرتنا قد اعدت لاستقبال المعزين · وكان الشارع ـ ابتداء من دارنا حتى دار الكلافة ـ قد امتلأ بالجالسين القرفصاء مستعدين لتشييع الجناز · ذهبت الى دار الكلافة فوجدت عمتى خديجة واولادها ، ووجدت أمى وكل نسوان المنطقة ، ووجدت أبى يجلس فى مندرة الكلافة ، و « أبو سماعين » يقوم بمهام التغسيل بنفسه واستحضار الكفن من أجود صنف والاشراف على تخييطه · وكان ابى يشرد وقد توفرت فى عينيه دموع ساهمة ، ولا ينى يردد

لنفسه بصوت عال : « ألا تموتين الا فى يوم كهذا ياكلافة ؟ تختارين يوما تلهى فيه الناس عن تشييع جنازك باستقبال مولود المستقبل ؟» · وأبو سماعين يقول ودموعه منحدرة وهو يتجاهلها ويتجاهل صوته الباكي مفتعلا لهجة المرح : « سيكون أربعينها حفلا حافلا ·· حينما يعلم أصحابها بالخبر فى كل البلاد ، سيكون أربعينها هو يوم جنازها الحقيقي » ·

ثم ذلك حين خرج نعش الكلافة بعد اداء الصلاة على الجثمان في المسجد المجاور وجد جمعا غفيرا فى انتظاره · انضم اليه عشرات وعشرات حتى دخلنا بها المقابر العالية التربة · وعند تغييبها فى التراب ارتفع الصراخ الباكى فجأة الى ذروة عالية ، كان حول المقبرة كل من « عاطف » و « مرشدى » أخوه ، وأختهما « نفيسة » وأختهما « نعيمة » ، الأربعة يودعون جدتهم التى كانت بالنسبة لهم أما وأبا وسجانا وجلادا على طول الزمان · وكانت فزعة البكاء قد حشرجت حلقي وفزعتنى فرحت أبتعد هاربا بأحزانى الغامضة العميقة أجلس على جذع شجرة عالية عتيقة مرتفع فوق ربوة المقابر ، أحاول الانشغال بالفرجة على جموع المشيعين وهم يرجعون الى البلدة جماعات وفرادى ·· حتى بدا أن المقابر قد فرغت تماما لم يعد بها أحد ، أحسست بقشعريرة انقبض لها قلبى فأيقنت أن أنفاس الموتي قد بدأت تتصعد فى أرضها بعد أن زايلتها أقدام الضيوف الثقلاء · رأيت على البعد كتلة من الغبار الكثيف تزحف منسلخة من ربوة المقابر ملتحقة بالطريق الممتد الى البلد · أخذت سحابة الغبار تخف وترق شيئا فشيئا ، لتكشف عن خمسة أشخاص يمشون فى كتلة واحدة متساندة متلائمة ، وأخذت كتلتهم تتباعد وتختفى شيئا فشيئا فى الأفق الظليل ·

تمـــت

المعـادى ـ ديسمبر ١٩٨٣

فهــرس

الأعمال الكاملة لخيرى شلبي

الموضــوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٦١٥ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3287 — X

هذا هو الجزء الأول من الأعمال الكاملة للروائى خيرى شلبى ، يضم معظم الروايات الخاصة بالقرية ، تلك التى ظهرت فيها القرية المصرية لأول مرة بصورة صادقة . فالكاتب فلاح ابن فلاح ، يفهم تفاصيل الحياة فى القرية بكل دقائقها ؛ وتحفل رواياته بزخم الحياة ورائحة الروث وعطر الزهور، مما دفع نجيب محفوظ إلى القول بأن خيرى شلبى صور القرية المصرية لأول مرة فى الأدب العربى بشكل مبهر وبديع . وهذه الروايات ليست عن القرية فحسب ، بل تعكس المدينة أيضا ، الإقليمية والعاصمة ، من وجهة نظر فلاح صافى الطوية سليم القلب بموروث حضارى عتيق عميق الجذور . وصراع هذا القروى مع هذه المدينة يعكس فنا فريدا متميزا يعطى هذا الكاتب الكبير مكانة فذة فى تاريخ الأدب العربى المعاصر . هذا ما أكده النقاد والمترجمون الذين نقلوا رواياته هذه إلى عديد من اللغات الحية ليس باعتبارها مصدرا لفهم الواقع المصري بل باعتبارها أعمالا أدبية ذات مستوى فنى خاص ، وامكانية كبيرة ، تكشف عن صوت مستقل له عالمه الخاص ، ومفرداته الفنية الخاصة .





١٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة